1

الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي

تقديم د. راغب السرجانى

السيرة النبوية
الخلفاء الراشدون
الدولة الأموية
الدولة العباسية
الدولة الفاطمية
الدولة الأيوبية
دولة المماليك
المسلمون فى الأندلس
الدولة العثمانية
الأقليات المسلمة



الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي

الجزء الأول

إعداد

فريق البحوث والدراسات الإسلامية (فدا)

إشراف ومراجعة

قاسم عبدالله إبراهيم

محمد عبد الله صالح

تقديم

الدكتور راغب السرجاني

الطبعة الأولى : يونيو ٢٠٠٥م
الطبعة الثانية : ديسمبر ٢٠٠٥م
الطبعة الثالثة : إبريل ٢٠٠٦ م
الطبعة الرابعة : أكتوبر ٢٠٠٦م
الطبعة الخامسة : يناير ٢٠٠٧ م
الطبعة السادسة : فبراير ٢٠٠٧م
الطبعة السابعة : إبريل ٢٠٠٧م

رقم الإيداع: ٢٠٠٥/٩٨٥١
الترقيم الدولي: I.S.B.N
977 - 6119 - 63 - 8

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٦٩٦٢٦٤٧

مؤسسة اقرأ

للنشر والتوزيع والترجمة
١٠ ش أحمد عمارة - بجوار حديقة الفسطاط
القاهرة ت.ف: ٥٣٢٦٦١٠ محمول: ٠١٠٢٣٢٧٣٠٢ - ٠١٠١١٧٥٤٤٧
www.iqraakotob.com
E-mail:info@iqraakotob.com

قالوا عن التاريخ

📖 التاريخ هو ذاكرة الأمة، والذاكرة للأمة كالذاكرة للفرد تمامًا، بها تعي الأمة ماضيها، وتفسر حاضرها، وتستشرف مستقبلها.

📖 فالإنسان الذي يفقد ذاكرته، يرتد - على ضخامة جسمه - طفلاً غرًا لا يعي شيئًا مما حوله، عاجزًا أن يتبصر في نفسه، أو يشعر بيومه، أو يتطلع إلى غده، وكذلك الأمة حين يضيع منها تاريخها ويشوش في عقول أبنائها، عندئذ يضيع منها الطريق، وتسلم مقودها لمن يوجهها.

📖 فالتاريخ ليس علم الماضي، بل هو علم الحاضر والمستقبل في واقع الأمر وحقيقته، فالأمة التي تستطيع البقاء هي التي لها ضمير تاريخي تعي به ماضيها وتفسر حاضرها وتستشرف مستقبلها.

د. عبد العظيم محمود الديب



📖 إن التاريخ يوسع أفق المسلم، ويطلعه على أحوال الأمم، وتاريخ الرجال، وتقلبات الأيام بها وبهم، فيرى الإنسان بعين بصيرته كيف تعمل سنة الله في المجتمعات بلا محاباة ولا جور؟ كيف ترقى الأمم وتهبط؟ وكيف تقوم الدول وتسقط؟ وكيف تنتصر الدعوات وتنهزم؟ وكيف تحيا الحضارات وتموت؟ وكيف ينجح القادة ويفشلون؟ وكيف تنام الشعوب وتصحو؟

📖 إن التاريخ كثيرًا ما يعين على فهم الواقع الماثل، ولا سيما إذا تماثلت الظروف وتشابهت الدوافع، وهذا ما جعل العرب قديمًا يقولون: ما أشبه الليلة بالبارحة! وجعل الغربيين يقولون: التاريخ يعيد نفسه!

د. يوسف القرضاوي



📖 إن التاريخ ليس مجرد أقاصيص تحكى، ولا هو مجرد تسجيل للوقائع والأحداث.. إنما يُدرس للعبرة ويدرس للتربية.. تربية الأجيال.. (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) [الأعراف:١٧٦] وكل أمة من أمم الأرض تعتبر درس التاريخ من دروس التربية للأمة، فتصوغه بحيث يؤدي مهمة تربوية في حياتها... ولا يعني ذلك تزوير التاريخ الإسلامي لإعطاء صورة وضاءة لإحداث أثر معين في نفس الدارس، ولا إلى إغفال عثرات المسلمين وانتكاساتهم، وإبراز الأمجاد والبطولات وحدها، فهذا ليس هو المطلوب.. وإنما المطلوب أن يكون الدرس التربوي الأكبر المستفاد من درس التاريخ: أن أحوال هذه الأمة في صعودها وهبوطها، ورفعتها وانتكاسها إنما تخضع لنواميس ربانية ثابتة لا تحابي أحدًا ولا تنحرف عن مسارها من أجل أحد..

محمد قطب

هــذه الموســوعة ســجل شــامل لأحــداث التــاريخ الإســلامي منــذ ميلاد النبي ﷺ حتى وقتنا الحاضر في يوليو ٢٠٠٥ م .

تقديم

إن الحمد لله... نحمده... ونستعينه... ونستغفره... ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلن تجد له وليًّا مرشدًا... وأشهد أنه لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. ثم أما بعد...

فإنه قد تبين لي بعد دراسة -أحسبها مستفيضة- واطِّلاع -لا بأس به- أنه لا جديد على الأرض!!... فالتاريخ يكرر نفسه بصورة عجيبة... ونفس الأحداث نراها من جديد رأي العين -فقط باختلاف يسير- يكاد لا يتعدى الأسماء والأمكنة. ولذلك فالمتعمق في التاريخ يقرأ ببساطة ما يحدث على وجه الأرض من أمور، ولا يُخدع بسهولة، مهما تفاقمت المؤامرات، ومهما تعددت وسائل المكر والمكيدة... فهو وكأنه فعلا يرى المستقبل!! إنه يعرف بوضوح أين يضع قدمه، ويعرف كذلك كيف يقود نفسه ومجتمعه وأمته... فهو كالشمس الساطعة، تنير الطريق لأجيال تتلوها أجيال، وقد يمتد أثره إلى يوم تقوم الساعة، كيف لا وقد ذكرنا من قبل أنه لا جديد على الأرض.

ويكفينا للدلالة على أهمية التاريخ أن نفقه الأمر الإلهي الحكيم: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦] فقَصُّ القصة، أو رواية الرواية، لا يغني شيئًا إن لم يتبع بتفكر... ودراسة التاريخ ليست دراسة تكميلية أو جانبية أو تطوعية، إنما هي ركن أساسي من أركان بناء الأمة القوية الصحيحة.

في دراستنا للتاريخ نعرض لأمور لا تستقيم حياة المسلمين بغيرها، فنحن نعرض لأمور من العقيدة، وأمور من الفقه، وأمور من الأخلاق، وأمور من المعاملات، وأمور من الأحكام، ونعرض كذلك لفقه الموازنات، وفقه الأولويات، وفقه الواقع... أو إن شئت فقل: نعرض لكل أمور الدين...

هكذا علمنا الله -عز وجل- في كتابه الحكيم؛ فهو يقص القصة، ويعرض فيها الحجة التي تقنع العقل، ثم يعرض فيها الرقيقة التي تلمس القلب، وقد يعرض فيها أمرًا عقائديًّا، وقد يعرض فيها حكما فقهيًّا، ثم هو يربط القديم بالحديث، والتاريخ بالواقع، والماضي بالحاضر، فتشعر أن التاريخ حيٌّ ينبض، ولسان ينطق... وتكاد تجزم أنه لا يحدثنا عن رجال ماتوا، ولا عن بلاد طواها التاريخ، إنما هو يحدثنا عن أحداثنا، وينبئنا بأنبائنا، ويخبرنا بأخبارنا.

والتاريخ -من هذا المنظور- ثروة مدفونة تحتاج إلى بذل مجهود، وتفريغ وقت، وحشد طاقات، تحتاج إلى عقول وقلوب وجوارح.

والتاريخ الإسلامي هو -ولا شك في ذلك- أنقى وأزهى وأعظم وأدق تاريخ عرفته البشرية، وسعدت الدنيا بتدوينه ... فالتاريخ الإسلامي هو تاريخ أمة شاهدة، وأمة خاتمة، وأمة صالحة، وأمة تقية نقية، وهو تاريخ أمة آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر، داعية إلى كل خير، محاربة لكل شر.

التاريخ الإسلامي هو تاريخ رجال ما عرف التاريخ أمثالهم أبدًا، فهم رجال فقهوا دينهم ودنياهم، فأداروا الدنيا بحكمة، وعيونهم على الآخرة... فتحققت المعادلة الصعبة العجيبة: عزٌّ في الدنيا، وعزٌّ في الآخرة... مجد في الدنيا، ومجد في الآخرة ... مُلك في الدنيا، ومُلك في الآخرة .

التاريخ الإسلامي هو تاريخ حضارة جمعت كل مجالات الحياة في منظومة رائعة راقية؛ جمعت الأخلاق والسياسة والاجتماع والاقتصاد والمعمار والقضاء والترفيه والقوة والإعداد والذكاء والتدبير ... جمعت كل ذلك جنبًا إلى جنب مع سلامة العقيدة، وصحة العبادة، وصِدق التوجُّه، ونُبل الغاية... وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾[المائدة: ٣]. هذا هو التاريخ الإسلامي في أصله وجوهره.

ولا يمنع ذلك أن هذا التاريخ العظيم يحوي أخطاء بعضها عظيم، ويشمل عيوبًا بعضها خطير، وإنه لمن العبث أن ندعي أنه بياض بلا سواد، ونقاء بلا شوائب، لكن من الظلم البيِّن أن نلصق أخطاء المسلمين بدين الإسلام... فالإسلام دين لا ثغرة فيه، ولا خطأ فيه، ولا عيب فيه... فهو دين محكم تام كامل، أنزله الذي يعلم السر وأخفى... سبحانه هو الحكيم الخبير... ومن خالف دين الإسلام مِن المسلمين فوباله على نفسه، وليس على الإسلام.

وكثيرًا ما يخالف الناس فتحدث هزات وسقطات، لكنها ما تلبث أن تتبع بقيام؛ وذلك إذا ثابوا إلى رشدهم، وعادوا إلى دينهم، وإلا استبدلهم القوي العزيز بغيرهم من المجاهدين الصابرين الطاهرين... ثم وقفةٌ وسؤال!!

هذه الثروة الثمينة، وهذا الكنز العظيم... ثروة التاريخ الإسلامي الطويل...

مَن مِن البشر في زماننا أمِنَّاه عليها؟! مَن مِن البشر أعطيناه مفاتيح الكنوز التاريخية؛ لينقب فيها ويستخرج جواهرها؟!

مَن مِن البشر أسلمناه آذاننا وعقولنا وأفئدتنا؛ ليلقي عليها ما استنبط من أحكام وما عقِله من أحداث؟!

وا عجبًا لأمتنا!! لقد أعطت ذلك لحفنةٍ من الأشرار... طائفة من المستشرقين الأجانب، وطائفة من المفتونين بهم من أبناء المسلمين!!

لقد تسلم هؤلاء كنز التاريخ؛ لينهبوا أجمل ما فيه، وليغيروا ويبدلوا ويزوروا!!.. حتى خرج التاريخ إلينا مسخًا مشوهًا عجيبًا... وقطعت بذلك حلقة المجد، وانفصل المسلمون في حاضرهم عن ماضيهم، كما تنفصل الروح عن الجسد تمامًا بتمام.

لقد انتبه الشباب فوجدوا بين أيديهم سجلاً حافلاً من الصراعات والمؤامرات والخيانات والسرقات... صفحات سوداء تتلوها صفحات أكثر سوادًا... واحتار الشباب في تاريخهم: أيُمسكونه على هونٍ... أم يدسونه في التراب؟!!

يا للجريمة البشعة!!

فويل ثم ويل لمن افترى على الله كذبًا؛ ليضل الناس بغير علم...

وويل ثم ويل لأبناء المسلمين الذين فتنوا بمناهج العلمانية، فصاغوا التاريخ صياغة مشوهة مزورة محرَّفة، فحرموا المسلمين من أمثلة عملية تطبيقية رائعة لكل أمر من أمور الدين. وويل ثم ويل لمن يقدر على التصحيح فلم يفعل، ولمن يقدر على التوضيح والتبيين فلم يفعل... ولمن يقدر على النصح والإرشاد فلم يفعل.

يقول جابر بن عبد الله ﷺ: «إذا لعن آخر هذه الأمة أولها، فمن كان عنده علم فليظهره، فإن كاتم العلم يومئذٍ ككاتم ما أُنزل على محمد ﷺ».

وبين أيدينا هذه المحاولة الطيبة المباركة التي تسعى لتبسيط التاريخ الإسلامي وشرحه من وجهة نظر إسلامية، تساعد المسلمين على الفقه الصحيح لقواعد الدين ولأصوله، وقد كان الحرص في هذا الكتاب على جمع أكثر الأحداث دون الدخول في تفصيلاتها -على روعة هذه التفصيلات- وإنما كان الغرض من ذلك هو: الشرح العام، والتوضيح المبسط لخريطة التاريخ الإسلامي الواسعة، ومن أراد الاستزادة من أخبار بعض الدول أو الأعلام فليرجع إلى المراجع العظيمة التي تناولت معظم فترات التاريخ الإسلامي بالشرح والتفصيل...

والله أسأل أن يتقبل من الفريق الذي قام على هذا العمل، وأن يتقبل مني، ومن كل من ساهم في نشر هذه المادة، كما أسأله -سبحانه- أن ييسر لنا جميعًا الفقه لتاريخنا وواقعنا، وأن يستعملنا لخدمة شرعه، ورفعة دينه... إنه ولي ذلك والقادر عليه...

فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

د/ راغب السرجاني

الباب الأول

موجز السيرة النبوية

موجز السيرة النبوية

أولاً: من الميلاد إلى البعثة

نسبُ النبي ﷺ:

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَيّ بن كِلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فِهر بن مالك بن النضر بن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن مَعدّ بن عدنان (وعدنان من صريح ولد إسماعيل عليه السلام) وهذا هو المتفق عليه بين كُتاب السير وعالمي الأنساب، وما فوق ذلك فيه خلاف كبير نتوقف عن ذكره.

ولادة النبي ﷺ:

ولد النبي ﷺ يوم الاثنين، الثاني عشر من شهر ربيع الأول عام الفيل، وهو العام الذي حاول فيه أبرهة الأشرم غزو مكة وهدم الكعبة المشرفة فرده الله -عز وجل- وأهلك جيشه وجعله آية للناس، كما بينت ذلك آيات القرآن الكريم في سورة الفيل. وقد رجَّح البعض أن ولادة النبي ﷺ وافقت شهر أبريل من عام ٥٧١ من الميلاد.

وقد ولد ﷺ في دار أبي طالب بشِعب بني هاشم. وولد يتيمًا؛ فقد مات أبوه عبد الله وأمه آمنة بنت وهب حامل به لشهرين فحسب، فاعتنى به جده عبد المطلب واسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر يقال لها: حليمة بنت أبي ذؤيب عبد الله بن الحارث.

حادثة شق الصدر:

وقد وقعت هذه الحادثة أثناء وجوده ﷺ في بادية بني سعد، وبعدها خافت

عليه حليمة السعدية، فردته إلى أمه وهو ابن خمس سنين.

وفاة آمنة وكفالة جده له:

وظل النبي ﷺ في رعاية أمه سنة كاملة حتى وافتها المنية أثناء زيارتها لقبر زوجها عبد الله في يثرب، وفي أثناء رجوعها ماتت بالأبواء بين مكة والحديبية، وكان معها في هذه الرحلة ولدها محمد ﷺ وخادمتها أم أيمن وعبد المطلب جد النبي الذي ضم رسول الله ﷺ إليه بعد وفاة أمه.

وفاة عبد المطلب وكفالة عمه أبي طالب له:

وظل النبي ﷺ في رعاية جده عبد المطلب قرابة العامين، الذي توفي ومحمد ﷺ عمره ثماني سنوات، وعهد جده بكفالة حفيده محمد إلى عم النبي أبي طالب.

رعاية أبي طالب لابن أخيه محمد ﷺ :

قام أبو طالب برعاية ابن أخيه محمد ﷺ خير قيام، وكان يفضله على سائر أولاده، ويقدمه عليهم، وظل قرابة اثنتين وأربعين سنة يعز جانبه ويبسط عليه حمايته، ويصادق ويخاصم من أجله، حتى مات بعد عشر سنوات من البعثة كما سيأتي.

أهم أحداث هذه الفترة وحتى بعثته ﷺ :

أ- **عمل النبي ﷺ بالرعي** : وذلك في أول شبابه مساعدة لعمه أبي طالب.

ب- **لقاء الراهب بحيرا بالرسول ﷺ وهو غلام** : ولما بلغ النبي اثنتي عشرة سنة خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام تاجرًا، حتى وصل إلى مدينة بُصرى وهناك عرفه راهب يسمى بحيرا، الذي طلب من أبي طالب أن يرد ابن أخيه إلى مكة وألا يقدم به الشام مرة أخرى؛ خوفًا عليه من الروم واليهود أن يقتلوه.

ج- **حرب الفجَار** : وقد كانت بين قريش ومن معها من كنانة، وبين هوازن

وقد شهد النبي ﷺ هذه الحرب وعمره ١٤ عامًا أو ١٥ عامًا، وكان ينبل على أعمامه؛ أي يجهز لهم النبل للرمي. وسميت بحرب الفجار بسبب ما استحل فيها من حرمات مكة ولانتهاك حرمة الشهر الحرام فيها.

د- **حِلف الفضول**: وكان ذلك بعد رجوع قريش من حرب الفجار؛ حيث اجتمعت بنو هاشم وزهرة وبنو تيم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان وتحالفوا وتعاقدوا؛ ليكونوا يدًا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يُرد إليه حقه، وسمت قريش هذا الحلف بحلف الفضول وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر، وقد شهد النبي ﷺ هذا الحلف الذي يعتبر من مفاخر العرب قبل الإسلام وقال فيه ﷺ: «**لقد شهدتُ في دارِ عبدِ الله بن جُدعان حِلفًا ما أحبُّ أن لي به حُمرَ النعم، ولو دُعيتُ به في الإسلام لأجبتُ**».

*** تجارة النبي ﷺ بمال خديجة وزواجه منها:**

قلنا إن النبي ﷺ انتقل إلى عمل التجارة حين شب، وورد أنه كان يتجر مع السائب بن أبي السائب المخزومي، ولما بلغ النبي ﷺ خمسًا وعشرين سنة خرج تاجرًا إلى الشام بمال خديجة بنت خويلد، ذات الشرف والمال في قريش، وخرج معه غلام لخديجة يسمى «ميسرة».

ولما عاد النبي ﷺ من رحلته ورأت وسمعت خديجة عن أمانة النبي وبركته ما لم تر أو تسمع من قبل، فتمنت الزواج منه، وحدَّثت صديقتها «نفيسة بنت منبه» التي فاتحت النبي ﷺ، فرضي بذلك، وتم الزواج وعمره ﷺ خمس وعشرون سنة، بينما عمر خديجة إذ ذاك أربعين سنة، وكان قد سبق لها الزواج مرتين من قبل، وعاشت مع النبي ﷺ خمسة وعشرين عامًا، كانت نعم الزوجة لزوجها، ونعم الأم لأولادها، ولم يتزوج النبي ﷺ امرأة غيرها حتى ماتت -رضي الله عنها- بعد أن رُزق منها ﷺ

بأولاده كلهم سوى إبراهيم فإنه من «مارية القبطية».

و- بناء الكعبة والتحكيم بين القبائل:

وحين بلغ النبي ﷺ من العمر خمسًا وثلاثين سنة رأت قريش أن تعيد بناء الكعبة بعدما أصابها من تصدع شديد، فهدموها ثم جزؤوا الكعبة، وجعلوا لكل قبيلة جزءًا منها وأخذوا يبنونها، ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختصموا فيه: أيهم يحوز شرف وضعه في مكانه، وكادوا يقتتلون حتى عرض عليهم أبو أمية بن المغيرة المخزومي أن يُحكّموا فيهم أول داخل عليهم من باب المسجد، وشاء الله أن يكون هذا الداخل هو رسول الله ﷺ، فلما رأوه هتفوا: هذا الأمين رضيناه، فوضع رسول الله ﷺ الحجر وسط رداءٍ، وطلب من رؤساء القبائل أن يمسكوا جميعًا بأطراف الرداء، وأن يرفعوه، حتى إذا وصلوا إلى موضعه أخذه بيده فوضعه في مكانه.

ثانيًا: من البعثة إلى الهجرة

نزول الوحي:

لما اكتمل للنبي ﷺ أربعون سنة، وفي أثناء تعبده بغار حراء -كما تعود على ذلك في آخر ثلاث سنوات- وفي شهر رمضان شاءت إرادة الله -عز وجل- ومشيئته أن يفيض من رحمته على أهل الأرض، وأن تتصل الأرض بالسماء، فأرسل أمين السماء جبريل بالوحي على أمين الأرض محمد ﷺ، فكانت النبوة والرسالة والقرآن والدعوة والجهاد الذي لا ينقطع من أجل إيصال هذا النور إلى قلوب الناس أجمعين.

بداية الدعوة وإسلام السابقين:

بدأ النبي ﷺ يدعو إلى الله وإلى الإسلام من يتوسم فيه خيرًا ممن يعرفهم

ويعرفونه، وكان في مقدمة هؤلاء السابقين.

١- خديجة بنت خويلد زوج النبي ﷺ.

٢- على بن أبي طالب ابن عم النبي ﷺ.

٣- زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ.

٤- أبو بكر الصديق صاحب رسول الله ﷺ وصديقه الحميم والتاجر الصدوق، والنسَّابة المعروف الذي نشط في الدعوة، وأسلم على يديه وبدعوته: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله.

٥- وأسلم غيرهم من بطون قريش -رجال ونساء- وعدد من الموالي والأرقاء وبعض النساء.

وظل رسول الله يدعو إلى ربه سرًّا حوالي ثلاث سنوات حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] فبدأ بالدعوة بين أهله وعشيرته، ثم نزل قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] فقام رسول الله ﷺ بالجهر بالدعوة إلى الإسلام في كل مكان بمكة؛ لتبدأ مرحلة جديدة من الدعوة هي مرحلة الإيذاء والسخرية والاستهزاء من قِبَل المشركين لمن أسلم ولرسول الله ﷺ أيضًا.

مرحلة الاضطهاد:

وقد بدأت هذه المرحلة في بداية السنة الرابعة، حين صبت قريش جام غضبها وسخطها على المسلمين عامة، والمستضعفين منهم خاصة، فأخذ كل رئيس يعذب من دان من قبيلته بالإسلام، وانقضَّ كل سيدٍ على من اختار من عبيده طريق الإيمان، وأنزلوا بالمسلمين من العذاب ما تقشعرُّ منه الجلود وتنفطر

حين سماعها القلوب.

- فهذا رسول الله ﷺ يتعرض للأذى والسخرية من أبي لهب وأبي جهل وعقبة بن أبي مُعيط وأمية بن خلف، وغيرهم من صناديد الكفر والشرك.
- وهذا أبو بكر الصديق يتعرض للضرب الشديد على وجهه، ولم يتركه المشركون إلا حين ظنوا أنه مات.
- وكان عم عثمان بن عفان يلفُّه في حصير من ورق النخيل، ثم يدخنه من تحته.
- وهذا مصعب بن عمير لما علمت أمه بإسلامه منعته الطعام والشراب وحبسته، وظل كذلك حتى خرج مهاجرًا إلى الحبشة.
- وهذا سعد بن أبي وقاص تعرض للفتنة من قِبل أمه المشركة، التي امتنعت عن الطعام والشراب حتى يعود إلى الكفر والشرك؟؟.

هذه نماذج لِما أصاب بعضَ المسلمين من أشراف قريش ووجهائها، فكيف يكون حال الموالي والأرقاء والذين لا منعة لهم؟!

- عُذب بلال بن رباح على يد سيده أمية بن خلف الجمحي.
- وعُذب عمار بن ياسر وأبوه وأمه سمية؛ فأما أبوه فمات من التعذيب واستشهدت أمه سمية على يد أبي جهل، ولم يتركوا عمارًا بعد تعذيبه إلى بعد أن وافقهم -مُكرَهًا- على ما أرادوا.
- وعُذب صهيب بن سنان الرومي حتى كان يفقد وعيه ولا يدري ما يقول.
- وعُذب خباب بن الأرت -وكان مولى لأم أنمار- وكان حدَّادًا، فكانت تعذبه بالنار، وتأتي بالحديدة المحماة فتجعلها على رأسه أو ظهره.

- وعذب عامر بن فهيرة وأبو فكيهة، وعذبت كذلك زنيرة الرومية والنهدية وابنتها، وغيرهن من الجواري والإماء.

ولم يعرف ولم يذكر التاريخ أن أحدًا ممن عُذب هذا التعذيب الشديد ارتد عن دينه وتراجع عما يؤمن به، بل ما زادهم هذا إلا تمسكًا وتعلقًا بهذا الدين العظيم، الذي جاء لينقذهم من الشقاء في الدنيا، ومن النار في الآخرة.

الهجرة الأولى إلى الحبشة:

قلنا إن الاضطهادات بدأت في السنة الرابعة من البعثة، وظلت كذلك تشتد حتى بلغت أشدها في أواسط السنة الخامسة من البعثة، ولما رأى النبي ﷺ ما يصيبُ أصحابه من البلاء قال لهم: «**لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحدٌ، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه**» فخرج المسلمون من أصحاب النبي ﷺ إلى الحبشة في شهر رجب من السنة الخامسة في فوج مكون من اثني عشر رجلا وأربع نساء... رئيسهم عثمان بن عفان، ومعه زوجته رقية بنت النبي ﷺ.

عودة المهاجرين إلى مكة:

بلغ المسلمين المهاجرين في الحبشة أن قريشًا قد أسلمت ولم يكن كذلك، فرجعوا إلى مكة في شوال من نفس السنة، حتى إذا دنوا منها وعرفوا حقيقة الأمر رجع منهم من رجع إلى الحبشة ولم يدخل أحد منهم مكة إلا مستخفيًا أو في جِوار أحد من قريش.

الهجرة الثانية إلى الحبشة:

لما قدم أصحاب النبي ﷺ مكة من الهجرة الأولى اشتد عليهم قومهم، وسطت بهم عشائرهم، ولقوا منهم أذًى شديدًا، فأذن لهم رسول الله ﷺ في

الخروج إلى الحبشة ثانية، فكانت خرجتهم الثانية أعظمها مشقة، وبلغ عدد المهاجرين في هذه المرة ثلاثة وثمانين رجلاً وثماني عشرة امرأة.

سعي المشركين لردِّ المهاجرين:

وحاولت قريش -جاهدة- في رد المهاجرين، فأرسلت اثنين من رجالها هما: عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، اللذان حاولا بذل الجهد والمكر والخديعة؛ لإقناع النجاشي برد هؤلاء المفارقين لدين أجدادهم، المتبعين لدين جديد، ودار حوار بين النجاشي وممثل المسلمين في الحبشة: جعفر بن أبي طالب، الذي دحض مزاعم الوفد القرشي، وأقنع النجاشي بعدالة قضيتهم، وبدلاً من أن يردهم النجاشي إلى مكة أسلم هو -رضي الله عنه- سرًّا، وظل حاميًا ومدافعًا عن المسلمين حتى عادوا إلى المدينة عام ٧ هـ أثناء غزوة خيبر.

إسلام حمزة ثم عمر بن الخطاب:

وفي أواخر السنة السادسة من البعثة شاء الله -عز وجل- أن يقوي شوكة المسلمين ويثبتهم، ويغيظ الكفار والمشركين، وفي خلال ثلاثة أيام أسلم حمزة بن عبد المطلب عمُّ النبي ﷺ وأعزُّ فتى في قريش وأشدُّها شكيمة، ثم أسلم بعد حمزة بثلاثة أيام عمر بن الخطاب صاحب الشكيمة، الذي لا يرام، والذي أثار إسلامه ضجة بين المشركين وشعورًا بالذلة والهوان، في نفس الوقت عزَّ المسلمون وسرُّوا... كان ابن مسعود يقول: «ما كنا نقدر أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر»، وعن صهيب بن سنان قال: «لما أسلم عمر ظهر الإسلام ودُعي إليه علانية، وجلسنا حول البيت حِلَقًا، وطفنا بالبيت ، وانتصفنا ممن غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتي به».

وعن عبد الله بن مسعود قال: مازلنا أعزة منذ أسلم عمر.

فائدة: سبب تسمية عمر «الفاروق»:

روى مجاهد عن ابن عباس قال: سألت عمر بن الخطاب: لأي شيء سميت الفاروق؟ قال: أسلم حمزة قبلي بثلاثة أيام، ثم قص عليه قصة إسلامه، وقال في آخرها: قلت -أي حين أسلمت-: يا رسول الله، ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال: «بلى، والذي نفسي بيده إنكم على الحق؟! وإن متم وإن حييتم: قال: قلت: ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لنخرجن، فأخرجناه في صفين؛ حمزة في أحدهما، وأنا في الآخر، له كديد ككديد الطحين، حتى دخلنا المسجد، قال: فنظرت إلى قريش وإلى حمزة، فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها، فسماني رسول الله ﷺ «الفاروق» يومئذ.

أساليب الترغيب والمساومة:

بعد إسلام حمزة وعمر قررت قريش أن تجرب أساليب أخرى غير أساليب العنف والاضطهاد، فلجأت إلى مساومة النبي ﷺ؛ ليكف عن دعوته، وعرضوا عليه الملك والرياسة والزعامة، فلما فشلوا حاولوا مع أبي طالب ليرفع الحماية عن ابن أخيه، فلما رفض وفشل هذا الأسلوب أيضا قرروا اللجوء إلى أسلوب جديد لم يعتاده العرب ولم تفعله أمة قبلهم -وإن فعله بعدهم كثير- وهو أسلوب الحصار والمقاطعة.

المقاطعة والحصار:

قررت قريش أن تفرض حصارًا عامًّا وشاملاً على بني هاشم وبني المطلب ممن يقفون مع النبي ﷺ ويدافعون عنه، سواء كانوا مسلمين أو لم يسلموا فقررت:

- ألا تبيع لهم أو تشتري منهم.

- ألا تزوجهم أو تتزوج منهم.
- ألا يزاوروهم أو يجالسوهم أو يدخلوا بيوتهم أو يكلموهم أو يخالطوهم.
- ألا يقبلوا لهم صلحًا، ولا تأخذهم بهم رأفة؛ عقابًا لهم على وقوفهم بجانب النبي ﷺ ومساندتهم إياه ودفاعهم عنه، وكتبوا بذلك وثيقة في صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة؛ توكيدًا على أنفسهم.

واستمر هذا الحصار وهذه المقاطعة ثلاث سنوات كاملات، من شهر المحرم في السنة السابعة إلى شهر المحرم من السنة العاشرة.

ولقد عانى بنو هاشم وبنو المطلب أشد المعاناة حتى تحركت النخوة والشهامة في نفوس بعض رجالات قريش، من أمثال زهير بن أبي أمية، والمطعم ابن عدي، وأبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود، فسعوا في نقض المقاطعة وإنهائها، وكان لهم ما أرادوا فخرج النبي ﷺ وأصحابه من الشِّعب الذي كانوا محاصرين فيه؛ ليواصلوا جميعًا رحلتهم إلى الله، وجهادهم في سبيل دينه، ودعوة الآخرين إلى الإيمان والإسلام.

عام الحزن ووفاة أبي طالب وخديجة:

ما أن استبشر المسلمون خيرًا بانتهاء هذا الحصار وهذه المقاطعة، حتى وقع حدثان جليلان في عام واحد، فبعد ستة أشهر من انتهاء الحصار؛ مات أبو طالب عم النبي ﷺ والمدافع عنه، والباسط عليه الحماية، وذلك في شهر رجب من العام العاشر للبعثة، وبعده بخمسين يومًا وفي شهر رمضان توفيت زوج النبي ﷺ السيدة خديجة -رضي الله عنها- ليشتد حزن النبي على فقدهما معا.

الأول يمثل السند الخارجي، والثانية تمثل السند الداخلي؛ لذا سمي هذا العام بعام الحزن، لكن ذلك لم يمنع النبي ﷺ من مواصلة دعوته واثقًا بنصر الله عز وجل.

زواج النبي بسودة بنت زمعة، وعقده على عائشة:

بعد شهر من وفاة السيدة خديجة -رضي الله عنها- تزوج النبي ﷺ سودة بنت زمعة التي كانت زوجة للسكران بن عمرو، الذي كان قد أسلم وهاجر إلى الحبشة فمات هناك، أو بعد رجوعه إلى مكة، فلما حلَّت خَطبها النبي ﷺ، وتزوجها في شهر شوال من العام العاشر للبعثة، وكذلك عقد النبي ﷺ على السيدة عائشة بنت صديقه أبي بكر الصديق في نفس الشهر، ولم يبنِ بها حتى هاجر إلى المدينة فبنى بها هناك.

خروج النبي ﷺ إلى الطائف:

في العام العاشر للبعثة وفي شهر شوال خرج النبي ﷺ يبحث عن أرض جديدة يدعو فيها إلى الله وإلى الإسلام، أرض تكون مركزًا للدعوة، وناصرة للإسلام، فخرج ومعه مولاه زيد بن حارثة إلى الطائف، التي تبعد عن مكة نحو ٦٠ ميلاً سارها ماشيًا على قدميه في الذهاب والعودة، وكان كلما مر على قبيلة في الطريق دعاهم إلى الإسلام فلم تجب واحدة من القبائل لما أراد رسول الله ﷺ.

ومكث النبي ﷺ في الطائف عشرة أيام يدعوهم إلى الله، فما استجاب له أحد، وقالوا له: اخرج من بلادنا. وأغروا به سفهاءهم، فلما أراد الخروج تبعه السفهاء والصبيان والعبيد يسبُّونه ويصيحون عليه، وجعلوا -أيضًا- يرمونه بالحجارة حتى اختضبت نعلاه بالدماء، ولم يزل به السفهاء حتى ألجأوه إلى حائط «بستان» لعتبة وشيبة ابني ربيعة على ثلاثة أميال من الطائف، فلما التجأ إليه رجعوا عنه، فعمد النبي ﷺ إلى ظل شجرة من عنب، فجلس فيه هو وزيد ابن حارثة، ريثما يستريحا مما أصابهما.

وفي هذه الغمرة من الأسى والحزن والآلام النفسية والجسمانية، توجه

الرسول ﷺ إلى ربه بهذا الدعاء الذي يفيض إيمانًا ويقينًا ورضًا بما ناله في الله واسترضاء لربه -عز وجل- فكانت هذه الكلمات النبوية.

«اللهم إليك أشكو ضَعْف قُوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلُني؟ إلى بعيد يَتَجَهَّمُني؟! أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل على سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

ومن فوق سبع سماوات جاء المدد الإلهي إلى النبي ﷺ، فأرسل الله -عز وجل- جبريل ومعه ملك الجبال يقول: «يا رسول الله إن شئت أن أُطبق عليهم الأخشبين»، أي: لفعلت.

فكان الرد النبوي الذي تتجلى فيه شخصية النبي ﷺ الفذة، وما كان عليه من الخلق العظيم والرحمة والشفقة، بل والأمل في إسلام هؤلاء في يوم قريب أو حتى بعيد، فقال ﷺ: «بل أرجو أن يُخرج الله -عز وجل- من أصلابهم من يعبد الله -عز وجل- وحده ولا يشرك به شيئًا».

وعاد النبي ﷺ إلى مكة بعد أن دخل في جِوار المطعم بن عدي، عاد يستكمل رحلته إلى الله، وإلى دينه، وهو أشد عزمًا على المضي في طريقه غير مبال بما يلاقي في سبيل الله -عز وجل- ولا يثنيه ذلك عن بلوغ هدفه.

رحلة الإسراء:

في هذا الجو المليء بالأحزان بعد وفاة أبي طالب وخديجة، وما لاقاه النبي ﷺ في رحلة الطائف من مشقة وعنت أراد الله -عز وجل- أن يُسرِّي عن نبيه وحبيبه ﷺ، وأن يريه من الآيات ما يزيده اطمئنانًا وثقة في ربه عز وجل.

يقول الأستاذ الندوي: لم يكن الإسراء مجرد حادث فردي بسيط رأى فيه رسول الله ﷺ الآيات الكبرى، وتجلى له ملكوت السماوات والأرض، مشاهدة وعيانًا -بل زيادة إلى ذلك- اشتملت هذه الرحلة النبوية الغيبية على معان دقيقة كثيرة وشارات حكيمة بعيدة المدى: فقد ضمت قصة الإسراء وأعلنت السورتان الكريمتان اللتان نزلتا في شأنه «الإسراء» و «النجم» أن محمدًا ﷺ هو نبي القبلتين وإمام المشرقين والمغربين، ووارث الأنبياء قبله، وإمام الأجيال بعده، فقد التقت في شخصه وفي إسرائه مكة بالقدس، والبيت الحرام بالمسجد الأقصى، وصلى بالأنبياء خلفه، فكان هذا إيذانًا بعموم رسالته، وخلود إمامته، وإنسانية تعاليمه، وصلاحيتها لاختلاف المكان والزمان، وأفادت هذه السورة الكريمة تعيين شخصية النبي ﷺ، ووصف إمامتة وقيادته، وتحديد مكانة الأمة التي بعث فيها وآمنت به، وبيان رسالته ودورها الذي شملته في العالم ومن بين شعوب الأمم».

كانت الإسراء من مكة إلى المسجد الأقصى، وكان المعراج من المسجد الأقصى إلى السماوات العلى؛ لمناجاة ربه، وفي المعراج فرضت الصلوات الخمس ورأى النبي ﷺ الجنة والنار رأي العين وأحوال أهلها، ثم عاد إلى مكة في الليلة نفسها؛ ليواصل الرسالة بعد هذه الدفعة المعنوية الهائلة.

بدء إسلام الأنصار:

في موسم الحج سنة ١١ من البعثة عرض النبي ﷺ نفسه على ستة نفر من شباب الخزرج من أهل يثرب، فأسرعوا إلى إجابة دعوته وأسلموا، وقالوا للنبي ﷺ: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدُم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك.

ورجعوا إلى المدينة حاملين معهم رسالة الإسلام، حتى لم تبق دار من دور المدينة إلا وبها ذكر لرسول الله ﷺ.

بيعة العقبة الأولى:

وفي موسم الحج من السنة الثانية عشرة للبعثة، وبعد عام واحد من إسلام الستة نفر من الخزرج، وفد إلى العقبة اثنا عشر رجلاً من أهل يثرب «عشرة من الخزرج واثنان من الأوس» فتقابلوا مع النبي ﷺ في العقبة وبايعوه «بيعة العقبة الأولى».

يقول عبادة بن الصامت: «فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفترض علينا الحرب: «على ألا نشرك بالله ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئًا فأمركم إلى الله -عز وجل- إن شاء عذبكم، وإن شاء غفر لكم».

وأرسل النبي ﷺ معهم (مصعب بن عمير) يعلمهم الدين، ويقرئهم القرآن ويؤمهم في الصلاة، وقد تمكن ﷺ في مدة يسيرة أن ينشر الإسلام في سائر بيوت المدينة، وأن يكسب الإسلام أنصارًا من كبار زعمائها؛ كسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير وغيرهما.

وقبل حلول موسم الحج التالي -أي حج السنة الثالثة عشرة- عاد مصعب ابن عمير إلى مكة يحمل إلى رسول الله ﷺ بشائر الخير، ويقص عليه خبر قبائل يثرب وما أصبحت عليه من إسلام، وما لها الآن من قوة ومنعة.

بيعة العقبة الثانية:

وفي موسم حج سنة ١٣ من البعثة حضر لأداء مناسك الحج ثلاثة

وسبعون رجلاً وامرأتان من أهل يثرب، جاءوا ضمن حجاج قومهم من المشركين، وتم اللقاء بين هؤلاء والنبي ﷺ ومعه عمه العباس -وكان لا يزال مشركًا- عند العقبة في منى في أوسط أيام التشريق في الشعب الذي عند العقبة؛ حيث الجمرة الأولى، وتم الاجتماع في سرية تامة في ظلام الليل، وبايع الأنصار النبي ﷺ «بيعة العقبة الثانية» التي تضمنت:

التزام الأنصار بالدفاع عن النبي ﷺ عندما يهاجر إليهم ومنعة مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأبناءهم، وبعد تمام البيعة أخبرهم النبي ﷺ بهجرة أصحابه إلى المدينة، وأن على الأنصار أن يستقبلوا إخوانهم المهاجرين ويعدوا لهم المأوى والمعاش، فرحب الأنصار، وأثبتت الأيام صدقهم في بيعتهم ووفاءهم لدين الله ولرسول الله، رضي الله عنهم وأرضاهم.

فائـــدة:

عندما نراجع تراجم أصحاب بيعة العقبة الثانية من الأنصار في كتب السير والتراجم نجد أن هؤلاء الثلاثة والسبعين قد استُشهد قرابة ثلثهم على عهد النبي ﷺ وبعده، ونلاحظ أنه قد حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ قرابة النصف: فثلاثة وثلاثون كانوا بجوار رسول الله ﷺ في جميع غزواته، وأما الذين حضروا غزوة بدر فكانوا قرابة السبعين.

لقد صدق هؤلاء الأنصار عهدهم مع الله ومع رسوله؛ فمنهم من قضى نحبه ولقي ربه شهيدًا، ومنهم من بقي حتى ساهم في قيادة الدولة المسلمة، وشارك في أحداثها الجسام، بعد وفاة رسول الله ﷺ، وبمثل هذه النماذج قامت دولة الإسلام، النماذج التي تعطي ولا تأخذ، والتي تقدم كل شيء ولا تطلب

شيئًا إلا الجنة، ويتصاغر التاريخ في جميع عصوره ودهوره أن يحوي في صفحاته أمثال هؤلاء الرجال.

الهجرة إلى المدينة:

بعد بيعة العقبة الثانية أمر النبي ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة، فتتابعوا في الهجرة، فكان أول من هاجر أبو سلمة بن عبد الأسد، ثم عامر بن ربيعة مع امرأته ليلى، ثم عبد الله بن جحش، ثم هاجر عمر بن الخطاب- الوحيد الذي هاجر علانية،- وتتابع الصحابة بالهجرة، بينما أقام النبي ﷺ بمكة ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبسه المشركون أو فتنوه، باستثناء على بن أبي طالب وأبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

وكان أبو بكر كثيرًا ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فيقول له: «**لا تعْجل، لعل الله يجعل لك صاحبًا**» فتمنى أبو بكر أن يكون هو.

ورأت قريش أن رسول الله ﷺ صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا كذلك خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، وتيقنوا أنهم نزلوا دارًا لهم فيها منعة، وأن خروج النبي ﷺ هو الآخر يعني جمع الناس حوله لمحاربتهم، فاجتمعوا في دار الندوة، وقرروا قتله ﷺ؛ وذلك بأن تختار كل قبيلة فتى شابًا قويًا من أبنائها، وتعطيه سيفًا بتارًا، وأن يرابط هؤلاء جميعًا أمام بيت النبي ﷺ، حتى إذا خرج في الصباح ضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل ولا يقوى بنو هاشم على محاربة أهل مكة جميعًا ويرضوا بالديه.

عقب ذلك أتى جبريل النبي ﷺ، وأمره ألا يبيت هذه الليلة على فراشه، الذي كان يبيت عليه من قبل، وأمر النبي ﷺ على بن أبي طالب أن ينام على فراشه، وأن يتسجى ببرده، وأخبره أنه لن يخلص إليه شيء يكرهه منهم.

وخرج النبي ﷺ على المشركين وهم واقفون على بابه، لكن الله أعمى أبصارهم، وأخذ النبي ﷺ حفنة من الحصى وقذفها في وجوههم، ولم يترك واحدًا منهم إلا وضع على رأسه حفنة من التراب، ثم انطلق إلى بيت أبي بكر الذي كان في انتظاره ومعه الرواحل والزاد وكل ما يلزم الرحلة المباركة، ودليلهم: «عبد الله بن أريقط» وخاب سعي المشركين، وصدق الله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] .

التخطيط النبوي المحكم للهجرة:

أحكم النبي ﷺ الخطة المناسبة والدقيقة للهجرة، ورسم أدوار من يحتاج إليهم بدقة شديدة، فجاء التخطيط على أحكم ما يكون، ويتضح فيما يلي:

١- ذهب إلى أبي بكر ظهرًا، في وقت شدة الحر، وفي وقت لم يتعود الذهاب فيه إلى دار أبي بكر.

٢- خرج ملثمًا؛ حتى لا يعرفه أحد.

٣- خرج من دار أبي بكر ليلاً؛ حتى لا يراه أحد، وخرج من باب خلفي في بيت أبي بكر.

٤- طلب من على بن أبي طالب أن يتخلف قليلاً؛ حتى يؤدي عن رسول الله ﷺالودائع التي كانت عنده للناس، ثم أمره أن يلحق به في المدينة.

٥- تواعد النبي وأبو بكر مع عبد الله بن أريقط -دليلهما- على أن يلقياه بعد ثلاثة أيام في غار ثور.

٦- طلب من عبد الله بن أبي بكر أن يأتيهما في الغار ليلاً بأخبار قريش، ثم يعود إلى مكة قبل الفجر، فيصبح كأنه بات معهم في مكة.

٧- أسماء بنت أبي بكر تأتي إليهما بالطعام في الغار.

٨- يقوم عامر بن فهيرة مولى أبي بكر برعي الغنم ناحية الغار، ويريح الغنم هناك، فيمسح آثار أقدام عبد الله بن أبي بكر وأسماء، وفي نفس الوقت يقدم اللحم واللبن للنبي ﷺ وأبي بكر.

٩- مكث النبي ﷺ وصاحبه في الغار ثلاثة أيام حتى هدأت قريش، وظنت أنهما قد وصلا المدينة، حينئذ خرج النبي وصاحبه يواصلان هجرتهما.

١٠- حين خرج النبي وأبو بكر من دار أبي بكر اتجها جنوبًا إلى اليمن، ولم يتجها شمالاً إلى المدينة؛ حتى يضللا قريشًا ومن يبحث عنهما من المشركين.

وصل النبي ﷺ وصاحبه إلى يثرب يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول بعد أن قضى أربعة أيام في قباء؛ حيث لحقه على بن أبي طالب، بعد أن أدى الودائع لأصحابها، وتحولت «يثرب» إلى «المدينة المنورة» بعد تشريف النبي ﷺ لها، ولتبدأ صفحة جديدة في تاريخ الأمة؛ حيث الدولة المسلمة بكل ما تحمله من مقومات.

فالأرض: هي يثرب، والشعب: هم المهاجرون والأنصار، والدستور: هو القرآن، والقائد: هو النبي ﷺ

أعمال النبي ﷺ في المدينة وبناء الدولة المسلمة:

١- بناء المسجد:

شرع النبي ﷺ فور وصوله في بناء المسجد الذي شارك في بنائه بنفسه مع أصحابه؛ ليصبح المسجد ذا شأن عظيم في تاريخ الإسلام، فبالإضافة لأداء الصلوات فيه أصبح المدرسة التي تخرَّج فيها الرعيل الأول من المسلمين، حملة لواء الإسلام ودعاته، وهو المكان الذي يختار فيه الخلفاء ويبايعهم المسلمون، وتناقش فيه كل أمور المسلمين وقضاياهم، ومنه خرجت الجيوش، وفيه استقبل

النبي ﷺ وفود القبائل وسفراء الملوك والأمراء.

٢- **المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:** وهو الأساس الثاني الذي أقام عليه النبي ﷺ دولته؛ حيث آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار في صورة لا تعرف البشرية على مدى تاريخها لها مثيلاً.

فتح الأنصار قلوبهم وبيوتهم لإخوانهم المهاجرين، بصدر رحب ونفس راضية وحفاوة بالغة؛ فكان الصحابي من المهاجرين ينزل على أخيه الأنصاري، فيسارع الأنصاري بتقسيم ماله شطرين بينهما، وتقسيم داره نصفين بينهما... وهكذا ربط النبي ﷺ بين قلوب المسلمين جميعًا، فأصبحت عروة الإيمان فوق كل أسباب الصلات البشرية؛ من دم ونسب، وأصبح عقد الأخوة ورابطة الأخوة بينهما مقدمة على سائر الروابط.

معاهدة بين المسلمين واليهود:

بعد أن استقرت الأمور في المدينة، ودخل معظم أهلها الإسلام، كتب النبي ﷺ كتابًا بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم، وحدد لهم الحقوق والواجبات وما لهم وما عليهم.

الغزوات والسرايا:

الإذن بالقتال:

قال ابن كثير: «وإنما شرع الله -تعالى- الجهاد في الوقت الأليق به؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عددًا، فلو أُمر المسلمون -وهم أقل- بقتال الباقين لشق عليهم؛ ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ وكانوا نيفًا وثمانين قالوا: يا رسول الله نميل على أهل الوادي -يعنون أهل منى- ليالي منى فنقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ «**إني لم أومر بهذا**» فلما بغى المشركون

وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم، وهموا بقتله، وشردوا أصحابه، فلما استقروا بالمدينة وصارت لهم دار إسلام ومعقلاً يلجئون إليه، شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

الغزوات والسرايا قبل بدر:

١- سرية سيف البحر: في رمضان سنة ١ هـ، أميرها حمزة بن عبد المطلب، قوامها ثلاثون من المهاجرين.

٢- سرية رابغ: في شوال سنة ١ هـ، أميرها عبيدة بن الحارث، قوامها ستون رجلاً من المهاجرين.

٣- سرية الخَرَّار: في ذي القعدة سنة ١ هـ وأميرها سعد بن أبي وقاص، وقوامها عشرون رجلاً.

٤- غزوة الأبواء أو ودان: في صفر، سنة ٢ هـ خرج فيها النبي ﷺ بنفسه في سبعين رجلاً من المهاجرين.

٥- غزوة بواط: في ربيع الأول سنة ٢ هـ خرج فيها النبي ﷺ بنفسه في مائتين من أصحابه.

٦- غزوة سفوان: في ربيع الأول سنة ٢ هـ خرج فيها النبي ﷺ في سبعين من أصحابه، وجاءت ردًّا على إغارة كرز بن جابر الفهري على مراعي المدينة.

٧- غزوة ذي العُشَيرة: في جمادى الأول وجمادى الآخرة سنة ٢ هـ، خرج فيها النبي ﷺ بنفسه في مائة وخمسين من أصحابه، ويقال في مائتين.

٨- سرية نخلة: في رجب سنة ٢ هـ، وأميرها عبد الله بن جحش الأسدي،

وقوامها اثنا عشر رجلاً من المهاجرين.

جميع هذه الغزوات والسرايا التي كانت قبل غزوة بدر الكبرى لم يجر فيها قتال ولم يقتل المسلمون من المشركين إلا واحدًا هو عمرو بن الحضرمي في سرية نخلة، وأنكر الرسول ﷺ ما فعله أصحابه؛ حيث قتلوه في شهر رجب، وهو من الأشهر الحرم، وقال ﷺ: «ما أمرتُكم بقتالٍ في الشَّهرِ الحرامِ» وأدى دية المقتول إلى أوليائه.

إشارة لطيفة حول تحويل القبلة:

يقول الشيخ المباركفوري: وفي هذه الأيام في شعبان سنة ٢ هـ / فبراير ٦٢٤م أمر الله -تعالى- بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، وأفاد ذلك أن الضعفاء والمنافقين من اليهود الذين كانوا قد دخلوا في صفوف المسلمين؛ لإثارة البلبلة انكشفوا عن المسلمين، ورجعوا إلى ما كانوا عليه، وهكذا تطهرت صفوف المسلمين من كثير من أهل الغدر والخيانة.

ولعل في تحويل القبلة إشارة لطيفة إلى بداية دور جديد لا ينتهي إلا بعد احتلال المسلمين هذه القبلة، أو ليس من العجب أن تكون قبلة قوم بيد أعدائهم، وإن كانت بأيديهم فعلاً فلا بد من تخليصها يومًا إن كانوا على الحق.

غزوة بدر الكبرى

تعتبر غزوة بدر هي أول معركة فاصلة في تاريخ الإسلام؛ ولذا سميت بـ «يوم الفرقان» لأن الله -عز وجل- فرق بها بين الحق والباطل.

سببها: أراد النبي ﷺ استعادة بعض ما أخذت قريش من المسلمين المهاجرين؛ من أموال ومتاع، وذلك بالتعرض لقافلة قريش الآتية من الشام والتي يقودها أبو سفيان، فقال ﷺ لأصحابه: «**هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليهم؛ لعل الله ينفلكموها**»، فخرج بعض المسلمين ولم يخرج آخرون؛ لظنهم أنها لن تكون حربًا؛ حيث إن القافلة لم يكن فيها سوى أربعين رجلا، فخرج النبي ﷺ يوم ٨ رمضان سنة ٢ هـ وجعل على المدينة أبا لبابة أميرًا، وابن أم مكتوم يصلي بالناس.

أبو سفيان يستنفر قريشًا:

علم أبو سفيان بخروج النبي ﷺ فأرسل إلى مكة عمرو بن ضمضم الغفاري يستنفرهم؛ لحماية القافلة، فدخل مكة وقد حوَّل رحله، وجدع أنف بعيره، وشق قميصه من قُبُل، وأخذ ينادي بأعلى صوته: يا معشر قريش اللطيمة...اللطيمة «أي القافلة» أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها، الغوث...الغوث، فتجهزت قريش وخرجت لحماية القافلة ولم يتخلف منهم سوى أبي لهب، وكان عددهم ٩٥٠ معهم ١٠٠ فرس و ٧٠٠ بعير.

أبو سفيان ينجو بالقافلة:

استطاع أبو سفيان الفرار بالقافلة تجاه الساحل، وأرسل إلى قريش يطمئنهم، ولكن أبا جهل رفض إلا أن يقاتل المسلمين وقال: والله لا نرجع حتى نرِد بدرًا

فنقيم بها ثلاثًا، نذبح الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبدًا... فامضوا.

رسول الله ﷺ يستشير أصحابه:

اجتمع رسول الله ﷺ بكبار أصحابه يستشيرهم في الأمر، خاصة الأنصار الذين بايعوه على حمايته داخل المدينة، أما وقد خرج فقد لزم مشورتهم فقال: «أشيروا على أيها الناس». فقام أبو بكر فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد -ناحية اليمن في أقصى الجزيرة العربية- لجالدنا معك مَن دونه حتى تبلغه، فدعا له رسول الله ﷺ وأثنى عليه خيرًا، ثم قال: «أشيروا على أيها الناس» فوقف سعد بن معاذ زعيم الأوس وقائد الأنصار وقال: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال ﷺ: «أجل» قال: قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصُبر في الحرب، صُدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينك، فسرْ بنا على بركة الله.

سُرَّ النبي ﷺ لكلام سعد وقال: «سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارعِ القوم».

مشورة الْحُباب بن المنذر:

تحرك النبي ﷺ بالجيشين، ونزل عند أدنى ماء من مياه بدر، فقام الحباب بن المنذر وقال: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل؛ أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة.

قال رسول ﷺ : «**بل هو الرأي والحرب والمكيدة**».

فقال الحباب: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب «الآبار» ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماءً، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون.

فقال رسول الله ﷺ: «**أشرت بالرأي**» فنهض رسول الله ﷺ بالمسلمين وسار إلى أدنى ماء من القوم فنزل عليه، ثم أمر بالقلب فغورت، وبنى حوضًا على القليب الذي نزل عليه، فملئ بالماء ثم قذفوا فيه الآنية.

عدد جيش المسلمين وجيش المشركين:

أما جيش المسلمين فكانوا ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً، ثلاثة وثمانين من المهاجرين وواحدًا وستين من الأوس، ومائة وسبعين من الخزرج، وكان معهم فرَسان؛ للزبير بن العوام والمقداد بن الأسود، وسبعون بعيرًا يعتقب الرجلان والثلاثة على بعير واحد، وحامل اللواء العام: مصعب بن عمير، وحامل راية المهاجرين: على بن أبي طالب، وحامل راية الأنصار: سعد بن معاذ، وعلى الميمنة: الزبير بن العوام، وعلى الميسرة: المقداد بن الأسود، وعلى الساقة: قيس ابن أبي صعصعة، والقيادة العامة في يد النبي ﷺ.

وأما جيش المشركين: فكان عدده تسعمائة وخمسين رجلاً، معهم مائة فرس وسبعمائة بعير وستمائة درع، وقائد الجيش: أبو جهل.

اقتراح سعد بن معاذ:

بعد أن تم نزول المسلمين على الماء، اقترح سعد بن معاذ على رسول الله ﷺ أن يبني المسلمون مقرًّا لقيادته، فأثنى عليه النبي ﷺ خيرًا، ودعا له بخير، وبنى المسلمون عريشًا على تل مرتفع يقع في الشمال الشرقي لميدان القتال، ويشرف على ساحة المعركة، كما تم اختيار فرقة من شباب الأنصار بقيادة سعد ابن معاذ يحرسون رسول الله ﷺ حول مقر قيادته.

ليلة المعركة:

بات النبي ﷺ ليلة المعركة يدعو ربه ويلح في الدعاء ويقول: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تُعبد في الأرض بعد اليوم**» حتى أشفق عليه أبو بكر وبشر النبي بموعود الله له، فنام رسول الله ﷺ واستيقظ وقال: «**أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله؛ هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده، على ثناياه النقع**».

حثَّ النبي ﷺ المسلمين قبل المعركة، وقال لهم: والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة.

لهيب المعركة وهزيمة المشركين:

بدأت المعركة صبيحة السابع عشر من رمضان سنة ٢ هـ، وقَتل حمزة بن عبد المطلب الأسود بن عبد الأسد المخزومي، الذي أقسم أن يشرب من حوض المسلمين أو ليهدمنه أو ليموتن دونه، فقتله حمزة، ثم خرج ثلاثة من كفار قريش هم: عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد يريدون المبارزة، فأخرج لهم النبي ﷺ حمزة بن عبد المطلب «عم النبي» وعلي بن أبي طالب «ابن عم النبي» وعبيدة بن الحارث «ابن عم النبي» فقتل حمزة وعلي شيبة والوليد، وأما عبيدة وعتبة فقد ضرب كل منهما الآخر فأجهز علي وحمزة على عتبة وأسرعا بعبيدة

ابن الحارث إلى رسول الله ﷺ

احتدم القتال بين الفريقين وأبلى المسلمون بلاء حسنًا، وانجلت المعركة عن نصر ساحق للمسلمين وهزيمة منكرة للكفر والمشركين، سقط على إثرها سبعون قتيلاً ومثلهم أسرى، بينما استشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً.

استشارة النبي أصحابه في الأسرى:

طلب النبي ﷺ رأي أصحابه في شأن الأسرى، فقال لأبي بكر وعمر: « ما ترون في هؤلاء الأسرى؟ فقال: أبو بكر: يا نبي الله هم بنو العم والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية؛ فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ ما ترى يابن الخطاب؟ فقال عمر: لا والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنَّا منهم فنضرب أعناقهم، فتُمكن عليًّا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان «نسيبًا لعمر» فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فأخذ رسول الله ﷺ برأي أبي بكر ولم يأخذ برأي عمر حتى نزل قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال: ٦٧] يؤيد رأي عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

جثث المشركين في القليب:

ألقى المسلمون جثث المشركين في القليب بعد انتهاء المعركة، ووقف عليهم ﷺ وقال: يا أهل القليب هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؛ فإني وجدت ما وعدني ربي حقًّا

بشرى النصر تصل المدينة:

أرسل النبي ﷺ عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة يبشرا أهل المدينة بالنصر

قبل أن يعود الجيش إلى المدينة، وكان اليهود والمنافقون يؤكدون هزيمة المسلمين ويرجفون في المدينة حتى بعد مجيء البشير بالنصر، كما ذهب الحيسمان بن إياس بخبر هزيمة المشركين لأهل مكة قبل أن تعود فلول الجيش المهزوم إليها.

وفي غزوة بدر نزلت سورة الأنفال.

عزوة بني قينقاع

بعد أن مَنَّ الله على المسلمين بالنصر في غزوة بدر اشتعلت قلوب اليهود حقدًا وحسدًا على المسلمين، وكاشفوا بالشر والعداوة، وجاهروا بالبغي والأذى، فجمعهم النبي ﷺ في سوق قينقاع وقال لهم: «**يا معشر يهود احذروا من الله -عز وجل- مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا؛ فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وفي عهد الله إليكم**».

قالوا: يا محمد إنك ترى أنا كقومك!! لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت فرصة، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أنَّا الناس.

لم يستفد اليهود من كلام النبي ﷺ وتحذيره لهم، بل استمروا في غيهم وسعوا إلى حتفهم بأيديهم، فحدث أن امرأة من العرب قدمت بِجَلَب لها «ما يجلب إلى السوق ليباع» فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا منها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديًا، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على يهود، فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين يهود بني قينقاع، فكان هؤلاء أول يهود نقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ.

خرج النبي ﷺ؛ لغزوهم في حصونهم، فلما رأوه تحصنوا في حصونهم، فحاصرهم أشد الحصار، وكان ذلك يوم السبت الخامس عشر من شوال في السنة الثانية للهجرة، واستمر الحصار خمسة عشر يومًا، ثم فك النبي ﷺ الحصار عنهم بعد إلحاح رأس المنافقين ابن سلول، الذي لم يكن قد مضى على إسلامه شهر.

أمر النبي ﷺ بإجلاء يهود بني قينقاع عن المدينة، فخرجوا إلى أذرعات بالشام فقل أن لبثوا فيها حتى هلك أكثرهم.

من أحداث السنة الثانية للهجرة

١- وفاة عثمان بن مظعون صاحب رسول الله ﷺ، وقد دفن بالبقيع، ووضع النبي ﷺ حجرًا على قبره، وقال: «أُعلم به قبر أخي».

٢- فرض صيام شهر رمضان، وشرعت صلاة العيد وزكاة الفطر.

٣- فرضت زكاة المال وبيان أنصبتها وشروطها.

٤- إسلام عمير بن وهب الجمحي الذي كان يُعرف بـ «شيطان قريش» وكان قد ذهب إلى المدينة ليقتل النبي ﷺ، ثم شرح الله صدره فأسلم.

٥- وفاة رقية بنت النبي ﷺ وزوجة عثمان بن عفان، وذلك أثناء غزوة بدر، وبسبب مرضها أذن النبي ﷺ لعثمان أن يكون بجوار زوجته المريضة.

٦- زواج عثمان بن عفان بأم كلثوم بنت النبي ﷺ بعد وفاة أختها رقية.

٧- زواج على بن أبي طالب بفاطمة بنت رسول الله ﷺ.

٨- وصول زينب بنت النبي ﷺ مهاجرة من مكة إلى المدينة بعد أن أخلى النبي ﷺ سبيل زوجها أبي العاص بن الربيع أسير المسلمين في بدر مقابل أن يخلي سبيل زوجته زينب بنت النبي ففعل.

غزوة أحـــــد

سبب الغزوة: أراد من بقي حيًّا من زعماء قريش الثأر لقتلاهم في بدر، وإنقاذ سمعة قريش التي أصابها الكثير بعد الهزيمة من المسلمين في بدر، فتحرك عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وأبو سفيان بين القبائل، وطلبوا ممن لهم أموال في قافلة أبي سفيان، التي نجت وكانت سببًا في الغزوة، أن يُوقفوا هذه الأموال للإعداد للحرب... فوافق الجميع.

خرج جيش المشركين في ثلاثة آلاف مقاتل يقودهم أبو سفيان قائدًا عامًّا، وعلى الميمنة خالد بن الوليد، وهو أيضا قائد الفرسان، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، وعلى المشاة صفوان بن أمية، وحامل اللواء طلحة العبدري، ومع الجيش مائتا فرس، وسبعمائة درع، وخمس عشرة امرأة يضربن الدفوف ويحرضن على القتال تقودهم هند بنت أبي سفيان.

وصلت إلى رسول الله ﷺ رسالة من عمه العباس فيها خبر الجيش وتفاصيله وخروجه لملاقاة المسلمين، فاجتمع النبي ﷺ بأصحابه يستشيرهم في الخروج من المدينة أو البقاء فيها والدفاع عنها من خلالها، وكان هذا الرأي هو رأي النبي ﷺ وكبار أصحابه، لكن تغلب رأي الشباب من الصحابة الذين لم يخرجوا في غزوة بدر، فاستجاب لهم النبي ﷺ ونزل على رغبتهم ومشورتهم.

خرج النبي ﷺ من المدينة في ألف من أصحابه، وذلك يوم السبت لسبع ليال خلون من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهرًا من هجرته -عليه الصلاة والسلام- حتى إذا كانوا بين المدينة وأُحد رجع ابن سلول بثلث الجيش وقال: عصاني وأطاع الولدان ومن لا رأي له، وما ندري علام نقتل أنفسنا؟!

ومعظم من عاد معه مَن هم على شاكلته في النفاق.

فائــــدة:

عنـدما وصـل جـيش المسـلمين بقيـادة الـنبي ﷺ إلى مكـان يـدعى الشيخين رأى كتيبة لها صوت وجلبة فقال: ما هذه؟

فقالوا: هؤلاء حلفاء عبد الله بن أبي ابن سلول من يهود، فقـال ﷺ: «لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك».

عسكر النبي ﷺ عند جبل أحد؛ حيث جعل الجبل يحمي ظهره، وجعل على الجبل خمسين راميًا، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير، وقال لهم: «قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا، فإن رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا».

قسم النبي ﷺ الجيشين إلى ثلاث كتائب:

١- كتيبة المهاجرين، وحامل لوائها: مصعب بن عمير.

٢- كتيبة الأوس، وحامل لوائها: أسيد بن حضير.

٣- كتيبة الخزرج، وحامل لوائها: الحباب بن المنذر.

وأوكل النبي ﷺ إلى الزبير بن العوام -وهو الفارس الوحيد في صفوف المسلمين- والمقداد بن عمرو مهمة الصمود أمام خيل قريش التي يقودها خالد وعكرمة.

اشتعال المعركة: بدأت المعركة بهجوم ميمنه جيش مكة بقيادة أبي عامر الفاسق، تساندهم الخيل بقيادة خالد بن الوليد على ميسرة جيش المسلمين، إلا أن الرماة المسلمين اضطروهم إلى التقهقر والتراجع بعد أن نضحوا الخيل بالنبل، وقام المسلمون بهجوم معاكس على حملة اللواء، فقتل كل من حمل اللواء من بني عبد الدار، وكانوا عشرة، حتى سقط اللواء على الأرض وديس بالأقدام.

اندفع المسلمون اندفاع رجل واحد، وتسابق حمزة وأبو دجانة في حصد المشركين الذين هربوا من ساحة المعركة، وبدت المعركة أنها قد انتهت.

خطأ الرماة سبب الهزيمة:

عندئذ نزل كثير من الرماة يجمعون الغنائم عدا قائدهم عبد الله بن جبير الذي حذرهم من النزول وعصيان أمر النبي ﷺ، لكنهم تصوروا انتهاء المعركة ولم يبق معه إلا عشرة آخرون، ورأى خالد بن الوليد نزول الرماة فأسرع ومعه مائتين من فرسان المشركين، وصعد الجبل من الخلف، وقتل الرماة العشرة وقائدهم بعد قتال عنيف، وأخذ المشركون يهجمون على المسلمين من الخلف، فانكشفوا ودخلهم الرعب، وأخذ المسلمون يقتتلون على غير هدىً، وتساقط شهداء المسلمين الواحد تلو الآخر، فاستشهد مصعب بن عمير وحمزة بن عبد المطلب وأنس بن النضر وسعد بن الربيع... وغيرهم كثير.

لما قَتل ابنُ قمئة مصعب بن عمير ظن أنه قتل النبي ﷺ؛ لشبهه إياه، فنادى في الناس: قتلت محمدًا، ففر بعض المسلمين، وفكر آخرون في الاستسلام، حينئذ نادى رسول الله ﷺ في الناس، فاطمأنت نفوسهم، وارتفعت معنوياتهم واجتمعوا إليه، واشتد القتال ضراوة حول رسول الله ﷺ الذي تترس المسلمون حوله، فكان حوله سور من الأبطال يقاتلون دونه.

انسحب رسول الله ﷺ بالمسلمين عبر الشِّعب من جبل أحد، وبشكل منظم، ويئس المشركون من النيل من المسلمين، فقرروا الرحيل وإنهاء القتال، وقد زهوا بالنصر الذي أحرزوه، وكانت خسائر المشركين اثنين وعشرين، فيما استشهد من المسلمين سبعون، منهم من مثَّل المشركون به؛ كحمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ.

غزوة حمراء الأسد

انصرف رسول الله ﷺ من أُحد مساء السبت، فبات تلك الليلة في المدينة هو وأصحابه، وبات المسلمون يداوون جرحاهم، فلما صلى رسول الله ﷺ الصبح يوم الأحد أمر بلالاً أن ينادي: إن رسول الله ﷺ يأمركم بطلب العدو، ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس، ودعا رسول الله ﷺ بلوائه، وهو معقود لم يحل، فدفعه إلى على بن أبي طالب، وخرج القوم وهم بين مجروح وموهون ومشجوج، حتى عسكروا بحمراء الأسد، فأوقد المسلمون هناك نيرانًا عظيمة حتى تُرى من المكان البعيد وتُوهم كثرة أصحابها.

مر معبد الخزاعي -وكان يومئذ من مشركي خزاعة- على المسلمين، ثم تجاوزهم، فمر على المشركين وهم زجل ومرح وزهو بالنصر الذي لاقوه في أحد، وهم يأتمرون بالرجوع إلى المدينة للقضاء على المسلمين، وصفوان بن أمية ينهاهم، فلما رأى أبو سفيان معبد الخزاعي قال له: ما وراءك يا معبد؟ فقال: ويحكم! إن محمدًا قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقًا، فيهم من الحَنَق عليكم شيء لم أر مثله قط!!

فأدخل الله الرعب في قلوب المشركين، وهبوا مسرعين عائدين إلى مكة.

بينما أقام النبي ﷺ في حمراء الأسد أيام الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة... وفي أحداث هذه الغزوة نزلت سورة آل عمران.

عزوة بني النضير

وقعت أحداث هذه الغزوة في شهر ربيع الأول من العام الهجري الرابع.

وكان سببها: أن النبي ﷺ خرج في نفرٍ من أصحابه إلى ديار يهود بني النضير بالمدينة؛ ليساعدوا المسلمين في دفع دية لإحدى القبائل قُتل منها رجلان على سبيل

الخطأ، قتلهما عمرو بن أمية الضمري المسلم؛ وذلك عملاً بالاتفاق والعهد بين المسلمين واليهود، فأظهر اليهود الموافقة والترحاب الشديد برسول الله ﷺ فجلس بجانب جدار لهم، فاتفق اليهود على اغتياله ﷺ في تلك اللحظات بإلقاء صخرة عليه وهو جالس، وتعهد عمرو بن جحاش بتنفيذ المؤامرة.

نزل جبريل -عليه السلام- فأخبر النبي ﷺ بالمؤامرة، فترك مكانه فورًا عائدًا إلى المدينة، ولما تأخر عن أصحابه جاءهم الخبر برجوعه إلى المدينة، فلحقوا به، فأخبرهم بما كان من غدر اليهود، وأمرهم بالتهيؤ لحرب بني النضير.

أرسل النبي ﷺ محمد بن مسلمة إليهم وقال له: «**اذهب إلى يهود بني النضير وقل لهم: إن رسول الله أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادي، لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم مما هممتم به من الغدر، وقد أجَّلتكم عشرًا، فمن رُئي بعدُ منكم ضربت عنقه**».

أخذ يهود بني النضير يتهيئون للخروج، لكن ابن سلول أرسل إليهم يعِدهم بنصرتهم، فعاد اليهود فتمنعوا ورفضوا الخروج، حينئذ سار المسلمون إليهم فتحصن اليهود بحصونهم، واستمر الحصار خمسة عشر يومًا.

أمر النبي ﷺ بقطع النخيل وحرقه، فنادوا من وراء الحصون: أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من يصنع، فما بال قطع النخيل وتحريقها.

وقذف الله الرعب في قلوبهم، فطلبوا من النبي ﷺ أن يجليهم عن المدينة ويصادر ما معهم من سلاح، فوافق النبي ﷺ، فاحتملوا من الأموال ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن بابه، فيضعه على ظهر بعيره، فينطلق به إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، وسار أكابرهم إلى خيبر، منهم: سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع وحيي بن أخطب.

قسم رسول الله ﷺ أموالهم على المهاجرين ولم يعط الأنصار سوى أبي دجانة وسهل بن حنيف؛ لفقرهما، ونزلت في أحداث الغزوة سورة الحشر التي تسمى أيضًا سورة بني النضير.

غزوة الأحزاب

وقعت هذه الغزوة في شهر شوال سنة خمس من الهجرة -على أرجح الأقوال.

وسببها: أراد زعماء اليهود الثأر من المسلمين بعد طرد بني قينقاع وبني النضير إلى جانب حقدهم الدائم على المسلمين- فخرج من خيبر وفدٌ منهم على رأسه حيي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن أبي الحقيق، واتجهوا صوب مكة يدعون قريشًا إلى حرب المسلمين، ثم اتجهوا إلى غطفان، وتواعدوا جميعًا على موعد للخروج لحرب رسول الله ﷺ.

وصل الخبر إلى النبي ﷺ، فاستشار أصحابه، فاقترح سلمان الفارسي أن يُحفر خندق حول المدينة فلا يستطيع المشركون الوصول إلى المسلمين، فقُبل الاقتراح، وعمل فيه جميع المسلمين وعلى رأسهم وأولهم رسول الله ﷺ، حتى انتهوا منه.

جيش المشركين وقيادته: خرجت قريش يقودها أبو سفيان، وبنو فزراة من غطفان يقودها عيينة بن حصن، ومرة يقودها الحارث بن عوف، وأشجع يقودها مسعر بن رُحيلة، خرجت أيضا كنانة وتهامة ونجد حتى اجتمع عشرة آلاف مقاتل، اتجهوا صوب المدينة؛ بغية استئصال المسلمين وإبادتهم، حتى إذا وصلوا فوجئ الجميع بما لم يكونوا يتصورون أو حتى يتخيلون، ألا وهو الخندق الذي كان فكرة فارسية لم تعرفها العرب بعد، فأذهلتهم المفاجأة، وظلوا عاجزين على اقتحام الخندق، تأكل قلوبهم الحسرة، ولما حاول بعضهم اقتحام الخندق

لقي حتفه في الحال.

كان عدد المسلمين ثلاثة آلاف مقاتل، أما النساء والصبيان والعجائز فقد أمر النبي ﷺ بوضعهم في حصن بني حارثة حتى يكونوا في مأمن من خطر الأعداء.

وعلى الرغم من أن الخندق حمى المسلمين من هجوم المشركين فإن البلاء قد عظم على المسلمين، واشتد الخوف، مع شدة البرد والجوع أيضًا، حتى صور القرآن ذلك بقوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

في هذا التوقيت نزل خبر خيانة يهود بني قريظة ونقضهم للعهد مع المسلمين كالصاعقة على المسلمين، مما جعل النبي ﷺ يفكر في أمرٍ يخفف به ما نزل على المسلمين، فاستشار زعيمي الأنصار: سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ، أن يدعُو غطفان للعودة وترك مواقعهم مقابل ثلث ثمار المدينة، لكن السعدين -رضي الله عنهما- رفضا الفكرة بشدة، فأوقف النبي ﷺ المفاوضات مع غطفان نزولاً على رأي أصحابه.

هدية السماء للمسلمين الصابرين: في هذا التوقيت العصيب الذي تجمع فيه على المسلمين البرد والجوع والخوف والعدو والحصار، هدى الله للإسلام رجلاً من أشجع -إحدى قبائل غطفان- فذهب للنبي ﷺ يخبره بإسلامه، وأنه لا أحد يعلم بإسلامه فقال له النبي ﷺ: «إنما أنت فينا رجل واحد، فخذّل عنا ما استطعت؛ فإن الحرب خدعة» ووصلت الرسالة المحمدية إلى نُعيم، الذي تحرك على الفور، فذهب إلى اليهود فأشار عليهم أن يأخذوا رهنًا من أشراف غطفان وقريش؛ ليضمنوا مساندتهم لهم إن أرادوا حرب رسول الله ﷺ؛ لأنه قريب

منهم، أما المشركون فسوف يذهبون إلى ديارهم بعد انتهاء الحرب، فوافق يهود بني قريظة على ذلك.

وذهب إلى غطفان وقريش وقال لهما: إن اليهود ندموا على نقضهم الحلف مع محمد وهم يريدون أخذ رجالكم يعطونهم لمحمد؛ ليضرب أعناقهم حتى يضمنوا استمرار التحالف معه، ولما طلبت قريش وحلفاؤها من اليهود البدء بالقتال طلبوا منهم بعض أشرافهم رهينةً، فرفضوا، فصدقت قريش وغطفان واليهود كلام نعيم، ونشب الخلاف بينهم، ودب اليأس في جند المشركين.

فائـــدة:

عندما اشتد الكرب على المسلمين توجهوا إلى النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله هل من شيء نقوله، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ فقال ﷺ: «نعم... اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا» ودعا النبي ﷺ على الأحزاب فقال: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم».

واستجاب الله -سبحانه- دعاء نبيه ﷺ، وأقبلت بشائر الفرج؛ فقد صرفهم الله بحوله وقوته، وزلزل أبدانهم وقلوبهم، وشتت جمعهم بالخلاف الذي دب بينهم، ثم أرسل الله عليهم الريح الباردة الشديدة، وألقى الرعب في قلوبهم، وأنزل جنودًا من عنده سبحانه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

حُذيفة يستطلع خبر القوم: أرسل النبي ﷺ حذيفة بن اليمان؛ ليستطلع خبر القوم، وأمره ألا يُحدث فيهم -أي لا يقتل منهم أحدًا- فتسلل حذيفة إلى

معسكر المشركين دون أن يعرفه أحد، حتى سمع من أبي سفيان قرار الارتحال، وأمره للفرسان بتأمين الانسحاب، وبالفعل غادرت قريش وغطفان مواقعهما وتبعهما الفرسان، فلما أصبح الصباح كان الأحزاب قد ذهبوا، فوضع المسلمون السلاح، ثم عادوا إلى المدينة، وبعد انتهاء هذه الغزوة قال النبي ﷺ لأصحابه: «**الآن نغزوهم ولا يغزوننا**» وهي إشارة إلى تغير الموقف لصالح المسلمين، حيث يميل ميزان القوى ناحيتهم، ولن تستطيع قريش بعد اليوم أن تهاجم المسلمين.

بنو قريظة وحملة التأديب والعقاب:

كشفت غزوة بني قريظة حقد اليهود على المسلمين، وتربص الدوائر بهم، فقد نقضوا عهدهم ووعودهم مع النبي ﷺ في أحلك الظروف وأصعبها، ومنوا أنفسهم بإبادة المسلمين إبادة تامة بعد تحالفهم مع قريش وغطفان وغيرهما.

فما أن عاد النبي ﷺ والمسلمون من الخندق، ووضع الجميع السلاح حتى جاء جبريل بأمر الله، فقال للنبي ﷺ: «أو قد وضعت السلاح يا رسول الله؟» قال: «**نعم**». قال: ما وضعت الملائكة السلاح، إن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة؛ فإني عامد إليهم فمزلزلهم، فأمر النبي ﷺ المؤذن أن ينادي في الناس: «**من كان سامعًا مطيعًا فلا يُصلين العصر إلا في بني قريظة**» وعين ابن أم مكتوم واليًا على المدينة، وأمر على بن أبي طالب بحمل اللواء، وأن يكون في مقدمة الجيش؛ ليسبقه باللواء إلى بني قريظة، حتى يصل إليها قبل وصول عامة الجيش مع مفرزة من المسلمين، وبالفعل أسرع المسلمون إلى هناك، وضربوا الحصار على بني قريظة خمسا وعشرين ليلة، ولما اشتد الحصار وعظم البلاء عليهم، أرادوا الاستسلام والنزول على أن يُحكِّم الرسولُ ﷺ فيهم سعدَ بن معاذ، ورأوا أنه سيرأف بهم بسبب الحلف الذي كان بينهم وبين قومه الأوس.

حكم سعد بن معاذ في الخونة: جيء بسعد بن معاذ محمولاً؛ لأنه كان قد أصابه سهم في ذراعه يوم الخندق، فقضى:

١- أن تُقتل المقاتلةُ.

٢- وأن تُسبى الذريةُ.

٣- وأن تُقسم أموالُهم.

فقال له النبي ﷺ: «لقد حكمتَ فيهم بحكمِ الله من فوقِ سبع سماوات» ونفذ فيهم حكم الإعدام في سوق المدينة؛ حيث حفرت أخاديد، وقتلوا فيها بشكل مجموعات، وقسمت أموالهم وذراريهم على المسلمين.

وهذا الذي حدث لهم جزاءٌ عادلٌ بمن أراد الغدر، وتبرأ من حلفه للمسلمين، وكان الجزاء من جنس العمل؛ فهم عرَّضوا بخيانتهم أرواح المسلمين للقتل وأموالهم للنهب ونسائهم وذراريهم للسبي، فكان أن عوقبوا بذلك جزاءً وفاقًا.

وبالقضاء على بني قريظة خلت المدينة تمامًا من الوجود اليهودي، وصارت خالصة للمسلمين، وخلت الجبهة الداخلية من عنصر خطر، كانت لديه القدرة على المؤامرة والكيد والمكر.

صلح الحديبية وبيعة الرضوان

قرر النبي ﷺ بعد هذه الحروب التي وقعت بينه وبين قريش أن يذهب هو وأصحابه إلى مكة؛ لأداء العمرة في شهر ذي القعدة من العام السادس للهجرة، وخرجت معه زوجته أم سلمة وألف وأربعمائة من المسلمين ليس معهم إلا سلاح المسافر، وعندما وصل النبي ﷺ إلى ذي الحليفة أرسل عينا له؛ ليأتيه بخبر أهل مكة، فعاد وقال: إن قريشًا قد جمعت لك جموعًا، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت ومانعوك.

فقال النبي ﷺ: «أشيروا على أيها الناس».

فقال أبو بكر الصديق: خرجت عامدًا لهذا البيت لا تريد قتل أحد، ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه، قال ﷺ: «امضُوا على اسم الله» ثم سار بالمسلمين وسلكَ طريقًا وعِرًا بين شعابٍ، حتى نزل بأقصى الحديبية.

سفارات قريش لرسول الله ﷺ:

قررت قريش أن تمنع النبي ﷺ والمسلمين من الدخول إلى مكة وأداء العمرة بأي وسيلة كانت، فأرسلت سفراءها واحدًا تلو الآخر؛ ليتعرفوا على قوة المسلمين، ومدى عزمهم على القتال إذا ألجئوا إليه، وطمعًا في صد المسلمين عن البيت بالطرق السلمية من جهة ثالثة، فذهب:

١- بديل بن ورقاء في رجال من خزاعة.

٢- عروة بن مسعود الثقفي.

٣- الحلس بن علقمة الكناني سيد الأحابيش.

٤- مكرز بن حفص، وقد قال النبي ﷺ حينما رآه: «هذا مكرز وهو رجل فاجر»، فجعل يكلم النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه؛ إذ جاء سهيل بن عمرو ، فلما جاء قال النبي ﷺ: «لقد سهل لكم من أمركم».

عثمان بن عفان سفيرًا إلى قريش:

أراد النبي ﷺ أن يبعث سفيرًا إلى قريش؛ ليوضح لهم موقف النبي ﷺ والمسلمين، وهدفهم من الزيارة، فدعا عمر بن الخطاب، فاعتذر ورشح بدلاً منه عثمان بن عفان، فأرسله النبي ﷺ، فذهب حتى مرَّ على قريش، فسمحت له بدخول مكة؛ ليبلغ رسالته إلى زعمائها، وأجاره أبان بن سعيد بن العاص، ودخل معه مكة حتى بلَّغ رسالة النبي ﷺ على أكمل وجه.

وتأخر عثمان بن عفان بعض الوقت؛ حيث احتبسته قريش عندها، حتى

شاع بين المسلمين أن عثمان قُتل، فقال رسول الله ﷺ: «**لا نبرح حتى نناجز القوم**» ثم دعا أصحابه إلى البيعة، فبايعه المسلمون جميعهم تحت شجرة، وسميت هذه البيعة بـ «بيعة الرضوان» وقال الله فيها: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**﴾ [الفتح: ١٨].

عندئذ أسرعت قريش فبعثت سهيل بن عمرو؛ لعقد الصلح، وأكدت له ألا يكون في الصلح إلا أن يرجع النبي ﷺ عامه هذا، وبالفعل أبرم سهيل بن عمرو مع النبي ﷺ بنود الصلح الذي جاء فيه:

١- وقف الحرب بين الفريقين عشر سنوات.

٢- يعود النبي ﷺ وأصحابه هذا العام بدون أداء العمرة، على أن يأتوا في العام المقبل، وتخلي لهم قريش مكة ثلاثة أيام، يؤدون مناسكهم، ثم يعودون إلى المدينة.

٣- من يأتي محمدًا من قريش مسلمًا من غير إذن وليه -أي هاربًا منهم- رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد -أي هاربًا منه- لم يرد عليه.

٤- من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فانضمت قبيلة خزاعة إلى النبي ﷺ، وانضمت قبيلة بني بكر إلى قريش .

وهذا الصلح الذي كان في ظاهره إجحاف شديد بالمسلمين -حتى أنه أثار اعتراضات بعض الصحابة الذين رأوا فيه مهانة وانتقاص من قدر المسلمين، مثل عمر بن الخطاب- إلا أنه في حقيقته كان فتحًا مبينًا كما سماه الله -تعالى- في سورة الفتح؛ حيث تضمن -لأول مرة- اعتراف قريش بقوة المسلمين، وأنها لا تقدر عليهم، وأتاح للمسلمين الوقت والجهد؛ لينشروا دعوتهم بين القبائل والملوك، والأهم من ذلك أنه مهد الطريق لفتح مكة بعد عامين اثنين من هذا الصلح.

فتح خيبر «آخر معاقل اليهود في الجزيرة»

وقعت هذه الغزوة في شهر المحرم من السنة السابعة للهجرة بعد أقل من شهرين من صلح الحديبية، وكانت هذه الغزوة من ثمار هذا الصلح المبارك.

سبب الغزوة: كانت خيبر هي المركز الذي خرج منه وفد يهود الذين ألَّبوا القبائل على المسلمين في غزوة الأحزاب، فكان لا بد من القضاء على هذا المعقل الحصين، فخرج النبي ﷺ، وأعلن ألا يخرج معه إلا راغب في الجهاد، فلم يخرج إلا أصحاب بيعة الرضوان وهم ألف وأربعمائة، في حين بلغ عدد اليهود داخل حصون خيبر عشرة آلاف مقاتل -إضافة إلى ألف مقاتل من غطفان- فصاروا جميعًا أحد عشر ألف مقاتل... وصل المسلمون ليلاً إلى ضواحي خيبر وباتوا هناك، فلما أصبحوا فاجئوا أهل خيبر الذين خرجوا لأعمال الفلاحة، فولوا هاربين يصيحون: محمد والخميس «أي محمد والجيش» فقال النبي ﷺ: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

تمكن المسلمون من فتح حصون خيبر واحدًا تلو الآخر، حتى استسلم اليهود في نهاية الأمر، واتفقوا مع رسول الله ﷺ على: أن يخلي اليهود الحصون كلها ويسلموا ما فيها للمسلمين، بالإضافة إلى أسلحتهم، وأن يجلوا عن خيبر إلى الشام، وأن يأخذوا ما يمكن حمله، وأن يدلُّوا على كنوزهم، وألا تسبى الذراري، ثم سمح النبي ﷺ لهم بالبقاء في خيبر؛ ليعملوا أجراء في الأرض مقابل نصف الثمار، ويحق للمسلمين أن يخرجوهم منها في أي وقت شاءوا، وقد حدث هذا بالفعل في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

استشهد من المسلمين ستة عشر، وقُتل من اليهود ثلاثة وتسعون، وبعد انتهاء المعركة وصل إلى خيبر جعفر بن أبي طالب من الحبشة مع المهاجرين، فقال النبي ﷺ: «لا أدري بأيهما أفرح: بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر؟!!».

غـــزوة مؤتـــــة

يقول الشيخ المباركفوري: وهذه المعركة أكبر لقاء مُثخن، وأعظم حرب دامية خاضها المسلمون في حياة رسول الله ﷺ، وهي مقدمة وتمهيد لفتوح بلدان النصارى «الروم» ووقعت في جمادى الأولى سنة ٨ هـ.

سبب المعركة: اعتداء الغساسنة -أعوان الروم- على سرية للمسلمين مكونة من ١٤ رجلاً، كانت متجهة إلى بلاد الشام الجنوبية؛ للدعوة إلى الإسلام بإمرة كعب بن عمير، وكذا قَتل أحدُ أمراء الملك الغساني الحارثَ بن عمير رسولَ النبي ﷺ، هذا بالإضافة إلى تهديد الملك الغساني بغزو المدينة.

جيش المسلمين وقيادته: جهز النبي ﷺ جيشًا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وأمَّر على هذا الجيش زيد بن حارثة، وقال: «**إن قُتل زيد فجعفر، وإن قُتل جعفر فعبد الله بن رواحة**» وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا مَن هناك إلى الإسلام، فإن استجابوا وإلا استعانوا بالله عليهم وقاتلوهم.

انطلق الجيش إلى قرية مُؤتة، وهي قرية بأدنى بلقاء الشام، وتحصن المسلمون بها خوفًا من التطويق، وعندما وصلوا هناك جاءتهم الأخبار بأن الروم قد حشدوا أكثر من مائتي ألف مقاتل... فاجتمع المسلمون؛ للتشاور في طلب المدد من المدينة أو ملاقاة العدو... فالجهاد لا يتوقف على العدد، وقد لا يمهلهم العدو إن انتظروا المدد، فقال عبد الله بن رواحة: «**إن الذي تكرهون للَّذي خرجتم تطلبون: الشهادة! وما نقاتل الناس بعدَد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان، ويوم أحد فرس واحد، فانطلقوا بنا، فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور عليهم، فذلك الذي وعدنا نبينا ﷺ وليس لوعده خلف، وإما الشهادة فنلحق بالإخوان نرافقهم في الجنان...**» فاشتدت

حماسة المسلمين بعد هذه الكلمات وتحركوا لملاقاة عدوهم.

بدأت المعركة التي استمرت سبعة أيام، وبدأ معها القتال المرير، ثلاثة آلاف رجل يواجهون هجمات مائتي ألف مقاتل!! معركة عجيبة تشاهدها الدنيا بالدهشة والحيرة، وتأخذ بأصحاب الألباب... ولكن إذا هبت ريح الإيمان جاءت العجائب تترى.

ظلت الحرب سجالاً بين الفريقين حتى اليوم السادس الذي استُشهد فيه زيد بن حارثة، ثم حمل الراية جعفر فاستشهد أيضًا، وحمل الراية عبد الله بن رواحة، فلحق بأخويه زيد وجعفر، حينئذ تقدم رجل من بني عجلان اسمه ثابت بن أقرم، وأعطى الراية لخالد بن الوليد، الذي دبَّر حيلة في ليلة سابع أيام المعركة يواجه بها جموع الروم، فبدل الميمنة مكان الميسرة والمقدمة مكان المؤخرة، وأمر بعض الفرسان بالمرابطة خلف مؤتة؛ ليأتوا مكبرين بصيحات عالية عند احتدام القتال؛ ليوهموا الروم بوصول مدد للمسلمين، فتنخفض معنوياتهم، وهو ما حدث، واستطاع خالد في نهاية اليوم السابع أن ينسحب من المعركة دون أن يتبعهم الروم الذين خافوا من كمائن المسلمين... هكذا تصوروا.

بقي أن نعرف عدد شهداء المسلمين في هذه المعركة التي استُشهد فيها أمراء الجيش الثلاثة، وأن نعرف نتيجة معركةٍ أحد طرفيها ثلاثة آلاف، والطرف الآخر مائتا ألف، لقد استشهد من المسلمين اثنا عشر رجلاً فقط لا غير، بينما قتل من الروم أضعافهم... **لا تتعجب إنه الإيمان...ثم الإيمان...ثم الإيمان.**

***

فتح مكة «الفتح الأعظم»

يقول ابن القيم: هو الفتح الأعظم الذي أعزَّ الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس به في دين الله أفواجًا، وأشرق به وجه الأرض ضياءً وابتهاجًا.

سبب الغزوة:

كانت خزاعة قد دخلت في حِلف رسول الله ﷺ بعد صلح الحديبية واعتدى عليها بنو بكر حلفاء قريش؛ لثارات قديمة بينهما، وعاونت قريش بني بكر في اعتدائهم على خزاعة، ونقضت بذلك نصوص صلح الحديبية الذي ينص على عدم الاعتداء على المسلمين أو أحلافهم، وطلبت خزاعة من الرسول ﷺ نصرتها طبقًا للمعاهدة التي بينها وبينه، فوعدهم بالنصر، وبدأ في الاستعداد لفتح مكة، وأخبر بعض المسلمين بعزمه السير إلى مكة، وأمرهم بالتهيؤ وقال: «**اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها**».

قريش تشعر بالندم:

أحست قريش بالخطأ الفاحش الذي فعله بعض السفهاء فيها، وأرادت استدراك الموقف، فأرسلت أبا سفيان للمدينة؛ لمقابلة النبي ﷺ ولتجديد المعاهدة فلم يقبل النبي ﷺ اعتذاره.

فائـــدة:

كان حاطب بن أبي بلتعة ﷺ على علمٍ بعزم النبي ﷺ غزو مكة، فأرسل إلى أهل مكة كتابًا يعلمهم بمسير رسول الله ﷺ، وبعثه مع امرأة من مُزينة، فجعلت الكتاب في شعرها، ونزل الوحي على النبي ﷺ بالخبر، فبعث عليًّا والزبير فأخرجا منها الكتاب وعادا به إلى النبي ﷺ، فدعا حاطبًا فقال له: «ما هذا يا حاطب؟» فقال: لا تعجل علي يا رسول الله، والله إني لمؤمن بالله ورسوله، وما ارتددت ولا بدلت، ولكن كنت امرأً ملصقًا في قريش لست من أنْفَسِهم، ولي فيهم أهل وعشيرة وولد، وليس لي فيهم قرابة يحمونهم، وكان من معك له قرابات يحمونهم، فأحببت إذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتي.

فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله وقد نافق. فقال ﷺ: «إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

فذرفت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم.

خرج النبي ﷺ في جيش قِوامُه عشرة آلاف مقاتل، وعند الجحفة بالقرب من رابغ التقى رسول الله ﷺ بعمه العباس الذي خرج مهاجرًا، وعندما وصل رسول الله ﷺ مرَّ الظهران ونزل هناك جاء أبو سفيان فالتقى به العباس وأخذه إلى النبي ﷺ، فأعلن إسلامه، ثم عاد أبو سفيان إلى مكة يحذر أهلها من مواجهة جيش المسلمين.

قسم النبي ﷺ جيشه إلى أربعة كتائب، يقودهم: الزبير بن العوام، وخالد بن الوليد، وسعد بن عبادة، وأبو عبيدة بن الجراح، وأمرهم النبي ﷺ ألا يقاتلوا إلا

من قاتلهم، فدخل المسلمون مكة فاتحين بغير قتال، إلا مناوشات قليلة لبعض أهل مكة، الذين تعرضوا لخالد بن الوليد فقتل منهم ثلاثة عشر وفر الباقون، ودخل النبي ﷺ مكة صباح الجمعة لعشرين يومًا خلت من شهر رمضان، وأردف خلفه أسامة بن زيد، ودخل خافضًا رأسه تواضعًا لله -عز وجل- على ما أكرمه به من الفتح.

وبعد أن هدأت الأوضاع في مكة طاف رسول الله ﷺ حول الكعبة وبيده قوس، فكسر الأصنام، ثم دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة فدخلها ثم صلى داخلها ثم خرج فوجد أهل مكة قد ملأوا المسجد ينتظرون ما يصنع بهم رسول الله ﷺ فقال لهم: **«يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟»**.

قالوا: خيرًا... أخٌ كريم، وابن أخٍ كريم.

قال: **«فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: (لا تثريب عليكم اليوم) اذهبوا فأنتم الطلقاء»**.

ثم دعا عثمان بن طلحة وقال له: **«هاك مفتاحك يا عثمان... اليوم يوم بر ووفاء»**، وفي رواية **«خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم»**.

غزوة حُنين والطائف

سبب الغزوة: بعد أقل من أسبوعين على فتح مكة وصلت إلى النبي ﷺ أخبارٌ بأن قبائل هوازن وثقيف قد جمعت جموعها؛ لحرب المسلمين، وقالوا: نغزوهم قبل أن يغزوننا، وانضمت إليهم في الطريق بعض القبائل من قيس عيلان، ووصلت الجموع إلى وادي حنين، يقودهم مالك بن عوف النصري، فرأى النبي ﷺ أن يسير إليهم قبل أن يداهموه في مكة ويستبيحوا حرمتها، وسار على رأس اثني عشر ألف مقاتل، منهم ألفان من مسلمة الفتح الذين لم يمض

على إسلامهم إلا أيام معدودات، حتى قال أحدهم: لن نُغلب اليوم من قلَّة.

سبقت هوازن المسلمين إلى وادي حنين، واختاروا مواقعهم، وبثوا كتائبهم في شعابه ومنعطفاته وأشجاره، ونصبوا لمقدمة المسلمين كمينًا في مقدمة الوادي وعلى جنباته، ففوجئ المسلمون به، إلى جانب وابل النبل الذي رمى الأعداء به خيل المسلمين، وأصاب المسلمين ذعرٌ شديد، فتفرقوا من غير نظام، وثبت رسول الله ﷺ ومعه ثمانون رجلاً من المهاجرين والأنصار منهم: أبو بكر وعمر وعلي والعباس وأسامة بن زيد وأبو سفيان بن الحارث، وصمدوا للأعداء، وقال النبي ﷺ:

أنا النبي لا كذب ... أنا ابن عبد المطلب

وأمر عمه العباس أن ينادي في المسلمين، فصرخ بأعلى صوته، وكان جهوريًّا: يا معشر الأنصار، يا أصحاب بيعة الرضوان، فأقبل الناس نحوه، وأنزل الله سكينته عليهم، وأنزل جنودًا لم يروها، وهجم المسلمون على المشركين ففروا منهزمين تاركين النساء والذراري والأموال والمتاع، فغنم المسلمون كل ذلك.

أرسل النبي ﷺ أبا عامر الأشعري في سرية؛ لقتال الذين تجمعوا في وادي أوطاس، فشتت شملهم، واستشهد أثناء القتال، فتولى القيادة بعده ابن أخيه أبو موسى الأشعري.

حصار الطائف:

فرَّ مالك بن عوف قائد هوازن ومعه رجالات قومه حتى وصلوا إلى الطائف وتحصنوا بها، وجمعوا في الحصون ما يكفيهم من الأقوات، وأمطروا المسلمين من الداخل بوابل من النبال، فاستشهد سعيد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه وعبد الله بن أبي أمية ابن عمة رسول الله ﷺ، وأصيب عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما.

وظل رسول الله ﷺ في حصاره ثمانية عشر يومًا، ثم بدا له أن يرحل، فأعلن في أصحابه: «**إنا قافلون إن شاء الله**».

فقال بعض أصحابه: نرجع ولم نفتتحه؟

فقال لهم: «**اغدوا على القتال**»: فغدوا عليه، فأصابهم جراح، فقال لهم رسول الله ﷺ : «**إنا قافلون غدا**» فأعجبهم ذلك، فضحك رسول الله ﷺ.

وقال له بعض أصحابه: يا رسول الله، ادعُ على ثقيف.

فقال: «**اللهم اهد ثقيفًا وائت بهم مسلمين**».

وهدى الله ثقيفًا بعد ذلك بقليل، فقد جاء وفدهم إلى رسول الله ﷺ بالمدينة؛ لإعلان إسلامهم.

فائـــــدة:

لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب والمؤلفة قلوبهم -وهم أهل مكة- ولم يكن في الأنصار منه شيء، وجد الأنصار في نفوسهم من ذلك، وقالوا: يغفر الله لرسول الله: يعطي قريشًا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأرسل إلى الأنصار، فاجتمعوا في مكان أُعد لهم، ولم يدع أحدًا غيرهم، ثم قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال:

«يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم، ألم آتكم ضلالا فهداكم الله بي؟! وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بي؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟» **كلما قال لهم من ذلك شيئًا قالوا: بلى... الله ورسوله أمن وأفضل، ثم قال:** «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟».

قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله والرسول المنة والفضل.

فقال ﷺ: «أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصُدقتم: أتيتنا مُكذَّبًا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلاً فآسيناك» **فصاحوا: بل المن علينا لله ورسوله.**

ثم قال: «أو جدتم -يا معشر الأنصار- في أنفسكم من أجل لعاعةٍ من الدنيا تألَّفت بها قومًا؛ ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضوْن -يا معشر الأنصار- أن يذهبَ الناسُ بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالله لما تنقلبون به خيرٌ مما ينقلبون به، والذي نفسُ محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شِعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكتُ شِعب الأنصار، وإنكم ستلقون أثرةً بعدي، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار» **فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم، وقالوا: رضينا بالله ورسوله قسما ونصيبا.**

غزوة تبـــوك

«جيش العســـرة»

كانت في شهر رجب سنة تسع من الهجرة، وكان الفصل صيفًا، وقد بلغ الحر أقصاه.

سبب الغزوة: علم النبي ﷺ ووصل مسامعه أن الروم قد جمعت جموعها وضمت إليهم نصارى العرب الذين كانوا تحت إمرتهم، فندب النبي ﷺ الناس إلى الخروج وأعلن -على غير عادته- عن الجهة التي سيتوجهون إليها، وجلى للمسلمين أمرهم؛ ليتأهبوا أهبة غزوهم؛ حيث كانت الغزوة وقت نضج الثمار، وقرب الحصاد، والحر الشديد، والناس في عسرة وجدب من البلاء، وقلة

الظهر، فكانوا يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم فيه، وزاد على ذلك بُعد المسافة ووعورة الطريق.

حث النبي ﷺ المسلمين على البذل والتضحية؛ لتجهيز الجيش، فتسابق أهل الإيمان على البذل، وتقدم عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، والعباس وطلحة، ومحمد بن مسلمة، وغيرهم من خيرة أصحاب النبي ﷺ، كلٌّ يقدم ما يستطيع راغبًا في الأجر والمثوبة من الله.

أما المنافقون فقد أعلنوا عن أنفسهم بكل قوة، وأخذوا يقولون لبعضهم: لا تنفروا في الحر، وتوالت أعذارهم الكاذبة، فكانت هذه الغزوة فاضحة لهم، وكاشفة عن إيمان المؤمنين الصادقين الذين رغبوا في الجهاد مع النبي ﷺ وهم فقراء، فطلبوا ظهورًا يركبونها للخروج، فلما اعتذر لهم رسول الله ﷺ تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون في أسباب خروجهم للغزو.

خرج رسول الله ﷺ في جيش قوامُه ثلاثين ألفًا من المسلمين، وكان الرجلان والثلاثة يتعاقبون على بعير واحد، وكان اللواء بيد أبي بكر الصديق وراية المهاجرين بيد الزبير بن العوام، وراية الأوس بيد أسيد بن حضير، وراية الخزرج بيد الحباب بن المنذر، والجيش يقوده عبَّاد بن بشر.

وصل رسول الله ﷺ والجيش إلى تبوك، ولم يجد أثرًا لتجمع الروم فيها، كما جاءه الخبر من قبل، فأقام بها بضع عشرة ليلة جاءه أثناءها يوحنا أمير أيلة وأهل جرباء وأذرح فصالحوه على دفع الجزية، وكتب لهم النبي كتابًا بذلك، استغرقت هذه الغزوة خمسين يومًا بما فيها الذهاب والإياب، وكانت عودته في شهر رجب سنة تسع من الهجرة كما أسلفنا ذكره.

***

حج أبي بكر بالناس ٩ هـ:

لما قفل رسول الله ﷺ عائدًا من تبوك أراد الحج، ثم قال: «إنما يحضر المشركون فيطوفون عراة فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك» فأرسل أبا بكر ﷺ، وأردفه بعليٍّ ﷺ ينهيان المشركين عن الحج بعد ذلك العام، ويعطيانهم مهلة للدخول في الإسلام أربعة أشهر، ثم ليس بينهم وبين المسلمين إلا القتال.

وفود العرب تعلن إسلامها:

لما افتتح رسول الله ﷺ مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف، وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه، وإنما كانت العرب تتربص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش؛ إذ كانوا إمام الناس وأهل البيت والحرم، وصريح ولد إسماعيل عليه السلام وقادة العرب، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ودوخها الإسلام، عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عدوانه، فدخلوا في دين الله أفواجا، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[النصر].

حجة الوداع:

في العام العاشر للهجرة أذّن ﷺ في الناس أنه ذاهب للحج هذا العام، فقدم المدينة خلق كثير تجاوزوا المائة ألف مسلم، كلهم يريد أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله، فخرج ﷺ من المدينة في الخامس والعشرين من ذي القعدة، وأحرم بالحج والعمرة من ذي الْحُليفة.

لقد كان المشهد رائعًا مهيبًا، تنفطر له القلوب، وتذرف منه الدموع، وينحني له التاريخ إجلالا وتقديرًا، فها هو ذا الرجل الذي بدأ دعوته وحده والعرب جميعهم يقفون ضده، ويحاربونه بكل ما يملكون، يلتفون حوله ويسيرون خلفه، ويقودهم في تواضع وبر ورحمة ومودة.

ثم مضى رسول الله ﷺ في حجّه، فعلَّم الناس مناسكَهم، وبيَّن لهم سنن حجهم، وألقى رسول الله ﷺ في يوم عرفة خطبة جامعة في جموع المسلمين مقررًا فيها قواعد الإسلام وشرائعه، هادمًا لقواعد الشرك والجاهلية، موضحًا المحرمات التي اتفقت جميع الشرائع السماوية على تحريمها، وهي: الدماء والأموال، والأعراض، ووضع أمور الجاهلية كلها تحت قدميه، وأوصاهم بالنساء خيرًا، وحذرهم من الفتن، وختمها بدعوة المسلمين إلى التمسك بكتاب الله وسنة رسوله فهما العاصمان للأمة من الضلال والزيغ.

وبعد أداء النبي ﷺ لمناسك الحج عاد إلى المدينة؛ ليستعد للقاء ربه بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وكشف الله به الغمة وأخرج أمته من الظلمات إلى النور.

آخر أعمال النبي ﷺ : بعث أسامة:

ما إن عاد النبي ﷺ إلى المدينة حتى أمر الناس أن يتجهزوا لغزو الروم، واختار أسامة بن زيد بن حارثة قائدًا لهذا الجيش، وأمره أن يسير إلى موضع مقتل أبيه زيد بن حارثة، وأن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، وذلك مع بدء شكواه من مرضه الذي توفي فيه.

ولأن أسامة كان شابًّا حدثًا، فراح البعض يطعن في إمرته قائلين: أمَّر غلامًا

حدثًا على جلَّة المهاجرين والأنصار، فخرج رسول الله ﷺ وقد عصب رأسه فخطبهم قائلاً: «إن تطعنوا في إمارة أسامة بن زيد فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله، وايم الله إن كان لخليقًا بها، وإن كان من أحب الناس إلي وإن هذا من أحب الناس إلي بعده».

وانتدب الناس يلتفون حول أسامة، حتى خرجوا ونزلوا بالجرف (مكان على فرسخ من المدينة) إلا أن الأخبار الواردة عن مرض رسول الله ﷺ ألزمتهم التريث، حتى يعرفوا ما يقضي الله به، وقد قضى الله أن يكون هذا أول بعث ينفذ في خلافة أبي بكر الصديق.

وفاة الرسول ﷺ ولحوقه بالرفيق الأعلى

لم يمكث النبي ﷺ بعد عودته من الحج سوى شهرين حتى بدأ يشعر بالمرض، فكان يشكو من الصداع ويقول: «وارأساه» وكان في بداية مرضه يتحامل على نفسه ويخرج ليصلي بالناس إمامًا، فلما اشتد عليه المرض أمر أبا بكر أن يصلي بالناس إمامًا.

وظل الوجع يشتد بالنبي ﷺ حتى كان آخر يوم له في الدنيا، وهو يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة، وبينما المسلمون في صلاة الفجر وأبو بكر يصلي بالناس، لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ كشف ستر حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه؛ ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، يقول أنس: وهمَّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحًا برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر، ثم لم يأت على رسول الله ﷺ وقت صلاة أخرى.

وارتفع الضحى وبدأت لحظات الاحتضار، وأسندته عائشة إليها، ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر وبيده السواك... تقول عائشة: وأنا مسندة رسول الله ﷺ فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فتناولته فاشتد عليه، وقلت: أليّنه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فلينته فأمرَّه، وبين يديه ركوة فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح به وجهه يقول: «لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات» وما عدا أن فرغ من السواك حتى رفع يده أو أصبعه، وشخص بصره نحو السقف، وتحركت شفتاه، فأصغت إليه عائشة وهو يقول: «مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى... اللهم الرفيق الأعلى».

كرَّر الكلمة الأخيرة ثلاثًا، ومالت يده، ولحق بالرفيق الأعلى، إنا لله وإنا إليه راجعون.

***

الباب الثاني

الخلفاء الراشدون

سنرى أخلاء المسجد وأنضاء العبادة، وحفظة القرآن الكريم، بل وأبناء الربط والزوايا من السلف -رضوان الله عليهم- لا يقنعون باستقلال بلادهم ولا بعزة قومهم ولا بتحرير شعوبهم، ولكنهم ينسابون في الأرض ويسيحون في آفاق البلاد فاتحين معلمين، يحررون الأمم كما تحرروا ويهدونها بنور الله الذي اهتدوا به، ويرشدونها إلى سعادة الدنيا والآخرة، لايغلون ولايغدرون، ولا يظلمون ولا يعتدون، ولا يستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا.

خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه

(من ربيع أول ١١ هـ إلى جمادى الآخرة ١٣ هـ)

انتخاب أبى بكر الصديق أول خليفة للمسلمين:

لما مات رسول الله ﷺ اختلف الصحابة فيما بينهم، فمن قائل يقول: مات رسول الله ﷺ ومن قائل: لم يمت، فلما جاء الصديق حين بلغه الخبر دخل على رسول الله ﷺ منزله وكشف الغطاء عن وجهه وقبله، وتحقق أنه قد مات خرج إلى الناس فخطبهم فقال: «أما بعد، فمن كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت قال الله تعالي: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾[آل عمران:١٤٤].

فنزلت هذه الآية على الناس -ومنهم عمر- وكأنهم يسمعونها لأول مرة فسكنت قلوبهم وزال الإشكال عنهم، واجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة، وتشاوروا فيمن يخلف رسول الله ﷺ في قيادة المسلمين، وبعد مداولات اجتمعت الكلمة على مبايعة أبي بكر الصديق خليفة لرسول الله ﷺ ولم يشذ أحد عن ذلك حتى على بن أبي طالب الذي يزعم البعض أنه تأخر عن مبايعة أبي بكر الصديق.

يقول ابن كثير: «كانت مبايعة على إما في أول يوم أو في اليوم الثاني، فإن عليًا لم يفارق الصديق في وقت من الأوقات، ولم ينقطع في صلاة من الصلوات خلفه، وخرج مع أبي بكر إلى ذي القصة لما خرج الصديق شاهرًا سيفه يريد قتال أهل الردة -كما سيأتي ذكره- ولكن لما حصل من فاطمة -رضي الله عنها- عتب على الصديق بسبب ما كانت تتوهمه من أنها تستحق ميراث

رسول الله ﷺ(١) ولم تعلم بما أخبرها به الصديق واجتمع عليه الصحابة أنه ﷺ قال: «**إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركنا فهو صدقة**» فحجبها الصديق وغيرها من أزواجه وعمه عن الميراث بهذا النص الصريح، فسألته أن ينظر عليّ في الأرض التي بخيبر وفدك فلم يجبها أبو بكر إلى ذلك؛ لأنه رأى أن حقا عليه أن يقوم في جميع ما كان يتولاه رسول الله ﷺ فحصل لها عتب، ثم ماتت بعد ستة أشهر من وفاة أبيها، واحتاج على أن يراعي خاطرها بعض الشيء، فلما ماتت رأي أن يجدد البيعة لأبي بكر ﷺ مع ما تقدم له من بيعة.

وكان أول ما خطب أبو بكر:

أما بعد.. أيها الناس، قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف منكم قوي عندي حتى أزيح علته، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ منه الحق إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا يشيع قوم قط الفاحشة إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ﷺ فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم

أزمة المرتدين:

كان ظهور حركة الردة منذ عهد رسول الله ﷺ، فارتد مسيلمة بن حبيب الكذاب في اليمامة، وارتد الأسود العنسي في اليمن، وارتد طليحة بن خويلد في بني أسد، وارتدت امرأة من بني تميم تدعي سجاح كانت تعيش بالجزيرة، وقد

---

(١) لم يترك رسول الله ﷺ دينارًا ولا درهمًا، ولا عبدًا ولا أمة، ولا شاة ولا بعيرًا ولا شيئًا يورث عنه، بل أرضًا جعلها كلها صدقة لله عز وجل، بل توفي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين دينارًا!!

هم النبي ﷺ أن يرسل جيوشًا للقضاء على هؤلاء ولكن المنية وافته قبل ذلك.

ارتد هؤلاء وهم من رؤساء القوم طلبًا للرياسة فتبعهم قومهم بغير إعمال العقل ولا تدبر، فلما تولي أبو بكر امتدت حركة الردة في أنحاء الجزيرة العربية وكانت أعظم أزمة تعرض لها أبو بكر الصديق، بل إن الأمة الإسلامية في تاريخها كله لم تتعرض لمثل هذه الفتنة الخطيرة.

إنفاذ جيش أسامة

ورغم هذه الفتنة العظيمة فقد صمم أبو بكر أن ينفذ وصية رسول الله ﷺ بإنفاذ جيش أسامة، الذي كان أعده الرسول ﷺ ليتوجه إلى بلاد الروم.

وكان لإنفاذ هذا الجيش والالتزام بتعليمات النبي ﷺ أثر عظيم في تقليل آثار الفتنة يتضح ذلك فيما يرويه أبو هريرة قال: «والله الذي لا اله إلا هو لولا أبو بكر استُخلف ما عُبِدَ الله، ثم قال الثانية، ثم قال الثالثة (أي كرر العبارة ثلاث مرات) فقيل له: مه يا أبا هريرة؟

فقال: إن رسول الله ﷺ وجه أسامة بن زيد في سبعمائة إلى الشام، فلما نزل بذي خُشُب (واد على مسيرة ليلة من المدينة) قُبِضَ رسول الله ﷺ وارتدت العرب حول المدينة، فاجتمع إليه أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا بكر رد هؤلاء، توجه هؤلاء إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة؟! فقال: والذي لا إله غيره لو جَرَت الكلاب بأرجلِ أزواج رسو ل الله مارددت جيشًا وجهه رسول الله ﷺ ولا حللت لواءًا عقده رسول الله ﷺ فوجه أسامة، فجعل لا يمر بقبيل يريدون الارتداد إلا قالوا: لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، ولكن ندَعهم حتى يلقوا الروم، فلقوا الروم فهزموهم وقتلوهم ورجعوا سالمين، فثبتت هذه القبائل على الإسلام لما رأوا نصر المسلمين وقوتهم».

وهكذا بارك الله في رأي أبي بكر الذي لم يكن رأيًا فرديًا، وإنما كان أبو بكر يعلم جيدًا أنه لا مجال للاجتهاد أو الشورى مع وجود النص الواضح الجلي.

ويخرج أبو بكر مودعًا لجيش أسامة بن زيد الشاب الصغير السن، ويأمرهم بالمسير، ويسير معهم ماشيًا وأسامة راكبًا، فيقول أسامة: يا خليفة رسول الله إما أن تركب وإما أن أنزل، فيقول له أبو بكر: والله لا تنزل ولا أركب وما على أن أغبر قدمي ساعةً في سبيل الله، ثم استأذن أبو بكر أسامةَ في أن يستبقي معه عمر بن الخطاب وكان معدودًا في الجيش فأذن له أسامة.

ونعود للحديث عن حركة الردة فنقول إن الردة كانت على درجتين:

مرتدون ردة كاملة، وهؤلاء اتبعوا المتنبئين في بلاد طيء وحنيفة وأسد وتميم واليمن، ومرتدون ظنوا أن الزكاة لا تؤدى إلا للنبي ﷺ لأن الله -سبحانه وتعالى- قال: ﴿خُذْ مِن أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتزكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيهِمْ..﴾ فلما مات النبي ﷺ امتنعوا عن أداء الزكاة لأبي بكر متأولين الآية أن الزكاة لا تؤدى إلا لرسول الله ﷺ فأما بعد موته فإنها تسقط عنهم. وفي هذا النفر الثاني كانت مراجعة عمر لأبي بكر.

قال عمر لأبي بكر: علام تقاتل الناس؟ وقد قال رسول الله ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها».

فقال أبو بكر: والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعها، إن الزكاة حق المال، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة.

قال عمر: فما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق، وعقد أبو بكر أحد عشر لواءً في أنحاء الجزيرة لمحاربة المرتدين فكانت كالآتي:

١ - جيش بقيادة **خالد بن الوليد** يتوجه إلى ضاحية مضر في بلاد نجد حيث طليحة ابن خويلد في بني أسد، فإذا فرغ خالد من طليحة يسير إلى البطاح حيث مالك بن نويرة في بني تميم.

٢ - جيش بقيادة **عكرمة بن أبي جهل** يتوجه إلى اليمامة إلى مسيلمة بن حبيب الكذاب في بني حنيفة.

٣ - جيش بقيادة **شرحبيل بن حسنة** يتوجه إلى اليمامة أيضًا.

٤ - جيش بقيادة **طريفة بن حاجز** يتوجه إلى منازل بني سليم ومن معهم من مرتدي هوازن.

٥ - جيش بقيادة **عمرو بن العاص** يتوجه شمالاً إلى قبائل قضاعة ووديعة والحارث.

٦ - جيش بقيادة **خالد بن سعيد** يتوجه إلى مشارف الشام.

٧ - جيش بقيادة **العلاء بن الحضرمي** يتوجه إلى البحرين حيث الحطم بن ضبيعة في مرتدي عبد القيس وقبائل ربيعة.

٨ - جيش بقيادة **حذيفة بن محصن** يتوجه إلى دبا بعمان.

٩ - جيش بقيادة **عرفجة بن هرثمة** يتوجه إلى أهل مهرةٍ.

١٠ - جيش بقيادة **المهاجر بن أمية** يتوجه إلى صنعاء باليمن حيث الأسود العنسي ثم إلى حضرموت.

١١ - جيش بقيادة **سويد بن مقرن** يتوجه إلى تهامة باليمن.

ولقد نجح هؤلاء القادة في القضاء على حركة الردة...

فخالد بن الوليد في عشرة آلاف مقاتل تواجه مع طليحة بن خويلد في

أربعين ألفًا في **معركة تسمى بزاخة** (ماء لطيء أو بني أسد بأرض نجد) وهُزم طليحة الذي فر هاربًا، ثم تاب بعد ذلك واستشهد في نهاوند!!

وكان من أشرس المعارك التي خاضها الصحابة في حياتهم **معركة اليمامة**، وكان قائد المسلمين فيها عكرمة بن أبي جهل ومعه أمر من أبي بكر بأن يتجنب الالتحام حتى يصل إليه مدد شرحبيل بن حسنة، ولكن عكرمة لم يلتزم بالأمر فهُزم في بادئ الأمر... فلحق به خالد بن الوليد وانتصر المسلمون وقد قتل من المرتدين عشرون ألفًا منهم مسيلمة، وقتل من المسلمين مائتان وألف منهم أربعمائة من المهاجرين والأنصار حملة القرآن... وهو عدد من الشهداء لم يسقط من قبل.

وفي معركة اليمامة ظهرت مواقف وبطولات جديرة بالذكر منها:

- كان الصحابة كي يثبت بعضهم بعضًا يتنادون: يا أصحاب البقرة (سورة البقرة)
- وحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض إلى أنصاف ساقيه، وهو حامل لواء الأنصار يومها، بعدما تحنط وتكفن، فلم يزل ثابتًا حتى قتل شهيدًا رحمه الله.
- وقال المهاجرون لسالم مولى أبي حذيفة: أتخشى أن نؤتى من قِبَلِكْ؟ فقال: بئس حامل القرآن أنا إذن.
- ووقف أبو حذيفة يذكر أصحابه قائلاً: «يا أهل القرآن، زينوا القرآن بالفعال» ثم حمل على المرتدين حتى أصيب، رضى الله عنه.
- ومن هذه المشاهد أن المرتدين احتموا بحديقة وأغلقوها عليهم (سميت حديقة الموت لكثرة من قتل بداخلها) فنادى البراء بن مالك في جند المسلمين: «يا معشر المسلمين، ألقوني في الحديقة»، فاحتملوه فوق

الجحف ورفعوها بالرماح، حتى ألقوه عليهم من فوق سورها، فلم يزل يقاتلهم دون بابها حتى فتحه..

- ولضراوة المعركة تكسرت في يد خالد بن الوليد يومها تسعة أسياف..
- ومن لطائف المشاهد يومها أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وعباد بن بشر، قتلا يوم اليمامة شهيدين وكان الرسول ﷺ قد آخى بينهما..

۞ وأما في البحرين فقد كان القائد الرباني العلاء بن الحضرمي يخوض بجيشه لجج البحار غير هياب.

يقول أبو هريرة وكان مشاركًا في هذا الجيش: «لما فر جيش المرتدين عابرًا البحر مستخدمًا السفن، ولم نكن ندرك عدونا بالسفن، دعا العلاء بن الحضرمي ربه وأمر الجيش بالعبور فكان من دعائه: يا أرحم الراحمين، يا حكيم يا كريم، يا أحد يا صمد، يا حي يا محْيي،يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت، يا ربنا أجزنا من هذا البحر». و أمر الجيش أن يقولوا ذلك ويقتحموا ففعلوا.. «فمشينا على الماء، فوالله ما ابتل لنا قدم ولا حافر».

وهكذا دارت رحى هذه المعارك التي استغرقت بقية السنة الحادية عشرة، استنفر فيها أصحاب رسول الله ﷺ في أحد عشر جيشًا، يتابع ذلك كله غرفة عمليات بها أبو بكر وعمر وعلى بن أبى طالب، وأهل مشورة الخليفة بغير كلل ولا ملل في سبيل حفظ الدين فرحمة الله عليهم جميعًا.

بدأ العام الثاني عشر من الهجرة وكان من آثار معارك المرتدين - خاصة وقعة اليمامة- أن استشهد عدد كبير من القراء حملة القرآن مما جعل عمر ينتابه القلق، لأن القرآن كان حتى هذه اللحظة مفرقًا بين الصحابة، بعضهم يحفظه ولا يكتبه، والبعض ممن كلفهم رسول الله ﷺ بكتابة الوحي كتبوه، ولكن لم يتجمع كله

عند أحدهم بل كان مفرقًا بينهم. فالأمر متروك بغير جمع كامل واضح، ومن ثم نقل عمر قلقه إلى أبي بكر.

جمع القرآن في عهد أبي بكر:

ويروي لنا البخاري القصة بسنده إلى زيد بن ثابت الذي قال:

«أرسل إلى أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة، وعنده عمر، فقال لي أبو بكر:

إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استَحَرّ يوم اليمامة بالناس، وإني أخشى أن يستحِرَّ القتل بالقراء في المواطن كلها، فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه، وإني لأرى أن يُجمع القرآن.

قال أبو بكر فقلت لعمر كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ.

فقال: هو والله خير، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله لذلك صدري ورأيت الذي رأى عمر.

قال زيد: وعنده عمر جالس لا يتكلم، فقال لي أبو بكر: إنك لرجل شاب عاقل لا نتهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه.

قال زيد: فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرني به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلان شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ!!

فقال أبو بكر: هو والله خير، فلم أزل أراجعه، حتى شرح الله صدري للذي شرح صدر أبي بكر وعمر». فماذا فعل زيد؟!

استعان بالحفظة الكرام من صحابة النبي ﷺ ووضع خطة مثالية دقيقة...

فلم يعتمد على حفظه -وإنه لحافظ- ولا على حفظ من استعان بهم- وإنهم لحفاظ أمناء- ولكنه كان لا بد أن يعتمد على أمر مادي، يُرى بالحس لا

يحفظ بالقلب وحده، فاشترط شرطين:

الشرط الأول: أن يرى ما يحفظه الصحابي من القرآن مكتوبًا في عصر النبيﷺ.

والشرط الثاني: أن يشهد شاهدان بأنهما هكذا رأوا ذلك المكتوب في عصر النبي ﷺ وبإملائه عليه السلام.

وقد تتبع زيد القرآن بهذه الطريقة آية آية يجمعه من العُسُب (جريد النخل) واللِّخاف (صفائح الحجارة) والرقاع (تكون من جلد أو ورق) وصدور الرجال... ولكنه وجد آيتين لم يشهد اثنان بأنهما كتبتا في عصر النبيﷺ بل شهد واحد فقط وهو خزيمة بن ثابت الأنصاري، وكان النبيﷺ قد قال له- تكريمًا- شهادتك باثنين، فاستوفت الآيتان الشرط.

ولما أتم زيد ما كتب، تذاكره الناس وأقروه فكان المكتوب متواترًا بالكتابة ومتواترًا بالحفظ في الصدور، وما تم هذا لكتاب في الوجود غير القرآن... وحفظ الله قرآنه من الضياع كما وعد سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ولكنه حفظه على أيدي رجال عاشوا للإسلام وانشغلوا به في كل لحظة من حياتهم فكان هذا الجمع الأول للقرآن ولله الحمد والمنة.

***

بداية عصر الفتوحات

بدء فتوحات العراق وبلاد فارس

انتهت حروب الردة، وانتهت معها الردة بكل صورها وأشكالها، واستقرت الجزيرة العربية، وعادت للدين الحنيف، وبدأ الصِّديق يجهز للفتوحات، وبدأ بالعراق فأعد لذلك جيشين:

الجيش الأول: بقيادة خالد بن الوليد، وكان وقتها باليمامة، فأرسل إليه أبو بكر يأمره أن يغزو العراق من جنوبه الغربي، ويبدأ بالأبلة حتى يأتي العراق من أعاليه.

الجيش الثاني: بقيادة عياض بن غُنم، وكان وقتها في قرية تسمى «النباج» في منتصف الطريق بين مكة والبصرة، فأمره أبو بكر أن يغزو العراق من شماله الشرقي بادئًا بالمصيخ، وقال له: سر حتى المصيخ وابدأ بها، ثم ادخل العراق من أعلاها حتى تلقى خالدًا، وائذن لمن شاء من الجيش بالرجوع، ولا تستفتح بمتكاره، فمن شاء فليقدم ومن شاء فليحجم.

وكتب الصديق إلى خالد بن الوليد وعياض بن غنم أن يسبقا إلى الحيرة وأيهما سبق إلى الحيرة فهو أمير على صاحبه، وقال: إذا اجتمعتما بالحيرة وقد فضضتما مسالح فارس، وأمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم، فليكن أحدكما ردءًا للمسلمين ولصاحبه بالحيرة، وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكم -من أهل فارس- دارهم ومستقر عزِّهم المدائنَ.

وقد أمر الصديق أيضًا كلاًّ منهما أن يتألف الناس ويدعوهم إلى الإيمان بالله -عز وجل- فإن أجابوا، وإلا أخذ الجزية منهم، فإن أجابوا وإلا قاتلهم، وألا يستعين أيٌّ منهما بمن ارتد عن الإسلام ثم عاد إليه.

وأمر أبو بكر الصديق المثنى بن حارثة أن ينضم بمن معه لجيش خالد بن الوليد، وأرسل إليه:

«أما بعد فإني قد بعثت إليك خالد بن الوليد إلى أرض العراق، فاستقبله بمن معك من قومك، ثم ساعده ووازره وكانفه، ولا تعصين له أمرًا، ولا تخالفن له رأيًا، فإنه من الذين وصف الله -تبارك وتعالى- في كتابه: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] فما أقام معك فهو الأمير، فإن شخص عنك، فأنت على ما كنت عليه».

كان تاريخ بعث خالد إلى العراق في شهر رجب سنة ١١ هـ، وقيل في شهر المحرم سنة ١٢ هـ وبلغ تعدادُ جيش خالد ثمانية عشر ألفًا خاض بهم إحدى عشرة معركة انتصر فيها جميعًا بفضل الله عز وجل.

معارك خالد بن الوليد في العراق:

١- ذات السلاسل:

بدأ خالد بن الوليد سيره إلى (الأبلة)، وأرسل إلى هرمز صاحب ثغر الأبلة كتابًا يقول فيه: أما بعد، فأسْلِم تسلم أو تعقد لنفسك وقومك الذمة، وأقرر بالجزية وإلا فلا تلومن إلا نفسك، فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة.

وقسَّم خالد الجيش إلى ثلاث فرق، فجعل على المقدمة «المثنى بن حارثة» ثم تلتها فرقة «عدي بن حاتم الطائي» ثم فرقة يقودها خالد بنفسه، وأمر أن تسلك كل فرقة منهم طريقًا غير الآخرى.

سمع هرمز بمسير خالد، وعلم بتواعد خالد وجيوشه «الحضير» فسبقهم إليه، والتقى الجيشان، وانتصر المسلمون بفضل الله، وقد قَتَل خالد بن الوليد هرمز قائد الفرس الذي حاول قتل خالد خيانة وغدرًا، فقيض الله القعقاع بن

عمرو الذي اكتشف الخديعة وأنقذ خالد.

وقد سميت هذه المعركة بـ «ذات السلاسل» لأن الفرس ربطوا أنفسهم بالسلاسل حتى لا يفروا، فكانت وبالاً عليهم ولم تغن عنهم شيئا.

٢- **المذار «الثَّني»**: وكانت في صفر سنة ١٢ هـ، وسببها: أن هرمز كان قد بعث إلى كسرى يخبره بكتاب خالد بن الوليد، ويطلب منه المدد، فأرسل إليه كسرى مددًا بقيادة «قارن» وتعجل هرمز قتال خالد قبل وصول مدد «قارن» وحلت به وبجيشه الهزيمة، وتلقى «قارن» فلول الهاربين المنهزمين مع هرمز.

واتفقوا على العودة إلى خالد؛ لقتاله، فساروا إلى موضع يسمى «المذار» وبلغ خالد أمرهم، فأرسل إلى أبي بكر الصديق يخبره، وسار بجنوده حتى وصل المذار وهو مستعد في أي وقت للقتال، والْتقى الجيشان، واقتتلوا قتالا شديدًا، وخرج قائد الفرس «قارن» يدعو خالدًا للمبارزة، فخرج إليه خالد، ولكن سبقه إليه معقل بن الأعمش بن النباش فقتله، وكان قارن قد وضع على الميمنة «قباذ» وعلى الميسرة «أنوشجان» وكانا من القواد الذين حضروا معركة ذات السلاسل وفروا منها، وتصدى لهما أبطال المسلمين فقلتوهما، وكان الذي قتل قباذ: عاصم بن عمرو التميمي، وانهزم بفضل الله الفُرس وقُتل منهم يومئذ ثلاثون ألفا، وغرق منهم الكثير، ولجأ بقيتهم إلى السفن، فهربوا عليها، ووقع منهم في الأسر كثيرون كان منهم حبيب أبو الحسن البصري، وكان نصرانيًّا.

٣- **الولجة**: بلغ خبر هزيمة الجيش الفارسي في معركة «المذار» إلى كسرى فارس «أردشير» فأرسل أحد قواده المشهورين بالشجاعة واسمه «الأندزغر» لقتال المسلمين، فسار بجيشه حتى بلغ مكانا اسمه «الولجة» وبلغ خالد خبر تجمع الفرس ونزولهم بالولجة، فتحرك بجيشه حتى وصل إليها، ولكي يؤمِّن

خالد خطوطه الخلفية أمر سُويد بن مقرن بلزوم الحضير، وبعث بفرقتين؛ لمهاجمة حشود الفرس من الخلف والجانبين، وبدأت المعركة، واشتد القتال وشدَّد خالد بهجومه على المقدمة، وانقض الكمينان على مؤخرة الجيش الفارسي، ودبت في صفوف الفرس الفوضى، وأصيبوا برعب شديد، فولوا مدبرين، وهرب قائد الجيش «الأندزغر» ومات في طريقة عطشًا، وقتل من الفرس خلق كثير، وأسر منهم المسلمون خلقًا كثيرًا، ويقال: إن خالدًا بارز يوم الولجة رجلاً من الأعاجم كان يعدل بألف رجل فقتله، ولما فرغ اتكأ عليه ودعا بغذائه.

٤- أليس «فتح أمغيشيا»: بلغ خالد بن الوليد خبر تجمع نصارى العرب إلى الأعاجم، يقودهم عبد الأسود العجلي، وانضموا إلى الفرس تحت قيادة «جابان»، وقد طلب جابان من جنده مهاجمة جيش المسلمين، فاظهروا عدم الاهتمام بخالد، والتهاون بأمره، وتداعوا إلى الطعام فلم يدَعهم خالدٌ يهنأون بطعامهم، واقتتل الفريقان أشد القتال، وقد صبر الفرس في بداية المعركة؛ لما يتوقعون من وصول مدد كبير بقيادة بهمن جاذويه، وصبر المسلمون على هذا القتال صبرًا كبيرًا، وقال خالد: اللهم إن لك على إن منحتنا أكتافهم ألا أستبقي منهم أحدًا قدرنا عليه حتى أُجري نهرَهم بدمائهم، وقد كان... فمنح الله المسلمين أكتاف الفرس، فأمر خالد مناديه فنادى: الأسر... الأسر، لا تقتلوا إلا من امتنع من الأسر، فأقبلت خيول المسلمين بأسراهم، فوكل خالد من يضرب أعناقهم، وبلغ عدد قتلاهم في هذه المعركة سبعين ألفا.

وبعث خالد بن الوليد إلى الصديق ببشارة الفتح، وبالخُمس من الأموال والغنيمة مع رجل اسمه جندل من بني عجل، فلما بلغ الصديق ذلك خطب في المسلمين قائلاً: يا معشر قريش عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراديله (قطع اللحم) أعجزت النساء أن يلدن مثل خالد!!

٥- **فتح الحيرة**: وصلت أنباء ما صنع خالد بأمغيشيا إلى مرزبان الحيرة، فأيقن بقدوم خالد إليه لا محالة، فاستعد لذلك، وأرسل جيشًا بقيادة ابنه، ثم خرج في إثره وقد توقع أن يركب خالدٌ النهر، فأمر رجاله بسد قناطر الفرات؛ ليعوق سير السفن إليه، ثم عسكر خارج الحيرة بانتظار خالد.

وركب خالد ورجاله السفن، وساروا إلى الشمال صوب الحيرة، فارتطمت السفن بقاع البحر، فغضب خالد، وانطلق فقصد ابن المرزبان، فلقي خيلا من خيله، ففاجأهم، فأنامهم بالمقر، ثم نهض قبل أن تصل أخباره إلى المرزبان حتى لقي جندًا لابنه على فم الفرات فقاتلهم وهزمهم، وسد الأنهار، وسلك الماء سبيله، ثم طلب خالد عسكره واتجه إلى الحيرة، وعلم المرزبان بموت ابنه، فهاله الأمر، فعبر الفرات هاربًا من غير قتال، فعسكر خالد مكانه، ومضى خالد ورجاله إلى «النجف» ثم أقام بالقرب من القصر الأبيض، فوجد أهل الحيرة قد تحصنوا في قصورهم، فما كان منه إلا أن عيَّن لكلِّ قصر رجلاً من قُواده يحاصر أهله على هذا النحو:

١- ضرار بن الأزور؛ لمحاصرة القصر الأبيض، وكان فيه إياس بن قبيصة الطائي.

٢- ضرار بن الخطاب ؛لمحاصرة قصر العدسيين، وفيه عدي بن عدي العبادي.

٣- ضرار بن مُقَرِّن؛ لمحاصرة قصر بني مازن، وكان فيه ابن أكَّال.

٤- المثنى بن حارثة؛ لمحاصرة قصر ابن بُقَيْلة، وكان فيه عمر وبن عبد المسيح، وعهد خالد إلى أمرائه أن يدعوهم إلى الإسلام أولاً، فإن أجابوا قبلوا استجابتهم، وإن أبوا أجَّلوهم يومًا ثم قاتلوهم.

واختار القوم القتال، فرموا المسلمين بالحذف، فرشقهم المسلمون بالنبل، وشنوا غاراتهم، فاستسلم القوم وطلبوا لقاء خالد، فقابلهم خالد؛ كل أهل

قصر على حدة، ولامهم على فعلهم وتصالحوا مع خالد على الجزية، وصالحوه على مائة وتسعين ألفًا، وبعث خالد بالفتح والهدايا إلى أبي بكر.

أخلاق المسلمين ورفعتهم وتعففهم: لما وصلت الهدايا إلى خليفة المسلمين أبي بكر الصديق قبل ﷺ الهدايا، لكنه عدها لأهل الحيرة جزءًا من قيمة الجزية تعففًا عما لم يأذن به الشرع، وقطعًا لدابر العادات الأعجمية التي كان يحتال بها على سلب أموال الناس.

وكتب خالد كتابًا لهم قال فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عديًّا وعمرا ابني عدي وعمرو بن عبد المسيح، وإياس بن قبيصة، وحيرى بن أكَّال، وهم نقباء أهل الحيرة، ورضي بذلك أهل الحيرة وأمروهم به، عاهدهم على تسعين ومائة ألف درهم، تُقبل في كل سنة جزاءً عن أيديهم في الدنيا -رهبانهم وقسيسيهم- إلا من كان منهم على غير ذي يدٍ حبيسًا عن الدنيا، تاركًا لها، أو سائحًا تاركًا للدنيا، وعلى المنعة... فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم، وإن غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة.

بفتح الحيرة تحقق شطر من أمل أبي بكر الصديق ﷺ في فتح العراق وإخضاعه؛ تمهيدًا لغزو فارس في عقر دارهم، وقد نجح خالد بن الوليد في القيام بمهمته خير قيام، ووصل إلى الحيرة في زمن قياسي؛ حيث بدأ أولى معاركه في شهر محرم سنة ١٢ هـ، وانتهى من فتح الحيرة في شهر ربيع الأول من نفس السنة؛ أي في خلال ثلاثة أشهر أو تقل.

٦- **فتح الأنبار «ذات العيون»**: اتخذ خالد بن الوليد من الحيرة قاعدة لجيوش المسلمين، وظل فيها حتى استقرت له الأمور تمامًا، واطمأن إلى أمان ظهر المسلمين،

فاستخلف على الحيرة القعقاع بن عمرو التميمي، واتجه لإغاثة عياض بن غنم الذي أرسله خليفة المسلمين أبو بكر؛ لفتح العراق من الشمال، ويلتقي بخالد.

وصل خالد إلى الأنبار، فوجد القوم قد تحصنوا وخندقوا على أنفسهم وأشرفوا من أعالي الحصون، فضرب المسلمون عليهم الحصار، وأمر خالد جنوده أن يُصوبوا النبال إلى عيون أهل الأنبار، فأصاب المسلمون في أول رمية ألف عين من عيونهم، فسميت المعركة «ذات العيون»، بعدها عرضوا الصلح ووضعوا شروطًا لم تعجب قيادة المسلمين، فاقتحم خالد ورجاله الخندق؛ حيث عمد إلى الضعاف من الإبل بجيشه فنحرها، وملأ الخندق في أضيق نقطة فيه بجثث الإبل، ثم اقتحموا فصاروا مع عدوهم داخل الخندق، فالتجأ العدو إلى الحصن، واضطر شيراز قائد جند الفرس إلى قبول الصلح بشروط خالد، على أن يخرج من الأنبار في عدد من الفرسان يحرسونه، فقبل خالد منه ذلك بشرط ألا يأخذ معه من المتاع أو من الأموال شيئًا.

٧- **عين التمر**:استخلف خالد بن الوليد على الأنبار الزِّبْرقان بن بدر، وسار إلى عين التمر، فوجد جمعًا عظيمًا من قبائل التمر وتغلب وإياد ومن حالفهم، يقودهم عقة ابن أبي عقة، ومعهم أيضا الفرس يقودهم «مهران» وطلب عقة من مهران أن يترك له قتال خالد، وقال له: إن العرب أعلم بقتال العرب، فدعنا وخالدًا، فوجدها مهران فرصة فقال له: دونكم وإياهم، وتنحى مهران بجيشه ينتظر ما تسفر عنه المعركة.

سار خالد بجيشه وتلقاه عقة، فلما توجهوا، قال خالد لمجنبته: احفظوا مكانكم، فإني حامل، وأمر حماته أن يكونوا من ورائه، وقرر أن ينهي المعركة في لحظات قليلة، فماذا فعل؟

حمل خالد على عقة وهو يسوي صفوف جيشه، فاحتضنه وأسره، وانهزم

جيشه عقة من غير قتال، فأكثروا فيهم الأسر، وقصد خالد حصن عين التمر، فلما بلغ مهران هزيمة عقة وجيشة نزل من الحصن وهرب وتركه، ورجعت فلول نصارى الأعراب إلى الحصن فوجدوه مفتوحًا فدخلوه واحتموا به.

وجاء خالد فحاصرهم أشد الحصار، واضطر أهل الحصن أن ينزلوا على حكم خالد، فأمر بضرب عنق عقة ومن كان أسر معه أمام الحصن، وغنم جميع ما في ذلك الحصن، ووجد في الكنيسة التي بالحصن أربعين غلامًا يتعلمون الإنجيل وعليهم باب مغلق، فكسره خالد وفرَّقهم في الأمراء وأهل الغناء، وكان من هؤلاء حمران مولى عثمان بن عفان، وسيرين والد محمد بن سيرين التابعي الشهير.

٨- **دومة الجندل:** أرسل أبو بكر الصديق الوليد بن عقبة إلى عياض بن غنم مددًا له وهو محاصر دومة الجندل، فلما قدم عليه وجده في ناحية من العراق يحاصر قومًا، وهم قد أخذوا عليه الطريق، فهو مُحاصر أيضا، فقال عياض للوليد: إن بعض الرأي خير من جيش كثيف، ماذا ترى فيما نحن فيه؟

فقال له الوليد: اكتب إلى خالد يمدك بجيش من عنده، فكتب إليه يستمده، فقدم كتابه على خالد عقب معركة عين التمر وهو يستغيث فكتب إليه خالد.

من خالد إلى عياض: إياك أريد

لبث قليلا تأتك الحلائب[1]

يحملن آسادا عليها القشائب[2]

كتائب تتبعها كتائب

ورحل خالد بجنده من عين التمر، وما أن وصلت أنباؤه إلى أهالي دومة الجندل حتى دب الرعب والهلع في نفوسهم، فأسرعوا يستنجدون بحلفائهم من

(١) ما يحمل عليه من دواب. (٢) السموم، جمع قشب.

قبائل بهراء وكلب وغسان وتنوخ، وقد تمكن خالد من أحد زعماء دومة الجندل وهو أُكيدر بن عبد الملك الذي خان عهده مع خالد سابقًا، فلما تمكن خالد منه هذه المرة أمر بقتله جزاء خيانته.

دارت المعركة بين جيش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد وعياض، وجيوش أهل دومة الجندل بقيادة الجودي بن ربيعة وابن الحدرجان وابن الأبهم، وانتصر المسلمون، وقُتل من المشركين عدد كبير، وفَتحت دومة الجندل أبوابها، ودانت للمسلمين، وقد كانت ذات أهمية فريدة وموقع استراتيجي؛ لأنها تقع على ملتقى الطرق إلى ثلاث جهات:

١- من الجنوب: شبة الجزيرة العربية.
٢- من الشمال الشرقي: العراق.
٣- ومن الشمال الغربي: الشام.

لذلك كانت هذه المدينة محل عناية شديدة من خليفة المسلمين أبي بكر الصديق، ولو أن دومة الجندل لم تذعن للمسلمين لبقي أمرهم في العراق تحفُّه المخاطر.

٩- **الحصيد**: كاتبت القبائل العربية الأعاجم؛ ليكونوا معهم على خالد؛ غضبًا لقائدهم عقة الذي قتله خالد، فخرج رزمهر من بغداد ومعه روزبة يريدان الأنبار، وتواعدوا في الحصيد والخنافس، والتقت جيوش المسلمين بجموع الفرس، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، من بينهم رزمهر وروزبة، وغنموا غنائم كثيرة.

وتسمى هذه الموقعة أيضًا بموقعة الخنافس.

١- **المُصيَّخ**: ما إن وصلت أخبار المسلمين في الحصيد إلى خالد، حتى واعد قادة جيوشه في ليلة وساعة يجتمعون فيها عند المصيخ قرب حوارات، فلما توافوا في موعدهم بيّتوا بعض القبائل ومن آوى إليهم من ثلاثة أوجه، فأوقعوا

بهم خسائر كبيرة، ثم علم خالد بتحشد بعض القبائل في المثنى والزميل من ديار بكر استعدادًا لقتال المسلمين، فباغتهم في المثنى من عدة اتجاهات، فشتت جموعهم، وكذلك هاجم المتحشدين في الزميل، فأوقع بهم خسائر هائلة.

٢- **الفراض**: وقد واجه المسلمون في هذه المعركة -ولأول مرة- جيشًا مكونًا من الفرس «دولة المشرق العظمى» والروم «دولة المغرب العظمى» والعرب الموالين لهما من قبائل: تغلب وإياد والنمر، اجتمعت كل هذه الجيوش ضد المسلمين، فلما بلغوا الفرات قالوا للمسلمين: إما أن تعبروا إلينا أو نعبر إليكم، فقال خالد: اعبروا. قالوا: فتنحوا حتى نعبر.

فقال خالد: لا نفعل، ولكن اعبروا أسفل منا؛ وذلك للنصف من ذي الحجة سنة ١٢ هـ.

فقالت الروم وفارس بعضهم لبعض: احتسبوا مُلككم، هذا رجل يقاتل على دين، وله عقل وعلم، ووالله لَيُنصرن ولَنُخذلن، ثم لم ينتفعوا بذلك وعبروا أسفل من خالد، فلما اكتملوا قالت الروم: امتازوا حتى نعرف اليوم ما كان من حسن أو قبيح، ومن أينا يجيء.

واقتتل الفريقان قتالاً شديدًا، حتى منَّ الله على المسلمين بالنصر، وقتل من الأعداء عشرات الألوف، وأقام خالد في الفراض عشرة أيام، ثم أمر بالرجوع إلى الحيرة.

وتعتبر هذه المعركة خاتمة المعارك التي خاضها خالد بن الوليد في العراق.



بدء غزو الشام (بلاد الروم)

وفي رجب من نفس العام أرسل أبو بكر أربعة جيوش متفرقة إلى الشام وهي:

١- جيش بقيادة يزيد بن أبي سفيان إلى دمشق.

٢- جيش بقيادة شرحبيل بن حسنة إلى الأردن.

٣- جيش بقيادة أبي عبيدة بن الجراح إلى حمص.

٤- جيش بقيادة عمرو بن العاص إلى فلسطين.

ولكن هذه الجيوش الأربعة واجهت متاعب كثيرة في مواجهة الروم، وعندئذ قرر أبو بكر أن ينقل خالدًا وفئة ممن معه إلى الشام وقال: والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد، وكان ذلك في صفر سنة ١٣ هـ.

فائدة: في جندية أصحاب رسول الله ﷺ: كان عمرو بن العاص عاملاً على صدقات قضاعة... فكتب إليه أبو بكر يستنفره إلى غزو بلاد الشام: «وإني قد رددتك على العمل الذي ولاّكه رسول الله ﷺ وسمّاه لك أخرى، وقد أحببت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خيرٌ لك في حياتك ومعادك منه، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحبَّ إليك» فكتب إليه عمرو بن العاص قائلاً: «إني سهم من سهام الإسلام، وأنت بعدالله الرامي بها، والجامع لها، فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم بي فيها».

وهكذا مضت أيام أبي بكر في عمل متواصل من أجل نصرة الدين، فلولا أن قيض الله للأمة أبا بكر لهلك الناس...

إنه عطاء متواصل قبل الخلافة وبعدها ومع ذلك لم يكن أبو بكر يرى نفسه أهلاً

لهذه المكانة وهذه المنزلة. وانظر إلى ما يرويه البخاري في تاريخه عن سفيان عن عبيدة قال: «جاء عيينة بن حصن والأقرع بن حابس إلى أبي بكر ﵁ فقال: يا خليفة رسول الله، إن عندنا أرضًا سبخة، وليس فيها كلأ ولا منفعة، فإذا أردت أن تقطعناها، لعلنا نحرثها أو نزرعها؟ فأقطعهما أبو بكر إياها، وكتب لهما عليه كتابًا، وأشهد في ذلك عمر ولم يكن حاضرًا، فقال لهما: انطلقا إلى عمر فأشهداه.

فلما سمع عمر ما في الكتاب تناوله من أيديهما، ثم تفل فيه ومحاه فتذمرا وقالا مقالة سيئة. وقال عمر لهما: إن رسول الله ﷺ كان يتألفكما والإسلام يومئذ ذليل، وإن الله قد أعز الإسلام، فاذهبا جهدكما لا رعى الله عليكما إن رعيتما. فأقبلا إلى أبي بكر وهما يتذامران، فقالوا: والله لا ندري أنت الخليفة أم عمر؟! فقال أبو بكر: بل هو، ولو شاء كان.

فجاء عمر مغضبًا حتى وقف على أبي بكر فقال: أخبرني عن هذه الأرض التي أقطعتها هذين الرجلين، أرض لك خاصة أم هي بين المسلمين عامة؟!

قال: بل هي بين المسلمين عامة.

قال: فما حملك أن تخص هذين بها دون جماعة المسلمين؟

قال: استشرت هؤلاء الذين حولي فأشاروا على بذلك.

قال: فإذا استشرت هؤلاء الذين حولك أوَ كل المسلمين أوسعت مشورة ورضا؟

فقال له أبو بكر: قد كنت قلت لك: إنك أقوى على هذا مني، ولكنك غلبتني».

هكذا كان يرى أبو بكر حقيقة نفسه، لم يخدعه المنصب ولم تغره إنجازاته العظيمة حتى كان **يوم وفاته في ٢٢ من جمادى الآخرة سنة ١٣ هجرية.**

«جاءت عائشة إلى أبي بكر، وهو يعالج ما يعالج الميت، فتمثلت هذا البيت:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

فنظر إليها كالغضبان، ثم قال: ليس كذلك يا أم المؤمنين، ولكن قولي: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾. ثم قال لها: إني كنت نحلتك حائطًا، وإن في نفسي منه شيئًا، فرديه إلى الميراث فقالت: نعم، فردته...

فقال: أما إنا منذ ولينا أمر المسلمين، لم نأكل لهم دينارًا ولا درهمًا، ولكنا قد أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، وليس عندنا من فيء المسلمين قليل ولا كثير إلا هذا العبد الحبشي، وهذا البعير الناضح، وجرد هذه القطيفة، فإذا مت فابعثي بهن إلى عمر، وارثي فيهن... ففعلت.

فلما جاء الرسول عمر بكى وهو يقول: رحم الله أبا بكر، لقد أتعب من بعده... يا غلام ارفعهن.

فقال عبد الرحمن بن عوف وكان عنده: سبحان الله، تسلب عيال أبي بكر عبدًا حبشيًا وبعيرًا ناضحًا وجرد قطيفة ثمنه خمسة دراهم؟!

قال: فما تأمر؟

قال: تردهن على عياله، فقال: لا والله، لا يكون هذا في ولايتي أبدًا، ولا خرج أبو بكر منهن وأردهن أنا على عياله، الموت أقرب من ذلك.

* * *

خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه

(من جمادى الآخرة ١٣ هـ إلى ذي الحجة ٢٣هـ)

كيف كان استخلاف عمر؟

حينما أحس أبو بكر أن مرضه هذا هو مرض الوفاة، أراد أن يرشح للمسلمين من يحمل التبعة بعده خوفًا عليهم من الاختلاف، فهداه فكره إلى ترشيح عمر، وجعل يستشير الصحابة ممن هم أهل الحل والعقد في هذا الترشيح، فاستشار عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، وسعيد بن زيد، وأُسيد بن حضير، وغيرهم من المهاجرين والأنصار، وبعد محاورات مع أبي بكر أجمع القوم على الموافقة على هذا الترشيح.. وربما اعترض البعض على عمر من ناحية غلظته وشدته ولكنه في النهاية كان ينشرح صدره بعد أن يقنعه أبو بكر.

فلما اطمأن أبو بكر إلى أن أصحاب الرأي والمشورة قد وافقوا على استخلاف عمر أمر أهله أن يحملوه والناس مجتمعة بالمسجد، فأشرف عليهم من حجرة مطلة على المسجد وقال: «أيها الناس، أترضون بمن أستخلف عليكم؟ فإني والله ما آلوت من جهد الرأي، ولا وليت ذا قرابة، وإني قد وليت عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا»

قالوا: سمعنا وأطعنا...

عندئذ دعا أبو بكر ربه:«اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة، فعملت فيهم ما أنت به أعلم واجتهدت لهم رأيًا، فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم، وأحرصهم على ما أرشدهم»

وفي اليوم التالي لوفاة أبي بكر دفن بجوار رسول الله ﷺ وجعل الناس

يتتابعون إلى المسجد يبايعون عمر بن الخطاب وكان ذلك في ٢٣ من جمادى الآخرة سنة١٣هـ. وهكذا أجمعت الأمة على استخلاف سيدنا عمر بن الخطاب.

ذلك الرجل الذي قال عنه رسول الله ﷺ فيما أخرجه البخاري في صحيحه: «**لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدّثون، فإن يكن في أمتي أحدٌ فإنه عمر**» ومعنى محدّثون أي ملهمون. وفي رواية أخرى للطبراني أن الرسول ﷺ سُئل: كيف محدّث؟ قال: «تتكلم الملائكة على لسانه» ومن ثم رأينا القرآن يوافق عمر في مواضع عديدة. ولننتقل الآن إلى عهد سيدنا عمر وهو عهدٌ واصل فيه عمر مسيرة سلفه أبي بكر فيما بدأه من فتوحات.

الفتوحات من ناحية الروم (بلاد الشام)

أمر أبو بكر الصديق رضي الله عنه خالدًا أن ينتقل من العراق إلى الشام ومعه طائفة من جيش العراق. وفضل خالد أن ينتقل عبر بادية الشام المعروفة ببادية السماوة، وهو طريق لم يعبره جيش قط قبل خالد؛ وذلك لوعورته وقلة الماء فيه، ولكن خالدًا فضله لأنه يريد أن يباغت العدو فينزل من خلفهم.

ووصل خالد إلى الشام بعد طول عناء واجتمع مع قادة الجيوش الأربعة التي بعثها أبو بكر إلى الشام، فوجد خالد أنه لا بد من توحيد الجيوش كلها تحت قيادة واحدة، ولكنه خشي الحرج إن تحدث فيمن يتولى القيادة العامة لهذه الجيوش، فلجأ خالد إلى أسلوب رائع في إقناع القوم، وفي نفس الوقت لا يجرح مشاعر أحد القادة الأربعة الذين بعثهم أبو بكر قبله فكان مما قاله لهم:

«**هلموا فلنتداور الإمارة فليكن عليها بعضنا اليوم، والآخر غدًا، والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم، ودعوني إليكم اليوم...**» فأمَّروه وهم يرون أن الأمر أطول مما صاروا إليه، فاجتمعت بذلك كلمة الجيش على خالد بن الوليد قائدًا لهذا

اليوم... فقسم خالد الجيش إلى كراديس (فرق) كل فرقة من ألف رجل يقودهم أشجع القادة ليظهر بذلك أن المسلمين كثرة...

معركة اليرموك ٤ من رجب سنة ١٣ هجرية:

وكانت مواجهة عند نهر اليرموك، وعدد المسلمين يومها أربعون ألفًا (٤٠,٠٠٠) و عدد الروم مائتان وخمسون ألفًا (٢٥٠,٠٠٠) فكان تفوق الروم في العدد والعتاد بارزًا حتى قال رجل من المسلمين مستهولاً المنظر: «ما أكثر الروم وأقل المسلمين) فسمعها خالد فغضب وصاح: **بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين، إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان، والله لوددت أن الأشقر ــ يعني فرسه ــ براء من توجِّيه وأنهم أُضعِفوا في العدد**

و كان فرس خالد قد حفي من مشيه الطويل ببادية الشام...

إن هذه الكلمات لتنم عن قائد رباني يعلم أنه ليست العبرة بالكثرة، وإنما العبرة في الفئة التي يكون معها الله تبارك وتعالى ولو قلَّت، بل ويقول إن وجود فرسه معه في هذه المعركة أحب إليه من لو كان عدد عدوه الضعف!!!

وأمر خالد بتلاوة سورة الأنفال قبل المعركة.. وقام أبو هريرة يذكر الناس وكذلك فعل أبو سفيان..فثبت الناس.

وبينما المسلمون كذلك إذ جاء بريد الخليفة، يتخطى الناس ويسأل عن خالد، والناس وراءه يريدون أن يعرفوا أخبار المدينة، والبريد يبشرهم بالخير حتى وصل إلى خالد وأخبره بوفاة أبي بكر الصديق، فسُر خالد من حسن تصرف البريد، وأسر الخبر حتى لا يجزع الجند... وتواجه الفريقان ونشبت معركة وصفها ابن كثير بقوله: «حامية الوطيس، مستعرة الأوار، السيوف تخطف الأرواح، وتزيل الهام، وتفرى الأجسام».

إسلام قائد من قواد الروم:

وأثناء المعركة خرج أحد أمراء الروم الكبار من الصف، وكان اسمه جرجه واستدعى خالد بن الوليد، فجاء إليه حتى اختلفت أعناق فرسيهما فقال جرجه: يا خالد! أخبرني ولا تكذبني فإن الحر لا يكذب ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع...هل أنزل الله على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاكه فلا تسله على أحد إلا هزمتهم؟ قال: لا، قال: فَبِم سُميت سيف الله؟

قال: إن الله بعث فينا نبيه فدعانا ونفرنا منه ونأينا عنه جميعًا، ثم إن بعضنا صدقه وبعضنا كذبه وباعده، فكنت فيمن كذبه وباعده، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به وبايعناه، فقال لي: أنت سيف من سيوف الله، سله الله على المشركين ودعا لي بالنصر، فسُمِّيت بذلك، فأنا من أشد المسلمين على المشركين.

فقال جرجه: يا خالد! إلام تدعون؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله والإقرار بما جاء من عند الله عز وجل. قال: فمن لم يجبكم؟ قال: فالجزية ونمنعهم. قال: فإن لم يعطها؟ قال: نؤذنه بالحرب ثم نقاتله.

قال: فما منزلة من يجيبكم ويدخل في هذا الأمر اليوم؟ قال: منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا شريفنا ووضيعنا وأولنا وآخرنا. قال جرجه: فلمن دخل فيكم اليوم من الأجر مثل ما لكم من الأجر والذخر؟ قال: نعم وأفضل. قال: وكيف يساويكم وقد سبقتموه؟ قال: إنا قبلنا هذا الأمر عنوة وبايعنا نبينا وهو حي بين أظهرنا، تأتيه أخبار السماء يخبرنا بالكتاب ويرينا الآيات، وحُقَ لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يُسلِم ويبايع، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج، فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة ونية كان أفضل منا. فقال جرجه: بالله لقد صدقتني ولم تخادعني؟ قال خالد: تالله لقد صدقتك وإن الله ولي ما سألت عنه.

هرقل ينسحب الى ما وراء جبال طوروس

جبال طوروس

انسحاب هرقل الى انطاكية

انطاكية

قبرص

حماة

حمص

سوريا

الجيش الرومي الى اجنادين

البحر الأبيض المتوسط

(بحر الروم)

تقدم جيش الروم للمرة الثانية

دمشق

صحراء الشام

اليرموك

درعا

وصول مدد خالد بن الوليد من العراق قاطعًا صحراء الشام

الأردن

القدس

اجنادين

١ – جيش يزيد إلى دمشق

٢ – جيش شرحبيل إلى الأردن

٣ – جيش أبي عبيده إلى حمص

٤ – جيش عمرو بن العاص إلى فلسطين



تتابع الفتوحات فى بلاد الشام

فعند ذلك قلب جرجه الترس ومال مع خالد وقال: علّمني الإسلام. فمال به خالد إلى فسطاطه فشن عليه قربة من ماء ثم صلى به ركعتين.. وظنت جنود الروم أن جرجه يحتال على خالد، فلما رأوا انقلابه إلى خالد حمّسهم ذلك ظنًا أنه نجح في حيلته فهجموا على مواقع المسلمين في هذه الناحية فأزالوهم عن موقفهم، ولكن خالدًا وجرجه خرجا من الخيمة وجرجه يقاتل في صفوف المسلمين، فتنادى المسلمون وثابوا وتراجعت الروم... وجعل خالد وجرجه يعملان بسيوفهما في جند الروم، واستشهد جرجه في هذه المعركة ولم يُصَل لله سوى هاتين الركعتين...!!! وانتهى يوم اليرموك وكان الظفر فيه للمسلمين، واستشهد منهم ثلاثة آلاف (٣٠٠٠) وقتل من الروم اثنا عشر ألفًا (١٢٠٠٠). وفرت جيوش الروم إلى دمشق وفرّ هرقل إلى إنطاكية.

فائدة: روي أن هرقل قال وهو على إنطاكية لما قدمت الروم منهزمة: ويلكم أخبروني عن هؤلاء الذين يقاتلونكم أليسوا بشرًا مثلكم؟ قالوا: بلى. قال: فهل أنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافًا في كل موطن. قال: فما بالكم تنهزمون؟

فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار، ويوفون بالعهد ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون فيما بينهم، ومن أجل أننا نشرب الخمر ونزني ونركب الحرام وننقض العهد، ونغضب ونظلم ونأمر بالسخط وننهى عما يُرضي الله ونفسد في الأرض».

فقال هرقل: أنت صدقتني!!

عمر يعزل خالد بن الوليد

وكانت هذه البطولات المتتالية والتي بدأت بالعراق ثم الرحلة المعجزة عبر الصحراء إلى الشام، ثم انتصار اليرموك كلها بقيادة خالد بن الوليد، ثم مع انتقال أمور الخلافة إلى سيدنا عمر بن الخطاب كانت أولي أعماله هو اتخاذه قرارًا بعزل خالد من قيادة الجيش، وتعيين أبي عبيدة بن الجراح قائدًا عامًا لجيوش الشام.

تُرى لماذا كان العزل وخالد قد تحققت على يديه كل هذه الانتصارات؟

والحقيقة أنه حدث قيل وقال في هذه المسألة من أناس لا ينظرون إلى الأحداث بين الصحابة الأجلاء إلا من منظورهم المادي الذي يعيشونه...

يقول الأستاذ العقاد عند حديثه عن سبب العزل:

«فقال أناس -أي في سبب العزل- منافسة الند للند، والشبيه للشبيه، وقال أناس عزله لغير خطأ أتاه، وقال أناس ثارة قديمة ولولاها ما كان الخطأ الجديد يستوجب عزله وحرمان المسلمين من بأسه وجهاده».

ثم يقول: «فمن شاء أن يخبط بالظن فله أن يحسب أن عمر قد عزله لغير سبب يستوجب عزله، لأن عمر نفسه قد صان على القائد الكبير كرامته، وأمسك عن الخوض في أمر عزله بعد الفراغ من ضجته الأولى، وكتب إلى الأمصار يبرئه من الخيانة، ويعلمهم «أنه لم يعزله لسخطة ولا خيانة، ولكن الناس فُتِنوا به... ثم قال: «فخشيت أن يوكلوا به ويبتلوا، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وألا يكونوا بعرض فتنة». ولما سأله خالد في ذلك قال له: «إن الناس فتنوا بك فخفت أن تفتتن بالناس».

والحقيقة أن الموضوع أبسط من ذلك ولم نسمع عن ضجة حدثت في زمن

الحادثة، فلم يتمرد جند خالد ولم يتمرد خالد نفسه، ذلك لأن خالدًا يثق في عمر، هذه واحدة، وهو ولي أمر المسلمين وله حق السمع والطاعة في غير معصية وهذه ثانية، وأن خالدًا يعمل لله مخلصًا لا يبغي منصبًا ولا زعامة، إن كان في الساقة كان في الساقة، وإن كان في المقدمة كان في المقدمة. فما عليه أن يكون اليوم أميرًا وغدًا جنديًا، وهذه هي علامة الإخلاص وابتغاء الآخرة، ولا يشك أحدٌ أن ذلك ما يحمله قلب خالد وهو الذي يحدث جنده عن أحب شيء إليه في الحياة فيقول: «**ما ليلة يُهدَي إلى فيها عروس أنا لها محب، أو أُبَشَّرُ بغلام، أحبُّ إلى من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين أُصَبِّحُ فيها العدو فعليكم بالجهاد**».

واسمع يا أخي إلى بساطة الأمر في رواية الإمام أحمد عن عبد الملك بن عمير قال: «**استعمل عمر أبا عبيدة بن الجراح على الشام وعزل خالد بن الوليد، فقال خالد بعث عليكم أمين هذه الأمة، سمعت رسول الله ﷺ يقوله، فقال أبو عبيدة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خالد سيف من سيوف الله. فنعم فتى العشيرة»**».

ومما يرويه الطبري في تاريخه: «أن أبا عبيدة دفع كتاب توليته وعزل خالد إلى خالد بعد وصول الكتاب بنحو عشرين يومًا، فلما قرأه خالد أعظم ذلك فأقبل حتى دخل على أبي عبيدة فقال له: يغفر الله لك، أتاك كتاب أمير المؤمنين فلم تعلمني وأنت تصلي خلفي والسلطان سلطانك؟ فقال أبو عبيدة: وأنت يغفر الله لك، ما كنت لأُعلمك ذلك حتى تعلمه من عند غيري، وما كنت لأُكثر عليك حزنك حتى ينقضي ذلك كله، ثم قد كنت أعلمك إن شاء الله، وما سلطان الدنيا أريد، وما للدنيا أعمل، وأن ما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع، وإنما نحن أَخَوان وقوّامٌ بأمر الله تعالى، وما يضير الرجل أن يلي عليه أخوه في دينه ودنياه، بل يعلم الوالي أنه يكاد يكون أدناهما إلى الفتنة وأوقعهما في الخطيئة لما تعرض من الهلكة إلا من عصم الله عز وجل، وقليل ما هم».

الله الله عليك يا خالد... الله الله عليك يا أبا عبيدة...

إن القلب ليهتز وإن العين لتدمع حينما ترى حقائق المواقف... هؤلاء القمم... يريد أعداء الله -عز وجل- أن يهزوا ثقتنا فيهم، ويعاونهم للأسف في ذلك كتاب مسلمون، لا يمتون إلى العلم بصلة حتى لا يجد المسلمون في تاريخهم شيئًا يقتدون به ويفخرون...

وبعد فإننا نجزم أن دافع عمر الفاروق لعزل خالد سيف الله، هو أن عمر خاف على ضعاف الإيمان من المسلمين الفتنة، أن يظنوا ولو للحظة أنه لولا وجود خالد في إمارة الجيش لما كان النصر، وهذا ينافي العقيدة السليمة، وعمر من طبيعته لا يفوت ما من شأنه أن يفسد قلوب المسلمين... ومن ثم وبكل بساطة، ودون توقع حدوث مشكلة عزل عمر خالدًا... واستمرت انتصارات المسلمين... واستمر خالد قائد الفرقة في جيش أبي عبيدة... لم يُصَب بإحباط... لم يفقد حماسته... بل انظر إلى صنيعه عند فتح دمشق بعد قليل.

ولنعد الآن إلى سرد أحداث الفتوحات بعد معركة اليرموك...

بعد انسحاب جيوش الروم إلى دمشق، وانسحاب هرقل إلى أنطاكية، عاودت الجيوش الرومية التجمع مرة أخرى فتجمع ثمانون ألفًا بمكان يسمى فحل، بغور الأردن[1]، واحتار أبو عبيدة أيبدأ بدمشق ويتركز فيها أم يعود إلى

---

(١) فائدة: في شهادة غربية

يقول أرنولد في كتاب (الدعوة الإسلامية): ولما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن وعسكر أبو عبيدة في فحل كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب المسلمين يقولون: (يا معشر المسلمين: أنتم أحب إلينا من الروم وإن كان الروم على ديننا، أنتم أوفى بنا، وأرأف بنا، وأكفّ عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا ومنازلنا..

وغلّق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم.

فحل؟ فكتب إلى أمير المؤمنين عمر يصف له الموقف فجاءه من عمر الرد التالي والذي يدلنا على متابعة واعية من الخليفة: **ابدأ بدمشق فإنها حصن الشام و بيت مملكتهم ، فانهد لها ، و اشغلوا عنكم أهل فحلٍ بخيول تكون تلقاءهم ، فإن فتحها الله قبل دمشق فذلك الذي نحب ، وإن فُتحت دمشق قبلها فَسِر أنت ومن معك واستخلف على دمشق ، فإذا فتح الله عليكم فحل فَسِر أنت وخالد إلى حمص واترك عمرو بن العاص وشرحبيل على الأردن وفلسطين ...**

حقًا إنها رسالة تدل على متابعة دقيقة من عمر وأهل مشورته للعمليات الحربية أولاً بأول وبوعي دقيق رغم اتساع العمليات...

فتح دمشق :

توجه الجيش المسلم نحو دمشق ووصلوا إليها من ناحية الشرق، وبدأ الجيش يحيط بالمدينة ويحاصرها... كانت دمشق مدينة مسورة، أسوارها شاهقة، بارتفاع حوالي ستة أمتار وعرض حوالي ثلاثة أمتار، وكان لأسوارها أبواب ضخمة، وأحيطت هذه الأسوار بخندق مملوء بالمياه بعرض ثلاثة أمتار وعميق فكانت المدينة محصنة تحصينًا شديدًا... لذا استمر الحصار لها عدة أشهر... حتى جاءت أشهر البرد وبدأت المؤن تقل لدى أهل دمشق... وكانت عيون المسلمين لا تنام... وكان لخالد عيونه الخاصة كقائد فرقة... فجاءه خبر ذات ليلة أنه وُلد لأحد كبراء الروم مولود فأولموا لذلك وسكروا، وغفل الروم عن الحيطة والحذر... فلم يضيع خالد هذه الفرصة فاستدعى شجعان الفرسان من المسلمين وكان معهم سلالم قد أعدوها لمثل هذا الاحتمال...

فخاض خالد في ماء الخندق ومن معه وهم يحملون السلالم، واستطاعوا أن يعلقوا السلالم على الأسوار واستطاع خالد بذلك أن يفاجئ العدو، ونزلوا على حراس الأبواب فقتلوهم وفتحوا الباب عنوة، وارتفعت أصواتهم بالتكبير.

ودخلوا المدينة وأعملوا القتل في كل من قاومهم، حتى وصل باقي الجيش وفتحت دمشق في رجب سنة ١٤ هجرية، أي بعد اليرموك بسنة كاملة.

واستمر الفتح بعد ذلك في المناطق الداخلية من بلاد الشام دون المناطق الساحلية، وفتحت حمص وقنسرين... حتى كتب عمر إلى عمرو بن العاص أن يسير إلى إيلياء (بيت المقدس).

فتح أجنادين:

سار عمرو بن العاص إلى أجنادين حيث كان على الروم أرطبون، القائد الذي يلي هرقل في المكانة عند الروم، وكان من أدهى الروم...فحاصرها عمرو واستطاع أن يسيطر عليها وفر أرطبون إلى القدس وتحصن بها وأرسل أرطبون إلى عمرو رسالة يقول فيها: «إنك لن تفتح شيئًا من فلسطين بعد أجنادين».

فتح بيت المقدس (إيلياء):

حاصر عمرو بيت المقدس ومنع عنها الإمدادات، وعزلها عزلاً تامًا، ولكن المدينة استعصت عليه بما حباها الله من موقع حصين جنوب فلسطين في منطقة جبلية فهي أشبه بقلعة حصينة... فبعث عمرو إلى الخليفة يستشيره ويدعوه إلى الحضور إلى الشام بنفسه، فكتب إليه يقول: «إني أعالج حربًا كئودًا وبلادًا ادخرت لك فرأيك..»

عندئذ عزم عمر على أن يذهب بنفسه إلى بلاد الشام ليرى الموقف على الحقيقة، فأرسل إلى أمراء الأجناد أن يقابلوه بمكان اسمه الجابيه، ليوم محدد سماه لهم.

وفي اليوم المحدد انتظر الأمراء وصول عمر خليفة المسلمين الذي ذاع صيته في بلاد الروم وبلاد فارس وهابته الأمم... وإذا بعمر يقدم على بعير له وكان في استقباله القائد العام لجيوش الشام أبو عبيده بن الجراح، فلما اقترب عمر

عرضت له مخاضة فنزل عن بعيره ونزع موقيه (نعليه) فأمسكهما بيده وخاض الماء ومعه بعيره، فقال له أبو عبيده: قد صنعت اليوم عظيمًا عند أهل الأرض..

فصك عمر في صدر أبى عبيده وقال: **«أولو غيرك يقولها يا أبا عبيده، إنكم كنتم أذل الناس، وأحقر الناس، وأقل الناس، فأعزكم الله بالإسلام فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلكم الله»**.

وعند وصول عمر إلى الجابية كان اليأس قد بلغ مداه بأهل القدس، فعزموا على طلب الصلح، فذهب وفد من أهل القدس ليقابلوا عُمَر بالجابية، فصالحهم عمر على إيلياء وحيزها والرملة وحيزها وصارت فلسطين بعد ذلك قسمين: قسم مع أهل إيلياء وقسم مع أهل الرملة...

وثيقة تاريخية:

دخل عمر القدس ليتسلم مفاتيحها، وكتب لهم عمر بن الخطاب كتابًا به شروط الصلح وهذا نصه: **«بسم الله الرحمن الرحيم ... هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ...أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم و صلبانهم، و سقيمها وبريئها، و سائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود ....**

ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه، وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبانهم، فهم آمنون على أنفسهم وبيعهم وصلبانهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بهم من أهل الأرض، فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، لا يؤخذ

منهم شيء حتى يحصد حصادهم وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية

عمر بن الخطاب

شهد على ذلك خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف كتب وحضر : عبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن أبي سفيان سنة (١٥ هـ ـ ٦٣٦م).

وبينما كان عمر يملي هذا العهد حضرت الصلاة، فدعا البطريق عمر للصلاة حيث هو في كنيسة القيامة، ولكن عمر رفض وقال له: أخشى إن صليت فيها أن يغلبكم المسلمون عليها ويقولون: هنا صلى أمير المؤمنين.

وصارت بيت المقدس بهذا العهد آمنة بمن فيها، وفرح أهل إلياء بما أعطاهم المسلمون من الأمان، ووجد أرطبون والمعارضون للصلح فرصة في الخروج من القدس آمنين، فخرجوا إلى مصر حيث ترابط قوات الروم هناك.

وصارت بيت المقدس ولاية إسلامية يتتابع عليها الولاة، يرعون مقدساتها ويعاملون الوافدين عليها من النصارى بكل سماحة ورفق... حتى كانت الحروب الصليبية ودخول نصارى أوروبا بيت المقدس سنة (٤٩٣ هـ – ١٠٩٩م) يذبحون المسلمين في هجمة بربرية وحشية باسم المسيح. واستمر احتلالهم لها حتى يوم حطين سنة (٥٨٣ هـ – ١١٨٧ م) يوم أن أعلنها صلاح الدين غضبة لله ويحرر بيت المقدس، يوم ٢٧ من رجب سنة ٥٨٣ هـ. وسنرى المزيد من التفصيل في حينه إن شاء الله.

فتح مصر : ربيع أول سنة ٢٠ هـ

لما أتم الله على المسلمين فتح بيت المقدس استأذن عمرو بن العاص سيدنا عمر بن الخطاب في فتح مصر...وكان عمر مترددًا بعض الشيء، ولكن انشرح صدره لبدء هذا الفتح.

ولقد كان عمر يعلم من حديث رسول الله ﷺ عن مصر ما يشجع على التعجل بفتحها، فعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا فتح الله عليكم مصر... فاتخذوا منها جندًا كثيفًا، فذلك الجند خير أجناد الأرض**». فقال أبو بكر: «ولم يا رسول الله؟». قال: «**لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة**».

وفي حديث آخر قال ﷺ:

«**إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرًا فإن لكم فيها ذمة ورحمًا**» والرحم إشارة لأم إسماعيل هاجر المصرية.. وفي رواية «**...فإن لكم فيها ذمة وصهرًا**» إشارة إلى مارية القبطية التي أهداها المقوقس إلى رسول الله ﷺ.

توجه عمرو بن العاص بجيشه البالغ عدده ثمانية آلاف نحو مصر.

سار عمرو بجيشه من فلسطين إلى رفح وانحدر منها إلى العريش ومن العريش انحدر عمرو بجيشه نحو الغرب، حتى بلغ حصن الفرما ... وفيه كان أول قتال بين المسلمين والروم واستمر شهرًا ... وكان الظفر فيه للمسلمين. وخرّب المسلمون الحصن تمامًا بما فيه السفن الحربية حتى لا يستخدمها الروم في فرصة قادمة.

استمر الزحف نحو مصر حتى وصل المسلمون إلى حصن بلبيس، فوجدوا قوة كبيرة من الروم هناك ومعهم قائدهم أرطبون، وحاصروا الحصن لمدة شهر حتى فتح الله على المسلمين وقتل أرطبون.

ثم زحف المسلمون إلى حصن أم دنين، شمال حصن بابليون، فأحدثوا في الروم مقتلة عظيمة، وتوقع الروم أن يتجه عمرو نحو حصن بابليون مباشرة، ولكنه اتجه بجيشه غربًا فعبر النيل، وكأنه يريد أن يوهم عدوه أنه منصرف عنهم إلى غيرهم، ثم زاد في تضليلهم فاتجه جنوبًا نحو الفيوم، فلما أشرف عليها جاءته أنباء أن الروم قد

حشدت قوات كبيرة بها..عندئذ لزم عمرو الصحراء فلم يبرحها، فاستجم الجيش بعض الشيء، وبعث عمرو يطلب مددًا من دار الخلافة..

وبعث عمر بمدد إلى عمرو بن العاص وكتب له كتابًا: «إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل يقوم مقام الألف».

وكان هؤلاء الرجال الأربعة هم: المقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، والزبير بن العوام، ومسلمة بن مخلد الأنصاري.

فأما **المقداد بن الأسود** فهو القائل لرسول الله ﷺ يوم بدر مثبتًا:

«يا رسول الله امض بنا حيث أمرك الله، فوالله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، بل اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون» فاستبشر رسول الله ﷺ خيرًا.

وأما **عبادة بن الصامت** فهو أحد الذين جمعوا القرآن في عهد رسول الله ﷺ.

وأما **الزبير بن العوام** فهو حواري النبي ﷺ.

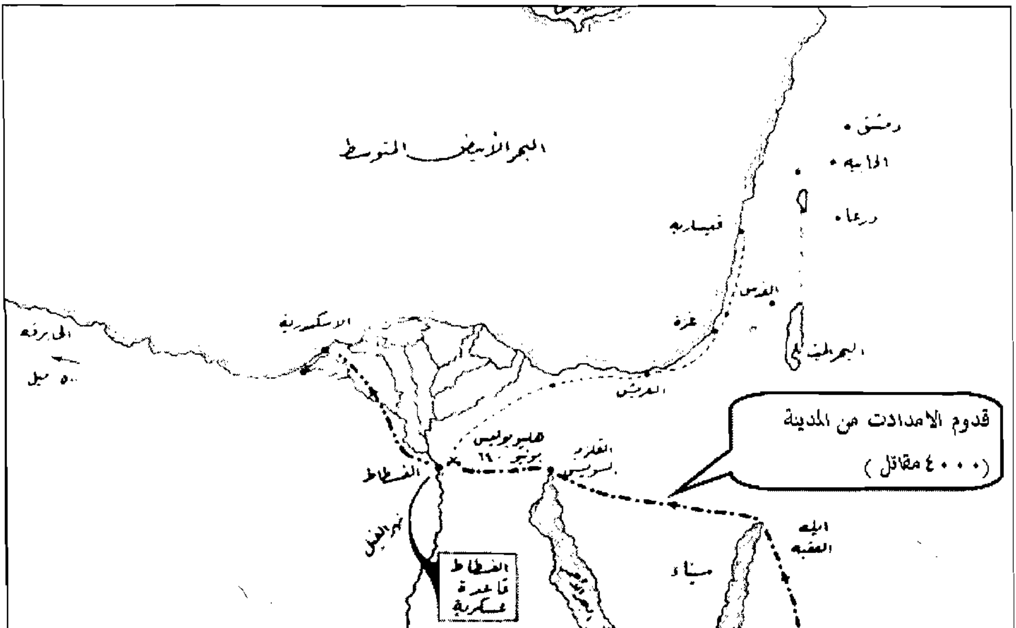
وأما **مسلمة بن مخلد** فقد قال عنه مجاهد إمام التفسير وقد عاصر مسلمة: «كنت أرى أني أحفظ الناس بالقرآن حتى صليت خلف مسلمة بن مخلد فقرأ البقرة كلها فما أخطأ واوًا ولا ألفًا».

هؤلاء- يا أخي- من أمراء الجند الذين سيفتحون مصر، فكلهم من أصحاب المواقف ومن حملة القرآن، ولم يكتفوا بالتبرك به، ولم يكتفوا بسابق مواقفهم المحمودة مع رسول الله ﷺ ولكنهم واصلوا العمل والعطاء إلى آخر رمق في حياتهم، هؤلاء هم فاتحو مصر وأصحاب الفضل علينا ... فكم منا يحفظ أسماءهم ويعرف مناقبهم؟!

فاحفظ أخي أسماءهم واعرف مآثرهم واروها لمن حولك واحكها لأبنائك، لعله يخرج من بينهم من يعيد للدين مجده وللإسلام عزه.

لقد صار عدد الجيش بذلك اثنى عشر ألفًا ...

ودارت معركة سريعة في عين شمس، ولما وصل المدد توجه عمرو نحو حصن بابليون فحاصره شهرًا... ولما طال الحصار وضاق الأقباط أرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص رسالة جاء فيها: «إنكم قوم قد ولجتم بلادنا، وألححتم على قتالنا، وطال مقامكم في أرضنا، وإنما أنتم عصبة يسيرة، وقد أظلكم الروم وجهزوا إليكم، ومعهم من العدة والسلاح، وقد أحاط بكم هذا النيل، وإنما أنتم أسارى في أيدينا، فابعثوا إلينا رجالاً لكم نسمع من كلامهم، فلعله يأتي الأمر بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب، وينقطع عنا وعنكم القتال



فتح مصر والإسكندرية

قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه، ولعلكم أن تندموا

إذا كان الأمر مخالفًا لطلبكم ورجائكم، فابعثوا إلينا رجالاً من أصحابكم، نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به على شيء»

ولما وصلت رسل المقوقس إلى عمرو حبسهم يومين عنده ثم رد على المقوقس برسالة جاء فيها: «إنه ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال: إما أن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا، وإما إن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين).

فلما عادت الرسل إلى المقوقس وقرأ ما بالرسالة سألهم: كيف رأيتم هؤلاء؟

قالوا: «رأينا قومًا الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، إنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، أميرهم كواحدٍ منهم...»

ثم إن المقوقس ألح على عمرو أن يرسل وفدًا للتفاوض معه، فاختار عمرو عشرة من خيرة رجاله، على رأسهم عبادة بن الصامت، وكان رجلاً أسمر اللون طويل القامة، فلما دخلوا على المقوقس تقدمهم عبادة، فهابه المقوقس لسواده وقال: نحوا عني هذا الأسود.

فقال باقي الوفد: إن هذا الأسود أفضلنا رأيًا، وعلمًا، وقد أمَّره الأميرُ دوننا وأمرنا ألا نخالف أمره. قال المقوقس: وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم؟ قالوا: ليس ينكر السواد فينا.

فقال المقوقس لعبادة: تقدّم يا أسود وكلمني برفق، فإني أهاب سوادك، وإن اشتد كلامك علي ازددت لذلك هيبة.

قال عبادة: قد سمعت مقالتك، وإن فيمن خلَّفت ورائي من أصحابي ألف

رجل أشد سوادًا مني وأفظع منظرًا، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم منك لي.

ومضى الحوار بين المقوقس وعبادة وانتهى كما سبق إلى الخيارات الثلاثة الحاسمة... فرفض المقوقس وقومه العرض، ولم يبق إلا القتال.

ودارت رحى المعركة والقوم يظنون أنهم بمأمن داخل حصن بابليون، فالأسوار عالية والمياه تحيط بالحصن، وأبوابه محصنة والمؤن كثيرة...

ولكن المسلمين استطاعوا أن يجتازوا كل هذه الموانع، واستطاع الزبير بن العوام ومعه نفر من أصحابه أن يسبحوا ويتسلقوا جدران السور إلى داخل الحصن ويفتحوا أبوابه، ودخل المسلمون فظفروا بمن فيه بعد حصار دام سبعة أشهر...

ولم يجد المقوقس بُدًّا من الاستسلام وطلب الصلح فصالحهم عمرو بن العاص وكتب لهم كتابًا جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم ... هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان لأنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصليبهم وبَرّهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص، ولا يساكنهم النوب (أهل النوبة)، وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية ... ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله، وذمة الخليفة أمير المؤمنين، وذمة المؤمنين.

ونبه المقوقس عمرًا أن هذا الصلح لن يعجب هرقل وأنه غير مسئول عما يرتكبه الروم فقال له: «وأنا متمم لك على نفسي ومن معي، وأما الروم فأنا بريء منهم...» فوافقه عمرو.

فتح الإسكندرية محرم سنة ٢١ هـ

ثم أراد عمرو أن يتوجه لفتح الإسكندرية، فبعث يستأذن الخليفة فأعطاه الإذن، ولم يكن الطريق إلى الإسكندرية سهلاً فحصون الروم منتشرة على طول الطريق ... ولكن عمرًا وجنوده مضوا غير عابئين بهذه العقبات، وحاصروا الإسكندرية ثلاثة أشهر، وقيل أربعة عشر شهرًا حتى أن عمر غضب لذلك، وأرسل إلى عمرو رسالة عنيفة يقول له فيها: «ما أبطأتم إلا لما أحدثتم من ذنوب فراجعوا أنفسكم..»

ثم إن المنية وافت هرقل الذي كان يمد الروم بالإمدادات... فلما مات انقطع المدد عن الإسكندرية، فوهن عزم المدافعين عنها وتم فتح الإسكندرية.

ومن مشاهد فتح مصر والإسكندرية:

۞ كان عمرو بن العاص قد سلم اللواء لمولاه وردان، وجعل على المقدمة ابنه عبد الله، فأصيب عبد الله يومئذ بإصابات بليغة، حتى أخذ دمه يسيل من أنحاء جسمه، فلما اشتدت جراحه قال: يا وردان، لو تقهقرت قليلاً نصيب الروح (أي نرتاح). فقال وردان وهو يتقدم: الروح تريد؟ الروح أمامك وليس خلفك...

فاهتز لهذه الكلمات عبد الله، واندفع يقاتل أعداء الله.. وعلم عمرو بما أصاب ولده، فأرسل يسأل عن جراحه فقال عبد الله:

أقول لها إذا جشأت وجاشت رويدك تحمدي أو تستريحي

فلما رجع الرسول إلى عمرو يحمل له إجابة ابنه فرح عمرو وقال: هو ابني حقًا.

۞ ولما أتم الله فتح الإسكندرية أرسل عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يبشره بالفتح، ويروي لنا معاوية بن حُديج – رسول عمرو بن العاص

إلى أمير المؤمنين- قصة قدومه على عمر بن الخطاب فيقول: «.. فقدمت المدينة في الظهيرة، فأنخت راحلتي بباب المسجد، فبينما أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية من منزل عمر، فرأتني شاحبًا على ثياب السفر، فأتتني وقالت: من أنت؟ قلت: أنا معاوية بن حديج رسول عمرو ابن العاص، فانصرفت عني ثم أقبلت تشتد، أسمع خفيف إزارها على ساقها حتى دنت مني، فقالت: قم فأجب أمير المؤمنين... فتبعتها، فلما دخلت فإذا بعمر بن الخطاب يتناول رداءه بإحدى يديه ويشد إزاره بالأخرى، فقال: ما عندك؟

قلت: خير يا أمير المؤمنين، فتح الله الإسكندرية..

فخرج معي إلى المسجد فقال للمؤذن: أذن في الناس: الصلاة جامعة... فاجتمع الناس، ثم قال لي : قم فأخبر أصحابك، ففعلت، ثم صلى ودخل منزله واستقبل القبلة، فدعا بدعوات ثم جلس، فقال: يا جارية هل من طعام؟

فأتت بخبز وزيت، فقال: كل، فأكلت على حياء. ثم قال: ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد؟

فقلت: قلت أمير المؤمنين قائل (أي نائم وقت الظهيرة).

فقال عمر: لبئس ما قلت... لئن نمت النهار لأضيعن الرعية، ولئن نمت بالليل لأضيعن نفسي، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية؟

* ولقد لقي أهل مصر - الذين كانوا من طائفة الأرثوذكس - معاملة طيبة من المسلمين بعدما كانوا يسامون سوء العذاب على يد الروم أصحاب المذهب الكاثوليكي، حتى أن بطريرك الكرازة المرقسية كان مشردًا في تلك الأيام في فيافي الصعيد، ومطاردًا من بني دينه الأجانب لخلاف مذهبي فرعي... فأعطاه

عمرو بن العاص الأمان.

* ومن الشواهد التي تدل على مدى الحرية التي نالها قبط مصر في ظل الإسلام تلك الحادثة التي يرويها المؤرخون...

يروي أنس: كنا عند عمر بن الخطاب، إذ جاء رجل من أهل مصر فقال: يا أمير المؤمنين، هذا مقام العائذ بك فقال: ومالك؟

قال: أجرى عمرو بن العاص بمصر الخيل، فأقبلت فرسي (أي سبقت)، فلما رآها الناس قام محمد بن عمرو بن العاص فقال: فرسي ورب الكعبة.

فلما دنا مني عرفته، فقلت: فرسي ورب الكعبة. فقام إلي يضربني بالسوط ويقول: خذها وأنا ابن الأكرمين، وبلغ ذلك عَمرًا وخشي أن آتيك فحبسني في السجن فانفلتُ منه، وهذا حين أتيتك...

فوالله ما زاد عمر على أن قال: اجلس... ثم كتب إلى عمرو بن العاص: إذا جاءك كتابي هذا فأقبل ومعك ابنك محمد. وقال للمصري: أقِم حتى يأتيك. فقدم عمرو وابنه على عمر بن الخطاب.

قال أنس: فوالله إنا عند عمر، إذ نحن بعمرو وقد أقبل في إزارٍ ورداء، فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه، فإذا هو خلف أبيه.

فقال: أين المصري؟ قال: ها أناذا. قال: دونك والدرة فاضرب بها ابن الأكرمين، فضربه حتى أثخنه، ونحن نشتهي أن يضربه، فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه، وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين.

ثم قال عمر للمصري: اجعلها على صلعة عمرو، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه. قال المصري: قد ضربت من ضربني وقد استوفيت...

قال عمر: أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه... أيا عمرو: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!

ثم التفت عمر إلى المصري وقال: انصرف راشدًا فإن رابك ريب فاكتب لي.

ترى ما الذي جعل هذا المصري يقطع هذه المسافة الكبيرة، من مصر إلى المدينة، يطالب بحقه وقد كان بالأمس القريب يسام سوء العذاب على يد الرومان ولا يرفع رأسه من الذلة؟ لا شك أنه علم يقينًا أن الخليفة سينصفه وأن الحرية هي عطاء الإسلام للبشرية، يقول الدكتور عبد الصبور شاهين واصفًا حال مصر في ظل الدولة الرومانية: «ولو تتبعنا حال مصر بعد أن صارت ولاية من ولايات روما، لرأينا ظلمًا وشقاءً عانى منهما المصريون، فقد اعتبر القيصر مصر المخزن الذي يمد روما بحاجتها من الغلال».

ويقول د. حسن إبراهيم: «وبذلك انحطت درجة العلم والعرفان فيها، وأُغلقت أبواب المناصب العالية أمام المصريين، وزادت الضرائب في عهد الرومان زيادة كبيرة،... حتى أنه كان لا يسمح بدفن الميت إلا بعد دفع ضريبة معينة...»

ويتعجب المؤرخ الغربي جوستاف لوبون صاحب كتاب حضارة العرب من أثر الفاتحين المسلمين في الشعب المصري فيقول:

«... ومهما بعدنا في الرجوع إلى عصور التاريخ وجدنا المصريين أصحاب حضارة تاريخية لم يسهل على الفاتحين أن يؤثروا في أمة تلك حضارتها، فلقد تتابع غزو الأجنبي لمصر فظلت ثابتة على قدميها، واستولى الأغارقة والرومان على مصر من غير أن يؤثروا فيها، ونرى في المباني التي شادها البطالمة والقياصرة على طراز فن العمارة المصري القديم من الأدلة ما يكفي لإثبات الحضارة المصرية القديمة بتوالي القرون».

ثم يقول: «ولا شيء يستوقف النظر كحفدة قدماء المصريين الذين قاوموا نفوذ الأغارقة والرومان على الخصوص، ثم اعتنقوا دين العرب،ولغة العرب، وحضارة العرب الغالبين وصاروا عَرَبًا خالصي العروبة، وفي فارس والهند امتزجت حضارة العرب بالحضارة السابقة، وفي مصر توارت أمام حضارة أتباع محمد الجديدة حضارة الفراعنة القديمة، وحضارة اليونان والرومان».

وهكذا صارت مصر إسلامية خالصة بغير قهر ولا إكراه، بل دخل المصريون في دين الله أفواجا لما رأوا من سماحة الفاتحين وأخلاق الأمراء، ولله الفضل والمنة..

الفتوحات من ناحية بلاد الفرس..

ما سبق كان حديثًا عن الفتوحات في عهد عمر من ناحية بلاد الشام، ولكن على الجانب الآخر كان مُلك الفرس قد أوشك على الزوال تمامًا، في سلسلة أحداث متلاحقة فلنعد إلى ذكر الفتوحات في بلاد فارس.

كان بدء الفتوحات بالعراق في محرم سنة ١٢هـ في زمن أبى بكر الصديق وتوقفنا عند أمر أبى بكر لخالد بن الوليد أن يتحول عن العراق إلى بلاد الشام فغادر خالد العراق مستخلفًا المثنى بن حارثة الشيباني، والمثنى من قبيلة بكر بن وائل التي تستوطن التجويف الزراعي بين دجلة والفرات والمسمى بالسواد فهو من أعلم الناس بالفرس وطباعهم وأساليبهم في الحرب، وهو من حكماء بنى شيبان ومن أشجع الناس وهو أشبه بخالد في قدراته العسكرية..

رحل خالد ومعه نصف الجيش، ولم يبق مع المثنى سوى تسعة آلاف (٩٠٠٠) فبعث يطلب مددًا من المدينة ولكن المدد تأخر، فقرر المثنى أن يذهب بنفسه إلى المدينة يستعجل المدد واستخلف وراءه بشير بن الخصاصية ...

عمر يندب الناس لقتال الفرس ولا يجد استجابة:

وصل المثنى المدينة قبل وفاة الصديق بيوم.. فلما آلت الخلافة إلى عمر عرض الأمر عليه، فندب عمر المسلمين إلى الجهاد في أرض العراق ولكن الاستجابة كانت معدومة وكان الأمر ثقيلاً على النفوس ... يقول الطبرى:

«إن قتال الفرس كان من أكره الوجوه عند العرب، لما عرفوا به من عناد وصبر في القتال، ولشدة سلطانهم وعزهم وقوة شوكتهم وقهرهم الأمم» ووقف المثنى في الناس خطيبا يهون لهم شأن الفرس، ولكن دون فائدة ومرت أربعة أيام ومازال المسلمون محجمين حتى وقف عمر فوعظ الناس بكلام مؤثر، وكان من آخر كلامه «فأين عباد الله الصالحون؟».

فقام رجل من عامة الصحابة اسمه **أبو عبيد بن مسعود الثقفي** وقال: «أنا لها» فحمس ذلك الناس.. فتتابعوا بعده حتى وصل العدد إلى ألف فقط وأنه لأمر مثير للدهشة أن تكون هذه استجابة المسلمين.. ولكن حين نحقق في الأمر نلاحظ ملاحظتين:

الأولى: أن وجهاء القوم وخيارهم قد خرجوا في مقدمة الجيوش إلى الشام والعراق وهو عدد لا يستهان به يصل إلى خمسين ألفًا.

الثانية: أن أبا بكر قد حظر على الذين ارتدوا ثم تابوا أن يشاركوا في الجهاد ثم استمر الحظر في زمن عمر.. وهؤلاء كانوا عددًا كبيرا وكانوا يشعرون بالندم على فعلتهم ويتمنون لو تتاح لهم الفرصة ليعلنوا صدق توبتهم ويشاركوا في الجهاد ...

نقول لقد قرر عمر أن يكون أبو عبيد بن مسعود الثقفي قائدًا عامًا على جيوش العراق، واعترض بعض شيوخ الصحابة بأن أبا عبيد ليس له خبرة كبيرة بالخطط الحربية والشئون العسكرية، ولكن عمر كان يرى أنه كان أسبق المتطوعين إلى الجهاد

في وقت لم يتقدم فيه أحد، فهو الأولى بها، ثم قال لأبي عبيد موصيًا: «إن في جيشك أصحاب النبي ﷺ أشركهم في الأمر ولا تجتهد مسرعًا حتى تتبين».

كما قرر عمر رفع الحظر الذي فرض على من ارتد ثم تاب.. فاندفعوا ليشاركوا جيوش المسلمين المتوجهين إلى بلاد فارس ...

فائدة: لاحظ أن المثنى أصبح من جنود أبي عبيد بعد أن كان قائدًا ولا حرج في ذلك بالنسبة للنفوس المخلصة.

معركة النمارق

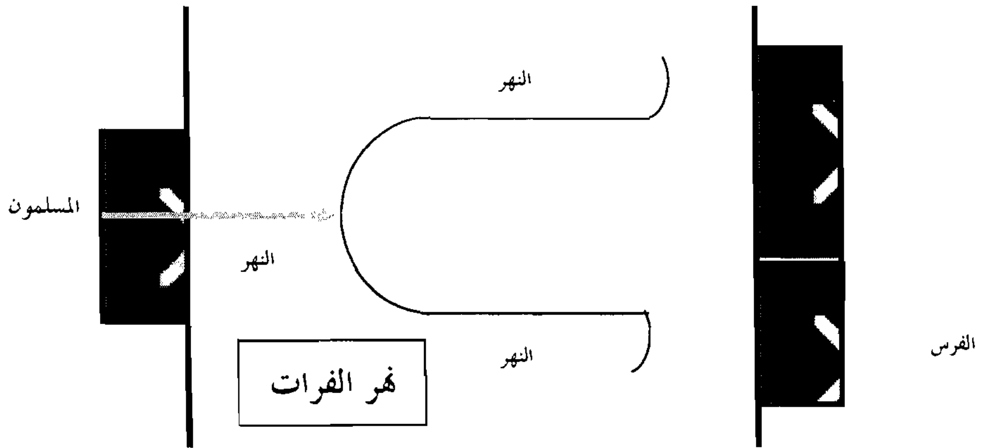
تقدمت جيوش أبي عبيد وعددهم حوالي عشرة آلاف، وحققت أول انتصار لها على مائة ألف من الفرس في معركة تسمى النمارق من ناحية العراق وذلك في ٨ من شعبان سنة ١٣هـ، ثم طارد أبو عبيد فلول المنهزمين، حتى لقيهم في السقاطية بكسكر فهزمهم، ثم هزمهم مرة ثانية في معركة باروسما، وكلا المعركتين في سنة ١٣هـ.

معركة الجسر وأول هزيمة للمسلمين بعد أحد.

وواصل الجيش تقدمه.. ولكن الفرس نظموا أنفسهم وعُين عليهم قائد داهية اسمه بهمن، وجاء الفرس بجيش عظيم، ومعهم الفيلة وعسكروا بالناحية الشرقية من نهر الفرات وعسكر المسلمون في الناحية الغربية للنهر، ووراءهم الصحراء أرض مفتوحة إلى بلادهم حيث بالإمكان أن تصل الأمداد من جزيرة العرب.

أرسل بهمن رسالة إلى أبي عبيد... «إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور، وإما أن تدَعونا والعبور إليكم» فاستشار أبو عبيد مستشاريه.. فأجمعوا على عدم

العبور وكان فيما قالوه: «لقد نزلت منزلاً لنا فيه مجال وملجأ ومرجع من فرة وكرة» ولكنَّ أبا عبيد أصر على العبور قائلاً: «لا يكونون أجرأ منا على الموت بل نعبر إليهم» فقرر أبو عبيد إقامة جسر يعبر عليه جيشه.. وفرح بهمن باستجابة المسلمين بالعبور فهي التي يريد.. ولم يكتفِ بهمن بذلك بل حدد المكان الذي يريد أن يلاقى فيه المسلمين فترك لهم على الشاطئ الشرقي رقعة ضيقة من الأرض، مكان ضيق يكتنفه رافدان كبيران من روافد نهر الفرات على شكل حرف U فإذا عبر المسلمون فستكتنفهم المياه من ثلاثة جهات...



رسم كروكي يوضح شكل موقع المعركة

وفي ٢٣ من شعبان سنة ١٣هـ دارت المعركة، بدأ الفرس الهجوم بمجرد انتهاء المسلمين من العبور، وارتعبت خيول المسلمين من منظر الفيلة، ولم تكن تألفه، فبطل بذلك مفعول سلاح الفرسان الإسلامي، ونزل الفرسان من على الخيول يحاربون على أقدامهم.. وأراد أبو عبيد أن يبطل مفعول الفيلة فأمر المسلمين أن يحيطوا بالفيلة ويقطعوا الأحزمة التي تربط التوابيت فوق الفيلة، وتوجه هو نحو زعيم الفيلة

ليقتله، ولكن الفيل دهسه وقُتِل رحمه الله.. وكان قد حدد بعده إن هو قتل سبعة قادة من ثقيف (قبيلته) يتولون القيادة على التوالي، فحاول كلهم قتل الفيل الكبير ولكنهم قتلوا جميعًا.. حتى حمل الراية المثنى بن حارثة.

وأمر المثنى الجيش بالفرار عبر الجسر فالجولة خاسرة بكل المقاييس والمسلمون محاصرون... ولكن واحدًا من ثقيف لم يعجبه الأمر وأخذته الحماسة وقطع الجسر ونادى في الناس: «موتوا على ما مات عليه أميركم أو تظفروا».. فتأزم الموقف، والناظر إلى الميدان يقول: إن الجيش المسلم سيباد حتمًا فلقد بدأ المسلمون يقفزون في النهر حتى مات ألفان غرقًا... حاول المثنى وفرقة من الصحابة أن يعيدوا إصلاح الجسر.. فرقة تصلح وفرقة تدفع الفرس حتى يتمكنوا من الإصلاح، خاصة أن الفرس انتبهت لهذه المحاولة فتجمعت عند الجسر. ونجح المسلمون أن يعيدوا بناء الجسر ووقف المثنى ومعه هذه الفرقة يحمون فرار المسلمين حتى لم يبق إلا المثنى الذي جرح جرحًا مميتا (مات منه بعد شهرين) ولكنه استطاع أن يعبر الجسر ويلحق برفاقه.. وبلغ عدد شهداء المسلمين في هذه المعركة أربعة آلاف (٤٠٠٠). **فكانت الهزيمة الأولى والأخيرة على أيدي الفرس.**

عاد جمع من المسلمين إلى المدينة وقد انهزم نفسيا وأعياه التعب وبقى مع المثنى ثلاثة آلاف (٣٠٠٠) فقط لم تؤثر فيهم الهزيمة وقد عزموا على الثأر..

استقبل أهل المدينة العائدين وهم ناقمون عليهم وجعلوا ينادونهم بالفُرَّار وكأنه يوم مؤته.. ولكن عمر نادى في المسلمين: «عباد الله لا تجزعوا، اللهم إن كل مسلم في حل منى، أنا فئة كل مسلم، من لقى العدو فقطع بشيء من أمره فأنا له فئة». ثم قال: «يرحم الله أبا عبيد لو كان عبر فاعتصم بالخيف أو تحيز لنا ولم يستقتل، لكنا له فئة» ومن فضل الله تعالى أنه لم يلهم الفرس في معركة الجسر

أن يلاحقوا المسلمين على الجهة الأخرى حتى يبيدوهم ـ وقد كان هذا سهلا ميسورا في ظل التفوق العددي الملحوظ ـ واكتفوا بذلك فرحا بأول نصر لهم على المسلمين فكأنهم كانوا في حاجة إلى نصر يرفع معنوياتهم المنخفضة...

انتقام الأسد الجريح

لم يهدأ المثنى الجريح ولم تهدأ عيونه عن تتبع أخبار الفرس ولم يستسلم المسلمون لجراحاتهم.. وما أن رأت العيون قائدين من قواد الفرس قد خرجا في مطاردة لجيش المسلمين مع مجموعة من فرسانهم في منطقة أليس غربي النهر حتى خرج المثنى ومعه عدد من المسلمين واستطاع أن يأسرهما ثم يقتلهما.. ليبث بذلك الرعب من جديد في نفوس الفرس.

بدأ عمر بن الخطاب في حشد قوات إضافية لغزو بلاد فارس، وجعل التجنيد إجبارياً ليدفع بذلك بإمدادات غزيرة إلى العراق، وعلمت الفرس ذلك فقرروا إبادة المثنى قبل أن يصل إليه المدد، وعينوا لذلك قائدًا جديدًا اسمه: مهران بن باذان على مائة ألف فارس وخمسين ألفًا من المشاة ليقضوا نهائيا على المثنى ومن معه.

معركة البويب: رمضان سنة ١٣ هـ

علم بذلك المثنى وكان معسكرًا بالحيرة فقرر الانتقال إلى منطقة تسمى البويب غرب الفرات على أطراف الصحراء (مكان واسع المطرد) ليفرض هو هذه المرة على الفرس مكان المواجهة.. كما أرسل المثنى يستعجل المدد ويخبرهم أنه غيّر موقعه.. فلما وصل الخبر إلى المدد تركوا نساءهم وأثقالهم ومعهم مجموعة لحراستهم وأسرعوا للحاق بالمثنى قبل المواجهة، وفعلاً نجحوا في الوصول قبل المعركة وصار بذلك عدد جيش المثنى إثنى عشر ألفًا (١٢٠٠٠)،

ووقف جيش فارس على الناحية الشرقية من النهر وبعث قائدهم بنفس الرسالة التي بعث بها سلفه إلى أبى عبيد وهى.. «إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم» فأرسل إليهم المثنى «اعبروا» .. كانت هذه المعركة في رمضان سنة ١٣هـ، وأمر المثنى جنده أن يفطروا في ذلك اليوم، وبدأت المعركة وزحف الفرس ولهم أصوات وصيحات مزعجة ليخيفوا المسلمين.. ولكن المسلمين ثبتوا يومهم هذا، وركز المثنى على قلب الجيش الفارسي وفيه قائدهم.. واستطاع أن يقتل قائد الفرس.. فانفرط عقد الجيش.. وأرادوا الفرار.. وكان المثنى قد كلف فرقة تقطع على الفرس خط الرجعة في الوقت المناسب.. فقطع الجسر فلم ينج يومها من الفرس أحد، فإما أن يقتل وإما أن يفر تائها في الصحراء.. وبعد المعركة استمر المثنى يشن غارات متتالية على أسواق الفرس بشمال العراق وكأنها حرب استنزاف، أرعبت العدو، مما دعاهم إلى إعادة النظر في أحوالهم الداخلية والتجمع على ملكهم الشاب يزدجرد.. وإعداد العدة من جديد للمسلمين.

ووصلت تطورات الأوضاع إلى الخليفة عمر فأمر المثنى بالانسحاب من العراق كلها، وأن يكتفي بالمرابطة على حدود العراق، ذلك لأن عمر كان يريد أن ينظم جنده ويحشد كل قواه لبدء حملة حاسمة يقضى بها على ملك الفرس تمامًا..

فكتب عمر إلى الأمراء في البدو والحضر كتابًا جاء فيه.. «لاتدعوا أحدًا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلى.. العجل العجل».

وجعل يستشير أصحابه فيمن يعين قائدًا لهذه الجولة الحاسمة فاقترحوا عليه سعد بن أبي وقاص فوافقهم عمر.. وقد كان اختيارًا موفقًا، فسعد أحد العشرة المبشرين بالجنة، وهو الملقب بالأسد في براثنه، وهو الذي دعا له النبي ﷺ «اللهم سدد رميته وأجب دعوته» وهو سابع سبعة في الإسلام، أسلم وعمره تسعة عشر عامًا.. وهو خال النبي ﷺ.

واستدعى عمر سعدًا وأخذ يهيئه للأمر الجلَل الذي سيقبل عليه فأوصاه وصية طويلة جاء فيها: «... **يا سعد لا يغرنك أن قيل خال رسول الله ﷺ فان الله - عز وجل- لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، فإن الله تعالى ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة... هذه عظتي إياك، إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين**».

واستطاع عمر أن يحشد عشرين ألفًا من المسلمين، بالإضافة إلى قوات المثنى أي أن عدد جيش المسلمين سيصير اثنين وثلاثين ألفًا (٣٢٠٠٠) كما أصدر عمر أمرًا إلى أمراء جيوش الشام، أن يرسلوا من كان بالعراق قبل انتقاله إلى الشام مع خالد بن الوليد.

وكان في جيش سعد بضعة وسبعون بدريًا (أي ممن شهدوا بدرًا) وربما يقول قائل: لماذا تأخر هؤلاء البدريون في الخروج للفتوحات حتى الآن؟

نقول: إن عمر كان يستبقى هذه الفئة وغيرهم من خيار الصحابة للرأى والمشورة، وقد كان إذا حزبه أمر جمع له أهل بدر، ومنهم بصفة خاصة على بن أبي طالب وعثمان بن عفان وغيرهما.. فلما أراد أن يكون الفتح حاسمًا أذِن لهم في الخروج للجهاد وهو يعلم أنهم قد لا يعودون ويخسر خبرتهم وبركتهم ولكن لابد من وجودهم في هذه المرحلة بالجيش، ليثبتوا الناس ويكونوا لهم قدوة.. وقد كان المسلمون يتباركون بدعائهم في المعارك ويقولون: «وهل ننصر إلا بدعائهم».

خطة جديدة:

وحدد عمر لسعد المكان الذي يعسكر فيه بدقة وهو القادسية.. وأوقفه على مميزات المكان.. وأمره أن يلزم هذا المكان ولا يبرحه مهما كانت الظروف حتى

يصل إليه العدو.. وجعل عمر يحدد الخطة لسعد وبمشاورة أصحابه.

كانت الخطة القديمة تقتضي أن يحتل المسلمون غربي الفرات فيحتلوا الحيرة ومنها إلى المدائن.. ولكنهم رأوا تغيير الخطة باختيار موقع جديد هو القادسية، وأن يستدرج المسلمون العدو إلى القتال في هذه المنطقة، وبذا تكون الصحراء -ملعب العرب- من ورائهم، وبينهم وبين عدوهم شبكة معقدة من المسالك والمسطحات المائية.. لابد أن يعبرها فإذا عبرها صارت نقطة ضعف من ورائه.. فإذا تم النصر في القادسية فسيتخذ الجيش المسلم طريقه الرئيسي إلى المدائن شرقي الفرات وغربي دجلة وهى المنطقة المسماة ما بين النهرين (السواد) أخصب أرياف العراق، وخرج جيش سعد تجلجل تكبيراته أسماع الوجود، وقد عزموا ألا يعودوا إلا ومعهم تيجان كسرى وكنوزه، وكان بدء خروج الجيش في ١٣من شعبان سنة ١٤هـ ، وفي هذه الأثناء استشهد القائد المثنى بن حارثة متأثرًا بجراحه يوم الجسر ...

القادسية معركة فاصلة

لم تنل معركة في التاريخ الإسلامي بعد وفاة النبي ﷺ من الاهتمام مثل هذه المعركة.. فلقد فصّل المؤرخون في سرد أحداثها، ذلك لأن هذه المعركة كانت فاصلة في حروب المسلمين في بلاد فارس ...

يقول الطبري: «إن العرب في جميع أنحاء الجزيرة العربية كانوا متعلقين بأخبار هذه المعركة ليعرفوا نتيجتها، حتى إن الرجل كان يريد الأمر فيقول: لا انظر فيه حتى انظر ما يكون من أمر القادسية».

هذا بخلاف معارك الشام ضد الروم التي لم يفصل فيها المؤرخون مثل ما فصلوا للقادسية ذلك لأن المعارك مع الروم لم تحسم في هذا الزمان، وإنما بقيت عاصمتهم القسطنطينية صامدة طيلة ستة قرون حتى سقطت على يد محمد الفاتح.

أقام سعد بالقادسية شهرًا دون أي بادرة هجوم من الفرس فكتب إلى عمر كتابًا: «لم يوجه إلينا القوم أحدًا ولم يسندوا حربًا إلى أحد علمناه...)، وسيطول مقام سعد عامًا كاملاً ستتخلله مناوشات ومفاوضات كما سنرى إن شاء الله... ولكن عمر في هذه الفترة كان يتابع سعدًا وجنده أولاً بأول ويرسل إليه الوصايا.. ومن هذه الوصايا:.

«أما بعد ، فتعاهد قلبك ، وحادث جندك بالموعظة والنية والحسبة ، ومن غفل فليحدثهما ، والصبر ، الصبر ، فإن المعونة تأتى من الله على قدر النية ، والأجر على قدر الحسبة ، والحذر الحذر على ما أنت عليه وما أنت بسبيله ، واسألوا الله العافية ، وأكثروا من قول «لا حول ولا قوة إلا بالله» .. واكتب إلى أين بلغك جمعهم ، ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم ، فإنه قد منعني من بعض ما أردت الكتابة به قلة علمي بما هجمتم عليه والذي استقر عليه أمر عدوكم ، فصف لنا منازل المسلمين ، والبلد الذي بينكم وبين المدائن ، صفه كأني أنظر إليها ، واجعلني من أمركم على الجلية ، وخف الله وارجه ، واعلم أن الله وعدكم ، وتوكل لهذا الأمر بما لا خلف له ، فاحذر أن تصرفه عنك ويستبدل بكم غيركم .

ووصية أخرى جاء فيها:

أما بعد فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو في الحرب . وآمرك ومن معك أن تكون أشد احتراسًا من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ؛ لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة.

بادية الشام

بغداد

المدائن

بهرسير

الجيش الفارسي بقيادة رستم يتلكأ في المسير يقطع المسافة من المدائن حتى القادسيه (٦٠ ١ كم) في أربعة اشهر ومعه ١٢٠٠٠٠ مقاتل ومثلهم من الخدم والأعوان

نجدات الشام و فيهم القعقاع ابن عمرو

ارض السواد (ما بين النهرين)

جيش سعد قادم من المدينه ومن انحاء الجزيره العربيه في ١٣ شعبان سنة ١٤ هـ

شبكه معقدة المسالك والمسطحات المائيه

رسم مبسط يوضح موقعة القادسية

وأشهر الأماكن التي حسمت موقف المسلمين

اصطفاف المسلمين

تميـــم	أســــد	بجيلـــة	النخـــع	كنــــدة

مهران	البيرزان	بهمن	جالينوس	الهرمزان


شكل كروكي يوضح اصطفاف جيوش القادسية

رستم يتثاقل عن مواجهة المسلمين

وعلى الطرف الآخر في بلاد فارس وقد حكمهم الشاب يزدجرد وهو قليل الخبرة، مغرور لم يتجاوز العشرين من عمره.. يأمر قائد قواته رستم الخبير العسكري العجوز أن يتجهز للمسلمين وأن يقضى عليهم بأسرع ما يمكن..

وكان رستم قد خبر المسلمين وعلم أن هزيمتهم ليست سهلة، بل قد تكون مهمة مستحيلة في ظل الظروف الراهنة.. فجعل يؤخر طلب الملك فترة ولكن الأحداث لم تساعده.. لأن المسلمين في أثناء فترة إقامتهم بالقادسية أخذوا يشنون غارات سريعة على المناطق الخصبة في العراق للحصول على التموين اللازم للجند.. ولاستفزاز الفرس للدخول في المعركة.. وكثرت شكوى التجار ومزارعي الريف المرفوعة إلى يزدجرد.. وبالتالي يلح يزدجرد على رستم ويستعجله للنفير.. فلما ضاق الأمر على رستم لم يجد بدًا من الاستعداد لمواجهة المسلمين فحشد مائة وعشرين ألف مقاتل نصفهم من الفرسان ومائة وعشرين ألفًا مثلهم من الأتباع والحاشية وعددًا من الفيلة.. وخرج متثاقلاً حتى إنه قطع المسافة من المدائن العاصمة إلى القادسية في حوالي أربعة أشهر وهى مسافة لا تزيد عن مائة وستين كيلو مترًا؟؟.

وفد المسلمين الأول إلى رستم

طلب رستم التفاوض مع المسلمين فأرسل إليه سعد **ربعي بن عامر** وحده.. وأمر رستم أن يُعَدَّ مكان الاستقبال فعُلِّقت الزينة وأظهرت مظاهر الأبهة والعظمة وفرشت أغلى البسط وأثمن النمارق، ولبس رستم زينته الكاملة.. لعل ذلك يؤثر في الوفد القادم عليه.. وكانت المفاجأة، إذا بربعي بن عامر يدخل متوكئا على رمحه، ويزج به النمارق والبسط، فلما دنا من رستم تعلق به الحرس

فجلس على الأرض وركز رمحه بالبسط.. فقالوا: ما حملك على هذا؟ قال ربعي: إنا لا نستحب الجلوس على زينتكم هذه. فقال له رستم: وما جاء بكم؟ قال ربعي: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة،ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا إلى خلقه لندعوهم إليه فمن قبل منا ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبدًا حتى نفضي إلى موعود الله. قال رستم: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي. فقال رستم: سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال: نعم، كم أحب إليكم.. يومًا أو يومين؟ قال رستم: لا، بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا. فقال ربعي: إن مما سن لنا رسولنا ﷺ وعمل به أئمتنا أن لا نؤجل الأعداء أكثر من ثلاث، فنحن مترددون عنكم ثلاثًا، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل:

الإسلام وندعك وأرضك.

أو الجزية فنقبل ونكف عنك، وإن كنت عن نصرنا لغنيًا تركناك منه، وإن كنت إلينا محتاجًا منعناك.

أو المنابذة في اليوم الرابع.

ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا، وأنا كفيل لك بذلك على أصحابي وعلى جميع ما ترى.

قال رستم: أسيدهم أنت؟ قال: لا، ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجير أدناهم على أعلاهم.

فالتفت رستم إلى خاصته ومستشاريه قائلا: ما ترون؟ هل رأيتم كلامًا قط

أوضح أو أعز من كلام هذا الرجل؟ قالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك لهذا الكلب أما ترى من ثيابه؟

قال: ويحكم لا تنظروا إلى الثياب، ولكن انظروا إلى الكلام والرأي والسيرة، إن العرب تستخف باللباس والمأكل ويصونون الأحساب.

ولم يستطع رستم إقناع قومه بوجهة نظره في عدم الدخول في مواجهة غير محسوبة مع المسلمين ...

ثم طلب رستم وفدًا آخر للتفاوض فأرسل إليه سعد حذيفة بن محصن فكان منه مثل ما كان من ربعي بن عامر، ثم تكرر الطلب ثالثًا فأرسل سعد المغيرة بن شعبة وكان من أدهى العرب وأحسنهم منطقا وكان ضخم الهيئة، وكان يجيد لغتهم... فلما دخل على فسطاط رستم.. تقدم ومازال يمشى حتى جلس مع رستم على سريره ووسادته، فنخرت الفرس ووثبوا عليه وجذبوه..

فقال المغيرة: لا تنخروا، قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولا أرى قومًا أسفه منكم، إنا معشر العرب سواء، لا يستعبد بعضنا بعضًا، إلا أن يكون محاربًا لصاحبه فظننت أنكم تواسون كما نتواسى، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض، وأن هذا الأمر لايستقيم فيكم فلا نصنعه، ولم آتكم ولكن دعوتموني، اليوم علمت أن أمركم مضمحل، وإنكم مغلوبون، وإن ملكًا لا يقوم على هذه العقول.

فقالت العامة: صدق والله العربي.

وقال كبراء المجلس: والله لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه..

كانت هذه المفاوضات محاولة أخيرة من رستم لتأخير المعركة ولكن لم يكن عنده من الحيل أكثر من هذا، فلا بد من مواجهة عسكرية مع المسلمين.

أصيب سعد بن أبي وقاص بعرق النسا وبالحبوب والدمامل فلم يعُد يستطيع

الركوب أو الجلوس.. فاعتلى رأس قلعة تسمى قديس.. وأكب فوقها وصدره على وسادة يشرف على الناس وعيّن خالد بن عرفطة نائبًا عنه كقائد ميداني ...

أيام القادسية

اليوم الأول: يوم أرماث ١٣من شعبان سنة ١٥ هـ

أرسل رستم كالعادة يدعو المسلمين أما أن يعبروا إليهم أو العكس فجاءه الجواب: بل اعبروا إلينا.

وكان سعد قد أعطى أوامره لجنده قائلا: «الزموا مواقفكم، ولاتحركوا شيئًا حتى تصلوا الظهر، فإذا صليتم الظهر فإني مكبر تكبيرة، فكبروا وشدوا شسع نعالكم واستعدوا، واعلموا أن التكبير لم يعطه أحد قبلكم، واعلموا أنما أعطيتموه تأييدًا لكم، فإذا كبرت الثانية فكبروا وهيئوا ولتستتم عدتكم، فاذا كبرت الثالثة فكبروا ولينشط فرسانكم ليبرزوا ويطاردوا، فاذا كبرت الرابعة فشدوا النواجذ على الأضراس واحملوا وازحفوا جميعًا حتى تخالطوا عدوكم وقولوا «لا حول ولا قوة إلا بالله»».

وانطلقت التكبيرات تدوي في الأفق.. حتى كانت التكبيرة الثالثة فخرج غالب ابن عبد الله الأسدي يدعو للمبارزة، فخرج إليه هرمز أحد أمراء الفرس، فلم يمهله غالب حتى انقض عليه واحتضنه وعاد به إلى صفوف المسلمين أسيرًا..

وانتظر المسلمون التكبيرة الرابعة ولكن الفرس فاجئوا المسلمين بالهجوم على قلب الجيش المسلم الذي فيه قبيلة بجيلة - أقوى قطاع في جيش المسلمين - والتي تجاورها كندة وهاتان القبيلتان تمثلان ربع جيش المسلمين (٨٠٠٠) .. وكان هجومًا شرسًا من الفرس.. وكان للفيلة دور كبير في إخافة الخيول، ونزل المسلمون يحاربون على أقدامهم، هنالك أمر سعد من موقعه قبيلة أسد (تقع على ميمنة بجيلة وهم قوم طليحة بن خويلد) أن يذبوا عن بجيلة وكان عددهم

ثلاثة آلاف.. فأبلى بنو أسد بلاءً حسنًا وأظهروا شجاعة فائقة في الدفاع عن إخوانهم، حتى استحر القتل بين بنى أسد ففقدت أسد وحدها يوم أرماث خمسمائة شهيد..

ولم تتحرك باقي مواقع الجيش الإسلامي حتى كبّر سعد التكبيرة الرابعة فانطلقت جنود الله تزأر دفاعًا عن إخوانهم واستطاعت فرقة من المسلمين أن تنقض على أحزمة التوابيت المربوطة حول بطون الفيلة فتقطعها وتقلب التوابيت وتقتل من فيها..

وانقضى اليوم الأول من أيام القادسية والحرب سجال بين الطرفين.

وصية الخنساء لأبنائها ليلة يوم أرماث:

جمعت أبناءها الأربعة ووعظتهم قائلة: «إنكم أسلمتم طائعين وجاهدتم مختارين، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية.. فإن أصبحتم غدًا -إن شاء الله - سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين وبالله على أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمّرت عن ساقها واضطرمت لظى على سياقها، وتحللت - أي تفجرت - نارًا على أرواقها فتيمموا وطيسها وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها، تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة».

فوا عجبًا على ما يصنعه الإيمانُ في النفوس، فهذه الخنساء كانت في جاهليتها قد فقدت أخًا لها، هو صخر، فرثته رثاءً فريدًا حفظه الشعراء لبلاغته.. ها هي بعد إسلامها تدعو أبناءها الأربعة أن يضحوا بأرواحهم في سبيل الله...

اليوم الثاني: يوم أغواث، ووصول طليعة المدد الإسلامي من الشام:

لقد اقترب المدد العائد من بلاد الشام من إدراك المسلمين بالقادسية، وكان في مقدمة هذا المدد القعقاع بن عمرو ومعه طليعة من ألف فارس فوصل إلى

ميدان المعركة مع بزوغ شمس يوم أغواث.

ولجأ القعقاع إلى أسلوب خادع يدخل به الفزع في قلوب أعداء الله، فقسم الألف الذين معه إلى مائة مجموعة كل مجموعة عشرة من الفرسان وأمر كل فرقة منهم إذا اقتربوا من معسكر المسلمين بمقدار مد البصر دخلت فرقة، فإذا اجتازت تتبعها الأخرى فكان الغبار الذي تثيره كل مجموعة يتصاعد تباعًا حتى حجب ضوء الشمس فيظهرون في عيون العدو أكبر من حجمهم.

ولما بدأ اليوم خرج القعقاع يطلب المبارزة... فخرج إليه بهمن جاذويه قائد معركة الجسر السابق ذكرها، ولم يكن القعقاع يعرفه فسأله من أنت فلما عرفه صرخ القعقاع: «يا لثارات أبى عبيد» وفى الحال قتله القعقاع فكانت بداية حسنة لجيش المسلمين.. والحقيقة أنه توفر لجيش المسلمين في هذا اليوم ثلاثة مميزات:

الأول: تواجد القعقاع في الجيش وقد قال عنه عمر: «**لا يُهزم جيش فيه القعقاع**» وقال عنه أيضا: «**لصوت القعقاع في المعركة يقوم مقام ألف فارس**».

الثانية: اختفاء الفيلة لتمكن المسلمين من تحطيم توابيتها في اليوم الأول فانشغل بإصلاحها الفرس.

الثالثة: الحيلة التي لجأ إليها القعقاع وهى برقعة الجمال، فقد عمد القعقاع ومعه بنو عمه يبرقعون الجمال حتى صار منظرها مخيفًا.. يقول الطبري:

«فجعلت تلك الإبل لا تصمد لقليل ولا لكثير إلا نفرت بهم خيلهم، فلما رأى المسلمون ذلك عملوا مثلهم فلقيت فارس من الإبل المبرقعة يوم أغواث أعظم مما لقي المسلمون من الفيلة يوم أرماث».

وخسر الفرس في هذا اليوم عشرة آلاف قتيل، ومن المسلمين ألفان وفيهم أبناء الخنساء الأربعة، فلما وصلها الخبر قالت: «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربى أن يجعلهم في مستقر رحمته».

اليوم الثالث: يوم عماس

لم تصل بعد باقي الأمداد من الشام والتي كان معها القعقاع والحقيقة أن القعقاع لم ينم ليلته، واتفق مع قيادته على تدبير حيلة جديدة يرفع بها معنويات المسلمين ويرعب بها أعداء الله، ففي ظلمة الليل أمر القعقاع الألف فارس الذين كانوا معه أن يتسربوا إلى ما وراء خطوط القتال من الناحية التي يتوقع أن يأتي منها المدد دون أن يشعر بهم أحد، وقسمهم عشر مجموعات، كل مجموعة مائة فارس. ومع طلوع الشمس تتوارد إلى الميدان فرقة تلو الأخرى ... وفي الصباح شرع الفرسان في تنفيذ ما اتفق عليه، وصادف ذلك وصول باقي مدد الشام بقيادة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وعلم هاشم بحيلة القعقاع فقلدها بمن معه من الجند ... فكان لذلك أثره العظيم في إدخال الرعب في نفوس الفرس ...

وفي هذا اليوم عادت الفيلة إلى ساحة القتال، ولكن الفرس أضافوا حول كل فيل مجموعة من المشاة كحماية ... فلما رأى سعد خطورة عودة الفيلة استدعى بعضًا من الفرس الذين أسلموا فسألهم: هل للفيلة مقاتل يمكن عن طريق إصابتها إخراج الفيلة من المعركة؟

قالوا: نعم. المشافر والعيون لا ينتفع بها بعدها ... فأرسل سعد إلى القعقاع وأخيه عاصم: اكفياني الفيل الأبيض قائد الفيلة، وبعث إلى حمال بن مالك قائد المشاة والربيل بن عمرو أن اكفياني الفيل الأجرب وهو أحد قادة الفيلة ...

ونجح الفريقان أن يضعوا الرماح في عيون الفيلة، وأن يقطعوا الخرطوم

منها، فثارت وألقت بمن عليها وهربت وكان هذان الفيلان يدربان بقية الفيلة فاحتارت وهربت كما هرب الفيلان.

واستمر قتال يوم عماس يومًا وليلة أربعٍ وعشرين ساعة دون انقطاع..

اليوم الرابع - يوم القادسية ١٦من شعبان سنة ١٥ هـ

رأت قيادة الجيش ضرورة مواصلة القتال خاصة أن قوى الفرس قد بدأت تنهار.. وأخذ القعقاع يعمل على بث العزيمة في نفوس المسلمين. وفي هذا اليوم عزم القعقاع ومن معه على أن يعملوا على قتل رستم ونجحوا في ذلك، وبقتل رستم انهارت معنويات الفرس تمامًا.. ويصف الطبري الأحداث فيقول:

«إن رجلاً من بني عبس قال: أصاب أهل فارس يوم القادسية بعد ما انهزموا ما أصاب الناس قبلهم، قتلوا حتى كان الرجل من المسلمين ليدعو الرجل منهم فيأتيه حتى يقوم بين يديه فيضرب عنقه، حتى أنه ليأخذ سلاحه فيقتله به، وحتى أنه ليأمر الرجلين أحدهما بصاحبه - يعني فيقتله - وكذلك يأمر العدد منهم فيقتل العدد».

ولم يأت عصر يوم القادسية إلا والنصر حليف المسلمين. وبلغ عدد شهداء المسلمين خمسمائة وثمانية آلاف. وأما قتلى الفرس فكان عددًا كبيرًا غير محصور ...

وأرسل سعد إلى عمر كتابًا يتضمن تفاصيل النصر ...

أما بعد.. فإن الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم ، بعد قتال طويل وزلزال شديد ، وقد لقوا المسلمين بعدةٍ لم يرَ الراءون مثل زهائها (مقدارها) فلم ينفعهم الله بذلك ، بل سلبهموه ونقله عنهم إلى المسلمين ، واتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام وفي الفجاج ، وأصيب من المسلمين سعيد بن عبيد القارئ ، وفلان وفلان ورجال من

المسلمين لا نعلمهم الله بهم عالم، كانوا يدوون بالقرآن إذا جن الليل دوي النحل، وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود ولم يفضل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة؛ إذ لم تكتب لهم. ووزعت الغنائم وفاضت...

تحرك بعد ذلك المسلمون في اتجاه الشمال فدخلوا الكوفة دون مقاومة تذكر، واستمر الزحف حتى وصل المسلمون إلى مدينة بهرسير وهي مدينة محصنة تحصينًا شديدًا وهي آخر الحصون قبل المدائن. فحاصرها المسلمون حصارًا طويلاً، حوالي ستة أشهر، ولأول مرة يستخدم المسلمون أسلحة الفرس فضربوها بالمجانيق.

رواية طريفة: يروي الطبري عن أنيس بن الحليس قال: بينما نحن محاصرون بهرسير، أشرف علينا رسول من الفرس فقال: إن الملك يقول لكم.. هل لكم إلى المصالحة على أن لنا ما يلينا من دجلة وجبلنا ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم؟ أما شبعتم لا أشبع الله بطونكم؟!

فبدر الناس (أي سبقهم في الرد على الرسول) أبو مفزّر الأسود بن قطبة وقد أنطقه الله بما لا يدري ما هو ولا نحن.. فرجع الرسول.. ثم رأيناهم يقطعون النهر إلى المدائن، فقلنا: يا أبا مفرز! ما قلت للرسول؟ فقال: والله ما أدري ما هو إلا أنّ على سكينة، وأنا أرجو أن أكون قد أُنطقت بالذي هو خير، وانتاب الناس يسألونه في تعجب: كيف إن كلمة واحدة قالها جعلت حامية بهرسير تترك المدينة خالية وتهرب إلى المدائن؟

وفوجئ المسلمون برجل من الفرس ينادي بالأمان وأنه لم يبق بالمدينة أحد، فما يمنعكم من الدخول؟! فسألوه لأي شيء هربت الفرس؟

فقال الرجل: بعث الملك إليكم يعرض عليكم الصلح فأجبتموه بأن لا يكون

بيننا وبينكم صلح أبدًا حتى نأكل عسل أفريذين بأترج كوثي، فقال الملك: واويله، إلا إن الملائكة تكلم على ألسنتهم ترد علينا وتجيبنا عن العرب، والله لئن لم يكن كذلك ما هذا إلا شيء ألقي على فيّ هذا الرجل لننتهي، فهربوا ...».

وتمت السيطرة على بهرسير في صفر سنة ١٦ هـ.

عبور دجلة بالخيول

لم يعد بين المسلمين والوصول إلى المدائن سوى عبور نهر دجلة، وهو نهر عريض بعمق ستة أمتار.. ولكن سعد بن أبي وقاص ظل مترددًا عن عبور النهر رغم حماسة المسلمين لذلك ... وجاءه جماعة ممن أسلم من الفرس فدلوه على مخاضة تخاض إلى صلب النهر.. ولكنه ظل مترددًا.. وأخيرًا شرح الله صدره للعبور وأراد أن يتقدم القوم فرقة.. فقال: «فمن يبدأ ويحمي لنا الفراض (الشاطئ) حتى تتلاحق به الناس لكي لا يمنعوهم من الخروج»، فبادر عاصم بن عمرو، أخو القعقاع، وتبعه ستمائة من ذوي البأس والنجدة وخاض عاصم ومن معه على ظهور الخيل النهر في مغامرة فريدة وكان دجلة في موسم فيضان.

وفوجئ الفرس بخيول المسلمين تقتحم دجلة وتقترب من الشاطئ الآخر، وحاولوا منعهم ولكنهم هزموا واستولى المسلمون على الساحل الشرقي تمامًا دون خسائر!!! هنالك أمر سعد عامة الجيوش أن يقتحموا دجلة وقال لهم: «قولوا نستعين بالله ونتوكل عليه حسبنا الله ونعم الوكيل، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» ... فتلاحق الناس يعبرون ويتحدثون أثناء عبورهم ما يكترثون، وقد أمرهم سعد أن يسيروا اثنين اثنين فعبروا فما غرق منهم إنسان ولا ذهب لهم متاع!! وجعل جنود الفرس يقولون: (والله ما تقاتلون الإنس وما تقاتلون إلا الجن).

وكان مجاورًا لسعد بن أبي وقاص وهو يعبر النهر سلمان الفارسي، وكان

لهما حديث والخيل تعوم بهما: يقول سعد: «وذلك تقدير العزيز العليم، حسبنا الله ونعم الوكيل، والله لينصرن الله وليه وليظهرن الله دينه وليهزمن الله عدوه، إن لم يكن في الجيش بَغْي أو ذنوب تغلب الحسنات».

ويقول له سلمان: «الإسلام جديد، ذللت لهم والله البحور كما ذلل لهم البر، أما والذي نفس سلمان بيده ليخرجن منه (أي البحر) أفواجًا كما دخلوه أفواجًا».

وفر كبراء الفرس من المدائن، ومن بقى من السكان فقد لزم بيته ودخل المسلمون المدينة وهي خالية.. فلما انتهى سعد إلى إيوان كسرى تلا قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ أَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾[الدخان:٢٥-٢٨]. **وكان دخول المدائن في صفر سنة ١٦ هـ**

وبعث سعد سلمان الفارسي إلى الفرس يدعوهم إلى الله، فقرر أغلبهم دفع الجزية، وفاضت الغنائم، ولم يفكر أحد أن يَغُلَّ درهمًا منها رغم عظم هذه الغنائم، يروى المؤرخون: لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض (غنائم الحرب) أقبل رجل بحُق معه، فدفعه إلى صاحب الأقباض فقال والذي معه: (ما رأينا مثل هذا قط، وما يعدله عندنا ولا يقاربه فقالوا: من أنت؟ فقال: أما والله لولا الله ما أتيتكم به، فعرفوا أن للرجل شأنًا، فقالوا: من أنت؟ فقال: لا والله لا أخبركم لتحمدوني، ولا غيركم ليقرظوني، ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه فسأل عنه، فإذا هو عامر بن عبد قيس.

وروي أيضًا أن سعدًا كان يقول عن جيش القادسية:

«والله إن الجيش لذو أمانة، ولولا ما سبق لأهل بدر لقلت: وأيم الله - على فضل أهل بدر - لقد تتبعت من أقوام هنات وهنات فيما أحرزوا ما أحسبها ولا أسمعها من القوم» يعني أهل القادسية الذين دخلوا المدائن.

لقد كانت كنوزًاعظيمة تلك التي وجدها المسلمون في إيوان كسرى، ولكنهم أدّوها إلى بيت مال المسلمين، وهذه وربي معجزة أعظم من معجزة عبور نهر دجلة، فلم تغير الدنيا وكنوزها قلوب هؤلاء الفاتحين، فما عند الله خير وأبقى ولله الحمد والمنة. ولما وصلت خمس هذه الغنائم إلى عمر، ويزاد المال في بيت المال وإذا بعمر يبكي ... فيقول له عبد الرحمن بن عوف: ما يبكيك يا أمير المؤمنين، فوالله إن هذا لموطن شكر؟!!.

فيقول عمر: «والله ما ذاك يبكيني، وتالله ما أعطى الله هذا قومًا إلا تحاسدوا وتباغضوا، ولا تحاسدوا إلا ألقى الله بأسهم بينهم».

أرسل سعد بعد ذلك فرقة من اثنى عشر ألفًا من المسلمين ليتبعوا الفرس الذين تجمعوا في **جلولاء** وانتصر عليهم في ذي القعدة سنة ١٦ هـ

وكانت قوات أخرى للمسلمين تفتح تكريت والموصل ونينوى على نهر دجلة، وقوات تفتح هيث وقرقيسياء على نهر الفرات، وقوات تفتح الأبلة وشط العرب والأهواز ... وأقام المسلمون مدينة الكوفة سنة ١٧ هـ. بعد أربعة عشر شهرًا من معركة جلولاء وجعلوها قاعدتهم الحربية واكتفوا بإقامة حاميات في المناطق المفتوحة، وسكنت كل قبيلة من قبائل العرب حيًا من أحياء الكوفة ...

وفي سنة ١٧ هـ تم فتح الجزيرة ...

أهل الكوفة يشتكون سعدًا

يروي المؤرخون: أن سعدًا اتخذ قصرًا وجعل له بابًا وغلق؛ لأنه كان في السوق، وكانت الغوغاء تمنع سعدًا الحديث وبلغ ذلك عمر، وأن الناس يسمونه قصر الأمير سعد فاستاء عمر لذلك.. فاستدعى **الصحابي محمد بن مسلمة** فسرّحه إلى الكوفة وقال له: اعمد إلى قصر سعد حتى تحرق بابه ثم ارجع عودك على بدئك.

فخرج ابن مسلمة من المدينة حتى قدم الكوفة ودون أن يتصل بالأمير سعد اشتري حطبًا ثم أتي القصر فأحرق الباب، وبلغ سعدًا الخبر فقال: رسول أرسل لهذا الشأن، وبعث لينظر من هو؟ فإذا هو محمد بن مسلمه، فأرسل إليه رسولاً بأن ادخل فأبى، فخرج إليه سعد بنفسه، فأراده على الدخول والنزول فأبى، وعرض عليه نفقة فلم يأخذ، فدفع ابن مسلمه إلى سعد كتاب عمر فيه:

بلغني أنك بنيت قصرًا اتخذته حصنًا ويسمى قصر سعد، وجعلت بينك وبين الناس بابًا، فليس بقصرك، ولكنه قصر الخبال، انزل منه منزلاً مما يلي بيوت الأموال وأغلقه، ولا تجعل على القصر بابًا تمنع الناس من دخوله وتنفيهم به عن حقوقهم ليوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك إذا خرجت.

فحلف له سعد: ما قال الذي قالوا، ورجع محمد بن مسلمة من فوره إلى المدينة، حتى إذا فني زاده، فتبلغ بلحاء الشجر، فقدم على عمر وقد سنق (أي تأذى من أكل لحاء الشجر) فأخبره عمر خبره كله، فقال عمر: إن أكمل الرجال رأيًا من إذا لم يكن عنده عهد من صاحبه عمل بالحزم أو قال به ولم ينكل (يمدح ابن مسلمة) وأخبره بيمين سعد وقوله فصدّق عمر سعدًا وقال: هو أصدق ممن روى عليه ومن أبلغني، وكان أهل الكوفة قد شكوا سعدًا إلى عمر.

عزل سعد:

ولكن يبدو أن عمر - على طريقته - آثر عزل سعد وأن يستبقيه عنده بالمدينة... وجاء بعده **عبد الله بن عبد الله بن عتبان**.

ثم إن ابن عتبان كتب إلى عمر يستأذنه في الزحف إلى نهاوند حيث تحصن عدد كبير من الفرس وكان من ضمن الرسالة: (إنه قد تجمع منهم خمسون ومائة ألف مقاتل فإن جاءونا قبل أن نبادرهم الشدة ازدادوا جرأة وقوة، وإن نحن

عاجلناهم كان لنا ذلك عليهم).

معركة نهاوند

ومن ثم أذن عمر بفتح نهاوند ولكنه أراد أن يختار لها قائدًا جديدًا فجعل يتداول المشورة مع أصحابه حتى وقع اختياره على **النعمان بن مقرن المزني** وقال عندما اختاره:

«والله لأولين أمرهم رجلاً ليكونن أول الأسنة إذا لقيتها غدًا، إنه الرجل المكيث النعمان بن مقرن» والمكيث أي المتأني مع الإرادة، أو المصمم على بلوغ الغرض. فلما تولى النعمان أخذ يستطلع آخر أخبار الفرس فوجد أنهم لجئأوا إلى حيلة جديدة فقد طرحوا (حسك الحديد) حول مدينة نهاوند نثروها كالألغام بكثرة، وخططوا بينها ممرات يعرفونها فيصعب على المسلمين اقتحام المدينة، كما اعتصموا بالخنادق والحصون...فأصبح من المستحيل أن يقتحم جيش المسلمين مدينة نهاوند.

فأشار بعض المسلمين بخطة خادعة للفرس تتلخص في:

- أن تتقدم فرقة من فرسان المسلمين للتحرش بالفرس وتغريهم على الالتحام في مبارزة بالكر والفر.
- تتظاهر الفرقة المشتبكة بالانكسار وتتراجع أمام ضغط الفرس.
- يتراجع أيضًا صلب جيش المسلمين تضليلاً للفرس ويتخذ مواقع ترصدية.
- تصل الفرقة المشتبكة في تراجعها وهي تسحب وراءها جيش الفرس إلى مواقع يستطيع جيش المسلمين أن يطبق عليه فيها..

وبالفعل نجحت الحيلة حتى أن الفرس لما رأوا تراجع الفرقة المشتبكة ثم تراجع صلب الجيش نادى بعضهم بعضًا: هي هي، هزيمة المسلمين، فتابعوهم

وكنسوا حسك الحديد حتى انقطع القوم عن حصونهم وخنادقهم بعض الانقطاع ... وكان ذلك أول النهار فأمر النعمان جنده أن يلزموا الأرض ولا يقاتلوهم حتى يأذن لهم، ففعلوا واستتروا بالجحف (الترس من الجلد) من الرمي، وأقبل الفرس على المسلمين يرمونهم حتى أفشوا فيهم الجراحات، وشكا بعضهم إلى بعض ذلك، وقالوا للنعمان: ألا ترى ما نحن فيه.؟! فما تنتظر بهم؟ فيجيب النعمان: رويدًا، رويدًا.!!

فلما اقتربت ساعة الزوال (موعد صلاة الظهر) ... ركب النعمان فرسه وسار في الناس وجعل يقول لهم: **(ما منعني أن أناجزهم إلا شيءٌ شهدته من رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ كان إذا غزا فلم يقاتل أول النهار، لم يعجل حتى تحضر الصلاة وتهب الأرواح (الرياح) ويطيب القتال، فما منعني إلا ذلك...)**

ثم قال للناس «فإذا قضيتم صلاتكم ... فاستعدوا، فإني مكبر ثلاثاً، فإذا كبرت الأولى فليتهيأ من لم يكن تهيأ، ويشد الرجل شسعه ويصلح من شأنه، فإذا كبرت الثانية فليشد الرجل إزاره ويتهيأ لوجه حملته وليتأهب للنهوض، فإذا كبرت الثالثة، فإني حامل إن شاء الله فاحملوا معًا، وان قُتِلت فالأمير بعدي حذيفة وإن قتل فلان ففلان وعد سبعة نواب آخرهم المغيرة بن شعبه».

وصلى النعمان بجنده وكبر التكبيرة الأولى ثم الثانية ثم رفع يده بالدعاء: **«اللهم أعزز دينك وانصر عبادك واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك، اللهم إني أسألك أن تقر عيني اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام، أمّنوا يرحمكم الله»**.

ثم كبر الثالثة ودارت المعركة وفيها حدثت مقتلة عظيمة في الفريقين، وأصيب النعمان وسقط من على فرسه، وتلقف منه الراية أخوه نعيم بن مقرن وناولها إلى

حذيفة بن اليمان، ولم ينقض اليوم حتى انتصر المسلمون نصرًا مظفرًا.

وجاء معقل بن يسار وقد لمح النعمان تزلق به فرسه ونشابه قد ركزت في جنبه وفي النعمان رمق.. فأخذ يمسح عن وجه النعمان التراب...

فقال النعمان: من أنت؟ قال: معقل بن يسار. قال: ما فعل الناس. قال: فتح الله عليهم. قال: الحمد لله، اكتبوا بذلك إلى عمر وفاضت روحه رحمه الله.

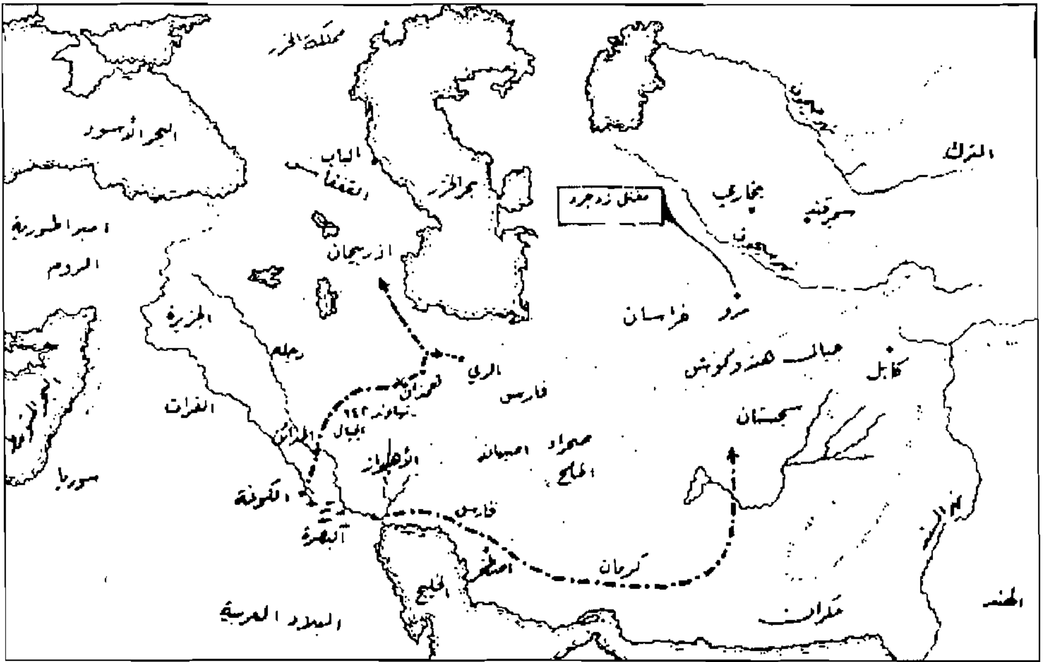
وما يعلم جنود ربك إلا هو

وكان القعقاع بن عمرو عينه على الفيرزان قائد الفرس، فأحس أنه يحاول الهرب فتبعه هو ونعيم بن مقرن فأدركاه في (ثنية همدان) في واد ضيق، فإذا بقافلة كبيرة من بغال وحمير محملة عسلاً ذاهبة إلى يزدجرد، فعرقلت القافلة هروب الفيرزان فلم يجد طريقًا، فأدركه القعقاع فقتله، فقيل بعدها: «إن لله جنودًا من عسل». واستاق البطلان العسل إلى جند المسلمين وسميت ثنية همدان ثنية العسل.

يقول أحد المؤرخين من أصحاب الخبرة العسكرية: كانت هذه الخطة في معركة نهاوند، من اقتراح لطليحة بن خويلد الأسدي، درسًا كبيرًا في التاريخ الحربي، نسج على منواله قادة جاءوا من بعد، لقد كانت هذه هي الخطة المفضلة لدى جنكيز خان قائد التتار المغول في عمليات اكتساح آسيا من شرقها إلى غربها: كان يقوم بهجوم كبير على عدوه يقصد به هز صفوفه وزلزلة أقدامه، فإذا لم يتحقق له هذا الهدف تراجع منهزمًا إلى كمين أعده، فيستدرج عدوه إلى حيث يطبق عليه في حركة مفاجئة تحدث الأثر المطلوب، وأيضًا هذه هي نفس الخطة التي اتبعها قاهر التتار قطز في عين جالوت، فأوقع بهم لأول مرة الهزيمة مستخدمًا أسلوبهم الذي لم يتصوروا أن يفعله غيرهم بهم ... **إن هذه الخطة**

تعرف في علم الحرب بالكمين والكمين مناورة هجومية دفاعية.

كانت معركة نهاوند من المعارك الفاصلة فقد أزالت نهائيًا الإمبراطورية الفارسية ... بل إن عمر بن الخطاب عزم على استئصال أدنى تهديد من جهة فارس، فأعد تسعة جيوش في وقت واحد لفتح المقاطعات الفارسية، من خراسان في أقصى الشمال الشرقي إلى إقليم فارس في الجنوب الغربي، ومن أذربيجان في الشمال الغربي إلى مكران في الجنوب الشرقي، ولم يمض عام ٢٢ هـ، حتى كانت هذه المقاطعات كلها تحت السيادة الإسلامية.



فتوحات المسلمين ببلاد فارس حتى سنة ٢٢هـ

نهاية كسرى يزدجرد وإذلال الله للطغاة في الأرض:

وفي سنة ٢٢ هـ اقترح الأحنف بن قيس على أمير المؤمنين عمر أن يغزو بلاد خراسان- وهي بلاد واسعة شرق فارس - حتى يضيقوا على كسرى يزدجرد،

فإنه هو الذي يستحث الفرس والجنود على قتال المسلمين.

فلما علم يزدجرد بقدوم المسلمين كتب إلى ملك الصُّغد يستمده، وكتب إلى ملك الصين يستعينه، وكتب إلى خاقان ملك الترك يستمده، فلم يحفلوا برسائله.

ودخل الأحنف خراسان وأخذ يفتح البلد تلو البلد، ويزدجرد يفر من أمامه إلى بلد آخر، حتى اضطر يزدجرد أن يعبر النهر ...

وتمكن الأحنف من خراسان، واستخلف في كل بلدة أميرًا، وكتب بذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر ينهاه عن العبور إلى ما وراء النهر وقال: احفظ ما بيدك من بلاد خراسان.

دخل يزدجرد بلاد ما وراء النهر وكان قد استغاث بملوكها فلم يهتموا، ولكن لما لجأ إلى بلادهم تعين عليهم إنجاده في شرع الملوك، فسار معه خاقان الأعظم ملك الترك، ورجع يزدجرد بجنود عظيمة فيها ملك الترك، واستردوا بعض مدن خراسان، ثم قصدوا إلى حيث يقيم الأحنف بن قيس وكان جميع من عنده عشرين ألفًا من الجند فقام الأحنف في الناس خطيبًا: «إنكم قليل وعدوكم كثير فلا يهولنكم، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين».

وكان من عادة الترك أنهم لايخرجون للقتال من أماكنهم التي يكمنون فيها، حتى يخرج ثلاثة من كهولهم بين أيديهم، يضرب الأول بطبلة ثم يخرج الثاني بطبلة ثم يخرج الثالث بطبلة ثم يخرجون بعد الثالث...

وكان الأحنف بن قيس قد خرج مع بعض أصحابه ليلاً يستطلعون أين يبيت عدوهم... فلما كان قرب الصبح خرج الثلاثة الذين يضربون الطبل فقتلهم الأحنف الواحد تلو الآخر، فلما خرجت الترك ووجدوهم مقتولين، تشاءم بذلك ملكهم وتطير وقال: مالنا في قتال هؤلاء القوم من خير، فانصرفوا بنا ...

ورجع كسرى خاسرًا الصفقة، وتخلى عنه من كان يرجو النصر منه، وتحير إلى أين يذهب؟

وأشار عليه بعض أولى النُهى من قومه: إنا نرى أن نصالح هؤلاء القوم، فإن لهم ذمة ودينًا يرجعون إليه، فنكون في بعض هذه البلاد وهم مجاورونا، فهم خير لنا من غيرهم .... فأبى عليهم كسرى ذلك.

ثم بعث إلى ملك الصين يستغيث به، فجعل ملك الصين يسأل رسول يزدجرد عن هؤلاء المسلمين الذين فتحوا البلاد وقهروا العباد فجعل الرسول يصفهم له: كيف يصلون؟ وكيف يقاتلون؟ فكتب إلى يزدجرد: إنه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيش أوله بمرو وآخره بالصين الجهالة بما يحق لك علي، ولكن هؤلاء الذين وصفهم لي رسولك، لو يحاولون الجبال لهدوها فسالمهم وارض منهم المسالمة...

هرب يزدجرد في جماعة يسيرة إلى مرو، فسأل من بعض أهلها مالاً فمنعوه وخافوه على أنفسهم، فبعثوا إلى الترك يستفزونهم عليه، فأتوه فقتلوا أصحابه وهرب هو حتى أتى منزل رجل ينقش الطواحين على شط، فأوى إليه ليلاً، فلما نام قتله وأخذ ما عليه من ملبس وتيجان، وجاءت الترك في طلبه فوجدوه قد قتله هذا الرجل، فقتلوا ذلك الرجل وأهل بيته وأخذوا ما كان مع كسرى، ووضعوا كسرى في تابوت وحملوه إلى اصطخر، وهو آخر ملوك فارس في الدنيا على الإطلاق، لقول رسول الله ﷺ في حديث البخاري: «**إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله**» قتل بعد سنتين من إمارة عثمان.

مواقف لعمر ينبغي أن تذكر:

حدّث أسلم خادم عمر قال: خرجت مع عمر ليلة وبعدنا عن المدينة ونحن نتفقد أهل المنازل النائية، فبصرنا بنار من بعيد فقال عمر: إني أرى هاهنا ركبانًا قَصُر بهم الليل والبرد، انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم فإذا بامرأة معها صبيان وقدر منصوبة على نار، وصبيانها يتضاغون، فسلم عمر ثم سأل المرأة ما بالكم؟ قالت: قصر بنا الليل والبرد.

قال: وما بال الصبية يتضاغون؟ قالت: الجوع.

قال: وأي شيء في القدر؟ قالت: ماء أسكتهم به حتى يناموا، والله بيننا وبين عمر.

فقال: أي رحمك الله وما يدري عمر بكم؟ فقالت: يتولى أمرنا ثم يغفل عنا؟

فأقبل على فقال: انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق، فأخرج عدلاً من دقيق، وكبة من شحم، وقال: احمله على، قلت: أنا أحمله عنك.

قال: أنت تحمل عني وزري يوم القيامة، لا أم لك؟ فحملته عليه، فانطلق وانطلقت معه إليها نهرول، فألقي ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئًا فجعل يقول لها: ذري على وأنا أحِرُ لك، وجعل ينفخ تحت القدر وكانت لحيته عظيمة، فرأيت الدخان يخرج من خلال لحيته حتى طبخ لهم، ثم أنزلها وقال: ابغني شيئًا، فأتته بصفحة فأفرغها فيها، فجعل يقول لها: أطعميهم وأنا أسطح لهم (أي أبسطه حتى برد) فلم يزل حتى شبعوا، وترك عندها فضل ذلك وقام وقمت معه، فجعلت تقول: جزاك الله خيرًا، كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين! فيقول: قولي خيرًا، إذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك إن شاء الله!

ثم تنحى ناحية عنها، ثم استقبلها فربض مربضًا، فقلت له: لك شأن غير هذا، فلا يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرعون، ثم ناموا وهدءوا.

فقام يحمد الله، ثم أقبل على فقال: يا أسلم إن الجوع أسهرهم وأبكاهم، فأحببت ألاَّ أنصرف حتى أرى ما رأيت.

موقف آخر... ومر ذات ليلة ببيت ينبعث منه أنين امرأة وعلى بابه رجل قاعد، فسلم عليه عمر وسأله من هو فأجابه بأنه رجل من البادية جاء يصيب فضل أمير المؤمنين، فقال عمر: ما هذا الصوت الذي أسمعه في البيت؟

قال الرجل وهو لا يدري أنه عمر: انطلق رحمك الله لحاجتك ولا تسأل عما لا يعنيك، فألح عليه عمر.. فأجابه: امرأة تمخَّض (على وشك الولادة) وليس عندها أحد، فعاد عمر مسرعًا إلى منزله وقال لامرأته أم كلثوم بنت على -رضى الله عنها-: هل لك في أجر ساقه الله إليك؟ قالت: وما هو؟

فأخبرها الخبر وأمرها أن تأخذ معها ما يحتاج إليه الوليد الجديد من ثياب، وما تحتاج إليه المرأة، وأن تحمل معها قِدرًا وتضع فيه حبوبًا وسمنًا فحمل عمر القدر ومشت خلفه، حتى انتهى إلى البيت وقال لامرأته:ادخلي إلى المرأة وجلس هو مع الرجل وأوقد النار وطبخ ما جاء به، والرجل جالس لا يعلم من هو.

وولدت المرأة فقالت زوجة عمر من داخل البيت: بشِّر يا أمير المؤمنين صاحبك بغلام، فلما سمع الأعرابي ذلك علم أنه أمير المؤمنين، فكأنه هابه فأخذ يبتعد عنه وعمر يقول له: مكانك كما أنت، ثم حمل القدر وأمر زوجته أن تأخذه لتطعم المرأة، فلما خرجت أم كلثوم قال عمر للرجل: إذا كان غدًا فأتنا نأمر لك بما يصلحك.

رسالة من عمر إلى أبي موسي الأشعري:

عين عمر بن الخطاب القضاة في الأمصار الإسلامية، مثل الكوفة والبصرة والشام ومصر، وكان بعض القضاة يستقل بمنصب القاضي مثل عبد الله بن مسعود

الذي ولي قضاء الكوفة أو يجمع بين الولاية والقضاء مثل أبي موسي الأشعري والى البصرة وقد بعث إليه عمر بوصية تبين لنا شيئًا من نظام القضاء وأصوله:

بسم الله الرحمن الرحيم.. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس سلام عليك . أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم إذا أدلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له .

آسِ بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر.

الصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحًا أحل حرامًا أو حرم حلالاً .

لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل.

الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة،

ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق .

واجعل لمن ادعى حقًا غائبًا أمدًا ينتهي إليه، فإن أحضر بينة وإلا استحالت عليه القضية، فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى .

المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودًا في حد أو مجربًا عليه شهادة زور أو ظنينًا في ولاء أو نسب فإن الله تولى منكم السرائر ودرءًا بالبينات والأيمان.

وإياك والغلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات، فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر ، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من

نفسه شانه الله، فما ظنك بثواب غير الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته، والسلام.

مقتل عمر بن الخطاب ﷺ في آخر ذي الحجة سنة ٢٣ هـ

أخرج البخاري بسنده عن عمرو بن ميمون قال:

«إني لقائم ما بيني وبين عمر إلا عبد الله بن عباس غداة أصيب. وكان إذا مر بين الصفين قال: استووا، حتى إذا لم يرَ فيهم خللاً تقدم فكبّر، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل، أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس - فما هو إلا أن كبر فسمعتُهُ يقول: قتلني أو أكلني الكلب، حين طعنه، فطار العلجُ بسكين ذات طرفين، لا يمر على أحد يمينًا ولا شمالاً إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً مات منهم سبعة، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسًا، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه، وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدّمه، فمن يلي عمر فقد رأى الذي أرى، وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرون، غير أنهم قد فقدوا صوت عمر وهم يقولون: سبحان الله، فصلى عبد الرحمن بن عوف صلاة خفيفة، فلما انصرفوا قال: يابن عباس، انظر من قتلني.

فجال ساعة ثم جاء فقال: غلام المغيرة قال: الصنع؟قال: نعم.

قال: قاتله الله، لقد أمرت به معروفًا، الحمد الله الذي لم يجعل ميتتي بيد رجل يدعى الإسلام، قد كنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة، وكان العباس أكثرهم رقيقًا.فقال: إن شئت فعلت (أي إن شئت قتلنا).

قال: كذبت،(أهل الحجاز يستعملون كلمة كذبت في موضع «أخطأت») بعدما تكلموا بلسانكم، وصلوا قبلتكم وحجوا حجكم.

فاحتمل إلى بيته، فانطلقنا معه، وكأن الناس لم يصبهم مصيبة قبل يومئذ: فقائل يقول: لا بأس وقائل يقول: أخاف عليه، فأتى بنبيذ (المراد بالنبيذ هنا:

تمرات نبذت في ماء أي نقعت فيه كانوا يصنعون ذلك لاستعذاب الماء) فشربه، فخرج من جوفه، ثم أتى بلبن فشربه، فخرج من جرحه، فعلموا أنه ميت، فدخلنا عليه، وجاء الناس فجعلوا يثنون عليه.

وجاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صحبة رسول الله ﷺ وقدمت في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة، فقال عمر: وددت أن ذلك كفاف لا على ولا لي.

فلما أدبر هذا الشاب إذا إزاره يمس الأرض، فقال عمر: رد على الغلام.

قال: يا ابن أخي، ارفع ثوبك، فإنه أنقى لثوبك وأتقى لربك. يا عبد الله بن عمر، انظر ما على من الدين،فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفًا أو نحوه.

قال: إن وفّى له مال آل عمر فأده من أموالهم، وإلا فسل في بني عدي بن كعب، فإن لم تفِ أموالهم فسل في قريش ولا تَعْدُهم إلى غيرهم، فأدِّ عني هذا المال.

انطلِق إلى عائشة أم المؤمنين فقل: يقرأ عليك عمر السلام ولا تقل أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميرًا وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يُدفن مع صاحبيه فسلمَّ واستأذن، ثم دخل عليها فوجدها تبكي. فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه.

فقالت: كنت أريده لنفسي، ولآثرنه به اليوم على نفسي.

فلما أقبل قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال: ارفعوني فأسنده رجل إليه فقال: ما لديك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين، أَذِنت، قال: الحمد لله، ما كان من شيء أهم إلي من ذلك، فإذا أنا قضيت فاحملوني، ثم سلِّم فقل: يستأذن عمر بن الخطاب،(خوفًا أن تكون عائشه قد أذنت له في حياته حياءً منه) فإن أذنت لي فأدخلني وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين.

وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء تسير معها، فلما رأيناها قمنا، فولجت عليه فبكت عنده ساعة، واستأذن الرجال، فولجتُ داخلاً لهم، فسمعنا بكاءها من الداخل. فقالوا: أوصِ يا أمير المؤمنين، استخلف.

قال: ما أجد أحق بهذا من هؤلاء النفر - أو الرهط الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ: فسمى عليًا وعثمان والزبير وطلحة وسعدًا وعبد الرحمن بن عوف، وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر، وليس له من الأمر شيء - كهيئة التسرية له - فإن أصابت الإمرة سعدًا فهو ذاك، وإلا فليستعن به أيكم ما أُمِّر، فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة.

وقال أوصى الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين، أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيرًا، الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم، أن يقبل من محسنهم، وأن يَعفِي عن مسيئِهم.

وأوصيه بأهل الأمصار خيرًا فإنهم ردء الإسلام، وجباة المال وغيظ العدو (أي يغيظون العدو بكثرتهم وقوتهم)، وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم (أي ما فضل عنهم) عن رضاهم، وأوصيه بالأعراب خيرًا، فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام، وأن يؤخذ من حواشي أموالهم ويُرَدُّ على فقرائهم، وأوصيه بذمة الله وذمة رسول الله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل مَن وراءهم، ولا يكلفوا إلا طاقتهم.

فلما قُبِض خرجنا به فانطلقنا نمشي، فسلم عبد الله بن عمر وقال: يستأذن عمر بن الخطاب.

قالت عائشة: أدخلوه، فأُدخِل، فوُضع مع صاحبيه فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط، فقال عبد الرحمن بن عوف: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم

(ليقل الخلاف).

فقال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي.

فقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان.

وقال سعد: قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف.

فقال عبد الرحمن: أيكما تبرأ من هذا الأمر فَنَجَلهُ إليه، والله عليه والإسلام لينظُرن أفضلهم في نفسه؟ فأُسكت الشيخان (علي وعثمان).

فقال عبد الرحمن: أفتجعلونه إلي والله علي أن لا آلو عن أفضلكم؟

قالا: نعم، فأخذ بيد أحدهما فقال: لك قرابة من رسول الله ﷺ والقدم في الإسلام ما قد علمت فالله عليك لئن أمَّرتك لتعدلن، ولئن أمَّرت عثمان لتسمعن ولتطيعن، ثم خلا بالآخر فقال مثل ذلك فلما أخذ الميثاق قال: ارفع يدك يا عثمان، فبايعه، فبايع له علي، وولج أهل الدار فبايعوه).

وجاء في روايات أخرى أن عبد الرحمن بن عوف دار تلك الليالي الثلاث - التي حدَّد عمر ألا يزيد فترة التشاور عنها - على الصحابة ومن وافي المدينة من أشراف الناس لا يخلو برجل منهم إلا أمره بعثمان.

خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه

من ذي الحجة ٢٣ هـ إلى ذي الحجة ٣٥ هـ

من مناقبه:

- أنه المسمى بذي النورين لزواجه من ابنتي رسول الله ﷺ (رقية وتوفيت يوم انتصار بدر، وأم كلثوم وتوفيت سنة ٩ هـ).
- أخرج البخاري في صحيحه بسنده عن أنس ﷺ قال: صعد النبي ﷺ أُحُد ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف الجبل فقال ﷺ: «**اسكن أُحُد** - أظنه ضربه برجله - **فليس عليك إلا نبي وصديق وشهيدان**».
- وأخرج البخاري كذلك عن أبي موسى الأشعري ﷺ: «أن النبي ﷺ دخل حائطًا وأمرني بحفظ باب الحائط، فجاء رجل يستأذن فقال: «**ائذن له وبشره بالجنة**» فإذا أبو بكر، ثم جاء آخر يستأذن فقال: «**ائذن له وبشره بالجنة**» فإذا عمر ثم جاء آخر يستأذن، فسكت هنيهة ثم قال: «**ائذن له وبشره بالجنة على بلوى ستصيبه**»، فإذا عثمان بن عفان».
- وأخرج مسلم في صحيحة بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ مضجعًا في بيتي كاشفًا عن فخذيه أو ساقيه فاستأذن أبو بكر، فأذن له وهو كذلك فتحدث، ثم استأذن عمر، فأذن له وهو كذلك فتحدث، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله ﷺ وسوى ثيابه فدخل فتحدث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهتش له ولم تباله ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك، فقال: «**ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة**».

بدأ عثمان عهده بخطاب وجهه إلى المسلمين فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

أيها الناس إن أول المركب صعب، وإن بعد اليوم أيامًا وإن أعش تأتكم الخطبة (لم يكن خطيبًا) على وجهها، وما كنا خطباء وسيعلمنا الله، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى أمام قائل.

وكتب عثمان كتبًا أربعة: الأول إلى الولاة والثاني إلى عمال الخراج والثالث إلى الرعية والرابع إلى أمراء الجيش، رسائل حدد فيها سياسته الداخلية وأنه سائر على هدي نبيه ﷺ وطريقة سلفه في إقامة الحق والعدل.

ولم يكن عثمان في شدة عمر، ولا عيب في ذلك فلكلٍ شخصيته، فقد كان يُقَدَّم لعثمان في طعامه صغار الضأن، والدقيق الأبيض المنخول، ولما قيل له كان عمر لا يأكل من الضأن إلا مسانها، قال: يرحم الله عمر ومن يطيق مثل عمر؟

وبدأ يوسع على الناس، وهو أمر طبيعي مع كثرة الخير والفيء والغنائم.

يروي البخاري في التاريخ: يروي عن الحسن أنه قال: «أدركت عثمان على ما نقموا عليه، قلّ ما يأتي على الناس يوم إلا وهم يقتسمون خيرًا، يقال لهم: يا معشر المسلمين اغدوا على أعطياتكم، فيأخذونها وافرة، ثم يقال لهم: اغدوا على أرزاقكم فيأخذونها وافرة، ثم يقال لهم اغدوا على السمن والعسل، والأعطيات جارية والأرزاق دارة، والعدو متقى، وذات البين حسن، والخير كثير، وما من مؤمن يخاف مؤمنًا، ومن لقيه فهو أخوه، قد كان من إلفته ونصيحته ومودته قد عهد إليهم أنها ستكون أثره فإذا كانت فاصبروا».

وما إن علمت الفرس والروم بمقتل عمر حتى نقضت معظم المقاطعات

الفارسية عهودها مع المسلمين، وحاول الروم طرد المسلمين فهاجموا الشام وحاولوا كذلك استرداد مصر، فواجه عثمان محنة عظيمة كتلك المحنة التي واجهها أبو بكر في حروب المرتدين، ولكن المسلمين استطاعوا أن يلقنوا أعداءهم دروسًا لا ينسوها، واستعادوا السيطرة على مقاطعات فارس، ومع ذلك لم ينكلوا بأهلها بل قبلوا اعتذارهم، وعاشوا في كنف الإسلام آمنين مطمئنين، وكذلك استطاعوا أن يهزموا الروم ويستعيدوا ما قد احتلوه من أرض الشام.

إنشاء أول أسطول إسلامي بحري في عام ٢٨ هـ :

استطاع معاوية بن أبي سفيان والى الشام أن ينشئ أول أسطول بحري للمسلمين، وكان قد عرض الفكرة على عمر ولكنه رفض خوفًا على المسلمين، ثم عرض الفكرة على عثمان وألح فوافق عثمان، وغزا معاوية قبرص عابرًا البحر، وصالح أهلها على الجزية، وتعبر معه أم حرام (زوجة عبادة بن الصامت) لتحقق نبوءة النبي ﷺ أنها أول من تغزو البحر وتموت هناك.

فتح قبرص :

روى البخاري في كتاب الجهاد في صحيحه في كتاب الإمارة: «عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ نام عندها القيلولة ثم استيقظ وهو يضحك فسألته أم حرام عن سبب ضحكه فقال لها: رأى ناسًا من أمته غزاة في سبيل الله يركبون ثبج البحر – أي وسطه ومعظمه – ملوكًا على الأسرة، ثم وضع رأسه فنام ثانية واستيقظ وقد رأى مثل الرؤيا الأولى. فقالت أم حرام: أدع الله أن يجعلني منهم، فقال لها: أنت من الأولين».

أي من الجيش الأول الذي سيغزو البحر وهو جيش معاوية حين غزا قبرص ففتحها سنة ٢٧ هـ، أيام عثمان بن عفان، وكانت معهم أم حرام بنت ملحان في صحبة زوجها عبادة بن الصامت، وماتت أم حرام في سبيل الله

وقبرها بقبرص إلى اليوم. قال ابن كثير: ثم كان أمير الجيش الثاني يزيد بن معاوية في غزوة القسطنطينية.. ثم قال: وهذا من أعظم دلائل النبوة.

وفي عام ٣١ هـ: استطاع المسلمون بقيادة عبد الله بن أبي السرح أن يفتحوا بلاد النوبة (تشمل السودان) وكانت من أصعب الفتوحات حيث واجه المسلمون طريقة غريبة في الرمي لم يتدربوا على مواجهتها وهي الرمي بالنبال في أعين المحاربين حتى فقد السلمون ١٥٠ عينًا في أول المعركة.

واستطاع عبد الله أن يبرم معهم اتفاقية تسمى (بـالبقط) استمر العمل بها ٦ قرون تنص على: أن تتبادل مصر وبلاد النوبة المحاصيل وأن توقف الحروب بينهما.

وفي سنة ٣١ هـ قرر الروم القضاء على الأسطول الإسلامي الناشئ فقد سيطر الأسطول الإسلامي على سواحل البحر المتوسط من رودس حتى برقه، كما أخذ الأسطول الإسلامي يهدد سواحل الروم فقرر قسطنطين بن هرقل أن يخرج بألف سفينة لضرب المسلمين ضربه قاصمة.

وخرج المسلمون يقودهم بُسر بن أرطأة بمراكب الشام واجتمع عبد الله بن أبي سرح في مراكب مصر، ثم صارت كلها تحت إمرة بُسر ومجموعها مائتا سفينة.

ودارت معركة ذات الصواري (أغلب الظن قرب ثغر يقع غرب الإسكندرية بالقرب من مدينة مرسى مطروح) وحاول المسلمون استدراج الروم إلى معركة برية.

ولكن الروم كانوا يصرون على مواجهة المسلمين في البحر، فهدى الله قادة المسلمين أن يحولوا المعركة البحرية إلى معركة برية، حيث أمر عبد الله بن سعد ابن أبي سرح(١) جنده أن يقتربوا من سفن أعدائهم، فاقتربوا حتى لامست

---

(١) أسلم عام الفتح، وكان ممن ارتدوا، ولكنه أسلم ثانية وحسن إسلامه، كان دعاؤه: «اللهم اجعل خاتمة عملي الصلاة» فصلى الصبح ثم توفى. إنما ذكرنا جزءًا من ترجمة هذا الرجل لأنه من المآخذ التي أخذت على عثمان استعانته بهذا الصحابي التائب.

سفنهم سفن عدوهم، فنزل نفر من المسلمين إلى الماء وربطوا السفن الإسلامية بسفن الروم بحبال متينة، فصار ١٢٠٠ سفينة في عرض البحر كل عشرة أو عشرين منها متصلة مع بعضها، فكأنها قطعة أرض ستجري عليها المعركة.

وصمد المسلمون كعادتهم في مواجهة أعداء الله.. واشتد القتال واستمر القتل حتى قال الطبري: (إن الدم كان غالبًا على الماء في هذه المعركة)، ولكن الله نصر جنده وهرب قسطنطين، وتأكدت سيطرة المسلمين على البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم).

وفي سنة ٣٢ هـ، كان الجمع الثاني للقرآن:

روى البخاري بسنده عن ابن شهاب، أن أنس بن مالك حدثه «أن حذيفة ابن اليمان قدِم على عثمان، وكان يغازي مع أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة.

فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى.

فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن هشام، فنسخوها في المصاحف.

وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرَّق.

من هذه الرواية نستنتج أن هذا الجمع كان لعدة أسباب:-

- اتساع الفتوحات ودخول قدر كبير من الأعاجم في الإسلام، وكان عمر رضي الله عنه آخذًا بحجزات الصحابة يمنعهم من مغادرة الحرمين إلا قليلاً منهم، فاختلف الناس في القراءة وكادت تحدث فتنة.
- أراد عثمان أن يكتب المصحف على حرف واحد من الحروف السبعة (أي اللهجات السبع)، فكتب بلغة قريش وهو الحرف الذي نزل به القرآن، وإنما كان الترخيص بالقراءة بالحروف الأخرى مؤقتًا حتى تطوع الألسنة لحرف قريش.

ومن أمثلة ذلك ... عندما اختلفت اللجنة في كيفية رسم كلمة «التابوت» هكذا تنطق في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨]. قال زيد (التابوه)، وقال القريشيون (التابوت) وترافعوا إلى عثمان فقال: «اكتبوا (التابوت) فإنما أنزل القرآن على لسان قريش» ولاشك أن هذا الذي صنعه عثمان يعد من أعظم إنجازاته وقد لقي قبول جميع من بقى من أصحاب رسول الله ﷺ.

قال على رضي الله عنه: «يا معشر الناس اتقوا الله، وإياكم والغلو في عثمان وقولكم حرَّق المصاحف، فوالله ما حرقها إلا على ملأ منا أصحاب محمد ﷺ».

وأغاظ هذا الإنجاز مثيري الفتنة الذين مازال الحقد يملأ صدورهم ولا يهدءون، حتى يروا الفرقة تسود مجتمعات المسلمين ولْنَر مزيدًا من مكرهم.

وفي سنة ٣٤ هـ ظهرت بوادر الفتنة

أصابع اليهود: أشعلها عبد الله بن سبأ من يهود صنعاء والمعروف بابن السوداء ... أظهر الإسلام ووقف موقف العلماء ... حاول التأثير في الأعراب

والبداة والذين دانوا حديثًا بالإسلام من سكان الأمصار.

فكان يقول للرجل: أليس قد ثبت أن عيسى بن مريم سيعود إلى هذه الدنيا؟

فيقول الرجل: نعم! فيقول له: فرسول الله أفضل منه فما تنكر أن يعود إلى هذه الدنيا وهو أشرف من عيسى بن مريم -عليه السلام- ثم يقول: وقد كان أوصى إلى علي بن أبي طالب فمحمد خاتم الأنبياء وعليّ خاتم الأوصياء، ثم يقول: فهو أحق بالإمرة من عثمان ... وصار عبد الله بن سبأ إلى مصر فافتتن به بشر كثير من أهل مصر، وكتبوا إلى جماعات من عوام أهل الكوفة والبصرة، فتمالئوا على ذلك وتكاتبوا فيه وانضم إليهم الناقمون على ولاة الأمر بتلك البلاد.

وجعل يطعن في الخليفة عثمان، وأنه عين من الولاة لقرابتهم به، وأنه حرق المصاحف، ويردد شبهًا أخرى واهية يعرف ردها أصحاب البصيرة والعلم مثال ذلك ما أخرجه البخاري عن عثمان بن موهب قال: «جاء رجل من أهل مصر وحج البيت، فرأى قومًا جلوسًا فقال: مَن هؤلاء القوم، فقالوا: هؤلاء قريش، قال: فمن الشيخ فيهم، فقالوا: عبد الله بن عمر قال: يابن عمر، إني سائلك عن شيء فحدثني عنه: هل تعلم أن عثمان فرَّ يوم أحد؟ قال: نعم.

فقال: تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد؟ قال: نعم. قال الرجل: هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم. قال: الله أكبر.

قال ابن عمر: تعال أبين لك. أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له، وأما تغيبه عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ (رقية) وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: «**إن لك أجر رجل ممن شهد بدرًا وسهمه**»، وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعث رسول الله ﷺ عثمان، وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة

فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: «**هذه يد عثمان**» فضرب بها على يده فقال: «**هذه لعثمان**»، فقال له ابن عمر: اذهب بها الآن معك».

وأصبح لابن السوداء أتباع ووصل الأمر إلى الخليفة عثمان فجمع أمراء الأمصار في موسم الحج سنة ٣٤ هـ، وتشاور معهم وكان غالبيتهم يرون نفي هؤلاء إلى الثغور، وحرمانهم من الأعطيات ولكن عثمان رأى أن يلين لهم ويؤلف قلوبهم فوافقوه. ولكن ذلك لم يحل دون استمرارهم في إثارة الفتن.

وجاء وفد من مصر من دعاه الفتن إلى الحجاز سنة ٣٥ هـ يُظهرون أنهم يريدون العمرة، ولكنهم تحولوا إلى مناظرة الخليفة الذي أفحمهم الحجة فانصرفوا راجعين إلى بلادهم.

وكثر الكلام وأثيرت الشبهات حول عثمان لأتفه الأسباب، بدون تحرٍّ ولا تدقيق ولا تقدير للخليفة إنما جرّأهم على ذلك رحمة عثمان ورقة قلبه، ولو كان عمر الذي يفعل ذلك - وقد فعل ما هو أعظم من ذلك - ما تجرأ عليه أحد. وتأمل في هذه الرواية التي خرجها البخاري في صحيحه لتجد مصداق ما نقول.

روى البخاري بسنده عن عبيد الله بن عدي بن الخيار قال: «إن المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن الأسود بن يغوث (وهؤلاء من كبار الفقهاء والعلماء يومها) قالا: ما يمنعك أن تكلم عثمان لأخيه الوليد (هو الوليد بن عقبة[1] أخو

---

(١) «الوليد بن عقبة» صحابي جليل، مجاهد فاتح استعان به أبو بكر واستعمله عمر بن الخطاب، ولكن مثيري الشبهات عابوا على عثمان استعانته به لأنه قريبه، ولفّقوا له تهمة شرب الخمر، فقد شهد عليها اثنان من الحانقين على الوليد، ولما تحقق عثمان وجيء بالوليد من الكوفة حلف لعثمان وأخبره بحقيقة الأمر فقال عثمان: (نقيم الحدود، ويبوء شاهد الزور بالنار).
ومما ينبغي أن يضاف أيضًا أن تولية الأقارب ليس فيه إثم ولا لوم ماداموا أكفاء مخلصين، فقد ولى رسول ﷺ ابن عمه عليًا على الأخماس باليمن والقضاء بها، كما ولى الرسول ﷺ كذلك كثيرًا من رجال بني أمية المناصب الهامة وهم يمتون إليه بقرابة.

عثمان لأمه ولاه الكوفة بوصية من عمر بعد عزل سعد بن أبي وقاص) فقد أكثر الناس فيه؟

قال: فقصدت لعثمان حتى خرج إلى الصلاة، قلت: إن لي إليك حاجة، وهي نصيحة لك. قال عثمان: أعوذ بالله منك، فانصرفت فرجعت إليهما، إذ جاء رسول عثمان، فأتيته. فقال: ما نصيحتك؟ فقلت: إن الله سبحانه بعث محمدًا ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب، وكنت ممن استجاب لله ولرسوله ﷺ، فهاجرت الهجرتين، وصحبت رسول الله ﷺ ورأيت هديه، وقد أكثر الناس في شأن الوليد (تأخر إقامة الحد عليه لاتهامه بشرب الخمر).

قال عثمان: أدركت رسول الله ﷺ؟ قلت: لا، ولكن خلص إلى من علمه ما يخلص إلى العذراء في سترها (أي انتشر علمه فوصلني).

قال عثمان: أما بعد فإن الله بعث محمدًا ﷺ بالحق، فكنت ممن استجاب لله ولرسوله ﷺ وآمنت بما بعث به وهاجرت الهجرتين - كما قلت - وصحبت رسول الله ﷺ ثم أبا بكر مثله ثم عمر مثله ثم استخلفت، أفليس لي من الحق مثل الذي لهم؟ قلت: بلى.

قال: فما هذه الأحاديث التي تبلغني عنكم؟ أما ما ذكرت من شأن الوليد فسنأخذ فيه الحق إن شاء الله ثم نادى عليًّا فأمره أن يجلد الوليد فجلده ثمانين جلده.

أحسب أن هذه الرواية توضح كيف أن المجتمع قد تأثر بالشائعات، حتى أن الفضلاء منهم والمؤدبون في النصح ذهبوا إلى عثمان ناصحين.. ويبدو كذلك أن كثرة الأحاديث عن عثمان بدون تدقيق أتعبت عثمان وأرهقته.. ولكن.. زعماء الفتنة لا يهدءون فعادوا يحرضون الأمصار على التوجه إلى المدينة وإظهار الشكوى من الولاة.. واتفقوا على أن يكون مسيرهم مع الحجاج حتى لا

ينكشف أمرهم.. وفي ذي الحجة سنة ٣٥ هـ أي بعد عام كامل تقريبًا، توجه هؤلاء النفر وعددهم ألف إلى موسم الحج وقد قسموا أنفسهم مجموعات.

مجموعة أهل مصر وعليهم الغافقي بن حرب وعبد الله بن سبأ.

مجموعة أهل الكوفة وعليهم عمرو بن الأصم وزيد بن صوجان العبدي.

مجموعة أهل البصرة وعليهم حرقوص بن زهير السعدي وحكيم بن جبلة العبدي.

وواجههم عثمان في موسم الحج، وأوضح لهم كذب افتراءاتهم.. فتظاهروا له بالطاعة خاصة أنهم رأوا أن الصحابة قد تحفزوا لهم... وتظاهروا بالرجوع إلى بلادهم.. وظن الصحابة أن المحنة قد زالت.

وفجأة عادوا يريدون محاصرة بيت عثمان، فسألهم على بن أبي طالب عن سبب عودتهم فقالوا: إن الخليفة قد أرسل كتابًا فيه قتل بعضهم!!؟

فقال على: إذا كان ذلك في مصر فما بال أهل الكوفة والبصرة قد عادوا؟

قالوا: نمنع إخواننا وننصرهم! فقال لهم على: ومن الذي أخبر كل فريق بما حدث مع الآخر؟ وقد سرتم مراحل؟؟! هذا أمر قد دُبِّر وأبرم بالمدينة.

فثبت أن هذه الرسالة مزورة، كما زورت رسالة على بن أبي طالب نفسه: أنه دعا القوم إلى القدوم، وزُوِّرت رسائل على طلحة والزبير أنهما دعوا أهل الكوفة والبصرة إلى القدوم..وجعل أهل المدينة يمنعونهم من الدخول إليها ...

ولكن الأمر قد تفاقم بالداخل واجترأ البعض على عثمان، وألجأوه إلى داره وضيقوا عليه وأحاطوا بها محاصرين له، وسار جماعة من أبناء الصحابة - عن أمر إبائهم - ليدافعوا عن عثمان، منهم الحسن والحسين وعبد الله بن الزبير

وعبد الله بن عمر، واستطاع باقي الثوار أن ينضموا للمحاصرين.

فحاصروا دار عثمان ومنعوا وصول الماء إليه. ودخل على عثمان ابن عمر متقلدًا سيفه، فقال له عثمان: انظر ما يقول هؤلاء، يقولون: اخلع نفسك أو نقتلك، فقال له ابن عمر: أمخلد أنت في الدنيا؟ قال: لا. قال: يزيدون على أن يقتلوك؟ قال: لا. قال هل يملكون لك جنة أو نارًا؟ قال: لا. قال: فلا تخلع قميص الله عنك، فتكون سنة، كلما كره قوم خليفتهم خلعوه أو قتلوه.

ودخل عليه أبو هريرة: اليوم طاب الضرب معك، فقال له عثمان: عزمت عليك لتخرجن.

ودخل على عثمان زيد بن ثابت فقال: إن هذه الأنصار بالباب وتقول «لو شئت كنا أنصار الله مرتين»، وكان عنده من المهاجرين والأنصار سبعمائة.

ولكنه قال: لا حاجة لي، كفوا، وأعزم على من رأى أن لي عليه سمعًا وطاعة أن يكف يده ويلقي سلاحه ... فألقى القوم أسلحتهم.

أشرف عثمان على تلك الفئة واعظًا: «أنه لا يحل سفك دم امرئ مسلم إلا في ثلاث: كفر بعد إيمان، أو زنا بعد إحصان، أو قتل نفس بغير نفس، فهل أنا واحد منهم؟ فما وجد القوم جوابًا».

ثم عزم عثمان على من عنده بالخروج ...

لقد رفض الخليفة إراقة الدماء ولو كانت في نصرته والدفاع عنه وحاول أن يردهم بالحوار والموعظة الحسنة ... ولكن القوم تجرأوا ودخلوا داره بعد حصار دام أربعين يومًا، وقتله بعضهم وهو يتلو القرآن عند قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ...﴾ فسالت أول قطرة من دمائه عليها، وكان صائمًا رحمه الله وفاضت

روحه شهيدًا إلى الله لتتحقق نبوءة محمد ﷺ.

قال معبد الخزاعي لعلي بن أبي طالب:

أخبرني أي منزلة وسعتك إذ قتل عثمان ولم تنصره؟

قال: إن عثمان كان إمامًا، وإنه نهى عن القتال وقال: من سل سيفه فليس مني، فلو قاتلنا دونه عصيناه.

قال: فأي منزلة وسعت عثمان، إذ استسلم حتى قتل؟

قال: المنزلة التي وسعت ابن أدم إذ قال لأخيه.

﴿لَئِنْ بَسَطتَ إلى يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة:٢٨].

وكان مقتله رضي الله عنه يوم الجمعة ١٨من ذي الحجة سنة ٣٥ هـ.

فائدة:

إن قال قائل كيف وقع لعثمان ما وقع وبالمدينة جماعة من كبار الصحابة رضوان الله عليهم فجوابه:

١- أن أكثرهم لم يكن يظن أن الأمر قد يبلغ حد القتل.

٢- أن الصحابة مانعوا دونه أشد الممانعة ولكن لما وقع التضييق الشديد، عزم عثمان على الناس أن يكفوا أيديهم ويغمدوا أسلحتهم ففعلوا...

٣- انتهز هؤلاء غياب كثير من الصحابة في أيام الحج، وعلموا بقرب وصول الجيوش من الأفاق للنصرة فتعجلوا قتل عثمان ...

٤- كان عدد هؤلاء قريبًا من ألفي مقاتل من الأشداء، وربما لم يكن في أهل

المدينة هذه العدة من المقاتلة لأن الناس كانوا في الثغور، وفي الأقاليم في كل جهة..

٥- اعتزل كثير الصحابة هذه الفتنة ولزموا بيوتهم، ومن كان يحضر منهم المسجد لا يجيء إلا ومعه السيف.

أما ما يزعمه البعض من أن بعض الصحابة أسلمه ورضي بقتله، فهذا لا يصح عن أحد من الصحابة أنه رضي بقتل عثمان ﷺ، بل كلهم كرهه، ومقته، وسب من فعله، ولكن بعضهم كان يود لو خلع عثمان نفسه من الأمر، كعمار بن ياسر، ومحمد بن أبي بكر وغيرهما... وليحذر المسلم من الروايات المدسوسة في هذه المسألة لتشويه صورة السلف الصالح من أصحاب رسول ﷺ.

***

خلافة على بن أبي طالب رضى الله عنه

من ذي الحجة ٣٥ هـ إلى رمضان ٤٠ هـ

ذكر مناقبه

كانت بيعة على بالخلافة عقب مقتل عثمان، فبايعه المهاجرون والأنصار وكل من حضر، وكتب بيعته إلى الآفاق فأذعنوا كلهم إلا معاوية في أهل الشام فكان بينهم ما كان...

أخرج البخاري بسنده عن سلمة بن الأكوع قال: «كان على قد تخلف عن النبي ﷺ في خيبر وكان به رمد فقال: أنا أتخلف عن رسول الله ﷺ؟ فخرج على فلحق بالنبي ﷺ فلما كان مساء الليلة التي فتحها الله في صباحها قال رسول الله ﷺ: «**لأعطين الراية** - أو ليأخذن الراية- **غدًا** رجلاً **يحبه الله ورسوله** -أو قال **يحب الله** ورسوله- **يفتح الله عليه**، فإذا نحن بعليّ وما نرجوه، فقالوا: هذا على فأعطاه رسول الله ﷺ الراية ففتح عليه». يقول الحافظ ابن حجر في معنى الحديث: (وقوله: «إن عليًا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» أراد بذلك وجود حقيقة المحبة، وإلا فكل مسلم يشترك مع على في مطلق هذه الصفة، وفي الحديث تلميح بقوله تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ [آل عمران:٣١].

فكأنه أشار إلى أن عليًا تام الاتباع لرسول الله ﷺ، حتى اتصف بصفة محبة الله له، ولهذا كانت محبته (أي على) علامة الإيمان وبغضه علامة نفاق كما جاء في أحاديث أخرى ...).

وروي عن الإمام أحمد قال: ما بلغنا عن أحد من الصحابة ما بلغنا عن على بن أبي طالب (أي من المناقب وحسن السيرة).

الفتنة من جديد

حوّل المتآمرون الثائرون على عثمان بالمدينة الدفة بعد مقتل عثمان إلى المطالبة بثأر عثمان.وأصبح المطالبة بثأر عثمان حديث أهل المدينة، يستعجلون عليًا في ذلك ... حتى أن طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام حملا مطالب أهل المدينة بإقامة الحد على قتلة عثمان تحركهما العاطفة الصادقة.. ولم يفطنا إلى ما وراء المطالب من مؤامرة. فتحرك معهما المئات من أهل مكة والمدينة متجهين نحو البصرة وفي القوم عائشة ... مطالبين بالثأر لعثمان.

تصدى لهم والي البصرة عثمان بن حنيف، فأحاط به الثائرون وسجنوه... فأصبحت البصرة تحت سيطرة طلحة والزبير وعائشة.

توجه علي بن أبي طالب بجنوده إلى البصرة يريد الإصلاح... وبالفعل لاحت بشائر الإصلاح والتفاهم، وذكّر الزبير بقول النبي ﷺ: «... **ولكنك ستقاتله وأنت له ظالم** ...» فقال الزبير تذكرت ذلك، ولو كنت ذكرت ما خرجت وأراد الاعتزال ولكنه قتل رحمه الله.

علم المتآمرون ببوادر الصلح فقرروا الاختلاط بالناس في المعسكرين، معسكر طلحة ومعسكر علي ويهيجوا الناس على القتال قبل أن يصطلحوا.

موقعة الجمل:

وفي جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ نجح المتآمرون في إثارة الجيش، والتحم الطرفان واشتدت المعركة أمام الجمل الذي عليه هودج عائشة رضى الله عنها حتى قُتل أمامه سبعون رجلاً كلٌ قد أخذ بخطامه...

تنبه علي فأمر بعقر الجمل ... ونجت عائشة وأمر بحراستها حتى تعود إلى المدينة، ومات من جيش البصرة عشرة آلاف ومن جيش علي خمسة آلاف.

وانتهت الفتنة جزئيًا وخضعت الأمصار لأمير المؤمنين، وبقيت مشكلة الشام وخروج معاوية بن أبي سفيان، وامتناعه عن بيعة على حتى يقتص لعثمان رضي الله عنهم جميعًا.

موقعة صفين:

وفي محرم سنة ٣٧ هـ أراد على أن يعزل معاوية من على الشام ولكن معاوية رفض الانصياع لأوامر الخليفة ... فخرج إليه على بجيش من المسلمين وكذلك معاوية وفي جيشه نفر من المتآمرين.

بعث على إلى معاوية يبين حجته ورأيه ولكن هذه المحاولات لم تجدِ، فدار القتال عند صفين وقُتل عمار بن ياسر على يد جيش معاوية وقد قال له النبي ﷺ: «**تقتلك الفئة الباغية**» وكاد معاوية أن يُهزَم ... فلجأ عمرو بن العاص وكان في جيش معاوية إلى طلب التحكيم، فرفع جيش معاوية المصاحف وطلب التحكيم.

شعر على أنها خديعة، ولكن غالبية الصحابة من جيش على أصروا على قبول التحكيم فقبل مرغمًا.

التحكيم:

كثر الكلام على التحكيم ونتيجة التحكيم، وأن عمرو بن العاص خدع أبا موسى الأشعري- وحاشاه أن يفعل ذلك- فجعله يعلن عزل أمير المؤمنين على من الخلافة، بينما وقف عمرو بعده وأعلن تأييده لأبي موسى في عزل على ثم أعلن تثبيت الخلافة لمعاوية... وكله كذب وافتراء وروايات لم تثبت... مع أن هؤلاء الكتاب جميعًا في القديم والحديث يثبتون أن معاوية لم ينازع عليًا في الخلافة ولم يطلبها لنفسه، بل كان يطلب القصاص من قتلة عثمان ويظن أن الحق معه؛ لأنه ولي الدم، وهو مخطئ في ذلك لأنه لا ينكر أحد أن عليًا لم يكن

ليتوانى في إقامة الحدود، ولكن المشكلة كانت أكبر من ذلك، فالمدينة كانت تحت سيطرة الثوار، ولهذا قال على بن أبي طالب لطلحة والزبير: «كيف أصنع بأقوام يملكوننا ولا نملكهم» ثم قال: «إن هذا الأمر -أي الثأر- أمر جاهلية فاهدءوا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق».

وأُعلنت نتيجة التحكيم وهي عزل على عن الخلافة، ورد الأمر إلى الأمة تختار من تشاء، أما التصرف العملي في إدارة البلاد التي كانت تحت يد كل من الرجلين المتحاربين فيبقى كما كان: فعليٌّ يتصرف في البلاد التي تحت حكمه ما عدا الشام فكانت تحت حكم معاوية.

لم يقبل على نتيجة التحكيم واعتبر أن المُحكمين تجاوزا حدودهما، لأن الخلاف لم يكن حول اختيار الخليفة وإنما كان على القصاص من قتلة عثمان.

حاول على أن يدعو أنصاره إلى حرب معاوية من جديد لكنهم لم يميلوا معه بل حدث انقسام عجيب.

بدء ظهور الخوارج:

انشق مجموعة من جيش على (١٢٠٠٠) يرفضون التحكيم من أساسه، مع أنهم هم الذين فرضوه عليه، بل وكفّروا عليًا.

ولما عاد الجيش إلى الكوفة لحقوا بقرية من قرى الكوفة تعرف باسم (حروراء) ومن هنا جاءت تسميتهم الحرورية وهم الخوارج.

ناظرهم على وفقهاء الصحابة ولكنهم كانوا بدوًا أجلافًا لا يقتنعون إلا بما في رءوسهم... فكانوا يعترضون الناس ويسألونهم في التحكيم فمن رضى به قتلوه زاعمين أنه ارتد وكفر.

وفي سنة ٣٨ هـ قاتلهم على بعد ما فشلت معهم الحجة فقتل منهم الكثير وفر منهم طائفة وانقسموا بعد ذلك إلى عشرين فرقة.

وفي سنة ٣٩ هـ تصالح على ومعاوية على وقف القتال على أن يكون معاوية على الشام لا يتدخل فيها أمير المؤمنين.

وفي سنة ٤٠ هـ رصد الخوارج ثلاثة منهم ليقتلوا معاوية وعليًا وعمرو بن العاص بيد أنهم لم ينجحوا إلا في قتل على.

ففي يوم ١٦ رمضان سنة ٤٠ هـ تربص اثنان من الخوارج عند خروجه كعادته ليوقظ الناس قبيل الفجر للصلاة، فقتلوه عند باب المسجد فصاح قائلاً «**فزت ورب الكعبة**».

وتجمع الناس سريعًا على الرجلين وسألوه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ما يصنعون بهما؟ فقال: «**إن أعش فالأمر إلى، وإن أُصِبت فالأمر لكم فان آثرتم أن تقتصوا فضربة بضربة وأن تعفوا أقرب للتقوى**».

وفي شوال سنة ٤٠ هـ بايع أهل المدينة الحسن بن على على الخلافة.

وفي ٢٥ ربيع أول سنة ٤١ هـ تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية من أجل وحدة الأمة، وذلك بعد ستة أشهر فسمي هذا العام (عام الجماعة) وتحققت فيه نبوءة النبي ﷺ الذي قال عنه «إن ابني هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».

فائـدة: كلام نفيس للقرطبي حول الخلاف الذي دار بين أصحاب رسول الله ﷺ ذكره عند قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا....﴾

هذه الآية أصل في قتال المسلمين، والعمدة في حرب المتأولين وعليها عوّل الصحابة، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملة، وإياها عنى النبي ﷺ بقوله: «**تقتل عمارًا الفئة الباغية**» وقوله عليه السلام في شأن الخوارج: «يخرجون على خير فرقة أو على حين فرقة»، والرواية الأولى أصح، لقوله عليه السلام: «**تقتلهم أَوْلى الطائفتين إلى الحق**»، وكان الذي قتلهم على بن أبي طالب ومن كان معه، فتقرر عند علماء المسلمين وثبت بدليل الدين أن عليًا ﷺ كان إمامًا، وأن كل من خرج عليه كان باغيًا وأن قتاله واجب حتى يفيء إلى الحق وينقاد إلى الصلح، لأن عثمان ﷺ قُتل والصحابة بُرآء من دمه؛ لأنه منع من قتال من ثار عليه وقال: لا أكون أول من خَلَف رسول الله ﷺ في أمته بالقتل، فصبر على البلاء، واستسلم للمحنة وفدى بنفسه الأمة، ثم لم يمكن ترك الناس سدى، فعرضت على باقي الصحابة الذين ذكرهم عمر في الشورى، وتدافعوها، وكان على -كرم الله وجهه- أحق بها وأهلها، فقبلها حوطة على الأمة أن تسفك دماءها بالتهارج والباطل، أو يتمزق أمرها إلى ما لا يتحصل، فربما تغير الدين وانتقض عمود الإسلام، فلما بويع له طلب أهل الشام في شريط البيعة التمكن من قتلة عثمان وأخذ القود منهم، فقال لهم على ﷺ: ادخلوا في البيعة واطلبوا الحق تصلوا إليه. فقالوا: لا تستحق بيعة وقتلة عثمان معك تراهم صباحًا ومساءً، فكان على في ذلك أَسَدّ رأيًا وأصوب قيلاً، لأن عليًا لو تعاطى القود منهم لتعصبت لهم قبائل وصارت حربًا ثالثة، فانتظر بهم يستوثق الأمر وتنعقد البيعة ويقع الطلب من الأولياء في مجلس الحكم، فيجري القضاء بالحق.

ولا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدى ذلك إلى إثارة الفتنة أو تشتيت الكلمة، وكذلك جرى لطلحة والزبير، فإنهما ما خلعا عليًا من ولاية ولا اعترضا عليه في ديانة، وإنما رأيا أن البُداءة بقتل أصحاب عثمان أولى.

قلت: فهذا قول في سبب الحرب الواقع بينهم، وقال جلة من أهل العلم: إن الوقعة بالبصرة بينهم كانت على غير عزيمة منهم على الحرب بل فجأة، لأن الأمر كان قد انتظم بينهم، وتم الصلح والتفرق على الرضا، فخاف قتلة عثمان ﷺ من التمكين منهم والإحاطة بهم، فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا، ثم اتفقت آراؤهم على أن يفترقوا فريقين، ويبدءوا بالحرب سحرة في العسكرين، وتختلف السهام بينهم، ويصيح الفريق الذي في عسكر علي: غدر طلحة والزبير، والفريق الذي في عسكر طلحة والزبير: غدر علي، فتم لهم ما دبروه، ونشبت الحرب، فكان كل فريق دافعًا لمكرته عند نفسه، ومانعًا من الإشاطة بدمه، وهذا صواب من الفريقين وطاعة لله تعالى، إذ وقع القتال والامتناع منهما على هذه السبيل، وهذا هو الصحيح المشهور، والله أعلم.

ثم قال: ولا يجوز أن يُنسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأراد الله عز وجل، وهم كلهم لنا أئمة، وقد تعبدنا بالكف عما شجر بينهم، وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر، لحرمة الصحبة ولنهى النبي ﷺ عن سبهم، وأن الله غفر لهم، وأخبر بالرضا عنهم، هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفة عن النبي ﷺ أن طلحة شهيد يمشي على وجه الأرض، فلو كان ما خرج إليه من الحرب عصيانًا لم يكن بالقتل شهيدًا.

وكذلك لو كان ما خرج إليه خطأ في التأويل وتقصيرًا في الواجب عليه، لأن الشهادة لا تكون إلا بقتل في طاعة، فوجب حمل أمرهم على ما بيناه.

وإذا كان كذلك لم يوجب ذلك لعنهم والبراءة منهم وتفسيقهم وإبطال فضائلهم وجهادهم ... وقد سئل بعضهم عن الدماء التي أريقت فيما بينهم فقال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤١].

وسئل بعضهم عنها أيضًا فقال: تلك الدماء طهر الله منها يدي، فلا أخضِّب بها لساني، يعني في التحرز من الوقوع في خطأ، والحكم على بعضهم بما لا يكون مصيبًا فيه، وسئل الحسن البصري عن قتالهم فقال: قتال شهده أصحاب النبي ﷺ وغبنا، وعلموا وجهلنا، واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا.

قال المحاسبي: فنحن نقول كما قال الحسن، ونعلم أن القوم كانوا أعلم بما دخلوا فيه منا، ونتبع ما اجتمعوا عليه، ونقف عند ما اختلفوا فيه ولا نبتدع رأيًا منا، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله -عز وجل- إذ كانوا غير متهمين في الدين ونسأل الله التوفيق).

* * *

الباب الثالث

الخلافـــة الأمــوية

الفصل الأول: خلفاء بني أمية.

الفصل الثاني: الفتوحات في عهد بني أمية.

روى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»

الفصل الأول

خلفاء بني أمية

يقول ابن خلدون:

«إن دولة معاوية وأخبـاره كـان ينبغـي أن تلحـق بدولـة الخلفـاء الراشـدين وأخبـارهم فهـو تـاليهم في الفضل والعدالة والصحبة».

ويقول الخضري بك:

«والعجيب في أمر هذه الدولة القوية مع مـا نالهـا من المصائب والفتن والثورات أنها لم تظهر أمام الأمـم الأخرى بمظهر الضعف إلا في فترة وجيزة جدًا».

مخطط يوضح نسب وتسلسل خلفاء بنى أمية

شجرة قريش

قصي

عبد مناف

هاشم

عبد المطلب

العباس

عبد الله

عبد الله

محمد ﷺ

أبو طالب

على

الحسن

الحسين

عقيل

مسلم

عبد شمس

أمية

حرب

أبو سفيان

١-معاوية

٢ - يزيد

٣-معاوية

أبو العاص

عفان

عثمان

الحكم

٤-مروان

٥- عبد الملك

٦-الوليد

١٢- يزيد الثالث

٧-سليمان

٩-يزيد

١١- الوليد

١٠- هشام

معاوية

عبد الرحمن الداخل

الأمويون في الأندلس

عبد العزيز

٨-عمر

محمد

١٢- مروان

خلافة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه

(من ربيع أول ٤١ هـ حتى رجب ٦٠ هـ)

ذكر مناقبه وفضله...

أسلم قبل الفتح، وأسلم أبواه بعده، وصحب النبي ﷺ وكتب له، وولي إمرة دمشق لعمر بعد موت أخيه يزيد بن أبى سفيان سنة ١٩ هـ، واستمر عليها بعد ذلك إلى خلافة عثمان، ثم زمان محاربته لعلى وللحسن، ثم اجتمع عليه الناس في سنه٤١ هـ، فكانت ولايته بين إمارة ومحاربة ومملكة أكثر من أربعين سنة متوالية.

و هو صاحب مشروع إنشاء الأسطول البحري الإسلامي لأول مرة في عهد عثمان بن عفان. أخرج البخاري بسنده عن ابن أبي مليكة قال: أوتر معاوية بعد العشاء بركعة وعنده مولى لابن عباس، فأتى ابن عباس، فقال: دعه فإنه صحب رسول الله ﷺ .

وفي رواية أخرى خرجها البخاري أيضًا قال ابن عباس: «إنه فقيه».

استتب الأمر لمعاوية وعاد الأمن لدولة الإسلام من جديد، وبايع المعارضون معاوية وأجمعت الأمة عليه.. ولا ينكر أحد حتى معاوية نفسه وجود من هو أفضل منه من أكابر الصحابة وأهل السبق أمثال: سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وغيرهما...

ولكن كان لمعاوية وجهة نظر واجتهاد ظهر لنا في خطبته التي قال فيها: «أيها الناس ما أنا بخيركم، وإن منكم لمن هو خير مني:عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو وغيرهما.. ولكن عسى أن أكون أنفعكم ولاية وأنكاكم في عدوكم».

وجمهور العلماء يوافقون على جواز إمامة المفضول مع وجود من هو أفضل منه وتصح بيعته، ولا يكون وجود الأفضل مانعًا من إمامة المفضول إذا لم يكن مقصرًا عن شروط الإمامة ولأن زيادة الفضل مبالغة في الاختيار وليست معتبرة في شروط الاستحقاق، ومعاوية صحابي جليل كما رأينا اجتمعت فيه خصال وهي:

- أن عمر جمع له الشامات كلها وأفرده بها، لما رأى من حسن سيرته، وقيامه بحماية البيض وسد الثغور، وإصلاح الجند والظهور على العدو وسياسة الخلق.

- قال ابن تيمية في منهاج السنة: لم يكن من ملوك الإسلام ملكٌ خيرًا من معاوية، وكانت سيرته مع رعيته من خيار سيرة الولاة، وقد كانت رعيته يحبونه وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم**».

- وقال ابن خلدون في تاريخه: إن دولة معاوية وأخباره كان ينبغي أن تلحق بدول الخلفاء الراشدين وأخبارهم فهو تاليهم في الفضل والعدالة والصحبة.

- ولقد شهد له ابن عباس في صحيح الحديث بالفقه كما سبق.

وشهد بخلافته في حديث أم حرام أن ناسًا من أمته يركبون ثبج البحر ملوكًا على الأسرة أو مثل الملوك على الأسِرة، وكان ذلك في ولايته.

وانعقدت البيعة لمعاوية بالصفة التي شاءها الله، على الوجه الذي وعد به رسول الله ﷺ مادحًا له راضيًا عنه راجيًا هدنة الحال فيه، لقول النبي ﷺ: «**ابني هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**».

هذا خلاصة قول أهل السنة في خلافة معاوية، لقد هدأت النفوس وانعقدت البيعة بالإجماع لمعاوية.

عودة الأمن للمجتمع:

وعاش الناس في عصر معاوية آمنين مطمئنين وزادت قوة المسلمين العسكرية وتوسعت الفتوحات... ولكن بقي المصر العراقي والذي يضم الكوفة والبصرة وما حولهما – كثير القلاقل، وأهله يجيدون إثارة القلاقل والفتن، وخرق وحدة الجماعة المسلمة، إذا جاءهم الوالي الرحيم استضعفوه، وقاموا بالحركات، وإذا جاءهم الوالي القوي استهابوه وخافوا منه وسمعوا منه وأطاعوا... ولذا لما كان المغيرة بن شعبة واليًا على هذا المصر منذ عام ٤١ هـ حتى سنة ٤٩ هـ استطاع أن يسوس أهله بحكمته ودهائه وشدته إذا تطلب الأمر ذلك... فلما مات عين معاوية بعده زياد بن أبيه سنة ٥٠ هـ وكان شديدًا يعلم طبيعة أهل العراق فوقف فيهم أول ولايته وخطب فيهم خطبته الشهيرة بالبتراء والتي جاء في بعض فقراتها:

إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما يصلح به أوله ، لين في غير ضعف وشدة في غير جبرية وعنف ، وإني أقسم بالله لآخذن الولي بالولي والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والصحيح منكم بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : أنج سعد فقد هلك سعيد ، أو تستقيم لي قناتكم.

وإياي ودَلَج الليل ، فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه ، وقد أجّلتكم في ذلك بقدر ما يأتي خبر الكوفة ويرجع إليّ، وإياي ودعوى الجاهلية ، فإني لا أجد أحدًا دعا بها إلا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثًا لم تكن وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرَّق قومًا غرَّقته ، ومن حرق على قوم حرقناه ، ومن نقب بيتًا نقبت قلبه ، ومن نبش قبرًا دفنته فيه حيًّا ، فكفوا عني أيديكم وألسنتكم أكفف يدي وأذاي ، ولا يظهر من أحد منك خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه.

أيها الناس، قد أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذاده ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة . فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما ولّينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم ، واعلموا أني مهما قصرت عنه فإني لا أقصّر عن ثلاث؛ لست محتجبًا عن طالب حاجه منكم ولو أتاني طارقًا بليل ، ولاحابسًا رزقًا ولا عطاءً عن إبانه ، ولا مجمرًا (حابسًا لجند في أرض العدو) لكم بعثًا، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم، وكهفكم الذي إليه تأوون ومتى تصلحوا يصلحوا ، ولا تُشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ، ويطول له حزنكم، ولا تدركوا حاجتكم ، مع أنه لو استجيب لكم لكان شرًا لكم .

أسأل الله أن يعين كلاً على كلٍ ، وإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على إذلاله، وأيم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي.

واستطاع زياد بهذه الشدة، وربما أحيانًا القسوة،أن يسيطر على مقاليد الأمور بالبصرة والعراق،وخافه الناس خوفًا شديدًا،حتى أمن الناس بعضهم بعضًا، حتى كان الشيء يسقط من الرجل فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها(١) .

نقول ثانية:إن اتحاد الأمة واجتماع كلمتها وعدل الحاكم وقوته كان من أهم عوامل استقرار الأوضاع، وعودة الفتوحات من جديد، ولنتجول سريعًا مع الفتوحات في عهد معاوية.

كانت الفتوحات تسير في ثلاثة اتجاهات: من ناحية أفريقية والمغرب في اتجاه

---

(١) نحسب أن هذه السياسة الشديدة لا تصلح القلوب وإنما تخفف الألم عن الأمة تخفيفًا وقتيًا.

فتح الأندلس...من ناحية البحر ومحاولات فتح بعض الجزر... ومن ناحية العراق (الشرق) وصولاً إلى بلاد ما وراء النهر...

وفي عهد معاوية: بلغ عدد الأساطيل في البحر (١٧٠٠) ألف وسبعمائة كاملة العدة والعدد، وقد رتب معاوية لغزو الروم في البر نظام الشواتي[1] والصوائف[2].

وكانت أولى المحاولات لفتح القسطنطينية: في سنة ٤٨ هـ وقيل إنها كانت في سنة ٥٢ هـ أمر معاوية ابنه يزيد بالخروج لفتح القسطنطينية، فخرج وهو كاره، ومعه جيش يتكون من أسطول بحري بقيادة بُسر بن أرطأة وجيش البر قائده سفيان بن عوف الأزدي وضم في هذا الجيش مجموعة من كبار الصحابة منهم أبو أيوب الأنصاري (خالد ابن يزيد) الذي استشهد ودفن بجوار القسطنطينية... ولم تنجح المحاولة.

روى البخاري عن أم حرام بنت ملحان أن رسول الله ﷺ قال: «**أول جيش من أمتي يركبون البحر قد أوجبوا، وأول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور له**».

ومدينة قيصر عاصمته وهي القسطنطينية.

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبي ظبيان قال: غزا أبو أيوب مع يزيد بن معاوية قال: فقال إذا مت فأدخلوني في أرض العدو فادفنوني تحت أقدامكم حيث تلقون العدو، قال: ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة**».

وفي سنة ٥٣ هـ أعيدت محاولة فتح القسطنطينية بجيش بقيادة فضالة بن عبيد

---

(١) الشواتي: جمع شاتية وهي الجيش الذي يغز في الشتاء .
(٢) الصوائف: جمع صائفة، وهي الجيش الذي يغزو في الصيف.

الأنصاري، واستمر الحصار خمس سنوات حتى سنة ٥٧ هـ ولكنها أيضًا لم تفلح.

أما من الناحية البحرية فقد أغار المسلمون على بعض الجزر مثل صقلية وجربا ورودس وكريت، وأسس معاوية دارًا لصناعة السفن البحرية في عكا وكذلك أقام مثلها في جزيرة الروضة بمصر سنة ٥٤ هـ.

وأحدث معاوية **نظام البريد** ومعنى ذلك أن تقسم الطرق منازل، في كل منزل دواب مهيأة معدة لحمل كتب الخليفة إلى البلدان المختلفة، فتسلم الكتب بالحاضرة (العاصمة) فيأخذها صاحب البريد ويمر مسرعًا حتى إذا وصل إلى أول منزلة سلمها لصاحب البريد فيها، فيفعل بها كالأول، وبذلك كانت تصل الكتب إلى الأمراء والعمال في أسرع وقت ممكن، وكان بين كل منزلتين اثنا عشر ميلاً وتسمى هذه المسافة بريدًا، وهي فكرة منقولة عن الفرس.

وكان كاتب معاوية سرجون الرومي لأن ديوان الشام كان لعهده بالرومية ويظهر أنه كاتب الخراج، وكان سرجون صاحب أمره ومدبره ومشيره...

وهكذا مضت أيام معاوية قريبًا من عشرين عامًا، فلما أحس معاوية بدنو أجله رتب معاوية الأمر لاستخلاف ابنه يزيد، وجعل يدعو الناس لبيعته فبايعوا، وعندما حضرته المنية حذر معاوية يزيد من أربعة نفر (الحسين بن على، عبد الله ابن عمر، عبد الله بن الزبير، عبد الرحمن بن أبي بكر)

وتوفي معاوية في رجب سنة ٦٠ هـ وقد بايع يزيدًا أغلب الأمصار، فبويع في حياة معاوية وهذا ما رفضه رجال بالمدينة الذين كانوا يستنكرون أن يبايع الناس لاثنين في وقت واحد... وأن يعهد لابنه بالخلافة...فلما مات معاوية بايع الناس من جديد يزيدًا عدا النفر الأربعة السابق ذكرهم... ثم بايع عبد الله بن عمر ووصى الناس بالاجتماع على يزيد قائلاً: **تقولون إن يزيد بن معاوية ليس بخير**

أمة محمد ﷺ لا أفقهها فيها فقها ولا أعظمها فيها شرفًا، وأنا أقول ذلك، ولكن والله لأن تجتمع أمة محمد ﷺ أحب إلى من أن تفترق...

وقال ابن عمر لما بويع يزيد «**إن كان خيرًا رضينا وإن كان شرًا صبرنا**».

لقد بايع عبد الله بن عمر وبايع عبد الرحمن بن أبي بكر يزيد بن معاوية وبقى الحسين وعبد الله بن الزبير.

فهل كان معاوية موفقًا في هذه الطريقة في تحديد الخليفة من بعده واختيار ابنه يزيد؟ وننقل هنا أراء بعض المؤرخين ترد هذا التساؤل...

تأويل حسن للشيخ الخضري: «إن هذه الطريقة كانت لازمة في هذه المرحلة لصلاح أمر المسلمين ولم شعثهم، فإن الطامعين في الخلافة كثيرون وكلهم جديرون بها... بالإضافة إلى اتساع المملكة الإسلامية وصعوبة المواصلات بين أطرافها، وعدم وجود قوم معينين يرجع إليهم الانتخاب، فإن الاختلاف لابد واقع، ونحن نشاهد أنه مع تفوق بني عبد مناف على سائر قريش واعتراف الناس لهم بذلك، وهم جزء صغير من قريش، فإنهم تنافسوا الأمر وأهلكوا الأمة بينهم، فلو رضى الناس عن أسرة ودانوا لها بالطاعة، واعترفوا باستحقاق الولاية لكان هذا خير ما يفعل لضم شعث المسلمين... إن أعظم من ينتقد معاوية في تولية ابنه هم الشيعة، مع أنهم يرون انحصار الأمر في آل على، ويسوقون الخلافة في بنيه يتركها الأب منهم للابن، وبنو العباس أنفسهم ساروا على هذه الخطة فجعلوا الخلافة حقاً من حقوق بيتهم لا يعدوهم إلى غيرهم، والنتيجة أن ما فعله معاوية كان أمرًا لابد منه مع الحال التي كانت عليها الأمة الإسلامية).

قال ابن خلدون: والذي دعا معاوية ﷺ لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه، إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع واتفاق أهوائهم، باتفاق أهل الحل والعقد

عليه حينئذ من بني أمية، إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواه وهم عصابة قريش وأهل الغلب منهم، فآثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصًا على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع، وإن كان لا يظن بمعاوية غير هذا، لعدالته وصحبته مانعة من سوى ذلك، وحضورأكابر الصحابة وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فليسوا ممن يأخذهم في الحق هوادة.

خلافة يزيد بن معاوية

(من رجب ٦٠ هـ إلى ربيع أول ٦٤ هـ)

وكان عمره يوم تولى أربعة وثلاثين عامًا

ما إن تولى يزيد الحكم حتى أرسل إلى والي الحجاز يأمره أن يأخذ الحسين ابن على وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذًا شديدًا ليست فيه رخصة.

وفي ذلك الوقت كتب أهل الكوفة إلى الحسين (إنا قد جيشنا أنفسنا عليك فأقدم) فبعث الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب ليستوثق من خبر الكوفة.

فمكث مسلم بن عقيل بالكوفة مدة من الزمان ثم حاول أن يخرج في الكوفة ونادى بشعار (البيعة للحسين) فتجمع له أربعة آلاف سرعان ما انفضوا من حوله، وأُعدِم على يد النعمان بن بشير والي الكوفة.

قبل إعدام مسلم بيوم واحد كان خروج الحسين من مكة إلى الكوفة ونصحه كثير من الصحابة بعدم الخروج، لما قد يجر ذلك من التفرق ولكنه أصر على اجتهاده.

وفي ١٠ من المحرم سنة ٦١ هـ (يوم عاشوراء) قُتِل الحسين بجوار كربلاء على يد عبيد الله بن زياد في جيش كله من العراق.. لم يعطوا فرصة للحسين للعدول

عن رأيه... وحُملت رأس الحسين إلى الخليفة يزيد الذي بكى لمقتله وأكـرم مـن بقى من أهل البيت فلم يكن يزيد يريد قتل الحسين.

يقول الشيخ الخضري بك معلقًا على الحادثة:

(... بذلك الشكل المحزن انتهت هذه الحادثة التي أثارها عدم الأناة والتبصر في عواقب الأمور، فإن الحسين ضرب بقول مشيريه جميعًا عرض الحائط، وظـن بأهل العراق خيرًا فاغتر ببعض كتب كتبها دعاة الفتن ومحبو الشر، فحمل أهلـه وأولاده وسار إلى قوم ليس لهم عهد، وانظروا كيف تألف الجيش الذي حاربه؟ هل كان إلا من أهل العراق وحدهم الذين يرفعون عقيرتهم بأنهم شـيعة علـى بن أبي طالب، وعلى الجملة فان الحسين أخطأ في خروجه هذا الذي جـر علـى الأمة وبال الفرقة والاختلاف إلى يومنا هذا، وقد أكثر الناس من الكتابة في هذه الحادثة لا يريدون بذلك إلا أن تشتعل النيران في القلوب فيشتد تباعدها.

غاية ما في الأمر أن الحسين طلب أمرًا لم يتهيأ له، ولم يُعِد لـه عدتـه فحيـل بينه وبين ما يشتهي وقتل دونه.. لقد ذهب الجميع إلى ربهـم يحاسـبهم علـى مـا فعلوا والتاريخ يأخذ من ذلك عبرة وهي: إنه لا ينبغي لمن يريد عظـائم الأمـور أن يسير إليها بغير عدتها الطبيعية، فلا يرفع سيفه إلا إذا كان معه من القـوة مـا يكفل له النجاح أو يقرب من ذلك، كما أنه لابد أن تكون هناك أسباب حقيقية لمصلحة الأمة، بأن يكون هناك جور لا يحتمل وعسف شديد ينوء الناس بحمله، أما الحسين فإنه خرج على يزيد وقد بايعه الناس، ولم يظهر منه ذلك الجـور ولا العسف عند إظهار الخلاف...)

وكان من الذين نصحوا الحسين بالعدول: عبد الله بن عباس الذي قال له:

«إن أهل العراق قوم غدر، فلا تقربنهم، أقم بهـذا البلـد فإنـك سـيد أهـل

الحجاز، فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فاكتب إليهم فلينفوا عدوهم، ثم أقدم عليهم، فإن أبيت إلا السير فِسر إلى اليمن، فإن بها حصونًا وشعابًا، وهي أرض عريضة طويلة ولأبيك بها شيعة وأنت عن الناس في عزلة، فتكتب إلى الناس وترسل، وتثبت دعاتك، فإني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي تحب في عافية...».

وقال له عبد الله بن مطيع: «أذكرك الله يا ابن رسول الله، وحرمة الإسلام أن تنتهك! أنشدك الله في حرمة رسول الله ﷺ! أنشدك الله في حرمة العرب! فوالله لئن طلبت ما في أيدي بني أمية ليقتلنك، ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحدًا أبدًا. والله إنها لحرمة الإسلام تنتهك، فلا تفعل، ولا تأت الكوفة...» فأبى الحسين إلا أن يمضي. ومازال الناصحون من أهل الرأي والعلم ينصحونه، ولكنه لم يأخذ باجتهادهم، واجتهد رأيه، ويبدو فيما بعد أنهم أصابوا في اجتهادهم وقد أخطأ الحسين رضي الله عنه في اجتهاده.

يقول ابن تيمية في منهاج السنة: «... لم يكن في خروجه رضي الله عنه مصلحة لا في دين ولا في دنيا، وكان في خروجه وقتله من الفساد ما لم يحصل لو قعد في بلده، فإن قصده من تحصيل الخير ودفع الشر لم يحصل منه شيء بل زاد الشر بخروجه وقتله...»

ويقول الشيخ محب الدين الخطيب: «... لا أدري سببًا معقولاً لتضخيم هذه المصيبة - على الرغم من فداحتها- بعد زوال الأمويين وملكهم؟!!

فهي مهما كان من أمرها لا تعد شيئًا مذكورًا بجانب المصيبة باستشهاد الخلفاء عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، فلماذا لا يقيمون عليهم كل عام مأتمًا وعويلاً.. كما يفعلون في ذكرى مقتل الحسين يوم عاشوراء...؟؟!!».

بدء الصراع بين عبد الله بن الزبير وبني أمية سنة ٦٣ هـ: وما إن

وصل خبر مقتل الحسين إلى عبد الله بن الزبير حتى أعلن خلع يزيد وأخذ البيعة لنفسه من الناس، فأرسل يزيد جيشًا لمحاصرة المدينة، فلم يستسلم أهلها وأصروا على القتال.. فقتل أكثر سادة المدينة يومها في وقعة سميت الحرة في ذي الحجة سنة ٦٣ هـ ثم توجه جيش الخليفة إلى مكة ليحاصرها وبها عبد الله بن الزبير... ولكن وفاة يزيد بن معاوية جعلت الجيش يعود.

معاوية الثاني سنة ٦٤ هـ

وفي سنة ٦٤ هـ عهد يزيد إلى ولده معاوية الثاني بالخلافة، ولكنه كان رجلاً صالحًا ضعيفًا في الإمارة، فتنحى عن الخلافة ومات بعد ثلاثة أشهر من خلافته واجتمع أغلب أمراء الشام على مبايعة عبد الله بن الزبير... وتوجه مروان بن الحكم لمبايعة ابن الزبير ولكنه التقى بعبيد الله بن زياد صاحب مذبحة الحسين في كربلاء فصرفه عن المبايعة لابن الزبير ومناه بالخلافة فرجع مروان... ويبدو أن عبيد الله خاف القصاص منه إذا تولى أمر الأمة عبد الله بن الزبير.

عبد الله بن الزبير رضى الله عنه

وبايع أغلب الأمصار عبد الله بن الزبير.

ولكن القلاقل لم تهدأ وحدث اقتتال بالشام عند مرج راهط بين المؤيدين والمعارضين لمبايعة مروان أو ابن الزبير واستطاع مروان أن يفرض سيطرته على الشام وكان ذلك سنة ٦٥ هـ، ثم توفى مروان بن الحكم وبايع أهل الشام ابنه عبد الملك بن مروان وقام صراع طويل بين أهل الشام وعبد الله بن الزبير حتى كان عام ٧١ هـ استطاع عبد الملك بن مروان أن يخضع معه العراق كلها ولم يبق

له إلا الحجاز... فأمر عبد الملك **الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق** يومها أن يخرج في جيش كثيف إلى مكة لمحاصرة عبد الله بن الزبير، فحاصرها ومنع عنها المؤن وضربها بالمنجنيق، وبدأ الناس يتخاذلون عن ابن الزبير ولم يبق معه إلا أمه **أسماء ذات النطاقين** ودعته أن يثبت على الحق ولو كان وحده...

وأثناء الحصار أكمل عبد الله بن الزبير بناء الكعبة على الطريقة التي كان يتمناها النبي ﷺ كما جاء في الحديث الصحيح أن الرسول ﷺ قال لعائشة «**لولا قومك حديثو عهد بكفر لنقضت الكعبة وجعلتها على قواعد إسماعيل وجعلت لها بابين**».

وكان جدارها قد مال بسبب رمي المنجنيق.

ثم دخل عبد الله على أمه قبل قتله بعشرة أيام فقال لها: يا أماه.. خذلني الناس، حتى ولداي وأهلي، فلم يبق إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا فماذا ترين؟

قالت أسماء:أنت والله يا بني أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو، فامض له، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك غلمان بني أمية فيلعبون بها، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك، وأهلكت من قتل معك، وإن قلت: كنت فلما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار، ولا أهل الدين، وكم خلودك في الدنيا؟؟!.. القتل أحسن.

قال:إني أخاف أن يمثل بي أهل الشام. قالت:إن الكبش لا يؤلمه سلخه بعد ذبحه. فدنا ابن الزبير من أمه فقبل رأسها وقال: هذا والله رأيي، والذي قمت به داعيا إلى يومي هذا، ماركنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حُرمه، ولكنني أحببت أن أعلم رأيك فزدتني بصيرة مع بصيرتي، فانظري يا أماه فإني مقتول من يومي هذا، فلا

يشتد حزنك وتسلّمي لأمر الله،... فدعت له مودعة: اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك الظمأ في هواجر المدينة ومكة، وبره بأبيه وبي، اللهم قد سلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين... فقاتل عبد الله قتال الأبطال وهو ينشد:

أسماء يا أسماء لا تبكيني لم يبق إلا حسبي وديني

وصارم لانت به يميني

فلما قتل كبَّر أهل الشام لمقتله، فبلغ ذلك ابن عمر فقال: «الذين كبروا لمولده خير من الذين كبروا لموته»[١]. وصلب الحجاج عبد الله بن الزبير مبالغة في التشفي، ثم أرسل إلى أمه فأبت أن تأتيه فذهب إليها فلما دخل عليها: قال: أرأيت كيف نصر الله الحق وأظهره؟ قالت: ربما أديل الباطل على الحق وأهله. قال: كيف رأيتني صنعت بعدو الله؟ قالت: أراك أفسدت على ابني دنياه، وأفسد عليك آخرتك. وبلغ عبد الملك بن مروان، ما صنع الحجاج مع أسماء فكتب إليه يستنكر فعله ويقول: مالك ولابنة الرجل الصالح؟ وأوصاه بها خيرًا. فدخل عليها الحجاج فقال: يا أماه، إن أمير المؤمنين أوصاني بك فهل لك من حاجة؟ قالت: لست لك بأم، إنما أنا أم المصلوب على الثنية، ومالي من حاجة...

وبالقضاء على عبد الله بن الزبير بن العوام استتب الأمر لعبد الملك بن مروان وذلك سنة ٧٣هـ.

أهم الثورات في عهد بني أمية:

ولقد شهدت الفترة من وفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ وحتى قرب نهاية

(١) أشاع اليهود في المدينة بعد الهجرة أنهم سحرو للمسلمين فلن ينجبوا، فولدت أسماء (عبد الله) فكان أول مولود في المدينة فكبر أهلها يوم مولده فرحًا.

حكم عبد الملك بن مروان تقريبًا سنة ٨٤ هـ ثورات عديدة منها:

١ – **ثورة التوابين** في ربيع الأول سنة ٦٤ هـ وهم الجماعة الذين شجعوا الحسين على القدوم إلى الكوفة ثم خذلوه، ثم ندموا على ما فعلوا، واجتمعوا بجيش وأطلقوا على أنفسهم اسم التوابين، وكان قائدهم سليمان بن صرد الخزرجي صحابي عابد زاهد شهد صفين مع على وكانت داره مقر اجتماع التوابين وقضى عليه وعلى أتباعه سنة ٦٥ هـ.

٢- **ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي**.. (ويسمونه رجل الفتنة الكبرى) في ربيع الأول سنة ٦٦ هـ تمكن من الوثوب إلى ولاية الكوفة مدعيًا أن محمد ابن الحنفية (أحد أبناء على بن أبي طالب) أرسله للأخذ بثأر الحسين ولم يكن محمد يعلم بذلك ولا يرضى به، فحقق بالفعل انتصارات متتابعة ولكنه قتل سنة ٦٧ هـ وانتهت حركته على يد مصعب بن الزبير.

٣- **ثورة الخوارج:** لقد قام الخوارج بثورات هائلة وكان الفضل الأكبر في القضاء عليهم لرجل اسمه: المهلب بن أبي صفرة وكانت أشد معارك الخوارج سنة ٧٧ هـ عندما تولى (شبيب بن يزيد بن نعيم بن قيس الشيباني، أبو الضحاك) قيادة جيش الخوارج وهو أحد أبطال العالم، بايعه الخوارج بالخلافة فأرهب ملك بني أمية، فلا يزال الضحاك ينزل ببني أمية هزيمة تلو هزيمة وجيشه لا يزيد عن ألف رجل وبنو أمية ألوف مؤلفة حتى مات غرقًا وقد ماتت قبله أيضا في هذه المعارك زوجته غزال الحرورية (أشهر النساء في الشجاعة والفروسية).

٤- **ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث أمير سجستان سنة ٨٢ هـ:** ثار ابن الأشعث على الحجاج وخلعه ودارت بينهما معارك منها:

- معركة الزاوية: في محرم سنة ٨٢ هـ بالبصرة، وكان في جيش ابن

الأشعث نفر من العلماء منهم سعيد بن جبير والشعبي وغيرهم...

ولكن ابن الأشعث انهزم وفر إلى الكوفة فاستقبله أهلها استقبالاً حسنًا وبايعوه على خلع الحجاج وعبد الملك بن مروان....

• **معركة دير الجماجم:** في شعبان سنة ٨٢ هـ، خرج الحجاج بجيشه ليواجه هذا الثائر بدير قرة وقدمت إلى الحجاج أمداد كبيرة من الشام وخرج ابن الأشعث عند دير الجماجم فتقاتل الناس عندها قتالاً شديدًا واستمر مدة طويلة... حتى أن عبد الملك بن مروان دعا أهل مشورته فقالوا له: إن كان أهل العراق يرضيهم منك أن تعزل عنهم الحجاج فهو أيسر من قتالهم وسفك دمائهم... فاستحضر عبد الملك عند ذلك أخاه محمد بن مروان وابنه عبد الله بن عبد الملك ومعهما جنود كثيرة جدًا وكتب معهما كتابًا إلى أهل العراق يقول لهم فيه: «... إن كان يرضيكم مني عزل الحجاج عنكم عزلته عنكم، وبعثت عليكم أعطياتكم مثل أهل الشام وليختر ابن الأشعث أي بلد شاء يكون عليه أميرًا ما عاش وعشت، وتكون إمرة العراق لمحمد بن مروان...»

وقال في عهده: فإن لم تجب أهل العراق إلى ذلك فالحجاج على ما هو عليه وإليه إمرة الحرب، ومحمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك في طاعة الحجاج وتحت أمره لا يخرجون عن رأيه في الحرب وغيره...

فلما بلغ ابن الأشعث ذلك جمع الأمراء وندبهم إلى قبول ما عرض عليهم ولكنهم صاحوا به: لا والله لا نقبل ذلك، نحن أكثر عددًا، وقد ذلوا لنا، والله لا نجيب إلى ذلك أبدًا... فلما تأكد رفض العرض انضم جيش الشام إلى جيش الحجاج...

ودارت رحى الحرب وطالت حتى انسلخت هذه السنة وهم على حالهم وقتالهم في كل يوم أو يوم بعد يوم، والدائرة على أهل الشام في أكثر الأيام...

حتى كان يوم أمر الحجاج فيه بالهجوم على كتيبة القراء (العلماء) لأن الناس كانوا تبعًا لهم وهم الذين يحرضونهم على القتال والناس يقتدون بهم...

ونجحت الهجمة وقتل من القراء خلق كثير وانهزم أصحاب ابن الأشعث وذهبوا في كل وجه ولجأ ابن الأشعث إلى بلاد رتبيل ملك الترك...

فأرسل الحجاج إلى رتبيل يتهدده بقتاله بجيش لا قبل له به... فقتل رتبيل ابن الأشعث وبعث برأسه إلى الحجاج... ولما قدمت الأسارى على الحجاج قتل أكثرهم منهم سعيد بن جبير وعفا عن بعضهم...

ويعلق الشيخ الخضري على هذه الأحداث قائلاً: «وهكذا مضى على الأمة ما يقرب من عشرين عامًا وهي مصابة بالفتن والاضطرابات في معظم الجهات الإسلامية يقتل بعضهم بعضًا... ولم يكن زمن الفتن يسمح للمسلمين بمد فتوحاتهم وإنقاص أرض عدوهم لأن الأمة إذا كان بأسها بينها شديدًا فحسبها أن تحافظ على ما بأيديها من البلاد...».

ففي سنة ٧٠ هـ اضطر عبد الملك إلى مصالحة الروم على إتاوة يدفعها سنويًا.

وفي سنة ٧١ هـ تراجع المسلمون المجاهدون في بلاد المغرب وتركوا القيروان.

هذه أمثلة ولكن العجيب في أمر هذه الأمة وهذه الدولة القوية مع ما نالها من المصائب والفتن أنها لم تظهر أمام الأمم الأخرى بمظهر الضعف إلا في فترة وجيزة جدًا.

وفي سنة ٨٤ هـ يبني الحجاج مدينة واسط قاعدة العراق.

وفي شوال سنة ٨٦ هـ يتوفى عبد الملك بن مروان عن مدة خلافة إحدى وعشرين سنة وشهر ونصف.

من مناقب مروان بن الحكم وابنه عبد الملك: ولا يفوتنا هنا أن نلفت النظر إلى مكانة

مروان بن الحكم وابنه عبد الملك.

كان مروان من الطبقة الأولى من التابعين، وقد روى الحديث عن عمر وعثمان وزيد بن ثابت، وغيرهم، وروى البخاري عنه في صحيحه وكان أثناء ولايته يجمع أصحاب رسول الله ﷺ ويستشيرهم ويعمل ما يجمعون عليه، وكان يوم مات عثمان، يدافع عنه، وشهد الجمل مع عائشة، ثم بايع عليًا.

كما كان ابنه عبد الملك من أهل العلم وقد سمع من عثمان وأبي هريرة وأبي سعيد وأم سلمة، وحدَّث عن جمع من العلماء.

قال أبو الزناد: (فقهاء المدينة: سعيد بن المسيب، وعبد الملك (قبل الخلافة) وعروة، وقبيصة بن ذؤيب).

ولعله مما ينبغي أن يذكر من أعمال عبد الملك بن مروان:

١- **إصدار العملة:** في سنة ٧٦ هـ ضرب عبد الملك العملة، وهو أول من أحدث ضربها في الإسلام، فانتفع الناس بذلك،وكان سبب ضربها، أنه كتب في صدور الكتاب إلى الروم: (قل هو الله أحد)، وذكر النبي ﷺ مع التاريخ، فكتب ملك الروم إلى عبد الملك: (... إنكم قد أحدثتم كذا وكذا... فاتركوه وإلا أتاكم في دنانيرنا من ذكر نبيكم ما تكرهون...).

فعظم ذلك على عبد الملك وأحضر خالد بن يزيد بن معاوية فاستشاره في ذلك فقال له:(حرِّم دنانيرهم واضرب للناس سكة فيها ذكر الله تعالى...)

ففعل عبد الملك... كما ضرب الحجاج الدراهم ونقش فيها (قل هو الله أحد) ثم تطورت الدراهم والدنانير الإسلامية بعد ذلك، وبذلك حقق عبد الملك للدولة الإسلامية استقلالها المالي.

٢- **تعريب الدواوين:** الدواوين: جمع ديوان، والديوان موضع لحفظ ما يتعلق

بحقوق السلطة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال.

بقيت أهم دواوين الدولة الإسلامية- ديوان الخراج- تستعمل اللغات الأجنبية كما كانت حالها في عهود الدولة السابقة قبل ظهور الإسلام، فهي فارسية في بلاد ويونانية في بلاد وقبطية في بلاد، واستمر الحال على ذلك منذ دوّن عمر بن الخطاب الديوان لأول مرة في الإسلام حتى عهد عبد الملك، فكان من نتائج ذلك احتفاظ الدولة بطوائف من الموظفين الذين يعتبرون أجانب من غير العرب والمسلمين، ومن نتائج ذلك أيضًا بقاء تلك اللغات سائدة حية معترفًا بها كلغات رسمية، يقبل الناس على تعلمها وإتقانها لحاجة الدولة إليها... فأصدر عبد الملك أمرًا بتعريب الدواوين جميعها...

فمثلاً كان رئيس ديوان الخراج بدمشق هو (سرجون بن منصور الرومي) وكان محتكرًا لهذا العمل منذ عهد معاوية، فأمر عبد الملك رجلاً عربيًا هو سليمان بن سعد الخشني الملقب: أبا ثابت، أن يقوم بتحويل الديوان من الرومية إلى العربية، فكان ذلك سنة ٨١ هـ، وتم عزل سرجون... وكان رئيس ديوان العراق: (زاذان فروخ) وهو فارسي وكان محتكرًا لهذا العمل من أيام يزيد، وقتل أيام ثورة الأشعث، فعين صالح بن عبد الرحمن بدلاً منه وأمره بتحويل ديوان العراق من الفارسية إلى العربية وتخرج على يد صالح هذا أكثر كتاب العراق...

وهكذا حتى تم تحويل جميع دواوين الدولة.. الذي كان سبيلاً إلى تعريب الجاليات الأجنبية فكان لهذا العمل أكبر الأثر في انتشار اللغة العربية.

خلافة الوليد بن عبد الملك

(من شوال ٨٦ هـ حتى جمادى الآخرة ٩٦هـ)

وكان عمره يوم تولى ستًا وثلاثين سنة.

قام الوليد بإصلاحات عظيمة وكانت مدة خلافته غرة في جبين بني أمية.

بنى جامع دمشق (الجامع الأموي) ولم يزل في عمرانه مدة خلافته، وقد بناه مكان كنيسة يوحنا، وعوض النصارى عنها بكنيسة مريم. وبنى صخرة بيت المقدس، ووسع مسجد رسول الله ﷺ، وأعطى المجذومين وبنى لهم مشفي خاصًا بهم في ضواحي دمشق (مشفى الوليد)، وأعطى كل مُقعد خادمًا وكل ضرير قائدًا.

وفى سنة ٩٥ هـ توفى الحجاج بن يوسف الثقفي.

يقول ابن كثير: «وبالجملة فقد كان الحجاج نقمة على أهل العراق بما سلف لهم من الذنوب والخروج على الأئمة وخذلانهم وعصيانهم ومخالفتهم والافتيات عليهم» ويقول: (وقد تقدم قول أسماء عندما دخل عليها الحجاج بعد مقتل ابنها عبد الله في تفسير حديث النبي ﷺ (إن في ثقيف كذابًا ومبيرًا) أن الكذاب هو المختار، والمبير (المهلك) هو الحجاج بن يوسف، وقد كان ناصبيًا يبغض عليًا وشيعته في هوى آل مروان بني أمية، وكان جبارًا عنيدًا، مقدمًا على سفك الدماء بأدنى شبهه، وقد روي عنه ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرها الكفر، فإن كان قد تاب منها وأقلع عنها، وإلا فهو باق في عهدتها، ولكن قد يخشى أنها رويت عنه بنوع من زيادة عليه، فان الشيعة كانوا يبغضونه جدًا لوجوه، ربما حرفوا عليه بعض الكلم،

وزادوا فيما يحكونه عنه بشاعات وشناعات».

ويقول: «قلت: الحجاج أعظم ما نقم عليه وصح من أفعاله سفك الدماء، وكفى به عقوبة عند الله عز وجل، وقد كان حريصًا على الجهاد وفتح البلاد، وكان فيه سماحة بإعطاء المال لأهل القرآن، فكان يعطي على القرآن كثيرًا، ولما مات لم يترك، فيما قيل، إلا ثلاثمائة درهم والله أعلم».

وعن عمر بن عبد العزيز قال: «ما حسدت الحجاج عدو الله على شيء حسدي إياه على حبه القرآن، وإعطائه أهله عليه، وقوله حين حضرته الوفاة: اللهم اغفر لي فان الناس يزعمون أنك لا تفعل».

وأنشد الحجاج عند موته:

يارب قد حلف الأعداء واجتهدوا بأنني رجلٌ من ساكني النار

أيحلفون على عمياء ويحهم ما علمهم بعظيم العفو غفار

فأخبر بذلك الحسن فقال: بالله إن نجا لينجون بهما.

وخرج الإمام أحمد بسنده عن الزبير بن عدي قال: أتينا أنس بن مالك نشكو إليه ما نلقى من الحجاج فقال: اصبروا فإنه لا يأتي عليكم عام أو زمان أو يوم إلا والذي بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم عز وجل، سمعته من نبيكم ﷺ. قال الشعبي: والله لئن بقيتم لتمنّون الحجاج.

وقال الأصمعي: قيل للحسن إنك تقول الآخر شر من الأول، وهذا عمر بن عبد العزيز بعد الحجاج؟؟! فقال الحسن: لابد للناس من تنفيسات.

قال رجل لسفيان الثوري: أتشهد على الحجاج وعلى أبي مسلم الخراساني أنهما في النار؟ قال: لا! إن أقرا بالتوحيد.

وفي سنة ٩٦ تكامل بناء المسجد الأموي (مسجد دمشق):

.. فكان حين تكامل بناؤه ليس له في الدنيا مثيل، في حسنه وبهجته، قال الفرزدق: أهل دمشق في بلادهم في قصر من قصور الجنة -يعني الجامع-.

قالوا: ولما دخل أمير المؤمنين المهدي العباسي دمشق يريد زيارة القدس نظر إلى جامع دمشق فقال لكاتبه أبي عبيد الله الأشعري: سبقنا بنو أمية بثلاث، بهذا المسجد الذي لا أعلم على وجه الأرض مثله، وبنبل الموالي، وبعمر بن عبد العزيز، لا يكون والله فينا مثله أبدًا، ثم لما أتى بيت المقدس فنظر إلى الصخرة -وكان عبد الملك بن مروان هو الذي بناها- قال لكاتبه وهذه رابعة.

ثم توفى الوليد بن عبد الملك وعهد من بعده لأخيه سليمان.

خلافة سليمان بن عبد الملك

(من جمادى الآخرة ٩٦ هـ حتى صفر ٩٩ هـ)

وخلفه أخوه سليمان بن عبد الملك وبايعه الناس، بيد أن قتيبة بن مسلم خافه وعزم على ألا يبايعه، فعزله سليمان وولى يزيد بن المهلب أمير العراق بدلاً منه...

فجمع قتيبة الجند وعزم على خلع سليمان بن عبد الملك من الخلافة وترك طاعته، فلم يجبه أحد من الجند في ذلك، فشرع قتيبة في ذمهم وتأنيبهم قبيلة قبيلة، وطائفة طائفة، فغضبوا عند ذلك ونفروا عنه وعملوا على مخالفته، وسعوا في قتله...

واستطاعوا ذلك في ذي الحجة سنة ٩٦ هـ وقتلوا معه أحد عشر رجلاً من إخوته وأبناء إخوته.

فائدة: يقول ابن كثير: وقد كان قتيبة بن مسلم الباهلي من سادات الأمراء وخيارهم، وكان من القادة النجباء الكبراء، والشجعان وذوي الحروب

والفتوحات السعيدة، والآراء الحميدة وقد هدى الله على يديه خلقًا لا يحصيهم إلا الله، فأسلموا ودانوا لله عز وجل، والله سبحانه لا يضيع سعيه ولا يخيب تعبه وجهده.

ولكن زل زلة كان فيها حتفه، وفعل فعلة رَغِم فيها أنفه، وخلع الطاعة فبادرت المنية إليه، وفارق الجماعة فمات ميتة جاهلية، لكن سبق له من الأعمال ما قد يُكَفِّر الله به سيئاته، ويضاعف به حسناته، والله يسامحه ويعفو عنه...).

عزل سليمان ولاة الحجاج الذي توفى سنة ٩٥ هـ، فعمل رجال سليمان على التنكيل بهؤلاء الولاة ومنهم خيرة القادة مثل محمد بن القاسم صاحب الفتوحات من ناحية الهند كما سيأتي ذكره، وقتيبة بن مسلم الذي حاول أن يخلع سليمان فقتل، وموسى بن نصير الذي حُبِس، وكذلك قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير وهما أصحاب الفتوحات ببلاد المغرب.

وفي سنة ٩٨ هـ - ٩٩ هـ محاولة ثانية لفتح القسطنطينية:

جهز سليمان بن عبد الملك الجيوش إلى القسطنطينية يقودهم أخوه (مسلمة ابن عبد الملك) فحاصرها عامًا كاملاً، ولكنها استعصت عليه وكان عدد جيشه ١٢٠ ألفًا ومزودًا بنحو ١٢٠ ألفًا في البحر وثمانمائة سفينة حربية...

وكان سليمان يتابع بنفسه المحاولة، فاتخذ مدينة دابق شمالي الشام مركزًا له، وأقسم ألا يعود حتى تفتح القسطنطينية أو يتوفاه الله.

وتعرض الجيش المسلم في هذه المحاولة لضنك شديد، حتى أكلوا كل شئ إلا التراب، فلم يزل ذلك دأبهم حتى جاءتهم وفاة سليمان بن عبد الملك وتولية عمر بن عبد العزيز، فكروا راجعين إلى الشام، وقد جهدوا جَهدًا شديدًا، ولكن لم يرجع مسلمة حتى صالح الروم على بناء مسجد بالقسطنطينية...

فتأمل أخي القارئ مدى الجهد الذي حاوله المسلمون لفتح عاصمة الروم حتى أن الخليفة سليمان بن عبد الملك يخرج لذلك بنفسه كما مات خيرة الصحابة والتابعين وهم يشاركون في هذه المحاولات، منهم أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

مشهد من مشاهد الفتوحات يصور لنا النفوس العالية لجند الفتح:وغزا يزيد بن المهلب جرجان في مائة ألف وعشرين ألفًا، منهم ستون ألفًا من جيش الشام أثابهم الله، وقد تمهدت تلك البلاد بفتح جرجان وسُلِكَت الطرق وكانت قبل ذلك مخوفة جدًا... وأصاب يزيد غنائم كثيرة فكان من جملتها تاج فيه جواهر نفيسة، فقال: أترون أحدًا يزهد في هذا؟ قالوا: لا نعلمه، فقال: والله إني لأعلم رجلاً لو عرض عليه هذا وأمثاله لزهد فيه ثم دعا بمحمد بن واسع وكان في الجيش غازيًا... فعرض عليه أَخْذ التاج فقال: لا حاجة لي فيه، فقال: أقسمت عليك لتأخذنه، فأخذه وخرج به من عنده، فأمر يزيد رجلاً أن يتبعه فينظر ماذا يصنع بالتاج، فمر بسائل فطلب منه شيئًا فأعطاه التاج بكماله وانصرف، فبعث يزيد إلى ذلك السائل فأخذ منه التاج وعوضه مالاً كثيرًا...

استخلاف سليمان لعمر بن عبد العزيز

روى ابن جرير عن رجاء بن حيوه – وكان وزير صدق لبني أمية – قال: استشارني سليمان بن عبد الملك وهو مريض أن يولي له ابنًا صغيرًا لم يبلغ الحُلُم.

فقلت: إن مما يحفظ الخليفة في قبره أن يولي على المسلمين الرجل الصالح.

ثم شاورني في ولاية ابنه داود فقال: من ترى؟ فقلت: رأيك يا أمير المؤمنين. قال: فكيف ترى في عمر بن عبد العزيز. فقلت: أعلمه والله خيرًا فاضلاً مسلمًا يحب الخير وأهله، ولكن أتخوف عليه إخوتك ألا يرضوا بذلك. فقال: هو والله على ذلك.

وأشار رجاء أن يجعل يزيد بن عبد الملك ولى العهد من بعد عمر بن عبد العزيز ليرضى بذلك بنو مروان فكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم
هذا كتاب من عبد الله سليمان بن عبد الملك لعمر ابن عبد العزيز، إني قد وليته الخلافة من بعدي ومن بعده يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوه، واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم عدوكم.

وختم الكتاب وأرسل إلى كعب بن حامد العبسي صاحب الشرطة، فقال له: «اجمع أهل بيتي فمرهم أن يبايعوا على ما في هذا الكتاب مختومًا، فمن أبى منهم فاضرب عنقه... ففعل».

فلما مات سليمان أخذ رجاء الأمر بحزم، فجمع الناس في مسجد دابق، حيث دفن سليمان، فبايع بنو مروان ونهض الناس إلى عمر بن عبد العزيز وهو في مؤخرة المسجد فلما تحقق ذلك قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولم تحمله رجلاه حتى أصعدوه المنبر فخطب خطبة بليغة ثم أتوا إليه بمراكب الخلافة فأبى أن يركبها وركب دابته وانصرف مع الناس حتى أتوا دمشق.

خلافة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه

(من صفر ٩٩ هـ وحتى رجب ١٠١هـ)

لقد كان عمر بن عبد العزيز مقربًا إلى قلب سليمان وكان سليمان يعرف لعمر قدره ومن ثم اختاره... ولقد كان سليمان يحج ومعه عمر بن عبد العزيز فلما وقفا بعرفة ورأى سليمان كثرة الناس قال له عمر:

هؤلاء رعيتك اليوم وأنت مسئول عنهم غدًا، وفي رواية وهم خصماؤك يوم القيامة، فبكى سليمان وقال: بالله نستعين.

ولما أصابهم يومًا مطر ورعد فزع سليمان وضحك عمر فقال له: أتضحك؟ فقال: نعم هذه آثار رحمته ونحن في هذه الحال، فكيف بآثار غضبه وعقابه ونحن في تلك الحال؟

وذكر الإمام مالك أن سليمان وعمر تقاولا مرة، فقال سليمان في جملة الكلام: كذبت، فقال عمر: تقول كذبت!!؟ والله ما كذبت منذ أن عرفت أن الكذب يضر أهله، ثم هجره وعزم على الرحيل إلى مصر، فلم يمكنه سليمان، ثم بعث إليه فصالحه وقال: ما عرض لي أمر يهمني إلا خطرت على بالي.

لقد كان عمر بن عبد العزيز نبوءة تحققت، وذلك فيما يروى أن عبد الله بن عمر قال: «يا عجبًا! يزعم الناس أن الدنيا لا تنقضي حتى يلي رجل من آل عمر يعمل بمثل عمل عمر بوجهه أثر» وكانوا يظنونه بلال بن عبد الله بن عمر ولم يكن بوجهه أثر، فلم يكن هو، وإذا هو عمر بن عبد العزيز، وأمه ابنة عاصم بن عمر بن الخطاب.

وخرّج الترمذي بسنده أن عمر بن الخطاب قال: «إن من ولدي رجلاً بوجهه شجان (علامة أو جرح) يلي فيملأ الأرض عدلاً».

أخرج أبو داود في سننه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها». فقال الجماعة من أهل العلم منهم الإمام أحمد بن حنبل: إن عمر بن عبد العزيز كان على رأس المائة الأولى.

لما رجع عمر من جنازة سليمان وقد بايعه الناس واستقرت الخلافة باسمه، انقلب وهو مغتم مهموم، فقال له مولاه: مالك هكذا؟

فقال: ويحك ومالي لا أغتم وليس أحد من أهل المشارق والمغارب من هذه الأمة إلا وهو يطالبني بحقه أن أؤديه إليه، كتب إلي في ذلك أو لم يكتب...

ثم خيرّ عمر زوجته فاطمة بين أن تقيم معه على أنه لا فراغ له إليها، وبين أن تلحق بأهلها، فبكت وبكى جواريها لبكائها، فسمعت ضجة في داره، ثم اختارت مقامها معه على كل حال رحمها الله. وخطب عمر في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فليفارقنا :

- يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها.
- ويعيننا على الخير بجهده .
- ويدلنا من الخير على ما لا نهتدي إليه.
- ولا يغتابن عندنا أحدًا .
- ولا يعرضن فيما لا يعنيه .

فانصرف عنه الشعراء والخطباء وثبت معه الفقهاء والزهاد.

وأخذ عمر الناس بالفقه والعلم والموعظة، وكان قدوة حسنة فتأثر به الناس وانصلح حالهم.

وكان آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز - بعد أن حمد الله وأثنى عليه- أن قال: أما بعد فإنكم لم تخلقوا عبثًا، ولن تتركوا سدى، وإن لكم معادًا ينزل الله فيه للحكم فيكم والفصل بينكم، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله تعالى، وحرم جنة عرضها السماوات والأرض، ألم تعلموا أنه لا يأمن غدًا إلا من حذر اليوم الآخر وخافه، وباع فانيًا بباق، ونافذًا بما لا نفاد له، وقليلاً بكثير، وخوفًا بأمان، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين وسيكون من بعدكم للباقين كذلك، حتى ترد إلى خيرالوارثين، ثم إنكم في كل يوم تشيعون غاديًا رائحًا إلى الله لا يرجع، قد قضى نحبه حتى تغيبوه في صدع من الأرض، في بطن صدع

غير موسد ولا ممهد، قد فارق الأحباب، وواجه التراب والحساب، فهو مرهن بعمله غني عما ترك، فقير لما قدم ، فاتقوا الله قبل القضاء، راقبوه قبل نزول الموت بكم، أما إني أقول هذا.

ثم وضع طرف ردائه على وجهه فبكى وأبكى من حوله.

وقد اجتهد رحمه الله في مدة ولايته - مع قصرها - حتى رد المظالم وصرف إلى كل ذي حق حقه، وكان مناديه في كل يوم ينادي أين الغارمون؟ أين الناكحون؟ أين المساكين؟ أين اليتامى؟ حتى أغنى كلاً من هؤلاء..

• ودخل على امرأته يومًا فسألها أن تقرضه درهمًا يشتري عنبًا فلم يجد عندها شيئًا... فقالت له: أنت أمير المؤمنين وليس في خزانتك ما تشتري به عنبًا؟

فقال هذا أيسر من معالجة الأغلال والأنكال غدًا في نار جهنم.

• كان له سراج يكتب عليه حوائجه وسراجًا لبيت المال يكتب عليه مصالح المسلمين... ولا يكتب على ضوئه لنفسه حرفًا...

وكان يوسع على عماله في النفقة ويقول: إنهم إذا كانوا في كفاية تفرغوا لأشغال المسلمين.

قال رجاء بن حيوه: سَمُرت عند عمر بن عبد العزيز ليلة فأطفئ السراج...

فقلت: يا أمير المؤمنين ألا أنبه هذا الغلام يصلحه؟

فقال: لا! دعه ينام، لا أحب أن أجمع عليه عملين!!

فقلت: أفلا أقوم أصلحه؟

فقال: لا... ليس من المروءة استخدام الضيف... ثم قام بنفسه فأصلحه، وصب فيه زيتًا... ثم جاء وقال: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز... وجلست وأنا عمر بن عبد العزيز.

• وبلغه أن رجلاً من أصحابه تُوفي، فجاء إلى أهله يعزيهم فيه، فصرخوا في وجهه بالبكاء عليه فقال: (مه إن صاحبكم لم يكن يرزقكم، وإن الذي يرزقكم حي لا يموت، وإن صاحبكم هذا لم يسد شيئًا من حفركم... إنما سد حفرة نفسه... ألا وإن لكل امرئ منكم حفرةً لابد والله أن يسدها. فمن كان منكم باكيًا فليبكِ على نفسه... فإن الذي صار إليه صاحبكم كل الناس يصيرون إليه غدًا).

• كان يكتب إلى عماله: اجتنبوا الأشغال عند حضور الصلاة... فإن من أضاعها فهو لما سواها من شرائع الإسلام أشد تضييعًا..

• وقد كان يكتب الموعظة إلى العامل من عماله فينخلع منها، وربما عزل بعضهم نفسه عن العمالة، وطوى البلاد من شدة ما تقع موعظته منه. وذلك أن الموعظة إذا خرجت من قلب الواعظ دخلت قلب الموعوظ ومن أمثلة ذلك:

وقد كتب إلى أحد عماله يقول:أذكرك طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد... وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد بك،وانقطاع الرجاء منك. قالوا: فخلع هذا العامل نفسه من على العمالة وقدم على عمر فقال له: مالك؟

قال: خلعت قلبي بكتابك يا أمير المؤمنين... والله لا أعود إلى ولاية أبدًا.

• وقال له رجل جزاك الله عن الإسلام خيرًا. فقال: بل جزى الله الإسلام عني خيرًا.

وفاتــه:

وقالوا في سبب وفاته أن له مولى سمه في طعام أو شراب كيدًا من بني أمية الذين أرهقهم شدة عمر عليهم واسترداده مظالم العباد منهم....

وقيل لعمر حال وفاته: هؤلاء بنوك - وكانوا اثني عشر- ألا توصي لهم بشيء فإنهم فقراء؟ فقال: ﴿إنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الذِي نَزَّلَ الكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾.

والله لا أعطيهم حق أحد، وهم بين رجلين إما صالح فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح فما كنت لأعينه على فسقه.

ثم استدعى أولاده فودعهم وعزاهم بهذا، وأوصاهم بهذا الكلام ثم قال: انصرفوا عصمكم الله وأحسن الخلافة عليكم.

يقول الرواة: فلقد رأينا بعض أولاد عمر بن عبد العزيز يحمل على ثمانين فرسًا في سبيل الله، وكان بعض أولاد سليمان بن عبد الملك - مع كثرة ما ترك لهم من الأموال - يتعاطى ويسأل من أولاد عمر بن عبد العزيز، لأن عمر وكل ولده إلى الله -عز وجل- فأغناهم الله، وسليمان وغيره إنما يكلون ولدهم إلى ما يدَعون لهم، فيضيعون وتذهب أموالهم في شهوات أولادهم.

ثم قال لأهله اخرجوا، فخرجوا وجلس على الباب مسلمة بن عبد الملك وأخته فاطمة، فسمعوه يقول: مرحبًا بهذه الوجوه التي ليست بوجوه إنس ولا جان ثم قرأ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةَ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا، وَالعَاقِبَةُ لِلمُتَّقِينَ﴾. ثم هدأ الصوت فدخلوا عليه فوجدوه قد غمض وسوى إلى القبلة وقبض.

وكانت وفاته بدير سمعان من أرض حمص لخمس بقين من رجب سنة ١٠١ هـ.

خلافة يزيد بن عبد الملك

(من رجب ١٠١ هـ إلى شعبان ١٠٥ هـ)

وتولى وعمره ٢٩ سنة

كان يزيد يكثر من مجالسة العلماء قبل أن يلي الخلافة، فلما تولى عزم على أن يتأسى بعمر بن عبد العزيز، فما تركه قرناء السوء حتى حسَّنوا له الظلم.

ثورة يزيد بن المهلب سنة ١٠١ هـ

كان يزيد بن المهلب أحد الرجال العظام المخلصين في الدولة الأموية، عزله الحجاج فجأة عن أعماله، مع أنه كان يحبه، ثم أعيد في زمن سليمان بن عبد الملك واليًا على العراق، ثم عُزِل ثانية في أيام عمر بن عبد العزيز لقسوته، وسجَنه عمر حتى يؤدي ما عليه من المال، وكان قد أخذ مالاً كثيرًا من بيت المال، وظل سجينًا حتى نجح في الهرب في عهد يزيد بن عبد الملك، ليقود ثورة عظيمة ضد الأمويين بالعراق...

بايع أهل البصرة ابن المهلب على السمع والطاعة، وعلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعلى ألا يطأ الجنود بلادهم وعلى ألا تعاد فيهم سيرة الفاسق الحجاج...

الحسن البصري يعترض: وكان الحسن البصري -في هذه الأيام- يحرض الناس على الكف وترك الدخول في الفتنة، وينهاهم أشد النهي، وذلك لما وقع من القتال الطويل العريض في أيام ابن الأشعث، وما قتل بسبب ذلك من النفوس العديدة، وجعل الحسن يخطب في الناس ويعظم لهم ذلك، ويأمرهم بالكف...

ولكن أهل العراق كعادتهم يتحمسون مع الثائر ثم سرعان -إذا رأوا قوة منافسيهم انفضوا - وهذا ما حدث بالضبط...

فقد أرسلت دولة الخلافة مسلمة بن عبد الملك في جند من الشام عظيمة بلغت مائة وعشرين ألف مقاتل فلما دارت رحى الحرب... صمد يزيد وتحقق له النصر في أول اللقاء ولكن سرعان ما تحولت الدفة لصالح مسلمة... وفر أهل العراق سريعًا وبلغهم أن الجسر الذي جاءوا عليه حُرق فانهزموا، فقال يزيد: ما بال الناس؟ ولم يكن منا لأمر ما يُفَرُّ من مثله فقيل له: إنه بلغهم أن الجسر الذي جاءوا عليه قد حرق، فقال: قبَّحهم الله! وثبت يزيد في عصابة من أصحابه، وجعل بعضهم يتسللون منه حتى بقى معه شرذمة قليلة وهو مع ذلك يسير قُدُمًا لا يمر بخيل إلا هزمهم... ولكنه قتل في

النهاية على يد جند مسلمة وحملت رأسه إلى الخليفة....

توفي يزيد بن عبد الملك ويعتبر أهم إنجاز له هو القضاء على ثورة يزيد بن المهلب...

خلافة هشام بن عبد الملك

(من شعبان ١٠٥ هـ إلى ربيع آخر ١٢٥ هـ)

عهد يزيد بالخلافة من بعده إلى أخيه هشام بن عبد الملك بن مروان.

قال ابن كثير عنه: تولى الخلافة فقام بأمر الخلافة أتم قيام.

كان يولي أبناءه أمر الجهاد في أرض الروم وخاصة معاوية وسليمان، وأخاه مسلمة بن عبد الملك (الذي كان له صولات وجولات تحاكي أيام خالد بن الوليد) وابن عمه مروان بن محمد، ولم يكن هشام ليعطي أحدًا من بني مروان عطاء حتى يغزو... قال عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس:

(جمعت دواوين بني أمية فلم أر ديوانًا أصح ولا أصلح للعامة من ديوان هشام)، وصلاح الديوان وصحته من أعظم ما يمتاز به الخلفاء بعضهم على بعض، والمراد بالديوان ديوان الخراج، أو هو بعبارة جديدة الميزانية التي بها يُعرف ما يرد على الدولة وما يصرف.

وفاة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥ هـ في ربيع الآخر

نظر إلى أولاده حوله يبكون فقال: جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء، وترك لكم ما جمع وتركتم له ما كسب، ما أسوأ منقلب هشام إن لم يغفر الله له. وكان نقش خاتمه الحكم للحكم الحكيم.

قال ابن كثير: (لما مات هشام بن عبد الملك مات ملك بني أمية، وتولى

وأدبر أمر الجهاد في سبيل الله واضطرب أمرهم جدًا، وإن كانت قد تأخرت أيامهم بعده نحوًا من سبع سنين..)

خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك

(من ربيع أول ١٢٥ هـ حتى جمادى الآخرة ١٢٦ هـ)

أسرف في شهواته ولم يكن له هم إلا أن ينتقم من كل من أعان هشامًا عليه من سادة وأفراد البيت الأموي، فنفرت منه قلوب العامة والخاصة...

وكانت قد حدثت بين هشام وبينه وحشة عظيمة، بسبب تعاطي الوليد الفواحش والمنكرات، فتنكر له هشام وعزم على خلعه وتولية ولده مسلمة ولاية العهد، ففر منه الوليد إلى الصحراء وجعلا يتراسلان بأقبح المراسلات... ويتوعده هشام وعيدًا شديدًا... وزادته الخلافة فسقًا، وكرهته الرعية كرهًا شديدًا، وانتهى أمره بأن قتله ابن عمه يزيد بن الوليد.

خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك (الناقص)

(من جمادى الآخر ١٢٦ هـ حتى ذي الحجة ١٢٦ هـ)

كان صالحًا ولكن الأمور اضطربت عليه، وانتشرت الفتن، واختلفت كلمة بني مروان، وانتهى الأمر بوفاته بالطاعون في ٧من ذي الحجة سنة ١٢٦ هـ

ويقال في المثل الأشج والناقص أعدل بني أمية، والمراد عمر بن عبد العزيز وهذا.

ومما يروى عنه قوله: يا بني أمية إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء ويزيد في الشهوة ويهدم المروءة... وإنه لينوب عن الخمر، ويفعل ما يفعل المسكر، فإن كنتم لا بد فاعلين فجنبوه النساء فإنه داعية الزنا.

واستخلف بعده إبراهيم بن الوليد سنة ١٢٧ هـ.

بقي في الحكم ٧٠ يومًا ثم عُزل، ولا يعتبره المؤرخون من الخلفاء لأن الأمر لم يتم له.

خلافة مروان بن محمد

واستخلف من بعده مروان بن محمد بن مروان بن الحكم (سنة ١٢٧ هـ: ١٣٢ هـ). ويلقب بالحمَّار لجرأته في الحروب.

رفض مبايعة يزيد بن الوليد ولا خلفه إبراهيم بن الوليد، وظلت الدولة في عهده تعاني من الاضطرابات، حتى قتل على يد العباسيين كما سيأتي ذكره إن شاء الله.

فائدة: كثرت محاولات الخروج على الخلفاء في عهد بني أمية ولخطورة هذه القضية نذكر أقوال العلماء: في حكم الخروج على وليّ الأمر.

أخرج مسلم عن سعيد بن جنادة بن أبي أمية قال: (دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض فقلنا: حدِّثنا - أصلحك الله - بحديث ينفع الله به سمعته من رسول الله ﷺ. فقال: دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه، فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهِنا، وعُسرنا ويُسرنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، قال: إلا أن تروا كُفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان.

وأخرج مسلم عن عوف بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، ويصلون عليكم وتصلون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم»، قيل: يا رسول الله أفلا ننابذهم بالسيف؟ فقال: «لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، وإذا رأيتم من ولاتكم شيئًا تكرهونه فاكرهوا عمله ولا تنزعوا يدًا من طاعة».

وأخرج مسلم كذلك في كتاب الإمارة باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن: «... **من رأى من إمامه شيئًا يكرهه فليصبر، فإن من فارق الجماعة شبرًا فمات فميتةً جاهلية**».

قال النووي: أجمع أهل السنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق، وسبب عدم انعزاله وتحريم الخروج عليه هو ما يترتب على ذلك من الفتنة وإراقة الدماء، وفساد ذات البين، فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه.

قال القاضي عياض: أجمع العلماء على أن الإمامة لا تنعقد لكافر وعلى أنه لو طرأ عليه الكفر انعزل، وكذلك لو ترك الصلوات والدعاء إليها، فلو طرأ عليه كفر،وتغيير للشرع أو بدعة خرج عن حكم الولاية، وسقطت طاعته ووجب على المسلمين الخروج عليه وخلعه ونصب إمام عادل إن أمكنهم ذلك، فإن لم يقع ذلك إلا لطائفة وجب عليهم القيام بخلع الكافر، ولا يجب الخلع في المبتدع إلا إذا ظنوا القدرة عليه، فإن تحققوا العجز لم يجب القيام.

قالوا: وفي هذا حفظ لقوة الأمة من أن تُبدد في غير ميدانها، فيطمئن الحاكم المسلط من جانب الأمة بما يحملها عليه دينها من طاعته، فلا ينشغل عن حمايتها بحماية نفسه منها، وتنصرف الأمة صابرة على أمر الله راضية بقضائه فيها، شغلُها دينُها وهدفها وحدة كلمتها أمام عدوها ولو تحملت هي الغُرمَ كله.

والخلاصة:

أ - أن الخروج على ولي الأمر يكون بسبب كفرٍ بواح الدليل عليه واضح.

ب - أن فسق ولي الأمر ومعصيته وظلمه ليست سببًا في الخروج عليه ولكن يجب في حقه كلمة حق عند سلطان جائر،ويبقى الدين هو النصيحة.

ج - أنه في حالة ظهور الكفر البواح يكون الخروج جائزًا بشرط الاستطاعة،

فيكون عن قدرة مدروسة فلا يؤدي الخروج إلى فتن أعظم منه.

د - أنه لا يطاع في معصية ولا يُعان على ظلم.

أخرج مسلم في باب حكم من فرّق أمر المسلمين وهو مجتمع، وأحمد وأبو داود عن عرفجة بن شريح قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنه ستكون هناتٌ وهناتٌ، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميعٌ فاضربوه بالسيف كائنًا من كان).

والحديث يدل على أنه يجوز قتال الخارج على الإمام العادل، أو من يريد تفريق كلمة المسلمين، فإن لم ينته وإن لم يندفع شره إلا بقتله فقُتل كان هَدرًا.

* * *

الفصل الثاني

الفتوحات في عهد بني أمية

يقول ابن كثير:

وكانت سوق الجهاد قائمة في بني أمية ليس لهم شغل إلا ذلك، قد علت كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها وبرها وبحرها، وقد أذلوا الكفر وأهله، وكان في جيوشهم الصالحون والأولياء والعلماء وكبار التابعين، في كل جيش منهم شرذمة عظيمة ينصر الله بهم دينه...

أولاً: الفتوحات من ناحية إفريقية والمغرب وصولاً إلى الأندلس

بدء فتح إفريقية منذ عهد عمر ثم عثمان:

وإفريقية بمعنى المغرب عند البعض ويقصد بها خاصة الأجزاء الشرقية من المغرب... والتركيبة السكانية لهذه البلاد تتكون أساسًا من قبائل البربر وهم ينقسمون إلى قسمين كبيرين:

١ – قبائل البرانس وتضم عشرة قبائل منها: (أزداجة، مصمودة، أوربة، كتامة، صنهاجة...) وهم البربر المتحضرون.

٢– قبائل البُتر ومن قبائلها: أداسة، نفوسة، نفزاوة، لواتة... وهم البربر المقيمون بالصحراء.

وكان عمرو بن العاص قد غزا برقه سنة ٢١ هـ واستطاع أن يستميل قبيلة لواتة إلى جانب المسلمين ودخل بعضهم في الإسلام...كما بعث أحد قواده وهو عقبة بن نافع الفهري ففتح زويلة وفزّان وودّان...وقد أقام عقبة بهذه المناطق الصحراوية المنعزلة عشرين سنة يدعوا إلى الإسلام فأسلم على يديه عدد كبير من قبائل البُتر (نفوسة ولواتة ونفزاوة) ومن لم يسلم فقد رأى في عقبة ومن معه من المسلمين معاملة أكرم من تلك التي يعاملهم بها الروم.

وفي سنة ٢٥ هـ أمر عثمان بن عفان عبد الله بن سعد بن أبي السرح أن يغزو بلاد إفريقية فلما غزاها واجهه ملك الروم هناك واسمه جرجير في مائة وعشرين ألف مقاتل، فتواجه الفريقان بالقرب من سبيطلة ودار قتال شرس وطال بالمسلمين القتال، وكان في الجيش عبد الله بن الزبير وكان القتال يبدأ من الصباح ويستمر حتى الظهر ثم يعود كل فريق إلى خيامه إلى اليوم التالي، فاقترح عبد الله بن الزبير اقتراحًا على ابن أبي سرح فقال: «أن أمرنا يطول مع

هؤلاء وهم في أمدادٍ متصلة وبلاد هي لهم ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم، وقد رأيت أن نترك غدًا جماعة صالحة من المسلمين في خيامهم متأهبين ونقاتل نحن الروم في باقي العسكر إلى أن يضجروا ويملوا، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون، ركب من كان في الخيام من المسلمين وهم مستريحون ونقصدهم على غرة فلعل الله أن ينصرنا عليهم».

فوافق عامة الصحابة على الفكرة وانخدع لها الروم فلما حان وقت الظهيرة رجعوا إلى خيامهم ولكن عبد الله بن الزبير ومعه الفرقة التي كانت قد استراحت هجموا عليهم، وقد كانوا وضعوا أسلحتهم، فأحدثوا فيهم مقتلة عظيمة وقُتِل جرجير قائد الروم، وغنم المسلمون غنائم عظيمة، فلما رأى ذلك عظماء إفريقية اجتمعوا وطلبوا من ابن أبي السرح أن يأخذ منهم ثلاث مائة قنطار من ذهب على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم فقبل ذلك.

ومن يومها انكسرت شوكة الروم في هذه البلاد ولم تفلح أي محاولات لهم لبسط نفوذهم وكانت فرصة الهدنة مناسبة لأن ينتشر الإسلام في أهل إفريقية.

وفي سنة ٣٣ هـ نقض أهل إفريقية العهد فأعاد عبد الله بن أبي السرح فتحها، ثم كانت الفتنة الكبرى بين علي ومعاوية فتوقف الفتح الإسلامي عمومًا وفي بلاد المغرب خصوصًا حتى سنة ٤٥هـ.

ثانيًا: فتوحات المغرب في عهد الدولة الأموية

استطاع المسلمون بقيادة معاوية بن حُديج وعقبة بن نافع أن يمهدوا الطريق أمام الفتوحات في هذا الجانب، وفي سنة ٥٠ هـ ظهرت فكرة إنشاء مدينة القيروان كمعسكر دائم للمسلمين داخل بلاد إفريقية وكان الباعث على إنشائها ما قاله عقبة لرجاله: «إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه للإسلام، فإذا تركها

رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا مدينة تكون عزًا للإسلام إلى آخر الدهر».

وهذه حقيقة فلقد فتحت مناطق كثيرة من قبل في إفريقية وعقدوا معاهدات مع أهلها، ولكن إذا رجع المسلمون عنها إلى ثغورهم نقضوا العهود، ومن هنا نشأت فكرة عقبة فخطط للقيروان مكانًا جيدًا من الناحية العسكرية، ولقد اختارها على الطريقة العربية تكون بعيدة عن البحر لتأمن تهديد الأساطيل، وقريبة من الصحراء لتصعب محاصرتهم.

وكان موقعًا كثير الأشجار مأوى للوحوش والحيات، فأمر بقطع ذلك وإحراقه فقال له أصحابه: «إنك أمرتنا بالبناء في شعار وغياض لا ترام، ونحن نخاف من السباع والحيات وغير ذلك من دواب الأرض» وكان في عسكره خمسة عشر رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ فدعا الله -عز وجل- بهم والناس تؤمن على دعائه، ثم نادى: «أيتها الحيات والسباع، نحن أصحاب رسول الله فارحلوا عنا فإنا نازلون ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه» فإذا بالسباع تخرج من الشعار تحمل أشبالها والذئب يحمل جروه، والحيات تحمل أولادها فنادى في الناس: «كفوا عنهم حتى يرتحلوا عنا»، فلما خرج ما فيها من الوحوش والهوام وهم ينظرون إليها نزل عقبة الوادي وأمرهم أن يقطعوا الشجر.

كان مع عقبة عشرة آلاف وانضم إليهم من أسلم من البربر، فكثر جمعه وأنجز بناء القيروان في خمس سنوات (سنة ٥٥ هـ) وبنى المسجد الجامع، وبنى الناس مساكنهم، فأصبحت المدينة معسكرًا للمسلمين وأهلهم، يأمنون من ثورة تكون من أهل البلاد وأصبحت القيروان قاعدة أمينة للمسلمين في إفريقية وعاصمة الإسلام في المغرب.

وفي سنة ٥٥ هـ عزل معاوية عقبة بن نافع، ليحل محله أبو المهاجر بن دينار

الذي سلك طريق دعوة البربر واستمالتهم ليضرب بهم العدو الأول وهو الروم، فضم إليه زعيم البربر واسمه كسيلة الذي اعتنق الإسلام واعتنقته قبيلته أوربة، ثم يزحف أبو المهاجر وكسيلة إلى تلمسان، ففتحها غير أن يزيد بن معاوية يقرر عودة عقبة بن نافع إلى ولاية إفريقية مرة ثانية سنة ٦٠هـ، فيسيء إلى أبي المهاجر بن دينار ويسجنه(١)، ويقبض على كسيلة ويهينه، ويفر كسيلة الذي سيكون عاملاً حاسمًا في القضاء على عقبة وجيشه فيما بعد، وينطلق عقبة فاتحًا قاهرًا للروم، ويرسل جيوشه هنا وهناك حتى يصل إلى المحيط الأطلسي ثم يقرر عقبة العودة إلى القيروان...

غير أنه افتقد الحيطة والحذر هذه المرة فقد كان عدده قليلاً...فيتصدى له الروم في جنوب تونس ويحصره كسيلة بجموع البربر من خلفه فتقع **معركة تاهودة** سنة ٦٣ هـ حيث يُقضي على عقبة وجيشه قضاءً تامًا وفي الجيش أبو المهاجر بن دينار. ثم زحف كسيلة إلى القيروان فانتزعها من المسلمين سنة ٦٤هـ، وولي بعد ذلك **زهير بن قيس البلوي** فظل مرابطًا في برقة مدة طويلة، وانتشرت الردة في البربر،حتى إذا استقل عبد الملك بن مروان بالخلافة وقضى على الفتن الداخلية فأنفذ الأمداد إلى إفريقية، فحارب زهير كسيلة وقضى عليه في **وقعة ممس** وأراد زهير أن يعود إلى المشرق، لكن نجدة رومية اعترضت سبيله وقضت عليه سنة ٧٨ هـ.

وتولي بعد زهير رجل عظيم الأثر في تاريخ المغرب وهو **حسان بن النعمان الغساني** ولاه عبد الملك بن مروان سنة ٧٨ حتى ٨٦ هـ.

(١) كان أبو المهاجر بن دينار يفضل أن يكسب البربر إليه كي لا يفتح عدة جبهات دفعة واحدة وليركز على القضاء على الروم نهائيًا ولكن عقبة كان عنيفًا يرى أنه ليس في حاجة لسلوك هذا المسلك فأهان كسيلة فاشتعلت حمية البربر فخسر عقبة بذلك كثيرًا...

استطاع حسان أن ينشر الإسلام ويضم إليه البربر البرانس مرة أخرى، ويزحف بهم على قرطاجنة فخربها حتى لا تكون مرفأ لسفن الروم، ولكن خطرًا جديدًا يواجه حسان من عدو صعب المراس يتمثل في زعيمة للبربر تدعى الكاهنة، وكانت امرأة لها قوة ونفوذ روحي كبير على البربر (البتر)، ولم يستطع حسان القضاء عليها بسهولة لولا أن القدر أوقع هذه الكاهنة في غبائها فهيأت لحسان النصر، ذلك أنها قالت لقومها: (إن العرب لا يريدون بلادنا، وإنما يريدون هذه المدن الغنية، فلو خربناها وقطعنا أشجار الكروم والزيتون لما كان لهم أرب ولا مقام عندنا)، فانطلقت القبائل الهمجية تحطم كل شيء وتخرب العمران وتقطع الأشجار، فهرع البربر البرانس إلى حسان يستعدونه عليها انتهازًا للفرصة، وبالفعل استطاع حسان أن يقضى على الكاهنة، وأنشأ حسان ميناء تونس على مقربة من قرطاجنة ليشرف منه على البحر، ويحول بين الروم والاقتراب، وبهذا نشأت تونس، ولم يغادر حسان بلاد المغرب إلا وقد تركها ولاية إسلامية هادئة، ثم تم عزله سنة ٨٦ هـ وعين مكانه موسى بن نصير.

أخضع موسى قبائل البربر التي شقت عصا الطاعة بعد مسير حسان بن النعمان إلى المشرق، وكذلك أخضع القبائل التي لم تكن قد خضعت بعد للمسلمين، فلم يزل يقاتل البربر ويفتح مدائنهم ومعه مولاه طارق بن زياد من البربر في المقدمة حتى بلغ مدينة طنجة، وهي قصبة بلادهم وأم مدائنهم، ففتحها واستعمل عليها طارق بن زياد، وترك تسعة عشر ألفًا من البربر بالأسلحة والعدة الكاملة، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم، وترك موسى عندهم بعض العرب ليعلموا البربر القرآن وفرائض الإسلام.

ولم يبق في إفريقية من ينازع المسلمين غير منطقة سبتة الحصينة، وسبتة هذه بلدة كان يحكمها من قِبَلْ القوط في أسبانيا جوليان ويسميه العرب (يوليان).

مقدمات فتح الأندلس

إسبانيا في ذلك الحين: كان ملك إسبانيا اسمه (غيطشه) وكان يوليان حليفًا له، خُلِع غيطشه من على العرش على إثر ثورة قام بها نفر من أنصار (لذريق) -أحد أفراد حاشية الملك- فأثار ذلك أنصار غيطشه وأبنائه، فهبوا ضد المغتصب...وبدأت حركة استقلاية في أطراف البلاد استمرت حتى دخول المسلمين أرض الأندلس.

فر ابن غيطشه (وقلة) الذي تولى العرش بعد أبيه إلى إفريقية وأقام عند يوليان حاكم سبتة الذي كان لا يزال على ولائه للملك (غيطشه) وأولاده.

ساءت حال البلاد في عهد لذريق، وأرهق شعبه بالضرائب الفادحة.

بعث يوليان رسالة إلى طارق بن زياد والي طنجة يعرض عليه فيها تسليم سبتة ويدعوه إلى فتح إسبانيا، وجرت بينهما مفاوضات حول هذا القرار الخطير.

اقتراح خطير لابد فيه من الرجوع إلى الخليفة

استجاب موسى لدعوة يوليان فكتب موسى إلى الوليد بن عبد الملك الخليفة يخبره بأمر هذا المشروع، فكتب إليه الوليد: (بأن يختبرها بالسرايا ولا يغرر بالمسلمين).

دورية استطلاعية: وفي رمضان سنة ٩١ هـ بعث موسى رجلاً من البربر يسمى طريف بن مالك المعافيري ويكنى بأبي زرعة في مائة فارس وأربعمائة راجل، فجاز في أربعة مراكب حتى نزل ساحل البحر بالأندلس فيما يحاذي (طنجة) وهو المعروف اليوم بـ (جزيرة طريف) سميت باسمه لنزوله هناك، فأغار منها على ما يليها إلى جهة (الجزيرة الخضراء) وأصاب مالاً وسبيًا كثيرًا ورجع سالمًا.

وفي رجب سنة ٩٢ هـ جهز موسى جيشًا من العرب والبربر يبلـغ عـددهم ٧٠٠٠ مقاتل بقيادة طارق بن زياد فعبر البحر من سبتة في سفن يوليـان، ونـزل بالبقعة الصخرية المقابلة التي لا تزال تحمل اسمه حتى اليوم (جبل طارق).

توالت انتصارات طارق ففتح مدينة قرطاجنة (مدينة بالأندلس)، ثم زحف غربًا واستولى على المدن المحيطة بقرطاجنة وأقام قاعدة حربيـة في موضـع يقابـل الجزيرة الخضراء.

زحف لذريق لصد المسلمين بعدد عظيم، فكتـب طـارق إلى موسـى بـأن لـذريق زحف إليه بما لا قبل له به، فأرسل موسى مددًا مـن (٥٠٠٠) علـى رأسـهم طريـف بن مالك وأغلبهم من الفرسان، وبهم كملت عدة طارق أثنى عشر ألفًا.

وقعة وادي لكة:

وفي يوم الأحد من ٢٨ رمضـان سـنة ٩٢ هــ التقـى الجيشـان علـى وادي (بَربَاط) أو (وادي لكة) قرب مدينة (شـذونة) واسـتمرت المعركـة ثمانيـة أيـام وانتهت بهزيمة القوط هزيمة ساحقة، وكانت هذه المعركة هـي المعركـة الحاسمـة التي فتحت أبواب الأندلس للمسلمين.

واستمر زحف طارق ففـتح المـدن مدينـة تلـو الأخـرى كمـا هـو موضـح بالخريطة حتى وصل طُليطلة فعبر طارق الوادي الكبير فدخل طليطلة سنة ٩٣هـ دون مقاومة تذكر... ولما وصل طليطلة بعث بأولاد (غيطشة) إلى مولاه موسـى وقد سألوه: أنت أمير نفسك أم على رأسك أمير؟

فقال طارق: بل على رأسي أمير، وفوق ذلك الأمير أمير عظيم.

وكانت أوامر موسى لطارق ألا يتجـاوز الحـد في التوغـل في بـلاد الأنـدلس خوفًا على الجند، ولكن يبدو أن سهولة الفتح أغرت طارقًا وأطمعتـه في دخـول

بلد تلو الأخر، حتى وجد نفسه محاصَرًا وقد قل عدد جنده بسبب ما يتركه من حاميات في كل بلد يفتحها.. فبعث برسالة إلى موسى: إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية، فالغوث... الغوث فقرر موسى أن يعبر بنفسه إلى الأندلس لنصرة طارق وكان ذلك في رمضان سنه ٩٣ هـ في جيش قوامه ١٨٠٠٠، فلما عبر انصرف إلى فتح كبار البلاد الجنوبية والغربية التي خلفها طارق دون فتح، وذلك لحماية جيش طارق من الناحية اليسرى، ولشغل قوات العدو فلما تم لموسى ما أراد سار إلى طارق ولم يزل طارق وموسى يفتحان بلاد الأندلس، وبعث موسى بأخبار الفتح إلى الوليد بن عبد الملك فلما وصل الكتاب إلى الوليد وقرأه خر ساجدًا.

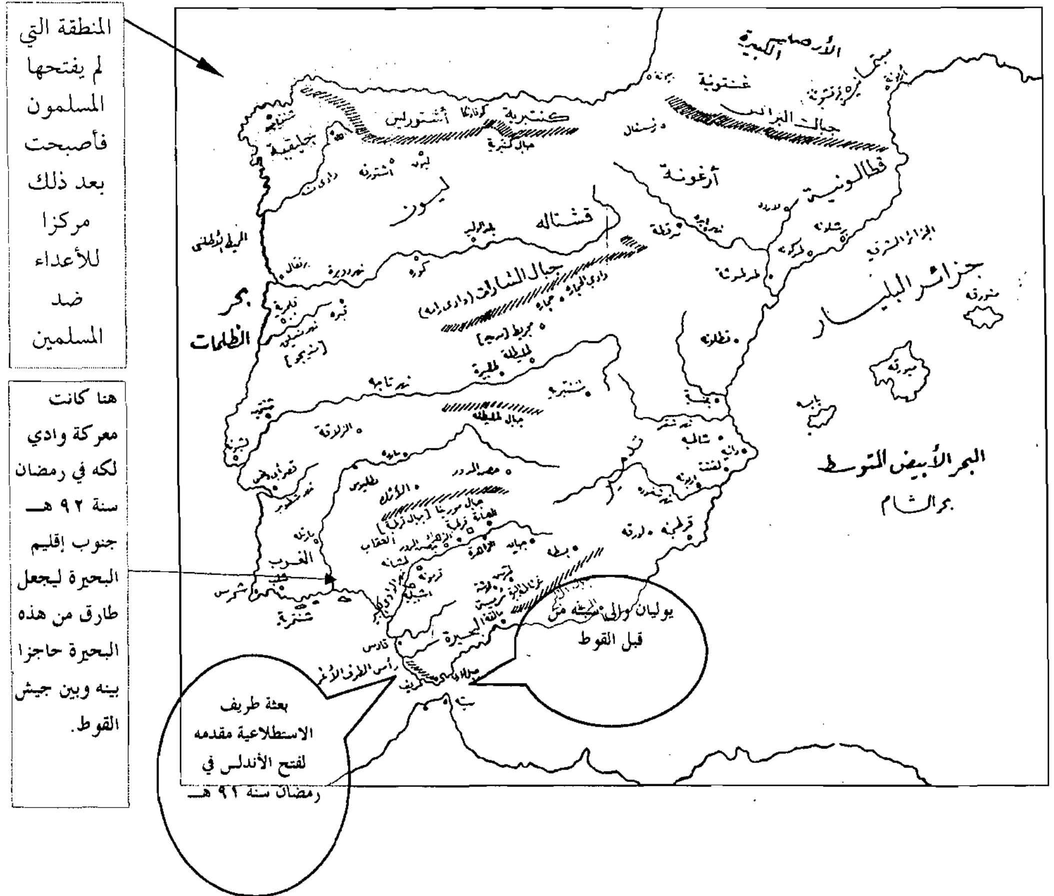
واتجه موسى بعدها نحو شمال الأندلس وأوغل في البلاد وطارق أمامه لا يمران بموضع إلا فتح الله عليهما، ولم يعارضهما أحد إلا بطلب صلح...حتى بلغوا سرقسطة التي رعب أسقفها بنسيو ومن معه من الرهبان، فجمعوا كتبهم المقدسة وذخائرهم الموروثة وقرروا الفرار بها، ولكن موسى أرسل إليهم رسولاً يؤمنهم ويعطيهم عهده، فعدلوا عن مغادرة المدينة..

ومازال موسى يتوغل حتى وصل إلى مناطق يسكنها قوم كالبهائم، ويتحدثون بلاتينية لا يفهمها الإسبان الآخرون الملازمون لموسى فاشتد ذلك على جند المسلمين فقالوا: أين تذهب بنا، حسبنا ما في أيدينا. ونصحه حنش بن عبد الله الصنعاني وهو تابعي جليل وقال له: إني سمعت من الناس ما لم تسمع وقد ملئوا أيديهم وأحبوا الدعة. فضحك موسى ثم قال: أرشدك الله وكثر في المسلمين أمثالك.

ثم انصرف قافلاً إلى الأندلس وهو يقول: أما والله لو انقادوا إلى لقدتهم إلى رومية ثم يفتحها الله على يدي إن شاء الله.

استطاع موسى أن يحفز جنده ثانية ويستعيد حماستهم للفتح وبينما كان يعد العدة لفتح جليقية إذ أتاه رسول الوليد بن عبد الملك يأمره بالخروج من

الأندلس، والكف عن التوسع في البلاد، وأن يشخص إلى دمشق، فساءه ذلك، وقطع به عن إرادته فلم يبق بلد في الأندلس لم يدخله إلى وقته غير جليقية لم تفتح ولاذ إليها من بقى من القوط....وهذه البقعة في الجهة الشمالية الغربية ستكون في المستقبل بؤرة حرب الاسترداد ضد المسلمين في الأندلس.



خريطة توضح مقدمة فتح الأندلس

فائـــدة: إن بنود الصلح الذي كان يعقده الفاتحون مع أمراء وملوك المدن الإسبانية لأكبر دليل على تسامحهم ورحمتهم... وتحفظ لنا المراجع صلحًا تم بين عبد العزيز بن موسى، وتدمير بن غبدوش جاء فيه حرفيًا

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز إلى تدمير

أنه نزل على الصلح ، وأنه له عهد الله وذمته أن لا ينزع عن ملكه ، ولا أحد من النصارى عن أملاكه ، وأنهم لا يقتلون ولا يسبون ، أولادهم ولا نساؤهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا تحترق كنائسهم ما تقيَّد (أي ما تقيد ببنود الصلح) وما نصح....

كتب في رجب سنة ٩٤ هـ

يقول صاحب قصة الحضارة (وول ديورانت): لم تشهد بلاد الأندلس في تاريخها كله أكثر حزمًا وعدالة وحرية مما شهدته في أيام فاتحيها العرب.

ويقول توماس أرنولد في كتابه (الدعوة إلى الإسلام):

وفي الحق أن سياسة التسامح الديني التي أظهرها هؤلاء الفاتحون نحو الديانة المسيحية، كان لها أكبر الأثر في تسهيل استيلائهم على هذه البلاد.

وصف حالة إسبانيا السياسية والاجتماعية قبل الفتح الإسلامي:

اجتاحت إسبانيا ثورات إثر ثورات...حتى استقر بها القوط الغربيون وأسسوا مملكتهم المشهورة في تاريخ أوربا...حتى قضى عليهم المسلمون سنة ٧١١ م – سنة ٩١ هـ وفي هذه الفترة كانت العلامات والأشراط التي تظهر في الدول عند قرب سقوطها واضحة في إسبانيا.

فالأسرة المالكة، كان تولى الحكم فيها انتخابيًّا محصورًا في أسرة معينة، وكان

النبلاء ورجال الكنيسة هم الطبقة التي تختار الملوك، ونظام كهذا لابد أن يحدث قلاقل وفتنًا وإضرابات ودسائس عند موت ملك وتولي أخر.

أما من الناحية الاجتماعية فقد كان المجتمع فاسدًا، يقوم على نظام الطبقات فانقسم أهل إسبانيا إلى:

١ – **طبقة النبلاء:** وهم سلالة القوط الفاتحين، التي استولت على أكثر الأرض الخصبة الزراعية مع إعفائها من الضرائب، وكانت لهم مناصب الجيش، والرياسة في الشئون الدينية.

٢ – **طبقة رجال الدين:** وهذه الطبقة بدورها كانت تمتلك قسطًا كبيرًا من الأراضي الزراعية معفى من الضرائب، وكانت تشارك النبلاء في حكم البلاد، ولم يكن الحكم إلا للبحث في وسائل جباية الأموال، وزيادة ثروة الحاكمين حتى أنه يقال: إن ثلثي الأراضي الزراعية كان ملكًا للنبلاء والكنيسة وكان معفى من الضرائب.

٣ – **طبقة التجار والزراع وصغار الملاك:** ويقع على عاتقهم عبء دفع الضرائب وإشباع نهمة الحاكمين.

٤ – **وهناك طبقة رابعة هي طبقة الأقنان:** أو عبيد الأرض، وهؤلاء كانوا يفلحون الأرض لكبار الملاك ويدخلون بأنفسهم وعائلاتهم في عداد ثروة المالك، ولم تكن لهم حقوق...وكانوا ينتقلون مع ملكية الأرض من سيد إلى آخر.

٥ – **وطبقة خامسة هم العبيد أسرى الحروب:** كان يتصرف فيهم بالبيع والشراء وليس لهم أي حقوق.

ومن ذلك نرى أن الطبقات العاملة في المجتمع كانت محرومة من الحقوق العامة وهذا من أفسد النظم، فليس عند هؤلاء المحرومين أية اعتبارات وطنية أو أية روح انتماء.

٦ – وكانت تسكن إسبانيا طبقة أخرى لعبت دورًا كبيرًا في حياة أسبانيا، وهي طبقة اليهود فقد تمكنوا كعادتهم من الاستحواذ على مرافق البلاد الاقتصادية، وأحس الحكام بوطأتهم فراحو ا يناصبونهم العداء وأرغموهم على ترك اليهودية إلى النصرانية.

موقعة بلاط الشهداء

لقد كانت خطة موسى بن نصير أن يعبر جبال البرانس (أو جبال البرينيه) ليصل بالإسلام إلى فرنسا (بلاد الغال) ثم الاتجاه شرقًا لفتح القسطنطينية عاصمة الروم، ولكن الخليفة الوليد بن عبد الملك خشي هذه المغامرة، وبفعل وشايات ودسائس من بعض كارهي موسى بن نصير وطارق بن زياد استدعاهما الخليفة وتوقف الزحف مدة من الزمان حتى كانت ولاية السمح بن مالك الخولاني سنة ١٠٠هـ، والذي اختاره عمر بن عبد العزيز لتقواه وخلقه، فعاد الحماس إلى الجند لمعاودة غزو فرنسا، فنقل السمح مركز الخلافة في الأندلس من أشبيلية إلى قرطبة (واستمرت قرطبة عاصمة الأندلس حتى نهاية الدولة الأموية في الأندلس).

سار السمح إلى أرض فرنسا وفتح إقليم سبتمانيا جنوب فرنسا واتخذ اربونة (إلى اليوم في المدينة شارع اسمه السمح) قاعدة لعملياته العسكرية في فرنسا، ثم اتجه غربًا حتى وصل طولوشى عاصمة اكويتانيا، التي قاومت حتى وصلتها الإمدادات ولكن السمح يستشهد في هذه المعركة سنة ١٠٢ هـ فارتد المسلمون عن طولوشية إلى الجنوب... وكان بعده قائدًا عبد الرحمن الغافقي، أحد جنود السمح في المعركة، وكانت هذه ولاية عبد الرحمن الأولى ولم تدم إلا شهورًا قليلة...ثم عين عامل أفريقية حينئذ يزيد بن أبي مسلم عنبسة بن سحيم الكلبي سنة ١٠٣ هـ أميرًا على الأندلس فقضى عنبسة أربع سنوات في تنظيم أمور الأندلس، وإنهاء الخلافات العصبية بين العرب والبربر، ثم واصل حروبه في

فرنسا وسار على الساحل حتى وصل نهر الرون وفتح مدن: فالنس، فيني، ليون، شالون، حيث سار قسم من الجيش شمالاً باتجاه ديجون، ولانجر، وقسم باتجاه أوتون ووصل مدينة سانس، كل ذلك ولم يتصد أحد للمسلمين إلا لطلب الأمان، إلا في مدينة سانس ونجح أهلها في وقف الزحف الإسلامي.

وأحس عنبسة أنه قد توغل أكثر مما ينبغي في ضواحي فرنسا، فخشي أن يقطع عليه خطوط الإمدادات، فقرر العودة، ولكن داهمته جموع كبيرة من الفرنجة سنة ١٠٧ هـ واستشهد في هذه المعركة فعادت بقية الجيش إلى أربونة.

خلف عذرة الفهري عنبسة في حكم الأندلس فعاود الكَرة مرة أخرى حتى وصل إلى حوض الرون حتى سنة ١١٠ هـ.

ثم كان من بعده عبد الرحمن الغافقي مرة ثانية فاستعد استعدادًا كبيرًا لغزو فرنسا، وفتح باب التطوع من أفريقيا والأندلس، فتجمع عليه جيش ضخم بلغ حوالي سبعين إلى مائة ألف، وبدأ تحركه بعبور جبال البرانس سنة ١١٤ هـ. من ممرات رونسفال واتجه شرقًا في جنوب فرنسا، ليضلل الفرنجة عن وجهته الحقيقية، فأخضع مدينة أرل التي خرجت على طاعة المسلمين، ثم اتجه إلى أقطانيا فانتصر المسلمون ومضى زحفه حتى وصل إلى مدينة بواتييه.

استصرخ قائد الفرنجة الدوق أودو، شارل مارتل، وكارلة صاحب الأمر والنهي في دولة الفرنجة، فلبى شارل النداء وكان قبلها لا يحفل بحركات المسلمين في جنوب فرنسا، بسبب الخلاف بينه وبين دوق أقطانيا الذي كان سببه طمع شارل بالدوقية، وبذلك توحدت قوى النصرانية في فرنسا في وجه المسلمين....

اجتمعت الفرنجة إلى شارل مارتل وقالت له: ما هذا الخزي الباقي في الأعقاب، كنا نسمع بالعرب ونخافهم من مطلع الشمس، حتى أتوا من مغربها

واستولوا على بلاد الأندلس، وعظيم ما فيها من العدد والعدة بجمعهم القليل، وكونهم لا دروع لهم. فأجابهم: الرأي عندي ألا تعترضوهم في خرجتهم هذه، فإنهم كالسيل يحمل ما يصادفه وهم في إقبال أمرهم، ولهم نيات تغني عن كثرة العدد، وقلوب تغني عن حصانة الدروع، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم، ويتخذوا المساكن، ويتنافسوا في الرئاسة، ويستعين بعضهم على بعض، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر منهم.

قال صاحب نفح الطيب: فكان والله ذلك، بالفتنة التي طرأت بين الشاميين والبلديين (العرب القدماء الذين جاءوا من الحجاز، وأسهموا في الفتح الأول، واستقروا في جنوب إسبانيا وعرفوا بذلك تمييزًا لهم عن الهجرات التي طرأت على الأندلس بعد ذلك) والبربر والعرب والمضرية، واليمنية، وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن جاورهم من الأعداء).

• كان معظم جيش عبد الرحمن من البربر، لأن كثيرين من عرب إفريقية والأندلس انشغل بالمنازعات العصبية فيما بينهم، والبعض انشغل بالزرع والفلاحة، ومعظم العرب الذين معه كانوا يمنيين لأنه كان يمنيًا..

• وإذا نظرنا إلى موازين القوى بين الفريقين لوجدنا أن موقف الفرنجة كان أفضل من الناحية المادية؛ فهم الأكثر عددًا، وهم الأخبر بمسالك وطرق فرنسا، وهم قريبون من مصدر التموين والإمداد، عكس المسلمين فهم قد بعدوا كثيراً عن مركز الدولة الأموية.

• دارت رحى المعركة قرب تور أواخر شعبان سنة ١١٤ هـ – سنة ٧٣٣م.

• وبعد ثمانية أيام من المواجهة دون قتال بدأ القتال، وتلاحم الفريقان في اليوم الأول وثبت كل فريق للآخر، وفي اليوم الثاني كذلك، ولكن بدأ يظهر تفوق المسلمين فلجأ الفرنجة إلى حيلة حيث اخترقت فرقة منهم صفوف

المسلمين في موضع، وأفضت إلى خلف الصفوف حيث كان المسلمون قد أودعوا غنائمهم، وكان شيئًا عظيمًا جدًا، فالتفت المسلمون إليهم يخافون على غنائمهم، واضطربت صفوفهم، وحاول عبد الرحمن أن يثبت جنده أو يصرفه عن الهلع على الغنائم فلم يوفق، وأصابه سهم فأودى بحياته..

● وصبر المسلمون حتى أقبل الليل، فانتهزوا فرصة الظلام وتسللوا متراجعين إلى الجنوب على عجل، وكان ذلك في أوائل رمضان سنة ١١٤ هـ.

● وحين أسفر الصباح لم يجد الفرنجة من المسلمين أحدًا فتقدموا على حذرٍ من مضارب المسلمين، فإذا هي خالية منهم وقد فاضت بالغنائم والأسلاب والخيرات، وظنوا أن في الأمر خدعة، وتريثوا قبل أن يجتاحوا المعسكر وينهبوا ما فيه، ولم يفكر أحد منهم في تتبع المسلمين، لأنهم خافوا أن يكون المسلمون قد نصبوا لهم بهذا الانسحاب شركًا...

● اندفع المسلمون في تراجعهم نحو الجنوب مسرعين واتجهت جموعهم نحو أربونة.

● يقول جيبون: لو انتصر العرب في تور - بواتييه لتلي القرآن وفسر في أكسفورد وكمبريدج

● أسرع والي أفريقية حينئذ عبيدة بن عبد الرحمن وأرسل مددًا بقيادة عبد الملك بن قطن الفهري؛ خلفًا لعبد الرحمن الغافقي، ثم بعث بخبر الفجيعة إلى الخليفة هشام بن عبد الملك فأمره بغزو فرنسا وأخذها بالسيوف من كل جانب.

● توجه عبد الملك بن قطن الفهري أول الأمر إلى نواحي شمال الأندلس فحصَّن المعاقل التي ما زالت بأيدي المسلمين، وكانت سبتمانية في ذلك الوقت في فوضى واضطراب بعد أن تلاشى أمر الدوق أودو، فتنازعها الناس، مما دعا

بعض الفرنجة ومنهم موورون دوق مارسيليا أن يتحالف مع يوسف بن عبد الرحمن الفهري والي أربونة ضد شارل مارتل. وزحفا وعبرا نهر الرون واستوليا على آرل، وواصلوا الزحف حتى استولوا على مدينة بروفانس.وظلوا يتحكمون فيها أربع سنوات لا ينازعهم فيها أحد...

- عزل الخليفة عبد الملك بن قطن الفهري وولى مكانه عقبة بن الحجاج السلولي الذي كان صاحب بأس ونجدة ونكاية للعدو سنة ١١٦ هـ.

- ومن فضائله: أن الرجل كان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يدعوه إلى الإسلام ويبين له فضائله، فأسلم على يديه ألف رجل.

واستعان بالقائد السابق المعزول عبد الملك بن قطن الفهري في قيادة الخيالة. وجال عقبة السلولي في شرق فرنسا، ولكنها ظلت محاولات تتقدم ثم تتأخر حتى استشهد سنة ١٢٣ هـ.

***

الفتوحات من ناحية الشرق
بلاد ما وراء النهر وبلاد الترك

أول غزو الترك سنة ٢٢ هـ

كتب عمر بن الخطاب إلى عبد الرحمن بن ربيعة يأمره بغزو الترك.

فسار حتى قطع مدينة الباب قاصدًا بلاد الترك... فقال له شهربراز ملك الباب وكان قد وادع المسلمين: أين تريد؟ قال: أريد ملك الترك بُلَنجر. فقال له: إنا لنرضى منهم بالموادعة ونحن من وراء الباب... فقال عبد الرحمن: إن الله بعث إلينا رسولاً، ووعدنا على لسانه بالنصر والظفر، ونحن لا نزال منصورين.

فقاتل عبد الرحمن الترك، وسار في بلاد بلنجر مائتي فرسخ...ثم غزا بعدها مرات عديدة في أيام عثمان.

والعجيب أن الله قذف الرعب في قلوب الترك من المسلمين وكانوا يقولون: ما اجترأ علينا هذا الرجل إلا ومعه الملائكة تمنعه الموت!!

وظلوا يعتقدون أن المسلمين لا يموتون، حتى كان سهم طائش قُتل به مسلم فعلموا حينئذ أن المسلمين يموتون فاجترءوا عليهم...

فلما عاد عبد الرحمن بن ربيعة لغزوهم ثبتوا... وقتل عبد الرحمن بن ربيعة - وكان يقال له ذو النون- وهو يغزو الترك وانهزم يومها المسلمون... وأخذت الترك جسد عبد الرحمن فدفنوه في بلادهم وجعلوا يستسقون عنده زمنًا طويلاً...

ثم هدأت محاولات غزو الترك وحتى سنة ٧٩ هـ.

غزا عبيد الله بن أبي بكرة رتبيل ملك الترك الأعظم، وقد كان يصانع المسلمين تارة ويتمرد تارة فكتب الحجاج إلى ابن أبي بكرة يأمره بقتاله...

ومازال ابن أبي بكرة يتقدم منتصرًا عليه مستحوذًا على كثير من المدن والأمصار ورتبيل يتراجع والترك تخاف المسلمين، حتى وصلوا إلى مدينتهم العظمى على مسافة ثمانية عشر فرسخًا، عندئذ أخذت عليهم الترك الطرق والشعاب وضيقوا المسالك حتى ظن المسلمون أنهم هالكون لا محالة وأراد ابن أبي بكرة المصالحة، ولكن شريح بن هانئ وكان صحابيًا ندب الناس إلى القتال والمصابرة، فنهاه ابن أبي بكرة فلم ينته، وأجابه شرذمة من الشجعان فما زال يقاتل الترك حتى فني أكثر المسلمين، وقتل شريح وقتل معه ثلاثون ألفًا من المسلمين، وقد قتلوا من الترك أضعافهم ثم خرج من خرج من الناس، صحبة عبيد الله بن أبي بكرة من أرض رتبيل وهم قليل، وبلغ ذلك الحجاج فكتب إلى الخليفة عبد الملك يعلمه بذلك، ويستشيره في بعث جيش كثيف إلى بلاد رتبيل لينتقموا منه فوافق عبد الملك، وكان عبد الله بن أبي بكرة قد توفى في نفس العام سنة ٨٠ هـ فجهز الحجاج جيشًا قوامه أربعون ألفًا بقيادة **عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث** مع أن الحجاج كان يبغضه جدًا ولكنه يراه كفئًا.

ولما علم رتبيل بمسير المسلمين إليه بعث إلى ابن الأشعث يعتذر إليه عما حدث لجيش ابن أبي بكرة فلم يقبل اعتذاره وأصر على قتاله...

واستطاع ابن الأشعث أن يستولي على أمصار كثيرة وكان يستعمل على كل مصر نائبًا من جهته يحفظها وغنم أموالاً كثيرة وسبى خلقًا كثيرًا، ثم منع الناس من التوغل في بلاد رتبيل حتى يصلحوا ما بأيديهم من البلاد، وأرجأ مواصلة الزحف إلى العام المقبل وكتب إلى الحجاج بذلك... فلم يعجب ذلك الحجاج ووصمه بالجبن والنكول عن الحرب... وأرسل له بريدًا ثانيًا ثم ثالثًا فيه كلمات لاذعة... فغضب ابن الأشعث... وهو يعلم أن الحجاج يبغضه ويتمنى الخلاص منه فقام في الناس خطيبًا إن مثل الحجاج ومثلنا كما قال الأول لأخيه:

احمل عبدك على الفرس فإن هلك هلك، وان نجا فلك..أنتم إذا ظفرتم كان ذلك زيادة في سلطانه وان هلكتم كنتم الأعداء البغضاء، ثم قال: اخلعوا الحجاج عدو الله -ولم يذكر خلع عبد الملك- وبايعوا لأميركم عبد الرحمن بن الأشعث وإني أشهدكم أني أول خالع للحجاج... فصاح الناس: خلعنا الحجاج عدو الله... وصالح ابن الشعث رتبيل على أنه إن ظفروا بالحجاج فلا خراج على رتبيل أبدًا وتوجهوا لمحاربة الحجاج...

وتوقف الفتح في هذه الناحية وكانت ثورة ابن الأشعث.

ثم كان قتيبة بن مسلم الباهلي وكان يقود الفتح من ناحية الشرق بلاد ما وراء النهر.

وفي سنة ٨٧هـ غزا قتيبة بيكند وهي من أعمال بخارى، وواجهه جمع عظيم من جند العدو وحاصروا قتيبة شهرين، وأخذوا عليه الطرق والمضايق وأبطأ خبره على الحجاج حتى خاف عليه، وأشفق على من معه من المسلمين من كثرة الأعداء من الترك، فأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد وكتب بذلك إلى الأمصار، وقد كان قتيبة ومن معه من المسلمين يقتتلون مع الترك في كل يوم، وكان لقتيبة عين من العجم اسمه (تندر) فأعطاه أهل بخاري مالاً جزيلاً على أن يأتي قتيبة فيخذله عنهم، فجاء تندر إلى قتيبة فقال له: أخلني، فأخلاه فلم يبق عنده سوى رجل يقال له ضرار بن حصين، فقال له تندر: هذا عامل يقدم عليك سريعًا بعزل الحجاج، فلو انصرفت بالناس إلى مرو، فقال قتيبة لمولاه: اضرب عنقه، فقتله، ثم قال لضرار: لم يبق أحد سمع هذا غيري وغيرك وإني أعطي الله عهدًا إن ظهر هذا حتى ينقضي حربنا ألحقتك به، فأملك عليك لسانك، فان انتشار هذا في مثل هذا الحال ضعف في أعضاء الناس ونصرة للأعداء، ثم نهض قتيبة فحرض الناس على الحرب، فاقتتل الناس قتالاً شديدًا

وهُزِمت الترك هزيمة عظيمة، فسألوا قتيبة الصلح فصالحهم على مال عظيم، وجعل عليهم رجلاً من المسلمين وعنده طائفة من الجيش فلما انصرف على خمس مراحل نقضوا العهد وقتلوا الأمير وجدعوا أنوف من كان معه، فعاد قتيبة ثانية، وحاصرهم شهرًا... فسألوه الصلح فأبى، ولم يزل حتى افتتحها فقتل المقاتلة وسبى الذرية وغنم الأموال، وكان الذي حّرض الترك على نقض العهد مع المسلمين رجل أعور منهم، فأُسِر فقال لقتيبة: أنا أفتدي نفسي بخمسة أثواب صينية قيمتها ألف ألف، فأشار الأمراء على قتيبة بقبول ذلك، فقال قتيبة:

«لا والله لا أروع بك مسلمًا مرة ثانية» وأمر به فضربت عنقه، وهذا من الزهد في الدنيا، فإن المسلمين قد غنموا من بيكند شيئًا كثيرًا من آنية الذهب والفضة، والأصنام من الذهب، وكان من جملتها صنم سبك فخرج منه مائة ألف وخمسون ألف دينار من الذهب، ووجدوا في خزائن الملوك أموالاً كثيرة وسلاحًا كثيرًا وأخذوا من السبي شيئًا كثيرًا، فكتب قتيبة إلى الحجاج يسأله أن يعطي ذلك للجند، فأذن له فتمول المسلمون وتقووا على قتال الأعداء وصار لكل واحد منهم سلاح ومال كثير فقووا بذلك قوة عظيمة ولله الحمد والمنة.

وفي سنة ٨٩ هـ وقف قتيبة على حدود بخاري يقاتل أهلها قتالاً شديدًا، ولم يستطع قتيبة أن يدخلها، فرجع إلى مرو، فجاءه البريد بكتاب الحجاج يعنفه على الفرار والنكول عن أعداء الإسلام، وكتب إليه أن يبعث بصورة هذا البلد، يعني بخاري، فبعث إليه بصورتها فكتب إليه أن ارجع إليها وتب إلى الله من ذنبك وائتها من مكان كذا وكذا وإياك والغدر...

فتح بخاري:

وفي سنة ٩٠ هـ فتح قتيبة مدينة بخاري وهزم جموع العدو من الترك بها وصالح من حولها على مال يدفعونه... ولكن القوم خانوا عهودهم وحرض

صاحب بخاري -وكان اسمه وردان- ملوك المدن حولها على نقض العهد مع قتيبة ومقاتلته قائلاً لهم: إن العرب بمنزلة اللصوص، فان أُعطُوا شيئًا ذهبوا، وإن قتيبة هكذا يقصد الملوك، فان أعطوه شيئًا أخذه ورجع عنهم، وإن قتيبة ليس بملك ولا يطلب ملكًا.

فاجتمعت هذه الملوك اجتماعًا هائلاً، لم يجتمعوا مثلة في موقف،.فكسرهم قتيبة وقتل منهم أممًا كثيرة، ورد الأمور إلى ما كانت عليه... ثم لا يزال يتبع نيزك خان ملك الترك الأعظم من إقليم لإقليم حتى حاصروه في قلعة لمدة شهرين حتى أشرف على الهلاك، ثم قتله قتيبة ومن معه بعد مشورة أصحابه.

وتوالت بعد ذلك فتوح المدن على يد قتيبة حتى وصل إلى سجستان يريد رتبيل ملك الترك الأعظم، فلما انتهى إلى أول مملكة رتبيل تلقته رسله يريدون منه الصلح على أموال عظيمة فصالحه.

فتح سمرقند

وفي سنة ٩٣ هـ فتح قتيبة سمرقند، ودار قتال عنيف فصالحه أهلها وبنى بها قتيبة مسجدًا فصلى وخطب... ثم أتى بأصنام القوم وألقيت فوق بعضها حتى صارت كالقصر العظيم، ثم أمر بتمزيقها، فتصارخوا وتباكوا وقال المجوس: إن فيها أصنامًا قديمة من أحرقها هلك، وجاء الملك غورك فنهى عن ذلك وقال لقتيبة: إني لك ناصح، فقام قتيبة وأخذ في يده شعلة نار وقال: أنا أحرقها بيدي فكيدوني جميعًا ثم لا تنظرون، ثم قام إليها وهو يكبر الله عز وجل وألقى فيها النار فاحترقت.

أرض الصين

وفي سنة ٩٦ هـ فتح قتيبة بن مسلم كاشغر من أرض الصين وبعث إلى ملك الصين رسلاً يتهدده ويتوعده... إما أن يدفع الجزية أو يدخل في الإسلام...

فكان مما دار بين هؤلاء الرسل وملك الصين:

قال ملك الصين للرسل: (قد رأيتم عظم ملكي، وليس أحد يمنعكم مني، وأنتم بمنزلة البيضة في كفي... فانصرفوا إلى صاحبكم -يعني قتيبة- وقولوا له ينصرف راجعًا عن بلادي، فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت إليكم من يهلككم عن آخركم.

فقال له الرسول: تقول لقتيبة هذا؟!! فكيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟ وكيف يكون حريصًا من خلّف الدنيا قادرًا عليها، وغزاك في بلادك؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإنا نعلم أن لنا أجلاً إذا حضر فأكرمها عند القتل، فلسنا نخافه ولا نكرهه.

فقال الملك: فما الذي يرضي صاحبكم؟

فقال: قد حلف أنه لا ينصرف حتى يطأ أرضك ويختم ملوكك ويجبي الجزية من بلادك.

فقال الملك: أنا أبر يمينه وأخرجه منها، أرسل إليه بتراب من أرضي، وأربع غلمان من أبناء الملوك، وأرسل إليه ذهبًا كثيرًا وحريرًا وثيابًا لا تقوم ولا يدري قدرها...

وقد كان... فقبل ذلك قتيبة، فقد بلغه موت الوليد بن عبد الملك فانكسرت همته لذلك.

في عام ١١٠ هـ: فيها قاتل مسلمة بن عبد الملك ملك الترك الأعظم خاقان، فزحف إلى مسلمة في جموع عظيمة فتواقعوا نحوًا من شهر... ثم هزم الله خاقان زمن الشتاء، ورجع مسلمة سالمًا غانمًا، فسلك على مسلك ذي القرنين في رجوعه إلى الشام، وتسمى هذه الغزاة غزاة الطين، وذلك أنهم سلكوا على مغارق ومواضع غرق فيها دواب كثيرة، وتوحل فيها خلق كثيرون، فما نجوا حتى قاسوا شدائد وأهوالاً صعابًا وشدائد عظامًا.

وفي جولة أخرى سنة ١١٢ هـ :يقول ابن كثير: وحملت الترك على ميمنة المسلمين وفيها بنو تميم والأزد، فقتل منهم ومن غيرهم خلق كثير ممن أراد الله كرامته بالشهادة، وقد برز أحد شجعان المسلمين لجماعة من شجعان الترك فقتلهم، فناداه منادي خاقان: إن صرت إلينا جعلناك ممن يرقص الصنم الأعظم فنعبدك، فقال: ويحكم، إنما أقاتلكم على أن لا تعبدوا إلا الله وحده لا شريك له، ثم قاتلهم حتى قتل رحمه الله.

ثم تنافى المسلمون وتداعت الأبطال والشجعان من كل مكان، وصبروا وصابروا، وحملوا على الترك حملة رجل واحد، فهزمهم الله عز وجل، وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، ثم عطفت الترك عليهم فقتلوا من المسلمين خلقًا حتى لم يبق سوى ألفين، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وأُسر عدد كبير من المسلمين فحملوهم إلى الملك خاقان فأمر بقتلهم عن آخرهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وهذه الوقعة يقال لها وقعة الشعب.

وفي سنة ١١٩ هـ قتل أسد بن عبد الله القسري ملك الترك الأعظم خاقان، وذلك أن خاقان أعد جيشًا عظيمًا للقضاء على المسلمين، وأشاع خاقان أن أسد قد قتل ليحصل بذلك على خذلان لأصحابه... فرد الله كيدهم في نحورهم، وجعل تدميرهم في تدبيرهم، وذلك لأن المسلمين لما سمعوا ذلك أخذتهم حمية الإسلام وازدادوا حنقًا على عدوهم، وعزموا على الأخذ بالثأر، فقصدوا الموضع الذي فيه أسد، فإذا هو حي... فسار أسد نحو خاقان حتى أتى جبل الملح، وأراد أن يخوض نهر بلخ، وكان معهم أغنام كثيرة، فكره أسد أن يتركها وراء ظهره، فأمر كل فارس أن يحمل بين يديه شاة، وعلى عنقه شاة، وتوعد من لم يفعل ذلك بقطع اليد، وحمل هو معه شاة وخاضوا النهر...

فما خلصوا منه جيدًا حتى دهمهم خاقان من ورائهم فقتلوا من وجدوه لم

يقطع النهر... وتابعوا المسلمين فعبروا النهر إلى المسلمين..فثبت المسلمون وكانوا قد خندقوا حولهم خندقًا لا يخلصون إليهم منه، فبات الجيشان تتراءى ناراهما..فلما أصبح الجيشان مال خاقان على بعض جيش المسلمين، فقتل منهم خلقًا، وأسر أممًا وإبلاً موقرة.

ثم استمر زحف أسد بمن معه حتى نزل مرج بلخ، حتى انقضى الشتاء، فلما كان يوم عيد الأضحى، خطب أسد الناس واستشارهم في الذهاب إلى مرو أو في لقاء خاقان، أو في التحصن في بلخ... فأشار الناس بملاقاة الخاقان، فصلى أسد بالناس ركعتين أطال فيهما، ثم دعا بدعاء طويل، ثم انصرف وهو يقول: نصرتم إن شاء الله، وانتصر المسلمون وقتل خاقان.

ولم تأت سنة ١٢٣ هـ إلا وقد تفرق شمل الأتراك، وجعل بعضهم يغير على بعض، حتى كادت أن تخرب بلادهم، وانشغلوا عن المسلمين.

أولى محاولات فتح الهند

وأما من ناحية بلاد الهند

في سنة ٩٣ افتتح محمد بن القاسم (ابن عم الحجاج) مدينة الدبيل وغيرها من بلاد الهند، وكان قد ولاه الحجاج غزو الهند وعمره سبع عشرة سنة، فسار في الجيوش فلقوا الملك داهر - وهو ملك الهند - في جمع عظيم ومعه سبعة وعشرون فيلاً، فاقتتلوا فهزمهم الله وهرب الملك داهر، فلما كان الليل أقبل الملك ومعه خلق كثير جدًا فاقتتلوا قتالاً شديدًا فقتل الملك داهر وغالب من معه، وتبع المسلمون من انهزم من الهنود فقتلوه ثم سار محمد بن القاسم فافتتح مدينة الكبرج وغنم أموالاً لا تحصى...

وبعد... فإليك وصف ابن كثير لحال الفتوحات في عهد بني أمية:

كانت سوق الجهاد قائمة في بني أمية ليس لهم شغل إلا ذلك قد علت كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وبرها وبحرها، وقد أذلوا الكفر وأهله، وامتلأت قلوب المشركين من المسلمين رعبًا، لا يتوجه المسلمون إلى قطر إلا أخذوه، وكان في عساكرهم وجيوشهم في الغزو الصالحون الأولياء والعلماء وكبار التابعين، في كل جيش منهم شرذمة عظيمة ينصر الله بهم دينه، فقتيبة بن مسلم يفتح في بلاد الترك، يقتل ويسبي ويغنم، حتى وصل إلى تخوم الصين، وأرسل إلى ملكه يدعوه، فخاف منه وأرسل له هدايا وتحفًا وأموالاً كثيرة هدية، وبعث يستعطفه مع قوته وكثرة جنده، بحيث أن ملوك تلك النواحي كلها تؤدي إليه الخراج خوفًا منه، ولو عاش الحجاج لما أقلع عن بلاد الصين، ولم يبق إلا أن يلتقي بملكها، فلما مات الحجاج رجع الجيش، ثم أن قتيبة بعد ذلك، قتله بعض المسلمين، ومسلمة بن عبد الملك بن مروان وابن أمير المؤمنين الوليد وأخوه الآخر يفتحون في بلاد الروم ويجاهدون بعساكر الشام حتى وصلوا إلى القسطنطينية وبنى بها مسلمة جامعًا يعبد الله فيه، وامتلأت قلوب الفرنجة منهم رعبًا.

ومحمد بن القاسم ابن أخي الحجاج يجاهد في بلاد الهند ويفتح مدنها في طائفة من جيش العراق وغيرهم، وموسى بن نصير يجاهد في بلاد المغرب ويفتح مدنها وأقاليمها في جيوش الديار المصرية وغيرهم

وكل هذه النواحي إنما دخل أهلها في الإسلام وتركوا عبادة الأوثان..

الباب الرابع

الخلافــــة العباســـية

الفصل الأول: خلفاء بني العباس.

الفصل الثاني: الدول التي استقلت عن الخلافة العباسية.

الفصل الثالث: الدولة الأندلسية.

الفصل الرابع: الدولة الفاطمية.

الفصل الخامس: الحروب الصليبية وجهاد آل زنكي وصلاح الدين الأيوبي ضدها.

الفصل السادس: دولة المماليك.

الفصل الأول

خلفاء بني العباس

لقد مرت هذه الخلافة بأدوار:

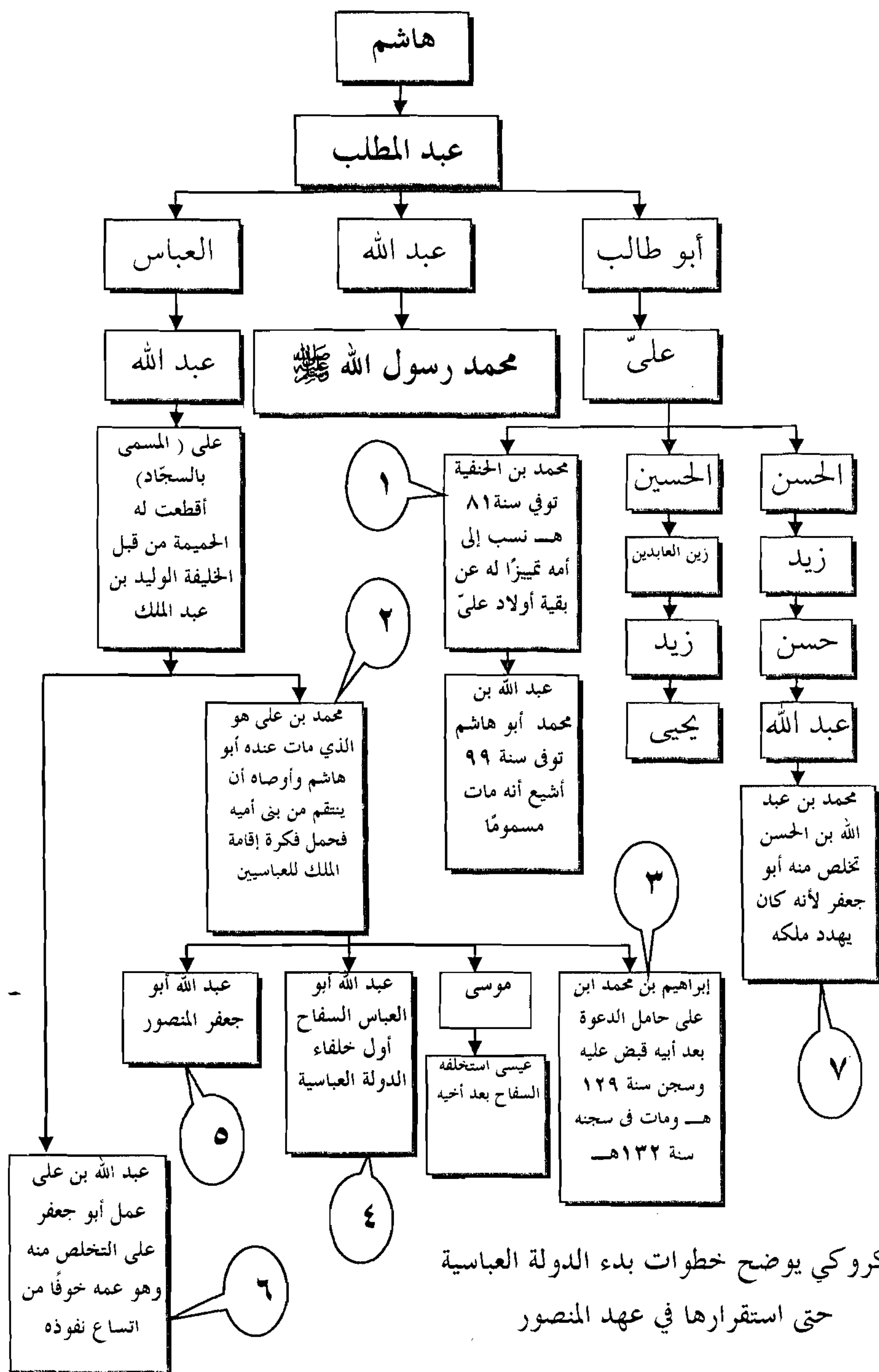
الدور الأول: خلفاء عصر القوة.

الدور الثاني: خلفاء عصر سيطرة العسكر الأتراك.

الدور الثالث: خلفاء عصر سيطرة البويهيين الشيعة.

الدور الرابع: خلفاء عصر سيطرة السلاجقة الأتراك.

الدور الخامس: سقوط بغداد ودخول التتار وانتقال الخلافة العباسية إلى مصر.



كروكي يوضح خطوات بدء الدولة العباسية حتى استقرارها في عهد المنصور

كيف بدأت الدعوة العباسية

الحميمة...

كان بنو أمية يجلون آل البيت ولكن تجاوزات بعض الولاة أساءت في بعض الأحيان إليهم.

كان الوليد بن عبد الملك الخليفة يومئذ قد أقطع الحُميمة (بلدة في الأردن) لعلي بن عبد الله بن عباس فأقام واستقر بها.

بداية الحركة إشاعة...

بعد زيارة قام بها عبد الله بن محمد (أبو هاشم) إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك، الذي رحب به وأكرمه، شعر أبو هاشم بالمرض وأحس بدنو أجله، وأشاع الناس أن سليمان قد سمّه فعرج أبو هاشم على (الحميمة) ونقل ذلك إلى ابن عمه محمد بن على بن عبد الله بن عباس، وطلب منه أن يقتص من بنى أمية وذلك عام ٩٩هـ.

لقي كلام أبو هاشم لابن عمه محمد موقعًا من نفسه، وكان رجلاً طموحًا وكان له أكثر من عشرين أخًا يدعمونه بالإضافة إلى أبنائه، فحمل محمد بن على الفكرة وهى: إزالة ملك بنى أمية، وبدأ يعمل على تنفيذها.

اختيار المكان

اختار الكوفة وخراسان نقطتي انطلاق للدعوة وهو اختيار دقيق لأسباب منها:

١-أكثر الناقمين على بني أمية من الكوفة.

٢-أن خراسان تقع في مشرق الدولة وإذا اضطرت الظروف يمكن أن يفر إلى بلاد الترك المجاورة.

٣ - وفي خراسان صراعات عصبية بين العرب (القيسية واليمانية) يمكن الاستفادة من هذا الصراع لصالحه.

٤ - وخراسان دولة حديثة عهد بالإسلام فيمكن التأثير في نفوس أهلها من منطلق العاطفة والحب لآل البيت.

٥ - اختار الكوفة مركزًا للدعوة ويقيم فيها ما يسمى (**بكبير الدعاة أو داعي الدعاة**) وتكون خراسان هي مجال انتشار الدعوة.

عمد كذلك إلى السرية التامة وكان حريصًا عليها، تنتقل المعلومات من خراسان إلى الكوفة إلى الحميمة، ويتحرك الدعاة على شكل تجار أو حجاج.

أول كبير للدعاة في خراسان هو أبو عكرمة السراج (أبو محمد الصادق) الذي اختار اثني عشر نقيبًا كلهم من قبائل عربية.. وهذا يرد على الادعاء بأن الدولة العباسية قامت على أكتاف الفرس.... فكان كبير الدعاة يختار اثني عشر نقيبًا يأتمرون بأمره ولا يعرفون الإمام ولكل نقيب سبعون عاملاً.

بدأت الدعوة تؤتي ثمارها في خراسان، وبدأ يظهر رجالها، مما جعل والي خراسان يومئذ وهو أسد بن عبد الله القسري يقبض على أبي عكرمة السراج وعدد من أصحابه فيقتلهم سنة ١٠٧ هـ.

وحتى سنة ١١٨ هـ استطاع أسد بن عبد الله (كان قد عزل ثم أعيد) بخبرته أن يكشف بعض قادة التنظيم العباسي واشتد عليهم فلجأت الدعوة العباسية إلى السرية التامة من جديد.

أثر عدم التدقيق في اختيار من يمثل الدعوة

ولأن رجال الدعوة قد عرفوا هناك كان لابد من تغيير، فتم اختيار عمار بن يزيد (خداش) داعية جديدًا في خراسان، ولكن لم يكن اختيارًا موفقًا إذ أظهر بعد ذلك الكفر وانكشف أمره، وقتل على يد أسد بن عبد الله أيضًا سنة ١١٨هـ.

الدعوة العباسية في مأزق:

شوهت أفعال خداش صورة الدعوة العباسية في أذهان الناس، ولم يثقوا في الداعية الجديد - بالإضافة إلى شدة أسد بن عبد الله عليهم..

وحتى سنة ١٢٢ هـ كانت الدعوة تسير ببطء فلقد ظهر عائق جديد وهو ثورة زيد بن على بن زين العابدين بالكوفة.. وكان لابد أثناءها وبعدها من الهدوء ليعود الجو إلى حالته الطبيعية.

وفى سنة ١٢٥ هـ توفى محمد بن على وأوصى من بعده لابنه إبراهيم ليقوم بمتابعة أمور الدعوة.

وجاء الفرج في سنة ١٢٥ هـ بعد وفاة هشام بن عبد الملك وانشغال الدولة الأموية بصراعاتها الداخلية.. بالإضافة إلى أن الدعوة العباسية بتوجيه من إمامها قررت استغلال الصراع القبلي القائم بخراسان، وذلك لأن والي خراسان يومئذ كان (نصر بن سيار) مضريًا وأكثرية العرب هناك من اليمانية فكرهوه فاتجهت الدعوة العباسية إلى اليمانية، وأثر هذا الصراع القبلي على أحوال الناس ومصالحهم بكافة فصائلهم (اليمانيون، المضريون، أهل العلم، الفرس، الترك) كل هذه الأحداث ساعدت الدعوة العباسية على الانتشاط من جديد...

وفي سنة ١٢٨ هـ ظهرت شخصية قوية هو أبو مسلم الخراساني (فارسي الأصل) أحد دعاة بني العباس منذ سنوات، لمح فيه إبراهيم بن محمد الذكاء والكفاءة فقرر أن يرسله إلى خراسان حيث أمر الدعوة في نمو مطرد..

وفي سنة ١٢٩ هـ جاءت إلى أبي مسلم رسالة من الإمام تأمره بالظهور بالدعوة، ففعل، ووالي خراسان يومها مشغول بصراعات الدولة الداخلية، ولما كان يوم عيد الفطر صلى أبو مسلم بالناس..

أول اشتباك مسلح بين بني أمية وبني العباس:

وقع أول اشتباك بين قوة بني أمية وقوة بني العباس في خراسان، وانتصر فيها أبو مسلم على قوات نصر بن سيار، وكثر أتباع أبي مسلم فقد احتال حيلاً لطيفة في السيطرة على الأمر فكان يرسل إلى اليمانية يستميلهم ويكتب إلى المضرية يستميلهم بقوله (إن الإمام أوصاني بك خيرًا، ولست أعدو رأيه فيك).

توترت الأحداث، وبعث مروان بن محمد في طلب إبراهيم بن محمد الإمام المقيم بالحميمة فقيدوه وأرسلوه إلى الخليفة بدمشق فسجن..

وفي سنة ١٣١ هـ ازداد تمكن أبي مسلم من الأمر وفر نصر بن سيار وتوفى فدانت خراسان كلها لأبي مسلم..

وفي سنة ١٣٢ هـ انتصرت قوات أبي مسلم على قوات العراق ثم توجه إلى الكوفة والتي كان قد خرج بها محمد بن خالد بن عبد الله القسري داعيًا لبني العباس..

وفي سنة ١٣٢هـ مات إبراهيم بن محمد في سجن مروان بن محمد، وأوصى بالخلافة بعده لأخيه عبد الله بن محمد (السفاح) وبالفعل اختير السفاح أول خليفة لبني العباس في ربيع الآخر سنة ١٣٢ هـ ...

وفي ١١ من جمادى الآخرة أرسل السفاح الجيوش لمنازلة الأمويين فسحقهم واستتب الوضع لبني العباس عدا الأندلس..

* * *

خلافة عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس

(من ربيع الآخر ١٣٢ هـ حتى ذي الحجة ١٣٦ هـ)

أول خلفاء بني العباس

ولد السفاح بالحميمة ونشأ بها ثم لما أخذ مروان أخاه إبراهيم انتقل أهله إلى الكوفة فانتقل معهم... ويقال له أيضًا: المرتضى والقاسم.. آلت إليه الخلافة كما رأينا واستقر بالكوفة.. بيد أنه واجه محاولات عديدة للخروج عليه ولكنه استطاع أن يقضي عليها جميعًا مستعينًا بأبي مسلم الخراساني وفئة من أهله وعشيرته وكانوا كثرة وكان شديد البطش والتنكيل بخصومه فكان جل اعتماده على:

١ ـ أبو مسلم الخراساني بالمشرق.

٢ ـ أخوه أبو جعفر المنصور بالجزيرة وأرمينية والعراق.

٣ ـ عمه عبد الله بن على بالشام ومصر.

وكان معظم ولاة السفاح من أعمامه وبنى أعمامه.. وعهد السفاح من بعده إلى أخيه أبي جعفر المنصور ومن بعده إلى ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد ابن على. ولم تطل أيامه فقد أصيب بالجدري فمات ولم تستقر له الأمور بصورة تامة...

خلافة أبي جعفر عبد الله بن محمد بن على

(من ذي الحجة ١٣٦ هـ حتى ذي الحجة ١٥٨ هـ)

لما تولى المنصور الخلافة وضع نصب عينيه مخاطر ثلاث لابد أن يقضي عليها:

١) منافسة عمه عبد الله بن على له في الأمر، وقد كان موكلاً بتدبير جيوش الدولة من أهل خراسان والشام والجزيرة والموصل ليغزو بهم

الروم (وكان رغم جلالة قدره عند بني العباس لكنه كان قليل الحزم).

٢) اتساع نفوذ أبي مسلم الخراساني، أحد أعمدة الدولة العباسية فكان أبو جعفر شديد الحنق عليه، لا يرضيه أن يكون له في الأمر شريك ذو سطوة وسلطان.

٣) بنو عمومته من آل على بن أبي طالب الذين لا يزال لهم في قلوب الناس مكان،خاصة **محمد بن عبد الله بن حسن بن زيد بن الحسن بن على** ابن أبي طالب فخاف أبو جعفر أن يحاول الخروج عليه.

فأما الخطر الأول: إزالة عمه:

(يضرب عمه بأبي مسلم وأيهما زال فقد زال من طريقه).

كان عبد الله بن على ينتظر أن تؤول إليه الخلافة لما كان له من يد طولى في القضاء على ملك بني أمية، فلما جاء الخبر باستخلاف أبي جعفر المنصور خلعه وأعلن البيعة لنفسه.. فأرسل إليه أبو جعفر جيشًا بقيادة أبى مسلم الخراساني فالتقوا عند حران ودارت معركة بين الفريقين لمدة ستة أشهر وظلت المعركة سجالاً ثم تحولت إلى أبى مسلم الذي انتصر، وفر عبد الله بن على إلى البصرة عند أخيه سليمان فعلم بذلك أبو جعفر فبعث إلى أبي سليمان يأمره بإحضار عبد الله بن على إليه، وأعطاه الأمان لعبد الله ما جعله يثق به، فجيء به إلى المنصور سنة ١٣٩ هـ فأمر بحبسه وحبس من كان معه وظل في حبسه حتى مات سنة ١٤٧ هـ وكانت هذه غدرة من المنصور.

وأما الخطر الثاني: أبو مسلم الخراساني

أراد أبو جعفر أن يصطاد أبا مسلم قبل أن يعود إلى خراسان بعد هذه المعركة، ولم يكن يريد أن يظهر لأبي مسلم مراده.

فكتب إلى أبي مسلم (إني قد وليتك مصر والشام فهي خير لك من خراسان.. تكون بقرب أمير المؤمنين فإن أحب لقاءك أتيته من قريب).

فغضب أبو مسلم وقال (يوليني الشام ومصر وخراسان لي).

وعزم على عدم تنفيذ الأمر والعودة إلى خراسان.

قرر أبو جعفر استعمال الدهاء مع أبي مسلم وبدأت بينهما حرب مراسلات، حتى أرسل أبو جعفر إليه جرير بن يزيد بن جرير بن عبد الله البجلي، في جماعة من الأمراء وأمره أن يكلم أبا مسلم بألين ما يكلم به أحدًا وأن يمنيه فإن أبى قال له:(هو بريئ من العباس إن شققت العصا، وذهبت على وجهك ليدركنك بنفسه وليقاتلنك دون غيره، ولو خضت البحر الخضم لخاضه خلفك، حتى يدركك فيقتلك أو يموت قبل ذلك).

وبالفعل يقابل الوفد أبا مسلم فيأبى أن يطيع أو أن يأتي لمقابلة أبي جعفر فيبلغاه الرسالة الأخيرة وسبحان الله فهذه الكلمات جعلت الجبار أبا مسلم يخنع ويجبن ويزداد ترددًا وحيرة.

كما كتب أبو جعفر إلى خليفته أبي مسلم على جند خراسان يعطيه إمامه خراسان ما عاش.. كل هذه الضغوط جعلت أبا مسلم يقرر الذهاب لمقابلة أبي جعفر المنصور الذي تمادى في المكر فأعطاه الأمان، وأظهر له عند دخوله المدائن الاحترام والتقدير ومراسم الاستقبال، ولكنه كان عازمًا على قتل أبي مسلم غدرًا وبالفعل قتله وهو يكلمه آمنًا على يد بعض حراسه.

روى البيهقي عن الحاكم بسنده أن عبد الله بن المبارك سئل عن أبي مسلم أهو خير أم الحجاج؟

فقال: لا أقول إن أبا مسلم كان خيرًا من أحد، ولكن كان الحجاج شرًا

منه، قد اتهمه بعضهم على الإسلام، ورموه بالزندقة، ولم أر فيما ذكروه عن أبي مسلم ما يدل على ذلك، بل على أنه كان ممن يخاف الله من ذنوبه، وقد أدعي التوبة فيما كان منه من سفك الدماء في إقامة الدولة العباسية والله أعلم بأمره.

الخطر الثالث: محمد بن عبد الله بن الحسن بن زيد:

فقد زعموا أن بنى هاشم انتخبوه للخلافة وبايعوه بها في أواخر عهد بني أمية، وكذلك بايعه أبو جعفر المنصور فلما جاءت الدولة العباسية لم يف أبو جعفر ببيعته له، ولذلك لم يبايع محمد لأبي العباس ولا لأبى جعفر.. واستخفى في زمن أبي جعفر وظل أبو جعفر يجري تحرياته عن محمد فلما لم يعثر عليه اعتقل المنصور أباه وصادر أمواله

ولا يزال المنصور يبحث عنه وأنفق كثيرًا من المال في هذه السبيل فلم إلى شئ.. فاعتقل بني الحسن كلهم فلما علم محمد بذلك قال لأمه هند: (إني قد حملت أبي وعمومتي ما لا طاقة لهم به ولقد هممت أن أضع يدي في أيديهم فعسى أن يخلي عنهم)، فتنكرت هند ثم جاءت السجن كهيئة الرسول فأذن لها فلما رآها عبد الله أبو محمد عرفها فنهض إليها فأخبرته بما قال محمد فقال:(كلا بل نصبر فوالله إني لأرجو أن يفتح الله به خيرًا، قولي له فليدع إلى أمره وليجِدَّ فيه فإن فرجنا بيد الله) فانصرفت واستمر محمد على اختفائه.

فاستعمل معهم المنصور أشد أنواع العذاب ونقلهم إلى سجن بالعراق ومات أكثرهم في الحبس.

نتيجة هذه الفظائع قرر محمد الظهور بالمدينة، وكان ذلك أول يوم من رجب سنة ١٤٥ هـ أعانه أهل المدينة وصعد منبر الحرم وخطب فيهم ...

والحقيقة أنه كان من مكر أبي جعفر الخليفة أنه كتب إلى محمد على ألسنة

قواده يدعونه إلى الظهور ويخبرونه أنهم معه.. مما جعل محمد يتوهم أن أغلب الأمصار معه، كما أن الحسن كان قد اتفق مع أخيه إبراهيم أن يظهر في نفس اليوم بالبصرة ليعظم ذلك على أبي جعفر ولكن أخاه مرض ولم يخرج..

كما أنه حصر نفسه بالمدينة وهي ليست بمركز حربي يمكن للقائد أن يبقى فيه للدفاع طويلاً فحياة المدينة من خارجها فلا تحتمل الحصار إلا قليلاً.. وقد كان فحوصرت المدينة ودبّر أبو جعفر أمره تدبيرًا محكمًا...

وتكررت تجربة ابن الزبير فقد انتقض الناس من حول محمد الذي قتل بعد أن أظهر شجاعة فائقة وذلك في رمضان سنة ١٤٥ هـ.

وبمقتل محمد استتب الأمر لأبي جعفر وتوطدت أركان الدولة الناشئة فلم يعد هناك في الأفق مخاطر داخلية.

بناء بغداد:

شرع المنصور في بناء بغداد كمقر للخلافة العباسية وأتم بناءها سنة ١٤٦ هـ.

وقالوا: إنه أنفق على بغداد ثمانية عشر ألف ألف دينار، قال الخطيب البغدادي: لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها وفخامة أمرها وكثرة علمائها وأعلامها، وحشر إليها المنصور العلماء من كل بلد وإقليم، حتى صارت أم الدنيا وسيدة البلاد ومهد الحضارة الإسلامية في عهد الدولة العباسية، وأربى سكانها على مليونين.

ذكر ما جاء في وصف المنصور وخصائصه وأخلاقه:

كان المنصور أعظم رجل من آل العباس شدة وبأسًا ويقظة وثباتًا، كان شغله في صدر النهار بالأمر والنهي، والولايات، والعزل، وشحن الثغور، وأمن السبل والنظر في الخراج، والنفقات، ومصلحة معاش الرعية.. فإذا صلي الظهر

دخل منزله واستراح إلى العصر فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته ونظر في مصالحهم الخاصة فإذا صلى العشاء نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والآفاق وشاور سُمّاره من ذلك فيما أرب، فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه وانصرف سماره فإذا مضى الثلث الثاني قام من فراشه فأسبغ وضوءه وصف محرابه حتى يطلع الفجر ثم يخرج فيصلى بالناس ثم يدخل فيجلس في إيوانه.

كان المنصور في شبابه يطلب العلم من مظانه والحديث والفقه فنال جانبا جيدًا وطرفًا صالحا، وقد قيل له يومًا: يا أمير المؤمنين هل بقى شيء من اللذات لم تنله؟ قال: شيء واحد، قالوا: وما هو؟ قال: قول المحدث للشيخ: من ذكرت رحمك الله.

فاجتمع وزراؤه وكتابه وجلسوا حوله وقالوا: ليُملِ علينا أمير المؤمنين شيئًا من الحديث، فقال: لستم بهم، إنما هم الدنسة ثيابهم، المشققة أرجلهم، الطويلة شعورهم، رواد الآفاق وقطّاع المسافات، تارة بالعراق وتارة بالحجاز، وتارة بالشام، وتارة باليمن.فهؤلاء نقلة الحديث.

وقد ذكروا في مآثره وحلمه وعفوه وحسن تدبيره وتعهده ابنه المهدي وإعداده للخلافة مآثر طيبة ولكن يؤخذ عليه غدره بأبي مسلم الخراساني وعمه عبد الله بن على بعد أن أعطى كل واحدٍ منهما الأمان..

ذكر الفتوحات

لم تكن هناك فتوحات حاسمة في عهده، بل هي غزوات متكررة، بل ربما تجرأ الروم على المسلمين لانشغالهم بالصراعات الداخلية فهجموا على بعض الثغور، ودخل مَلِكُهم قسطنطين ملاطية عنوة وهدم سورها وتقدم في بلاد المسلمين..

ولكن لما انتبه المنصور وانتهت إلى حد كبير الصراعات الداخلية، عاد الغزو من جديد واستعاد المسلمون سيطرتهم من ناحية بلاد الروم.

كما بعث أبو جعفر ابنه المهدي لغزو طبرستان سنة ١٤١ هـ.

وفى سنة ١٥١ هـ شرع أبو جعفر في بناء الرصافة لابنه المهدي، بعد مقدمه من خراسان، وهي في الجانب الشرقي من بغداد، وجعل لها سورًا وخندقًا، وفيها جدَّد المنصور البيعة لنفسه، ثم لولده المهدي من بعده ثم لعيسى بن موسى من بعدهما.

مات أبو جعفر سنة ١٥٨ هـ في طريقه إلى الحج ودفن بمكة وقد كتم الربيع الحاجب موته حتى أخذ البيعة للمهدي من قادة بنى هاشم ثم دفن.

قالوا وكان آخر ما تكلم به المنصور أن قال: «اللهم بارك لي في لقاءك».

خلافة محمد المهدي بن المنصور

(من ذي الحجة ١٥٨ هـ حتى محرم ١٦٩ هـ)

تولى الخلافة وعمره ٣٢ سنة

كانت خلافته مرفهة عن الناس فأمر بإطلاق من كان في سجن المنصور من المعارضين، وكان يجلس للمظالم بنفسه فسارت الأمور في عهده طبيعية مع توسع في العمران.. ومن آثاره زيادته في المسجد الحرام فأدخل فيه دورًا كثيرة مما يحيط به وأمر بمحو اسم الوليد بن عبد الملك من حائط المسجد النبوي وكتابة اسمه..

والحق أن المنصور وطّد للمهدي الأوضاع، وأخضع له الرقاب فأراح مَن بعده وكان المهدي يرسل أبناءه للغزو.

وفي سنة ١٦٣ هـ بعث ابنه هارون الرشيد على رأس قوة من بلاد خراسان ومعه خالد بن برمك، ونال من الأعداء نيلاً عظيمًا وأصبح بعد ذلك واليًا على الشطر الغربي من المملكة الإسلامية..

ولم تحدث في عهده فتوح واسعة ولم تُضَم مدن كبيرة إلى بلاد الإسلام إلا أن الانتصارات كانت كبيرة والغنائم كثيرة..

وفى سنة ١٦٥ هـ جهز المهدي ولده الرشيد لغزو بلاد الروم، وأنفذ معه من الجيوش عددًا كبيرًا فلما عاد سنة ١٦٦ هـ من بلاد الروم دخل الرشيد بغداد في أبهة عظيمة، ومعه الروم يحملون الجزية من الذهب وغيره..

وفي سنة ١٦٧ هـ وجه المهدي ابنه موسى الهادي إلى جرجان في جيش كثيف لم يُرَ مثله..

ذكروا أنه هاجت ريح شديدة فدخل المهدي بيتًا في دار فألصق خده بالتراب وقال: «اللهم إن كنت أنا المطلوب بهذه العقوبة دون الناس فها أنا ذا بين يديك، اللهم لا تشمت بي الأعداء من أهل الأديان»، فلم يزل كذلك حتى انجلت..

حسن السياسة:

ودخل عليه رجل يومًا ومعه نعل فقال: هذه نعل رسول الله ﷺ قد أهديتها لك فقال: هاتها فناوله إياها، فقبّلها ووضعها على عينيه وأمر له بعشرة آلاف درهم، فلما انصرف،قال المهدي: والله إني لأعلم أن رسول الله ﷺ لم ير هذا النعل، فضلاً عن أن يلبسها ولكن لو رددته لذهب يقول للناس: أهديت إليه نعل رسول الله ﷺ فردَّها علي، فتُصدقه الناس، لأن العامة تميل إلى أمثالها، ومن شأنهم نصر الضعيف على القوى وإن كان ظالمًا، فاشترينا لسانه بعشرة آلاف درهم ورأينا هذا أرجح وأصلح..

وكان يتتبع الزنادقة (المارقين عن الدين) ويعاقبهم بالقتل.

وبالجملة فإن للمهدي مآثر ومحاسن كثيرة يقصر المقام عن ذكرها ثم توفى رحمه الله وكان قد استخلف من بعده ابنه موسى الهادي.

خلافة موسى الهادي بن محمد بن جعفر المنصور

(من محرم ١٦٩ هـ حتى من ربيع ١٧٠ هـ)

تولى الحكم وعمره ٢٥ سنة، وكان يسير على هدى أبيه في محاربة الزنادقة.

وقعة فخ:

وقامت في عهده محاولة للخروج عليه من قبل الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب وكان بالمدينة ولكنه قُتِل على يد جيش الهادي بعد تسعة أشهر وثمانية عشر يومًا وسميت هذه المعركة معركة فخ وأفلت من هذه المعركة إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب واتجه إلى مصر ومنها انطلق إلى المغرب حيث أسَّس دولة الأدارسة التي سيأتي ذكرها.

كان الهادي شديد الغيرة على حرمه وقد نهى أمه الخيزران أن يدخل عليها أحد من القواد أو رؤساء حكومته بعد أن كان لها نفوذ في عهد المهدي.. ولذا يقولون إنها سمته لعزلها عن أمر الملك ولأنه ضيَّق على الرشيد (الخليفة من بعده) لأنه أراد أن يعدل عن استخلافه إلى استخلاف ابنه جعفر وفعل النمّامون وأصحاب النفوس الدنيئة فعلتهم في الإيقاع بينه وبين أخيه الرشيد...

وكان الهادي شهمًا خبيرًا بالملك كريمًا وكان من كلامه: ما أصلح الملك بمثل تعجيل العقوبة للجاني، والعفو عن الزلات ليقل الطمع عن الملك...كان الهادي يرى أن الناس إنما يصلحهم عدم احتجاب خليفتهم عنهم، بل معايشتهم ومعايشة مشكلاتهم فكان يأمر حاجبه الفضل بن الربيع قائلاً: «لا تحجب عني الناس فإن ذلك يزيل عني البركة». وكان قوى البأس يثب على الدابة وعليه درعان.

توفى الهادي في ربيع أول سنة ١٧٠ هـ وصلى عليه أخوه هارون.

خلافة هارون الرشيد بن محمد المهدي

(من ربيع الأول ١٧٠ هـ حتى جمادى الآخرة ١٩٤ هـ)

وتولى الحكم وعمره ٢٥ سنة

من مناقبه :

- كان هارون كثير الصلاة.
- حج تسع مرات خلال فترة حكمه سنة ١٧٠هـ، ١٧٣هـ، ١٧٤هـ، ١٧٥هـ، ١٧٧هـ، ١٨٠هـ، ١٨١هـ، ١٨٦ هـ، ١٨٨هـ.
- وكان إذا حج حج معه من الفقهاء وأبنائهم جمع كبير، وإذا لم يحج يحج عنه ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة.
- ومما اشتهر عنه أنه كان يحج عامًا ويغزو عامًا.

قال الطبري: غزا سبع مرات وجهز عشرين حملة للجهاد في البر والبحر.

وفضائل الرشيد ومكارمه كثيرة جدًا وقد كان الفضيل بن عياض يقول: ليس موت أحد أعز علينا من موت الرشيد، لما أتخوف بعده من الحوادث، وإني لأدعو الله أن يزيد في عمره من عمري.

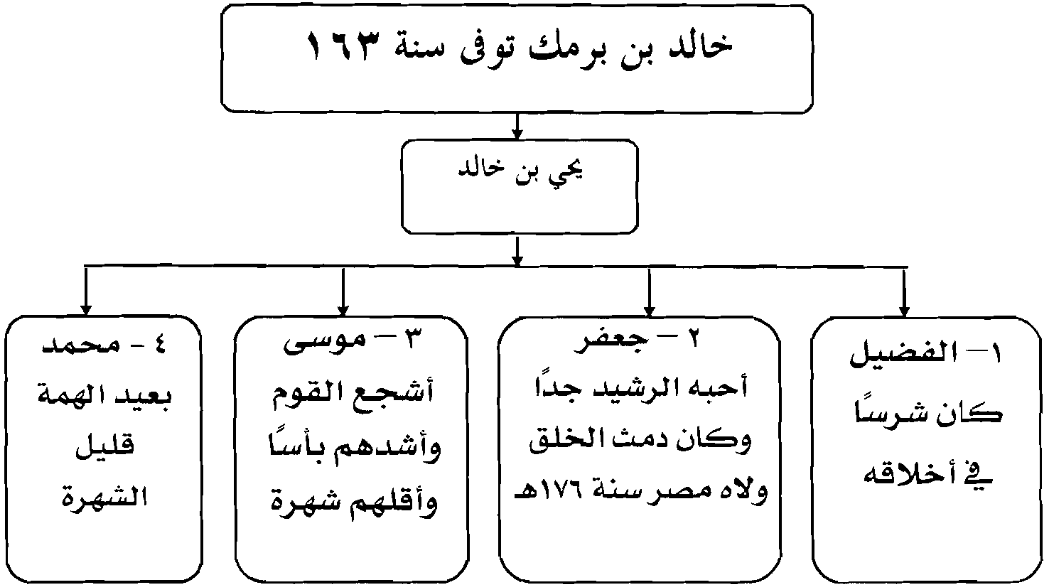
قالوا: فلما مات الرشيد وظهرت تلك الفتن والحوادث والاختلافات وظهر القول بخلق القرآن فعرفنا ما كان تخوفه الفضيل من ذلك.

محنة البرامكة في عهد هارون الرشيد:

لما جاءت الدعوة العباسية إلى خراسان، كان خالد بن برمك من أكبر دعاتها فاستوزره أبوالعباس السفاح..فمازال خالد بن برمك يتقلب في المناصب بحسن السيرة وكان ممدوح الولاية حتى مات سنة ١٦٣ هـ.

وكان ابنه يحي بن خالد بن برمك من أرفع الناس أدبًا، وفضلاً، ونبلاً، تولى المناصب منذ عام ١٥٨ هـ، وكان محبوبًا وهو الذي ربى هارون الرشيد الذي بدوره كان لا يناديه إلا بيا أبي، ويحي هو الذي مكّن هارون من الخلافة على غير رغبة الهادي.

فلما تولى الرشيد الخلافة أمّر يحي وزارته فكانت وزارة تفويض وقال له: (قلدتك أمر الرعية وأخرجته من حقي إليك، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت..) وإليك ثبت أسرة البرامكة..



في سنة ١٨٤ هـ بايع الرشيد لابنه عبد الله المأمون بولاية العهد بعد أخيه محمد الأمين وضمه إلى جعفر بن يحي..

لقد كانت هذه الأسرة مقربة إلى الرشيد تساعده في القيام بمهام الدولة خير قيام.

سماهم المؤرخون (زهرة الدولة العباسية كلها).. قادوا الجيوش وسدوا الثغور ودافعوا عن حياض الدولة..

ولكن لماذا أوقع بهم الرشيد، وما الذي غير قلبه عليهم؟؟!!

الحقيقة في هذه المسألة غير أكيدة واختلف فيها المؤرخون والأرجح أن هذه الأسرة الفاضلة قد بلغت من العز مبلغًا عظيمًا.. وهناك دائمًا الحاقدون وأصحاب القلوب المريضة الذين لا يحبون أن يروا الأمة مجتمعة إلى حين ويغيظهم أن يصل غيرهم إلى تلك المنازل بجهد وبذل وتضحية وهم متفرجون فيلجئون إلى الوشاية والوقيعة بحيلة ومكر.. لقد تغير قلب الرشيد تجاههم بفعل فاعل.

ولعل أرجح ما قيل في ذلك ما ذكره بعض المؤرخين أن سبب ذلك قيام جعفر بن يحيى بتهريب يحي بن عبد الله بن الحسن (أخو إدريس)[1] من سجن الرشيد سرًا لأنه تعاطف معه لأنه من نسل آل البيت وقد اتهم البرامكة بالتشيع من قبل بعض المؤرخين وبلغ الخبر الفضل بن الربيع[2] من عين كانت له حيث كان يتحين فرصة يؤلب بها الرشيد على البرامكة، فأخبر الرشيد فقال له الرشيد: (مالك وهذا لا أم لك فلعل ذلك عن أمري) فانكسر الفضل، فلما جاء جعفر (حبيب الرشيد) دعا بالغداء فأكلا وتحادثا إلى أن كان أخر ما دار بينهما أن قال الرشيد: ما فعل يحيى بن عبد الله؟

قال جعفر: بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس والأكبال.

قال الرشيد: بحياتي؟

فأحجم جعفر وهجس في نفسه أنه قد علم بشيء من أمره.

فقال: لا وحياتك يا سيدي ولكن أطلقته وعلمت أنه لا حياة به ولا مكروه عنده، فقال الرشيد: نعما فعلت ما عدوت ما كان في نفسي فلما خرج اتبعه

---

(١) مؤسس دولة الأدارسة.

(٢) الفضل بن الربيع: أبوه الربيع بن يونس كان الرشيد مقتنعًا بقدراته ولكن أمه واسمها الخيزران كانت تمنعه أن يوليه شيئًا حتى ماتت سنة ١٧٤ هـ، فجعل له الرشيد ولاية وكان يكره يحيى بن عبد الله بن الحسن، وكان دائما ما يعمل على تحذير الرشيد من أنه سيدعو إلى نفسه إذا سنحت له الفرصة.

بصره ثم قال: قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك فكان من أمره ما كان.

كانت هذه الحادثة سببًا للوشاية بالبرامكة في أخص صفات الوزراء وهي الإخلاص لملوكهم وذلك طعن مؤثر... ووقر في نفس الرشيد شيء من ذلك أن البرامكة يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحته، وهذه التهمة أشد من تهمة الزندقة عند المهدي وانفرط عقد الثقة بين الخليفة الرشيد والبرامكة وهم أحباؤه وخلصاؤه فتحمست أمامه عيوبهم وجعلته يستريب فيهم لأدنى شبهة.

حتى كانت سنة ١٨٧ هـ وفيها كان مهلك البرامكة على يدي الرشيد قتل جعفر بن يحي بن خالد البرمكي بطريقة بشعة، ودمر ديارهم وذهب صغارهم وكبارهم.

ويبدو أن الرشيد قد ندم بعدها...

فقد كان يقول: لعن الله من أغراني بالبرامكة، فما وجدت بعدهم لذة ولا رجاء، وددت والله أني شطرت نصف عمري وملكي وأني تركتهم على حالهم.

وفي عهده حكم الروم نقفور وقد بعث نقفور برسالة إلى الرشيد:

من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد: فإن الملكة التي كانت قبلي[1] أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مكان البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقيًا بحمل أمثاله إليها، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد إلى ما حملته إليك من الأموال وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك.

فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب فكتب على ظهر الكتاب الذي جاءه:

---

(١) ملكة الروم هى أغسطه وقد عزلها الروم واختاروا مكانها نقفور.

بسم الله الرحمن الرحيم

من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم: قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه دون ما تسمعه.

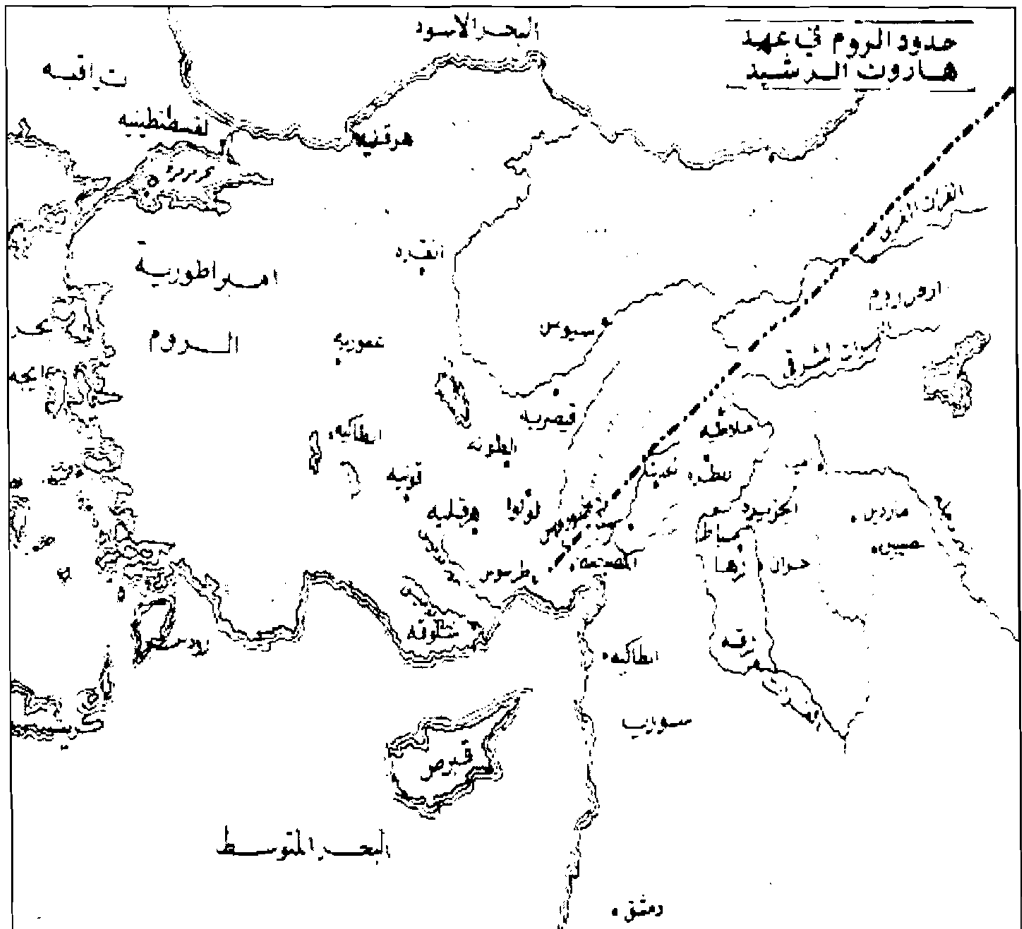
فاجتاحت جيوش المسلمين بلاد الروم فاضطر نقفور إلى المسالمة على خراج يؤديه فمكث نقفور يؤدي جزية قدرها ٣٠٠ ألف دينار سنويًا إلى بيت مال المسلمين.

وعلى الجملة كانت قوة المسلمين في عهد الرشيد ظاهرة ظهورًا بينًا على الروم.. لأن الرشيد كان يغزو ومعه عظماء القواد.

وفي عهده قامت دولة الأدارسة سنة ١٧٢ هـ بالمغرب ومؤسسها هو: إدريس بن عبد الله بن الحسن الذي فر من وقعة الفخ أيام الهادي فأقام دولته في بلاد المغرب الأقصى وهي أول دولة للعلويين.. وكان هارون في بداية خلافته يحسن إلى العلويين ولكنه بعد هذه الحادثة خافهم وعاقب من مال إليهم أشد العقوبات.

وفاة الرشيد: وقد رأى رؤيا فيها موته وصدقها الواقع.

رأى كفًا به تربة حمراء وقائل يقول: هذه تربة أمير المؤمنين، فلما سار يريد خراسان مَرّ بـ (طوس) فمرض بها، فقال لخادمه: ائتني بشيء من تربة هذه الأرض، فجاءه بتربة حمراء في يده، فلما رآها قال: والله هذه الكف التي رأيت، والتربة التي كانت فيها! فأمر بحفر قبره في حياته وأن تُقرأ فيه ختمة للقرآن تامة، وحُمِل حتى نظر إلى قبره فجعل يقول: إلى هنا تصير يا ابن آدم وبكي ثم قبض بعد ثلاث ليال..



الرخاء في عهد الرشيد:

كان الرشيد ينظر إلى السحابة المارة ويقول (أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك)، وقد بلغت إيرادات الدولة العباسية في عهده (٧٠ مليون و١٥٠ ألف دينار) وقد زادت في عصر المأمون عن ذلك بكثير.

وفي عهده قامت دولة الأغالبة سنة ١٨٤ هـ (وسيأتي مزيد من ذكرها).

شبهة والرد عليها: اتهم خلفاء الدولة العباسية وخاصة الرشيد بشرب النبيذ وبمجالس الغناء والطرب والجواري...

والرد على ذلك يكون من جوانب إن المؤرخين ذكروا أن هارون الرشيد كان يشرب نبيذ التمر. بل وذكروا أن أبا حنيفة كذلك كان يفعل.. وفي مذهب الإمام أبي حنيفة المعمول به في العراق أيام الرشيد أنه.. يحل شرب عصير التمر في حالتين:

الحالة الأولى: إذا نقع أو طبخ طبخًا وشرب منه قبل أن يغلي ويشتد عصير التمر فهو في هذه الحالة حلال بإجماع العلماء.

الحالة الثانية: إذا طبخ طبخًا حتى غلا واشتد وشرب منه مقدار قليل يغلب على ظن الشارب أنه لا يسكره وكان شربه له لغرض التقوِّي لا بقصد اللهو والطرب، وهنا خلاف بين العلماء من مذهب أبي حنيفة. فإذا شرب من هذا العصير المطبوخ مقدارًا كبيرًا يسكر عادة فإنه يكون حرامًا بإجماع فقهاء المذهب وهذا كله في حالة الطبخ. أما إذا نقع وترك حتى غلا واشتد فإنه يكون حرامًا على الإطلاق بإجماعهم.

والسؤال الآن ماذا كان يشرب الرشيد؟ الأنواع المسكرة أم الأخرى؟

يقول ابن خلدون: من ذلك ما يحكى من معاقرة الرشيد الخمر،اقتران سكره بالندمان، فحاشا لله، ما علمنا عليه من سوء، وأن هذا حال الرشيد، وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة، وما كان عليه من صحبة العلماء والأولياء، ومحاورته الفضيل بن عياض وابن السماك ومكاتبته سفيان الثوري، وبكائه من مواعظهم ودعائه بمكة في طوافه.. وعبادته وتنفله.

حتى قال: وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق، وفتاواهم فيها معروفة أما الخمر الصرف فلا سبيل إلى اتهامه بها.

أما ما شاع من انتشار الخمر في عصره فإن واقع هذه الدولة وهذا العصر

يكذبه، وخاصة إذا علمنا أن حاشية الرشيد كان على رأسها الأئمة الثقات أمثال: مالك بن أنس، أبو يوسف، الشافعي، الفضيل بن عياض، عبد الله بن المبارك وغيرهم فهل هؤلاء كانوا يسكتون إذا وجدت الخمر بهذه الصورة التي يذكرها المبطلون؟ أضف إلى ذلك أن هناك أنواعًا كثيرة من المشروبات كانت منتشرة في هذا العصر، وكلها يطلق عليها الشراب مثل: الماء، اللبن، الشربات، وهذه كانت تصنع من الماء المحلى بالسكر وتعطر بخلاصة البنفسج أو الموز أو الورد أو التوت ويطلق عليها الشراب.

أما مجالس الغناء والطرب والجواري

فالسؤال كيف كان هذا الغناء في العهد العباسي؟ ثم ما هو حكم الغناء؟

الأصل في الغناء الإباحة إلا إذا تسبب في فتنة كأن يحوي كلمات كفر أو مجون، يقول صاحب كتاب النجوم الزاهرة عن أشهر المغنين في عهد الرشيد:

وفي عام ١٧٤ هـ من الهجرة توفى منصور مولى عيسى بن جعفر بن منصور، وكان منصور هذا يلقب بزلزل، وكان مغنيًا يُضرب بغنائه المثل، وكان الغناء يوم ذلك غير الموسيقى الآن وإنما كانت زخمات عددية وأصوات مركبة في أنغام معروفة، وهو نوع من إنشاد زماننا على الضروب لإنشاد المداح والمواعظ.

وهذه نماذج من الشعر الغنائي الذي كان موجودًا في ذلك العصر...

نراع بذكر الموت ساعة ذكره ... ونفتر بالدنيا فنلهو ونلعب
ونحن بنو الدنيا خلقنا لغيرها ... وما كنت فيه فهو شئ محبب

وقولهم:

المرء في تأخير مدته ... كالثوب يبلى بعد جدته
عجبًا لمنتبه يضيع ما ... يحتاج فيه ليوم رقدته

وأما موضوع الجواري وكثرتها لدى الرشيد فهذا أمر صحيح يقول د. مؤيد فاضل صاحب كتاب شبهات في العصر العباسي الأول: وفي الحديث عن الجواري مثال آخر للاختلاف في التصور بيننا وبينهم[١]، فقد وصم الخلفاء بأنهم كانوا يتخذون العشيقات والخليلات من الجواري، وراحوا يتغزلون بهن شعرًا ونثرًا، فمفهومنا وتصورنا لهذا الغزل ولأولئك الجواري أوقعنا في هذا الوهم، حيث اعتبرنا ذلك نقيصة في الخلفاء، ولو أننا رجعنا إلى الشرع في موضوع الجواري لعلمنا أن الجارية ملك يمين يملك سيدها حق التمتع بها وحق الاستخدام.. وليس على السيد أن يعدل بين إمائه كما يعدل بين نسائه.

وفي المغني لابن قدامه: يمكن للرجل أن يكون له عدد كبير من الإماء أو الجواري يدخل عليهن كيف يشاء.

ولمزيد من معرفة حال هذه النخبة من الخلفاء فتأمل هذه المواقف:

عن مالك بن أنس قال: بعث أبو جعفر المنصور إلى ابن طاووس، فأتيناه فدخلنا عليه، فإذا به جالس على فرش قد نضدت، وبين يديه أنطاع قد بسطت، وجلاوزة (جمع جلواز وهو الشرطي) بأيديهم السيوف يضربون الأعناق، فأومأ إلينا أن اجلسا، فجلسنا، فأطرق عنا قليلا ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاووس فقال له حدثني عن أبيك، قال: نعم، سمعت أبي يقول: قال: رسول الله ﷺ: «إن أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله في حكمه، فأدخل عليه الجور في عدله».

قال مالك: فضممت ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأني من دمه، ثم التفت إليه أبو جعفر فقال عظني. قال نعم إن الله تعالى يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ

(١) أي بيننا نحن المسلمون وبين المؤرخين الماديين البعيدين عن الفقه الإسلامي.

* إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِي * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾. قال مالك: فضممت ثيابي مخافة أن يملأها من دمه، فأمسك ساعة حتى اسودَّ ما بيننا وبينه.

ثم قال: يا ابن طاووس ناولني هذه الدواة، فأمسك عنه. ثم قال: ناولني هذه الدواة، فأمسك عنه. فقال: ما يمنعك أن تناولنيها؟ قال: أخشى أن تكتب بها معصية لله فأكون شريكك فيها. فلما سمع ذلك قال: قوما عني. فقال ابن طاووس: ذلك ما كنا نبغي، قال مالك: فما زلت أعرف لابن طاووس فضله.

• حج أمير المؤمنين هارون الرشيد إحدى حجاته، فلما قضى اليوم الأول في منى سهر عنده وزيره الفضل بن الربيع، حتى إذا حان وقت النوم انصرف إلى خيمته، وبينما هو نائم بعد أن انقضى شطر من الليل سمع قرع الباب أمام خيمته فقال: من هذا؟ فقيل له: أجب أمير المؤمنين.

فخرج مسرعا فوجد هارون الرشيد على الباب فقال له: يا أمير المؤمنين لو أرسلت لي أتيتك

فقال هارون: ويحك قد حاك في نفسي شيء لا يخرجه إلا عالم فانظر لي رجلا اسأله عنه. فقال الفضل: هاهنا سفيان الهلالي العالم المحدث.

قال هارون: امض بنا إليه.

قال الفضل: فأتينا خيمة سفيان، فطرقنا عليه الباب فقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين. فخرج مسرعًا، فلما وجد أمير المؤمنين بباب الخيمة قال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت لي أتيتك.

فقال الرشيد: جد لنا ما جئنا له، وحادثه ساعة ثم سأله: أعليك دين؟

قال: نعم فقال الرشيد، يا أبا العباس اقض دينه وانصرفنا فقال لي أمير المؤمنين ونحن في الطريق: ما أغنى عني صاحبك فانظر لي رجلاً أسأله.

فقلت: هاهنا عبد الرزاق بن همام الحميري الصنعاني.

قال امض بنا إليه. فأتيناه وقرعت الباب فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعًا فلما وجد نفسه بين يديه قال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلى أتيتك.

فقال: جد لنا ما جئنا له وحادثه ساعة ثم قال له: أعليك دين؟ قال: نعم، فقال لي الرشيد: يا أبا العباس اقض دينه ولما انصرفنا قال أمير المؤمنين ما أغنى عني صاحبك شيئًا، فانظر لي رجلاً أسأله.

فقلت: هاهنا الفضيل بن عياض التميمي؛ شيخ الحرم ومن أئمة الهدى فقال: امض بنا إليه. فأتيناه فإذا هو قائم يصلي في خيمته يتلو آية من كتاب الله ويرددها، فقرعت عليه فقال: من هذا، قلت: أجب أمير المؤمنين. قال: مالي ولأمير المؤمنين؟ فقلت: سبحان الله، أما تجب عليك طاعة؟

ففتح الباب ثم أطفأ السراج والتجأ إلى زاوية في خيمته، فجعلنا نجول عليه بأيدينا، فسبقت كف الرشيد كفي إليه فقال الفضيل: أواه من كف ما ألينها إن نجت غدًا من عذاب الله. فقلت في نفسي ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلب تقي. فقال هارون: جد لنا ما جئنا له رحمك الله.

فقال الفضيل: وفيم جئت؟ حملت على نفسك وجميع من معك حملوا عليك. حتى لو سألتهم أن يتحملوا عنك شقصا (أي جزءا) من ذنب ما فعلوا ولكان أشدهم حباً لك أشدهم هربًا منك. وسكت الفضيل هنيهة ثم استأنف كلامه في سكينة الظلام ورهبته -وكانت ضربات قلب الرشيد تكاد تسمعها أذناه كأنها ضربات الساعة- فقال: إن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله

ورضي عنه -لما ولي الخلافة- دعا سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، ومحمد بن كعب القرظي، ورجاء بن حيوة، فقال لهم: (إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علي) فعَدَّ الخلافة بلاء وعددتها أنت وأصحابك نعمة.

فقال له سالم: إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله، فليكن كبير المسلمين عندك أبًا، وأوسطهم عندك أخًا، وأصغرهم عندك ولدًا. فبر أباك وارحم أخاك وتحنن على ولدك.

وقال رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، ثم مت متى شئت وإني أقول هذا، وأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام، فهل معك -رحمك الله- مثل هؤلاء القوم ومن يأمرك بمثل هذا؟

فبكى هارون بكاء شديدًا، فقلت للفضيل: ارفق بأمير المؤمنين، فأجابني: يا ابن الربيع قتلته أنت وأصحابك وأرفق أنا به؟!

ولما أفاق هارون قال للفضيل: زدني.

فقال الفضيل: يا أمير المؤمنين: بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز رحمه الله شكا إليه سهرًا فكتب إليه عمر يقول: «يا أخي اذكر سهر أهل النار في النار وخلود الأبد، فإن ذلك يطرد بك إلى ربك نائمًا ويقظان، وإياك أن تزل قدمك عن هذا السبيل فيكون آخر العهد بك ومنقطع الرجاء منك» فلما قرأ العامل كتاب عمر بن عبد العزيز طوى البلاد حتى قدم عليه فقال له عمر: «ما أقدمك؟» فأجابه: «لقد خلعت قلبي بكتابك، لاوليت ولاية أبدا حتى ألقى الله عز وجل».

فبكى هارون بكاءً أشد من الأول ثم قال للفضيل: زدني.

فقال: يا أمير المؤمنين إن العباس عم النبي ﷺ جاء إليه فقال: يا رسول الله أمرني إمارة، فقال النبي ﷺ «يا عباس نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها، إن

الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت ألا تكون أميرًا فافعل».

فبكى هارون أيضًا ثم قال له: زدني يرحمك الله فقال: يا حسن الوجه: أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل. وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيتك، فإن النبي ﷺ قال: «من أصبح غاشًا لرعيته لم يرح رائحة الجنة» فبكي الرشيد بكاء شديدًا ثم قال للفضيل: عليك دين؟ قال: نعم دين لربي يحاسبني عليه، فالويل لي إن ناقشني، والويل لي إن سألني، والويل لي إن لم يلهمني حجتي.

قال هارون: إنما أعني دين العباد. فقال الفضيل: ربي لم يأمرني بهذا، وإنما أمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره فقال هارون: هذه ألف دينار، فخذها وأنفقها على عيالك، وتقوَّ بها على عبادة ربك.

قال الفضيل: سبحان الله أنا أدلك على سبيل الرشاد، وأنت تكافئني بمثل هذا، سلمك الله ووفقك، ورفض أن يأخذها.

قال الفضيل بن الربيع، ثم سكت ولم يكلمنا، فخرجنا من عنده، فقال الرشيد: إذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا..

• دعا أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين، أبا عمرو الأوزاعي فلبى دعوته، ولما سلم عليه، سأله أبو جعفر: ما الذي أبطأ بك عنا يا أوزاعي؟

- وما الذي تريد يا أمير المؤمنين؟

- أريد الأخذ منكم والاقتباس عنكم.

- فانظر يا أمير المؤمنين ولا تجهل شيئًا مما أقول.

- وكيف أجهله وأنا أسألك عنه، وقد وجهت فيه إليك؟

- أن تسمعه ولا تعمل به.

- فصاح الربيع بالأوزاعي، وأهوى بيده إلى السيف، فانتهره المنصور وقال: هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة.. فطابت نفس الأوزاعي وانبسط في الحديث فقال: يا أمير المؤمنين، حدثني مكحول عن ابن بسر، أن رسول الله ﷺ قال: «أيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه فهي نعمة من الله سيقت إليه إن قبلها بشكر، وإلا كانت حجة عليه من الله ليزداد بها آثما ويزداد الله بها عليه سخطا» يا أمير المؤمنين: حدثني مكحول عن ابن بسر أن رسول الله ﷺ قال: «أيما وال بات غاشاً لرعيته حرم الله عليه الجنة».يا أمير المؤمنين من كره الحق فقد كره الله لأن الله هو الحق المبين. يا أمير المؤمنين: قد كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم، أحمرهم وأسودهم، ومسلمهم وكافرهم، وكل له عليك نصيبه من العدل، فكيف إذا تبعك منهم وفد وراء وفد، ليس منهم أحد إلا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه، أو ظلامة سقتها إليه؟

يا أمير المؤمنين: لقد كان النبي ﷺ بالمؤمنين رءوفًا رحيمًا، مواسيًا بنفسه لهم في ذات يده، وكان فيهم بالقسط قائمًا، ولعوراتهم ساترًا، لم تغلق عليه دونهم أبواب، ولم يقم عليه دونهم الحجاب، يبتهج بالنعمة عندهم ويبتئس بما أصابهم..

يا أمير المؤمنين: حدثني مكحول عن زياد بن جارية عن حبيب ابن مسلمة أن رسول الله ﷺ دعا إلى القصاص من نفسه في خدشة خدشها أعرابيًا لم يتعمدها، فأتاه جبريل فقال: يا محمد! إن الله لم يبعثك جبارًا ولا متكبرًا، فدعا النبي ﷺ الأعرابي فقال: اقتص مني، فقال الأعرابي: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما كنت لأفعل ذلك أبدًا ولو أتيت على نفسي فدعا له الرسول ﷺ بخير.

فكيف بمن شقّق أبشار الناس، وسفك دماءهم، وخرب ديارهم وأجلاهم عن بلادهم، وغيبهم الخوف منه!!؟

يا أمير المؤمنين: رُض نفسك لنفسك، وخذ لها الأمان من ربك، وارغب في جنة عرضها السماوات والأرض قال فيها رسول الله ﷺ: «**لقاب قوس أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها**». يا أمير المؤمنين الملك لو بقي لمن قبلك لم يصل إليك، وكذلك لا يبقي لك كما لم يبق لغيرك.

يا أمير المؤمنين: أتدري ما جاء عن جدك في تأويل هذه الآية: ﴿مَا لِهَـٰذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾؟ قال: الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك.. فكيف بما حدثته الألسن وعملته الأيدي؟!

يا أمير المؤمنين: بلغني عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالي عنه أنه قال: لو ماتت سخلة على شاطئ الفرات ضيعة لخفت أن يسألني الله عنها... فكيف بمن حُرِم عدلك وهو على بساطك؟!

يا أمير المؤمنين: إنك قد بليت بأمر عظيم، لو عرض على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنه وأشفقن منه. حدثني يزيد عن جابر عن عبد الرحمن عن أبي عمرة الأنصاري أن عمر بن الخطاب استعمل رجلا من الأنصار على الصدقة، فرآه بعد أيام مقيمًا، فقال له، ما منعك من الخروج إلى عملك؟ أما علمت أن لك مثل أجر المجاهدين في سبيل الله؟

قال: لا. قال عمر: وكيف ذاك؟

قال: لأنه بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من والٍ يلي من أمور الناس شيئًا، إلا أتي به يوم القيامة فيوقف على جسر من نار فينتفض به الجسر انتفاضًا يزيل كل عضو من موضعه، ثم يعاد فيحاسب، فإن كان محسنًا نجا بإحسانه، وإن كان مسيئًا انخرق به ذلك الجسر فهوي به في النار سبعين خريفًا**» فقال له عمر: ممن سمعت هذا قال من أبي ذر وسلمان، فأرسل إليهما عمر، فسألهما فقالا: نعم، سمعناه من رسول الله ﷺ فقال عمر: واعمراه، من يتولاها بما فيها؟ فقال أبو ذر: من أسلت الله

أنفه، وألصق خده بالأرض.

فأخذ أبو جعفر المنديل، ووضعه على وجهه فبكي وانتحب حتى أبكى الأوزاعي... ثم مضى الأوزاعي ودمعه ينهمر:

يا أمير المؤمنين: قد سأل جدك العباس النبي ﷺ إمارة على مكة والطائف فقال له: (يا عباس يا عم النبي، نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها) وهي نصيحة منه لعمه، وشفقة منه عليه، لأنه لا يغني عنه من الله شيئًا، ولما أوحى الله تعالى إليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ فقال: يا عباس، يا صفية عمة النبي، إني لست أغني عنكم من الله شيئا ألا لي عملي ولكم عملكم.

وقد قال عمر رضي الله عنه: لا يقيم أمر الناس إلا حصيف العقل، أريب العقدة، لا يطلع منه على عورة، ولا يحنو على حوَّية، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

وقال: السلطان أربعة أمراء: فأمير قوي ظلف نفسه وعماله فذاك المجاهد في سبيل الله، يد الله باسطة عليه الرحمة. وأمير ضعيف ظلف نفسه وأرتع عماله فضعف، فهو على شفا هلاك إلا أن يرحمه الله، وأمير ظلف عماله وأرتع نفسه فذلك الحطمة الذي قال رسول الله ﷺ فيه: «**شر الرعاء الحطمة**» فهو الهالك وحده، وأمير أرتع نفسه وعماله فهلكوا جميعا.

وقد بلغني يا أمير المؤمنين أن عمر بن الخطاب قال: اللهم إن كنت تعلم أني أبالي إذا قعد الخصمان بين يدي على من كان الحق من قريب أو بعيد فلا تمهلني طرفة عين. يا أمير المؤمنين إن أشد الشدة القيام لله بحقه، وإن أكرم الكرم عند الله التقوى.. إنه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله، ومن طلبه بمعصية الله أذله الله ووضعه.

هذه نصيحتي والسلام عليك.. ثم نهض فقال أبو جعفر: إلى أين؟ قال: إلى البلد والوطن بإذن أمير المؤمنين إن شاء الله.

قال أبو جعفر: قد أذنت وشكرت لله نصيحتك، والله الموفق للخير والمعين عليه، فلا تحرمني من مطالعتك إياي بمثلها فإنك المقبول غير المتهم في النصيحة.

- أفعل إن شاء الله. قال محمد بن مصعب: وأمر أمير المؤمنين للأوزاعي بمال يستعين به على خروجه فلم يقبله الأوزاعي، وقال: أنا في غنى عنه، وما كنت لأبيع نصيحتي بعرض الدنيا كلها.. وعرف المنصور مذهب الأوزاعي فلم يؤلمه أنه رد عطاءه.

وبعد أيها الأخ القارئ فلا شك أنه قد وقعت بعض أخطاء من جانب هؤلاء الخلفاء، ولكن يجب عليك أن تقيِّم الأشخاص تقييمًا موضوعيًا، وقد عرَّف علماء الإسلام المسلم العدل الثقة: أنه من غلبت حسناته سيئاته،فانتبه إلى ذلك ولا تنساق خلف من يسلطون الأضواء على السيئات ويخفون المحاسن ليهزوا ثقتنا في تاريخنا.

خلافة محمد الأمين بن هارون الرشيد

(من جمادى الآخرة ١٩٤هـ حتى من محرم ١٩٨هـ)

وتولى الحكم وعمره ٢٣ عام،وعهده كان قاصرًا على حادثة شنيعة فرقت الأمة، وذلك ما كان بينه وبين أخيه المأمون.

وسبب هذه الأحداث أن هارون الرشيد ولى عهده أولاً محمد الأمين، والمأمون أسن منه، ولم يكن ما يزيد الأمين إلا أنه ابن زبيدة (زوجة الرشيد عالية النسب والحبيبة إلى قلبه).

أراد الرشيد بعد ذلك معالجة هذه الغلطة ففعل ما يزيدها شرًا بتولية المأمون العهد بعد الأمين، ولم يقتصر على مجرد تولية العهد بل أعطاه من الامتيازات ما يجعله مستقلاً تمام الاستقلال بمنطقة خراسان والري عن أخيه الأمين.. فأصبح لكل من الأمين والمأمون جيشًا يتصرف فيه، ولم يقتصر الرشيد على ذلك بل أعطى أخًا لهم ثالثًا امتيازات أخرى وهي الجزيرة وأرمينية فأحس الأمين كأنه مقصوص الجناحين منزوعًا من سلطان أعظم بقاع الإسلام وأكثرها أعوانًا وجندًا..

وزاد الأمر اشتعالاً وجود الفضل بن الربيع الذي جرّأ الرشيد على إفساد ملكه وقتل البرامكة... فكان في فئة الأمين وهو الذي أغراه بأخيه المأمون ولم يكن الأمين ينوي قتاله إنما فعل الفضل ذلك خوفًا على مصالحه...

لقد وصل الخلاف بين الأخوين إلى الاقتتال، والحقيقة لم يكن للأمين حسن تدبير بل كان مشغولاً باللهو والعبث، وكان عنده ثقة أنه سيقهر أخاه، بينما كان المأمون مشغولاً بتدبير أمره يجمع إلى مجلسه العلماء والفقهاء ويجلس معهم، حتى أُشرِبت قلوبُهم محبته، وباختصار فقد انتهى الأمر بمقتل الأمين على يد أحد قواد المأمون وبايع الناس المأمون.

خلافة المأمون بن هارون الرشيد

(من محرم ١٩٨ هـ حتى رجب ٢١٨ هـ)

لقد تم الأمر للمأمون بالعراق على يد قائدين مخلصين عظيمين هما:-

طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين.

وكان الذي يدبر الأمر مع المأمون بمرو الفضل بن سهل والذي يرى لنفسه الفضل الأكبر في تأسيس دولة المأمون، فأراد أن يستفيد من هذه الدولة فيستأثر بنفوذ الكلمة فيها، وليس يتم له ذلك والعراق بين يدي طاهر وهرثمة، فاحتال حتى

عزل طاهر على لسان المأمون عن العراق وما حولها، وتعيين الحسن بن سهل فاستجاب طاهر، واستصدر أمرًا إلى هرثمة بالحضور إلى خراسان فاستجاب.

استمر المأمون في خراسان إلى منتصف ولايته كما سنرى حتى سنة ٢٠٤ هـ ثم قدم بغداد بعد ذلك.

شاع بالعراق بعد خروج طاهر أن الفضل بن سهل قد غلب على المأمون، وأنزله قصرًا حجبه فيه، وأنه يبرم الأمور على هواه، فغضب لذلك أهل العراق واستخفوا بالحسن بن سهل، وهاجت الفتنة في الأمصار، ولم يجد الحسن بن سهل حوله أحدًا ينصره فأرسل إلى هرثمة بن أعين - الذي كان قد توجه إلى خراسان - يستنجد به فاستجاب هرثمة فقدم بغداد سنة ١٩٩هـ في شعبان واستطاع بعد عدة معارك أن يعيد الأمر إلى ما كان عليه في محرم سنة ٢٠٠ هـ.

كانت أغلب الفتن التي حدثت بسبب العلويين.

فخرج بالكوفة محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي، وفي مكة كان حسين بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي يشيع العذاب في كل من له علاقة ببني العباس، حتى اتخذ دارًا سماها دار العذاب يعذب فيها الناس، فلما علم أن هرثمة قضى على العلويين بالعراق والكوفة اجتمع حسين وصحبه إلى محمد بن جعفر الصادق وكان شيخًا ورعًا محببًا في الناس مفارقًا لما عليه أكثر أهل بيته من قبح السيرة فأرادوا أن يبايعوه بالخلافة فأجاب بعد تردد وحشر إليه الناس فبايعوه طوعًا وكرهًا وسموه أمير المؤمنين... فأقام على ذلك أشهرًا وليس له من الأمر إلا اسمه، وابنه عليّ وحسين بن حسن أسوأ ما كانوا سيرة وأقبح ما كانوا فعلاً في الناس حتى تعدوا الأموال إلى الأعراض.

فلما جاء بعث هرثمة استطاع أن يهزمهم، وطلب محمد بن جعفر الأمان له ولمن معه حتى يخرجوا من مكة ويذهبوا حيث شاءوا، فأجيبوا وأمهلوا ثلاثة أيام

فلما انتهت دخلت جنود هرثمة مكة، وذهب كل فريق من العلويين في ناحية.

لما فرغ هرثمة من تلك المهمة أراد أن يتوجه إلى المأمون بمرو ليطلعه على حقيقة الحال، وما ينكره الناس عليه، واستبداد الفضل بن سهل على أمره...ولكن الفضل كاد لهرثمة القائد المخلص، فأفهم المأمون أن هرثمة قد أفسد البلاد، وكان المأمون قد كتب إلى هرثمة وهو في الطريق إليه أن يرجع ويلي الشام والحجاز فأبى هرثمة أن يرجع حتى يرى أمير المؤمنين... فلما اقترب من مرو خشي هرثمة أن يكتم عن المأمون خبر قدومه فضرب الطبول كي يسمعها المأمون فلما سمعها سأل فقالوا:

هرثمة جاء يرعد ويبرق، ولم يكن هرثمة يعلم أن المأمون قد تغير من ناحيته فلما دخل على المأمون لم يسمع منه كلمة وأمر به فوجئ عنقه وديس بطنه وأخذوه إلى الحبس ثم دسوا إليه فقتلوه وقالوا إنه مات.

لما بلغ أهل بغداد ما صنع بهرثمة، هاج الجند بها وثاروا على الحسن بن سهل واستخفوا بأمر المأمون واختاروا منصور بن المهدي أميرًا عليهم، ولأن بغداد كانت خالية من جيش قوي يأخذ على أيدي المفسدين، فانتشر الفساد الشديد على يد فساق الجند والشطَّار، وأظهروا الفسق وقطعوا الطريق وأخذوا النساء والغلمان علانية وأخذوا يفرضون الإتاوات قهرًا.. ولا أحد يمنعهم!

رأى الناس شدة هذا البلاء وضعف السلطان عن حمايتهم فقام صُلَحاء كل منطقة فمشى بعضهم إلى بعض، واتفقوا على قمع هؤلاء الفساق، فقام رجل اسمه خالد الدريوش فدعا جيرانه وأهل محلته إلى أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأجابوه إلى ذلك، وشد على من يليه من الفساق والشطار فمنعهم مما كانوا يصنعون، فامتنعوا عليه فقاتلهم وهزمهم، وأخذ بعضهم فضربهم وحبسهم ورفعهم إلى السلطان، وكان لا يرى من حقه الاعتداء على السلطان، وقام آخر

اسمه سلامة بن سلامة الأنصاري ففعل مثله..

كل ذلك والمأمون في مرو لا يصل إليه شئ من أخبار بغداد بفعل الفضل ابن سهل، ومن عجيب ما فعله المأمون في تلك الآونة أنه اختار لولاية عهده واحدًا من آل بيت على، هو على بن موسى بن جعفر الصادق وسماه الرضا من آل محمد، وأمر الجند بطرح السواد شعار العباسيين، ولبس ثياب الخضرة كشعار جديد للدولة، ويبدو أن ذلك من تدبير الفضل بن سهل (فارسي الأصل) لأن الفرس يعجبهم أن يكون إمام المسلمين علويًا.. وساعد على ذلك ما كان يراه المأمون نفسه من تفضيل على على غيره من الخلفاء الراشدين، وأنه كان أحق بالخلافة منهم.... وهي فكرة اختمرت في رأسه نتيجة نشأته فقد كان في أول أمره في حجر جعفر البرمكي[1] ثم انتقل إلى الفضل بن سهل وكلهم ممن تشيع.

لم يرض ذلك آل العباس ببغداد فاتفقوا على مبايعة إبراهيم المهدي عم المأمون بالخلافة وذلك سنة ٢٠٢ هـ.

وأخيرًا وصلت الأخبار على حقيقتها إلى المأمون، ويقال إن الذي أبلغه بها ولي عهده على الرضا، فإنه أخبره بما فيه الناس من الفتنة منذ قتل أخوه، وأن الفضل بن سهل يستر عنه الأخبار وما كادوه من قتل هرثمة وغيره..

لما تحقق المأمون أن الفضل قد كذّبه وغشّه أمر بالرحيل إلى بغداد وقُتِل الفضل بن سهل في الطريق..ثم قُتِل على الرضا!!ولما وصل المأمون إلى النهروان خرج إليه أهل بيته والقواد فسلموا عليه ووافاه طاهر بن الحسين القائد المعزول.

وفي صفر سنة ٢٠٤ هـ دخل المأمون مدينة بغداد وقد فرَّ عمه واختبأ.. خوفًا

(١) الذي قُتِل في عهد الرشيد وهى قرينة أخرى تدل على تشيعه فهو الذي ربى المأمون.

منه ولكنه عفا عنه، ونستطيع القول إن الملك الحقيقي للمأمون بدأ منذ عودته إلى بغداد... فقد تجلت مزاياه العالية وأخلاقه، وساس الناس سياسة لين لا يشوبه ضعف، وقوة لا يشوبها عنف، وأخذت بغداد تستعيد نضرتها التي كانت لها في عهد أبيه وعظمت بها الحركة العلمية كما سنرى أن شاء الله.

عيّن المأمون وزيرًا جديدًا له هو: أحمد بن أبي خالد، وأصله شامي فكان من خيار الوزراء وأخلصهم للمأمون..

فائدة: حادثة بين الخليفة ووزيره فيها درس في اختيار الوزراء وفيما ينبغي أن يكونوا عليه.

ذكر المأمون يومًا عمرو بن مَسْعَدة فاستبطأه وقال: يظن أني لا أعرف أخباره وما يحبب إليه وما يعامل به الناس.

وكان أحمد حاضرًا هذا المجلس فذهب إلى عمرو وأخبره بما قاله عنه الخليفة.

فأسرع عمرو إلى المأمون، فلما دخل عليه وضع سيفه بين يديه وقال: يا أمير المؤمنين أنا أقلَّ من أن يشكوني أمير المؤمنين إلى أحد، أو يُسِرَّ لي ضغنًا، يبعثه بعض الكلام على ظهاره ما يظهر منه، فقال المأمون: وما ذاك؟ فأخبره عمرو بما بلغه ولم يُسَمِّ له المخبر، فقال له المأمون: ليس لك عندي إلا ما تحب، فليفرج روعك، وليحسن ظنك.. وظهر في وجه المأمون الحياء والخجل، فلما غدا أحمد (الوزير) على المأمون قال له: أما لمجلسي حرمة؟! (ولم يكن المأمون يظن أن وزيره أحمد هو الذي بلّغ عمرًا)، فقال أحمد: نعم، فأخبره المأمون أن بعض من حضر من بني هاشم هو الذي أفشى ما قاله، فقال أحمد: أنا يا أمير المؤمنين الذي أخبرت عَمْرًا، وليس أحد من بني هاشم، والذي حملني على ذلك الشكر لك والنصح والمحبة، وأن تتم نعمتك على أوليائك وخدمك، أعلم أن

أمير المؤمنين، يحب أن يصلح له الأعداء والبُعَداء، فكيف الأولياء والأقرباء، لا سيما مثل عمرو، في دنوه من الخدمة وموقعه من العمل، فلما سمعت أمير المؤمنين أنكر منه شيئًا، أخبرته به ليصلحه ويقوّم من نفسه.. وإنما يكون ما فعلت مذمومًا لو أشعت سرًا فيه قدح في السلطان أو نقص تدبير قد استتب..

فنظر إليه المأمون مليًا وقال: كيف قلت، فأعاد عليه ما قال، ثم قال أعد فأعاد فقال المأمون: أحسنت، لما أخبرتني به أحب إلى من ألف ألف وألف ألف وألف ألف وعقده خنصره وبنصره والوسطى وقال: أما ألف ألف فلنفيك عني سوء الظن، وأطلق وسطاه، وأما ألف ألف فلصدقك إياي من نفسك، وأطلق البنصر، وأما ألف ألف فلحسن جوابك وأطلق الخنصر. ومات أحمد بن أبي خالد سنة ٢١١ هـ.

وكان من بعده أحمد بن يوسف وكان مخلصًا ولكن كان هناك من يحسده فلم يزل يكيد له حتى أقصاه المأمون..

ثم استوزر المأمون بعده القاضي يحي بن أكثم وكان من جلة العلماء الفقهاء وكان قد تولى قضاء البصرة وسنه عشرون سنة... ثم عزله المأمون سنة ٢١٥ هـ.

فائـــدة: أراد المأمون أن يعلن يومًا حل زواج المتعة وهو شيء نهى عنه عمر بن الخطاب، فدخل عليه يحيى وهو متغير فسأله المأمون عن سبب تغيره فقال: غم يا أمير المؤمنين لما حدث في الإسلام من نداء بتحليل الزنا، قال: الزنا.

قال: نعم، المتعة زنا، قال: من أين؟ قال: من كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون:٥-٧]. يا أمير المؤمنين زوجة المتعة ملك يمين؟ قال: لا. قال: فهي الزوجة التي عند الله ترث وتورث وتلحق الولد لها شرائطها؟ قال: لا

قال: فقد صار من يتجاوز هذين من العادين، وهذا الزهري، يا أمير المؤمنين، روى عن عبد الله والحسن بن محمد بن الحنفية عن أبيهما على بن أبي طالب قال: «**أمرني رسول الله ﷺ أن أنادي بالنهي عن المتعة وتحريمها بعد أن كان قد أمر بها**». فسأل المأمون عن حديث الزهري أهو محفوظ، فعلم أنه رواه مالك فقال المأمون: أستغفر الله وأمر فنودي بتحريم المتعة[١].

ثم كان من بعد يحيى بن أكثم وزراء، ولكن في الحقيقة أنه بعد تجربة الرشيد مع البرامكة وتجربة المأمون الأولى من الاعتماد على الوزراء، لم يعط المأمون لوزرائه صلاحيات كبيرة، بل كان يتابع الأمور بنفسه كما كان يدقق في اختيار وزرائه.

وفى سنة ٢٠١ هـ ظهرت فرقة باطنية اسمها الخرَّمية. (نسبة إلى قرية بفارس اسمها خرمة منها زعيمهم بابك الخرمى) يدينون بما يريدون ويشتهون، وإنما لقبوا بذلك لإباحتهم المحرمات من الخمر وسائر الملذات ونكاح ذوات المحارم، وداعيها بابك الخرمي كان يخيف السبل ويعيث في الأرض فسادًا وقد انتصر بابك على جيوش المأمون في بعض المواقع، حتى أرسل إليه المأمون عام ٢١٨هـ إسحاق بن إبراهيم، غير أن المأمون قد توفي، ولم يعلم بالنصر الذي أحرزه على الخرمية، إلا أن أمرهم بقي قويًا حتى قُضى على فرقته سنة ٢٢٣ هـ في عهد المعتصم..

الاهتمام بالعلم في زمن المأمون

نشأ علم الكلام في زمنه وترعرع، وعلم الكلام علم يبحث في أصول الدين

(١) انظر رحمك الله إلى خلفاء المسلمين وما كانوا عليه من العلم والعودة إلى الحق حينما يتبين لهم بالدليل الناصع وحرصهم على أمور الدين.. وانظر كذلك إلى ذكاء هذا الوزير العالم كيف سلك مسلكًا لطيفًا في النصح والإرشاد.

والعقائد ويعتمد على العقل، وظهرت المعتزلة وشيخهم إبراهيم بن سيار (النظام)[1].

ونتيجة لذلك ظهر خلاف بين أهل السنة والجماعة الذين يعتمدون في علوم العقائد على النقل، وبين المعتزلة الذين يقدمون العقل على النقل ومنها المسألة المشهورة: هل القرآن كلام الله القديم أم هو مخلوق؟

وهي مسألة على بساطتها لكنها سبب في ابتلاء كثير من العلماء على يد المأمون، ومن بعده على يد المعتصم، لاعتناقهما المذهب الذي يقول: إن القرآن مخلوق خلافًا لأهل السنة والجماعة..

كان أصحاب المذاهب المخالفة لما عليه عامة الناس لا يستطيعون أن يظهروا آراءهم خوفًا من العامة، فلما جاء المأمون أفسح المجال للمتخالفين أن يتناظروا، فكان يجمع إليه العلماء من المتكلمين والفقهاء وأهل الحديث، ويجعل لهم مجالس مناظرة، وكان يهدف إلى أن يتفق هؤلاء العلماء على رأي فيما يعرض لهم من المسائل ليحمل الجمهور على ذلك الرأي، وتتفق كلمة الأمة خاصة فيما يتعلق بمباحث أصول الدين ومباحث الإمامة.

ويُروى أنه تناظر في حضرته اثنان من أهل التشيع، أحدهما من الإمامية والآخر من الزيدية، وجرى الكلام بينهما إلى أن قال أحدهما للأخر: يا نبطي ما أنت والكلام، فقال المأمون: الشتم عمى والبذاءة لؤم، إنا قد أبحنا الكلام وأظهرنا المقالات، فمن قال بالحق حمدناه، ومن جهل ذلك وقفناه، فاجعلا بينكما أصلاً، فان الكلام فروع فإذا افترعتم شيئًا رجعتم إلى الأصول..

وهذه القصة توضح لنا أن المأمون أباح المناظرات بحرية مطلقة فهذان الرجلان من أهل التشيع، كلاهما على مذهب إن صح أحدهما فهو كفيل أن

(١) انظر فصل الفرق والجماعات.

يذهب بملك آل العباس، ومع ذلك ترك حرية القول.

إيجابيات وسلبيات هذه الحرية في الحوار والتناظر بين العلماء بشتى مذاهبهم.

١) كان من إيجابيتها ثراء العلوم الدينية من خلال الحوار والمناظرة خاصة في الجانب الفقهي الذي يتعلق بالأحكام العملية فكانت ثروة للأمة...

٢) نشوء علم الكلام في حد ذاته لإثبات العقائد بالعقل والمنطق كان مناسبًا لمخاطبة الداخلين في الإسلام من الفرس، الذين يتحاجون بهذه الطرق، فمخاطبتهم بطريقتهم شيء مؤثر لاشك في ذلك.

٣) ولكن اعتماد العقل وحده في إثبات العقائد يؤدي إلى انحراف، لأن العقل محدود والعقائد تتعرض للغيبيات، والحجة فيها للنص الصحيح من القرآن أو السنة.. فحدث انحراف في مسائل كثيرة تمذهب بها فرق وأدت إلى تفرق بعض أجزاء الأمة.

٤) من هذه المسائل القول بخلق القرآن، ومن طول المناظرات اقتنع المأمون تمامًا بالقول بخلق القرآن مخالفًا بذلك جمهور علماء أهل السنة والجماعة، وكان يظن أنه حين يظهر رأيه للعلماء أنهم سيجيبونه إلى رضاهم بمذهبه، ولكن النتيجة كانت عكس ذلك، فتكلموا فيه واتهموه بالابتداع وغلا بعضهم في ذلك فقال بكفر من رأى خلق القرآن، وكان ذلك سنة ٢١٢ هـ.

ومازال الخلاف يتسع حتى كانت سنة ٢١٨ هـ فرأى المأمون أن يستعين بسلطانه في إلزام الفقهاء برأيه، وهو غير محق في ذلك، وكان في هذه السنة غازيًا في بلاد الروم، فبعث إلى عامله في بغداد إسحاق بن إبراهيم أن يجمع الفقهاء، ويمتحنهم في آرائهم في هذه المسألة، فجمع إسحاق نحو ثلاثين رجلاً من العلماء فكان مما دار بينه وبينهم:

قال لبشر بن الوليد: ما تقول في القرآن؟ قال: أقول القرآن كلام الله.

قال: أسألك عن هذا أمخلوق هو؟ قال: الله خالق كل شيء، قال: أما

القرآن شيء؟ قال: هو شيء، قال: فمخلوق هو؟ قال: ليس بخالق، قال: ليس أسألك عن هذا أمخلوق هو؟ قال: ما أحسن غير ما قلت لك، وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه وليس عندي غير ما قلت، فبعث إسحاق بإجابات العلماء عالمًا عالمًا فاغتاظ المأمون منها، فأمره أن يأخذهم بالتهديد ففعل إسحاق فأجابوه جميعًا أن القرآن مخلوق، إلا أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح.

يروى ابن كثير: «لما انتهت النوبة إلى امتحان أحمد بن حنبل قال له إسحاق: أتقول إن القرآن مخلوق؟ فقال: القرآن كلام الله لا أزيد على هذا» إلى أن قال: «وكان من الحاضرين من أجاب إلى القول بخلق القرآن مصانعة مكرهًا لأنهم كانوا يعزلون من لا يجيب عن وظائفه، وإن كان له رزق من بيت المال قُطع، وإن كان شيخ حديث روع عن الإسماع والأداء، ووقعت فتنة صماء ومحنة شنعاء وداهية دهياء فلا حول ولا قوة إلا بالله». فوجه بهما إسحاق إلى طرسوس حيث يغزو المأمون الروم.

وإن من مفاخر التاريخ أن جميع الذين تهاونوا مع المأمون في مسألة خلق القرآن، أهمل المحدثون أمرهم وأنزلوا رتبهم وعدُّوا ذلك عيبًا من عيوبهم، لأن العالم الذي لا يتحمل الأذى أو الجود بالنفس في سبيل اعتقاده لا يُعَدُّ عالمًا.. ومن ثم رأينا الذين ثبتوا في المحنة مثل الإمام أحمد بن حنبل نالوا من التكريم والعناية والفضل ما لا مزيد عليه وزادته المحنة تشريفًا وذكرًا في التاريخ.

٥) كان للمأمون وجهة نظر تبدو صائبة[١] في تعليله محاولة توحيد القوم

(١) والحقيقة أنها ليست صائبة لأن توحيد الآراء في الأمور الفرعية، وفيما يحتمل وجوهًا عدة هو ضرب من المستحيل، وهو مخالف لسنن الله وقد كان أكابر العلماء لا يمتعضون من الخلاف في الفروع، ولا يرون حمل الأمة على رأى واحد، بل كانوا يقولون: من لم يعرف الخلاف لم يشم رائحة الفقه. أي من لم يعرف الآراء المتعددة في المسألة ووجهة نظر أصحابها لم يكن واسع الأفق أو الفقه.

على رأي واحد فيما اختلف فيه من المسائل، وقد كبر الخلاف في مسألة من أهون المسائل وأيسرها حلاً ولكنه كان يقول: «إن أصغر المسائل متى كان أساسًا لنحلة أو سببًا لرياسة فان الخلاف يعظم بسببه أما أعضل الأمور فان الخلاف الشديد لا يجد إليه سبيلاً إذا لم يكن أساسًا لنحلة أو سببًا لرياسة».

كان يمكن للمأمون أن يكون من خيار الخلفاء، لولا هذه السقطة، وقوله بأفضلية على بن أبي طالب على سائر الخلفاء الراشدين قال عنه ابن كثير بعد ذكر فضله وحسن سيرته: وقد كان فيه تشيع واعتزال وجهل بالسنة الصحيحة.

خلافة المعتصم بالله أبو إسحاق محمد بن الرشيد بن المهدي

(من رجب ٢١٨ هـ حتى ربيع الأول ٢٢٧هـ)

تولى الخلافة وعمره تسعة وثلاثون عامًا، وتمت البيعة للمعتصم ببلاد الروم فعاد بالجند إلى بغداد.

كان المعتصم ذا شجاعة وقوة وهمة يحب الشجعان، قوته خارقة هائلة يحمل أرطالاً تعجز عنها الرجال ويمشي خطوات، ويثني الحديد مرات بعد عجز الأبطال عنه، يقول وزيره أحمد بن أبي دؤاد: كان المعتصم يخرج ساعده إليَّ ويقول: يا أبا عبد الله عض ساعدي بأكثر قوتك، فأقول: والله يا أمير المؤمنين ما تطيب نفسي بذلك.

فيقول: إنه لا يضرني، فأروم ذلك، فإذا هو لا تعمل فيه الأسنة فضلاً عن الأسنان. وكان مع ذلك شفوقًا غير أنه إذا غضب لا يبالي من قتل.

وكان يقول عن نفسه: قد علمت أني دون إخوتي في الأدب، لحب أمير المؤمنين لي، وميلي إلى اللعب وأنا حدث، فلم أنل ما نالوا. وسبب ذلك أنه كان مع المعتصم غلام في الكُتَّاب يتعلم معه، فمات الغلام، فقال له الرشيد: يا

محمد مات غلامك. فقال: نعم يا سيدي واستراح من الكُتَّاب.

قال الرشيد: وإن الكُتَّاب ليبلغ منك هذا المبلغ؟! دعوه حيث انتهى لا تعلموه شيئًا ولذلك ورد أنه (كان يكتب كتابة ضعيفة ويقرأ قراءة ضعيفة).

وكانت وصية المأمون للمعتصم: احمل الناس على القول بخلق القرآن، والخرمية فاغزهم بقوة وحزم وجلد، واحشد لهم الأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة، فإن طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك، واعمل في ذلك عمل مقدم النية فيه، راجيًا ثواب الله عليه .

لذلك انصبت جهود المعتصم وأموال الخلافة على القضاء على حركة بابك.

كان بابك من أبطال زمانه وشجعانهم، عاث في البلاد وأفسد وأخاف الإسلام وأهله وغلب على أذربيجان وغيرها وأراد أن يقيم ملة المجوس، وادعى الألوهية وأراد تحويل المُلك من العرب المسلمين إلى الفرس، فأثار ومن تبعه حربًا شعواء على الإسلام والعرب.

فأرسل المعتصم الأفشين أعظم قواده حينئذ لمقاتلة بابك والقضاء عليه.. بيد أن الأمر قد طال رغم أن المعتصم أنفق على هذه الحرب الكثير، وأقام المعتصم البريد على مسافات قريبة ليأتيه خبر المعركة كل يوم وكان جميع من قَتَل بابك في عشرين سنة ٢٥٠٠٠٠ إنسان. وكانت نهايته في هذه المعركة.

كان بابك قد كتب إلى حليفه تيوفيل ملك الروم، عندما ضيق عليه الأفشين، يستنصره ويقول له إن الفرصة مهيأة للانتصار على المسلمين.. تأخر ملك الروم في التحرك فلم يتحرك إلا بعد ما قتل بابك.. فتحرك ملك الروم سنة ٢٢٣ هـ وانقض على مدينة زِبَطرة وأعمل فيها السيف، وقتل الصغير والكبير وسبى النساء بعد ذبح أطفالهن.

وفي ابن خلدون: وبلغ الخبر إلى المعتصم فاستعظمه، وبلغه أن هاشمية صاحت وهي في أيدي الروم: وامعتصماه، فأجاب وهو على سريره: لبيك لبيك، ونادى بالنفير العام ونهض من ساعته.

وعندما سار المعتصم باتجاه الثغور لتأديب تيوفيل تساءل قائلاً: أي بلاد الروم أمنع وأحصن؟ فقيل: عمورية، لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الإسلام، وهي أصل النصرانية وهي أشرف من القسطنطينية فسار باتجاهها بجهاز عظيم من السلاح والعدد وآلات الحصار والنفط ودارت المعركة بقيادة المعتصم وبعد حصار دام ٥٥ يومًا، من سادس رمضان إلى أواخر شوال سنة ٢٢٣ هـ. ودك عمورية واستنقذ المرأة الهاشمية.

وأنشد بعدها أبو تمام قصيدته المشهورة في وصف المعركة وملابساتها:

السيفُ أصدق أنباءً من الكتب — في حدِّه الحد بين الجد واللعب

وكان عدد جيش المسلمين ١٥ ألف فارس وجيش الروم ٢٠٠٠٠٠

فائـــدة: لما جاء المعتصم ورأى أن من ببغداد من جنود لا يوثق بهم، لكثرة اضطرابهم وقيامهم على الخلفاء ورأى للأتراك من شدة البأس والنجدة فأراد أن يكون منهم جيشًا. فاستكثر من غلمان الأتراك وأحضر منهم عددًا عظيمًا فوق ما كان منهم في عهد المأمون وأسكنهم بغداد وكان هؤلاء القوم عُجمًا جفاة يركبون الدواب فيركضون في طرقات بغداد وشوارعها فيصدمون الرجل والمرأة والصبي فيقف لهم الجند من العرب ويجرحونهم.. حتى اشتكى الأتراك إلى المعتصم وتأذت العامة.. فاختط لهم مدينة تكون لهم معسكرًا سماها (سر من رأى) سامراء حاليًا، سكنها المعتصم مع العسكر.. وهي منطقة متميزة من بغداد..

وكان من قواده الذين يعتمد عليهم: الأفشين حيدر بن كاوس، وهو تركي من أشروسنة، ومنهم إيتاخ وأشناس وعجيف بن عنبسة ووصيف وبغا الكبير أبو موسى، وغيرهم. كل هؤلاء القواد من الأتراك اختارهم المعتصم لشجاعتهم وسلّمهم زمام ملك آبائه العرب، وأزال العرب عن قيادة الجيوش، وأسقط أسماءهم من الدواوين واعتز بهؤلاء المجلوبين، فجعل بذلك بنيه تحت سلطان هؤلاء الغلف قلوبهم، يتصرفون فيهم كما يشاءون ولم يكن لهم أنساب معروفة. حتى قال المؤرخون: «إن المعتصم وحده يتحمل تبعة أكثر ما حل بالعباسيين من بعده من اضطراب أمرهم وضعف سلطانهم وما حل بالأمة العربية من غلبة هؤلاء على الأمر. لم يكن الرجل بعيد النظر في العواقب، وإنما كان شجاعًا جسورًا يحب الشجعان ويعتز بهم مهما كان شأنهم، سواء كانت لهم أحساب يحمونها أم ليست لهم أحساب وسواء كان يهمهم شأن الدولة وبقاؤها أم لا؟».

يروى أن أهل بغداد اشتكوا إلى المعتصم إساءة غلمان الأتراك وقالوا له: تحول عنا وإلا قاتلناك، قال: وكيف تقاتلوني وفي عسكري ثمانون ألف دارع!

قالوا: نقاتلك بسهام الليل، وسهام الأسحار، فقال: لا طاقة لي بذلك.

المعتصم ومحنة الإمام أحمد بن حنبل:

ينقل لنا عبد الله ابن الإمام أحمد على لسان أبيه ما ابتلى به في عهد المعتصم فيقول: لما أحضرني المعتصم من السجن زاد في قيودي، فلم أستطع أن أمشي بها فربطتها في التكة وحملتها بيدي، ثم جاءوني بدابة فحملت عليها فكدت أسقط على وجهي من ثقل القيود وليس معي أحد يمسكني، فسلم الله حتى جئنا المعتصم، فأُدخلت في بيت وأغلق علي وليس عندي سراج، فأردت الوضوء فمددت يدي فإذا إناء فيه ماء فتوضأت منه، ثم قمت ولا أعرف القبلة، فلما أصبحت إذا أنا على القبلة ولله الحمد.

ثم دعيت فأدخلت على المعتصم، فلما نظر إلي وعنده وزيره أبو دؤاد قال: أليس قد زعمتم أنه حدث السن وهذا شيخ مكهل؟ فلما دنوت منه وسلمت قال لي: ادنه، فلم يزل يدنيني حتى قربت منه ثم قال: اجلس، فجلست وقد أثقلني الحديد، فمكثت ساعة ثم قلت: يا أمير المؤمنين إلام دعا ابن عمك رسول الله ﷺ؟

قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله، قلت: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، ثم تكلم ابن أبي دؤاد بكلام لم أفهمه، وذلك أني لم أتفقه كلامه ثم قال المعتصم: لولا أنك كنت في يد من كان قبلي لم أتعرض إليك، ثم قال: يا عبد الرحمن ألم آمرك أن ترفع المحنة؟ فقلت: الله أكبر، هذا فرج للمسلمين، ثم قال: ناظره يا عبد الرحمن، كلمه، فقال لي عبد الرحمن: ما تقول في القرآن؟ فلم أجبه، فقال المعتصم: أجبه. فقلت: ما تقول في العلم؟ فسكت، فقلت: القرآن من علم الله، ومن زعم أن علم الله مخلوق فقد كفر بالله، فسكت، فقالوا فيما بينهم: يا أمير المؤمنين كفرك وكفرنا، فلم يلتفت إلى ذلك، فقال عبد الرحمن: كان الله ولا قرآن، فقلت: كان الله ولا علم؟ فسكت.

فجعلوا يتكلمون من ههنا وههنا فقلت: يا أمير المؤمنين أعطوني شيئًا من كتاب الله وسنة رسوله حتى أقول به، فقال ابن أبي دؤاد: وأنت لا تقول إلا بهذا وهذا؟ فقلت: وهل يقوم الإسلام إلا بهما؟وجرت مناظرات طويلة، حتى قال ابن أبي داؤد: هو والله يا أمير المؤمنين ضال مضل مبتدع، وهنا قضاتك والفقهاء فسلهم، فقال لهم: ما تقولون؟ فأجابوا بمثل ما قال ابن أبي دؤاد، ثم أحضروني في اليوم الثاني وناظروني أيضًا في اليوم الثالث وفي ذلك كله يعلو صوتي عليهم وتغلب حجتي حججهم.

فإذا سكتوا فتح الكلام عليهم ابن أبي دؤاد وكان من أجهلهم بالعلم والكلام، وقد تنوعت بهم المسائل في المجادلة ولا علم لهم بالنقل، فجعلوا

ينكرون الآثار ويردون الاحتجاج بها، وسمعت منهم مقالات لم أكن أظن أن أحدًا يقولها، وقد تكلم معي ابن غوث بكلام طويل ذكر فيه الجسم وغيره بما لا فائدة فيه، فقلت: لا أدري ما تقول، إلا أني أعلم أن الله أحد صمد، ليس كمثله شيء، فسكت عني.

وقد أوردت لهم حديث الرؤية في الدار الآخرة فحاولوا أن يضعفوا إسناده ويلفقوا عن بعض المحدثين كلامًا يتسلقون به إلى الطعن فيه، وهيهات، وأني لهم التناوش من مكان بعيد؟ وفي أثناء ذلك كله يتلطف بي الخليفة ويقول: يا أحمد أجبني إلى هذا حتى أجعلك من خاصتي وممن يطأ بساطي.

فأقول: يا أمير المؤمنين يأتوني بآية من كتاب الله أو سنة عن رسول الله ﷺ حتى أجيبهم إليها. فلما أعيتهم الحجج قال إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد: يا أمير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة أن تخلي سبيله ويغلب خليفتين، فعند ذلك حمى المعتصم واشتد غضبه وكان ألينهم عريكة وهو يظن أنهم على شيء فقال لي: لعنك الله، طمعت فيك أن تجيبني فلم تجيبني.

ثم قال: خذوه واخلعوه واسحبوه.. فأخذت وسحبت وخلعت وجيء بالعقابين والسياط وأنا أنظر، وكان معي شعرات من شعر النبي ﷺ مصرورة في ثوبي، فجردوني منه وصرت بين العقابين، فقلت: يا أمير المؤمنين أذكر وقوفك بين يدي الله كوقوفي بين يديك، فكأنه أمسك.

ثم لم يزالوا يقولون له: يا أمير المؤمنين إنه ضال مضل كافر، فأمر بي فقمت بين العقابين وجيء بكرسي فأقمت عليه وأمرني بعضهم أن آخذ بيدي بأي الخشبتين فلم أفهم، فتخلعت يداي وجيء بالضرابين ومعهم السياط فجعل أحدهم يضربني سوطين ويقول له المعتصم: شد قطع الله يديك، ويجيء بالآخر فيضربني سوطين ثم الآخر كذلك، فضربوني أسواطًا فأغمى على وذهب عقلي

مرارًا، فإذا سكن الضرب يعود على عقلي، وقام المعتصم يدعوني إلى قولهم فلم أجبه وجعلوا يقولون: ويحك! الخليفة على رأسك، فلم أقبل وأعادوا الضرب ثم عاد إليَّ فلم أجبه، فأعادوا الضرب ثم جاء إلى الثالثة، فدعاني فلم أعقل ما قاله من شدة الضرب، ثم أعادوا الضرب فذهب عقلي فلم أحس بالضرب، وأرعبه ذلك من أمري وأمر بي فأطلقت ولم أشعر إلا وأنا في حجرة من بيت، وقد أطلقت الأقياد من رجلي، وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين من رمضان في سنة ٢٢١ هـ وكان ثم أمر الخليفة بإطلاقي إلى أهلي)، وكان جملة ما ضرب نيفًا وثلاثين سوطًا وقيل ثمانين سوطًا، لكن كان ضربًا مبرحًا شديدًا.

ولما حمل من دار الخلافة إلى دار إسحاق بن إبراهيم وهو صائم أتوه بسويق ليفطر فامتنع من ذلك وأتم صومه.

ويروى أنه لما أقيم ليضرب انقطعت تكة سراويله فخشى أن يسقط سراويله فتكشف عورته فدعا الله: يا غياث المستغيثين يا إله العالمين، إن كنت تعلم أني قائم لك بحق فلا تهتك لي عورة فعاد سراويله كما كان.

ولما رجع إلى منزله جاءه الجرايحي فقطع لحمًا ميتًا من جسده وجعل يداويه والنائب في كل وقت يسأل عنه، وذلك أن المعتصم ندم على ما كان منه إلى أحمد ندمًا كثيرًا.. فلما عوفي فرح المعتصم والمسلمون بذلك. ولما شفاه الله تعالى جعل كل من آذاه في حل إلا أهل البدعة.

وكان يقول: (ماذا ينفعك أن يُعذَّب أخوك المسلم بسببك؟).

ثم توفى المعتصم ١٧ من ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ وولي عهده ابنه هارون.

***

خلافة الواثق بالله أبي جعفر هارون بن المعتصم بن الرشيد

(من ربيع أول ٢٢٧ هـ حتى ذي الحجة ٢٣٢هـ)

تولى الخلافة وعمره إحدى وأربعون سنة وتوطدت أقدام القواد الأتراك الذين اصطنعهم المعتصم وصاروا أصحاب نفوذ عظيم، ولا سيما أشناس الذي توَّجَه الواثق وألبسه وشاحين بالجوهر في رمضان سنة ٢٢٨هـ.

بل وقام قواد الأتراك لأول مرة بأعظم الأعمال الحربية في جزيرة العرب نفسها وذلك للقضاء على فتنة قامت سنة ٢٣٠ هـ حيث خرجت بنو سُليم حول المدينة فعاثوا في الأرض فسادًا وقاد هذه الحملة بغا الكبير أبو موسى التركي.

وفتنة أخرى قامت سنة ٢٣٢ هـ حيث قامت قبيلة بني نمير باليمامة بالإفساد في الأرض واستطاع أيضًا بغا الكبير أن يقضي على فتنتهم.

عمل شنيع للواثق:

فقد سيطر عليه هو الأخر الفكر المعتزلي وتعصب له وكان يدعو إلى القول بخلق القرآن ليلاً ونهارًا، وفي عهده ارتكب جرمًا شنيعًا إذ قُتِل أحمد بن نصر بن مالك الذي كان من أهل العلم والديانة والعمل الصالح والاجتهاد في الخير، وكان من أئمة السنة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر وممن يخالف رأي الخليفة في القول في القرآن وأبوه هو نصر بن مالك الذي بايعته العامة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند غلبة الفساد ببغداد سنة ٢٠١ هـ. في غيبة المأمون بمرو، استدعاه الواثق وناظره فلم يفلح في إقناعه بما يعتقد فقتله الواثق بنفسه وفُصل رأسه عن جسده وعُلِّق رأسه ببغداد فى ٢٨من شعبان سنة ٢٣١ هـ إلى ٣من شوال سنة ٢٣٧ هـ ولم يغير أحمد عقيدته وثبت. وذكره الإمام أحمد ابن حنبل يومًا فقال: رحمه الله ما كان أسخاه بنفسه لله، لقد جاد بنفسه لله وقال جعفر بن محمد الصائغ: بصرت عيناي وإلا فقئتا، وسمعت أذناي وإلا فصمتا

أحمد بن نصر الخزاعي حين ضربت عنقه يقول رأسه: لا إله إلا الله. وقد سمعه بعض الناس وهو مصلوب على الجذع ورأسه يقرأ: ﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾(١).

فلما حكم المتوكل بعد الواثق وكان محبًا لأهل السنة وفي سنة ٢٣٧ هـ أمر بإنزال رأسه والجمع بين رأسه وجسده وأن يُسلَّم لأوليائه، ففرح الناس بذلك فرحًا شديدًا، واجتمع في جنازته خلق كثير جدًا وجعلوا يتمسحون بها وبأعواد نعشه وتوفى الواثق في ٢٤من ذي الحجة سنة ٢٣٢ هـ ولم يعهد لأحد من بعده فاجتمع كبراء الدولة يومها وهم: أبو دؤاد القاضي ومحمد بن عبد الملك الوزير وإيتاخ من قواد الأتراك وغيرهم ليختاروا الخليفة فاختاروا جعفر المتوكل على الله.

خلافة المتوكل على الله ابن المعتصم بن الرشيد

(من ذي الحجة ٢٣٢ هـ حتى قتل في شوال ٢٤٧هـ)

عرف المتوكل دون سائر أهل بيته بكراهية على بن أبي طالب وأهل بيته وهذا ما يعرف في العقائد بالنصب، وهو ضد التشيع وهو الذي أمر بهدم قبر الحسين بن على بن أبي طالب سنة ٢٣٦ هـ وما حوله من المنازل والدور ونودي في الناس من وجد هنا بعد ثلاثة أيام ذهبت به إلى المطبق فلم يبق هناك بشر، واتخذ ذلك الموضع مزرعة تحرث وتستغل، ومع ذلك كتب المتوكل في الآفاق بالمنع عن الكلام في مسائل الكلام والكف عن القول بخلق القرآن، وأنه من تكلم بها فمأواه المطبق، وأمر الناس ألا يشتغل أحد إلا بالكتاب والسنة لا غير، وأكرم الإمام أحمد بن حنبل، وكان لا يولي إلا بعد مشورته وكانت ولاية يحيى بن أكثم قضاء القضاة مكان ابن أبي دؤاد عن مشورته وقد كان يحيى بن أكثم من أئمة السنة.

(١) البداية والنهاية (١٠-٣١٥).

قال ابن كثير: «وكان المتوكل محببًا إلى رعيته قائمًا في نصرة أهل السنة وقد أظهر السنة بعد البدعة فرحمه الله».

فائدة: عبرة وعظة في هلاك الظالمين ولو بعد حين.

دخل عبد العزيز بن يحيى الكتاني أحد المقربين إلى المتوكل عليه فقال: «يا أمير المؤمنين ما رأيت أعجب من الواثق، قتل أحمد بن نصر الخزاعي وكان لسانه يقرأ القرآن إلى أن دفن» فوجل المتوكل من كلامه، وساءه ما سمع في أخيه الواثق، فلما دخل عليه الوزير محمد بن عبد الملك بن الزيات قال له المتوكل: «في قلبي شيء من قتل أحمد بن نصر» فقال: يا أمير المؤمنين أحرقني الله بالنار إنْ قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافرًا[1] ودخل على المتوكل هرثمة فكلمه المتوكل في ذلك. فقال: «قطعني الله إربًا إربًا إن قتله إلا كافرًا».

ودخل عليه القاضي أحمد بن أبي داؤد فقال له مثل ذلك فقال: «ضربني الله بالفالج إن قتله الواثق إلا كافرًا». قال المتوكل: فأما ابن الزيات فأنا أحرقته بالنار[2]، وأما هرثمة فإنه هرب فاجتاز بقبيلة خزاعة فعرفه رجل من الحي فقال: يا معشر خزاعة هذا الذي قتل ابن عمكم أحمد بن نصر فقطعوه فقطعوه إربًا إربًا. وأما ابن أبي دؤاد فقد سجنه الله في جلده - يعني بالفالج- ضربه الله له قبل موته بأربع سنين.

وفي عهد المتوكل قامت الدولة اليعفرية بصنعاء: ومؤسسها هو يعفر بن عبد الرحيم واستمرت من سنة ٢٤٧ إلى سنة ٣٨٧ هـ ومدتها ١٤٠ سنة

كان نفوذ الأتراك يزداد يومًا بعد يوم، وقد أحس المتوكل بتوغل الأتراك في الدولة، واستبدادهم بأمور الخلافة وإدارتها وجيشها فحاول أن يقلل نفوذهم فبدأ بإيتاخ فدبر له مكيدة حتى قتل.

---

(١) أي لم يقتل الواثق أحمد بن نصر إلا لكفر أحمد!!

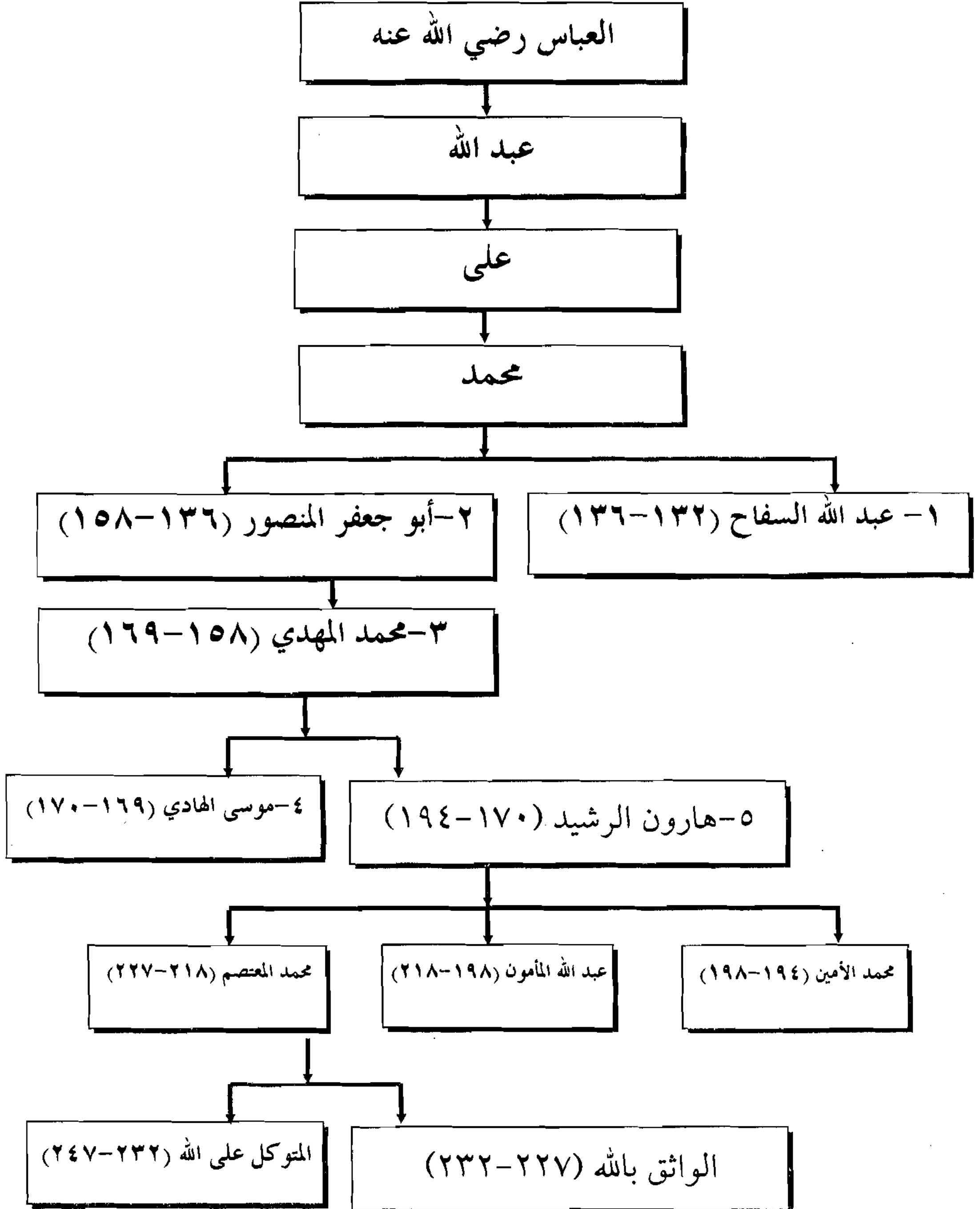
(٢) وذلك أنه لما رأى منهم هذه الجرأة عزم على التنكيل. بهم.

وحاول المتوكل أن ينتقل بعاصمة الخلافة إلى دمشق - ربما ليستعين بسلطان العرب على الأتراك - ولكنه لم يتحمل البقاء بدمشق فعاد إلى بغداد.. وكان قد شاع أنه عزم على الفتك بوصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم، ولكن لم يتأت له ذلك لأنهم سبقوه إلى الغدر به.

وذلك: أن المتوكل قد ولى العهد من بعده لابنه عبد الله وكان ابنه الآخر المنتصر بالله حانقًا على أخيه وعلى أبيه من أجل ذلك، وكان الأتراك يميلون إلى المنتصر بالله، وكانوا يشمون رائحة الغدر بهم من ناحية المتوكل، فتحالف المنتصر بالله مع بعض جند الأتراك ودخلوا على المتوكل وهو عليل وقتلوه وكان ذلك بداية لعهد تمكن نفوذ الأتراك.

خلفاء الدولة العباسية في عصر القوة

(١٣٣-٢٤٧هـ)



العصر العباسي الثاني

عهد نفوذ الأتراك

خلافة محمد المنتصر بن المعتصم

(من شوال ٢٤٧ هـ حتى ربيع الآخر ٢٤٨ هـ)

زادت قوة الأتراك في الدولة، لأن أيديهم امتدت إلى حياة الخلفاء فقتلوا الخليفة وساقوا الخلافة إلى خليفة، فأنشبوا أظفارهم بذلك في جسم الدولة، وكانوا لا يحبون ولاية العهد للمعتز والمؤيد ابني المتوكل، فلم يزالوا بالمنتصر حتى أجبر أخويه على أن يكتبا طالبين أن يخلعا من ولاية العهد.. وبذلك وصل عجز الخليفة مداه تحت ضغط عسكر الأتراك، ويبدو أنه ندم على قتل أبيه فإنه لا يزال يؤنب نفسه في يقظته ومنامه ويبكي ليلاً ونهارًا ندمًا على فعلته وهم بالانتقام من قتلة أبيه ولكنه لم يستطع ووافته المنية في ٥ من رَبيع آخر سنة ٢٤٨ هـ.

خلافة المستعين بالله أحمد بن محمد بن المعتصم بن الرشيد

(من ربيع الآخر ٢٤٨ هـ حتى محرم ٢٥٢ هـ)

اختير بمعرفة قادة الأتراك (بغا الصغير وبغا الكبير وأتامش) فلم يولوا أحدًا من أبناء المتوكل لئلا يغتالهم بدم أبيه، فكان أول خليفة من بني العباس لم يكن أبوه خليفة، بعد مؤسسي الدولة السفاح والمنصور، وأول خليفة تولى بعد ابن عمه.

ضعف نفوذ الخليفة وتحكم الموالي من الأتراك، فهم يعينون الوزير فإذا غضبوا عليه عزلوه وصادروا أمواله.

ثم تولى أتامش أحد قواد الأتراك الوزارة، وأصبح صاحب السلطان التام فحسده أصحابه من الأتراك، وصيف وبغا، فألبوا العسكر عليه فقتل أتامش وانتهبت داره.

واستوزر الخليفة بعده أبا صالح عبد الله بن محمد، وولَّى بغا الصغير فلسطين وولَّى وصيفًا الأهواز، وفي سنة ٢٥١ هـ اجتمع رأي المستعين وبغا الصغير ووصيف على قتل باغر التركي وكان من قواد الأمراء الكبار الذين باشروا قتل المتوكل، وقد اتسع إقطاعه وكثرت عماله فقتل ونهبت أمواله.

وفي عهد المستعين قامت الدولة الزيدية خرج الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن عليّ بنواحي طبرستان، واستطاع أن يكون دولة عرفت بالدولة الزيدية بطبرستان (٢٥٠هـ - ٣٠٠هـ).

في سنة ٢٥١ هـ وقعت فتنة عظيمة بين جند بغداد وجند سامراء، ودعا أهل سامراء إلى بيعة المعتز، وكان مسجونًا فأُخرِج، واستقر أمر أهل بغداد على بيعة المستعين، فصارت بغداد في جانب المستعين وسامراء في جانب المعتز، وأمر المستعين محمد بن عبد الله بن طاهر أن يحصن بغداد، وأدير حولها السور وحفرت حولها الخنادق ونصب على السور مجانيق وأسلحة كثيرة عظيمة، وبعث المعتز إلى محمد بن عبد الله بن طاهر يدعوه إلى الدخول معه، ويذكره بعهد أبيه المتوكل أن يبايع بعده المعتز، ولكن عبد الله لم يأبه لذلك.

وانضم الأتراك إلى معسكر المعتز وجرت بينهما حروب طويلة وفتنة مهولة جدًا.

ولما تفاقم الحال جعل ابن طاهر يضغط على المستعين حتى خلع المستعين نفسه، وأرسل بن طاهر بذلك مع جماعة من الأمراء إلى المعتز بسامراء، فلما قدموا عليه بذلك أكرمهم وخلع عليهم.

وبالطبع أثرت هذه الخلافات على الأحوال الخارجية للبلاد، واستطاعت الروم أن تنزل الهزائم بالمسلمين وقتلوا قائدين عظيمين للمسلمين من قواد الثغور هما عمر بن عبد الله الأقطع وعلي بن يحيى الأرمني.

خلافة أبي عبد الله المعتز بن المتوكل بن المعتصم

(من المحرم ٢٥٢ هـ حتى رجب ٢٥٥ هـ)

ولم يكن في مدة خلافته سوى مزيد من ضعف الخلافة العباسية وتنازع الجند الأتراك والمغاربة الأمر فانتهى الأمر بخلعه بعد ثلاث سنوات ونصف.

فعل شنيع بالخليفة..

لم تكن له كلمة مسموعة، وكان سبب خلعه أن الجند اجتمعوا فطلبوا منه أرزاقهم فلم يكن عنده ما يعطيهم.. فاجتمع الأتراك على خلعه فأرسلوا إليه ليخرج إليهم، فاعتذر بأنه شرب دواء وأن عنده ضعف، ولكن ليدخل إلى بعضكم، فدخل إليه بعض الأمراء فتناولوه يضربونه وجروا برجله وأخرجوه وعليه قميص مخرق لطخ بالدم، فأقاموه في وسط دار الخلافة في حر شديد حتى جعل يراوح بين رجليه من شدة الحر، وجعل بعضهم يلطمه وهو يبكي ويقول له الضارب: اخلعها والناس مجتمعون، ثم أدخلوه حجرة مضيقًا عليه وما زالوا عليه بأنواع العذاب حتى خلع نفسه عن الخلافة وولى بعده المهتدي بالله.

ثم سلموه إلى من يسومه سوء العذاب بأنواع المثلات، ومُنع من الطعام والشراب ثلاثة أيام، حتى جعل يطلب شربة من ماء فلم يُسق، ثم أدخلوه سَرَبًا فيه جص جير فدسوه فيه فأصبح ميتًا، فاستلوه من الجص سليم الجسد وأشهدوا عليه جماعة من الأعيان أنه مات وليس به أثر.

خلافة محمد المهتدي بالله بن هارون الواثق بن المعتصم بن الرشيد

(من رجب ٢٥٥ هـ إلى أن خلع في رجب ٢٥٦ هـ)

أحضر الأتراك محمد هذا ليخلف المعتز بالله، وكان المعتز قد نفاه إلى بغداد واعتقله، فلما جاء إلى سامراء تلقاه الموالي في الطريق، وعرضوا عليه الخلافة

فأبى أن يقبلها قبل أن يرى المعتز ويسمع كلامه فلما دخل على المعتز ورآه على الحالة التي وصفنا آنفًا، عانقه وجعل يسأله عن سوء حاله وأراد محمد أن يصلح بينه وبين الأتراك ولكن المعتز قال له: لا حاجة لي فيها ولا يرضون بي.

وكان المهتدي من صالح بني العباس يكره الظلم، بنى قبة لها أربعة أبواب وسماها قبة المظالم وجلس فيها للعام والخاص للمظالم، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وحرم الشراب ونهى عن القيان، وكان فيه ديانة وتقشف حتى أن الجند تأسوا به، ولكن أمور الدولة لا تزال يتحكم فيها الخلافات بين الأتراك

والخلاف دب بين بعض القادة، ولأن المهتدي قد مال لصالح الدولة مع أحدهم أرادوا خلعه.. فانتشر الخبر في العامة فكتبوا رقاعًا ألقوها في المسجد الجامع وفي الطرقات ونص هذه الرقاع:

(بسم الله الرحمن الرحيم.. يا معشر المسلمين ادعوا الله لخليفتكم العدل الرضا أن ينصره الله على عدوه ويكفيه مؤنة ظالمه .. فإن الموالي قد أخذوه بأن يخلع نفسه وهو يعذب منذ أيام والمدبر لذلك فلان وفلان رحم الله من أخلص النية ودعا.. وصلى على محمد ﷺ).

فلما بلغ ذلك الأتراك خافوا ثورة العامة فأرسلوا إلى المهتدي يخبرونه أنهم يبذلون دماءهم دونه..وشكوا مع ذلك سوء حالهم وتأخر أرزاقهم وما صار من الإقطاعات إلى قوادهم، فوعدهم المهتدي خيرًا ولكنه لا يملك الآن ما يعطيهم منه فأعادوا عليه الطلب وأنهم سيصيرون إلى باب أمير المؤمنين حتى تقضى حوائجهم.

لقد كانت ثورة من الجند على قادتهم، ولكنها غير منظمة ولو وجدت هذه الثورة خليفة قويًا وانتهزها المهتدي لتخلص من نفوذ الأتراك، ولكنه لم يفعل بل كان ظاهره مع الرؤساء وباطنه مع الجنود، ويظهر أنه أراد استعمال الحيلة في الخلاص منهم

ولكنهم كشفوا أمره وقامت فتنة ومعركة، فريق الناقمين على الأتراك من العامة والموالي من غير الأتراك من ناحية، وبين الأتراك من ناحية أخرى، وخرج الخليفة المهتدي وفي عنقه مصحف يدعو الناس إلى نصرته ولكن الأتراك انتصروا.

وقبضوا على المهتدي وحملوه إلى داره مهانًا في ١٤من رجب سنة ٢٥٦ هـ ثم خلعوه لما أبى أن يخلع نفسه ثم مات في ١٨من رجب سنة ٢٥٦ هـ.

خلافة أحمد المعتمد على الله بن المتوكل بن المعتصم

(من رجب ٢٥٦ هـ حتى رجب ٢٧٩ هـ)

كان من مطالب الأتراك أن يتولى أمر الجيش أحد إخوة أمير المؤمنين ولا يرأسهم واحد منهم لما كان بينهم من الخلاف والمنافسة فولَّى المعتمد أمرهم إلى أخيه أبي أحمد طلحة بن المتوكل فولاه أمر الجيش والولايات.

فصار السلطان الحقيقي لأبي أحمد لا للخليفة، وصارت كلمة أبي أحمد هي العليا، على الأتراك وقوادهم فحسَّن ذلك الأحوال بعض التحسين ولكن المعتمد نفسه ساءت أحواله لأنه لم يترك له شيء من التصرف حتى أنه احتاج في بعض الأحيان إلى ثلاثمائة دينار فلم يجدها، والمعتمد هو أول خليفة انتقل بعاصمة الخلافة من سامراء إلى بغداد ثانية منذ عهد المعتصم.

كان أبو أحمد غزير العقل حسن التدبير، يجلس للمظالم وعنده القضاة، فينصف المظلوم، وكان عالمًا بالأدب والفقه وسياسة الملك، وله محاسن ومآثر كثيرة لقبه أخوه بالموفق بالله، ولما هزم صاحب الزنج لقبه الناس الناصر لدين الله.

ثورة صاحب الزنج

في رمضان سنة ٢٥٥ هـ قام دعي في آل علي لا يعرف له نسبٌ ولا رحمٌ زعم أن اسمه علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن

الحسين بن على بن أبي طالب فادعى أنه عباسي ودعا الناس إلى طاعته

ظهرت فتنته أولاً بالبحرين ثم تحول عنهم إلى البادية، ثم إلى البصرة سنة ٢٥٤ هـ.

ثم مضى الدعيُّ ومن اتبعه حتى وصل بغداد، فأقام بها عامًا يستميل الناس سرًا، ثم شخص إلى البصرة، ونزلوا بقصر قريب منها يعرف بقصر القرشي، وهناك استعان بالعبيد الذين كانوا يعملون بتلك النواحي في حمل السباخ وغيره لأهل البصرة، وهم كثيرو العدد يهمهم أن ينالوا الحرية ويخرجوا مما هم فيه فكيف لو وُعِدوا مع الحرية بالسيادة على مالكي رقابهم؟

فأخذ هذا الدعيّ منهم غلامًا اسمه ريحان بن صالح ووعده أن يكون قائدًا، وأمره أن يحتال للعبيد الذين يعرفهم حتى يجيبوه إلى نحلته، ويتركوا سادتهم وأعمالهم فاجتمع إليه كثير منهم فخطب فيهم ومناهم، ووعدهم وحلف لهم الأيمان الغلاظ ألا يغدر بهم، والتفت الزنوج حوله وراقتهم دعوته.

وكان كل جيش يبعث من قبل الخليفة يهزمه، ومضى يعيث في الأرض فسادًا يحرق وينهب، واستفحل أمره، وعظم شره وخيف على الدولة منه فلم ير أبو أحمد الموفق إلا أن يحشد إليه الجموع ويتولى هو قيادتها بنفسه، واصطحب معه ابنه أبا العباس، وكان نائبه، وتطوع الناس لحرب هذا الدعي.

وقد كانت لأبي أحمد معه وقائع مذهلة وخطوب جسام استمرت أعوامًا، استعان فيها الموفق بربه ودعاه وناداه وتحمل الشدائد حتى أنه أصيب بسهم، فمرض منه أيامًا، واضطرب الناس أثناء فترة مرضه، ولكنه كان يحثهم على المواصلة حتى شفاه الله فأتم له النصر على عدوه، وحملت إليه رأس الخبيث فلما تيقن منها خر لله ساجدًا، وفرح المسلمون بذلك في المشارق والمغارب، وكان ذلك في صفر سنة ٢٧٠ هـ فكانت أيام هذا الدعي من لحظة خروجه إلى مماته أربع عشر سنة.

وفي هذا العهد:

قامت الدولة الطولونية بمصر سنة ٢٥٨ هـ واستمرت حتى سنة ٢٩٢ هـ ومؤسسها أحمد بن طولون كان مملوكًا تركيًا وسيأتي لها مزيد تفصيل.

كما قامت في هذا العهد الدولة السامانية سنة ٢٦١ هـ ببلاد ما وراء النهر واستمرت حتى سنة ٣٨٩ هـ أي دامت قرابة مائة وسبعين سنة، وقامت على أيدي آل سبكتكين من جهة، والترك الخاقانية من جهة أخرى وسيأتي مزيد من بيان ذلك.

وفي عهده ظهر القرامطة بثلاثة مواضع بالبحرين والعراق والشام، وكذلك كان يشتغل دعاة الفاطميين باليمن وأفريقية، فكأن الدعوة الإسماعيلية رتبت أن يكون ظهورها في آن واحد بجميع الجهات الإسلامية حتى لا يكون لبني العباس قِبَل بملاقاة شرها وكذلك كان. ثم توفى المعتمد في ٩ من رجب ٢٧٩هـ.

خلافة المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن أبي أحمد الموفق طلحة بن المتوكل بن المعتصم

(من رجب ٢٧٩ هـ حتى ربيع آخر ٢٨٩ هـ)

كان من خيار خلفاء بني العباس ورجالهم، وكان شهمًا جلدًا، موصوفًا بالرجولة، وقد لقي الحروب، وعرف فضله، فقام بالأمر أحسن قيام، وهابه الناس، وكانت أيامه طيبة، كثيرة الأمن والرخاء، وقد أسقط المكوس، ونشر العدل، وكان يسمي «السفاح الثاني»؛ لأنه جدد ملك بني العباسي، وكان قد خَلقَ وضعف، وكاد يزول، وكان في اضطراب منذ قتل المتوكل.

ومنع الوراقين من بيع كتب الفلاسفة، وما شاكلها، ومنع القصاص والمنجمين من القعود في الطريق، وكان يمسك عن صرف الأموال في غير وجهها، فلهذا كان يبخله بعض الناس.

وفي أيام المعتضد بالله زاد الغزو في بلاد الروم، سواء أكان عن طريق الثغور الشامية وخاصة طرسوس التي غالبًا ما كانت بأيدي الطولونيين أم عن طريق ثغور الجزيرة. وكذلك فقد كان غزو بلاد الترك التي بعد ما وراء النهر حيث كان يقوم السامانيون بالغزو، وقد سار إسماعيل بن أحمد بن أسد الساماني عام ٢٨٠ إلى بلاد الترك وأسر ملكهم وزوجته «خاتون»، وجري تبادل الأسرى بين المسلمين والروم عام ٢٨٣هـ، وكان عدد الأسرى من المسلمين أربعة وخمسمائة وألفين.

توفي ليلة الأثنين لثمان بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين وعهد بالولاية لابنه المكتفي.

خلافة المكتفي بالله على بن أحمد المعتضد بن أبي أحمد بن المتوكل

(من ربيع آخر ٢٨٩ هـ حتى ذي القعدة ٢٩٥ هـ)

انتكست البلاد في عهده وازدادت الصراعات والمنافسات بين ذوي النفوذ بالدولة.

قاتل القرامطة ونظف النواحي الشامية منهم في محرم سنة ٢٩١ هـ ولكن ذلك لم يكن مبيدًا للمذهب القرمطي.

وضعف سلطان هذه الفرقة بالعراق بعد مقتل زكرويه[١] وأولاده وقتل أكثر دعاتهم ولكن نفى أخطر دعاتهم وهو الجنابي بالبحرين، ولم يكن له في عهد المكتفي كبير عمل وإنما كانت مصائبه ورزاياه في عهد المقتدر.وفي عهده انتهت دولة بني طولون بمصر سنة ٢٩٢ هـ على يد العباسيين كما انتهت دولة الأغالبة بإفريقية على يد أبي عبيد الله الشيعي داعية الفاطميين بالمغرب كما سيأتي ذكره.

---

(١) كبير دعاة القرامطة.

خلافة جعفر المقتدر بالله بن المعتضد بن أحمد بن المتوكل

(من ذي القعدة ٢٩٥ هـ حتى قتل في شوال ٣٢٠ هـ)

تولى الخلافة وسنه ١٣ سنة عن عهد من أخيه لم يرق الأمر للناس لصغر سنه فحدثت محاولة لخلعه من كبار القادة وتولية عبد الله بن المعتز ولكنها فشلت.

حكومة النساء:

والحقيقة أن هيبة الخلافة قد سقطت في عهد المقتدر فهو شاب صغير لا يعرف عن السياسة شيئًا، ولا من الشجاعة شيئًا وكانت له أم وقهرمانة صار لهما الحكم في كل ما يجرى من الشئون، وإليهما يتقرب بالرشوة من يريد عملاً أو وزارة، والمقتدر لاهٍ بما هو فيه من اللعب واللهو والسرف ولم يعد بيده شيء، تولى الوزارة في عهده اثنا عشر وزيرًا، منهم من تقلد الوزارة مرتين وثلاثًا وكانت تنال بالرشوة، وتدخل في أمر تعيين الوزراء النساء والخدم والحاشية، ولم يكن الصالح منهم يبقى في العمل كثيرًا لأن بقاءه يتبع رضا أم المقتدر وقهرمانته وخدم الدار، وهؤلاء لا يرضون إلا إذا حوبوا بالأموال الكثيرة التي بها تفسد المالية، وتختل موازنتها فمتى حصل التقصير عن دفع الأموال جيء بآخر يستطيع أن يدفع، وسرعان ما يقبض على الأول ويصادر ويعين الثاني.

وفي سنة ٣٠١ هـ قُتِل أبو سعيد الجنابي زعيم القرامطة وتولى ابنه سعيد إلا أن أخاه أبو طاهر سليمان الجنابي قد تغلب عليه وقاد القرامطة من بعده. وفي عهده فعل القرامطة الأفاعيل واشتد نفوذه وسار نحو الكوفة وتقدم ناحية العاصمة بغداد، وهم يهزمون جيوش الخلافة الواحد تلو الآخر.

وورد الخبر بذلك إلى بغداد فخاف الخاص والعام من القرامطة خوفًا شديدًا، وعزموا على الهرب إلى حلوان وهمذان..كل ذلك وعدد القرامطة لا يزيد عن ٢٧٠٠ حتى أنه لما علم المقتدر بعددهم قال: (لعن الله نيفًا وثمانين

ألفًا يعجزون عن ألفين وسبعمائة!!).

وفي سنة ٣١٢ هـ اعترض القرمطي أبو طاهر الحسين بن سعيد الجنابي للحجيج وهم راجعون من بيت الله الحرام.. فلما حاولوا أن يدافعوا عن أنفسهم وأموالهم وأعراضهم قتل منهم خلقًا كثيرًا وأسر من نسائهم وأبنائهم، ثم بعث الخليفة بجيش بقيادة مؤنس الخادم لقتال القرامطة وأنفق على خروجه ألف ألف دينار فخافه أبو طاهر وأطلق من كان معه من أسرى الحجيج.. فسكن الأمر وانصلحت الأحوال..

وفي عهد المقتدر أعلن عبد الرحمن الناصر أمير الأندلس نفسه أميرًا للمؤمنين.

وفي إفريقية قامت الدولة الفاطمية سنة ٢٧٩ هـ قضت على دولة الأدارسة من المغرب الأقصى والأغالبة من إفريقية وجعلت مقرها مدينة المهدية التي أسسها عبيد الله المهدي بالقرب من القيروان، وسيأتي ذكر الدولة الفاطمية في فصل خاص.

وفي الموصل ابتدأت دولة آل حمدان ولكن لم يتمكن سلطانهم، في عهد المقتدر، قامت سنة ٢٩٣ هـ واستمرت حتى ٣٨٠ هـ وسيأتي بيان هذه الدولة..

نهاية شنيعة:

كانت نهاية المقتدر بائسة، شغب الجند واستاء القادة وحصل مواجهة بينه وبين أحد أكبر القادة في عصره وأعظمهم نفوذًا وهو مؤنس الخادم الملقب بالمظفر قائد عام الجيوش وهُزِم الخليفة وقتل على يد بعض الجند وذبحوه، ثم رفعوا رأسه على خشبة وهم يكبرون ويلعنونه، وأخذوا جميع ما عليه، حتى سراويله، وتركوه مكشوفًا إلى أن مر به رجل فستره بحشيش ثم حفر له موضعه ودفن وكان عمره حين قتل ٣٨ عامًا.

خلافة أبي محمد القاهر بن المعتضد بن الموفق طلحة بن المتوكل

(من شوال ٣٢٠ هـ حتى خلع في جمادى الأولى ٣٢٢هـ)

جاء باختيار مؤنس قائد الجيش، وكان أول ما فعله هو إحضار أم المقتدر وتعذيبها، وكانت مريضة ليعرف أين كان مالها وجواهرها فاستلب جميع ما تملك.

وكان القاهر شريرًا خبيث النية سرعان ما غدر بمؤنس، وأمر بالقبض عليه وكل من أجلسوه على كرسي الخلافة ولما تمكن منهم القاهر أمر بقتلهم وأما من بقى منهم فقد أخذ يخطط للتخلص من القاهر فقبضوا عليه وسملوا عينيه فقضوا عليه وخلعوه بتخطيط من وزيره ابن مقلة.

خلافة الراضي أبي العباس
أحمد المقتدر بن أبى أحمد الموفق طلحة بن المتوكل

(من جمادى الأولى ٣٢٢ هـ حتى ربيع أول سنة ٣٢٩هـ)

اختاره القادة وعينوه خليفة، كالعادة كانت الكلمة العليا في أول عهده لمن ساعده وهو الوزير بن مقلة وحاجبه محمد بن ياقوت ولكن سرعان ما انقلب على ابن ياقوت، الذى توفى مسجونًا ثم انقلب على ابن مقلة وسجنه.

واضطربت الأحوال فاضطر الراضي أن يرسل إلى محمد بن رائق وهو بواسط يعرض عليه الولاية ببغداد، فقلده الراضي لقب أمير الأمراء وولاه الدواوين، ومن ذلك الوقت بطلت الدواوين وبطلت الوزارة وانتقل السلطان الحقيقي لابن رائق وصارت الوزارة شكلية..

عجبًا : كان ابن رائق وكاتبه ينظران في الأمور جميعها وكذلك كل من تولى إمرة الأمراء بعده، وصارت الأموال تُحمَلُ إلى خزائنهم فيتصرفون فيها كما يريدون، ويطلقون للخليفة ما يريدون وبطلت بيوت الأموال.

ودارت صراعات ونزاعات للفوز بهذا المنصب -الذي لم يدم طويلاً لابن رائق- كلٌ يريد أن تكون له إمارة الأمراء ببغداد، والأعداء ينتقصون في كل يوم من أرض الخلافة جزءًا ولم يعد لها شيء من الهيبة ولا نفوذ الكلمة.

ظهرت في عهد الراضي الدولة الإخشيدية بمصر على يد مؤسسها محمد بن طغج الإخشيدي وهو من موالي آل طولون وكان ملكه مصر سنة ٣٢٣ هـ إلى سنة ٣٥٨ هـ وهم الذين تسلم منهم الفاطميون مصر.

ختم الراضي الخلفاء في أشياء منها:

♦ أنه آخر خليفة دون له شعر- وآخر خليفة انفرد بتدبير الملك- وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة- وآخر خليفة جالس الندماء ووصل إليه العلماء- وآخر خليفة كانت مراتبه وجوائزه وخدمه وحجابه تجري على قواعد الخلفاء المتقدمين، وفي أيامه حدث اسم أمير الأمراء في بغداد وصار إلى أمير الأمراء الحل والعقد، والخليفة يأتمر بأمره وليس له من نفوذ الكلمة ولا سلطان الخلافة شيء.

خلافة إبراهيم المتقي لله بن المعتمد بن أبي أحمد الموفق

(من ربيع أول ٣٢٩ هـ حتى خلع في صفر ٣٣٣هـ)

عينه القادة والوزراء ولم يكن له من الأمر شيء، واشتد الصراع عل منصب أمير الأمراء ولم يكن يستقر الحال لأحدهم طويلاً:

(ابن رائق - بجكم - البريدي - ناصر الدولة ابن حمدان - توزون) واستمر الحال على ذلك حتى خلعه توزون، وسمل عينيه وأدخله بغداد وهو على هذه الحال، وأرغمه على بيعة المستكفي، ثم سجن في جزيرة بالنهر، وبقي في سجنه مدة خمس وعشرين سنة حتى توفي عام ٣٥٧هـ، وفي أيام المتقي هاجم الروم المسلمين ووصلوا إلى نصيبين فقتلوا وسبوا ما شاء لهم هواهم أن يفعلوا.

دور جديد للدولة العباسية سنة ٣٣٤ حتى سنة ٤٤٧
سيطرة البويهيين على مقاليد الحكم

يبتدئ هذا الدور من سنة ٣٣٤ حتى سنة ٤٤٧ تولى فيه الخلافة خمسة خلفاء أولهم.

خلافة المستكفي أبي القاسم عبد الله بن المكتفي بن المعتضد

(من صفر ٣٣٣هـ حتى خلع في جمادى الآخرة ٣٣٤هـ)

ويرتبط هذا الدور بتاريخ آل بويه الديلميين، الذين كانوا أصحاب النفوذ الحقيقي والسلطان الفعلي في العراق.

فائـــدة:

كيف وصل آل بويه إلى الاستيلاء على بغداد عاصمة الخلافة العباسية؟

بلاد الديلم تقع في الجنوب الغربي من شاطئ بحر الخزر.... كانت في القديم إحدى الولايات الفارسية، إلا أن أهلها لم يكونوا من العنصر الفارسي بل عنصر ممتاز يطلق عليه اسم الديالمة أو الجيل.

فتحت بلاد الديلم في عهد عمر بن الخطاب، وخضعت للحكم الإسلامي مع بقائهم على وثنيتهم.... وكانت تجاورهم بلاد طبرستان وأكثر أهلها دانوا بالإسلام وكان بين الديالمه والطبريين سلم وموادعة.

واستمر الحال على ذلك بعد قيام الدولة العباسية، فلا الديالمة تحدثهم أنفسهم بالخروج إلى بلاد المسلمين ولا المسلمون يحدثون أنفسهم بالتوغل إلى بلادهم.

حتى عهد المستعين الذي أرسل محمد بن طاهر ليحكم تلك البلاد

- كان ذلك سنة ٢٥٠ هـ - ولكن أهل طبرستان امتنعوا وأعلنوا العصيان لمحمد بن طاهر وجعلوا عليهم الحسن بن زيد (الدولة الزيدية)وطلبوا من الديلم أن يساعدوهم على عمال ا بن طاهر ففعلوا.

وظل الحسن يحكم مدن طبرستان ثم الري وجرجان حتى مات سنة ٢٧١هـ ثم تولى أخوه محمد بن زيد وكانت مدته مضطربة حتى قتل سنة ٢٨٧ هـ وكان وجود الحسن ومحمد من أسباب شيوع الإسلام في أهل الديلم.

ثم دخل بلاد الديلم الحسن بن على الملقب بالأطروش سنة ٣٠١ هـ وأقام بينهم ١٣ سنة يدعوهم إلى الإسلام فأسلم منهم خلق كثيرون واجتمعوا عليه وبني في بلادهم المساجد.. ولكن إسلامهم ملتبس بتشيع.. ثم بعد فترة استطاع الأطروش بمساعدة الديلم أن يستولي على طبرستان وجرجان من السامانيين.. ثم توفى الأطروش سنة ٣٠٤ هـ.وتطورت الأحوال بمرور الأيام حتى سنة ٣٢٣ هـ صارت القوى الكبرى بهذه البلاد على النحو التالي:

قوة على بن بويه بفارس والري.

وقوة السامانيين بخراسان وما وراء النهر.

وكان بنو بويه ثلاثة هم: علىّ والحسن وأحمد فلما ضعف سلطان الخليفة خطر ببال علىٍّ بن بويه أن يرسل أخاه الأصغر أحمد ليمد سلطانه إلى الأهواز والعراق.

واستطاع أحمد أن يسيطر على الأهواز بعد حروب بينه وبين بجكم الرائقي وانهزم بجكم وفر إلى واسط.

وكاتب قواد بغداد أحمد بن بويه يطلبون إليه المسير نحوهم للاستيلاء على بغداد فوصلها في ١١ من جمادى الأولى سنة ٣٣٤ هـ والخليفة هو المستكفي بالله فقابله واحتفى به وبايعه أحمد وحلف كل منهما لصاحبه، هذا بالخلافة وذاك بالسلطنة، وفي هذا اليوم شرّف الخليفة بني بويه بالألقاب:

فلقب عليًا صاحب بلاد فارس (عماد الدولة)

والحسن صاحب الري والجبل (ركن الدولة).

ولقب أحمد صاحب العراق (معز الدولة)

وأمر أن تضرب ألقابهم وكُناهم على النقود.

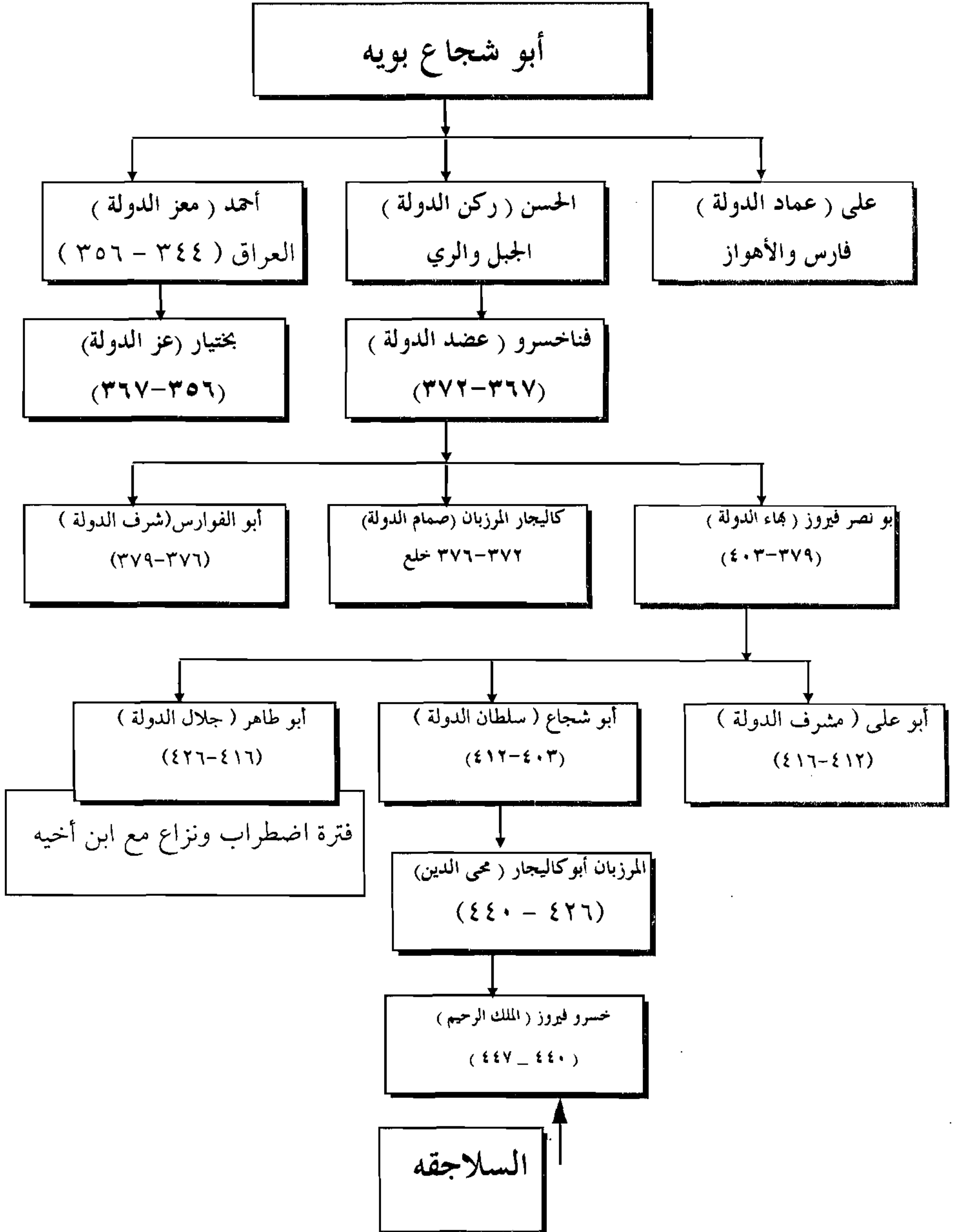
وهذا اليوم هو تاريخ الدور الثاني للخلافة العباسية وهو تاريخ سقوط السلطان الحقيقي من أيديهم، وصيرورة الخليفة منهم رئيسًا دينيًا لا أمر له ولا نهى ولا وزير، وإنما له كاتب يدبر إقطاعياته وإخراجاته لا غير، وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يشاء...

خطر ببال معز الدولة أن يزيل اسم الخلافة أيضًا عن بني العباس ويوليها علويًا، لأن معز الدولة كان من قوم انتشرت فيهم تعاليم الشيعة الزيدية كما رأينا، فكانوا يعتقدون أن بني العباس قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها، ولكن بعض خواصه أشار عليه ألا يفعل وقال له:

إنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة، ومتى قتلته أجلست بعض العلويين خليفة اعتقدت أنت وأصحابك صحة خلافته، فلو أمرهم بقتلك لفعلوا. فأعرض عما كان قد عزم عليه.

* * *

آل بويه (٣٣٤ هـ- ٤٤٧هـ)



فائـــدة: ما وصلت إليه الأمة الإسلامية في ذلك الوقت:

- الأندلس يحكمها عبد الرحمن الناصر أمير المؤمنين.
- بلاد إفريقية ويحكمها الفاطميون.
- أقصى المغرب ويحكمها الأدارسة والقائم بالأمر منهم إسماعيل المنصور وهو ثاني خلفائهم ويلقب بأمير المؤمنين.
- مصر والشام ويحكمها الإخشيديون ويخطبون باسم الخليفة العباسي.
- حلب والثغور لسيف الدولة عليّ بن عبد الله بن حمدان الشيباني ويخطبون باسم الخليفة العباسي.
- الجزيرة الفراتية لناصر الدولة الحسن بن على بن عبد الله بن حمدان ويخطب باسم الخليفة العباسي.
- العراق للديلم والسلطان منهم معز الدولة أحمد بن بويه ويخطب على منابره باسم الخليفة العباسي ثم باسم معز الدولة من بعده.
- عمان واليمن والبحرين وبادية البصرة للقرامطة ويخطبون باسم المهدي الفاطمي.
- فارس والأهواز لعلي بن بويه الملقب بعماد الدولة ويخطب باسم الخليفة العباسي وكان يلقب بأمير الأمراء لأنه أكبر بني بويه.
- الجبل والري لحسن بن بويه الملقب ركن الدولة ويخطب باسم الخليفة العباسي وجرجان، وطبرستان عليها نزاع بين آل سامان وركن الدولة.
- خراسان وما وراء النهر لآل سامان ومقر ملكهم مدينة بخاري ويخطبون للخليفة العباسي.

هذه هي المدن الكبرى التي كانت لأسر مملوكة في الرقعة الإسلامية فقد

تفرق هذا الملك الواسع تفرقًا غريبًا بعد أن كان متماسك الأعضاء ويرجع كله إلى خلافة واحدة كبرى تجمع شتاته.

ومما يستحق النظر أن العنصر العربي لم يبق له شئ من الملك، إلا ما كان لناصر الدولة وأخيه سيف الدولة من آل حمدان فإنهما من عنصر عربي ومع هذا فقد كان النفوذ والسلطان فيما يليانه من البلاد لقواد من الأتراك ولم يكن لهما استقلال سياسي بل كان أمر بني بويه فوقهما وكانا يذكران اسم معز الدولة في الخطبة بعد ذكر الخليفة العباسي.

لم يمكث المستكفي في الخلافة بعد استيلاء معز الدولة إلا أربعين يومًا وخُلِع لأن معز الدولة اتهمه بالتدبير عليهم وذلك فى جمادى الآخرة سنة ٣٣٤هـ.

خلافة الفضل المطيع لله بن المقتدر بن المنصور

(من جمادى الآخرة ٣٣٤هـ حتى خلع في ذي القعدة ٣٦٣ هـ)

عانى من شغب الجند عليه فاضطر إلى استرضائهم بإقطاع القواد والجند إقطاعات السلطان وأصحاب الأملاك فخربت البلاد لذلك، وعم الغلاء والنهب.. ولم تمض سنة على بغداد حتى اشتد الغلاء فأكل الناس الميتة والكلاب، وأكل الناس خروب الشوك، وكانوا يسلقون حبه ويأكلونه فلحق الناس أمراض وأورام في أحشائهم، وكثر فيهم الموت حتى عجز الناس عن دفن الموتى فكانت الكلاب تأكل لحومهم، وانحدر كثير من أهل بغداد إلى البصرة فمات أكثرهم في الطريق وبيعت الدور والعقارات بالخبز.

فكان نظام الإقطاعات أول فساد بالعراق، لأنه أضعف همة الفلاحين الذين يقومون بزرع الأرض وإصلاحها...

ظهر كذلك لون من النزاع العنصري بين الأجناد من الديلم والأتراك، وقد

حاولت الديلم خلع معز الدولة، ولكن الأتراك وقفوا معه وأفسدوا هذه المحاولة، فمال إليهم معز الدولة دون الديلم، وأطلق يد الأتراك فخربوا البلاد ونهبوا الأموال.

النفوذ الشيعي: البويهيون على خطى الفاطميين

كان أهل بغداد قبل تحكم البويهية على مذهب أهل السنة والجماعة، يحترمون جميع الصحابة، ويفضلون الشيخين على سائرها ولا يقدحون في معاوية، ولا غيره من سلف المسلمين، فلما جاءت هذه الدولة وهي متشيعة: نما مذهب الشيعية ببغداد ووجد له دعمًا من الحكومة، حتى أنه أمر بالكتابة على المساجد سنة ٣٥١ هـ: «لعن الله معاوية بن أبي سفيان ولعن من غصب فاطمة رضى الله عنها ومن منع أن يدفن الحسن عند قبر جده عليه السلام..)»فلما كان الليل حكه بعض الناس ولكن المعز أعاد كتابته...

وفي ١٠ من محرم سنة ٣٥٢ هـ أمر معز الدولة بالإضراب عن العمل، وإظهار النياحة ولبس القباب وعملوها كالمسوح وأن يخرج النساء مسودات الوجه وقد شققن ثيابهن يدرن في البلد بالنوائح على الحسين بن على رضى الله عنهما، ففعل الناس ذلك ولم يكن للسنية قدرة على المنع لكثرة الشيعة ولأن السلطان معهم.

وفي من١٨ ذي الحجة لنفس العام أمر بإظهار الزينة وإشعال النيران وإظهار الفرح احتفالاً بعيد الغدير (غدير خم)، وهو الموضع الذي يروى أن رسول الله ﷺ قال فيه عن عليّ: (من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللهمَّ والِ من والاه، وعاد من عاداه) وكان يومًا مشهودًا.

حصلت حروب بين معز الدولة البويهي وناصر الدولة العربي، لم تهدأ الحروب بين الطرفين فاشتغلا بها عن كل مصلحة وكان ذلك سببًا فيما يأتي

ذكره من الضعف أمام الروم.

توفي معز الدولة ١٣من ربيع آخر سنة ٣٥٦ هـ، وتولى بعده عز الدولة بختيار بن أحمد بن بويه فظل في السلطة حتى خلعه ابن عمه سنة ٣٦٧ هـ.وكانت مدته عبثًا واشتغالاً باللهو والنساء.. ولم يحسن معاملة من حوله حتى استوحشوا منه، وفي هذه الفترة، استطاع الروم أن يستردوا جميع الثغور الإسلامية الكبرى، وصارت لهم الهيبة في قلوب المسلمين من أهل الجزيرة والشام، بينما بنو بويه وبنو حمدان يغزو بعضهم بعضًا وعن عدوهم مشتغلون.

موقف يوضح ما وصل إليه الحال:

سنة ٣٦١ هـ أغار ملك الروم على الرها ونواحيها وساروا في الجزيرة حتى بلغوا نصيبين، فحرقوا البلاد وخربوها، فسار جماعة أهل تلك البلاد إلى بغداد مستنصرين، وقاموا في الجوامع والمشاهد واستنفروا المسلمين، وذكروا ما فعله الروم من النهب والقتل والأسر والسبي، فاستعظم الناس ذلك، فسار معهم أهل بغداد، وقصدوا دار الخليفة وأرادوا الهجوم عليه، فمنعوا من ذلك، وكان بختيار يصطاد بنواحي الكوفة، فخرج إليه وجوه أهل بغداد مستغيثين منكرين عليه اشتغاله بالصيد، وقتال عمران بن شاهين صاحب البطيحة -وهو مسلم- وترك جهاد الروم، ومنعهم عن ديار الإسلام فوعدهم بالتجهيز للجهاد، وأرسل إلى سبكتكين يأمره بالتجهيز وأن يستنفر العامة، فاجتمع معه عدد كثير لا يحصون..

وكتب بختيار إلى أبي تغلب بن حمدان صاحب الموصل يأمره بإعداد الميره والعلوفات، ويعرفه عزمه على الجهاد والغزو فأجابه بإظهار السرور...ثم أرسل بختيار إلى المطيع لله يطلب منه مالاً فقال المطيع: إن الغزو والنفقة عليه وعلى غيره من مصالح المسلمين تلزمني إذا كانت الدنيا في يدي وتجبي إليَّ الأموال، وأما إذا كانت حالي هذه فلا يلزمني شيء، وإنما يلزم من البلاد في يده

وليس لي إلا الخطبة فإن شئتم أن أعتزل فعلت...

وترددت الرسائل بينهما حتى وصل الحال إلى تهديد الخليفة فبذل المطيع ٤٠٠ ألف درهم، فاحتاج إلى بيع ثيابه، وأنقاض داره، وغير ذلك، وشاع بين الناس من أهل العراق وخراسان وغيرهم، أن الخليفة قد صودر ماله. فلما قبض بختيار المال صرفه في مصالحه وبطل حديث الغزو.

وفي سنة ٣٦١ هـ انتقل خلفاء الفاطميين إلى مصر، بعد استيلاء جوهر الصقلي عليها في عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي.

وفي ١٥ ذي القعدة سنة ٣٦٣ هـ اعتزل المطيع ولم يكن له أثر يذكر.

خلافة أبي الفضل عبد الكريم الطائع لله بن المطيع بن المقتدر

(من ذي القعدة ٣٦٣ هـ حتى رجب ٣٨١هـ)

كانت للفتنة التي قامت ببغداد بين أهل السنة والشيعة أثر كبير في إثارة الاضطرابات والفوضى ببغداد، فسفكت الدماء، وأحرقت الكرخ، التي كانت محلة الشيعة...ولم يستطع بختيار أن يسيطر على مقاليد الأمور...

شهدت هذه الفترة صراعًا بين بختيار وعضد الدولة ابن عمه على بغداد انتهى لصالح الأخير سنة ٣٦٦ هـ، فتمكن من بغداد، ثم سار إلى الموصل فملكها وأزال عنها الدولة الحمدانية، واتسعت أملاكه فصار له العراق والجزيرة، والأهواز وفارس والجبال والري ثم جرجان...

كان عضد الدولة من أعقلِ آل بويه، حسن السياسة شديد الهيبة معطاء، وكان يختار على أساس الكفاءة لا الشفاعة.. توفى سنة ٣٧٢ في شوال.

اختير بعده ابنه كاليجار المرزبان الملقب صمصام الدولة، فاضطربت في عهده الأحوال، وتقلص الملك الذي ورثه عن أبيه، حتى ضعف أمره ودخل في

ولاية أخيه شرف الدولة من سنة ٣٧٦ حتى توفي سنة ٣٧٩ هـ.

ثم تولى بعده بهاء الدولة أبو نصر، أخو شرف الدولة، وفي سنة ٣٨١ هـ قبض بهاء الدولة على الطائع لله للاستيلاء على أمواله طمعًا فيها ثم خلع...

وفى هذه الفترة قامت الدولة السبكتكينية (الغزنوية) من سنة ٣٦٦ هـ إلى سنة ٥٨٢هـ. على يد سبكتكين كما سيأتى ذكره ...

خلافة أبي العباس أحمد القادر بالله بن إسحاق بن المقتدر بن المعتضد

(من رمضان ٣٨١ هـ حتى توفى في ذي الحجة ٤٢٢ هـ)

تم اختياره بمعرفة آل بويه وقد كان هاربًا في زمن الطائع، فأتى به إلى بغداد واستقبل استقبالاً طيبًا من بهاء الدولة، لم يكن للخليفة شيء من السلطان كمن مضى في عهد سلاطين بني بويه، إلا أن ضعفهم أحيا للخليفة شيئًا من الكلمة والنفوذ، وكان القادر فيه من خلال الخير ما يساعد على ذلك، فقد كان حليمًا كريمًا يحب الخير وأهله، ويأمر به وينهى عن الشر، وكان حسن الاعتقاد، وصنف كتابًا على مذهب أهل السنة والجماعة ثم توفى سنة ٤٢٢ هـ.

خلافة أبي جعفر عبد الله القائم بأمر الله

(من ذي الحجة سنة ٤٢٢ هـ حتى ١٣ من شعبان سنة ٤٦٧ هـ)

وفي أول عهده ضعفت الخلافة والسلطنة جميعًا ببغداد وعمت الفوضى وشغب الجند، وكثر النزاع بين الديلم عنصر السلطان، وبين الأتراك قدماء العهد ببغداد، والعجيب أن آخر سلطان بويهي، وهو أبو نصر فنا خسرو، في ظل هذا الضعف البيِّن يطلب من الخليفة أن يلقب بالملك الرحيم، فأبى الخليفه ذلك ولكنه أصر حتى كان ذلك لقبه..!!!

واستمر سلطانًا حتى قضى عليه السلطان طغرل بك السلجوقي، وبذلك انقضت

مدة آل بويه التي لم تترك أثرًا صالحًا في عهد الدولة العباسية، إلا مزيدًا من الفساد والتشتت بما أظهرته من التشيع في بغداد، مع أن غالبية أهلها أهل سنة وجماعة.

عهد نفوذ السلاجقة الأتراك:

فائدة: كيف وصل آل سلجوق إلى السلطنة مكان البويهيين؟

يعود أصل آل سلجوق إلى الغز من الترك وهي عشيرة كانت تقيم في بلاد تركستان تحت حكم ملك الترك.

تنسب إلى سلجوق بن تقاق توفي عن عمر ١٧٠ سنة، ظهرت عليه علامات النجابة فقربه ملك الترك إليه ثم خافَه وأحس سلجوق بذلك فجمع عشيرته وهاجر إلى ديار الإسلام واعتنق الإسلام وصار يشن غارات على بلاد الترك واستعان السامانيون بسلجوق في رد غارات الترك على بلادهم.

استمر الحال حتى كان من أحفاده طغرل بك محمد، وداود جعفر بك، اللذين أصبح لهما السلطان بعد ذلك على عشيرتهما فانتقلا بمن معهما إلى قرب بخاري، حيث أقاموا هناك، ولكن أمير بخاري خافهما فسارا إلى تركستان عند ملكها بوغراخان، ثم حدث بينهم خلاف انتهى باعتقال طغرل بك، ولكن داود استطاع أن يداهم بوغراخان ويستنقذ أخاه طغرل بك، ثم انتقلوا إلى بلاد الدولة السامانية حيث استقروا هناك، ولكن الدولة السامانية كانت في آخر أيامها، وقد برزت قوة جديدة هي قوة الغزنويين فاصطدموا معهم ...وانتهى الصدام بأسر أرسلان سلجوق عم طغرل بك، ثم حدث صلح بين السلاجقة والغزنويين بحيث تولى عماد السلاجقه إمرة بعض المدن والمناطق وأطلق سراح عمهم أرسلان...

وفي سنة ٤٢٩ هـ رجع الخلاف بين الغزنويين والسلاجقة وتمكن طغرل بك أن يستولي على مرو، وذكروا اسمه في خطبة الجمعة باسم ملك الملوك.

وفي سنة ٤٣٢ هـ استولى طغرل بك على نيسابور وعلى جرجان وطبرستان، ثم في سنة ٤٣٣هـ ضم كرمان وبلاد الديلم.

وفي سنة ٤٣٤ هـ استولى على خوارزم، وانتقل الصراع فأصبح مع البويهيين، فدخل طغرل بك أصبهان، ثم تم الاتفاق معهم وتزوج طغرل بك ابنة أبى كاليجار البويهي، كما تزوج أبو منصور ابن أبي كاليجار ابنة داود أخو طغرل بك سنة ٤٣٩هـ.

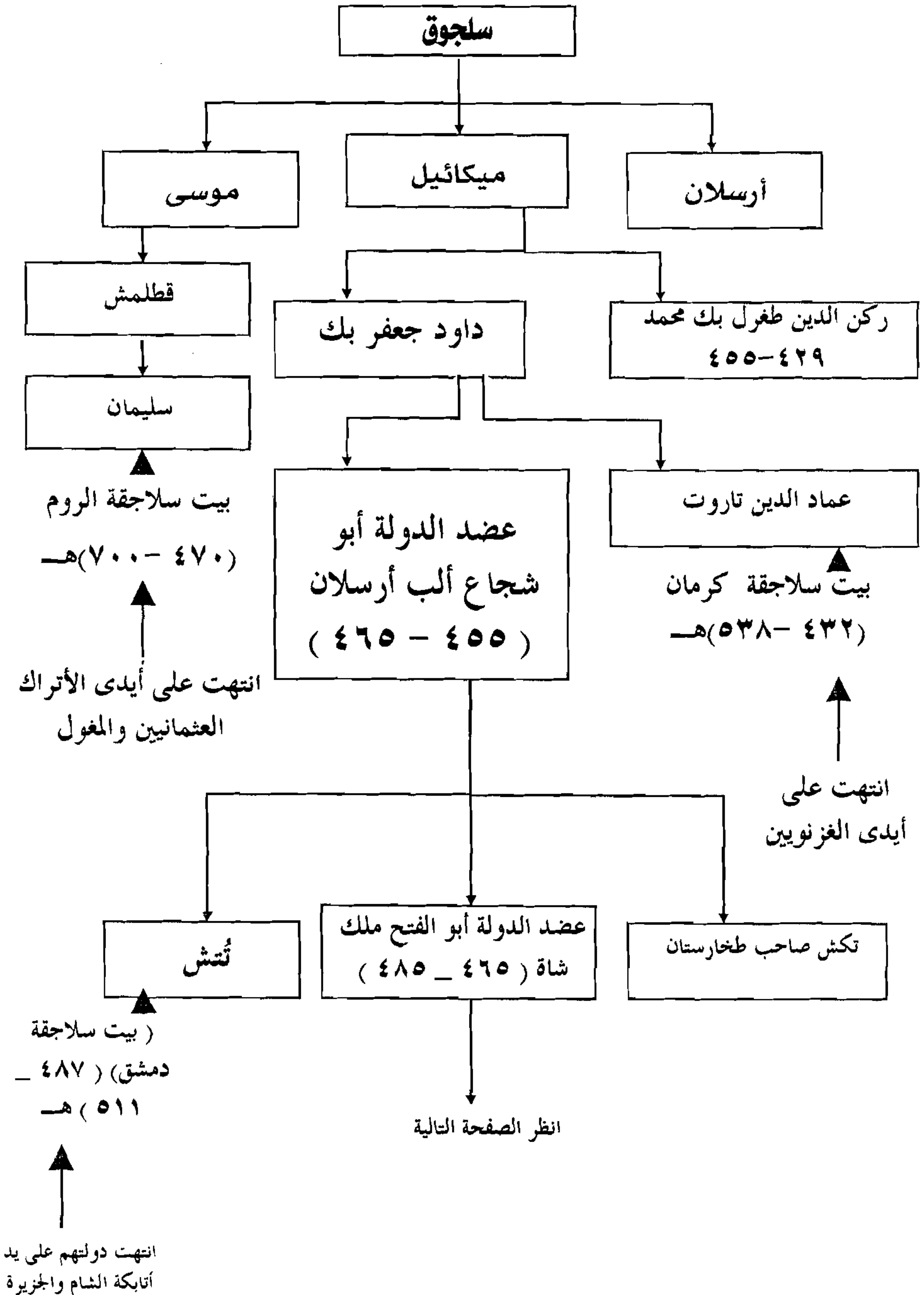
انتقل طغرل بك إلى الصراع مع الروم فقاتلهم وانتصر عليهم، وعقد معهم هدنة، واشترط فيها أن يبني مسجد بالقسطنطينية فبنوه، وأقيمت فيه الصلاه وخطب لطغرل بك فيه.

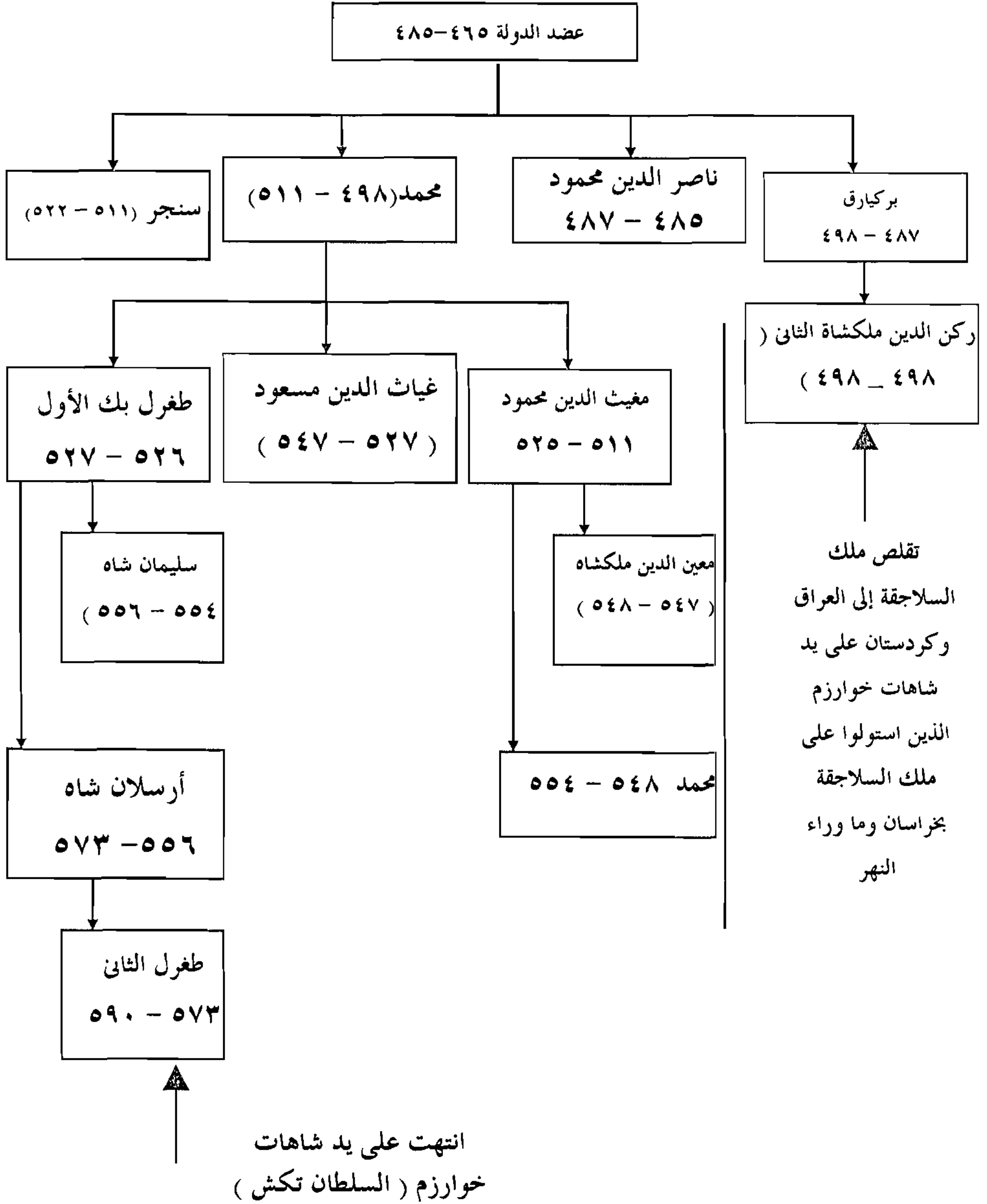
تقاسم السلاجقه البلاد الواسعة التي بحوزتهم فيما بينهم، وانتخب ملكًا عليهم جميعًا طغرل بك، ولم يكن له أولاد واتخذ مدينة الري حاضرة له، وقد اختير ابن اخيه ألب أرسلان بن داود ليكون مع عمه طغرل بك مساعدًا له، ونتيجة ما قدَّم طغرل بك من خدمات ونتيجة مراسلاته مع الخليفة فقد ذكر اسمه في الخطبة وعلى السكة قبل السلطان البويهي، ثم استأذن طغرل بك على الخليفة القائم ودخل مدينة بغداد سنة ٤٤٧هـ، وطلب الخليفة القائم من السلطان البويهي أن يتبع ويخضع لطغرل بك، وبذا انتهى عهد البويهيين وجاء دور السلاجقة.

كان الخليفة قد تزوج خديجة بنت داود أخي طغرل بك سنة ٤٥٤هـ ثم خطب طغرل بك ابنة الخليفة وتزوجها بعد امتناع من الخليفة، واتجه طغرل بك إلى الري فمرض في الطريق ثم توفى سنة ٤٥٥ هـ بعد أن وصل إلى الري.

لقد استطاعت هذه العشيرة أن تستولي على جل ما ملكه المسلمون وقد انقسمت إلى خمسة بيوت.

مخطط يوضح تسلسل سلاطين السلاجقة وبيوتهم




عضد الدولة ٤٦٥-٤٨٥
سنجر (٥١١ - ٥٢٢)
محمد(٤٩٨ - ٥١١)
ناصر الدين محمود ٤٨٥ - ٤٨٧
بركيارق ٤٨٧ - ٤٩٨
ركن الدين ملكشاة الثانى (٤٩٨ _ ٤٩٨)
طغرل بك الأول ٥٢٦ - ٥٢٧
غياث الدين مسعود (٥٢٧ - ٥٤٧)
مغيث الدين محمود ٥١١ - ٥٢٥
سليمان شاه (٥٥٤ - ٥٥٦)
معين الدين ملكشاه (٥٤٧ - ٥٤٨)
تقلص ملك السلاجقة إلى العراق وكردستان على يد شاهات خوارزم الذين استولوا على ملك السلاجقة بخراسان وما وراء النهر
أرسلان شاه ٥٥٦- ٥٧٣
محمد ٥٤٨ - ٥٥٤
طغرل الثانى ٥٧٣ - ٥٩٠
انتهت على يد شاهات خوارزم (السلطان تكش)

صراع الشيعة والسنة:

في صفر سنة ٤٤٣ هـ وقعت حرب بين الشيعة والسنة، فقتل من الفريقين خلق كثير، وذلك أن الشيعة نصبوا أبراجًا وكتبوا عليها بالذهب: (محمد وعليّ خير البشر، فمن رضي فقد شكر، ومن أبي فقد كفر)، فأنكرت السنة إقران على مع محمد ﷺ في هذا، فنشبت الحرب بينهم واستمر القتال بينهم إلى ربيع الأول، وأحرقت قبور بني بويه وقبر جعفر بن المنصور، ومحمد الأمين، وأمه زبيدة، وقبور كثيرة جدًا، وانتشرت الفتنة وتجاوزوا الحدود، وقد قابلهم أولئك الرافضة الشيعة أيضًا بمفاسد كثيرة، وبعثروا قبورًا قديمة وأحرقوا من فيها من الصالحين وكادوا أن يحرقوا قبر الإمام أحمد، وتسلط على الرافضة عيار يقال له القطيعي، وكان يتبع رءوسهم وكبارهم فيقتلهم جهارًا وغيلة، وعظمت المحنة بسببه جدًا، ولم يقدر عليه أحد، وكان في غاية الشجاعة والبأس والمكر.

استمر الحال حتى سنة ٤٤٨ هـ، وهي السنة التي بدأ فيها ملك آل سلجوق.

يقول ابن كثير: « ...وفي هذه السنة ألزم الروافض بترك الأذان (بحي على خير العمل) وهي بدعة أحدثوها، وأمروا أن ينادى مؤذنهم في أذان الصبح، بعد حي على الفلاح: الصلاة خير من النوم مرتين، وأزيل ما كان على المساجد من كتابة: (محمد وعلي خير البشر) ودخل المنشدون من باب البصرة إلى باب الكرخ (الكرخ معقل الرافضة)ينشدون بالقصائد التي فيها مدح الصحابة، وقد كانوا لا يستطيعون ذلك لأن بني بويه كانوا حكامًا، وكانوا يقوون الشيعة وينصرونهم، فزالوا وبادوا وذهبت دولتهم، وجاء بعدهم قوم آخرون من الأتراك السلجوقية الذين يحبون أهل السنة ويوالونهم ويرفعون قدرهم والله المحمود، أبدًا على طول المدى»

فتنة عظيمة سنة ٤٥٠ هـ: محاولة الفاطميين الاستيلاء على بغداد ونفي الخليفة العباسي إلى حديث عانة بمساعدة أرسلان أبو الحارس البساسيري التركي:

كان البساسيري من مماليك بهاء الدولة، وكان أولاً مملوكًا لرجل من أهل مدينة بسا، فنسب إليها فقيل له البساسيري، وتلقب بالملك المظفر ثم كان مقدمًا كبيرًا عند الخليفة القائم بأمر الله، لا يقطع أمرًا دونه، وخطب له على منابر العراق كلها، ثم طغى وبغى وتمرد، وخرج على الخليفة والمسلمين، وفى هذه الفترة كان هناك نزاع بين الملك طغرل بك وأخيه إبراهيم، في نفس الوقت كان البساسيري هذا ومعه قريش بن بدران أمير العرب يتوجهان إلى الموصل، ونجحا في أخذها.. فسار إليها طغرل بك سريعًا فاستردها.. وهربا منه فتبعهما إلى نصيبين، وهرب إبراهيم أخو طغرل إلى همذان وعصى عليه، فسار طغرل وراء أخيه وترك عساكره وراءه فتفرقوا وقل من لحقه منهم..

انتهز البساسيري هذه الفرصة وقصد بغداد وليس بها أحد من المقاتلة، ولما علم الناس بقدومه تنادى الناس: من أراد الرحيل من بغداد فليرحل، فانزعج الناس وبكى الرجال والنساء والأطفال.. حتى أن الخليفة نفسه قد هم بالرحيل ولكنه آثر البقاء في قصره مع النصح له بأن الأفضل أن يرحل لعدم المقاتلة.. حتى كان يوم ٨ من ذي القعدة سنة ٤٥٠ هـ جاء البساسيري إلى بغداد، ومعه الرايات البيض المصرية، وعلى رأسه أعلام مكتوب عليها اسم الخليفة الفاطمي، فتلقاه الشيعة أهل الكرخ.. وجمع البساسيري اللصوص ومنّاهم بنهب دار الخليفة، ونَهَب الشيعة دور أهل السنة وأعيدت عادات الشيعة وبدعهم.. ووجد الخليفة نفسه محاصرًا وحوله زمرة قليلة من العباسيين فطلب الأمان من أمير العرب قريش فأمّنه.. ولما علم بذلك البساسيري اغتاظ ولامه لومًا عنيفًا على إعطائه الأمان للخليفة، ثم اتفقا على إخراج الخليفة من بغداد إلى أمير حديثة عانة، وهو مهارش بن مجلى الندوى وهى من بنى عم قريش بن بدران، وعبثًا ألح الخليفة على قريش أن لا يخرجه من بغداد فلم يفد ذلك شيئًا، وأخرج الخليفة في هودج إلى حديث عانة، فكان عند مهارش عامًا كاملاً، وليس

معه أحد من أهله وذلك في ذي القعدة سنة ٤٥٠ هـ.

وأمر البساسيري بالخطبة للخليفة المصري، والروافض في غاية السرور وانتقم البساسيري من أعيان أهل بغداد انتقامًا عظيمًا.

ودخلت سنة ٤٥١هـ والحال على ما هي عليه، بيد أن السلطان طغرل قد انتهى من منازعة أخيه إبراهيم وقتله، وتفرغ للقضاء على البساسيري. فأرسل إلى أمير العرب يتهدد ويتوعد، فتحالف معه على البساسيري.. وتوجه السلطان طغرل إلى بغداد، وكان يوم دخوله إليها يومًا مشهودًا، وأرسل السلطان إلى الخليفة مراكب كثيرة، فلما وصل الخليفة النهروان خرج السلطان لتلقيه، فلما دخل سرادق الخليفة قبَّل الأرض بين يد الخليفة سبع مرات وكان يومًا عظيمًا..

ثم خرج السلطان خلف البساسيري الذي هرب إلى واسط، فاقتتلوا هنالك وانهزم أصحاب البساسيري، وتبعه بعض الغلمان فقتلوه، وحملت رأسه إلى بغداد وانتهت بذلك فتنته.

معركة ملاذكرت:

توفى طغرل بك سنة ٤٥٥ هـ في خلافة القائم وتولى الأمر بعده السلطان عضد الدولة أبي شجاع ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق.

وفى سنة ٤٦٣ هـ أقبل ملك الروم أرمانوس في جحافل أمثال الجبال من الروم والكرخ والفرنج، وعدد عظيم بلغ مائتي ألف وعُدَد، ومن عزمه- قبحه الله - أن يبيد الإسلام وأهله، أقطع بطارقته البلاد حتى بغداد واستوصى نائبها بالخليفة خيرًا... والقدر يقول: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢] فالتقاه السلطان ألب أرسلان في جيشه وهم قريب من عشرين ألفًا بمكان يقال له الزهوة في يوم الأربعاء ٢٥من ذي القعدة، وخاف السلطان من كثرة جند

الروم، فأشار عليه الفقيه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري بأن يكون وقت الوقعة يوم الجمعة بعد الزوال، حين يكون الخطباء يدعون للمجاهدين، فلما كان ذلك الوقت وتواجه الفريقان، نزل السلطان عن فرسه وسجد لله عز وجل، ومرَّغ وجهه في التراب ودعا الله واستنصره، فأنزل نصره على المسلمين ومنحهم أكتافهم فقتلوا منهم خلقًا كثيرًا وأسر ملكهم أرمانوس، أسره غلام رومي!!!

كان عهد ألب أرسلان كله عهد نمو وارتقاء في دولة السلاجقة لا بالسيف وحده، بل للعلم أيضًا، فإن الملك أسس في عهده أول المدارس النظامية ببغداد، وقد تم بناؤها سنة ٤٥٨ هـ، ودرس فيها شيخ الشافعية بالعراق بل وبغيرها وهو الشيخ أبو إسحاق الشيرازي.

وفي سنة ٤٦٥ هـ توجه ألب أرسلان قاصدًا بلاد الترك فعبر نهر جيجون ولكن عاجلته منيته، حُكِيَ أنه قال وهو يقرب من الموت:

« ما كنت قط في وجه قصدته ولا عدو أردته إلا توكلت على الله وطلبت منه النصر، وأما في هذه النوبة، فإني أشرفت من تل عالٍ فرأيت عسكري فقلت أين من له قدرة بمصارعتي ومعارضتي، وإني أصل بهذا العسكر إلى بلاد الصين، فكان ما أراد الله.»

ثم تولى بعده جلال الدولة أبو الفتح ملك شاه، وفى ١٣ من شعبان سنة ٤٦٧ هـ توفى الخليفة القائم بأمر الله.

يقول ابن كثير في وصف القائم: (...ولم يبلغ أحد قبله هذه المدة، كان فصيحًا ورعًا زاهدًا كثير الإحسان إلى الناس رحمه الله، وقد كان من خيار بني العباس دينًا واعتقادًا ودولة، وقد امتحن من بينهم بفتنة البساسيري التي اقتضت إخراجه من داره ومفارقته لأهله وأولاده ووطنه، فأقام بحديث عانه سنة كاملة ثم أعاد الله تعالى عليه نعمته وخلافته ...).

خلافة المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله بن الأمير ذخيرة الدين أبي القاسم محمد بن الخليفة القائم بأمر الله بن القادر العباسي.

(من من شعبان ٤٦٧ هـ حتى محرم ٤٨٧ هـ)

تولى الخلافة وعمره عشرون عامًا نشأ في حجر جده القائم بأمر الله يربيه بما يليق بأمثاله، وكان المقتدي شجاعًا شهمًا أيامه كلها مباركة، والرزق دار والخلافة معظمة جدًا، وتصاغرت الملوك له وتضاءلوا بين يديه، خُطِب له بالحرمين وبيت المقدس والشام كلها، واسترجع المسلمون الرها وأنطاكية من أيدي العدو، وعمرت بغداد وغيرها من البلاد، وكان وزراؤه وقضاته من خيار الناس، وفي أول سنوات حكمه أخرج المفسِدات من بغداد وأمرهن أن ينادين على أنفسهن بالعار والفضيحة، وخرب الخمارات ودور الزواني والمغاني...

توافر لهذا الزمن اكتمال السعادة فقد كان ملك شاه السلجوقي أيضًا سلطانًا عادلاً مقدامًا لا يتوجه إلى إقليم إلا فتحه وخضع له ملوك الشرق والغرب، وخطب له من حدود الصين إلى آخر الشام ومن أقاصي بلاد الإسلام في الشمال إلى آخر بلاد اليمن وحملت إليه الروم الجزية ولم يفته مطلب.

كذلك كان الوزير قوام الدين نظام الملك أبي على الحسن بن على بن إسحاق رضي أمير المؤمنين، كان معدودًا من العلماء الأجواد وكان محبًا للعلم، مجلسه دائمًا معمور بالقراء والفقهاء وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح، أمر ببناء المدارس المعروفة بالنظامية في سائر الأمصار والبلاد وأسقط في زمنه كثير من المكوس والضرائب.

وعلى الجملة فقد كان هذا الوزير غرة في جبين آل سلجوق وهو قرين أبو حامد الغزالي حجة الإسلام في طلب العلم ...

بيد أن الوشاة وأصحاب المصالح لا يريدون لهذه الأمة أمثال هذا الود

وهؤلاء الوزراء والسلاطين، فسعوا بينه وبين السلطان، حتى استوحش منه السلطان واستطال مدته وكانت تسعة وعشرين عامًا في الوزارة، وقتل، ومن عجائب القدر أن يموت السلطان بعده بخمسة وثلاثين يومًا، وبموتهما انتهت سعادة البيت السلجوقي ووقعت بين رؤسائه الفتن وحكموا بينهم السيف.

وكان ملكشاه له أربعة بنين وهم بركيارق ومحمد وسنجر ومحمود فتولى بركيارق ولكن الخليفة مات فجأة قبل أن يوقع تقليده السلطنة.

خلافة أبي العباس أحمد المستظهر بالله

(من محرم ٤٨٧ هـ حتى ربيع آخر ٥١٢هـ)

كان المستظهر لين الجانب كريم الأخلاق مسارعًا في أعمال البر.. وكانت أيامه أيام سرور لرعيته..

تولى ملك العراق في عهده بركيارق بن ملكشاه الذي لم يحسن اختيار معاونيه، مما جرّأ عمه تُتُش بن ألب أرسلان صاحب دمشق أن يطلب السلطنة لنفسه، وقامت بينهما معارك انتهت بقتل تتش سنة ٤٨٧ هـ، واستقام الأمر لبركيارق بعد أن كاد يضمحل.

طلب السلطنة كذلك أخو بركيارق محمد بن ملك شاه فكان ذلك فاتحة شر مستطير على هذين الأخوين، بل على البيت السلجوقي كله، بل على الإسلام جميعًا، فقد ظلت نيران الحرب بينهما مستعرة من سنة ٤٩٢ هـ حتى سنة ٤٩٧ هـ أي خمس سنين، فتحرك الإفرنج من مرابضهم للإغارة على البلاد الإسلامية لتخليص البيت المقدس كما زعموا، وملوك الإسلام وهم من بيت واحد وأبناء رجل واحد يتطاحنون ويتخاصمون، حتى تم الصلح بينهما كلٌّ على البلاد التي تحت يديه، فزال الخلف والشغب، ولكن لم تطل مدة بركيارق بعد هذا الصلح

فإنه توفى في ٢ من ربيع الآخر سنة ٤٩٧هـ، وتم الأمر من بعده لأخيه محمد الذي لم يكن موفقًا في اختيار وزرائه وولاته فكثر التغيير والاضطراب في عهده، واستمر ملك محمد إلى سنة ٥١١ هـ وكان عادلاً حسن السيرة شجاعًا.. واختير للملك بعده ابنه السلطان مغيث الدنيا والدين أبو القاسم محمود بن محمد بن ملك شاه، وبعدها بأربعة أشهر توفى الخليفة المستظهر بالله.

خلافة أبي منصور الفضل المسترشد بالله بن المستظهر

(من ربيع آخر ٥١٢ هـ حتى قتل في ذي القعدة ٥٢٩هـ)

كان شهمًا شجاعًا كثير الإقدام بعيد الهمة وكان بليغًا حسن الخط، يقول عنه ابن الأثير: «ولقد حاول أن يعيد شيئًا من مجد أهل بيته فحالت الأقدار بينه وبين ما أراد».

كان سلطان العراق لأول عهده: السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ولكن عمه سنجر بن ملكشاه (وكان ملك خراسان وما إليها من بلاد ما وراء النهر) لم يرضه هذا الوضع ... فتوجه إلى العراق والتقيا بجيوشهما؛ محمود وعمه سنجر عند الري، وانتصر سنجر وخطب على المنابر له، وكان يقيم بالأهواز ثم تصالحا على أن يخطب لمحمود من بعد عمه، وردَّ عليه جميع ما أخذ منه سوى الري.

وفي سنة ٥١٤ هـ قام ضد محمود أخوه مسعود بن محمد (وكان له الموصل وأذربيجان) فتقاتلا فانهزم عسكر مسعود... ثم تصالحا ...

هذا النزاع بين عظماء السلاجقة جعل الخليفة المسترشد يحاول أن يعيد هيبة الخلافة، فقاد الجيوش بنفسه لمحاربة المخالفين، ولم يكن للخلفاء عهد بذلك منذ زمن طويل، ولا شك أن الملوك السلجوقيين لا يعجبهم ذلك، فإنهم يرون ذلك تقليصًا لدورهم وخطرًا على نفوذهم، ولذا عزم محمود بن محمد بن ملكشاه أن

يدخل بغداد ولم يكن مقيمًا بها، ولكن الخليفة وقف له وحاول منعه بالقوة، فلما رأى إصرار محمود آثر الصلح، فدخل محمود بغداد سنة ٥٢١ هـ وأقام بها بضعة أشهر، ثم فارقها بعد أن حمل إليه الخليفة الخُلَع والدواب الكثيرة.

وفي سنة ٥٢٤ هـ استطاع محمود أن يستولي على قلعة الموت من يد صاحبها الحسن بن الصباح الاسماعيلي الباطني.

وفي سنة ٥٢٥ هـ توفى السلطان محمود فاضطرب الأمر من بعده حتى ولى أخوه مسعود الملقب بـ (غياث الدنيا والدين).

مرة أخرى حاول الخليفة المسترشد أن يعيد هيبة الخليفة، وأن يتحرر من نفوذ السلاجقة باستعمال القوة معهم، مما سبب نفرة بينه وبين السلطان مسعود أدت إلى أن أمر الخليفة بقطع خطبة مسعود من منابر بغداد، وجهز جيشًا لحرب مسعود ومعه جنود كثيرة، لكنها لم تكن ذات عصبية تصدق عند اللقاء، لذا لما تواجه الطرفان تحول كثير من عسكر الخليفة الأتراك إلى السلطان مسعود، فانهزم جند الخليفة وثبت الخليفة حتى أُسر وقتل في ١٦من ذي القعدة سنة ٥٢٩ هـ.

وتولى بعده ابنه الراشد أبو جعفر المنصور في ٢٧من ذي القعدة سنة ٥٢٩ هـ الذي دخل في مواجهة مباشرة من السلطان مسعود فخلع بعد ١١ شهرًا و١١ يومًا.

خلافة المقتفي لأمر الله أبي عبد الله الحسين ابن المستظهر

(من ذي الحجة ٥٣٠ هـ حتى ربيع أول ٥٥٥ هـ)

اختاره السلطان مسعود، ولما توفى السلطان مسعود سنة ٥٤٧ هـ بهمذان ماتت معه سعادة البيت السلجوقي فلم تقم له بعده راية يعتد بها.

تولى بعده محمد بن محمود الذي توفي سنة ٥٥٤ هـ بهمذان ثم كان الأمر

من بعده لأرسلان بن طغرل، ثم توفى الخليفة في ٢ ربيع أول سنة ٥٥٥ هـ، وهو أول من استبد بالعراق منفردًا عن السلاجقة وأول خليفة تمكن من الخلافة، كان شجاعًا مقدامًا مباشرًا للحروب بنفسه وكان عادلاً حسن السيرة من الرجال ذوي الرأي والعقل والكبير.

خلافة المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله

(من ربيع أول ٥٥٥ هـ حتى ربيع أخر ٥٦٦ هـ)

كان يعد من خيرة الخلفاء العباسيين رفع المكوس والمظالم ولم يترك منها شيئًا وكان شديدًا على أهل العبث والفساد والسعاية بالناس، سجن رجلاً كان يسعي بالناس فسادًا مدة، وقد شفع له بعض أصحابه، وبذل فيه عشرة آلاف دينار، فقال له الخليفة: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار ودلني على آخر مثله لأحبسه وأكف شره عن الناس.

وفي أيامه اتسعت رقعة ميدان القتال بين المسلمين والصليبيين وكانت الساحة بلاد الشام ومصر؛ ويقود القتال محمود نور الدين في كلا الساحتين، حيث ضعفت الدولة الفاطمية لدرجة كبيرة، وهذا ما جعل نور الدين محمود يتولي أمر الدفاع عن مصر.

وكان ملك السلاجقة في عهده أرسلان بن محمد بن ملكشاه ولم يكن له شئ من السلطان في بلاد العراق.

خلافة المستضيء بأمر الله أبى محمد الحسن بن المستنجد بالله

(من ربيع الآخر ٥٦٦ هـ حتى ذي القعدة ٥٧٥ هـ)

كان عادلاً حسن السيرة في الرعية عاش حميدًا ومات سعيدًا.

يقول ابن الأثير فى تاريخه: وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ولا أكثر تحريًا للعدل منه، وله أخبار حسان ألفت فيها كتب خاصة.

وانقرضت في عهده الدولة الفاطمية في محرم سنة ٥٦٧ هـ على يد الدولة الأيوبية. وخطب للمستضئ في بلاد اليمن هذا بالإضافة إلى مصر وإفريقية والشام.

خلافة الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن المستضيء بن المستنجد

(من ذي القعدة ٥٧٥ هـ حتى رمضان ٦٢٢ هـ)

وهو أطول خلفاء بني العباس مدة، وفي عهده انتهى ملك السلجوقين بالعراق سنة ٥٩٠ هـ بقتل طغرل بن أرسلان على يد خوارزمشاه علاء الدين تكش، الذي اتسع ملكه جدًا، فصار ملكه ممتدًا من أقاصي بلاد ما وراء النهر شرقًا إلى بلاد الري التي أخذها بعد القضاء على السلاجقة، وكان هوى خوارزمشاه أن يذكر اسمه على منابر بغداد فيخطب له بدل السلاجقة، ولكن الخليفة أبى فاشتدت العداوة بينهما حتى قطع خوارزمشاه خطبة الناصر من منابر بلاده...

* * *

التتار والأمة الإسلامية

من هم التتر؟

التتار شعب بدوي يعيش على أطراف صحراء غوبي. بأطراف بلاد الصين وهم سكان براري، ومشهورون بالشر والغدر، حياتهم رعوية، ونظامهم قبلي، يطيعون رؤساءهم طاعة كبيرة، ويحبون الحرب والسلب ويعبدون الكواكب، ويسجدون للشمس أثناء شروقها، ويأكلون لحوم جميع الحيوانات حتى الكلاب، وتنتشر عندهم الإباحية، وتعرف ديانتهم القديمة بالشامانية، يقدمون الأضاحي لبعض الحيوانات الشريرة ويقدسون أرواح الأجداد.

والتتار هم أصل القبائل المتفرعة عنهم جميعًا من مغول وترك وسلاجفة وغيرهم وقد يكون سيطرة قبيلة المغول على التتار في مرحلة من مراحل تاريخها هو الذي جعل اسم المغول يطلق على الجميع. وهناك من يقول: إن التتار والمغول أخوان وقد سيطر المغول مع الفرعين عندما قام جنكيز خان يدك الدول وعلى كل فإن كلمة تتار اليوم تطلق على القبائل الموجودة في شرعه روسيا وسيبريل وشبه جزيرة القرم. على حين تطلق كلمة المغول على القبائل الموجودة في الصين وأفغانستان. وكان المغول هم المسيطرون أيام جنكيز خان واسمهم يعم القبائل جميعها، والتتار هم الذين سيطروا أيام تيمورلنك وشمل أسمهم القبائل كلها.

كان جنكيز خان ذا همة عالية وكان قومه متفرقين مغلوبين من منافسيهم من التتر فعمل على لم شعثهم فنجح في ذلك فحارب جميع القبائل التركية وانتصر عليهم جميعًا، بعد حروب شديدة، وكون مملكة واسعة مسكونة بتلك الأمم التي لا يعلم عددها إلا الله، وعاصمة ملكه مدينة قراقروم.

ثم فكر في وضع قانون لهذه الأمة العظيمة، يكون لهم دينًا يسيرون على مقتضاه، فوضع لهم (اليساق) أو (إلياسة) وهي كتابهم الذي يرجعون إليه في معاملاتهم وأحكامهم، وكانت عندهم كالقرآن عند المسلمين.

يقول المؤرخون: إن الخلاف الذي قام بين الخليفة الناصر وخوارزمشاه علاء الدين تكش، جعل الخليفة يستدعي التتر للخروج إلى مملكة خوارزمشاه كي ينشغل بهم عن مراده أن تكون السلطنة له.

لم يكن الخليفة يقصد ما تبع فعلته من أحداث، كان كل ما يريد هو ألا يعود من جديد نفوذ لغير دولة الخلافة، ولم يكن الخليفة كذلك يظن أن التتار بهذه القوة وأن خوارزمشاه بهذا الضعف ...

والحقيقة أن جنكيز خان لم يكن يرى أن ذلك سبب كاف للهجوم على دولة خوارزمشاة، وكان هناك وفاق بينه وبين خوارزمشاه، حتى كانت سنة ٦١٥هـ لما سافر تجار من بلاد جنكيز خان حتى وصلوا إلى بلدة بثغر خوارزمشاه بساحل سيمون، وبها والٍ من قبل خوارزمشاه، فلما ورد عليه هؤلاء التجار وكانوا زهاء ٤٠٠ نفس ومعهم أموال جسيمة طمع ذلك الوالي في أخذ أموالهم فأرسل قاصدًا إلى خوارزمشاه بخبره أن جواسيس جنكيز خان قد قاموا في زي تجار فأمره بقتلهم وأخذ أموالهم ففعل.

فلما بلغ ذلك جنكيز خان أرسل إلى خوارزمشاه أن يبعث إليه الوالي الذي فعل هذه الفعلة ليقتص منه، ولكن خوارزمشاه قتل الرسول مما دعا جنكيز خان للخروج لمحاربته.

وبدأ خوارزمشاه بالعدوان وهجم على بلاد عدوه فلقي هناك جموعًا قليلة، إذ كانوا يحاربون أحد الأمراء، فقتل من وجد من الأطفال وسبي النساء، وعاد التتار وعلموا وهم في الطريق بالخبر فجد والسير فأدركوا خوارزمشاه ولم يغادر

ديارهم بعد، فوقعت بينهما معركة رهيبة، كادت تفنيهما لما صبروا، وغادر كل صاحبه يائسًا من الحرب لما ناله، ورجع خوارزمشاه إلى بخارى وبدأ يستعد للقتال، فحصن بخارى وسمرقند، وسار يجمع الجند من خوارزم وخراسان.

زحفت جيوش جنكيز خان الجرارة وعبر نهر سيحون وسار حتى أتى بخارى وكان بها عشرون ألفًا من الجنود الخوارزمية، وخوارزمشاه غائب للاستعداد فهربوا وتركوا المدينة بلا حامية.

وفي ٤من ذي الحجة سنة ٦١٦ هـ دخل التتار بخارى وأمر جنكيزخان التجار أن يأتوا بما استلبوه من تجاره، وأخرج رؤساء البلد منها وانتهبت الأموال وتقاسم الجند من بقي من الناس، وأصبحت بخارى تلك المدينة العظيمة خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس وكذلك فعلوا بسمرقند في محرم سنة ٦٢٠هـ.

ثم اختار جنكيز خان عشرين ألفًا من أشداء جنوده، وأمرهم أن يطلبوا خوارزمشاه أين كان، ولو تعلق بالسماء ففعلوا وكلما هموا أن يوقعوا به هرب منهم، وقد أصابه الهلع والرعب، حتى وصل إلى قلعة له في البحر، فلما نزل هو وأصحابه في السفن يئس التتر من اللحاق به فعادوا عنه وكان ذلك آخر العهد به حيث توفي في جزيرة ببحر الخزر سنة ٦٢هـ،

فلما عادوا استولوا على كل قرية يمرون بها (مازندران، الري، همذان، قزوين) حتى وصلوا إلى البلاد الشمالية وهي دشت القفجاق وفيها أمم تركية كثيرة فأمعنوا فيهم قتلاً وسبيًا فتفرقوا في جميع الأقطار وكان هذا أول ورود المماليك القفجاقية على البلاد المصرية فاشترى منهم الصالح نجم الدين أيوب مماليكه البحرية ملوك مصر بعد الدولة الأيوبية ومنهم المعز أيبك والمظفر قطز والمنصور قلاوون وغيرهم.

ثم دخل التتر بلاد الروس ثم بلغارلكن البلغار انتصروا عليهم، وقتلوا

كثيرًا من التتر أواخر سنة ٦٢٠ هـ.

استطاعت هذه الفئة القليلة التي خرجت تطلب خوارزمشاه أن تثير الرعب والنهب والخراب، ثم أرسل جنكيز جيوشه تستولي على البلدان الواحدة تلو الأخرى فتم له مملكة عظيمة واسعة مترامية الأطراف تبتدئ شرقًا من بلاد الصين وتنتهي غربًا إلى بلاد العراق وبحر الخزر وبلاد الروس وجنوبًا ببلاد الهند وشمالاً بالبحر الشمالي كل ذلك تم له في مدة قصيرة.

ولما أحس بقرب منيته قسَّم الممالك الجنكيزية إلى أربعة أقسام بين أبنائه الأربعة كما سيأتي بيانه.

كان التتار يفسدون في الأرض والخليفة الناصر مشغول عن ذلك بلهوه وعبثه،ظالمًا للناس وسلب الأموال وتوفى جنكيز خان سنة ٦٢٤ هـ، فكان قبيح السيرة،وبقي في أواخر أيامه ثلاث سنين معطلاً عن الحركة، وقد ذهبت إحدى عينيه،والأخرى يبصر بها إبصارًا ضعيفًا حتى وافته المنية.

خلافة أبي نصر الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر

(من شوال نة ٦٢٢ هـ حتى رجب ٦٢٣ هـ)

كان عادلاً محسنًا قالوا إنه أعاد سنة العُمَرين، وكانت تأتيه الأخبار عن الناس والأحوال على عادة من قبله فيردها ويقول: أي غرض لنا في معرفة أحوال الناس في بيوتهم، فلا يكتب أحد لنا إلا ما يتعلق بمصالح دولتنا، فقيل له: إن العامة يفسدها ذلك ويعظم شرها، قال إننا ندعو الله أن يصلحهم، ولم يزل كل يوم يزداد من الخير والإحسان إلى الرعية فجدد من العدل ما كان دارسًا وأذكر من الإحسان ما كان منسيًا حتى توفاه الله.

خلافة المستنصر بالله أبي جعفر منصور بن الظاهر

(من رجب ٦٢٣ حتى جمادى الآخرة ٦٤٠هـ)

بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه الظاهر بأمر الله، فنشر العدل بين الرعية، وبذل الإنصاف في القضايا، وقرب أهل العلم والدين، وبنى المساجد والمدارس، وقد وضع ببغداد المدرسة المستنصرية للمذاهب الأربعة، وجعل فيها دار حديث وحمامًا ودار طب، وجمع الجيوش لنصرة الإسلام، وأحبه الناس، وكان له ذا شجاعة وإقدام، وقد هزم جنود التتار في الوقت الذي خافهم البشر، وكان أخ شجاع أيضًا صاحب همة عالية يقال له الخفاجي، فكان يقول: لئن وُلّيت لأعبرن بالعسكر نهر جيحون، وآخذ البلاد من أيدي التتار وأستأصلهم. غير أنه لم يتول، وإنما تولى المستعصم بعد أبيه المستنصر.

وكان المستنصر جميل الصورة حسن السريرة جيد السيرة، كثير الصدقات والبر والصلات محسنًا إلى الرعية بكل ما يقدر عليه. وكان يبني الربُط والقناطر والخانات والقناطر في الطرقات من سائر الجهات، وقد عمل بكل محلة من محال بغداد دار ضيافة للفقراء، لا سيما في شهر رمضان. وقد أوقف كتبًا نفيسة على المدرسة المستنصرية، توفي المستنصر في العاشر من جمادي الآخرة من عام ٦٤٠ فكان عمره ثلاثًا وخمسين سنة.

آخر خلفاء العباسيين ببغداد.

خلافة أبي أحمد عبد الله المستعصم بالله بن المستنصر بن الظاهر بن الناصر بن المستضيء بن المستنجد بن المقتفي بن المستظهر بن المقتدي بن القائم بن القادر بن المقتدر بن المعتضد بن طلحة بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي بن المنصور.

بويع بالخلافة في جمادى الآخرة ٦٤٠ هـ

حتى قتل بين يدى هولاكو خان في محرم ٦٥٦ هـ

ففي آبائه سبعة عشر خليفة لم يغنوا عنه من الله شيئًا.

وبقتله انتهت الخلافة العباسية ببغداد.

كان خيرًا متدينًا عفيف اللسان والفَرْج وكان يتقن تلاوة القرآن حفظًا وتجويدًا، خرج له الشرف الدمياطي ٤٠ حديثًا، وأجيز له بالحديث، وأجاز جماعة بالحديث عنه. إلا أنه كان مستضعف الرأي ضعيف البطش.

وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمي صاحب التوجه الشيعي الناقم على الدولة العباسية وقيل إنه يهودي الأصل وهو الذي كان يوافي التتار بأخبار المسلمين ويمنع أخبارهم من الوصول إلى المستعصم.

يقول ابن كثير في وصف كيفية دخول التتار بغداد: ثم دخلت سنة ٦٥٦ هـ فيها أخذت التتار بغداد وقتلوا أكثر أهلها، حتى الخليفة، وانقضت دولة بني العباس منها، استهلت هذه السنة وجنود التتار قد نازلت بغداد صحبة الأميرين اللذين على مقدمة عساكر سلطان التتار، هولاكوخان، وجاءت إليهم أمداد صاحب الموصل[1] يساعدونهم على البغاددة وميرته وهداياه وتحفه، وكل ذلك خوفًا على نفسه من التتار ومصانعة لهم قبحهم الله تعالى، وقد سترت بغداد ونصبت فيها المجانيق وغيرها من آلات الممانعة التي لا ترد من قدر الله سبحانه وتعالى شيئًا، كما ورد في الأثر «لن يغني حذر عن قدر» وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ﴾.

وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب حتى أصيبت

(١) صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ، كان بدر الدين هذا أرمينيًا اشتراه رجل خياط إلى الملك نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي أقسنقر، وكان مليح الصورة ذو عقل ودهاء، فحظى عنده وتقدم في دولته إلى أن صارت الكلمة العليا له ثم إنه عمل قتل أولاد أستاذه غيلة واحدًا تلو الآخر إلى أن لم يبق معه أحد منهم، فاستقل بالملك، فملك الموصل نحوًا من خمسين عامًا، وكان شيعيًا يبعث في كله سنة إلى مشهد على قنديلاً ذهبًا زنته ألف دينار، ولما خرج هولاكو من بغداد سار لؤلؤ إلى خدمته طاعة له.

جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه، وكانت من جملة حظاياه، جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة، فانزعج الخليفة من ذلك فزعًا شديدًا، وأحضر السهم الذي أصابها بين يديه فإذا عليه مكتوب إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره أذهب من ذوي العقول عقولهم، فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز، وكثرت الستائر على دار الخلافة - وكان قدوم هولاكوخان بجنوده كلها، وكانوا نحو مائتي ألف مقاتل - إلى بغداد في ثاني عشر المحرم من هذه السنة، وهو شديد الحنق على الخليفة بسبب ما كان تقدم من الأمر الذي قدره الله وقضاه وأنفذه وأمضاه، وهو أن هولاكو لما كان أول بروزه من همدان متوجهًا إلى العراق أشار الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي على الخليفة بأن يبعث إليه بهدايا سنية ليكون ذلك مداراة له عما يريده من قصد بلادهم، فخذل الخليفة عن ذلك دويداره الصغير أيبك وغيره، وقالوا إن الوزير إنما يريد بهذا مصانعة ملك التتار بما يبعثه إليه من الأموال، وأشار بأن يبعث بشيء يسير، فأرسل شيئًا من الهدايا فاحتقرها هولاكوخان، وأرسل إلى الخليفة يطلب منه دويداره المذكور، وسليمان شاه، فلم يبعثهما إليه، ووصل بغداد بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة، ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فأحاطوا ببغداد من ناحيتها الغربية الشرقية، وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة، ولايبلغون عشرة آلاف فارس وهم بقية الجيش، كلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحزنون على الإسلام وأهله، وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمي الرافضي، وذلك أنه لما كان في السنة الماضية كان بين أهل السنة والرافضة حرب عظيمة نهبت فيها الكرخ ومحلة الرافضة، حتى نهبت دور قرابات الوزير، فاشتد حنقه على ذلك، فكان هذا مما أهاجه على أن دبر على الإسلام وأهله ما وقع من الأمر الفظيع الذي لم يؤرخ أبشع منه منذ

بنيت بغداد وإلى هذه الأوقات، ولهذا كان أول من برز إلى التتار هو، فخرج بأهله وأصحابه وخدمه وحشمه، فاجتمع بالسلطان هولاكوخان، لعنه الله، ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف خراج العراق لهم ونصفه للخليفة، فاحتاج الخليفة إلى أن خرج في سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء والصوفية ورءوس الأمراء والدولة والأعيان، فلما اقتربوا من منزل السلطان هولاكوخان حجبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نفسًا، فخلص الخليفة بهؤلاء المذكورين، وأنزل الباقون عن مراكبهم ونهبت وقتلوا عن آخرهم، وأحضر الخليفة بين يدي هولاكو فسأله عن أشياء كثيرة فيقال إنه اضطرب كلام الخليفة من هول ما رأى من الإهانة والجبروت، ثم عاد إلى بغداد وفي صحبته خوجهَ نصير الدين الطوسي، والوزير ابن العلقمي وغيرهما، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة، فأحضر من دار الخلافة شيئًا كثيرًا من الذهب والحلي والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة، وقد أشار أولئك الملأ من الرافضة وغيرهم من المنافقين على هولاكو ألا يصالح الخليفة، وقال الوزير متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عامًا أو عامين، ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك، وحسنوا له قتل الخليفة، فلما عاد الخليفة إلى السلطان هولاكو أمر بقتله، ويقال إن الذي أشار بقتله الوزير ابن العلقمي، والمولى نصير الدين الطوسي، وكان نصير عند هولاكو قد استصحبه في خدمته لما فتح قلاع الألموت، وانتزعها من أيدي الإسماعيلية، وانتخب هولاكو نصير ليكون في خدمته كالوزير المشير، فلما قدم هولاكو وتهيب من قتل الخليفة هون عليه الوزير ذلك فقتلوه رفسًا، وهو في جوالق لئلا يقع على الأرض شيء من دمه، خافوا أن يؤخذ بثأره فيما قيل لهم، وقيل بل خنق، ويقال بل أغرق فالله اعلم، فباءوا بإثمه وإثم من كان معه من سادات العلماء والقضاه والأكابر والرؤساء والأمراء وأولى الحل والعقد ببلاده، ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا

عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش، وقني الوسخ، وكمنوا كذلك أيامًا لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكذلك في المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم، وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي وطائفة من التجار أخذوا لهم أمانًا، بذلوا عليه أموالاً جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم.

وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة، وكان الوزير ابن العلقمي قبل هذه الحادثة يجتهد في صرف الجيوش وإسقاط اسمهم من الديوان، فكانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريبًا من مائة ألف مقاتل، منهم من الأمراء من هو كالملوك الأكابر الأكاسر، فلم يزل يجتهد في تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف، ثم كاتب التتار وأطمعهم في أخذ البلاد، وسهل عليهم ذلك، وحكى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال، وذلك كله طمعًا منه أن يزيل السنة بالكلية، وأن يظهر البدعة الرافضة وأن يقيم خليفة من الفاطميين، وأن يبيد العلماء والمفتيين، والله غالب على أمره، وقد رد كيده في نحره، وأذله بعد العزة القعساء، وجعله حوشكاشًا للتتار بعدما كان وزيرًا للخلفاء، واكتسب إثم من قتل ببغداد من الرجال والنساء والأطفال فالحكم لله العلي الكبير رب الأرض والسماء.

وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الوقعة،

فقيل ثمانمائة ألف، وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف، وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نفس، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وكان دخولهم إلى بغداد في أواخر المحرم، وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يومًا، وكان قتل الخليفة المستعصم بالله أمير المؤمنين يوم الأربعاء رابع عشر صفر وعفى قبره، وكان عمره يومئذ ٤٦ سنة وأربعة أشهر، ومدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأيام، وقتل معه ولده الأكبر أبو العباس أحمد، وله ٢٥ سنة، ثم قتل ولده الأوسط أبو الفضل عبد الرحمن وله ثلاث وعشرون سنة، وأسر ولده الأصغر مبارك وأسرت أخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم، وأسر من دار الخلافة من الأبكار ما يقارب ألف بكر فيما قيل والله أعلم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

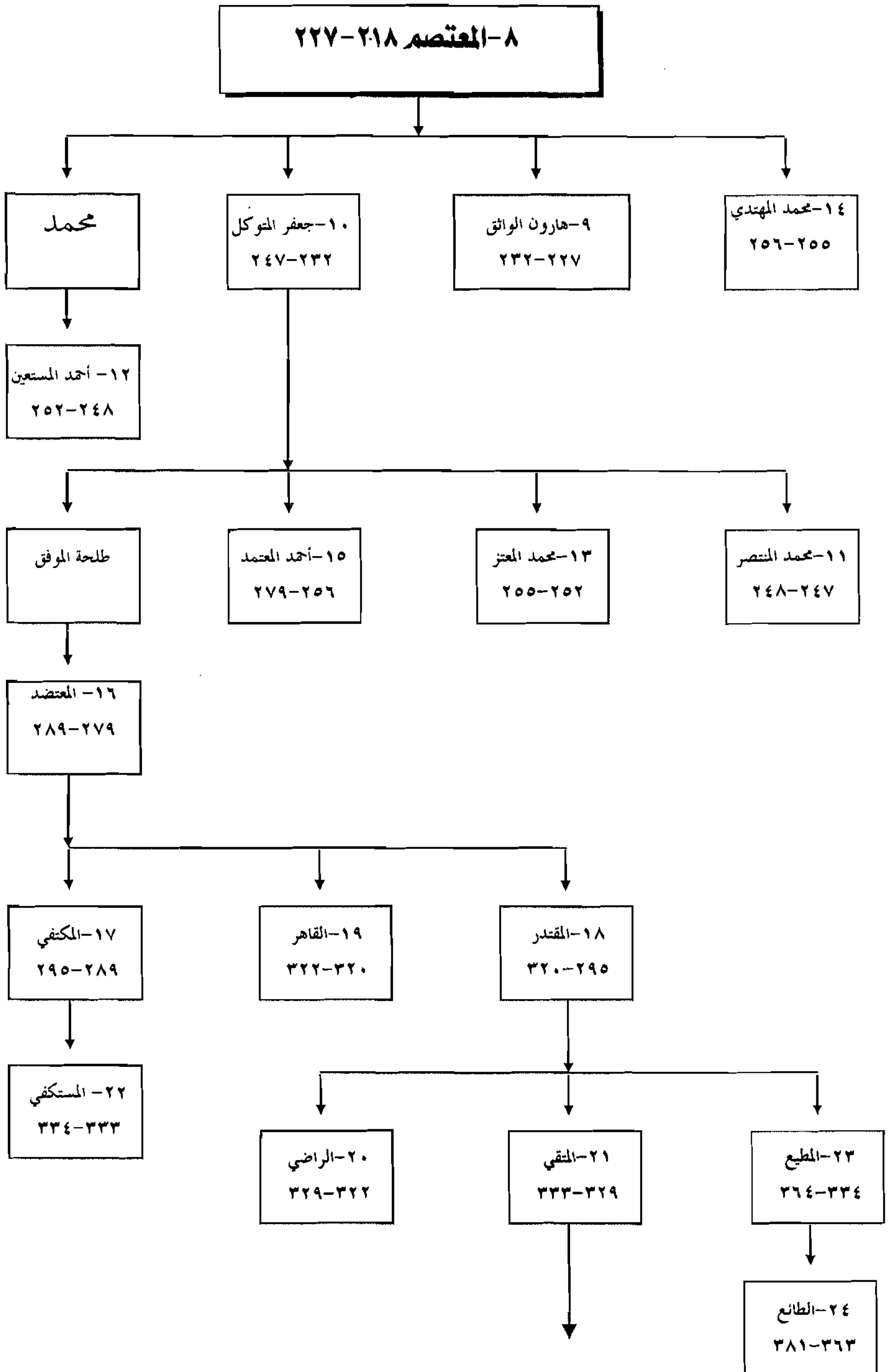
وقتل أستاذ دار الخلافة الشيخ محي الدين يوسف بن الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي، وكان عدو الوزير، وقتل أولاده الثلاثة: عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الكريم، وأكابر الدولة واحدًا بعد واحد، منهم الدويدار الصغير مجاهد الدين أيبك، وشهاب الدين سليمان شاه، وجماعة من أمراء السنة وأكابر البلد، وكان الرجل يستدعي به من دار الخلافة من بني العباس فيخرج بأولاده ونسائه فيذهب به إلى مقبرة الخلال، تجاه المنظرة فيذبح كما يذبح الشاة، ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه، وقتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة صدر الدين على ابن النيار، وقتل الخطباء والأئمة، وحملة القرآن، وتعطلت المساجد والجماعات والجمعات مدة شهور ببغداد، وأراد الوزير ابن العلقمي قبحه الله ولعنه أن يعطل المساجد والمدارس والربط ببغداد ويستمر بالمشاهد ومحال الرفض، وأن يبني للرافضة مدرسة هائلة ينشرون عملهم وعلمهم بها وعليها، فلم يقدره الله تعالى من ذلك بل أزال نعمته عنه وقصف عمره بعد شهور يسيرة من هذه الحادثة، وأتبعه بولده فاجتمعا والله أعلم بالدرك الأسفل من النار.

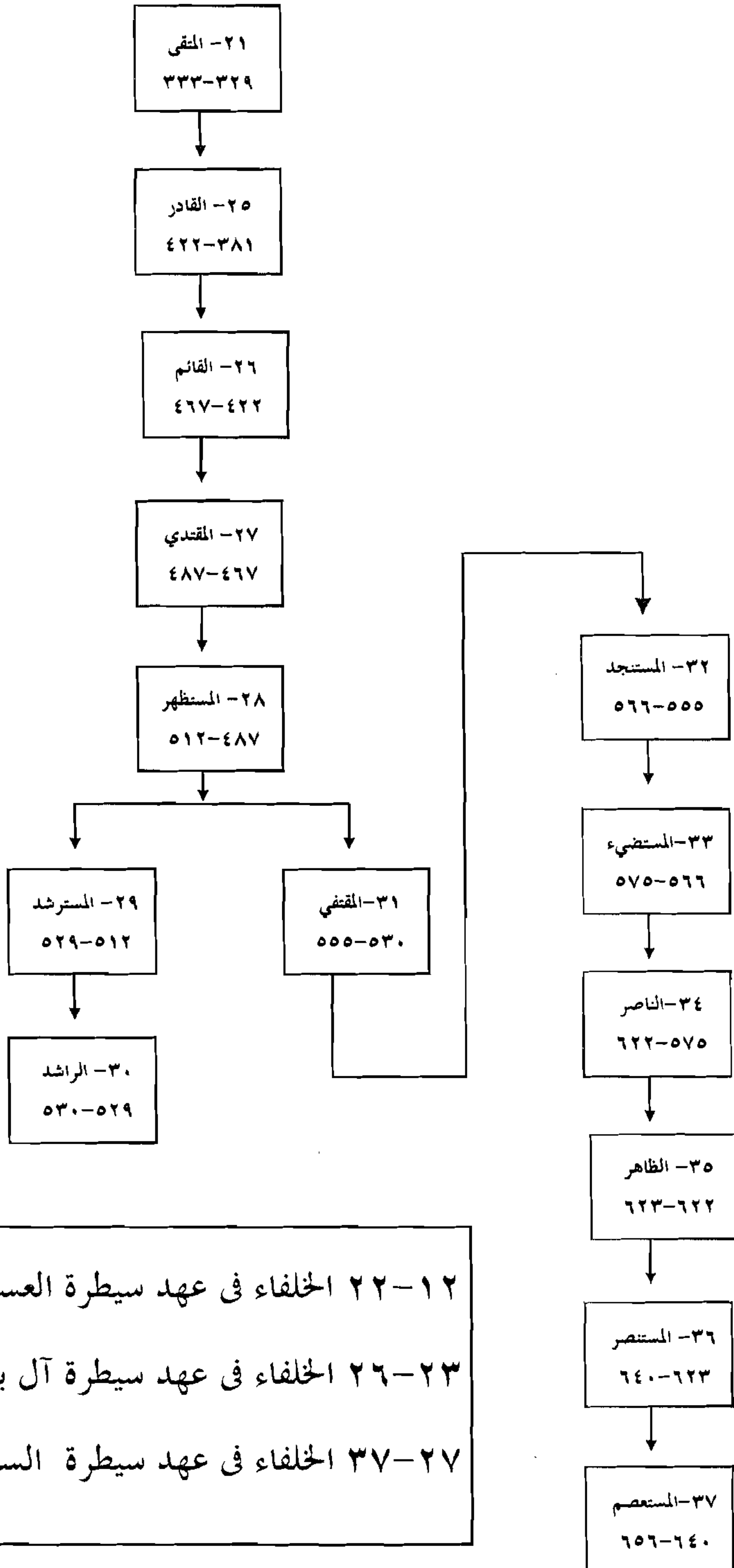
ولما انقضى الأمراء المقدر وانقضت الأربعون يومًا بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما نودي ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقني والمقابر، وكأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضًا فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى، واجتمعوا تحت الثرى بأمر الذي يعلم السر وأخفى، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى، وكان رحيل السلطان المسلط هولاكوخان عن بغداد في جمادى الأولى من هذه السنة إلى مقر ملكه، أما الوزير ابن العلقمي فلم يمهله الله ولا أهمله، بل أخذه أخذ عزيز مقتدر، في مستهل جمادى الآخرة عن ثلاث وستين سنة، وكان عنده فضيلة في الإنشاء ولديه فضيلة في الأدب، ولكنه كان شيعيًا جلدًا رافضيًا خبيثًا، فمات جهدًا وغمًا وحزنًا وندمًا، وإلى حيث ألقت رحلها أم قشعم، فولى الوزارة ولده عز الدين بن الفضل محمد، فألحقه الله بأبيه في بقية هذا العام، ولله الحمد والمنة.

وذكر أبو شامة وشيخنا أبو عبد الله الذهبي وقطب الدين اليونيني أنه أصاب الناس في هذه السنة بالشام وباء شديد، وذكروا أن سبب ذلك من فساد الهواء والجو، فسد من كثرة القتلى ببلاد العراق وانتشر حتى تعدى إلى بلاد الشام فالله أعلم.

***


٨-المعتصم ٢١٨-٢٢٧
١٤-محمد المهتدي
٢٥٥-٢٥٦
٩-هارون الواثق
٢٢٧-٢٣٢
١٠-جعفر المتوكل
٢٣٢-٢٤٧
محمد
١٢- أحمد المستعين
٢٤٨-٢٥٢
١١-محمد المنتصر
٢٤٧-٢٤٨
١٣-محمد المعتز
٢٥٢-٢٥٥
١٥-أحمد المعتمد
٢٥٦-٢٧٩
طلحة الموفق
١٦- المعتضد
٢٧٩-٢٨٩
١٨-المقتدر
٢٩٥-٣٢٠
١٩-القاهر
٣٢٠-٣٢٢
١٧-المكتفي
٢٨٩-٢٩٥
٢٢- المستكفي
٣٣٣-٣٣٤
٢٣-المطيع
٣٣٤-٣٦٤
٢١-المتقي
٣٢٩-٣٣٣
٢٠-الراضي
٣٢٢-٣٢٩
٢٤-الطائع
٣٦٣-٣٨١



١٢-٢٢ الخلفاء فى عهد سيطرة العسكر الأتراك

٢٣-٢٦ الخلفاء فى عهد سيطرة آل بويه

٢٧-٣٧ الخلفاء فى عهد سيطرة السلاجقة

الفصل الثاني

الدول التي استقلت عن الخلافة العباسية

صارت الدولة العباسية في منتصف القرن الثالث محاطة بدول مستقلة في الإدارة عن سلطان الخلفاء، حصل ذلك في المشرق والمغرب والجنوب والشمال في آنٍ واحد، ولا قِبَل للدولة بإرسال الجنود لإعادة الحكم العباسي الفعلي إلى تلك الولايات؛ لأن الموالي الأتراك قلما يهمهم ذلك ما داموا آخذين بجلاقيم الخلفاء في حاضرة الدولة...

الفصل الثاني

الدول التي استقلت عن الخلافة العباسية

مقدمة:

كان لتغلب عنصر الترك على مقاليد الخلافة العباسية ببغداد الأثر الأكبر في إضعاف هيبة الخلفاء، ورأى الولاة الذين هم في الأطراف أن يستقلوا بما تحت أيديهم لأنهم ليسوا أقل من أتراك بغداد، ولم يمض وقت طويل حتى صارت الدولة العباسية - في منتصف القرن الثالث- محاطة بدول مستقلة في الإدارة عن سلطان الخلفاء.

وكانت هذه الدول منها الموالي لدولة الخلافة فتعلن الدعاء لهم على المنابر، وتكتب أسماء الخلفاء على السكة، وترسل الأموال والهدايا إلى بغداد، ومنها ما استقل استقلالاً تامًا بل وعادى أحيانًا دولة الخلافة.

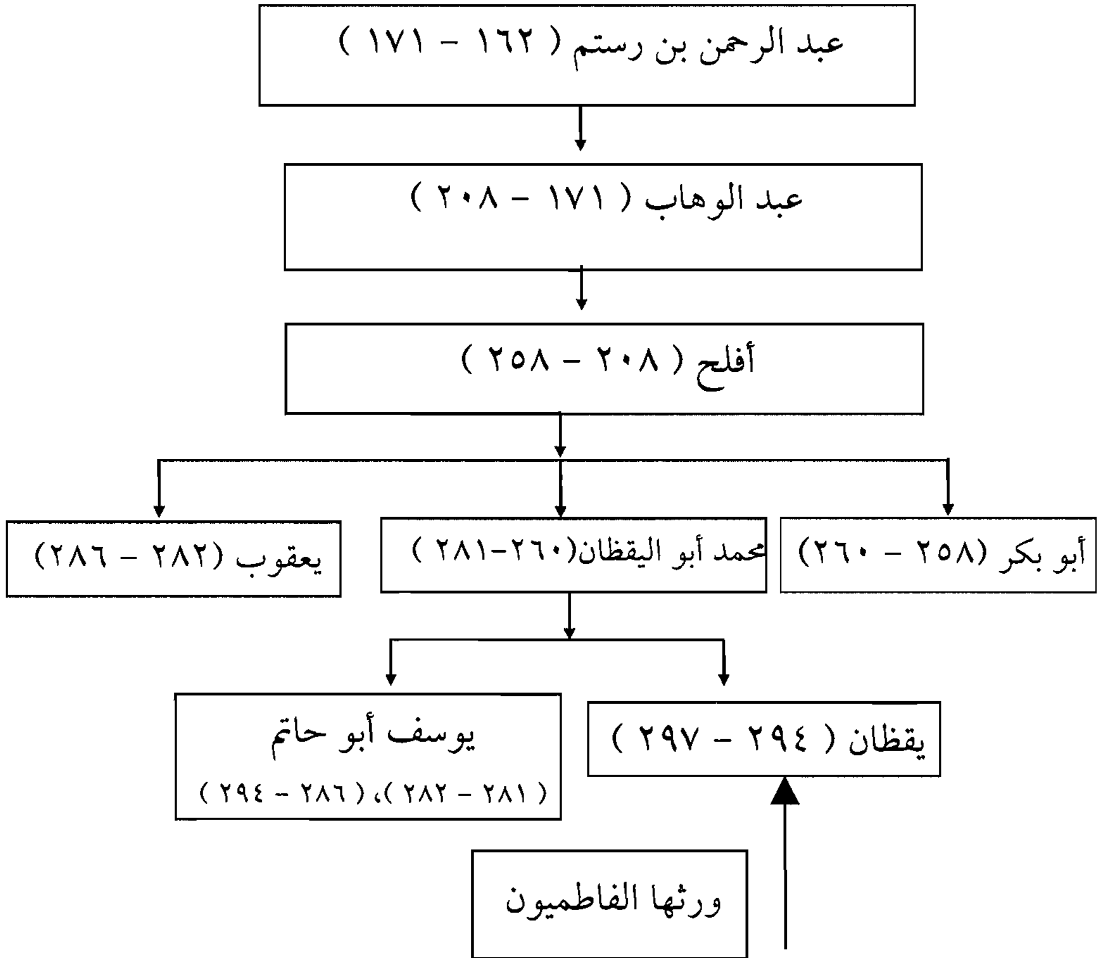
ولم تستطع دولة الخلافة أن تتخذ موقفًا حاسمًا من هؤلاء لأنه لم يكن للخليفة سلطان حقيقي كما رأينا.

ولنتناول أهم هذه الدول وتأثيرها في تاريخ أمة الإسلام.

الدولة الرستمية
(١٦١-٢٩٦)هـ

نسبة إلى مؤسسها عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن رستم بن بهرام (بهرام كان مولى سيدنا عثمان)، ومكانها تاهرت (بالمغرب الأوسط).

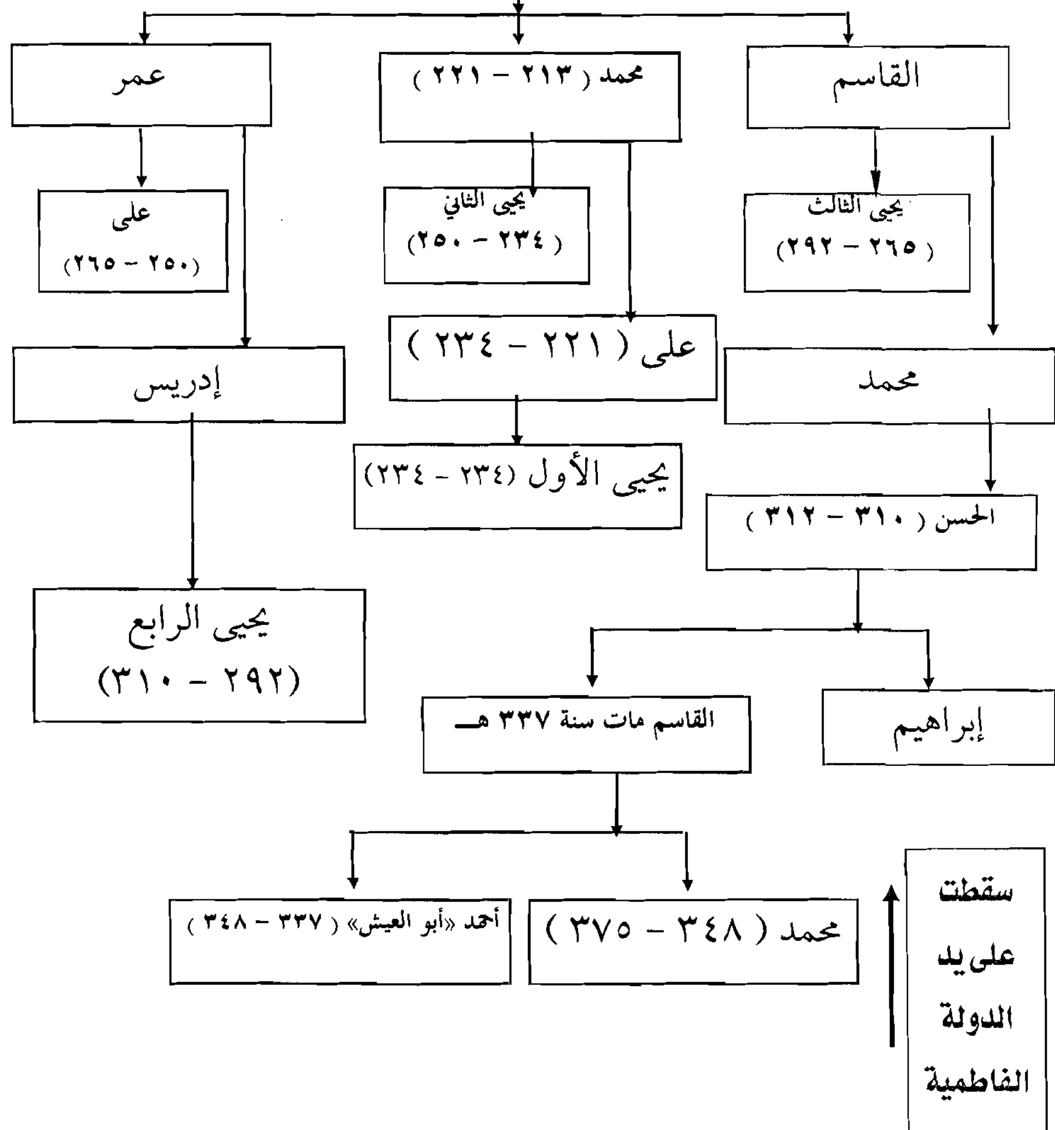
ومذهبها هو الإباضية.



يلاحظ على هذه الدولة أنهم جعلوا الحكم وراثيًا خلافًا لمبادئ الإباضية.

دولة الأدارسة

(١٧٢ حتى ٣٧٥ هـ)



سميت بالأدارسة نسبة إلى مؤسسها إدريس بن عبد الله بن الحسن.

قامت بالمغرب الأقصى، ومذهبها هو الزيدية أقرب مذاهب الشيعة إلى أهل السنة.

• لما حاول الحسين بن على بن الحسين بن الحسن بن على بن أبي طالب الخروج في زمن خلافة موسى الهادي لم ينجح وذبح أكثر أتباعه في معركة (فخ) قرب مكة، ولم ينج منها من عشيرة الحسين إلا يحيى بن عبد الله وأخوه إدريس.

• توجه إدريس إلى المغرب الأقصى، والتقى بزعيم قبيلة أوربة البربرية (على مذهب المعتزلة) ورئيسها هو إسحاق بن محمود بن عبد الحميد ورغم اختلاف المذاهب وغلبة المعتزلة إلا أن إسحاق لم يكن يرى مانعًا من العمل على تأسيس دولة تكون رياستها لإمام علوي زيدي، تم هذا اللقاء وفق تمهيد مسبق.

• وأخذ إسحاق البيعة لإدريس سنة ١٧٢ هـ.

• استطاع إدريس أن يجمع جميع المذاهب عليه وبنى مدينة فاس لتكون عاصمة له، واختار معظم وزرائه من قبيلة أوروبة، واستطاع أن يؤلف جيشًا عظيمًا من وجوه قبائل زناتة وأوروبة وصنهاجة وهوارة وغيرهم، واستطاع أن يوسع لأركان مملكته حتى فتح تلمسان، وبفتحها استقامت له إمارة المغرب.

• اغتيل إدريس على يد الشماخ بتكليف من الخليفة هارون الرشيد، وكانت امرأة إدريس حاملاً فلما وضعت سموا المولود إدريس.

• تولى مولاهم راشد الوصاية على إدريس الصغير حتى اغتيل.

• بويع إدريس الثاني وعمره عشر سنوات، ولما شب استطاع أن يبلغ بمدينة فاس مبلغًا عظيمًا من البهاء والازدهار حتى غدت قبلة للمشارقة والمغاربة والأندلسيين.

• وفي عهد يحيى بن محمد بن إدريس سنة ٢٣٤ هـ دب الضعف في كيان هذه الدولة نتيجة اعتماد يحيى على العناصر العربية مما أسخط عليه البربر ...

• ثم ظهرت الإقطاعات ووزعها على أهله، ثم تنازع الأبناء أملاك الأجداد حتى انقضت دولتهم تمامًا سنة ٣٧٥ على يد الفاطميين.

• وأحفاد الأدارسة مازال لهم وجود حتى يومنا هذا بالمغرب، ويتمتعون بمكانه اجتماعية مرموقة.

من آثار هذه الدولة:

◆ أنها ساعدت في تعريب المغرب، إذ استقدم إدريس الثاني خمسمائة أسرة عربية من الأندلس والمشرق وإفريقية إلى بلاده.

◆ حارب الخوارج وأفكارهم.

◆ أكبر مسجد لهم مسجد القرويين قامت بإنشائه أُم البنين فاطمة بنت محمد الفهري، سنة ٢٤٣ هـ وظل هذا المسجد منارة للعلم فترات طويلة وكانت فيه مكتبة ضخمة ويقال: إنه أقدم جامعة في تاريخ الإسلام.

◆ كانت فاس منارة للعلم والحضارة.

***

دولة الأغالبة
(١٨٤-٢٩٦)هـ

- نسبة إلى مؤسسها إبراهيم بن الأغلب.

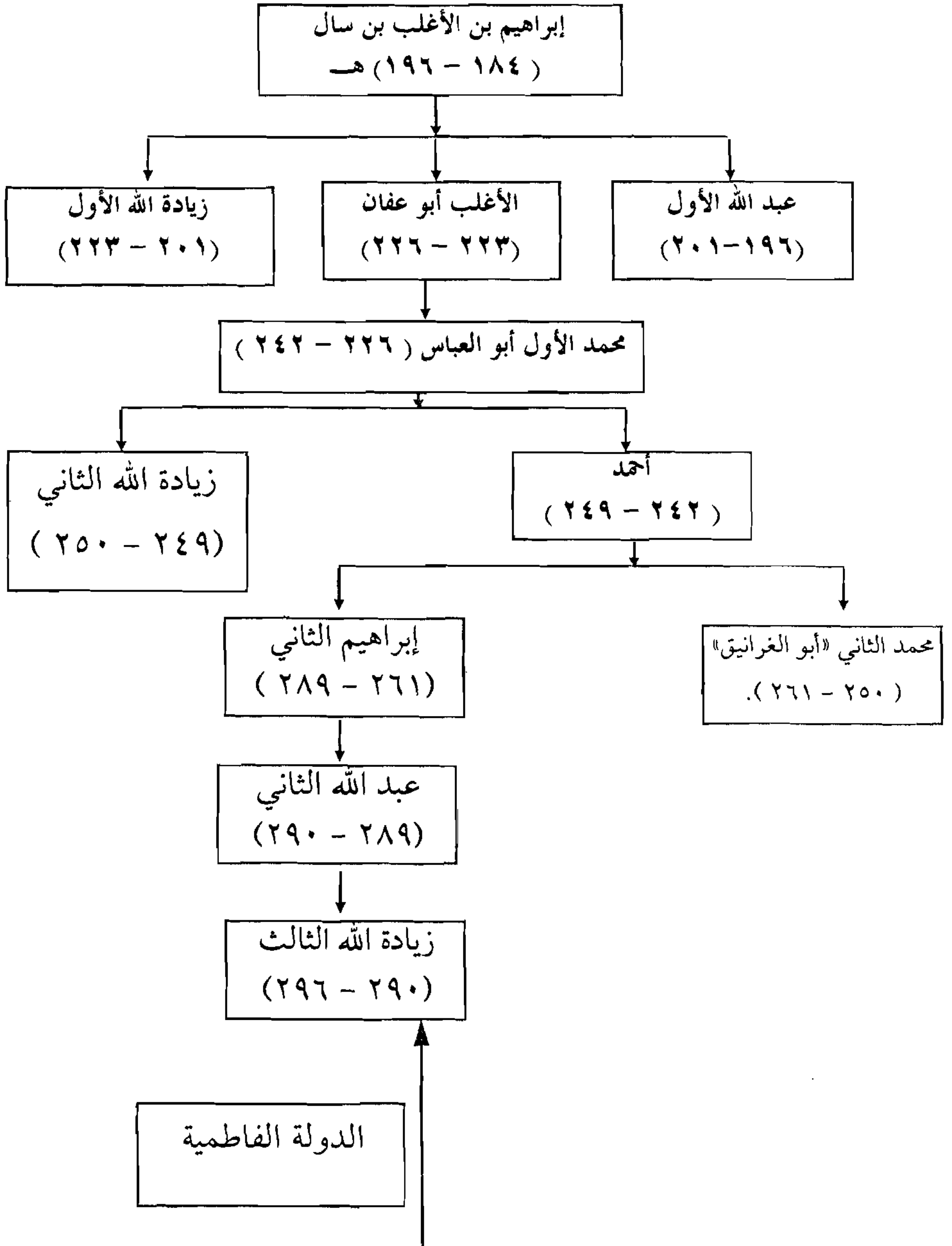
- منذ سنة ١٤٨ وحتى ١٨٤ هـ كانت إفريقية تشهد موجة من القلاقل فكان أن عين الرشيد إبراهيم بن الأغلب واليًا عليها ... وكان إبراهيم ذا طموح فعمل منذ أن تولى الإمارة على تأسيس دولة له ولأبنائه من بعده ...

- كان الرشيد يعلم بنية إبراهيم وطموحه، ولكنه استبقاه في الإمارة مادام يعمل باسم العباسيين، وجعله حاجزًا بين دولة الخلافة وبين دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى.

- ثم عظم أمر إبراهيم وسار كملك مستقل، إلا أنه يخطب للخليفة العباسي.

- استطاعت هذه الدولة أن تقضي على ثورات طائلة في عهدها ... كما أن من ولاتها من أشاع العدل والإحسان في الرعية، منهم مثلاً: إبراهيم الثاني (٢٦١ - ٢٨٩) كان يجلس للعدل في جامع القيروان يوم الخميس والاثنين، يسمع شكوى الخصوم ويصبر عليهم وينصف بينهم، ويروي أنه تصدق بجميع ما يملك ووقف أملاكه جميعها.

- كما أن هذه الدولة قد مارست الغزو والجهاد، فقد غزت جزيرة صقلية منذ نشأتها وكان من قواد الغزو العظام قاضي القيروان أسد ين الفرات، أحد أصحاب الإمام مالك، وظلت محاولات السيطرة على الجزيرة حتى ثبتت أقدام المسلمين بها سنة ٢٦٤ هـ.


إبراهيم بن الأغلب بن سال
(١٨٤ - ١٩٦) هـ
عبد الله الأول
(١٩٦-٢٠١)
الأغلب أبو عفان
(٢٢٣ - ٢٢٦)
زيادة الله الأول
(٢٠١ - ٢٢٣)
محمد الأول أبو العباس (٢٢٦ - ٢٤٢)
أحمد
(٢٤٢ - ٢٤٩)
زيادة الله الثاني
(٢٤٩ - ٢٥٠)
محمد الثاني «أبو الغرانيق»
(٢٥٠ - ٢٦١).
إبراهيم الثاني
(٢٦١ - ٢٨٩)
عبد الله الثاني
(٢٨٩ - ٢٩٠)
زيادة الله الثالث
(٢٩٠ - ٢٩٦)
الدولة الفاطمية

• قام الأمير أحمد سنة ٢٣٢ هـ بغزو جنوب إيطاليا، وذلك ردًا على إغارة الإيطاليين على سواحل بلاده، فخرج في حملة كبيرة من ميناء سوسة ووصلت إلى مشارف مدينة روما، وانتشرت في ضواحي المدينة واحتلت الحصون القريبة من المدينة وسيطرت قوات الأغالبة على المدينة حوالي شهرين، إلى أن وصلت الإمدادات المسيحية، مما اضطر الجيش الإسلامي أن يرحل، بعد أن غنم غنائم كثيرة وكانت هذه أول مرة يحاول فيها المسلمون فتح هذه المدينة.

• وفي عهدهم بني جامع الزيتونة وهو من أعظم مساجد العالم، وأعيد بناء مسجد عقبة بن نافع، وبنيت مدينة رقادة، وهي مدينة عظيمة حافلة بالقصور.

• وأنشئت في أيام إبراهيم الثاني سلسلة المحاريس على الشواطئ، وكانوا ينشئون في كل محرس برجًا للنار لإرسال الإشارات، فكان الخبر يصل إلى أقصى البلاد من بجاية حتى طرابلس في أقل من ليلة، أما بالنهار فكانت الإشارات ترسل بالدخان.



دولة بني زيري بالمغرب
(٣٦٢ - ٥٤٧) هـ

نسبة إلى زيري بن مناد الصنهاجي من قبيلة بربرية اسمها صنهاج تمثل ثلث البربر قويت شوكة بني زيري بمساعدة الفاطميين، فلما خرج الفاطميون إلى مصر عينوا ابنه بلكين يوسف أبو الفتوح على المغرب نائبًا عنهم، وفي عهده ثار أهل المغرب الأقصي وخلعوا الطاعة وخطبوا للأمويين في الأندلس فسار إليهم وأخضعهم.

ومات يوسف بلكين بن زيري عام ٣٧٣ هـ وخلفه ابنه المنصور الذي سار إلى المغرب ليرد الزناتيين إلى طاعته فهزم.

عظم شأن زيري بمساعدة الفاطميين، وكان بدء الاستقلال بالنفوذ على يد بلكين وتعتبر هذه الدولة أول دولة ينشئها البربر بعد إسلامهم.

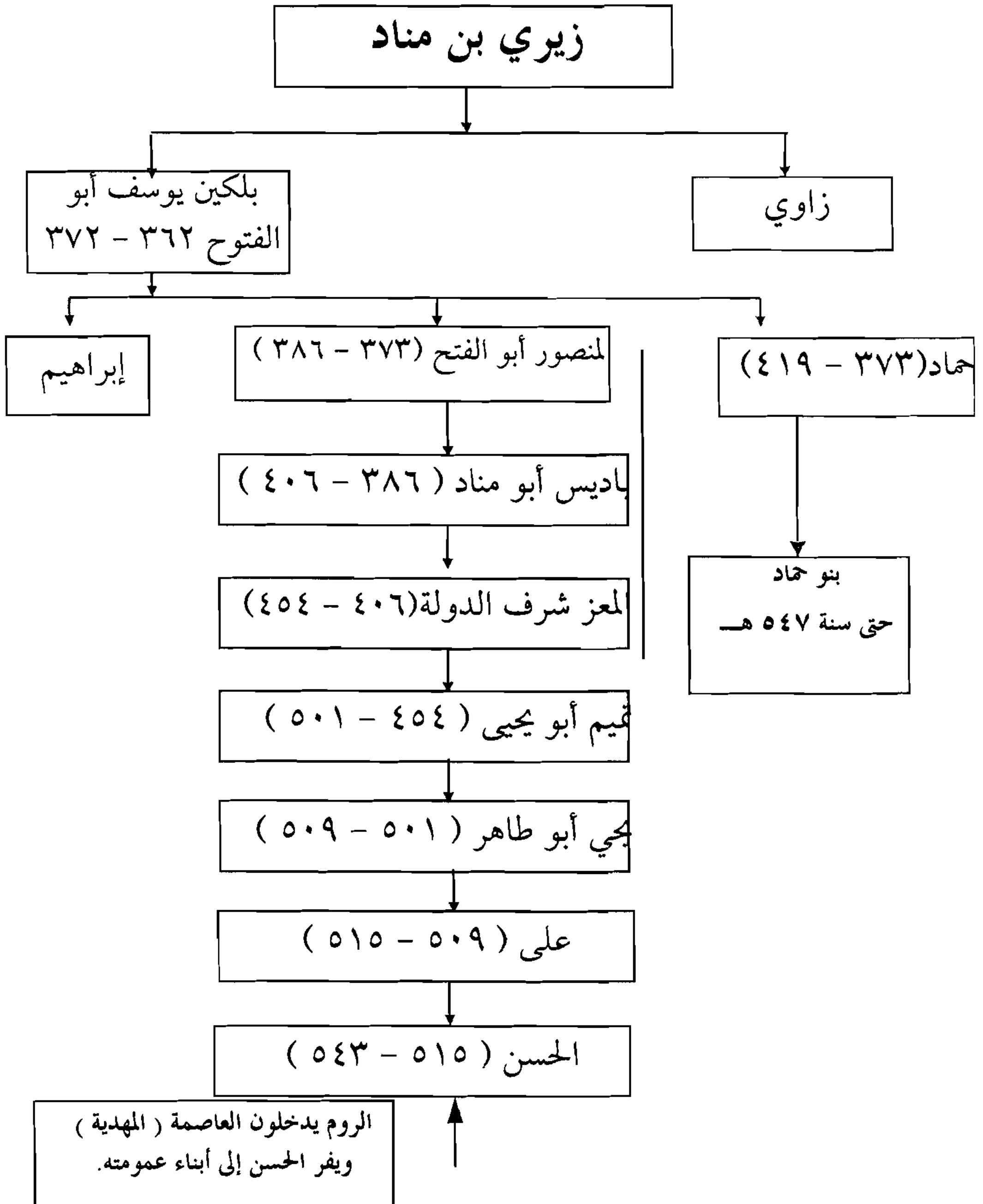
حدث خلاف بين أفراد العائلة حيث اختلف باديس مع عمه حماد وأدي هذا الاختلاف إلى قتال بين الطرفين عام ٤٠٦هـ، وأعطى باديس ولاية العهد لابنه منصور، وتوفي باديس وبايع أمراء الجند كرامة بن المنصور الذي سار إلى حماد واقتتل معه وهزمه، ولما رجع إلى المنصورية وجد الناس قد بايعوا المعز بن باديس، وهو صغير لما يتجاوز الثامنة، فدخل مع الجماعة وبايع، وأقره الفاطميون، ولقب بشرف الدولة. وانتهى الخلاف بالانقسام فصارت ولاية حماد على الجزائر وولاية بنى زيري على ليبيا وتونس.

فلما حكم المعز شرف الدولة ألغى المذهب الشيعي وخلع طاعة الفاطميين ودعا على المنابر للعباسين وحسن علاقاته مع أبناء عمومته وصارت القيروان في عهده وجهة للعلماء والأدباء.

بعد وفاة المعز شرف الدولة عام ٤٥٤هـ تولي ابنه تميم، وفي عهده فقد

المسلمون جزيرة صقلية بعد سيطرة دامت ٢٧٠ عامًا، كما هاجمه الأسطول الطلياني، فانتصر تميم وقتل منهم عددًا كبيرًا.

ودخل الروم المهدية عاصمة بني زيري فغادرها الحسن بن علي الصنهاجي عام ٥٤٣، وسقطت دولتهم التي استمرت ٢٠٩ سنوات.



الدولة الطولونية
(٢٥٤-٢٩٢)هـ

تأسست سنة ٢٥٤ هـ واستمرت حتى ٢٩٢ هـ

ومؤسسها هو أحمد بن طولون:

كان أبوه من الأتراك الذين أهداهم نوح بن أسد الساماني عامل بخاري إلى المأمون سنة ٢٠٠ هـ.

ونشأ أحمد في صيانة وعفاف ورياسة ودراسة للقرآن العظيم، مع حسن الصوت به، وكان يعيب على أولاد الترك ما يرتكبونه من المحرمات والمنكرات.

تولى نيابة مصر للمعتز في رمضان سنة ٢٥٤ هـ، فأحسن إلى أهلها وأنفق فيهم من بيت المال، وبنى بها جامع ابن طولون واستغرق بناؤه ثلاث سنوات، وبنى مارستانا للمرضى وكان يتصدق من خالص ماله في كل شهر بألف دينار.

وفي سنة ٢٦٢ هـ حصلت بينه وبين أحمد الموفق (القائم بأعمال الخليفة) تنافر أدى إلى وحشة.

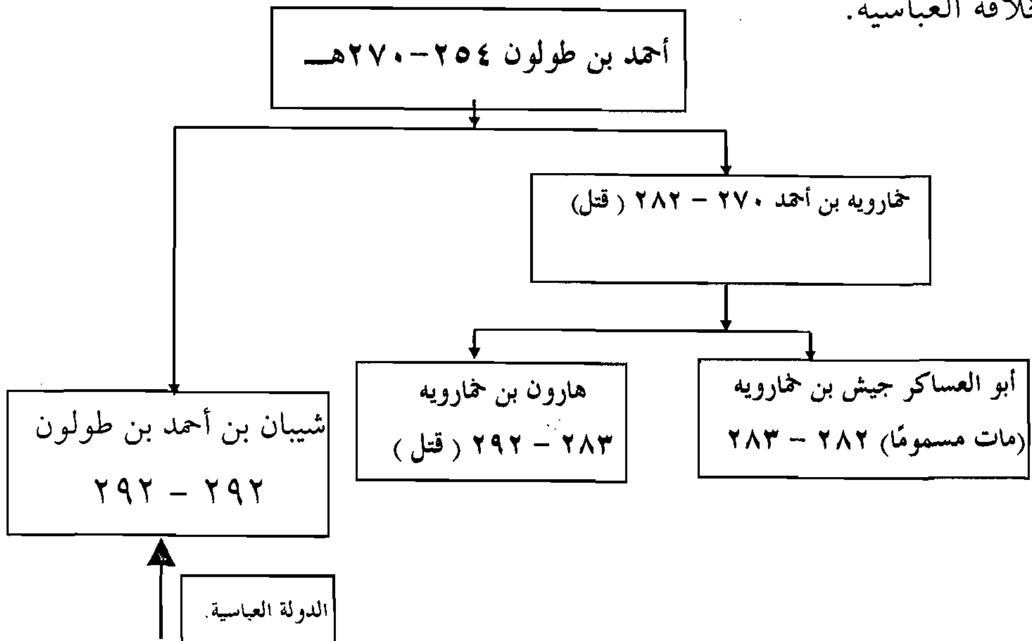
وفي سنة ٢٦٤ هـ دخل في حوزته بلاد الشام والثغور بعد وفاة واليها أماجور، فأحسن إلى أهل البلاد إحسانا بالغًا، واتسع بذلك ملكه اتساعًا عظيمًا حتى كانت حدود مملكته إلى الفرات، وبلغ خراج مصر في عهده ٤,٣٠٠,٠٠٠ دينار/ السنة وزادت الوحشه أكثر بين ابن طولون والموفق، حتى إنه قطع الخطبة عن الموفق وقد كان يخطب للخليفة ومن بعده الموفق، ثم مات سنة ٢٧٠ هـ عن ملك يفوق ملك الخليفة، فأعقبه ابنه خمارويه ...

فسار في الناس سيرة أبيه، وبالغ في العمارة وأنواع الترف ...

حاربه أمراء الموصل والأنبار ووالي دمشق، وقد اتفقوا مع أحمد بن الموفق

على أن يخرجوه من الشام ويردوها إلى الخليفة، فدارت بينهم معارك عديدة انتهت بانتصار خماروية بعد موقعة فاصلة بجهة دمشق سنة ٢٧١هـ عندئذ عقد خمارويه صلحًا مع الموفق، وقلده الخليفة حكم مصر والشام وأطراف بلاد الروم مدة ثلاثين سنة.

فلما مات الموفق سنة ٢٧٨ هـ ومن بعده الخليفة المعتمد تحسنت العلاقة بين خمارويه والخليفة المعتضد، الذي تزوج ابنة خمارويه قطر الندى فجهزها خمارويه جهازًا يضرب به المثل من ذلك:عشر صناديق مملوءة بالجواهر وغيرها،وأمر فبني على رأس كل مرحلة تنزل بها قصر فيما بين مصر وبغداد، هذا الإسراف أضعف المركز المالي لدولة خمارويه، وما لبث أن قتل بدمشق ذبحه بعض خدمه ودفن بمصر سنة ٢٨٢ هـ،ولم تستقر الأمور بعد خمارويه للطولونيين إذ أغار القرامطة على الشام، وحاصروا دمشق فتدخل الخليفة وقهر القرامطة واستغل الموقف فعزم على القضاء على ملك الطولونيين وإعادة مصر والشام إلى حظيرة الخلافة العباسية.



الدولة الإخشيدية
(٣٢٤-٣٥٨) هـ

تأسست سنة ٣٢٤ هـ واستمرت حتى سنة ٣٥٨ هـ

ومؤسسها هو محمد بن طغج الملقب بالأخشيد ومعناه ملك الملوك، وهو لقب يطلق على ملوك فرغانة وهي إحدى بلاد ما وراء النهر التي تتاخم بلاد التركستان.

وكان طغج من موالي آل طولون ... وكان الخليفة الراضي بالله قد رضي عن محمد بن طغج حينما صد هجوم الفاطميين على مصر سنة ٣٢٤ هـ فقلده ولايتها ...وكان علاقة الإخشيديين بالخلافة علاقة ولاء كامل حتى أن محمد بن طغج عرض على الخليفة العباسي المتقي بالله أن ينتقل إلى مصر ويجعلها مقرًا للخلافة ولكن الخليفة رفض، واجه الإخشيديون أطماع الحمدانيين في الاستيلاء على الشام،وقاتلوا الإخشيديين الذين اضطروا إلى دفع الجزية لهم.

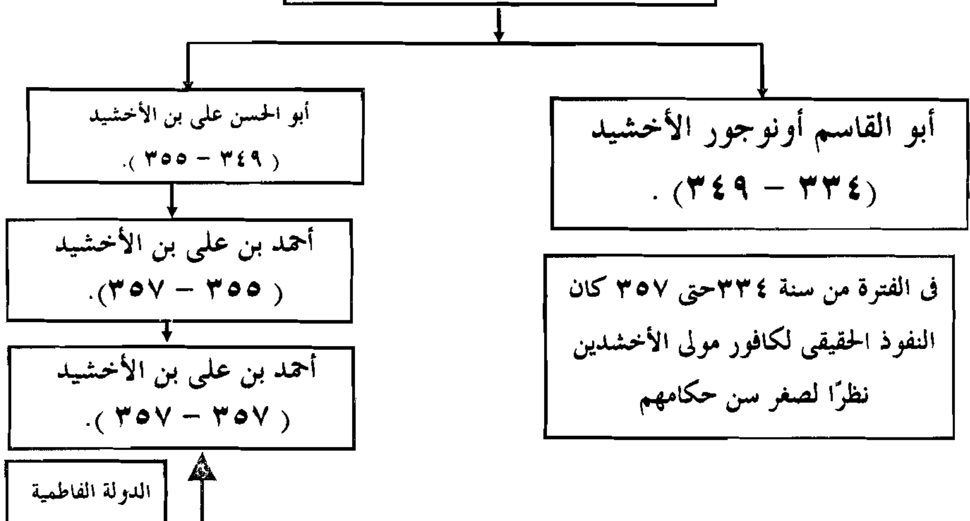
وبالجملة فقد كان ولاة هذه الدولة متدينون، فكان بلاط الإخشيد مجتمعًا للعلماء والأدباء وكان بن طغج يحضر ختمة القرآن في رمضان، وكان يبكي عند سماع القرآن، دعته جاريته يومًا أن يتكاسل عن حضور ختم القرآن بالمسجد الجامع، فقال لها:ويحك لعله يكون في هذه الليلة رجل صالح له عند الله منزلة، فيكون في دعائه:«اللهم اغفر لجماعتنا»، فعسى أن أدخل فيهم، ثم ركب إلى الجامع فحضر الصلاة والختم، بلغ خراج مصر في عهد محمد بن طغج مليونين من الدنانير في السنة وفي عهد كافور بلغ الخراج ٣,٢٧٠,٠٠٠ دينار.

لما توفي محمد بن طغج سنة ٣٣٤ تولي مكانه ولده أبو القاسم أنوجور، وكان صغيرًا لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، فكان كافور يدبر له الأمر، واضطراب أمر الشام، واستولى سيف الدولة الحمداني على دمشق، فاجلاه

كافور عنها، وتبعه إلى حلب وهزمه في مرج عذراء، ولما رجع كافور عاد سيف الدولة إلى حلب، وعُقد صلح بين الطرفين وحصل كافور على موافقة الخليفة العباسي بتولية الأمير الصغير على مصر والشام ومكة والمدينة وفيما بعد على مدينتي حلب وطرطوس، وبذلك عظم شأن كافور وسيطر على الدولة في عهد أبي القاسم ثم في عهد أخيه أبى الحسن على ثم في عهد ابنه أحمد، الذي استصدر كتابًا من الخليفة بتولي إمرة مصر حتى توفي ٣٥٧ سنة.

وفي هذه المدة التي تزيد على السنتين (٣٥٥- ٣٥٧) من ولاية كافور تعرضت مصر والشام لهجمات القرامطة من الشرق، وهجمات الفاطميين من الغرب، كما أغار ملك النوبة على مصر من جهة الجنوب.

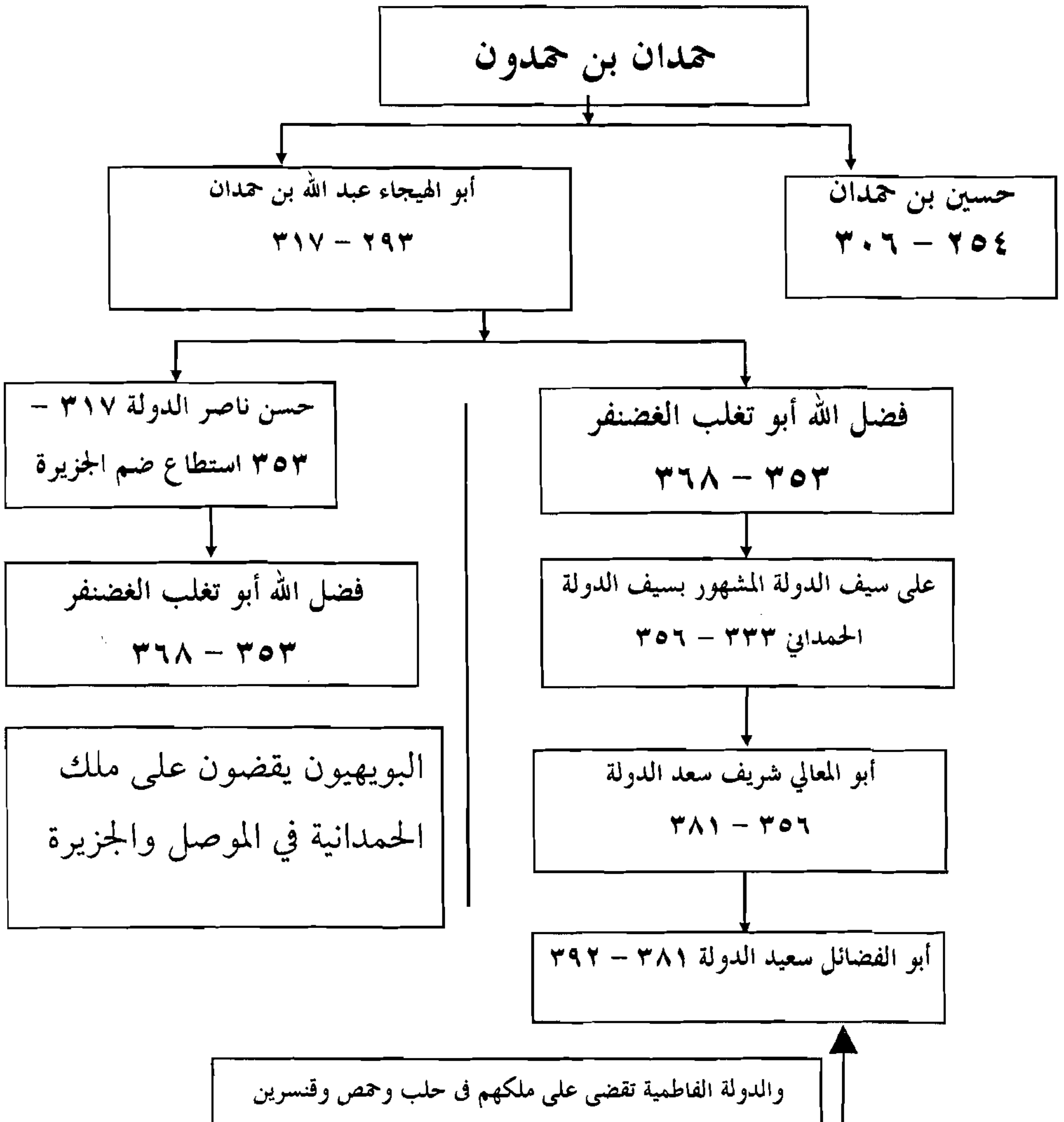
وبعد وفاة كافور اختار أمراء الجيش أحمد بن على أبي الحسن واليًا، ولما كان صغيرًا فقد عين وصيًا عليه والى الشام الحسن بن عبيد الله فاستبد بالأمر، ثم اضطر أن يعود إلى الشام وجاء الفاطميون فدخلوا مصر ثم الشام وأسر الحسن بن عبيد الله ونقل إلى المغرب وبقي فيها حتى مات عام ٣٧١هـ.



دولة بني حمدان
(٢٩٣ – ٣٩٢)هـ

نسبة إلى حمدان بن حمدون بن الحارث من قبيلة تغلب.

قامت بالجزيرة على حدود الروم - الموصل - حلب - حمص.



كان حسين بن حمدان ذا ولاء شديد للخلافة فساعدها في حرب الخوارج ثم كان له دور بارز في الحرب ضد القرامطة وفي الحملة التي جهزها الخليفة لاسترداد مصر من الطولونيين، ولكنه حدث بينه وبين وزير المقتدر خلاف انتهى بسجنه وقتله سنة ٣٠٦هـ، ثم خلفه على ديار ربيعة أخوه إبراهيم عام ٣٠٧ وتوفي عام ٣٠٨ ثم أخوه داود حتى عام ٣٠٩، وبقي مع الخليفة المقتدر وقاتل بجانبه ضد مؤنس الخادم وأصابه سهم فقتل عام ٣٢٠.

أما سعيد والمكني بأبي العلاء فقد تولي أمر الموصل ونهاوند وقد كان أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان قد ناصر القاهر ضد أخيه المقتدر، فلما فشلت الجهود وعاد المقتدر، قتل أبو الهيجاء عام ٣١٧، أما أبو السرايا نصر بن حمدان فقد هرب إلى الموصل، وتولي أمرها عام ٣١٨، ثم قتله القاهر عام ٣٢٢، وقد انتهي أمر أولاد حمدان كلهم قبل نهاية عام ٣٢٢، غير أن عبد الله أبا الهجاء قد أناب عنه في الموصل ابنه الحسن ناصر الدولة فاستطاع أن يحتفظ بها منذ تولي أمرها عام ٣٠٨ حتى توفي عام ٣٥٨ باستثناء مدة قصيرة ٣١٧-٣١٩ بسط عماه سعيد ونصر فنوذهما بأمر الخليفة المقتدر، وكان هؤلاء الملوك رافضة، ويعتبر أبو الهيجاء المؤسس الحقيقي للدولة.

اشتهر تاريخ هذه الدولة بسيف الدولة الحمداني فقد كان أديبًا وشاعرًا، جمع حوله الأدباء وكانت مقاومته للروم بالغة الأثر في تاريخ الإسلام، حيث أجج سيف الدولة روح الجهاد والمقاومة ضد الروم، فكانت ثغور ملطية والحدث ومرعش والهارونية والكنيسة وعين زربة والمصيصة وأدنة وخرسوس، معامل صامدة للمقاومة، إذ كانت مواقف سيف الدولة كلها مواقف دفاع إزاء هجمات الروم المتتالية ...

يقول ما ركفات: «إن حروب سيف الدولة فصل خطير من فصول الحروب الصليبية»، كان علاقة هذه الدولة بالخلافة مترددة بين الرضا والسخط وكانت تميل إلى التشيع.

الدولة السامانية
(٢٦١ - ٣٨٩)هـ

قامت ببلاد ما وراء النهر. وسيطرت على أجزاء من الهند والأفغان وكستان وخراسان. وسموا بذلك نسبة إلى موطنهم الأصلي قرية سامان بالقرب من سمرقند.

وقد عرف السامانيون الإسلام من أيام خلافة الأمويين ... حتى كانت خلافة المأمون في أثناء فترته الأولى، عندما كان بمرو، فتعرف رجل مسلم من السامانين، واسمه أسد الساماني على المأمون، فنال عنده حظوة ومكانة، حتى أن المأمون لما انتقل إلى بغداد، ولّى أبناء أسد هذا الأربعة الولايات في بلاد ما وراء النهر.

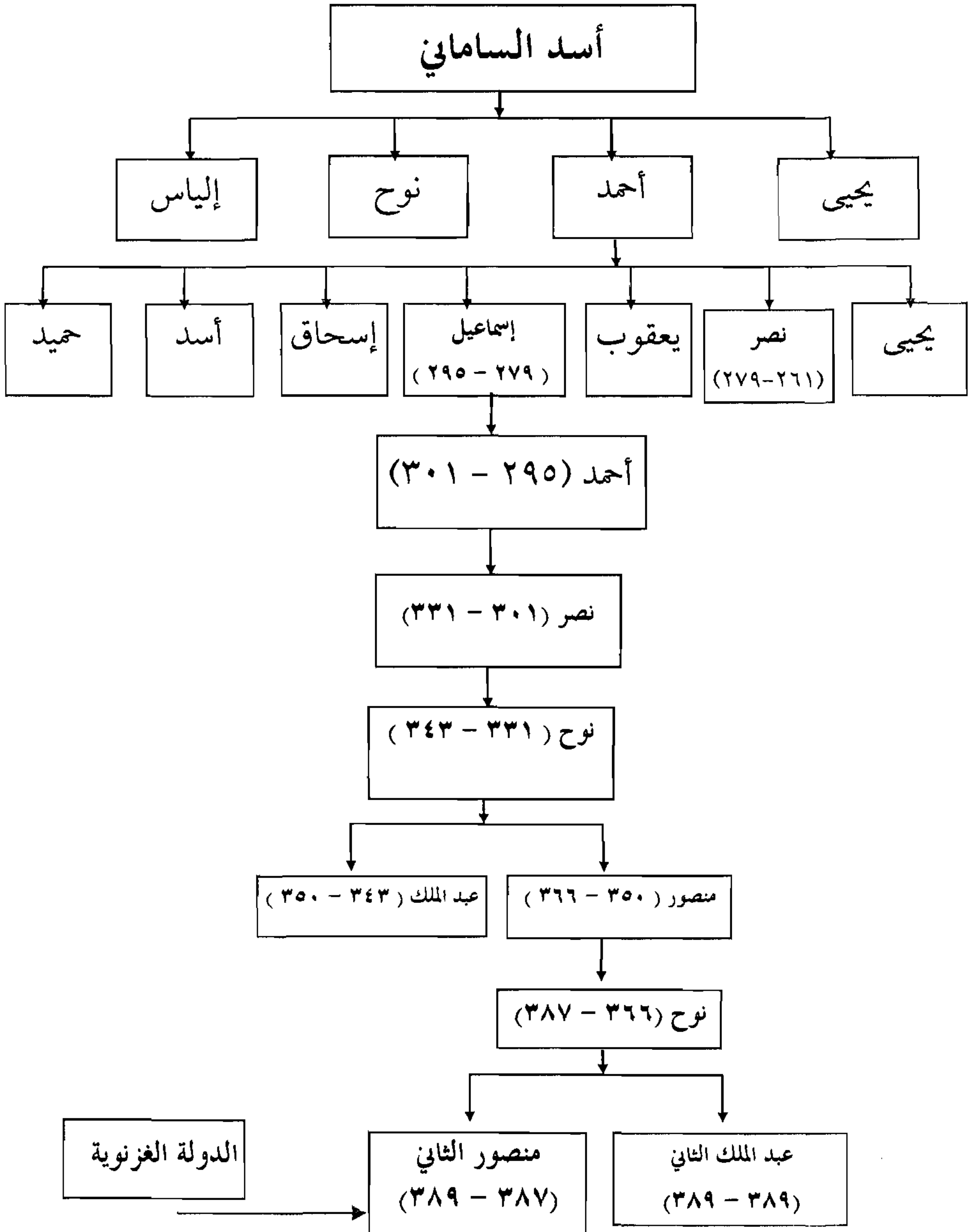
فكان: نوح بن أسد على سمرقند،ويحي بن أسد على الشاش وأشروسنة، وأحمد بن أسد على فرغانة،وإلياس بن أسد على هراة.

وكان أبرز هؤلاء أحمد بن أسد الذي كان له بدوره سبعة من الأبناء، أبرزهم نصر بن أحمد، ومازالت هذه الأسرة تحظى بالمكانة لدى الخلفاء حتى كان سنة ٢٦١ هـ، أسند الخليفة العباسي ولاية جميع بلاد ما وراء النهر إلى نصر بن أحمد، الذي أقام إخوته جميعًا على الولايات بسائر أنحاء البلاد، وبدأ يومها مجد السامانيين ...

كانت علاقة هذه الدولة بالخلافة العباسية علاقة ولاء تام ... وكانوا على مذهب أهل السنة، وازدهرت الحياة في عهدهم فأمَّ بلادهم ابن سينا والرازي وغيرهما، ولقى العلماء كل الإجلال والتقدير منهم ...

قامت بينهم وبين البويهيين حروب كثيرة، ثم انتشرت الثورات والفتن خاصة في عهد نوح بن منصور (٣٦٦-٣٨٧) الذي كان صغير السن منذ خلت أمه في شئون الحكم، وكذلك تدخل الوزراء، مما أطمع بني بويه وكذلك الأتراك في بلادهم.

وقد دخل محمود الغزنوي بخاري ونيسابور وأزال نفوذ السامانيين وخطب للخليفة العباسي القادر بالله.


أسد الساماني
يحيى
أحمد
نوح
إلياس
يحيى
نصر (٢٦١-٢٧٩)
يعقوب
إسماعيل (٢٧٩ - ٢٩٥)
إسحاق
أسد
حميد
أحمد (٢٩٥ - ٣٠١)
نصر (٣٠١ - ٣٣١)
نوح (٣٣١ - ٣٤٣)
منصور (٣٥٠ - ٣٦٦)
عبد الملك (٣٤٣ - ٣٥٠)
نوح (٣٦٦ - ٣٨٧)
عبد الملك الثاني (٣٨٩ - ٣٨٩)
منصور الثاني (٣٨٧ - ٣٨٩)
الدولة الغزنوية

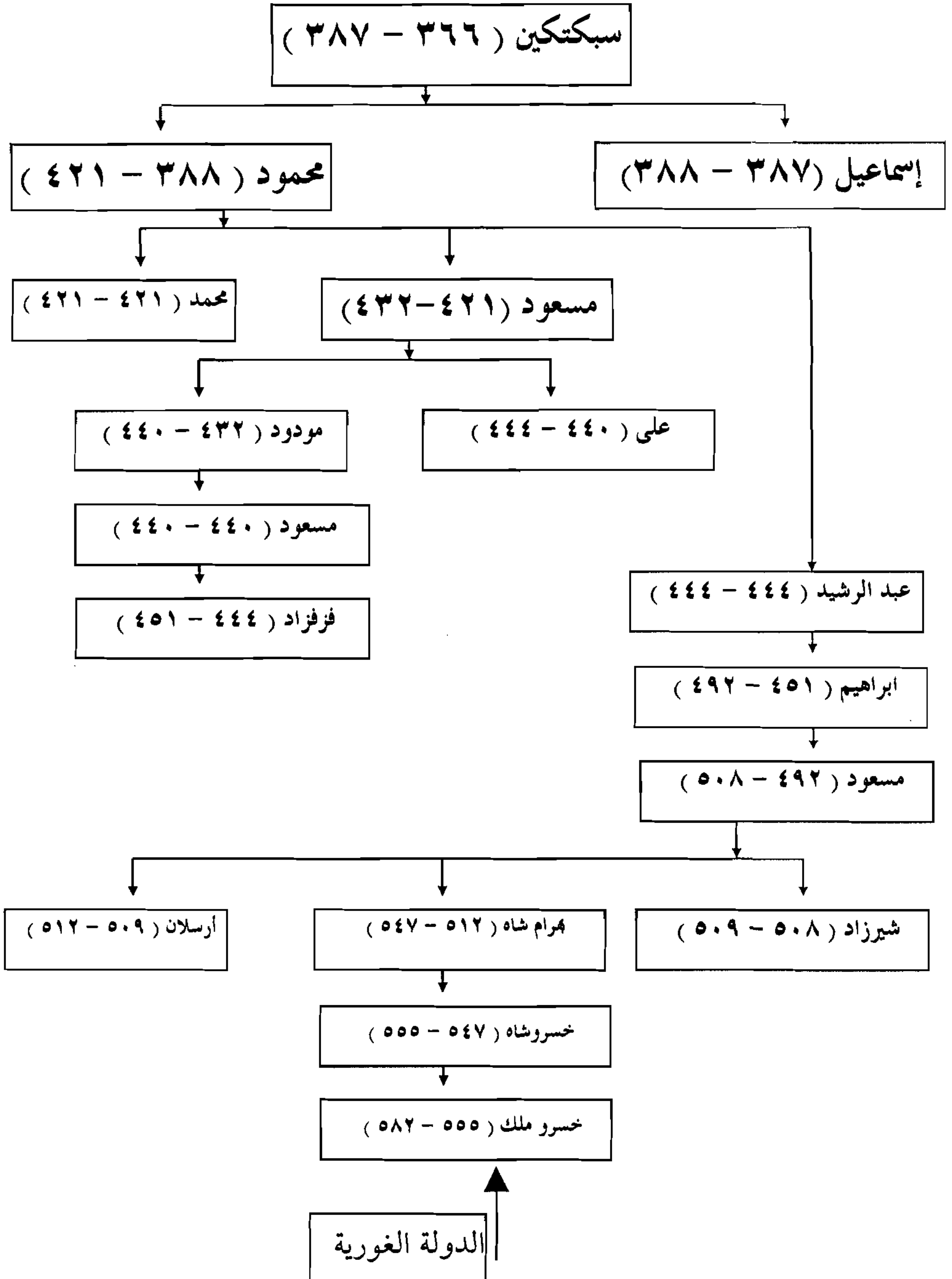
الدولة الغزنوية (السُبُكْتكينية)
(٣٦٦ - ٥٨٢)هـ

نسبة إلى مدينة غزنة وهي بأفغانستان حاليًا ...

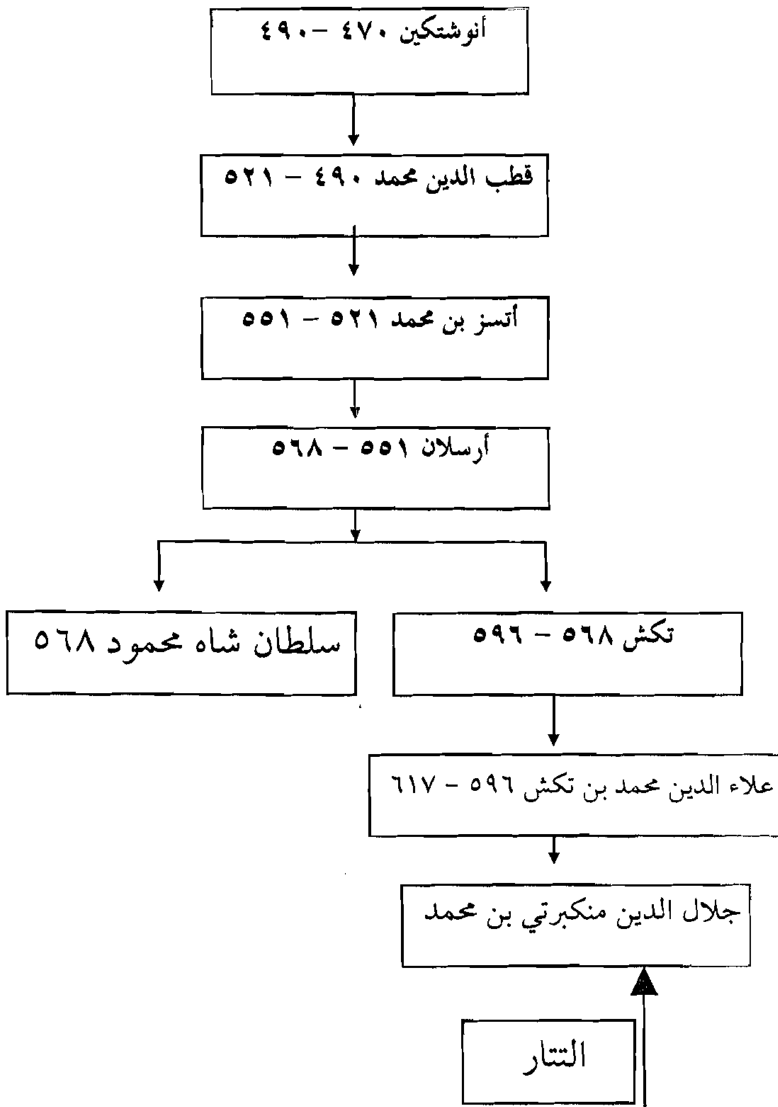
وكان قد التحق بخدمة السامانيين غلام تركي اسمه ألبتكين واستطاع بفضل همته العالية أن يحظي بمكانة لدى قادة السامانيين فولاه عبد الملك بن نوح الساماني سنة ٣٤٩ هـ ولاية خراسان نيابة عنه ... حتى عزله عنها الأمير منصور بن نوح فلجأ ألبتكين إلى بلخ واستطاع هزيمة جيش منصور ثم توجه إلى غزنة واستولى عليها واتخذها مقرًا له سنة ٣٥١ هـ،وبعد وفاة ألبتكين خلفه ابنه إسحاق إبراهيم الذي تحالف مع الأمير منصور بن نوح ضد أمير غزنة، على أن يعد نفسه تابعًا للدولة السامانية ...فلما مات إسحاق ولم يكن له أبناء تولى أمر غزنة أمراء منهم، حتى تولى سُبُكْتُكين إمارة غزنة سنة ٣٦٦ هـ وهو أحد الغلمان الأتراك الذين كانوا يعملون مع ألبتكين واستطاع سبكتكين أن يوسع حدود ملكه من ناحية الهند، وكان يعترف بسلطة السامانيين عليه رغم استقلاله.

كما استعان به الأمير نوح بن منصور الساماني للقضاء على حركة تمرد ضده في بخاري، فلما انتصر لقب نوح سبكتكين لقب ناصر الدولة وعين ابنه محمودًا قائدًا لجيش خراسان ومنحه لقب سيف الدولة...

ولهذه الدولة وخاصة في عهد محمود بن سبكتكين الفضل في فتح أجزاء كبيرة من الهند كما قضي على سلطان البويهيين في بلاد الجبل والري، ودخل بلاد قزرين وصلب عددًا كبيرًا من أصحاب الباطنية، ونفي المعتزلة إلى خراسان وأحرق كتب الفلاسفة والمعتزلة والنجوم، وحارب الأتراك الغز وسيطر على خراسان وأنهي نفوذ السامانيين منها. وكانت هذه الدولة على ولاء تام للخلافة وكانت على مذهب أهل السنة والجماعة وكانت موئلاً للعلماء فترة طويلة من الزمان ...


سبكتكين (٣٦٦ - ٣٨٧)
محمود (٣٨٨ - ٤٢١)
إسماعيل (٣٨٧ - ٣٨٨)
محمد (٤٢١ - ٤٢١)
مسعود (٤٢١-٤٣٢)
مودود (٤٣٢ - ٤٤٠)
على (٤٤٠ - ٤٤٤)
مسعود (٤٤٠ - ٤٤٠)
فرفزاد (٤٤٤ - ٤٥١)
عبد الرشيد (٤٤٤ - ٤٤٤)
ابراهيم (٤٥١ - ٤٩٢)
مسعود (٤٩٢ - ٥٠٨)
أرسلان (٥٠٩ - ٥١٢)
بهرام شاه (٥١٢ - ٥٤٧)
شيرزاد (٥٠٨ - ٥٠٩)
خسروشاه (٥٤٧ - ٥٥٥)
خسرو ملك (٥٥٥ - ٥٨٢)
الدولة الغورية

الدولة الخوارزمية في خراسان وبلاد ما وراء النهر
(٤٧٠ - ٦٢٨ هـ)



كان أنوشتكين مملوكًا لأمير من أمراء السلاجقة وكان متميزًا فكبر، وعلا أمره وكان حسن الطريقة كامل الأوصاف.

تولى ابنه إمارة خوارزم من قبل بركيارق ولقب خوارزم شاه - كان عادلاً كريمًا مقربًا لأهل الدين والعلم.

في عهد علاء الدين محمد طمع في توسيع ملكه على حساب الدولة الغورية، فدخل في صراع طويل معهم انتهى بالاستيلاء على أغلب أملاكهم سنة ٦١١ هـ.

بل وصلت أطماعه إلى أنه كان يريد أن تكون له الكلمة العليا على الخليفة العباسي، كما كان السلاجقة، فلما أبى عليه الخليفة العباسي ذلك أعلن أنه لاحق للعباسيين في خلافة المسلمين، واتهمهم بأنهم اغتصبوا الخلافة من أبناء على بن أبي طالب، واختار رجلاً من العلويين يسمى (علاء الملك الترمذي) جعله خليفة على المسلمين في خوارزم، وكان قد استصدر فتوى من العلماء تجيز له ذلك.

بل وتحرك محمد خوارزم شاه بجيشه يريد بغداد، فانتصر على كل جيش واجهه، فلما اقترب من بغداد، انهمرت أمطار غزيرة على المنطقة التي يعسكر بها جيشه فهلك جمع كبير من جنده، وكذا الدواب ولم يستطيع أن يواصل المسير إلى بغداد، فعاد إلى خوارزم، فلما ظهر التتار كان ما كان من الأحداث السالف ذكرها.

الدولة الغورية

سميت بذلك الاسم نسبة إلى مكان نشأتها وهو الغور، وهو جبال وولاية بين غزنة وهراة(في أفغانستان حاليًا) وهي بلاد باردة واسعة موحشة.

كان الغوريون - وهم من أتباع الغزنويين-يحكمون هذه المنطقة فلما ضعف أمر الغزنويين نهض زعيم الغورية يومئذ، محمد الغوري، واحتل غزنة وواصل حروبه ضد الغزنويين حتى استولى على ملكهم سنة ٥٩٨ هـ.

كانت الدولة الغورية سائرة على نهج الدولة الغزنوية في الجهاد بالهند، ونشر الإسلام بها، فقد كان السلطان محمود الغزنوي -كما يقول المؤرخون- غازيًا مجاهدًا،أخذ على عاتقه نشر الإسلام في بلاد الهند وبلغ في فتوحه إلى حيث لم تبلغه في الإسلام راية ولم تتل به قط سورة ولا آية فلما جاء الغوريون حاول أمراء الهند التمرد على المسلمين فدخلوا في معارك شرسة مع الغوريين، وفي سنة ٥٩٦ استطاع الهنود أن يهزموا المسلمين، وجعلوهم يتقهقرون عنهم مسافة أربعين ميلاً..

وفي العام التالي عزم السلطان محمد الغوري على القضاء على هذا التمرد فخرج في جيش قوامه (١٢٠,٠٠٠) لمحاربة الهنود وكان جيش الهنود يتكون من(٣٠٠,٠٠٠) ودارت رحى المعركة وجاهد المسلمون الهنود وقتلوا منهم ألوفًا مؤلفة، وانتصر المسلمون وحطم السلطان الغوري أصنام الهندوكية والبوذية، واستعمل أحجارها في بناء المساجد.

ثم عهد محمد الغوري في ولاية الهند إلى مملوكه قطب الدين أيبك الذي كان قائدًا ماهرًا عمل على تثبيت أقدام السلطان الغوري في الهند،واتخذ دهلي عاصمة له وبنى مسجدها المشهور قطب منار،واستمر الفتح من قبل الغوريين

في هذه النواحي حتى شمل كل الهند.

وإذا كان الغزنويون هم أصحاب الفضل في تحطيم قوى أمراء الهند، وفتح معظم الهند ولكنهم كانوا لا يستقرون بها بل يعودون إلى غزنة، أما الغوريون فهم أصحاب الفضل في تثبيت أقدام سلطان الإسلام في الهند حيث أقام سلاطينهم بصفة دائمة في الهند، متخذين دهلي عاصمة لهم، ولهذا فهم يعتبرون أول الدول الإسلامية في الهند وبهم بدأ تاريخ الهند الإسلامية.

وعقب وفاة السلطان محمد الغوري سنة٦٠٢ هـ نصب مملوكه أيبك نفسه سلطانًا على الهند وبدأت بذلك دولة مماليك الهند سنة ٦٠٢هـ واستمرت حتى سنة٦٨٦ هـ وقنعت بما تحتها من أملاك حتى قضى عليهم الخلجيون.

هذه أهم الدول التي قامت في عهد العباسيين وهناك دول أخرى سنذكرها في فصول مستقلة لأهميتها.

***

الفصل الثالث

المسلمون في الأندلس

دخلنا الأندلس بشجاعة وفداء طريف بن مالك، وعزيمة طارق بن زياد، وإيمان موسى بن نصير، وطموح عبد الرحمن الغافقي، وبطولة السمح بن مالك الخولاني، وتجدد الإسلام فيها بنجدة ومتانة عقيدة يوسف بن تاشفين.

مرت الأيام ومال المسلمون في الأندلس إلى حياة الرخاء والنعيم، متناسين من يمكر بهم، ومن يجمع صفوفه لسحقهم، بينما عدوهم يستعد عسكريًا ويوحد كلمته، وهم في موشحاتهم وسماعهم وخمرتهم وترفهم مغمورون...

المسلمون في الأندلس
(من ٩٢ هـ حتى ٨٩٧ هـ)

تواعدنا أن نفرد بابًا خاصا عن المسلمين في الأندلس لأنه تاريخ بدأ من عام ٩٢ هـ إلى عام ٨٩٧هـ. أي قرابة ثمانية قرون من الحكم الإسلامي في الأندلس، فلا شك أنها ملحمة طويلة تلك التي عاشها المسلمون بهذه البلاد، حتى اندثر ذكرهم هناك بأيديهم ومن عند أنفسهم أولاً،ثم بتربص ومكر وصبر من عدوهم ثانيًا بعد ما وصلوا إلى قمة المجد وذروة الحضارة، ولكن سنن الله لا تحابي أحدا ولا تتغير ولا تتبدل.

وسنتجاوز عن مرحلة تكلمنا عنها عند الحديث عن الدولة الأموية وهي مرحلة الفتح الأول للأندلس وحتى هزيمة المسلمين في معركة بلاط الشهداء سنة ١١٤هـ.

فلقد مر تاريخ الأندلس بمراحل كثيرة (عشرة).

- المرحلة الأولى: (٩٢ هـ- ١٣٨ هـ)

كانت فيها الأندلس ولاية تابعة للدولة الأموية، وتبدأ من سنة ٩٢ هـ مع محاولات الفتح الأولى، وحتى سقوط الدولة الأموية، ودخول عبد الرحمن الداخل الأندلس سنة ١٣٨هـ.

- المرحلة الثانية: (١٣٨ هـ - ٢٣٨ هـ)

مرحلة الإمارة الموحدة للأندلس (الازدهار الأول للأندلس).

- المرحلة الثالثة: (٢٣٨ هـ - ٣٠٠ هـ)

مرحلة التدهور الأول للأندلس وتقسيمها، وحتى بداية حكم عبد الرحمن الناصر.

- المرحلة الرابعة: (٣٠٠ هـ - ٣٦٨ هـ)

عودة القوة للأندلس وإعلان الخلافة بها.

- المرحلة الخامسة: (٣٦٨ هـ - ٣٩٩ هـ)

عصر سيطرة الوزراء أو قيام الدولة العامرية.

- المرحلة السادسة: (٣٩٩ هـ - ٤٢٢ هـ)

الانهيار الثاني ونهاية حكم الأمويين بالأندلس.

- المرحلة السابعة: (٤٢٢ هـ - ٤٨٤ هـ)

عصر ملوك الطوائف.

- المرحلة الثامنة: (٤٨٤ هـ - ٥٣٩ هـ)

عهد المرابطين بالأندلس.

- المرحلة التاسعة: (٥٣٩ هـ - ٦٢٠ هـ)

عهد الموحدين بالأندلس.

- المرحلة العاشرة: (٦٢٠ هـ - ٨٩٧ هـ)

دولة بني الأحمر أو بني نصر وانحصار ملك المسلمين بغرناطة، أول مرحلة السقوط الأخير.

المرحلة الأولى

عندما كانت الأندلس ولاية تابعة للخلافة المركزية

بدأت سنة ٩٢هـ وحتى سنة ١٣٨هـ أي حتى قيام الدولة الأموية في الأندلس.

تعاقب في هذه الفترة الزمنية (ستة وأربعون عامًا) على الأندلس ثلاثة وعشرون واليًا أي بمعدل سنتين للوالي مما يدل على أنها كانت مرحلة توتر وتمهيد، استشهد فيها من الولاة فداءً لدينهم ونشرًا لدعوة الله تبارك وتعالى الكثير، كما وقع بعضهم فريسة مؤامرات وأحقاد فأُبعد أو قُتِل وهذه قائمة أسمائهم.

١- طارق بن زياد	٩٢ - ٩٣	
٢- موسى بن نصير	٩٣ - ٩٥	أعيد إلى المشرق بأمر الخليفة ومعه طارق
٣- عبد العزيز بن موسى	٩٥ - ٩٧	قُتل
٤- أيوب بن حبيب اللخمي	٩٧ - ٩٧	
٥- الحر بن عبد الرحمن الثقفي	٩٧ - ١٠٠	
٦- السمح بن مالك الخولاني	١٠٠ - ١٠٢	استشهد في موقعة طولوشة.
٧- عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي	١٠٢ - ١٠٣	استشهد
٨- عنبسة بن سحيم الكلبي	١٠٣ - ١٠٧	
٩- عذرة بن عبد الله الفهري	١٠٧ - ١٠٧	
١٠- يحي بن سلمة الكلبي	١٠٧ - ١١٠	
١١- حذيفة بن الأحوض القيسي	١١٠ - ١١٠	
١٢- عثمان بن أبي نسعة الخيثمي	١١٠ - ١١١	

١٣- الهيثم بن عبيد الكلابي	١١١ - ١١٢	
١٤- محمد بن عبد الله الأشجعي	١١٢ - ١١٢	
١٥- عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي	١١٢ - ١١٤	استشهد في معركة بواتييه
١٦- عبد الملك بن قطن الفهري	١١٤ - ١١٦	
١٧- عقبة بن الحجاج السلولي	١١٦ - ١٢٢	
١٨- عبد الملك بن قطن الفهري	١٢٢ - ١٢٣	قتل.
١٩- بلج بن بشر القشيري	١٢٣ - ١٢٤	
٢٠- ثعلبة بن سلامة العاملي	١٢٤ - ١٢٥	
٢١- أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي	١٢٥ - ١٢٧	
٢٢- ثوابة بن مسلمة الجذامي	١٢٧ -١٢٩	
٢٣- يوسف بن عبد الرحمن الفهري	١٢٩ - ١٣٨	ولايته ولاية مضطربة

وفي هذه المرحلة ظهرت بوادر الخلاف بين جند الفتح من عرب وبربر في بلاد المغرب أولاً، ثم تعداها إلى الأندلس نتيجة عوامل مختلفة منها:

- استئثار العرب بالمناصب القيادية من جانب.
- شيوع فكر الخوارج- الذين هربوا من المشرق إلى المغرب بعيدا عن أعين الخلفاء- بين البربر فهيجوهم على العرب، حتى قام رجل بربري خارجي المذهب اسمه ميسرة بثورة ضد العرب، وكانت بين العرب والبربر حرب شديدة هزم فيها العرب في موقعة كبيرة في أحواز طنجة تعرف بواقعة الأشراف سنة١٢١هـ. وسميت كذلك لكثرة من قتل فيها من أشراف العرب.

هذه الحوادث دعت الخليفة الأموي هشام عبد الملك أن يبعث جيشًا قوامه ٤٠ ألفًا بقيادة كلثوم بن عياض القشيري أغلبه من عرب الشام (القيسية) ومعهم

بعض من جند مصر لتأديب البربر.

و كان من المفروض أن يرحب بهم العرب المهزومون، ولكن الأمر جاء على غير المتوقع، ويرجع ذلك إلى أن عرب شمال أفريقية كانوا من الحجاز وأكثرهم من المدينة المنورة بالذات، وبين عرب الحجاز وعرب الشام ثارات وأحقاد، ترجع إلى أيام وقعة الحرة واستباحة المدينة في أيام يزيد بن معاوية سنة ٦٣هـ.

ولكنهم اضطروا أن يتوحدوا أمام خطر البربر (لاحظ أن الجميع مسلمون) ولكن لأن توحدهم شكلي، ولم تصف القلوب، فقد هُزموا من البربر في وادي سبو هزيمة شنعاء، ونجا كلثوم - وهو مجروح - ببقايا من جيشه تبلغ سبعة آلاف تحصن بهم في سبته حيث حاصره البربر.

فلما ضاق به الأمر، أرسل كلثوم إلى عرب الأندلس يستأذنهم في عبور المضيق إليهم، ولما كان هؤلاء حجازيين أيضا فقد رفضوا السماح له، غير أن الأحوال في الأندلس تغيرت واضطرت عرب الأندلس أن يسمحوا لجيش كلثوم بالعبور إليهم،و ذلك أن بربر الأندلس سمعوا بانتصارات بني جنسهم في المغرب، فثاروا ثورة شديدة يريدون بها القضاء على عرب الأندلس، عندئذ رأى والي الأندلس عبد الملك بن قطن الفهري أن يشترط عليهم أن يعبروا المضيق فيحاربوا البربر معه، فإذا ما انتصروا عادوا من حيث أتوا، فوافق كلثوم، فاجتمع الفريقان، بعد أن أخذ عبد الملك من جند الشام رهنًا من رجالهم، ليضمن تنفيذ شروطه.

و سار الفريقان معًا فقضوا على ثورة البربر في الأندلس، وترك البربر المسلمون أراضيهم بالأندلس، وأخذوا يعودون إلى أفريقية.. وخسر المسلمون بسبب اختلافهم ربع

الأندلس، خسروه دون أن يخرجهم منه عدو[1]، ومات في المعركة كلثوم وخلفه ابن عمه بلج بن بشر القشيري وطلب منهم عبد الملك بن قطن أن ينفذوا الاتفاق فيخرجوا من الأندلس ويعودوا إلى أفريقية... ولكن هيهات فقد رفضوا الخروج، ولما كانوا ذوي بأس وقوة فقد عزلوا عبد الملك وولوا زعيمهم بلج إمارة الأندلس..بل اتهموا عبد الملك بأنه تسبب في موت أحد الرهائن وطالبوا بتسليمه لهم لقتله، وعبثًا حاول بلج منعهم، فلما هددوه واتهموه بالتحيز لعبد الملك لأنه مضري مثله، دفعه إليهم مضطرًا فقتلوه، فثار العرب البلديون (أول عرب سكنوا الأندلس ومعظمهم من اليمن) لمقتل أميرهم ونشبت الحرب بين الفريقين من جديد.

رأت الخلافة سوء الحال التي وصلت إليه الأندلس فبعثت مرة أخرى برجل ذي مكانة وقوة هو أبو الخطار بن ضرار الكلبي ليكون واليًا عليهم جميعًا وذلك في رجب سنة ١٢٥هـ.

بدأ أبو الخطار ولايته بداية طيبة حيث بدأ بحل مشكلة العرب الشاميين، فأنزلهم مقسمين على كور الأندلس، وقسمهم حسب أجنادهم في الشام.

فأنزل أهل جند دمشق كورة (ألبيرة) وسماها دمشق.

و أنزل أهل جند حمص كورة (أشبيليه) وسماها حمص.

و أنزل أهل جند (قنسرين) كورة (جيان) في جنوب الأندلس وسماها قنسرين.

وأنزل أهل جند (الأردن) كورة (رية) وسماها (الأردن).

---

(١) وإنما أخرجهم منه كراهة بعضهم لبعض، وقلة نظرهم في العواقب، وكان من المنتظر إذا بقيت هذه القوة، وهي ألوف من البربر المسلمين، أن يعبروا بالإسلام كل نواحي الأندلس، لقد ترك هؤلاء كل الأراضي الواقعة شمال نهر تاجة خالية تقريبًا من المسلمين، فأصبحت هذه النواحي ابتداء من النصف الثاني للقرن الميلادي أرضًا خلاء مفتوحة لنصارى الشمال ليمتدوا فيها كيف يشاءون ... وسيسترد النصارى جزءًا كبيرًا منها خلال القرن التاسع الميلادي ويصبح حوض الدويرة أرضًا نصرانية.

وأنزل أهل (فلسطين) شذونة في أقصى الجنوب وسماها (فلسطين).

وأما أهل مصر فأنزلهم الجنوب الشرقي من الأندلس في كورة تدمير وسماها مصر.

وبذلك فرق شمل الشاميين الذين سببوا إزعاجًا لسكان الأندلس من عرب وبربر وسكان أصليين، فرقهم بطريقة منظمة حتى أصبحت هذه الأجناد من العناصر العسكرية الرئيسية في التنظيم الحربي للأندلس. فإن لهؤلاء الجند ثلث الخراج الذي يؤديه نصارى الذمة والمزارعون نظير أن يقدموا للحكومة عددا معينًا من الجند كلما طلبت ذلك.

ولم تستمر هذه السياسة الحكيمة طويلاً فقد ظهرت حمية الجاهلية بين العرب المضرية واليمينية وظهر بين الشاميين رجلاً يدعى الصميل بن حاتم بن ذي الجوشن المتعصب لمضريته وصار زعيمًا لهم،كما أن أبا الخطار والى الأندلس كان يمنيًا متعصبًا.

وقد حدث حادث تافه؛ ذلك أنه اختلف مُضَري ويمني على أمر، فلجأ اليمني إلى أبي الخطار فقضى له، فعدَّ المضري هذا تحيزًا فشكا إلى الصميل فذهب الصميل ليكلم أبا الخطار في ذلك فأهانه أبو الخطار، فخرج من عنده وقد حُلَّت عمامته، فقال له أحد الحراس على الباب: أصلح عمامتك أبا الجوشن فرد قائلا: (إن كان لي قوم فسيقيموها) وهذا تهديد بالحرب، وفعلاً وقعت الحرب بين المضرية بقيادة الصميل واليمنية بقيادة أبي الخطار، ودارت بينهما معركة كبيرة على نهر الوادي الكبير في قرية غربي قرطبة تسمى (شقندة) وكانت الحرب سجالاً، انتصر فيها المضريون أولاً ثم عاد اليمنيون فانتصروا، وتراجع الصميل إلى مدينته سرقسطة- وهي مدينة حصينه من ثغور الأندلس - فتحصن فيها، فخرج اليه جيش أبي الخطار للقبض عليه. وحاصره في سرقسطة..

عندئذ خرجت قوة مضرية لنجدة الصميل وفك حصاره، وكانت في طريقها تزداد عددًا بمن ينضم إليها من المضرية في المدن، وكان بين رجال هذه القوة طائفة من موالي بني أمية عدهم ثلاثمائة، ولم يخرج هؤلاء الموالي للقتال، وإنما كانت لهم غاية أخرى، فقد كانوا رسلاً إلى الطرفين المتحاربين يريدون أن يظفروا بأمر ما، فتوجهوا أولاً إلى الصميل المحصور وأرادوا أن يستغلوا هذا الموقف فبعثوا إلى الصميل رسالة بقدومهم لنجدته، فلما أحس اليمنيون بتلك النجدة تراجعوا وفكوا الحصار حول سرقسطة، وخرج الصميل للقاء النجدة فرحب بها ووزع الأعطيات بين رجالها، وكر راجعًا معها إلى قرطبة حيث عرض عليه هؤلاء الموالي أمرهم ولكنه رفض العرض.. فلما يئسوا من الصميل توجهوا نحو اليمنية الذين رحبوا بالعرض.

ترى ما هو هذا العرض الذي عرضه هؤلاء الموالي لبني أمية؟

لكي نفهم الأمر أكثر نعود قليلاً إلى الوراء، حينما قامت الدولة العباسية على أنقاض دولة بني أمية.. فأخذتهم بكل سبيل حتى طلب بنو أمية بطن الأرض، وكان من الذين نجوا من حرب الإبادة هذه عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الملقب بالداخل، الذي جعل ينتقل من مكان إلى آخر مجتازًا ما يقابله من صعاب وفخاخ، وسنه لم تتجاوز العشرين سنة، حتى نزل قبيلة أخواله من البربر (أم عبد الرحمن من هذه القبيلة) وهي قبيلة (نفزة).

فدعاهم عبد الرحمن بحق الولاء أن يعينوه على دخول الأندلس ليعيد مجد أجداده في هذه الأرض، وكان هؤلاء الموالي مخلصين أذكياء، فتحركوا مستغلين أحداث الأندلس لعلهم يجدون فرصتهم عند أحد الطرفين.. وقد كان..

حينما رحب اليمنيون بالعرض، وهو أن يستقبلوا عبد الرحمن ويمكنوه من الأندلس، ففرح القوم، فقد وجدوا بغيتهم وطيروا الخبر إلى عبد الرحمن، فعبر

المضيق ونزل في (طرش) المركز الأساسي لموالي بني أمية وفيها أخذ يدبر الأمر، فانتهز فرصة غياب الوالي يوسف بن عبد الرحمن الفهري وصاحبه الصميل في الشمال لإخماد بعض الفتن المحلية، فلم جموعه واتجه إلى قرطبة، فوصل الخبر إلى يوسف والصميل فعادا مسرعين ليواجها الموقف..

وقف الجيشان وبينهما نهر الوادي الكبير عند قرية المصارة في يوم عرفة سنة ١٣٨هـ.

بعث عبد الرحمن إلى الطرف المقابل يطلب الدخول في مفاوضات سلمية حقنا للدماء، على أن يسمح لقواته بعبور النهر للدخول في هذه المفاوضات. فانخدع الوالي يوسف بهذا العرض ومكنهم من عبور النهر، وعلى الضفة الشمالية كشف عبد الرحمن عن حقيقة نفسه، وأعلن أنه لا مفاوضة إلا على أساس المناداة بعبد الرحمن سليل الخلفاء من بني أمية وصاحب الحق الشرعي في حكم هذه البلاد، أميرًا على الأندلس..

فكان ذلك إيذانا ببدء المعركة وكانت وقعة (المصارة).

و فيها برزت مواهب عبد الرحمن وسرعة خاطره.. فقد سمع همسا في صفوف جنده يقولون: إن عبد الرحمن شاب حدث، لم يخض الحرب، ويخافون أن تخلع الحرب فؤاده فينجو على ظهر جواده القوي السريع ويتركهم نهبًا لسيوف المضرية، ولم يعلق عبد الرحمن على هذا الهمس بالقول وإنما بالعمل.. فلقد نزل عن جواده المتميز وتخير أضعف جواد تحت فارس، فاستدعاه وركبه وتنازل عن جواده.. فركب أهزل جواد في الجيش معلنا لرجاله في صمت أنه لن يكون أول من يدير عنان الجواد. وثبت جنده وانتصر عبد الرحمن.. ودخل عبد الرحمن قرطبة ولتبدأ الدولة الأموية عهدًا جديدًا في الأندلس.

المرحلة الثانية

عبد الرحمن الداخل

وتأسيس دولة بني أمية بالأندلس

(١٣٨- ١٧٢)هـ

عبد الرحمن يقضي على المخاطر الداخلية:

- واجه عبد الرحمن الغريب عن بلاد الأندلس مخاطر جمة في الداخل والخارج؛ فلقد قامت دولة عبد الرحمن على عون كبير من العرب اليمنيين، وقد تصور هؤلاء أن ذلك يعني أن الدولة صارت دولتهم، وأن لهم الحق في أن يتعرضوا للناس كيف يشاءون، ويستمرون على أسلوب الفوضى والاستخفاف بالناس والأموال، وإثارة العصبيات ولكنهم فوجئوا أن عبد الرحمن لا يعترف بهذه العصبيات ولا يزكيها وإنما يريد للجميع وحدة إسلامية في وطن واحد..

- فأثار ذلك اليمنيين واعتبروه جحودا لهم فأثاروا ثورة بعد أخرى.. وواجه عبد الرحمن هذه الفتنة بالاستعانة بموالي بني أمية فقضى عليها، فلم يمهل الثائرين حتى قضى عليهم قبل أن يجمعوا أمرهم. فكانت طريقته على الدوام معاجلة الثوار قبل أن يستفحل أمرهم، فيقضي عليهم بلا هوادة شأن الأمويين دائمًا في معاملة خصومهم.

فائدة: لاحظ أن عبد الرحمن تربى في بيت الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك الذي كان عهده عهد ازدهار الدولة الأموية فكان قصره مدرسة للتعلم من كل المهارات والفنون فمنه تعلم عبد الرحمن.

- و كان من ضمن هذه الثورات ثورة دعمتها الخلافة العباسية زمن أبي جعفر المنصور، وهي ثورة العلاء بن المغيث سنة ١٤٦ ولكن عبد الرحمن استطاع أن يقضي عليها رغم أنه حوصر لمدة شهرين بمدينة قرمونة فلما أصاب عبد الرحمن وجنده الجهد قال لأصحابه: (اخرجوا معي خروج من لا يحدث نفسه بالرجوع) فانطلقوا خلف قائدهم فانقضوا على محاصريهم ومزقوهم شر ممزق، وأرسل عبد الرحمن برأس العلاء إلى أبي جعفر المنصور، ومعها لفافة بها آذان جند العلاء، ومع كل أذن بطاقة باسم صاحبها،فلما وُضعت أمام المنصور - وكان يحج بمكة -اشتد غضبه ولكنه قال: (الحمد لله الذي جعل بيننا وبين هذا الشيطان بحرًا) وسماه صقر قريش، ولم يحاول بعدها العباسيون أن يصلوا إلى بني أمية بالأندلس.

و أما الخطر الخارجي الأعظم فكان يكمن في الصليبيين:

وقد خرج جماعة من العرب الحانقين على عبد الرحمن، يتزعمهم سليمان بن يقظان الكلبي والي برشلونة إلى شرلمان قائد الصليبيين الأوربيين فجعلوا يزينون لهم القدوم إلى الأندلس، ويعدونهم بتسهيل استيلائهم على سرقسطة،و هان عليهم أن يعرضوا البلاد لأعظم الخطر مقابل إشفاء أحقاد شخصية..و بالفعل خرج شرلمان في جيش ضخم (سنة ١٦١هـ سنة ٧٧٨م).

وعبر جبال البرانس وزحف جنوبا إلى سرقسطة، ولكن أهلها امتنعوا عليه فضرب عليها الحصار، وخف عبد الرحمن لنجدة المدينة، وجاءت الظروف مواتية فقد ورد إلى شرلمان ما يفيد وجود اضطراب في بلاده، فانسحب متكبدًا خسائر فادحة، وعاد هذا الجيش إلى فرنسا يجر أذيال الخيبة، وكان لله تدبير خاص، فعندما كان جيش شرلمان يمر في ممرات البرانس الضيقة، وقفت له قبائل البشكنس من أهالي هذه البلاد في صياصي الجبال – ويقال إن عبد الرحمن هو الذي أمدهم

بالسلاح وبعض الرجال- وهجمت على مؤخرة الجيش الشرلماني وفرقته شر ممزق، وهلكت في تلك البقعة زهرة الجيش الفرنسي، وكان يقود المؤخرة فارس مقرب لشرلمان يُدعى (رولاند) فقتل فيمن قتل، وحزن عليه شرلمان حزنًا شديدًا، ونظم فيه شاعر فرنسي ملحمة تسمى (أغنية رولان) يعدها الفرنسيون أول أنشودة حماسية في الأدب الفرنسي، ومعظم حوادثها لا صلة لها بالواقع التاريخي، وهذه الملحمة تعتبر من المعالم الحاسمة في تكوين اللغة الفرنسية.

هدأت الأحوال بعد ذلك واستقر وضع عبد الرحمن الداخل في الأندلس. خاصة أنه سار عام ١٦٤ إلى سرقطه وعمل عبد الرحمن على دعوة شرلمان إلى السلم، فأجابه شرلمان، لقد كان عبد الرحمن يؤسس دولة ومن ثم احتاج إلى فترة زمنية امتدت من (١٣٨هـ إلى ١٦٣هـ) أي ما يوازي خمسة وعشرين عامًا لكي تستقيم له الأمور، وقد بدأ وهو في العشرين من عمره، واجتاز من قبلها محنًا ومن بعدها محن وها هو في الخامسة والأربعين من عمره يجني ثمار صبره وعلو همته وصلابة إرادته.

بدء مرحلة الاستقرار

فكان من أعماله بدء بناء مسجد قرطبة سنة ١٧٠هـ واستمر بناؤه سبع سنوات، وسار في إدارة البلاد بطريقة أجداده، فمصر الأمصار وجند الأجناد، وقد أنشأ بجوار جنده من موالي بني أمية ورجال الكور المجندة، قوة جديدة من الصقالبة (أي الجند الذي يشترى أفراده صغارًا من بلاد النصرانية، ويربون تربية إسلامية عربية ويُنَشَّئون جندًا خالصا للإمارة ورجالها).

واهتم كذلك بالعمران فجمّل المدن وشيد دارة سماها الرصافة في ظاهر قرطبة، وأجرى الماء إلى هذه الجنة الغناء وكان من ضمن ما غرسه فيها نخلة أتى بها من الشام، وقد أهاج انفراد هذه النخلة بالرصافة وغربتها في الأندلس

أشجان عبد الرحمن، وتمثل فيها حاله، وكان شاعرًا فأنشد فيها شعرا يقول:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التفرد والنوى ... وطول التنائي عن بنيّ وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة ... فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن من صوبها الذي ... يسح ويستمري السماكين بالوبل

هشام بن عبد الرحمن ١٧٢ - ١٨٠هـ:

اختاره أبوه من بين أبنائه ليكون خلفا له.. وأثناء وفاة أبيه كان واليًا على ماردة، إحدى مدن الثغور الشمالية، وكان أبوه يريد بتوليته تلك المناطق البعيدة الخطرة، أن يتمرس في ميادين الجهاد، وأن يكون أبدًا مستعدًا لمواجهة المخاطر.

كان ورعًا ديّنًا تقيًا، سعِد الناس في أيامه وكان يراقب الولاة ويحاسبهم على التقصير وربما عزلهم، حاربه أخوه سليمان ولكن الدائرة كانت لهشام ...

غزا فرنسا وقد تحمس المسلمون لذلك، فتجمع جيش قوامه ١٠٠,٠٠٠ مقاتل.

وكان دخولهم فرنسا سنة (١٧٧هـ- ٧٩٢م). وكان شرلمان إذ ذاك مشغولا على ضفاف الدانوب فتقدم المسلمون إلى قرقشونة، ولكن كونت تولوز استنفر أمراء المملكة فأقبلوا من كل جانب وتلاقوا مع المسلمين وكانت معركة حامية انتصر فيها المسلمون وأصيب فيها الفرنجة بخسائر فادحة، ولم يتبعهم المسلمون واكتفوا بما أصابوا من غنائم.

و في عهده انتشر مذهب الإمام مالك في الأندلس، عن طريق يحيى بن يحيى الليث الذي أخذ عن الإمام مالك. و كان للفقهاء في عهده شأن عظيم.

الحكم بن هشام ١٨٠ - ٢٠٦ هـ:

الملقب بالربضي ولقب بذلك لموقعة كانت على أهل الربض، وهي

ضاحية من ضواحي قرطبة.

- كان الحكم يحب حياة الترف والرياضة والصيد، وجعل من حوله حاشية متكبرة متعالية وجندا خاصًا قاسيًا عنيفًا على الناس معظمه من الصقالبة،و لم تنقضي على ولاية الحكم شهور قليلة حتى بدأ بيته وكبار دولته يدبرون عليه، لأنهم رأوه شابا ماجنا مستخفا، وانضم إليهم نفر من الفقهاء.. وبدأت العامة تتعرض له.

تعامل الحكم مع هذه المحاولات بقسوة

- ومن أشهر الأحداث في عهده موقعة الربض في ١٣من رمضان سنة ٢٠٢هـ حيث خرجت من الضاحية الجنوبية لقرطبة شقندة ثورة تضم الفقراء والفقهاء وفيهم يحيى بن يحيى الليثي يطلبون فيها العدالة لا الحكم..

و لكن الحَكم تصرف معهم تصرفا خسيسًا حيث أطلق جنده على بيوتهم فأشعلوا فيها النيران وعرّضوا أولادهم وحريمهم للموت، فارتد الناس لإنقاذ أبنائهم فحصدهم الجند حصدًا، وانتهى اليوم بانتصار الحكم، وأمر بطرد أهل الريف الجنوبي من الأندلس وكانوا من أجَلّ الناس وأكثرهم شهامة فهاجرت هذه الأفواج من الأندلس، فريق منهم هاجر إلى (فاس) وكان إدريس الأول آخذا في تأسيسها، فاستقبلهم ورحب بهم وأنزلهم حيًا يعرف إلى الآن بحي الأندلسية، وانتفع بخبرتهم وصناعتهم.

و أما الفريق الآخر فقد سار نحو الشرق بحرًا وبرًا، فدخلوا الإسكندرية ثم أُخرِجوا منها، فتوجهوا إلى كريت وكانت في يد البيزنطيين فاستولوا عليها وأقاموا فيها دولة إسلامية عرفت بالدولة (الكلبية) ولم يزالوا بها حتى عاد الروم فملكوها من أيديهم.

شغلت هذه الفتنة الحكم عن عدوه الصليبي شارلمان، الذي انتهز الفرصة واستطاع أن يستولي على برشلونة سنة ١٩٠هـ وأنشأ فيها ثغرًا أصبح بعد ذلك شوكة في جنب المسلمين.

تمكن المرض من الحكم بن هشام بعد حادثة الربض، وتطاولت به العلة وحل به الندم وجعل يتمنى لو لم يتصرف مع أهل قرطبة على هذا النحو، حتى توفاه الله.

عبد الرحمن بن الحكم ٢٠٦- ٢٣٨ (عبد الرحمن الأوسط)

ورث عبد الرحمن ملكًا ممهدًا ثابتًا.

بالإضافة إلى شخصيته المعتدلة بين اللين والعنف، فهو يعرف كيف يضع السيف في موضع السيف، وكيف يستعمل اللين في موضع اللين.

و في عهده بدأت مظاهر الحضارة والترف تظهر، فأنشأ الناس القصور الجميلة، وأخذت قرطبة طريقها لتصير أجمل مدائن أوروبا على الإطلاق..ولكن هذه حياة الأقلية، أما حياة الأكثرية فكانوا يعيشون في رخاء نسبي، لأن البلد كان غنياً، وكان الناس مقبلين على العمل، والضرائب قليلة، وكان هناك ديوان المظالم مخصص للنظر في شكاوى الناس من أعمال رجال الدولة وتصرفاتهم.

تولى يحيى بن يحيى الليثي الإشراف على القضاء فكان بمثابة وزير العدل في زماننا ولقد أتسع سلطانه حتى ثقل على القضاء.

ومن حوادث هذه الفترة غارات النورمان سنة ٢٠٩ :

كانوا يقبلون في مراكب صغيرة نسبيا ذات أشرعة سوداء، ثم ينزلون إلى البر فيقيمون معسكرًا صغيرًا، ثم ينطلقون في غارات سريعة ينهبون فيها ما يقع تحت أيديهم، ويعودون لإيداعه في ذلك المعسكر، فإذا فرغوا من الغارة نقلوا غنائمهم إلى السفن ومضوا إلى مكان آخر، وكان منْ عادتهم أن يستعملوا النار لإرهاب عدوهم،

ولذا حسبهم المسلمون مجوسًا (عباد النار) وسموهم في النصوص (المجوس)و لم يستطع رجال عبد الرحمن الأوسط أن يتغلبوا عليهم إلا بعد مشقة... ولكن هذا الحدث نبه عبد الرحمن إلى وجوب إنشاء أسطول بحري للمسلمين بالأندلس وقد كان هذا أمرًا مهملاً، فقامت البحرية الأندلسية الإسلامية لأول مرة، ولم تلبث أن سيطرت على الحوض الغربي للبحر المتوسط، واستولت على الجزائر الشرقية المعروفة اليوم (بالبليار)، وكان للمسلمين الأندلسيين أسطولان:

- أسطول بالبحر المتوسط.
- وأسطول بالمحيط الأطلسي.

كما وقعت خصومات بين المضرية واليمنية في إقليم مرسية بشرق الأندلس دامت سبع سنوات، بذل خلالها الأمير عبد الرحمن جهدًا كبيرًا لإخماد هذه الفتنة، وتمكن من القضاء عليها... لكن مؤقتًا وسنرى أنها ستنفجر من جديد على أعنف صورة أيام الأمير عبد الله.

ثورة المستعربين

و المستعربون هم النصارى الذين أقاموا على دينهم، ودخلوا في ذمة المسلمين واستعربوا لسانًا وعقلاً وثقافة وأسلوب حياة، وكانت أعدادهم في الأندلس عظيمة، وكانت العلاقات بينهم وبين المسلمين على أتم ما يكون من الصفاء..

و لذا فإن من العجيب أن يثور هؤلاء في زمن عبد الرحمن الأوسط بالخصوص -وعهده كان عهد رخاء واستقرار- ولم تعرف عن الرجل أي عصبية دينية.

و ذلك أن أحد القساوسة المتعصبين فجعه إقبال النصارى على الثقافة العربية وتعايشهم السلمي مع المسلمين، فأثار فتنة هيجت مشاعر بعض النصارى فثاروا، ولكن تعاملت معهم الحكومة بحكمة، إذ كانوا يستتيبونهم ولا يتعرضون لهم بالأذى إلا في حال الإصرار والعناء الشديدين وأخيرًا انتهت هذه الحركة بسلام.

فائدة: وقفة هامة تساعد على فهم الأحداث المقبلة

إسبانيا (الأندلس) شبة جزيرة تتكون من هضبة قديمة تقطعها سلاسل من الجبال، مستعرضة تحصر بينها وديانًا طويلة من الشرق إلى الغرب، في وديان محفوفة دائمًا بحافات هضاب أو جبال، ومن شأن البلاد التي سطحها كذلك أن تميل إلى الحكم اللامركزي..

أما سكان إسبانيا في ذلك الوقت فقد كانوا يتكونون من:

القوط الذين حكموا قبل العرب.

السكان الأصليين الذين حكمهم القوط

ثم العرب والبربر الفاتحين

و كل جنس من هذه الأجناس بقى يتميز بخصائصه، فالعرب نزلت قبائلهم إلى الأندلس محتفظة بشخصيتها معتدة بأنسابها، فهناك قبائل مضرية وأخرى يمنية، ولكل قبيلة شخصيتها القائمة، وقد نزلت هذه القبائل أماكن بعينها واحتلت أجزاء بذاتها. والبربر أيضا كانوا قبائل، ونزلوا محتفظين بنظامهم القبلي، واحتلوا جزءًا بعينه من الأندلس.

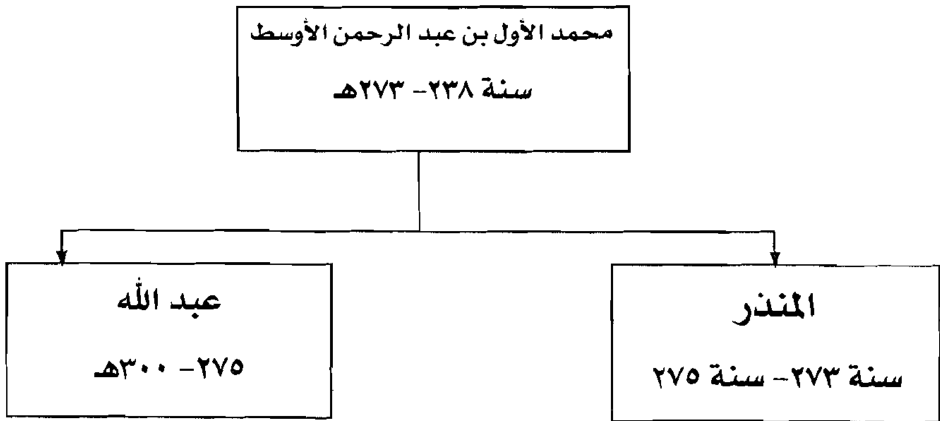
أما المجتمع الإسباني فقد لحقه تغير كبير، فقد انتشر الإسلام واللغة العربية بين السكان الأصليين، فأعتنق كثير منهم الإسلام وتكلم العربية، وتزوج العرب والبربر من هؤلاء السكان الأصليين فنشأ جيل مشترك في الدم والنسب عرف باسم المولدين، وكان لهذا الجيل طابعه.

و بقى عدد كبير من أهل البلاد لم يعتنق الإسلام، واحتفظ بديانته المسيحية أو اليهودية ولكنه تعلم العربية وأخذ بأسلوب العرب في الحياة فعرف هؤلاء باسم المستعربة.

المرحلة الثالثة

التدهور الأول للأندلس وحتى بداية حكم

عبد الرحمن الناصر (٢٣٨ - ٣٠٠) وخلفاء هذه المرحلة:



وفي هذا العهد: كثرت الثورات

- كون العرب دويلات أهمها دولة بني حجاج في أشبيليه، من قبيلة لخم اليمنية، أحبوا أن يكون لهم مثل ما للأمير الأموي من هيبة وجاه، فصاغ إبراهيم بن حجاج دولة على مثال الدولة الأموية، فكان له بلاط وحاشية وحرس وجيش، وأحاط نفسه بهالة من الأدباء والمؤرخين ورجال الفن وشجع العلوم، وكان ممن ظهروا في عهده الشاعر المؤرخ (ابن عبد ربه) صاحب العقد الفريد.
- وأما البربر فقد خلعوا أيضًا طاعة أمراء بني أمية، وعادوا إلى القبائل واستقلوا بالولايات الغربية (استرا مادور) وجنوب البرتغال، واحتلوا مراكز عظيمة الشأن في الأندلس نفسه كمدينة (جيان)، وكانت أسرة ذي النون البربرية أشهر من قام من البربر، وكانت تتألف من عميدها موسى وهو شرير كبير ثم أولاده الثلاثة الذين أشبهوه في قسوته، فدهمت هذه الأسرة

الأندلس كلها بالسيف والنار، وعاثت في جميع نواحي الأندلس فسادًا تحرق وتنهب وتقتل أينما سارت.

- وأما مولدو الأسبان فقد استولوا على ولاية الجرف في الزاوية الجنوبية الغربية من الأندلس، وملكوا عددًا كبيرًا من المدن والولايات المستقلة بالأندلس، وكان ابن حفصون أكثر هؤلاء قوة وبأسًا، وكان ينزل كورة رية، وأقام في حصانة معقله في جبل (ببشتر)، مثيرًا سكان الجبال بغرناطة وظل يحكم ويمد نفوذه وسطوته على البلاد التي حوله، حتى اقترب من قرطبة جدًا دون أن يدفعه دافع، ولقد حاول الأمير عبد الله بن محمد مرارًا القضاء على سطوة ابن حفصون ولكن لم ينجح، وظل ابن حفصون في قوته حتى ارتد عن الإسلام ليغري المستعربة بالانضمام إليه، ولكن هذا جاء وبالاً عليه فانفض من حوله المسلمون، ولم ينضم إليه النصارى، فضعف أمره وزالت دولته على يد الناصر فيما بعد.

هكذا كان حال الأندلس حينًا من الزمان من (سنة ٢٣٨إلى سنة ٣٠٠ هـ) أي بعد مائة سنة من تأسيس دولة بني أمية هناك فأصبحت ممزقة الأشلاء، تبعثرت بها المقاطعات المستقلة التي صارت أشبه بالضياع منها بالولايات، وصار ملك بني أمية يشمل قرطبة وحدها وما يجاورها من أعمالها..

بيد أن ركب الحضارة والتقدم لم يتأثر كثيرا..

استخلف الأمير عبد الله لولاية عهده من بعده حفيده (عبد الرحمن) وكان شاباً في الحادية والعشرين من عمره.

***

المرحلة الرابعة:

عودة القوة وإعلان الخلافة ٣٠٠ - ٣٦٨ هـ

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الناصر

بداية القرن الرابع الهجري (٣٠٠ - ٣٥٠) هـ

كان محل عناية جده عبد الله ومات أبوه في ظروف غامضة.

بايعه الناس من بعد جده دون معارضة، ومع أنه كان لعبد الرحمن أعمام هم أحق بالملك منه، فكان المفروض أن يكون منهم تمرد أو على الأقل عدم رضا، ولكن الحالة السيئة التي وصلت إليها الأندلس، وتوقع الجميع زوال الملك هناك جعلتهم يزهدون في الإمارة، ومن ثم تهيأت الظروف للناصر، فتفرغ للقضاء على المشاكل الداخلية التي أدت إلى تجزئة الأندلس، مما عرقل التجارة والتنقل وأفسد الحياة الاقتصادية والحياة الآمنة للعامة، فقد ضجت العامة من هذه الحالة السيئة وتمنت أن يأتي من يستنقذ البلاد من هذا الفساد..فكانت العامة في صف عبد الرحمن في كل خطواته الإصلاحية..و كان الرجل ممن يتميزون بالاعتدال بين اللين والشدة يستخدم كلاً في موضعه، ومن ثم فقد بدأ بإصدار منشور أرسله إلى كل أمير أو ملك من هؤلاء المتغلبين على النواحي.

وفيه يعد ويتوعد ويمني ويحذر، فأيما رجل متغلب على ناحية من النواحي قدم ولاءه للحاكم الشرعي فإنه سيكون من المقربين، وسيحقق ما يبتغيه من مال وسلطان تحت راية الإمارة المركزية، ومن لم يفعل فينذره بحرب مدمرة لا تبقي ولا تذر.

و كان عبد الرحمن يدرك معنى هذا المنشور، إذ أن أكثر الموجودين من المتغلبين كانوا بقايا أسر أو عصبيات قديمة قد ضعفت وذهبت عنها قوتها..

وكان له أسلوب بارع في الوصول إلى هذه الغاية، فقد كان يخرج بجيوشه فيزل على الواحد منهم فيحاصره ويشدد عليه ويبسط له الأمان حتى إذا استسلم وفّى له بوعده، وجاء به إلى قرطبة معززًا مكرمًا هو وأهله وحاشيته وأغدق عليهم وجعلهم من المقربين إليه، ومن ثم استسلم هؤلاء الذين عاندوا الدولة وأرهقوها بحروب طويلة.

وأما الخصم الوحيد الذي كلف عبد الرحمن مشقة كبيرة فهو ابن حفصون، غير أن هذا ضعف أمره وذهبت ريحه خصوصًا بعد أن ارتد عن الإسلام كما رأينا فيما سبق وتوفي سنة ٣١٢ هـ، وكان أمره قد تفرق تمامًا ولم يصمد أولاده من بعده لعبد الرحمن وسقط حصنه المنيع (ببشتر).

فائدة:
كان عمر بن حفصون هذا من أصل إسباني قوطي، بالغت بعض المصادر الأوربية في تصوير هذا الرجل على أنه بطل قومي يريد تحرير وطنه، مع أنه لم يكن أكثر من قاطع طريق عنيف في سلوكه، والدليل على ذلك أنه لما أعلن ارتداده عن الإسلام لم يجد من يتجاوب معه حتى طائفة المستعربين ....

ولم تأت سنة ٣١٣ هـ إلا وعبد الرحمن الناصر سيدًا على الأندلس الموحدة.

أما على الصعيد الخارجي: خطر الدولة النصرانية

بعد الفتح العربي بقي للإسبان جزء منعزل في الشمال الغربي من الأندلس يعرف بإقليم (جليقية) لم يطمع المسلمون في امتلاكه لفقره وبرده، فانحاز إليه البقية الباقية من نبلاء القوط المغلوبين ورجال الدين، وقد ظلوا يترقبون الفرصة لتوسيع رقعتهم، فلما كانت الفوضى السائدة بالأندلس، انتهز أولئك النصارى

الفرصة، ووصلوا بملكهم إلى ضفاف نهر دويرة واحتلوا مدينة ليون، وجعلوها عاصمتهم وأخذت تتسع رويدًا رويدًا في المنطقة التي خلت بنزوح البربر منها أمام العرب، كما أشرنا سالفًا، حتى إذا ما وصلت إلى عصر ملكهم الفونسو الثالث الملقب بالكبير، نجد هذه الإمارة الليونية تحتل مدينة سمورة، فحصّنها وأصبحت من ذلك الحين حصن إمارة ليون المواجهه للمسلمين عند غزوهم لبلاد النصارى، وقد هاجمها المسلمون وخربوها مرارًا حتى سميت عندهم (سمورة الخراب).

وخلاصة القول أن الإمارة الليونية قد وصلت في آخر عهد الفونسو الثالث إلى نهر دويرة، بل امتد إلى كل ما يقع جنوبي نهر دويرة هذا في ناحية الغرب..

أما من ناحية المشرق من الأندلس، أي الممالك النصرانية التي قامت وظهر أمرها فيما يلي الثغر الأندلسي الأعلى فيما بين نهر ابرو نهيراته، وجبال البرانس، فهناك ظاهرة أن هذه الإمارات النصرانية نشأت كلها في الجبال نظرًا لاشتداد الخطر الإسلامي من الجنوب (سرقسطة) وكذلك كانت جهتها الشمالية متاخمة لأوروبا النصرانية، مما جعلها على صلة دائمة بالبابوية والعالم الكاثوليكي.

ولذا لم يكن لهذه الجهة النصرانية إمكانية تحقيق أي توسع أو طموح سياسي.

وكانت أقوى الإمارات النصرانية في هذه الفترة مملكة (نبرة) (نافارا) وكان ملكها شنجو قد تمكن من أن يمد حدودها حتى تاخمت بلدتي (لاردة) و(وشقة) من حصون المسلمين، فكان على عبد الرحمن أن يواجه هذه الأخطار والأطماع، فدخل في مواجهات طويلة مع الصليبيين، امتدت تقريبًا من سنة ٣٠٥ هـ إلى سنة ٣٣٩ هـ حتى دانت له الأمور؛ بالتحالف مع البعض، وبالإجبار مع البعض، كل ذلك في كياسة وحكمة جعلتهم جميعًا لا ينظرون إليه كعدو بل

كصديق يحكمونه فيما شجر بينهم، ويكفي للدلالة على ذلك أن نذكر أن ملك (نافار) شنجو طلب من قرطبة طبيبًا يعالجه من سمنته المفرطة، فأرسل إليه عبد الرحمن طبيبًا له دراية بالطب هو (حسداي بن شيروط) الإسرائيلي، وكان من نتيجة سفارته أن قدم وفد إلى قرطبة على رأسه (شنجو) نفسه ليشكر عبد الرحمن، فأكرم عبد الرحمن وفادته وندب الأطباء لعلاجه، وكان من نتيجة ذلك عقد محالفة بينهما نال من ورائها المسلمون حصونًا على حدود مملكة، ومن ناحية أخرى كان ملوك ليون وأرجون يفدون إلى قرطبة، يحتكمون إلى أميرها ليقر السلام بينهم.

واستطاع عبد الرحمن بعد سنوات طويلة من الجهد والدأب أن يعيد السيادة للمسلمين على إسبانيا كلها.

عبد الرحمن يعلن عن نفسه خليفة:

وفي أثناء فترة حكمه ظهر الحكم الفاطمي، وأعلنت الخلافة الفاطمية التي طمعت في إخضاع العالم الإسلامي كله لسلطانها، وهددت سلطان الأندلس، ولأن الخلافة لها سلطان ديني وهيبة في النفوس، فقد رأى عبد الرحمن أن يلقب نفسه خليفة للمسلمين في رمضان ٣١٦ هـ وكان هذا الإعلان من جانبه من قبيل محاربة العدو الفاطمي بسلاحه.

في عهده ابتدأ بناء مدينة الزهراء سنة ٣٢٥ هـ على بعد ٧ كم من قرطبة على الضفة الشمالية لنهر الوادي الكبير، استغرق بناؤها ٤٠ عامًا وأتمها ابنه الحكم، وكانت من أعجب ما أنشأ الإنسان على الأرض بشهادة المؤرخين السائحين.

الحكم بن عبد الرحمن المستنصر ٣٥٠ - ٣٦٦ هـ

كان محبًا للعلم والعلماء، بل كان عالمًا قال عنه أحد المؤرخين: إنه كان دودة كتب

وقد ظن الصليبيون فيه اللين، فحاولوا أن يرجعوا عن عهدهم بتسليم بعض

الحصون على الحدود، ولكن الحكم جرد لهم جيشًا أدبهم وألزمهم تنفيذ الاتفاق.

الحالة العلمية في عهده:

كان الحكم يرسل رسله إلى كل بقاع الشرق ليبتاعوا له ما ندر من المخطوطات، في مختلف الفنون والعلوم والأدب مهما غلا ثمنها، وقد قدر ابن خلدون والمقري أنه بمكتبة الحكم بقرطبة نحو أربعمائة ألف مجلد، وكان يقرؤها جميعًا ويعلق عليها وكانت تعليقاته هذه عند العلماء من أدق ما كُتِب وأنفسه.

وكان الحكم كذلك يتصيد العلماء، وتحول جامع قرطبة إلى جامعة لكثرة العلماء الذين كانوا يحاضرون فيه، كما أنشأ كثيرًا من المدارس والمكاتب في قرطبة، وفي الأمصار، ليتعلم فيها أبناء الفقراء مجانًا، كما أنشأ فروعًا للمكتبة في العاصمة والمدن لتيسير الإطلاع على العلم.

هذا الاهتمام بالعلم من قبل الحكم جعله يترك الأمر للوزراء والقادة للتصرف في شئون الدولة، وكان وزيره المصحفي مفوضًا في شئون السياسية والإدارة وفي حل المشكلات ولا يرجع إلى الخليفة إلا في بعضها.

كما أنه اشتغل عن إعداد ابنه هشام لخلافة عهده، ومن ثم لما حضرته الوفاة أصابه القلق على مصير ابنه، فجمع القادة والرؤساء وأخذ عليهم العهود المغلظة أن يوفوا بما عهد إليهم من تولية ابنه من بعده ومؤازرته والإخلاص له ثم مات سنة ٣٦٦ هـ.

فصار الأمر من بعده إلى هشام، ولكن الحكم الحقيقي قد صار لرجل طموح من غير بني أمية هو محمد بن أبي عامر،ويمكن أن يقال إن الدولة الأموية انتهت انتهاء حُكميًا بوفاة الحكم، فالخلفاء الذين تولوا من بعده كانوا مجرد أشباح ليس لهم من الأمر شيء حتى انتهت تمامًا سنة ٤٢٢ هـ.

المرحلة الخامسة

عصر سيطرة الوزراء أو الدولة العامرية

(٣٦٦هـ- ٣٩٩هـ)

هشام بن الحكم (الثاني) سنة ٣٦٦هـ:

تولى الخلافة وعمره لا يزيد على عشر سنوات وأشهر ولقب بالمؤيد بالله!!

وانقسم رجال الدولة إلى قسمين:

قسم العسكر يرى في هشام طفلاً لا يصلح للإمارة ويرشحون عمه (المغيرة ابن عبد الرحمن الناصر).

وفريق الوزير المصحفي ورجال الحكم المدنيين يرون استبقاء هشام في الحكم تقوية لنفوذهم واستئثارًا بالسلطة.

وبادر الفريق الثاني لتدبير مؤامرة لقتل المغيرة فقتل على يد شاب هو: محمد ابن عبد الله بن أبي عامر المعفري القحطاني،وهذا الشاب نزح آباؤه من قبل إلى الأندلس مع الجيوش الفاتحة أيام طارق ابن زياد، فكان أجداده ذوي وجاهة في الجند، ولد في إحدي قري المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء جنوبي بلاد الأندلس وقد قدم محمد هذا قرطبة وهو شاب، فطلب العلم والآداب وسمع الحديث في جامعها، وكانت له همة عالية وطموح للملك، ولقد زاول بعد تخرجه عملاً بسيطًا، فافتتح دكانًا بجوار قصر الخلافة يكتب فيه للناس شكاواهم، فاستهوى بشخصيته المتميزة الجمهور، وخاصة من اتصل به من خدم القصر وغلمانه، فهيئوا له الاتصال بالسيدة صبح-زوجة الحكم وأم هشام- التي أعجبت بنبوغه فوكلت إليه النظر في شؤون أموالها وضياعها، فظهرت كفايته ورضيت السيدة عنه، فنبهت إليه الخليفة الحكم فولاه القضاء في بعض النواحي، ومازال يترقى حتى وصل إلى مرتبة تكافئ الوزارة في آخر أيام الحكم، ولما توفى الحكم وحصلت الأزمة سنحت له الفرصة التي طالما حلم بها وهي الإمارة.

كان محمد العامري حريصًا على أن يكون له النفوذ المطلق ومن ثم عمل من أول لحظة على التخلص من كل من ينازعونه الأمر بالحيلة والمكر.

فلما بلغ غايته وأصبح الأمر إليه، أظهر كفايته في خدمة شعبه ولم يعرف في التاريخ الإسلامي من كان أداب على العمل منه، فقد كان يعمل عشرين ساعة في اليوم في خدمة الدولة وتفقد أمورها بنفسه، وسمى نفسه المنصور، ولقد وكل مهام الدولة إلى رجال يثق بهم وراح يراقب أعمالهم بنفسه، وبث عيونه في كل ناحية ليطلع على كل كبيرة وصغيرة، وكان يقود الجيوش بنفسه في ميدان القتال، وقد نظم جيشه تنظيمًا دقيقًا، وكان شديدًا في النظام.

أما الخليفة هشام فكان لا شيء، فهو في القصر يستمتع بلذاته ويلهو بغلمانه وجواريه، وابتنى ابن أبي عامر لنفسه مدينة خاصة به سماها الزاهرة وشحنها بالسلاح والعتاد والمؤن ونقل إليها دواوين الحكم، وحنقت أم الخليفة السيدة (صبح) على ابن أبي عامر لاستبداده بالأمر دون ابنها، فأرادت أن تقضي على نفوذه فلجأت إلى طرق عدة:

- حاولت الاستعانة بقوة خارجية من مراكش واتصلت ببعض الزعماء هناك ليأتي بقوة تتغلب على المنصور وطلب هؤلاء مالاً، فأُرسل إليهم على شكل هدايا ولكن المنصور اكتشف الأمر واستولى على الأموال وفشلت المؤامرة.
- فرأت السيدة أن تأخذه من طريق آخر، فأوعزت إلى الفقهاء بأن المنصور يستبد بالأمر على الخليفة الشرعي، وتحركت الألسنة في قرطبة بهذا، ولكن المنصور كان داهية، فقابل الخليفة وقدم له فروض الطاعة والولاء، وكان هشام فاقد الإرادة، فأقنعه المنصور بالخروج معه في شوارع قرطبة، وتم له ما أراد فقضى على القالة بعد أن رأى الناس بأعينهم الخليفة يساير وزيره ويحادثه ويتبسط معه.
- فأراد أعداؤه أن يأخذوه من طريق آخر، فأرجفوا في المدينة بأنه زنديق، ولكنه

تخلص من هذه التهمة بأن استدعى الفقهاء وطلب منهم أن يحصوا الكتب التي لا تتمشى مع الدين في مكتبة الحكم، ثم يخرجوها فيحرقوها فنال الفلسفة من ذلك ضرر كبير وارتفعت مكانته عند الفقهاء الذين كانوا حربًا ضد الفلسفة.

- كان المنصور يغزو الصليبيين في كل عام غزوتين؛ في الربيع وفي الخريف طيلة مدة حكمه، وكان يتولى الغزو بنفسه، ولم يهزم قط في الخمسين غزوة التي غزاها طول حكمه البالغ خمسة وعشرين عامًا، مما زاد من رصيده لدى شعبه.
- توفى سنه ٣٩٢هـ. وهو منصرف من غزوة بالقرب من مدينة سالم وتنفس نصارى الشمال الصعداء لموته.
- تولى بعد موت محمد بن أبى عامر ابنه عبد الملك ومكث سبع سنوات كلها طيبة.

واصل الغزوات التي كان يقوم بها أبوه، وكانت أيامه رخاء وهدوءًا في الداخل، ولما توفى خلفه أخوه عبد الرحمن لكنه كان مستهترًا محبًا للملذات.. وطمع فيما لم يطمع فيه أبوه ولا أخوه، إذ طمع في السلطة الشرعية، وأراد أن يستأثر بما بقى للأمويين من رسوم الخلافة، فطلب من هشام أن يكتب له بولاية العهد.

- فأثار ذلك المرسوم المضريين الذين كبر عليهم أن ينتقل العرش إلى اليمنيين (القحطانين)، وأن تبتعد الخلافة عن قريش، فانبعثت العصبية العربية من جديدوانتهز الأمويون والمضريون فرصة غياب عبد الرحمن في الشمال فخلعوا هشامًا عن العرش وولوا رجلاً من أحفاد الناصر هو (محمد بن هشام بن عبد الجبار بن أمير المؤمنين الناصر) ولقبوه بالمهدي بالله.

- ولما بلغت الأخبار عبد الرحمن رجع من الشمال، وكان كلما اقترب من قرطبة انفض عنه جماعة من جيشه حتى صار في قلة من أصحابه، فاعترضه من خصومه معترض، فقبض عليه وحز رأسه وحمله إلى المهدي وجماعته، وبموته انتهت دولة بن عامر.

المرحلة السادسة

الانهيار الثاني ونهاية حكم الأمويين بالأندلس

(٣٩٩هـ - ٤٢٢هـ)

تولى الأندلس فيها عدد من الخلفاء الأمويين يزيد على عدد من تولوا طيلة القرون الثلاثة الماضية، وضاعت هيبة الخلافة وانقسمت البلاد مرة أخرى وبرزت العنصرية المقيتة بشكل واضح.

والأنكى من ذلك أن كل فريق كان يستعين على خصمه بنصارى الشمال، وكان هؤلاء النصارى يرون فرصتهم في الحصول على حصون ومواقع نظير إجابتهم طلب النجدة...

وأخيرًا سقطت الدولة الأموية بالأندلس بموت آخر خلفائها المعتمد بالله سنة **٤٢٢هـ**.

وبموته أعلن الوزير أبو محمد بن جهور انتهاء الخلافة، لعدم وجود من يستحقها، وأنه سيحكم الدولة جماعة من الوزراء على نظام شبه جمهوري.

وبانتهاء هذه الفترة انقسمت البلاد إلى دويلات صغيرة، واستقل كل أمير بمقاطعته، وأعلن نفسه ملكًا عليها، ودخلت الأندلس في عصر جديد هو عصر ملوك الطوائف.



المرحلة السابعة

عصر ملوك الطوائف

(٤٢٢ -٤٨٣ هـ)

لم تكد الخلافة الأموية تنتهي حتى استقل كل بما امتلكته يده، فأصبح لكل مدينة أو مقاطعة أمير مستقل.

فالبربر بالجنوب، والصقالبة بالشرق، وأما البقية الباقية فقد ذهبت إلى أيدي محدثي النعم أو بعض الأسر القديمة، وقد حكم في هذه الفترة نحو عشرين أسرة مستقلة، في عشرين مدينة أو مقاطعة ومن أشهر ملوك الطوائف:

- بنو عباد بأشبيلة.
- بنو حمود الأدارسة بمالقة والجزيرة.
- بنو زيري بغرناطة.
- بنو هود بسرقسطة.
- بنو النون بطليطه وهم أقوى هؤلاء الملوك.

وقد أحسن بعض هؤلاء الملوك الحكم، وإن كان أكثرهم عتاة جبارين، غير أنهم كانوا مثقفين محبين للعلم، وكانت قصورهم مثابة للشعراء والأدباء والعلماء، وقد عاش في هذه الفترة وفي بلاط هؤلاء الملوك كثير من العلماء الكبار والأدباء العظام ممن تفخر بهم الأندلس، كما كان من بين هؤلاء الملوك أنفسهم من كان عالمًا أديبًا شاعرًا.

وقد تنافس ملوك الطوائف في إحراز العلماء والأدباء في بلاطهم وأفاضوا عليهم من عطائهم، ولذلك أصبحت عواصم الأندلس منتدىً للعلوم والآداب، التي عمل الملوك على نشرها، حتى أصبح جو الأندلس جوًا أدبيًا شعريًا.

يقول صاحب معجم البلدان في حديثه عن إحدى مدن الأندلس (وسمعت ممن لا يحصى أنه قال: قلّ أن ترى من أهلها من لا يقول شعرًا، ولا يعاني الأدب ولو مررت بالفلاح خلف فدانه-محراثه- وسألته عن الشعر لقرض لك من ساعته ما اقترحت عليه وأي معنى طلبته منه).

طمع الصليبيين في إسبانيا والمسلمون يدمرون أنفسهم بأنفسهم.

كان ألفونسو السادس (الأذفونش) قد وحّد تحت إمارته استوريا وليون وقشتالة، ورأى أن يستفيد من الفوضى في الأندلس، خاصة أن أكثر ملوك الطوائف كانوا يتقربون إلى ألفونسو بالعطايا والإتاوات، يطلبون حمايته، فكان ألفونسو يجمع منهم ما يعد به العدة للقضاء عليهم وهم لا يشعرون.

وكان ألفونسو ينتهز كل فرصة ليستولي على الحصون والقلاع، واحدة إثر الأخرى، حتى وثب وثبة سنه ٤٧٨ هـ استولى فيها على طليطلة، ووضع حامية تزيد على اثنى عشر ألفًا في حصن ليط في وسط الأندلس، ومن هذا الحصن كانت تخرج جنوده لتغير وتنهب.

رغم الذل فمازالت النخوة موجودة

يئس ملوك الطوائف أن يتوحدوا، فتوجه نظرهم إلى دولة المرابطين بأفريقية، ولقد توجس بعض مشيري ابن عباد ملك أشبيليه وقرطبة من هذه الدعوة خيفة، ولكنه أسكتهم بقوله: (لأن أكون راعي جمال في صحراء أفريقية خير من أرعى الخنازير في قشتاله).

كان المعتمد بن عباد هذا آخر ملوك بني عباد وكان عربيًا شاعرًا.

ولكنه كان ذليلاً لألفونسو حيث كان يدفع له كغيره ... حتى طلب منه ألفونسو يومًا أن يسمح لزوجته أن تدخل جامع قرطبة لتلد فيه حسب إشارة القسيسين

والأساقفة، فلم يتمالك ابن عباد نفسه فقتل حامل الرسالة لوقاحتها وأمر به فصلب منكوسًا بقرطبة، وأمر بمن معه من الفرسان فقتلوا.

وبلغ الخبر ألفونسو، فأقسم ليغزونه بأشبيليه، فأعد ألفونسو لذلك جيشين زحف أحدهما إلى كورة باجة ثم أشبيليه،، وقاد الجيش الثاني بنفسه ثم لحق به الجيش الأول، ونزل بهما أمام قصر ابن عباد على الضفة الأخرى من نهر الوادي الكبير، وكتب إلى ابن عباد يتهكم: (لقد كثر بطول مقامي في مجلسي الذباب، واشتد عليَّ الحر، فأتحفني من قصرك بمروحة أُرَوح بها على نفسي، وأطرد الذباب عن وجهي) فوقع له ابن عباد على الرسالة بخطه:

«قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية تُريح منك لا تروح عليك».

وابن عباد يشير بالجلود اللمطية إلى الاستعانة بالمرابطين في شمال أفريقية.

***

المرحلة الثامنة

عهد المرابطين بالأندلس

(٤٨٤ – ٥٣٩هـ)

دولة المرابطين:

المرابطون: هم عدة قبائل ينسبون إلى حمير، وأشهر هذه القبائل لمتونه وجدالة ولمطة، ومن لمتونة كان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين.

وقد دخلت هذه القبائل المغرب مع موسى بن نصير، وتوجهوا مع طارق إلى طنجة، لكنهم أحبوا الانفراد فدخلوا الصحراء بالمغرب الأقصى واستوطنوها.

وفي سنة ٤٤٨ هـ حدث بينهم انبعاث ديني، وانبثق فيهم مذهب جديد يدعو إلى الجهاد في سبيل الله وتسمى أصحابه بالمرابطين، وقد تغلب هؤلاء المرابطون على المنطقة كلها من الجزائر إلى السنغال، وكانوا رجالاً من طابع طارق وأصحابه لا تنقصهم الشجاعة وليس للترف إليهم منفذ.

معركة الزلاقة:

وفي سنة ٤٦٢هـ آل أمر المرابطين إلى يوسف بن تاشفين وكان رجلاً تقيًا حازمًا داهية مجربًا، فمد فتوحه في المغرب الأفريقي حتى دان له جميعه، واختط مدينة مراكش تحت جبال المصامدة، الذين هم أشد أهل المغرب قوة وأمنعهم عقلاً، فكانت مراكش عاصمة لدولة المرابطين ثم ملك سبته وطنجة وأصبح بذلك مطلاً على جنوب الأندلس.

ودولته هي أقوى دولة بالمغرب يومئذ ومن ثم استنجد به أهل الأندلس.

فاستجاب ابن تاشفين بدافع من النصرة لإخوانه، وحب الجهاد، فحشد

الجيوش للجهاد وأجازها إلى الجزيرة الخضراء وجعلها قاعدة لجيوشه.

وما كادت سفن جيش المسلمين تنشر قلاعها حتى صعد يوسف بن تاشفين إلى مقدمة سفينته ودعا الله مخلصًا: «اللهم إن كنت تعلم أن في جوازي هذا خيرًا وصلاحًا للمسلمين فسهل على جواز هذا البحر، وإن كان غير ذلك فصعِّبه حتى لا أجوزه» فهدأ البحر وجازت السفن سراعًا، ولما نزل أرض الأندلس سجد لله شكرًا.

وقد انضم إليه ملوك الطوائف؛ منهم الراضي ومنهم الكاره، واخترق الولايات بجيوشه حتى التقى بألفونسو عند موضع يسمى الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ في ربيع أول بالقرب من بطليوس. وقد ظهرت من القائد يوسف خصال وأفعال أعادت إلى الأذهان سيرة السلف الصالح في فتوحاتهم.

وفي المقابل أعد الفونسو جيشًا قوامه خمسين ألفًا صاح حين رأى كثرتهم وكمال عدتهم (بمثل هؤلاء أحارب الشيطان والجن والملائكة). ولكن كثرة عدده وما أبداه من النشوة لم تغن عنه شيئًا أمام بسالة ابن عباد ودهاء ابن تاشفين وإيمان المرابطين وحماسهم.

التقي الطرفان في سهل الزلاقة بالقرب من مدينة بطليوس، ووقف جيش المعتمد بن عباد في المقدمة، واصطف جيش يوسف بن تاشفين خلف أكمة عالية من الجبل وحاول الفونس السادس الخديعة إذ تبادل الرسائل بين الفريقين لتحديد يوم القتال، واقترح النصاري ألا يكون الجمعة لأنه يوم عيد المسلمين، ولا السبت لأنه عيد اليهود وهم وزراء النصارى في الأندلس وكتابهم، ولا الأحد لأنه عيد النصارى.

غير أنه ما حان يوم الجمعة وخرج يوسف بن تاشفين للصلاة حتى بدأ هجوم النصاري، غير أن المعتمد بن عباد كان يخشى هذه الخديعة، لذا فقد بقي في سلاحه وتصدى لهجوم النصارى، وانتهى المرابطون من صلاتهم وحملوا على النصارى وبدأ فيهم قتلاً حتى قيل إنهم قد أفنوهم عن آخرهم وذلك في

منتصف رجب من عام ٤٧٩ وقبل أوائل رمضان. واستولى المسلمون على كل ما كان مع النصاري، وقد آثر يوسف بن تاشنين بهذه الغنائم من أنضم إليه من ملوك الأندلس لذا فقد أحبوه كما أحبه الشعب، ولم ينج إلا ألفونسو وعدد قليل بلغ الخمسمائة من الفرسان.

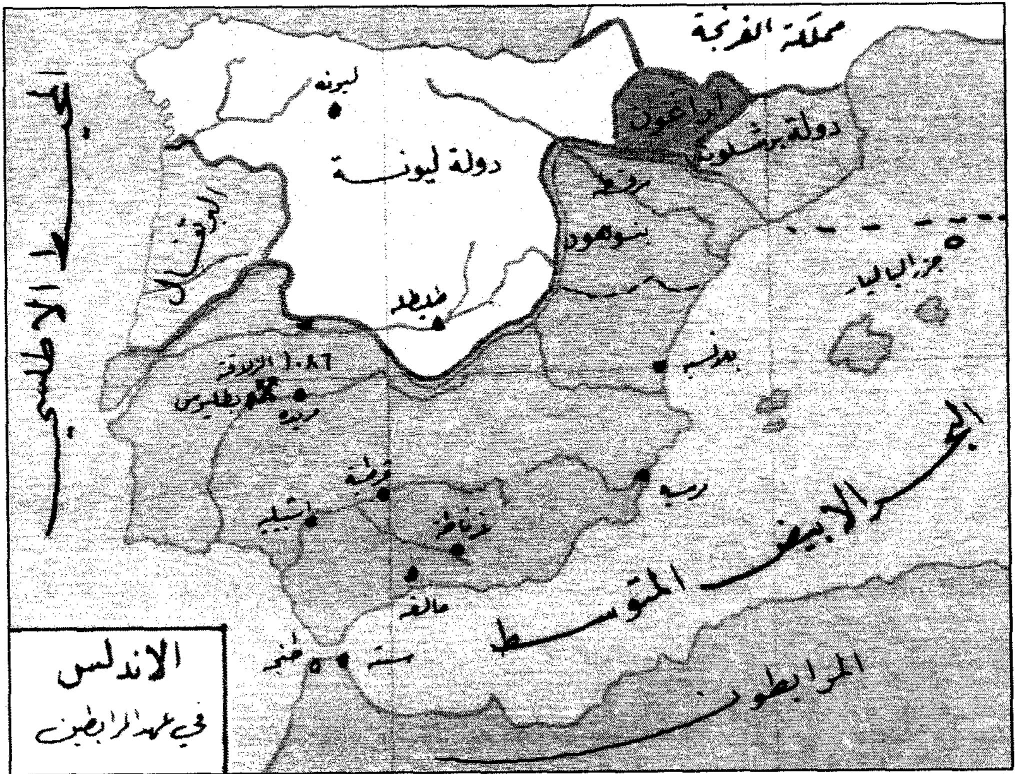
وبعد هذا النصر عاد يوسف بن تاشفين إلى أفريقية بارًا بوعده للملوك ألا يضم الأندلس إلى ملكه ولكنه ترك حامية من ٣٠٠٠ من رجاله لمعاونة الأندلسيين على عدوهم.

واشتهر يوسف بن تاشفين في بلاد العدو وذاع صيته من يومها... وحقد النصاري وملكهم على ابن عباد الذي استدعي ابن تاشفين، لذا فقد أغاروا على مملكة ابن عباد وركزوا غاراتهم على الأطراف.

وفي سنه ٤٨٣هـ.أعاد ملك أشبيليه طلب استنجاده بالمرابطين ليصدوا عنه غارات الصليبين الذين استمروا في عدائهم واستجاب يوسف بن تاشفين، لكنه في هذه المرة وجه هجومه إلى ملوك الطوائف أنفسهم كما وجهه إلى النصارى على السواء لأن ملوك الطوائف لم يساعدوه أثناء حصاره لألفونسو في طليطلة مما اضطره إلى رفع الحصار، وقد ساءه هذا التشتت والتمزق بين ملوك الطوائف.

فائـــدة: من طرائف التاريخ أن الذي يتولى صد الصليبيين في المشرق صلاح الدين يوسف بن أيوب سنه ٥٨٥ هـ. والذي يتولى صد الصليبين في المغرب يوسف بن تاشفين سنة ٤٧٩ هـ.

ولكن حظ يوسف الأيوبي من الشهرة كان أعلى، إذ أنه الأكثر ذكرًا في كتب التاريخ، ولم ينل يوسف بن تاشفين نفس العناية مع أنه أنقذ الأندلس من الضياع في ذلك الزمن!!؟



المرابطون يحكمون الأندلس ٤٨٤ - ٥٣٩

رأى يوسف ترف الملوك وإسرافهم وما يفرضون من ضرائب على الرعية، فأمرهم برفع الكثير منها فلم يستجب له إلا ابن عباد.

كما أن هؤلاء الملوك قد ملأوا أذني ابن تاشفين بشكوى بعضهم من بعض، وخيانة بعضهم لبعض، حتى عرفهم جميعًا وذهبت ثقته بهم جميعًا.

وما لبث أن أحله الفقهاء من عهده بألا يضم الأندلس إلى ملكه، بل زادوا فأوجبوا عليه ارضاء لربه أن يخلص المسلمين من شر هؤلاء الملوك، وجاءت الفتاوى من الشرق مؤيدة لفتاوى فقهاء الأندلس.

كل ذلك دفع يوسف بن تاشفين، البدوي المؤمن الذي لم يفسده الترف، أن يدخل الأندلس ليعيدها إلى وحدتها فبدأت حملته سنة ٤٨٣ هـ بغرناطة

واستمرت حتى سنة ٤٩٥ هـ قضى فيها على نفوذ ملوك الطوائف بمن فيهم ابن عباد- الذي استعان بألفونس السادس على سيري بن أبي بكر عامل ابن تاشفين- وأصبحت الأندلس تابعة لمملكة المرابطين بأفريقية.

وقد مات يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠ هـ، وكان من بعده علي بن يوسف حتى سنة ٥٣٣ هـ ثم من بعده تاشفين بن علي حتى سنة ٥٣٩ هـ وفرحت العامة إلى حين بعودة الأمن إلى الأندلس، وانكمش الصليبيون لكن قلة من عظماء الأندلس والمتحضرين لم يرضوا عن حكم المرابطين، فإنهم رأوا فيهم تخلفًا وخشونة تنأى عن فهم ما برع فيه الأندلسيون من شعر وأدب.

وسرعان ما قامت ثورة جامحة في أفريقية للقضاء على المرابطين، أثرت على أحوالهم بالأندلس، وعادت الأندلس إلى عادتها القديمة، فانقسمت بصورة أكبر فصار الملوك في الأندلس بعدد ما فيها من مدن.

* * *

المرحلة التاسعة

عهد الموحدين

(٥٣٩ – ٦٢٠هـ)

ظهور محمد بن تومرت الملقب بالمهدي مؤسس دولة الموحدين

من قبيلة مصمودة البربرية، ولكنه كان في الأصل من أحفاد العلويين الأدارسة، الذين اندمجوا في البربر بعد سقوط دولتهم، فهو عربي الأصل، بربري النشأة، خرج طالبًا للعلم وتأثر بآراء بن حزم، ورحل إلى المشرق فلقى في بغداد أبا بكر الشاشي وأخذ عليه شيئًا من أصول الفقه وسمع الحديث على المبارك بن عبد الجبار.

ثم عاد فمر بالإسكندرية فحضر مجالس أبي بكر الطرطوشي، ثم عاد إلى بلاد المغرب وظهر أمره حتى استدعاه أمير المسلمين علىّ بن تاشفين، وجمع له العلماء، فناظرهم وغلبهم، وأشار بعض مستشاري أمير المسلمين بقتله خوفًا من حدة ذكائه وخوفًا من أن يجتمع عليه المصامدة فيثور على الدولة،ولكن أمير المسلمين اكتفى بأن أمره بالخروج من البلاد وليتوجه إلى حيث شاء.

خرج محمد بن تومرت إلى أغمات، ولحق بالجبل واجتمع عليه الناس فوعظهم وحدثهم عن المهدي، فكثر أتباعه واشتد أمره، وقام إليه عبد المؤمن بن على الكومي في عشرة رجال فبايعوه على أنه المهدي المنتظر، وأقبل الناس على المهدي يبايعونه فأصبح في قوة عظيمة تهدد دولة المرابطين.

وأراد أمير الأندلس أن يتدارك الأمر فأرسل إلى المهدي جيشًا ولكنه هُزِم، فقويت بذلك شوكة محمد بن تومرت وبدأ منذ سنة ٥٢٤ هـ في محاربة المرابطين، وجهز لذلك جيشًا كبيرًا زحف على مراكش وحاصرهم ولكن نجدة أمير

سلجلماسة جاءت فهُزِم جيش المهدي وفك الحصار عن مراكش، وكان المهدي مريضًا فأوصى لعبد المؤمن من بعده فبايعه الناس.

استطاع عبد المؤمن أن يكمل مسيرة ابن تومرت فقضى على دولة المرابطين، وفتح المغربين الأوسط والأقصى في الفترة من (٥٣٨ - ٥٤١) هـ، وفي هذه السنة سقطت مراكش في أيدي الموحدين وانتهى عصر المرابطين.

وسموا بالموحدين: لأنهم يعتقدون أنهم هم المؤمنون حقًا الذين يوحدون الله وينزهونه عن كل تشبيه بالخلق.

عاد مسلمو الأندلس يطلبون النجدة من الموحدين في شمال أفريقية كما طلبوها من قبل من المرابطين، ورأي الموحدون في ذلك فرصة لهم ليدخلوا الأندلس.

فأرسل عبد المؤمن جيشًا سنة ٥٣٩ هـ فدخل الأندلس ولم يمض أكثر من خمس سنوات حتى صارت جميع بلاد المسلمين في الأندلس في يد الموحدين.

ولكن الموحدين لم يفكروا في أن يجعلوا من الأندلس قاعدة لملكهم، بل أرسلوا إليها نوابًا عنهم يحكمونها باسمهم، وبقيت قاعدة ملكهم مراكش.

موقعة الأرك:

وفي سنة ٥٨٠ هـ تولى المنصور بالله يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن قيادة الموحدين وهو ثالث قوادهم (٥٨٠ - ٥٩٥) هـ.

قاد جيشه بنفسه سنة ٥٩١ هـ وانتصر على الصليبين انتصارًا كبيرًا في موقعه الأرك بالقرب من بطليوس، وكان انتصاره لا يقل عظمة عن انتصار المرابطين من قبل في الزلاقة.

موقعة العقاب

وفي سنة ٦٠٩ هـ أعلن الصليبيون حملة واسعة النطاق ضد المسلمين

بالأندلس، فجاءهم المتطوعون من فرنسا وألمانيا وإنجلترا وإيطاليا، وقاد الناصر ابن المنصور بالله جيش المسلمين، وكان عدته كما تقول بعض الروايات حوالي نصف مليون من المحاربين، ولما لم يكن الناصر بارعًا في القيادة حسن التدبير في الحروب، فقد دارت الدائرة عليه وفقد معظم جيشه، بل إن هذه المعركة كانت نهاية لدولة الموحدين في الأندلس، فقد سقطت المدن الإسبانية مدينة إثر أخرى في يد الصليبيين، وعم الشغب بين قبائل البربر في أفريقية، وتوالت وثبات المنافسين للموحدين فيها فتبددت قوتهم وطمع فيهم أمراء الأندلس، فأزاحوهم عن الأندلس سنة ٦٣٣ هـ وأعلن ابن هود نفسه حاكمًا لأكثر بلاد الجنوب، ولما قضى نحبه تحول حكم الأندلس إلى بني نصر أمراء غرناطة سنة ٦٢٠ هـ.

***

المرحلة العاشرة

دولة بني الأحمر في مملكة غرناطة

(٦٢٠ - ٨٩٧ هـ)

كانت مملكة غرناطة هي بقية ملك العرب في إسبانيا بعد أن تمزقت دولتهم، ووقع أكثر المدن الكبرى في أيدي الصليبيين، ففي الفترة ما بين (٦٣٦ - ٦٦٨) هـ فتح فرديناند الثالث ملك قشتاله، وجايم الأول ملك أرجون، مدن بلنسية وقرطبة ومرسيه وأشبيلية، وأصبح حكم العرب محصورًا في غرناطة التي استطاعت لمناعتها أن تقاوم الإسبان قرنين ونصف من الزمان.

كان منشئ دولة بني الأحمر رجلاً عربيًا من بني نصر الدين - يقال إنهم ينسبون إلى خزرج المدينة - ويدعي محمد بن يوسف كان رجلاً شديد المراس ذا خلق كريم وكفاية نادرة، ولذلك لُقب بالشيخ اعترافًا له بالزعامة في بني نصر.

ونظرًا للظروف التي كان يمر بها المسلمون بالأندلس لم يكن بنو الأحمر يطمحون في أكثر من المحافظة على غرناطة.

والعجيب أن غرناطة بقيت وحدها صامدة في وجه أعدائها، واستطاعت أن تحتل مركزًا رفيعًا في الآداب والفنون والعلوم، مع إحاطتها بالأعداء من كل جانب يتربصون بها الدوائر.

ويرجع ذلك إلى أن أكثر المسلمين الذين انهزموا في النواحي الأخرى قد انحازوا إلى غرناطة موتورين حانقين على الصليبيين، وكانوا أهل فلاحة وتجارة وصناعة فعمرت بهم تلك الجهات عمرانًا حافلاً، فلم يبق شبر من الأرض إلا استغل أحسن استغلال.

وكان ابن الأحمر رجلاً عادلاً أخذ الناس بحسن السياسية.. واستطاع

بمعاونة العلماء الذين وفدوا على غرناطة من شتى المدن الإسلامية؛ أن يستخرج المعادن ويبني المستشفيات، وينشئ المدارس، وبني قصر الحمراء فوق شَرَف من الأرض، تحيط به قمم عالية صعبة المنحدر، تتدفق في سفحها الشمالي مياه نهر حدرد (درو) وقد حصن القصر بأسوار غطيت بالمرمر وشدت عند كل مسافة بحصون تشرف عليها.

والأمر الثاني الذي أعان غرناطة على الوقوف في وجه أعدائها هو الصداقة التي قامت بين ملوك غرناطة وبين بني مرين في المغرب ، وكان هؤلاء يرسلون عونهم الحربي عند كل هجوم على غرناطة، بل كانوا يبقون قوة حربية تحت سلطة ملك غرناطة تساعده إذا ما تحرش به الصليبيون، ولقد وصلت الحضارة العلمية أوجها في عهد محمد الخامس من بني الأحمر سنة ٧٦٣هـ.

وبعد موت محمد الخامس توالي على عرش غرناطة عدة من ملوك بني الأحمر، لم تكن لهم قوة أسلافهم ولا حذرهم ولاحيطتهم، فعاشوا عيشة ترف ولهو...

وفي الوقت الذي أخذ الضعف فيه يدب إلى غرناطة ممثلاً في ترف ملوكها، وذهاب حلفائها في المغرب، بدأ النشاط والقوة تتجمع في إسبانيا المسيحية، فقدتزوج فرديناند ملك أراغون من إيزابيللا ملكة قشتالة واتحدت المملكتان ... ضد غرناطة.

وكان يحكم غرناطة في هذه الأثناءمولاى على أبو الحسن وكان من أشجع الشجعان، ولكنه كان ضعيف الرأي، فرأى أن يبادئ اتحاد النصارى بالحرب قبل أن يناجزوه فامتنع عن دفع الإتاوة التي كان يؤديها لهم، ورد على رسول فرديناند الذي جاء يلح في طلبها بقوله:قل لمولاك: إن سلاطين غرناطة الذين اعتادوا أداء الإتاوات قد ماتوا، وإن دار الضرب بغرناطة لا تطبع الآن غير السيوف.

ودارت معارك أُسِر في إحداهاأبو عبد الله بن أبي الحسن وكان أسره ضربة شديدة لحكم المسلمين في الأندلس، لا من حيث أسره نفسه، ولكن من حيث

أن ملكي النصارى فرديناند وإيزابيللا استطاعا أن يستذلا نفسه، ويصغرا إليه ملكه وملك أبيه، مرة بالتهديد والوعيد ومرة بالوعد والأماني ﺫ حتى ذل عنقه وأصبح آلة في أيديهما، ثم أطلقا سراحه فعاد إلى غرناطة ليشن على أبيه حربًا شديدة، ثم ما لبث أبو الحسن أن مات همًّا وكمدًا.

وتولى أخوه عبد الله الزغل إمارة غرناطة، وهو آخر ملك عظيم حكم الأندلس الإسلامية، فقد كان شجاعًا ثابت الرأي شديدًا في محاربة الصليبيين، ولولا أن أفسد عليه ابن أخيه أمره ونازعه ملكه لكان من الممكن أن تظل الدولة في يديه حتى آخر أيامه ﺫ فعجل سلاطين غرناطه بتنازعهم سقوطها.

وضيق الصليبيون الخناق حول غرناطة، فأخذت تسقط في أيديهم مدينة بعد أخرى، وحصنًا بعد حصن، وزاد الموقف عُسرًا أن البارود كان قد اكتشف في ذلك الوقت ووصل إلى أيدي الصليبين وأخذت مدافع فرديناند التي ابتكرت حديثًا تدك الحصون والقلاع، لكن المسلمين في هذه الحصون والقلاع قاتلوا أعنف قتال واستماتوا أعظم استماتة، وكان الزغل قويًا ثابتًا لكن ابن أخيه عبد الله كان يأمر جنوده أن يصدوا جيش عمه كلما هم بنجدة حصن من حصون المسلمين، وذلك غيرة منه وحسدًا وسوء رأي وعمى بصيرة.

وهكذا ما لبث القسم الغربي من مملكة غرناطة أن وقع في قبضة النصارى، واحتلت حامياتهم قلاع رُنده ومالقة الجميلة، ومن أعجب العجب أن يرسل أبو عبد الله يهنئ فرديناند وإيزابيلا باستيلائهما على مالقة، وانتقل الصليبيون إلى الجزء الشرقي ولم تفلح محاولات الزغل لإيقافهم فقد نفذت كلمة القدر وآذنت بزوال مُلك المسلمين من الأندلس.

فأما الزغل فقد خرج إلى أفريقية حيث قبض عليه سلطان فاس، وصادر اموالـه وعذبه أشنع عذابَ فسمل عينيه وقضى بقية أيامه في أتعس حال وشر مآل.

أما أبو عبد الله فان الملك فرديناند، الذي كان عبد الله يحرضه على قتال عمه الزغل، ويمنيه بحيازة ملك غرناطة إذا قضى عليه، ها هو يطالبه بالوفاء بوعده ولكن عبد الله يتردد فبعث أهل غرناطه بزعامة موسى بن أبي الغسان الفارس العربي الشجاع إلى فرديناند بأنه إن أراد أسلحتهم فليأت لأخذها بنفسه.

وكان وقت الحصاد قد آن أوانه، فاقتنص فرديناند هذه الفرصة ورمى السهل بجيش بلغ ٢٥٠٠٠، وحقق انتصارات متتالية، وقنع فرديناند بهذا القدر هذا العام.

ثم ما لبث أن أرسلها غارة مدمرة في سنة ٨٩٥ هـ فلبس لها أبو عبد الله سلاح الحرب، وخرج إلى القتال ولكنه أفاق متأخرًا، ومعه موسى الذي كان آخر أبطال العرب في الأندلس، فلما أحس العرب الذين خضعوا لفرديناند دبيب الحياة يدب في إخوانهم، وشاهدوا ملِك غرناطة يقود جيوشه للجهاد طرحوا عن كواهلهم طاعة فرديناند وانضموا لإخوانهم في الجهاد، وصدمت جيوش غرناطه جيوش فرديناند فردتها واستردت بعض الحصون، ولكن ذلك كان آخر خفقة في السراج، سيلفظها ثم ينطفئ.

وفي سنة ٨٩٧ هـ أراد فرديناند أن يحسم الجولة فخرج بجيش قوامه ٥٠,٠٠٠ وحاصر المدينة وبنى أمامها في ثمانين يومًا مدينة سماها الإيمان المقدس، وعمل الجوع في أهل المدينة عمله ولم يجد أبو عبد الله بدًا من مفاوضة الصليبين، ولكن قائده موسى لم يرضَ بالتسليم للعدو، فلبس سلاحه وركب جواده، وغاص في الأعداء ضربًا وطعنًا حتى قُتِل غرقًا، مفضلاً ميتة كريمة على حياة ذليلة.

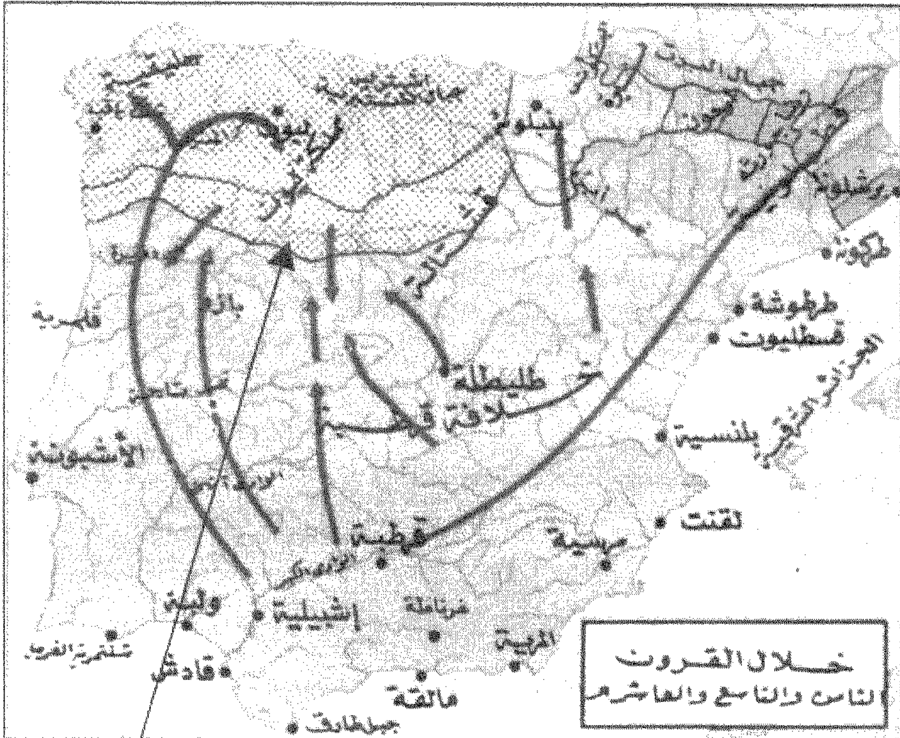
شروط التسليم:

كانت شروط التسليم سبعة وستين شرطًا، منها:

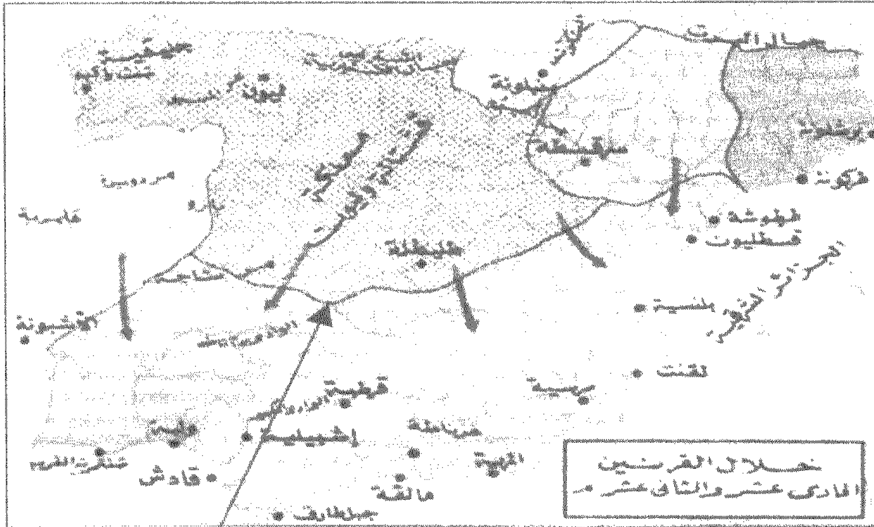
- تأمين المسلمين على أنفسهم وأهلهم وأموالهم.
- وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم وعقارهم.
- وإقامة شريعتهم على ما كانت عليه.
- وأن تبقى المساجد كما كانت.

- ولا يقهر أحد على ترك دينه.
- وأن يسير المسلم في بلاد النصارى آمنًا على نفسه وماله ...
- وأن يطلق سراح أسرى المسلمين.
- وأن يكون لهم الحق في الخروج إلى أفريقية بأموالهم وأولادهم متى شاءوا.

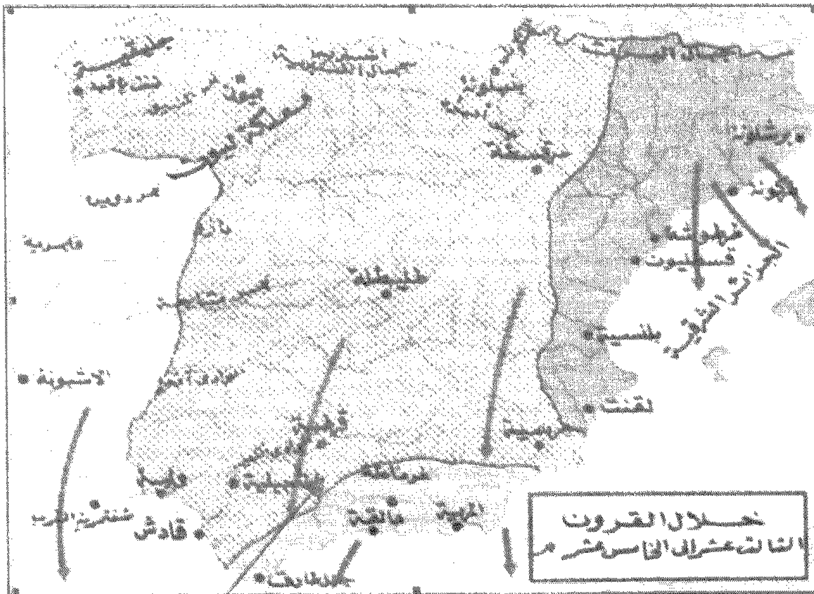
وافق المسلمون على هذه الشروط ولم يكن أمامهم خيار آخر... ووقف عبد الله في ثلة من فرسانه بسفح جبل الريحان فلما مر موكب فرديناند وإيزابيلا تقدّم فسلم مفاتيح المدينة ووقف من بعيد يودع مُلكًا ذهب ومجدًا ضاع فلما رأته أمه (عائشة الحرة) يبكي فقالت: «ابك مثل النساء ملكًا مضاعًا لم تحافظ عليه مثل الرجال»، ثم هاجر أبو عبد الله إلى المغرب ونزل بفاس حيث كان يعيش هو وأبناؤه على سؤال المحسنين.



خريطة توضح مساحة الأندلس في عهدها الأول



الحدود الفاصلة بين
أراضي المسلمين
وأعدائهم



هكذا تقلصت المساحة التي
يحكمها المسلمون

حركة إزالة الإسلام في الأندلس

لم تكن دموع أبي عبد الله آخر دموع سكبت بالأندلس بل تلتها دموع، ذلك أن النصارى ما لبثوا أن تنكروا لعهودهم ونقضوا الشروط، إلى أن آل الأمر إلى حملهم المسلمين على التنصير، نعم مرت فترة في أول الأمر بدا فيها أن حرية العبادة يمكن أن تقوم حينما كان أسقف غرناطة (هرناندوتا لافيرا) رجلا متسامحًا، ولكن الكردنال (شيمينس) لم يرض عن سياسة اللين التي يصطنعها الأسقف، أخذ يوسوس إلى الملكة بأن في حفظ عهد المسلمين خيانة لعهد الله، حتى أصدرت أمرًا باضطهاد المسلمين، وثار المسلمون لذلك، ولكن الكردنال كان يزيد الأمر اشتعالا فقد استصدر مرسومًا جديدا يخير العرب فيه بين التنصير أومغادرة البلاد، وجاء في المرسوم أن أسلافهم كانوا مسيحيين وأن الكنيسة تعدهم مسيحيين منذ الولادة، ثم أعقب ذلك غلق المساجد وإحراق المخطوطات والكتب النفيسة وتعذيب المسلمين أشد العذاب.

ثار المسلمون في جبال البشرات (من أصلح المناطق لنمو الثورات) وباءت الحملات التي أرسلت إليهم بالخيبة، وفر كثير منهم إلى مراكش ومصر وتركيا، أما من اضطر أمام الضغط إلى التظاهر بالمسيحية فقد جهدوا أن يؤدوا فروض دينهم سراً، وأعانوا لصوص البحر الذين كانوا ينزلون بثغور الأندلس على اختطاف أبناء النصارى، واشتعلت ثورة جديدة قادها رجل صباغ بغرناطة، فرج ابن فرج ينتمي إلى بني سراج، وجمع حوله الساخطين وفر بهم إلى الجبال، ولم يمض أسبوع حتى حمل رجال البشرات كلهم السلاح، وذلك سنة ٩٧٦ هـ وسارت مذابح عظيمة بين الطرفين، ولكن تداعيات الأحداث صارت لغير صالح المسلمين ولم يأت عام (١٠١٧ هـ - ١٦٠٩ م) إلا وإسبانيا خالية تماما من العرب، وبلغ عدد من نفي ما بين سقوط غرناطة والعقد الأول من القرن السابع عشر حوالي ثلاثة ملايين.

لمحات من المأساة التي حلت بالأندلسيين الموريسكيين:

• في ٤ من محرم سنة ٩٠٧ هـ صدر المرسوم الملكي بمنع وجود المسلمين في مملكة غرناطة، وحظر اتصال المسلمين بعضهم ببعض، ومن يخالف تلك الأوامر يكون جزاؤه الموت ومصادرة أملاكه.

• في ١٣ من رمضان سنة ٩٠٨ هـ - ١٢ فبراير سنة ١٥٠٢ م. صدر المرسوم الذي يحتم على كل مسلم حر يبلغ الرابعة عشرة من عمره إن كان ذكرًا والثانية عشرة من عمرها إن كانت أنثى، مغادرة غرناطة قبل أول شهر مايو من العام نفسه، ولا يسمح لمن يريد الخروج التصرف في أمواله وممتلكاته، ولا يكون الخروج إلى شمال أفريقيا لأنها بلد إسلامية.

• في ١٩ من ربيع الأول سنة ٩٠٩ هـ ١٢ سبتمبر سنة ١٥٠٢ م. صدر المرسوم الملكي الذي يحظر على الناس التصرف في أملاكهم قبل مضي عامين، كما يحظر عليه مغادرة مملكة قشتالة إلا إلى مملكتي الأراغون والبرتغال، لأنها بلاد غير إسلامية.

• في ٦ جمادى الأولى سنة ٩٢٠ هـ ١٢ مارس سنة ١٥٢٤م. صدر الأمر البابوي: بإجبارالمسلمين على اعتناق الكاثوليكية، ومن أبى ذلك فعليه الخروج من إسبانيا خلال مدة معينة أو يصبح عبدا رقيقا مدى الحياة، وفي ختام الأمر قرار بجعل كل المساجد كنائس، ورغم تنصر الكثيرون إلا أنهم لم يتركوا لحالهم ولم يسلموا من التعذيب والمطاردة.

• ففي سنة ١٥٩٩ م. الموافق ١٠٠٧ هـ صدر المرسوم الملكي باسترقاق شباب المتنصرين والكهول منهم، ومصادرة أموالهم ونفيهم إلى خارج البلاد وأخذ الأطفال وإيداعهم المعاهد الدينية المسيحية ليتلقوا تربيتهم.

• وفي ٢٢ سبتمبر سنة ١٦٠٩ م. الموافق ١٠١٨ هـ صدر المرسوم الملكي بنفي كل المتنصرين إلى بلاد البربر خلال ثلاثة أيام من تاريخ نشر القرار، وتم تقدير عدد المنفيين بعد ذلك بأكثر من مليون شخص.

وأخذ الإسبان يلفقون تهما غريبة لبقايا المسلمين وكان العقاب جاهزا ومتشابها في كل الحالات: فمن الحرق أو الجلد ومصادرة الممتلكات أو التشهير بإركاب المتهم حمارًا وقد علق على ظهره لوحة فيها اسمه وتهمته ويطاف به في أرجاء المدينة، ومن التهم التي كانت تلفق للمسلمين مثلا: كثرة الاستحمام، أو تكفين الميت في ثياب جديدة، أو ذكر النبي ﷺ أو اقتناء القرآن، أو إحراز أوراق أو كتب عربية أو إنشاد أغاني عربية أو الامتناع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر أو الوضوء والقيام إلى الصلاة أو الصيام!!!

***

الفصل الرابع

الدولة الفاطمية

كانت ظاهرة الاعتماد على اليهود والنصارى سمة من سمات خلفاء الدولة الفاطمية، فقد لمع في سماء هذه الدولة منصور بن مقشر النصراني، صاحب الكلمة السامية في قصر العزيز، وعيسى بن نسطورس الكاتب، ومنشا اليهودي الذي كان نائب العزيز في الشام، ويعقوب ابن كلس اليهودي، الذي أعطاه العزيز الفاطمي الحق في أن يدرس للناس فقه الطائفة الإسماعيلية، وكان العزيز يحبه جدًّا حتى أنه قال له يوما:

«وددت أنك تباع فأبتاعك بملكي» ولم يدرك العزيز أن ملكه كان قد بيع فعلاً بهذه السياسة التي جعلت عهد الفاطميين في مصر عهد شدة وتناطح وبؤس.

الدولة الفاطمية العبيدية (بنى عبيد)

(٢٩٧ إلى ٥٦٧) هـ

سلكت مسلك العباسيين عند تأسيس دولتهم فمهدت بالدعوة إلى الفكرة في مصر والمغرب واليمن، وأصبح لها أتباع وأنصار بكل من هذه البلاد، بل استطاعوا أن يستميلوا وزراء العهد الأخير للأغالبة، وكان داعي دعاتها في المرحلة الأخيرة قبل قيام دولتهم أبو عبد الله على بن حوشب الشيعي ، فعمل على نشر الدعوة للفاطميين في بلاد المغرب منذ سنة ٢٨٠ هـ ثم شمال إفريقية سنة ٢٨٩ هـ.

استطاع أبو عبد الله أن يحشد جيشًا من أتباعه ويواجه دولة الأغالبة في حروب امتدت حوالي خمس سنوات حتى سنة ٢٩٦، والتي استطاع فيها أن يقضي تمامًا على دولة الأغالبة، وامتد نفوذ الفاطميين في ذلك الوقت إلى أكثر أجزاء بلاد المغرب حتى أصبحوا أصحاب السلطان المطلق في جميع الجهات الواقعة غرب مدينة القيروان.

أثناء هذه الحروب أرسل أبو عبد الله إلى عبيد الله [(١)] يدعوه للقدوم إلى بلاد المغرب، وبالفعل عزم عبيد الله على الرحيل إلى المغرب، ولكنه احتاط واستخفي ومر في طريقه بمصر فرحب به أتباعه ودعاته بمصر، وصادف بعد ذلك بعض المتاعب، حتى وصل إلى سجلماسة بالمغرب الأقصى وكان يعيش بها آمنًا بسبب إغداقه المال على واليها اليسع ابن مدرار، غير أن معاملة الوالي

(١) عبيد الله مؤسس الدولة الفاطمية، اختلف العلماء في نسبه فمن قائل: إنه من نسل على بن أبى طالب، والجمهور على أنه دعي يهودي الأصل، والبعض ينسبه إلى القرامطة وهى فرقة باطنية شكلت خطراً على الأمة الإسلامية فترة من الزمان. والذين ينسبونه إلى آل البيت يذكرون نسبه كالتالي: عبيد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن على بن الحسن بن على بن أبى طالب.

تبدلت بعد انتصار أبى عبد الله الشيعي على الأغالبة سنة ٢٩٦، فقبض على عبيد الله وزجه وأتباعه في السجن، فلما امتد نفوذ أبي عبد الله ووصل إلى سجلماسة فر واليها، فأطلق سراح عبيد الله من سجنه في سجلماسة وأُخذت لعبيد الله البيعة ثم سار في جيش كبير من الجند حتى وصل رقادة (عاصمة الأغالبة سابقًا) فتلقاه أهلها بالترحاب واتخذها عاصمة له، وأمر بذكر اسمه في الخطبة على منابر البلاد وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين، وبذلك قامت الخلافة الفاطمية في شمال إفريقية.

معاناة عبيد الله من القلاقل والاضطرابات المتتالية ببلاد المغرب:

ولأن أبا عبد الله الشيعي هو صاحب الفضل الأول في التمكين لعبيد الله فقد علت مكانته بين أهالي بلاد المغرب وقبيلة كتامة (إحدى القبائل البربرية التي ساعدت عبيد الله مساعدة عظيمة). ومن ثم حنق عليه عبيد الله وخشي أن يضعف نفوذه، فأمر بقتل كل من أبى عبد الله وأخيه العباس فى جمادى الآخرة سنة ٢٩٨، فثار أهالي المغرب عليه خاصة الكتاميون ولكنه استطاع أن يخمد هذه الثورة.

ازدادت طموحات عبيد الله في إخضاع المغرب كله له واستطاع القضاء على نفوذ الأدارسة سنة **٣١٢** هـ على يد موسى بن أبى العافية، الذي بدوره أخذ نفوذه في الازدياد حتى خلع طاعة الفاطميين، ودخل في طاعة عبد الرحمن الناصر الأموي بالأندلس، فأرسل عبيد الله ابنه وولي عهده أبا القاسم القائم سنة ٣١٥ إلى موسى، واستطاع أن يعيد للفاطميين نفوذهم..

وأقام عبيد الله مدينة المهدية واتخذها عاصمة لدولته، وكان البحر يحيط بها من ثلاث جهات وبني بها دارا للصناعة تسع اكثر من مائتي مركب ثم بنى بجوارها مدينة زويلة.

وفى سنة ٣١٦ ثار أبو يزيد مخلد بن كيداد، وامتدت ثورته إلى زمن القائم

الذي تولى بعد وفاة أبيه عبيد الله، وأبو يزيد هذا نشأ في مدينة تورز وتعلم القرآن واعتنق فكر الخوارج الصفرية، وعادي الشيعة واجتمع إليه سائر الخوارج، وبعض قبائل البربر وبايعوه سنة ٣٣١ هـ على قتال الشيعة، وكان البربر يرون أنهم فتحوا الأندلس وبذلوا جهدهم لتولية الفاطميين الخلافة دون أن ينالوا شيئًا، لذلك تزعم أبو يزيد ثورة هؤلاء البربر ليستعيد سلطانهم..

كان أبو القاسم القائم شرًا من أبيه، زنديقًا ملعونًا، أظهر سب الأنبياء، وكان مناديه ينادي: العنوا الغار وما حوي، وقتل خلقًا من العلماء، مات عام ٣٣٤.

أرهق أبو يزيد الفاطميين حتى قضوا على ثورته سنة ٣٣٦ هـ ولكن نفوذ الفاطميين تضاءل في بلاد المغرب وساءت حال البلاد في شمال إفريقية من جراء تلك الثورات.

وتولى أمر الخلافة الفاطمية بعد القائم إسماعيل أبو طاهر المنصور سنة ٣٣٤هـ:

وفي سنة ٣٣٧ أسس المنصور مدينة المنصوريةواتخذها حاضرة له ولها خمسة أبواب الباب القبلي والباب الشرقي وباب زويلة وباب كتامة وباب الفتوح. وكانت جيوش الفاطميين تخرج من باب الفتوح. وازدهرت بها التجارة..

ثم جاء المعز بن المنصورفعمل على توطيد نفوذه في بلاد المغرب فعهد إلى جوهر الصقليبإخضاع الأمراء الثائرين في نواحي البلاد ونجح في إقامة الدعوة للفاطميين على جميع منابر المغرب عدا سبتة وطنجة.

والحقيقة أنه رغم الجهد الكبير الذي بذله خلفاء هذه الدولة لتحقيق الاستقرار لهم في بلاد المغرب إلا أنهم لم يفلحوا في ذلك فكلما أخمدت ثورة ظهرت أخرى.

محاولات الفاطميين لفتح مصر:

ولذا كانت عيون الفاطميين على مصر وقد حاول فتحها عبيد الله المهدي مرارًا

منذ سنة ٣٠١ حيث وجه إليها جيشًا بقيادته، وحال النيل دون تقدمه شرقًا والوصول إلى الفسطاط، فعاد إلى الإسكندرية ولكن الجيش انهزم على يد جيش الخليفة العباسي المقتدر بعد معارك دارت بينهم في برقة، وعاد الجيش إلى المغرب.

وفى سنة ٣٠٦ وجه عبيد الله جيشا بقيادة ابنه أبى القاسم فاستولى على الإسكندرية ثم سار إلى الجيزة، وتوغل الفاطميون في بلاد الوجه القبلي لكن مؤنس الخادم استطاع أن يقهر هذه الحملة وأحرق سفن الفاطميين..

وفى سنة ٣٢١ أرسل جيشًا بقيادة جيش حبش بن أحمد المغربي ولكن هزم في سنة ٣٢٢ على يد محمد بن طغج الإخشيدي كانت هاتان الحملتان بالتنسيق مع ابن طاهر الجنابي أمير القرامطة ببلاد البحرين.

وفى سنة ٣٢٣ أرسل أبو القاسم الخليفة الثاني الفاطمي جيوشه إلى مصر فدخلت الإسكندرية بسهولة ووجدت مناصرة من بعض زعماء المصريين مما يدل على انتشار الدعوة الفاطمية بمصر، ولكن الفاطميين هُزِموا على يد الإخشيديين. وبقيت العلاقات بعد ذلك بين حكام مصر والفاطميين يشوبها التربص والحيل.

في سنة ٣٣٤ هـ حرص كافور الذي كان وقتذاك يحكم مصر (وكان يقوم بالوصاية على أنوجور بن الإخشيد) على تحسين العلاقة مع الخليفة العباسي وكذلك مع الخليفة الفاطمي، فكان يهادي صاحب المغرب ويظهر ميله إليه، وكذا يذعن بالطاعة لبني العباس، ويداري ويخدع هؤلاء وهؤلاء، وفي هذه الآونة وجه الخليفة الفاطمي المعز اهتمامه لتوسيع دائرة الدعوة الفاطمية في مصر، حتى استطاعوا أن يأخذوا البيعة للمعز من رجال بلاد كافور وكبار موظفي دولته، كما أنه عمل على إنشاء الطرق وحفر الآبار في الطريق إلى مصر سنة ٣٥٦ هـ.

وفى سنة ٣٥٧ مات كافور فاضطربت الأحوال بمصر وتردت الحالة

الاقتصادية بها، وحل الوباء والقحط بالبلاد من جراء انخفاض النيل، وعجزت الحكومة عن دفع رواتب الجند، مما حمل كثيرًا من أولي الرأي بمصر على الكتابة إلى المعز لدين الله يطلبون منه القدوم إلى مصر..

وفى ١٤من ربيع ثاني سنة ٣٥٨ هـ سار جوهر الصقلي على رأس جيش للفاطميين قوامه مائة ألف فارس، فدخل الإسكندرية بغير مقاومة ولما وردت إلى الفسطاط أخبار وصول جوهر إلى الإسكندرية، رأي الوزير المصري جعفر بن الفرات ومن معه أن يفاوضوا جوهر على شروط التسليم وطلب الأمان على أرواح المصريين، فالتقوا به عند تروجة (إحدى قري مركز أبي المطامير بمحافظة البحيرة) في ١٨من رجب سنة ٣٥٨ فأمّنهم جوهر على أموالهم وأنه ما جاء إلا للإصلاح كما نص في كتاب الأمان، على أن يظل المصريون على مذهبهم السني ولا يلزمون بالتحول إلى المذهب الشيعي..

بيد أن طائفة كبيرة من الجند المصريين رفضوا هذا العقد، ودخلوا في معركة حربية مع جوهر الصقلي ولكنهم استسلموا في النهاية وطلبوا إعادة الأمان.

بناء القاهرة والجامع الأزهر:

وبدأ عهد جديد لمصر في ظل الحكم الفاطمي ووضع الأساس لبناء مدينة المنصورية (القاهرة) في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ شمالي الفسطاط وأسس القصر الذي سينزل به المعز وعرف باسم القصر الشرقي الكبير.

ظلت القاهرة تعرف بالمنصورية أربع سنوات، ثم سماها المعز القاهرة تفاؤلا بأنها ستقهر الدولة العباسية، وجعل جوهر بسور القاهرة أربعة أبواب؛ باب النصر، باب الفتوح، باب زويلة، وباب القوس، ثم بدأ بناء الجامع الأزهر سنة ٣٥٩ وتم بناؤه في سنتين، وذلك ليكون خاصا بشعائر المذهب الفاطمي، خشية إثارة المصريين إذا ظهرت هذه الشعائر في مساجدهم.. وأقيمت الصلاة

في الجامع الأزهر لأول مرة ٧من رمضان سنة ٣٦١هـ، وتحولت الدعوة على المنابر إلى الخليفة المعز، وضرب السكة باسم الخليفة الفاطمي بدلاً من اسم الخليفة العباسي، كذلك منع جوهر الناس من لبس السواد شعار العباسيين، وزيد في الخطبة على عادة الشيعة.. (اللهم صل على محمد النبي المصطفى، وعلى علي المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيرًا، اللهم صل على الأئمة الراشدين، آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين).

لم يف الفاطميون بتعهداتهم بعدم إجبار المصريين على تغيير مذهبهم السني إلى مذهب الشيعة..

- فأسندت المناصب العليا وخاصة القضاء إلى الشيعيين.
- واتخذت المساجد الكبيرة مركز دعاية للمذهب الشيعي.
- وتم إضافة منصب جديد يقوم على تعيين أحد كبار المتفقهين في مذهب الشيعة للقيام بنشر دعوتهم، وكان يعرف بداعي الدعاة، وكانت منزلته تلي قاضي القضاة ويعاونه اثنا عشر نقيبًا، ونواب في سائر البلاد، وكثيرًا ما تقلد رجل واحد منصبي قاضي القضاة والدعوة.

وحولوا الشعائر إلى المذهب الشيعي واحتفلوا بعيد الغدير(١) ويوم مقتل الحسين وتضرر المصريون من ذلك كثيرًا.

- وفي سنة ٣٩٥ أمر الحاكم بأمر الله بنقش سب الصحابة على الجدران وفي الأسواق. ثم تراجع عن ذلك سنة ٣٩٨.
- وظهر الاحتفال بمولد النبي ﷺ ومولد ابنته فاطمة وعليّ.

(١) سيأتي بيانه في الملحق الخاص بأشهر الفرق التي ظهرت في تاريخ الإسلام.

▪وأذن في جميع المساجد بـ (حي على العمل) فمهد بذلك جوهر للخليفة المعز المجيء إلى مصر، فدخل المعز مصر في شعبان سنة ٣٦٢ هـ.

ولما دخل قصره الذي أعد له خر لله ساجدا.. وقدمت إليه الهدايا العظيمة الثمينة واتخذت القاهرة عاصمة للدولة الفاطمية.

أضعف ذلك نفوذ الفاطميين في بلاد المغرب، واستقلت بلاد عن نفوذ الفاطميين بالمغرب..

استأثر المعز بالنفوذ والسلطان في مصر ولم يشأ أن يترك لجوهر من السلطة شيئًا لئلا ينازعه ملكه وبالتدريج فقد جوهر ما كان يتمتع به من نفوذ..

من الأمور البارزة في عهد الفاطميين أنهم قربوا إليهم أهل الكتاب من النصارى واليهود!!

▪ففي زمن المعز استعان بكثير من الأطباء اليهود، وترقي بعضهم في المناصب، حتى صار أحدهم وهو يعقوب بن كلس وزيرًا للعزيز بن المعز، وإليه يرجع الفضل في وضع قواعد الدولة ونظمها.

▪وتزوج العزيز من مسيحية، أصبح لها نفوذ عظيم على العزيز، فقد حملته على العطف على بني ملتها فاحتفل بأعيادهم ومواسمهم الدينية. وأصبح بدواوين الدولة عدد كبير من كتابهم، واستأثروا بمعظم السلطات..

▪عين العزيز منشا بن إبراهيم الفرار اليهودي واليًا على بلاد الشام.

▪في سنة ٣٩٣ أمر الحاكم بأمر الله أن يرتدي أهل الذمة أزياء خاصة، وبعدها بثلاث سنوات أمر بهدم بعض الكنائس في القاهرة، ومن العجيب أنه في ذات الوقت قلد الوزارة منصور بن عبدون النصراني، الذي أشار على الخليفة الفاطمي الحاكم بهدم كنيسة القيامة أو القبر المقدس، فأصدر مرسومًا بهدمها. وكان لهدم هذه الكنيسة الأثر الأكبر في

إثارة حمية الصليبيين للاستيلاء على بيت المقدس.

- واستمر هذا الاضطهاد حتى اضطر كثير من كتاب النصارى أن يدخلوا في الإسلام، وهاجر بعضهم إلى بلاد الدولة الرومانية الشرقية والحبشة والنوبة.

- وفى سنة ٤١١ قرر الحاكم أن يرفع عنهم هذا الاضطهاد، ثم جاء الظاهر فعطف على أهل الذمة..

- وفي أوائل عهد المستنصر بالله الفاطمي ارتفع شأن أبي سعد إبراهيم ابن سهل التستري اليهودي، لأن والدة ذلك الخليفة كانت من قَبْل أَمَة في بيته، فلما ولي ابنها المستنصر الخلافة قربت التستري وولته ديوانها، وتحيز التستري لليهود، فتقلدوا في أيامه كثيرًا من مناصب الدولة ولكنه قتل سنة ٤٣٩ هـ.

ظهور فرقة الدرزية:

- وفي عهد الحاكم وفي سنوات حكمه الأخيرة جاء إلى مصر بعض الفرس، والذين راقتهم الدعوة الإسماعيلية فاعتنقوها، وزادوا فيها فكرة تأليه الحاكم، ودعوا إليها فسخط عليهم أهل السنة وطاردوهم وكان أشهرهم والمقرب إلى الحاكم بأمر الله محمد بن إسماعيل الدرزى، وقد هرب إلى بعض قري بانياس (بلدة صغيرة غربي دمشق) حيث أخذ ينشر دعوة تأليه الحاكم، فاستمال إليه كثيرًا من الأنصار الذي أصبحوا يعرفون باسم الدرزية.

وجد الخليفة الحاكم بأمر الله في هذه الدعوة فرصة ليحيط نفسه بسياج من التقديس رغبة منه في جعل رعاياه طوع إرادته..

- ثم جاء الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله بعد مضي ثلاث سنوات على وفاة الحاكم، ليعلن براءته من دعوى الألوهية التي قيلت في أبيه.

وفي عهد المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧) وقعت اضطرابات عظيمة في البلاد:

- فالجند السودانيون يثيرون الاضطرابات في الوجه القبلي.
- ونحوًا من أربعين ألف فارس من قبيلة لواتة والأعراب، تحت زعامة ناصر الدولة الحسين بن حمدان التغلبي (المتمرد على الخلافة الفاطمية)، يغيرون على الوجه البحري وينهبون بلاده ويحطمون الجسور والقنوات، مما ترتب عليه انقطاع المئونه عن القاهرة والفسطاط.
- وفى سنة ٤٦٢ بعث ناصر الدولة إلى ألب أرسلان سلطان السلاجقة بالعراق رسولاً من قبله يسأله أن يرسل إليه عسكرًا ليقيم الدعوة العباسية بمصر على أن تؤول إليه السيادة على مصر، فرحب أرسلان بذلك ولكنه انشغل بمحاربة الروم عن مصر.
- وفى سنة ٤٦٤ قطع ابن حمدان اسم المستنصر من الخطبة في الوجه البحري، وبعث إلى الخليفة القائم العباسي ببغداد يلتمس الخلع، ثم قدم إلى الفسطاط وتولي الحكم في القاهرة، وأطلق للخليفة مائة دينار كل شهر وخشي الأتراك على أنفسهم من جراء استبداد ناصر الدولة بالأمور في القاهرة، فدبروا لقتله فقتل وتتبعوا كل أفراد أسرته بمصر وتخلصوا منهم.

ثم تسلطت الأتراك واستبدوا بالأمور دون المستنصر سنة ٤٦٦، فبعث إلى بدر الجمالي والي عكا يطلب منه القدوم ليتولى تدبير شئون الدولة، فاشترط أن يحضر معه من يختاره من عسكر الشام (أرمن)، ليستعيض بهم عن الجند الأتراك والمغاربة والسودانيين الموجودين بمصر.

وبدر الجمالي كان مملوكًا أرمينيًا للأمير جمال الدولة بن عمار، ثم أخذ يترقي في المناصب لما أظهره من كفاية في الحروب التي قامت ببلاد الشام، حتى ولي إمارة دمشق من قبل المستنصر سنة ٤٥٦ وحارب الأتراك في تلك البلاد ثم

تقلد نيابة عكا سنة ٤٦٠ هـ.

بدأ الجمالي بقتل رءوس الأتراك فاستتب له الأمن، وكان من جنده من احتفظ بمسيحيته، واستطاع الجمالي أن يعيد نفوذ الخليفة على جميع بلاد الوجه القبلي حتى أسوان وكذلك الوجه البحري، وبني جامع العطارين وأعاد الرخاء فزاد خراج مصر في سنة (٤٥٧ –٤٦٤) من ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار إلى ٣,١٠٠,٠٠٠ دينار، وتوفي الجمالي سنة ٤٨٧ وعهد لابنه الأفضل شاهنشاه.

وظل المستنصر في عهد وزرائه كالمحجور عليه إلى أن توفي في ١٧من ذي الحجة سنة ٤٨٧ هـ، ومع وفاة المستنصر بدأ العصر الفاطمي الثاني حيث زادت سلطة الوزراء..

العصر الفاطمي الثاني - عصر نفوذ الوزراء

وابتدأ هذا الطور بالنزاع بين أبناء المستنصر نزار الابن الأكبر وولي العهد من قبل أبيه، و أحمد أبو القاسم صغير السن الذي فرضه الأفضل بدر الجمالي ليكون الخليفة رغم أنف نزار.

وكان في هذه الآونة بمصر الحسن بن الصباح القائم على الدعوة الإسماعيلية بأصبهان، جاء يتعمق في دراسة المذهب الإسماعيلي.. فلما رأي هذه الأحداث، وكان الحسن يري أن تولية نزار الإمامة بعد أبيه تتفق مع تعاليم الإسماعيلية، التي تشترط أن يكون الإمام أكبر أبناء أبيه، وأظهر الحسن رأيه بمصر، وهدد نفوذ بدر الجمالي، فكاد له بدر وزجه بالسجن ونفاه إلى بلاد المغرب، غير أن الريح قذفت بالسفينة التي أبحر عليها سنة ٤٧٢ هـ إلى سواحل الشام، فنزل بثغر عكا ثم عاد إلى بلاده حيث أخذ ينادي بإمامة المستنصر وابنه نزار، من بعده ولذلك سميت هذه الطائفة الإسماعيلية النزارية

سيطر الوزراء في هذا الطور على مقاليد الحكم، وبلغ من نفوذ الأفضل أنه بعد وفاة المستعلي سنة ٤٩٥هـ أتى بأبي على بن المستعلي، وأقامه على الخلافة وعمره خمس سنوات، ولقبه بالآمر فلما شب هذا الخليفة الصغير ضاق ذرعًا بنفوذ وزيره فدبر لقتله فقتله سنة ٥١٥ هـ.

وفى سنة ٥٢٤هـ قُتِل الخليفة وتولي أخوه عبد المجيد أبو الميمون الحافظ الخلافة من بعده، ولكن الجند ثاروا عليه وولوا أبا على أحمد بن الأفضل الوزارة، فاستأثر بالسلطة والنفوذ وسجن الحافظ- وكان إماميًا لا إسماعيليًا- فعمل على الانتصار لهم وعلى إضعاف المذهب الإسماعيلي بأن عين أربعة قضاه؛ أحدهما إمامي والآخر إسماعيلي والثالث شافعي والرابع مالكي، وأعطي كلاً منهم السلطة في إصدار أحكامه وفق مذهبه (ولم يسمع بمثل هذا في الملة الإسلامية قبل ذلك).

ومكث على ذلك حتى اغتالته الإسماعيلية سنة ٥٢٦هـ وأخرجوا الحافظ من سجنه وعاد خليفة من جديد.

وفي سنة ٥٢٩هـ طمع بهرام الأرمني والي الغربية في الوزارة، فقدم إلى القاهرة وحاصرها يومًا فاضطر الحافظ إلى توليته الوزارة على الرغم من عدم دخوله الإسلام، وعاني المصريون فترة من سيطرة الأرمن وتحيز بهرام لبني جنسه، حتى أنهم أكثروا من بناء الكنائس والأديرة حتى صار لكل رئيس منهم كنيسة بجوار داره.. حتى استطاع رضوان بن ولخشي والي الغربية أن يطرد بهرام وأصبح وزيرًا سنة ٥٣٠ هـ، ولكنه أراد أن يعزل الحافظ ودار بينهما صراع انتهي بمقتل رضوان سنة ٤٥٢هـ.

وهكذا ظل النزاع والتنافس على الوزارة بين الوزراء والخلفاء جيلاً بعد جيل، وتدخل الوزراء في تولية الخلفاء، ولم يراعوا في توليتهم تعاليم الإسماعيلية.

تطور التنافس على الوزارة في مصر في نهاية العصر الفاطمي إلى استعانة بعض الطامعين فيها بأمراء الدول المجاورة، فلقد لجأ شاور وزير الدولة المخلوع على يد أحد قواد الجيش ضرغام سنة ٥٥٨ إلى الالتجاء لنور الدين محمود، صاحب دمشق، ليمده بقوة يستعين بها على استعادة نفوذه، على أن يتنازل له عن ثلث خراج مصر فأعانه نور الدين بحملة بقيادة أسد الدين شيركوه فتغلب على ضرغام وأعيد شاور إلى منصبه سنة ٥٥٩ هـ، ولم يف شاور بما عاهد عليه حليفه نور الدين، وطلب من شيركوه أن يرجع إلى الشام وأرسل شاور إلى ملك الفرنجة ببيت المقدس يستمده ويخوفه من نور الدين إن ملك الديار المصرية، فسارع الملك إلى نجدته ونجح في إخراج شيركوه إلى بلاد الشام.

وفى سنة ٥٦٢ أنفذ نور الدين حملة إلى مصر بقيادة شيركوه، لما ثبت له غدر شاور به، وكان صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب من بين الذين اشتركوا في هذه الحملة.

استنجد شاور ثانية بالفرنجة فأجابوه والتقى جند شيركوه وجند الفرنجة وحلفاؤهم في مكان يعرف بالبابين (على مقربة من المنيا)، وكان النصر من نصيب شيركوه ولم يجد نفسه قادرًا على السير إلى القاهره فوطد سلطانه بالصعيد وجبى الخراج، ثم سار إلى الإسكندرية عبر الصحراء وعين ابن أخيه صلاح الدين واليًا عليها، ولكن قوات الفرنجة والمصريين عادت إلى محاصرة الإسكندرية برًا وبحرا فأسرع شيركوه إلى نصرة صلاح الدين. فطلب المصريون والفرنجة الصلح فأجابهم على ألا يقيم الفرنجة بالبلاد المصرية، ثم عاد شيركوه إلى دمشق والحقيقة أن قوات الفرنجة لم تغادر مصر تنفيذًا لهذا الصلح، بل عقدت مع شاور معاهدة كان من أهم شروطها.. (أن يكون لهم بالقاهرة شحنة صليبية، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين عن إنفاذ عسكره إليهم).

كما اتفق الطرفان على أن يكون للصليبيين مائة ألف دينار سنويا من دخل مصر..

أطمع الحال التي وصلت إليها مصر الفرنجة في أن يقدموا بحملة سنة ٥٦٤هـ لغزوها بقيادة ملك بيت المقدس، ولم يجد شاور أمامه سوى استعمال الحيلة، فأحرق الفسطاط حتى لا يأوي إليها الصليبيون، فظلت النار مشتعلة بها أربعة وخمسين يومًا.. ثم أرسل إلى ملك الفرنجة أنه يخشى إن دخلتم مصر أن يقدم نور الدين ليحتل مصر، وأشار عليه بالصلح على أن يؤدي إليه ألف ألف دينار..

على أن شاور ما لبث أن خدع الفرنجة، فأرسل إلى نور الدين يطلب النجدة، وتعهد أن ينزل له عن ثلث بلاد مصر،وأن يأذن لأسد الدين شيركوه بالإقامة عنده مع جنده، وأن يكون إقطاع هؤلاء الجند خارجًا عن ثلث البلاد الذي أفرده لنور الدين.

سارع نور الدين إلى تجهيز قوة كبيرة بقيادة شيركوه توجهت نحو مصر، فلما وصلت الأخبار إلى الصليبيين قرروا الرحيل إلى فلسطين بغير قتال، ثم دخل أسد الدين شيركوه القاهرة في ربيع الآخر سنة ٥٦٤ فرحب به أهلها، واستقبله الخليفة العاضد وخلع عليه، وأصبح أسد الدين شيركوه وزيرًا للعاضد، واستطاع في فترة وزارته القصيرة أن يقبض على زمام الأمر بالدولة.

وحاول شاور أن يدبر مؤامرة للقبض على شيركوه ومن معه من الأمراء، ولكن نهاه ابنه الكامل وقال: «والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفن أسد الدين».

فقال شاور: «والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعًا».

قال ابنه: «صدقت، ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكتها الإفرنج».

فعدل عن عزمه ثم تخلص منه أسد الدين بعد ذلك وقتله..

توفي أسد الدين بعد ثلاثة أشهر من دخوله القاهرة، واختار العاضد صلاح الدين يوسف بن أيوب وزيرًا له، فبذل الأموال للرعية فأحبوه، وأمر بذكر نور الدين في الخطبة بعد الخليفة الفاطمي، وأقطع أصحابه البلاد، وأسند إليهم بعض المناصب، فهدد بذلك صلاح الدين أصحاب المصالح في بقاء الدولة الفاطمية، فعملوا على المكر، به واتفق رأيهم على أن يكاتبوا الفرنجة ودعوتهم إلى مصر، فإذا ما خرج صلاح الدين إلى لقائهم، قبضوا على من بقي من أصحابه بالقاهرة وانضموا إلى الفرنجة في محاربته.

ولكن صلاح الدين كان يقظًا واستطاع أن يقضي بقوة على خطط هؤلاء، فدبر لقتل جوهر مؤتمن الخلافة، فثار الجند السودانيون، وكانوا يزيدون على خمسين ألفًا ودار بينهم وبين قوات صلاح الدين قتال عنيف، فتتبعهم صلاح الدين حتى وصلوا الصعيد حتى قضي على نفوذهم نهائيًا سنة ٥٧٢..

كانت الفرنجة تتربص بنور الدين وتوسعاته في مصر، ويرون فيه خطرًا يهدد كيانهم، ولذلك هيأوا لحملة جديدة على مصر، استعانوا فيها بإمبراطور الدولة البيزنطية، فتوجهوا إلى دمياط يعاونهم أسطول بيزنطي مزود بالمؤن والعتاد، فوصلوا إليها في صفر سنة ٥٦٥ فلم يخرج إليهم صلاح الدين بنفسه خوفًا من مؤامرات الفاطميين، بل أرسل جيشًا بقيادة أخيه تقي الدين عمر، وخالد شهاب الدين محمود لمواجهة الفرنجة وبعث يطلب المدد من نور الدين فأرسل إليه مددًا، وكان الخليفة العاضد كذلك حريصًا على إعانة صلاح الدين بالمال طوال مدة حصار الفرنجة لدمياط يقول صلاح الدين.. (ما رأيت أكرم من العاضد أرسل إلى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار سوى ما أرسله إلى من الثياب وغيرها).

فترت حماسة الصليبيين فرجعوا من حيث أتوا في ربيع الأول سنة ٥٦٥.

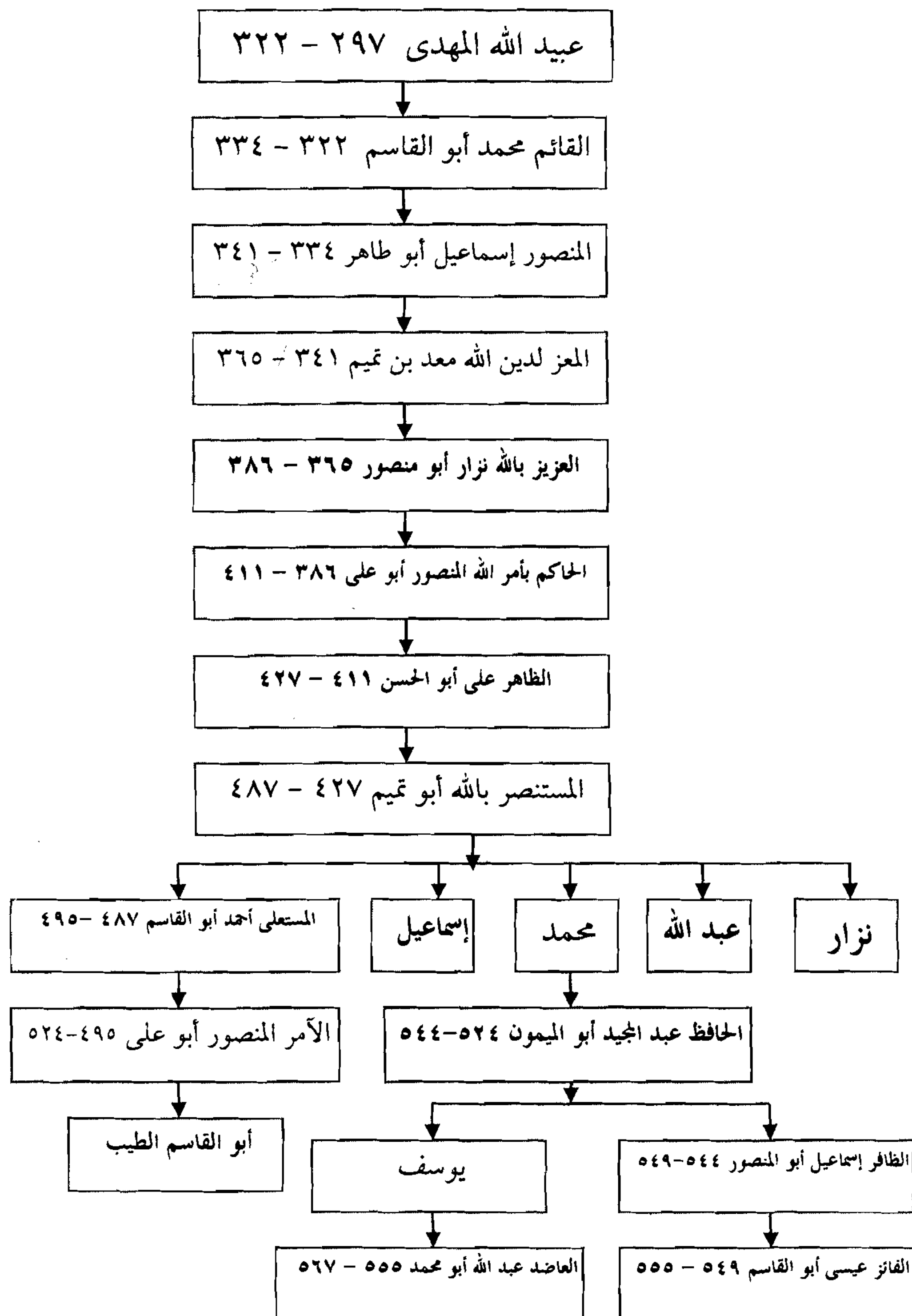
لما أيقن صلاح الدين أن سلطانه قد أستقر، وجه اهتمامه إلى القضاء على

المذهب الشيعي في مصر، فأنشأ سنة ٥٦٦ هـ مدرسة لتدريس المذهب الشافعي، وأخري لتدريس المذهب المالكي،وعزل قضاة الشيعة، وعين صدر الدين عبد الملك بن درباس قاضيًا للقضاة في جميع أنحاء البلاد المصرية، فاستعاد بذلك المذهب السني قوته.

أرسل نور الدين إلى صلاح الدين أن يجعل الخطبة باسم الخليفة العباسي محل الخليفة الفاطمي، فتردد متخوفًا من سخط المصريين، لكن نور الدين أصر فتحولت الخطبة للخليفة العباسي المستضيء بنور الله... وكان العاضد إذ ذاك مريضًا ولم يعلم أهله بذلك ثم توفي في ١٠ من محرم سنة ٥٦٧، وهكذا انتهت الدولة الفاطمية الشيعية بمصر.

* * *

وهذا مخطط خلفاء الدولة الفاطمية العبيدية



الفصل الخامس

الحـــروب الصليبيـــة

وجهاد آل زنكي وصلاح الدين ضدها

لقد واجهت الهجمة الصليبية على ديار المسلمين دولتين عظيمتين: آل زنكي والأيوبيين، وكأنهما وجدتا لتكونا عقبة في سبيل تغلب أوربا على المشرق، أو لتأخير ذلك أكثر من ستمائة سنة.

لقد كانت الدولة الأيوبية برفقها وقلة تعصبها ووفائها أستاذًا ناصحًا أرشد الصليبيين إلى حسن معاملة البشر ونبذ التعصب الوحشي الذميم ونقض العهود والغدر القبيح.

ملخص الحروب الصليبية بالمشرق ودوافعها وجهاد الأمة الإسلامية ضدها

الحملة الصليبية الأولى سنة (٤٨٩ هـ - ١٠٩٦ م)

▪ لما اختير البابا إيربان الثاني بابا لروما سنة ٤٨١ هـ، وأصبح السيد المطاع بين الشعوب النصرانية جعل يدعو الأمراء إلى القيام بحرب ضد المسلمين من أجل استرداد بيت المقدس، وإنقاذ الحجاج المسيحيين من مضايقات السلاجقه لهم.

وكان من الذين تحمسوا لهذه الدعوة بطرس الناسك، الذي عمل على جمع المتطوعين لهذه الحرب، فكان أغلبهم من السوقة وقطاع الطرق، وسار بطرس بهذا الجمع الفوضوي إلى بيت المقدس، سابقًا الجيوش النظامية فعاثوا في الأرض فسادًا وتأذى منهم كل من مروا عليه في طريقهم، حتى النصارى، واشتكى منهم إمبراطور القسطنطينية، وأحدثوا خسائر هائلة في ديار المسلمين، حتى تصدى لهم السلاجقة في نيقية فأبادوهم سنة ٤٨٩ هـ..

▪ وفي هذه الأثناء كانت الجيوش النظامية تخرج من فرنسا مرورًا بروما ثم القسطنطينية، وفيها مليون من النصارى، منهم ٣٠٠٠٠٠ مقاتل، ولم تكن لها قيادة موحدة وأغلب القيادات من أمراء فرنسا، ولم يخرج ملوك أوربا يومها لأن ملوك نصارى الأندلس كانوا مشغولين بقتال المسلمين هناك، ولأن ملك فرنسا فيليب الأول وملك ألمانيا هنري الرابع كانا مطرودين من رحمة الكنيسة.

ومن القسطنطينية توجهت هذه الجيوش إلى نيقية (عاصمة السلاجقة الرومية)، وانتهزوا غياب أميرها قلج أرسلان فحاصروها من الشمال والجنوب، فلما عاد قلج حاول دخول مدينته وقاتل الصليبيين بشراسة ولكنه لم يفلح في دخول الدينة، وسقطت نيقية ـ وأغلب سكانها مسيحيون – في أيدي الصليبيين، وضمت للإمبراطور البيزنطي وتوالى الزحف الصليبي فاستولوا على قونية

بسهولة، لأن قلج كان قد أخلاها من سكانها، ثم اتجهوا إلى هرقلة...ثم قليقية وقيصرية، ثم اتجهوا إلى مرعش فاستولوا عليها، ومنها اتجهوا إلى الشام فوصلوا إلى جسر الحديد على نهر العاصي شرقي إنطاكية.

وبذلك استطاعت الحملة الصليبية الأولى أن تهزم سلاجقة الروم، وأن تستولي على أملاكهم وأن تؤسس إمارات وممالك مثل إمارتي أرمينية والرها.

واستطاعت هذه الحملة أن تستولي على إنطاكية من سلاجقة فارس، وأن تؤسس فيها إمارات صليبية، كما استولت على اللاذقية بعد عناء شديد من سلاجقة الشام.

▪ قام الصليبيون -لكي يؤمنوا موقفهم في إنطاكية- بعقد اتفاق مع الفاطميين، على أن يكون شمال الشام للصليبيين بينما تكون فلسطين للفاطميين، وقد وافق الفاطميون على ذلك وهم يرونها فرصة للقضاء على نفوذ السلاجقة المسلمين في الشام.

واتخذ الصليبيون طريقهم نحو بيت المقدس وتغلبوا على كل محاولة لصدهم عن ذلك، ولم يراع الصليبيون عهودهم للفاطميين، ووصلوا إلى أبواب بيت المقدس، وعاونهم والي عكا وأهل بيروت.. وبعد حصار دام واحدًا وأربعين يومًا سقطت المدينة في أيدي الصليبين، ولم يكن أمام جند الفاطميين إلا الاحتماء بالمسجد، فتبعهم الصليبيون داخل المسجد وأحدثوا فيهم مذبحة عظيمة وأصبحت البلد مخاضة واسعة من دماء المسلمين.

واستطاع الصليبيون بذلك أن يستولوا على بيت المقدس وبيت لحم والخليل والرملة ورام الله ويافا ونابلس وبيسان وطبرية والناصرية، وبقيت عسقلان وغيرها من القرى في أيدي المسلمين.

وصف أحد المؤرخين الحال يومها قائلاً: (ويمكن تشبيه المراكز الصليبية في

الشام عندئذ بالجزر المتناثرة وسط محيط واسع من الأعداء، الذين ظلوا يتحينون الفرصة المناسبة للانتقام واسترداد حقوقهم المسلوبة).

ومما ينبغي أن يذكر أنه على الرغم من نجاح الصليبيين في احتلال بيت المقدس إلا أنهم فقدوا عددًا كبيرًا من مقاتليهم فبعد أن كان في الجيش ثلاثمائة ألف مقاتل إذا به يوم دخوله بيت المقدس لا يزيد عن أربعين ألفًا!! ومهما بالغنا بعد المقاتلين الصليبيين الذين ساروا إلى الرها فإن عددهم لا يزيد على أربعين ألفًا، وبذا يكون عدد من بقي من الصليبيين الذين جاءوا في الحملة الأولي ما يقرب من ثمانين ألفًا، ويكونوا قد فقدوا مائتين وعشرين ألفًا، قتلوا في المعارك، مما يدل على شراسة المعارك التي خاضوها. وقتلوا على أيدي الناس الذين كانوا يثورون على تصرف هؤلاء القادمين، يثورون على كره، ورغم معرفتهم بمصيرهم، يثورون لأن تصرف الصليبيين كان على درجه من السوء والوقاحة والقباحة ما يثير أية نفس مهما بلغ بها الذل والخوف.

فماذا كان يحدث لو كانت القوى الإسلامية كلها يدًا واحدة في وجه الصليبيين؟؟

- وتشكلت للصليبيين أربع إمارات بعد هذه الحملة: [الرها، طرابلس، بيت المقدس، إنطاكية].

بين الحملة الصليبية الأولى والثانية:

لم يمض على احتلال بيت المقدس من قبل الصليبيين عام، حتى واجهوا متاعب من كل القوى الإسلامية المحيطة بهم.. فعاش الصليبيون حوالي نصف قرن من الزمان يعانون من الحروب التي يشنها عليهم المسلمون في كل عام تقريبًا، فأرهقوهم وكبدوهم خسائر هائلة في الأرواح والأموال..كما أن الفاطميين الذين كانوا حلفاء للصليبيين ضد السلاجقة تكشفت لهم طبيعة الخيانة عند الصليبيين وعدم احترامهم لعهودهم فكان لهم دور في الهجمات على الصليبيين..

ظهور آل زنكي

وكان لظهور شخصية عماد الدين زنكي وأبنائه من بعده في سنه ٥٢١ هـ. أثر كبير في تاريخ الحروب الصليبية..

يقول ابن الأثير: «ولولا أن الله تعالى منَّ على المسلمين بولاية الشهيد عماد الدين زنكي لكان الفرنج قد استولوا على الشام جميعه».

عين زنكي أتابك الموصل من قبل السلطان السلجوقى محمود ليقوم بحفظها وإصلاح شأنها، فأظهر زنكي في ولايته كفاية وقوة وصلاحًا، وكان له في جهاد الصليبيين همة لا تزال تذكر له..فكان لا ينقضي عام حتى يستولي على جزء مما احتلته الفرنجة...بالرغم من المخاطر الداخلية التي كانت تتهدد ملكه وبلاده، تارة من قبل الخليفة المسترشد بالله الذي حاول أن يقف أمام نفوذ السلاجقة، وتارة بسبب الصراع بين أبناء البيت السلجوقى...

يروى ابن كثير ما يصور لنا الأحوال الداخلية للأمة الإسلامية في هذا الوقت:

وفي سنة ٥٢١ هـ استهلت هذه السنة والخليفة والسلطان محمود متحاربان، والخليفة في السرادق في الجانب الغربي، فلما كان يوم الأربعاء رابع المحرم توصل جماعة من جند السلطان إلى دار الخلافة، فحصل فيها ألف مقاتل عليهم السلاح فنهبوا الأموال، وخرج الجواري وهن حاسرات يستغثن.. فلما وقع ذلك ركب الخليفة في جيشه، وجيء بالسفن وانقلبت بغداد بالصراخ، حتى كأن الدنيا قد زلزلت، وثارت العامة مع جيش الخليفة فكسروا جيش السلطان، وقتلوا خلقًا من الأمراء، وأسروا آخرين ومرت فوضى عظيمة جدًا، ونالت العامة من السلطان وجعلوا يقولون له: «يا باطني تترك الفرنج والروم وتقاتل الخليفة...»، حتى كان يوم عاشوراء تماثل الحال وطلب السلطان من الخليفة الأمان والصلح...».

«ففي سنة ٥٢٣ هـ حاصرت الفرنج مدينة دمشق فخرج إليهم أهلها فقاتلوهم قتالاً شديدًا وبعث أهل دمشق عبد الله الواعظ ومعه جماعة من التجار يستغيثون بالخليفة، وهموا بكسر منبر الجامع، حتى وعدهم الخليفة بأنه سيكتب إلى السلطان ليبعث لهم جيشا يقاتلون الفرنج فسكنت الأمور، فلم يبعث لهم جيشًا حتى نصرهم الله من عنده، فإن المسلمين هزموهم وقتلوا منهم عشرة آلاف».

وفى سنه ٥٣٩ هـ حاصر عماد الدين الرها واستطاع أن يستعيدها من الصليبيين بعد أن احتلوها قرابة نصف قرن، فلما دخلها عامل المسيحيين بها معاملة كريمة جعلتهم يشعرون بعدالة زنكي وإنصافه...

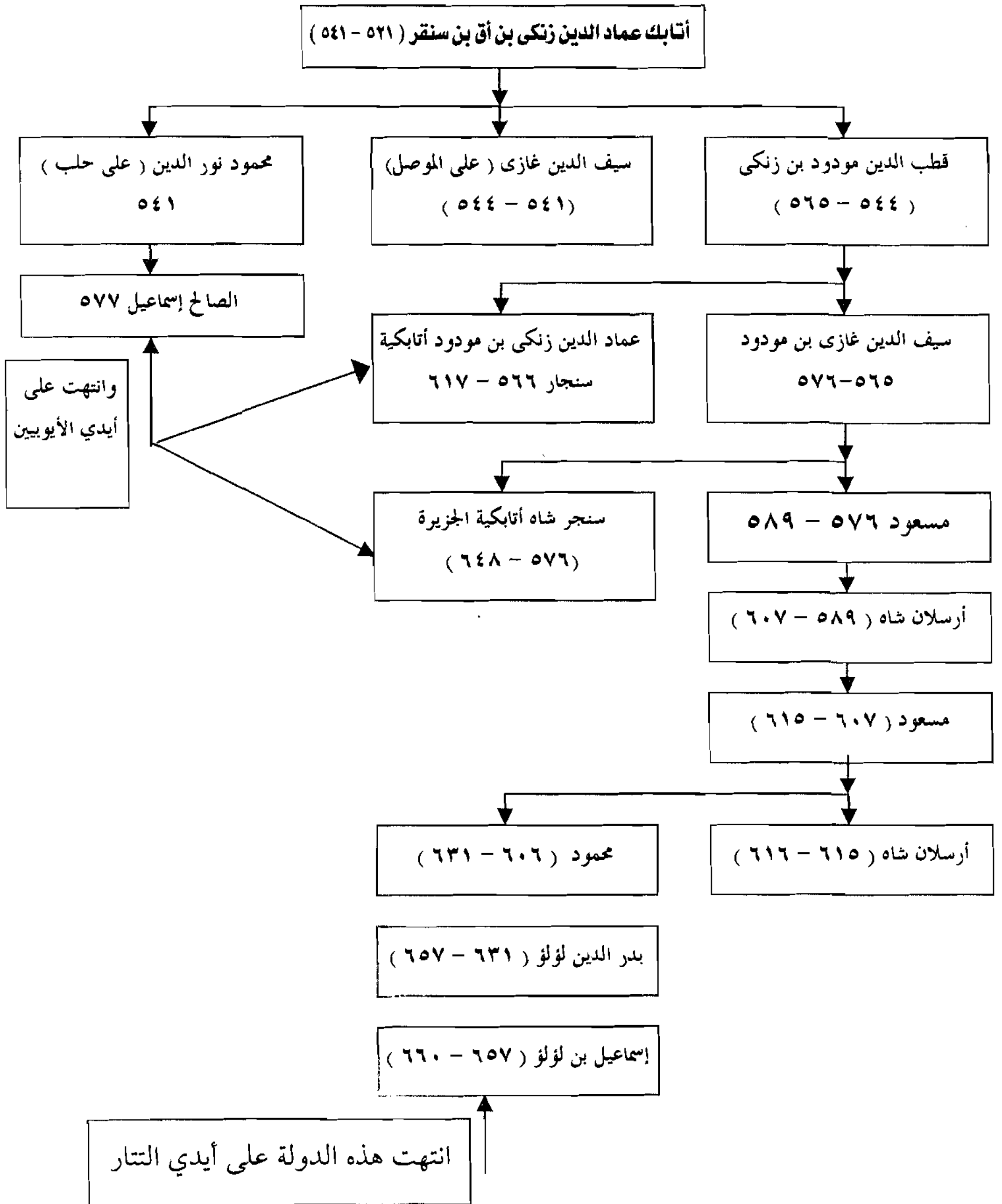
ثم قُتل زنكي على يد جماعة من الباطنية وهو محاصِر لحصن جعبر (يطل على الفرات) وأصابع الاتهام تشير إلى الباطنية أصحاب اليد الطولى في اغتيال العناصر الإسلامية المجاهدة منذ القرن الثالث الهجري.

ويصف ابن الأثير عماد الدين زنكي فيقول: كان شديد الهيبة على عسكره ورعيته، عظيم السياسة، لا يقدر القوى على ظلم الضعيف، وكانت البلاد قبل أن يملكها خرابًا من الظلم وتنقل الولاة ومجاورة الفرنج فعمروها وامتلأت أهلاً وسكانًا، وكان أيضًا شديد الغيرة على نساء الأجناد، وكان أشجع خلق الله..

و هذا مخطط أتابكية[1] آل زنكي ٥٢١ - ٦٦٠

---

(١) الأتابكة من الدول التركية التي زاحمت دولة السلاجقة وسامتها، والدولة الأتابكية وبيوتها شتى لا تنتهي إلى نسب واحد إلا أنها يجمعها الاتصال بالبيت السلجوقي، وأتابك كلمة تركية معناها مربي الملك، فكان آل سلجوقي إذا امتاز أحد قوادهم بهذا الامتياز، أطلقوا عليه هذا اللقب واستحق به أعلى درجات التكريم والاحترام. وقد وصل بعض هؤلاء الأتابكية إلى درجة الملك في بعض الأقاليم الإسلامية، وأورثوا أبناءهم ملكهم ويطلق على هؤلاء الأسر الأتابكية ومعهم دول ينتسبون أيضًا إلى ولاء السلاجقة ولا يلقبون بهذا اللقب بل بلقب شاهات.



أتابك عماد الدين زنكى بن أق بن سنقر (٥٢١ - ٥٤١)
قطب الدين مودود بن زنكى (٥٤٤ - ٥٦٥)
سيف الدين غازى (على الموصل) (٥٤١ - ٥٤٤)
محمود نور الدين (على حلب) ٥٤١
الصالح إسماعيل ٥٧٧
وانتهت على أيدي الأيوبيين
سيف الدين غازى بن مودود ٥٦٥-٥٧٦
عماد الدين زنكى بن مودود أتابكية سنجار ٥٦٦ - ٦١٧
مسعود ٥٧٦ - ٥٨٩
سنجر شاه أتابكية الجزيرة (٥٧٦ - ٦٤٨)
أرسلان شاه (٥٨٩ - ٦٠٧)
مسعود (٦٠٧ - ٦١٥)
أرسلان شاه (٦١٥ - ٦١٦)
محمود (٦٠٦ - ٦٣١)
بدر الدين لؤلؤ (٦٣١ - ٦٥٧)
إسماعيل بن لؤلؤ (٦٥٧ - ٦٦٠)
انتهت هذه الدولة على أيدي التتار

الحملة الصليبية الثانية:

وفي سنة ٥٤٣ كانت الحملة الصليبية الثانية، التي تحركت من أوروبا لكي تسترد ما افتقده الصليبيون، من مناطق كانوا قد احتلوها، مثل الرها ولتدعيم موقفهم خاصة بعد ظهور قوة آل زنكي...

وكان قادة هذه الحملة هم لويس السابع ملك فرنسا، وكنراد الثالث ملك ألمانيا، فسلك الجيش الألماني الطريق الساحلي متوجهين إلى بيت المقدس، وعند قونية هاجم السلاجقة الجيش، وهزموهم شر هزيمة وغنم السلاجقة ما لا حصر له، وفر كنراد إلى نيقية حيث التقى بلويس السابع وهو في غاية الذل والمهانة.

وعلى الرغم من أن لويس اختار الطريق الآمن فإنه لم ينج من غارات السلاجقة، مما اضطره لتعديل مساره آخذًا طريق البحر ثم إنطاكية فبيت المقدس متناسيًا الهدف من حملته وهو استعادة الرها...

فلما وصل الجيش إلى بيت المقدس، كان على لويس السابع أن يهاجم دمشق فحاصرها ومعه ملك الألمان وخلق لا يحصون في يوم ١٦ من ربيع الأول سنة ٥٤٣، فخرج إليهم أهلها في مائة وثلاثين ألفًا، فاقتتلوا معهم قتالاً شديدًا، قتل من المسلمين في أول يوم نحو من مائتي رجل، ومن الفرنج خلق كثير لا يحصون، واستمرت الحرب مدة، وأُخرِج مصحف عثمان إلى وسط صحن الجامع، واجتمع الناس حوله يدعون الله عز وجل، والنساء والأطفال مكشفي الرءوس يدعون ويتباكون، فاستغاث مجير الدين أرتق صاحب دمشق بنور الدين محمود صاحب حلب، وبأخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل، فقصداه سريعًا في نحو سبعين ألفًا بمن انضاف إليهم من الملوك وغيرهم فنزلوا بمدينة حمص، ومن ثم أرسل نور الدين وهو في حمص رسالة إلى معين الدين

يقول له: «قد حضرت ومعي كل من يحمل السلاح من بلادي، فأريد أن يكون نوابى بمدينة دمشق لأحضر وألقى الفرنج، فإن انهزمت دخلت أنا وعسكري البلد واحتمينا وإن ظفرنا فالبلد لكم، لا أنازعكم فيه».

ولكن هذا الطلب أزعج مجير الدين (صاحب دمشق) ومعين الدين (صاحب الكلمة العليا بالدولة)، وخافا أن يستولي نور الدين على دمشق وإذا بهما يوصدان الباب أمام نور الدين وسيف الدين، ويرسل معين الدين رسالة إلى الفرنج يتوعدهم إن لم يرحلوا عن البلد بسيف الدين ونور الدين.. وكان من ضمن ما جاء في رسالته إلى الفرنج.. (... إن ملك الشرق - يقصد سيف الدين - قد حضر، فإن رحلتم وإلا سلمت البلد له وحينئذ تندمون...)

وأرسل إلى فرنج الشام يقول لهم: «بأي عقل تساعدون هؤلاء علينا؟ وأنتم تعلمون إنهم إن ملكوا دمشق أخذوا ما بين أيديكم من البلاد الساحلية، وأما أنا إن رأيت الضعف عن حفظ البلد سلمته إلى سيف الدين، وأنتم تعلمون أنه إن ملك دمشق لا يبقى لكم معه مقام في الشام».

لقد فر الصليبيون لما سمعوا بقدوم نور الدين وسيف الدين، ولكن الجيش لحقهم وقتل منهم خلقًا كثيرًا وجمعًا غفيرًا... يقول ابن كثير: «لقد كاد الفرنجة يأخذون البلد، ولكن الله سلم، وحماها بحوله وقوته، ومدينة دمشق لا سبيل للأعداء من الكفرة عليها؛ لأنها المحلة التي أخبر رسول الله ﷺ أنها معقل الإسلام عند الملاحم والفتن، وبها ينزل عيسى بن مريم».

«وقد قتل الفرنج من أهل دمشق في هذا اليوم خلقًا كثيرًا، وممن قتلوا الفقية الكبير الملقب حجة الدين شيخ المالكية بها، أبو الحجاج يوسف بن درناس الفندلاوي».

وفي سنة ٥٤٤ هـ توجه نور الدين نحو إنطاكية فأباد جيش الصليبيين عن آخره وأوغل في إمارة إنطاكية واستطاع أن يستولي على كل أملاك إنطاكية شرقي نهر

العاصي، وفي هذه السنة توفى سيف الدين غازي أخو نور الدين..

لقد يئس الصليبيون في التوسع في الشام وشمالي العراق لقوة الزنكية واتحادهم، فاتجهوا في حربهم للمسلمين إلى الجنوب الغربي للتوسع على حساب الفاطمين، وفي سنة ٥٤٨ هـ، استطاع بلدوين الثالث ملك بيت المقدس أن يستولي على عسقلان التي كانت في أيدي الفاطميين، مستغلاً سوء الأحوال الداخلية للدولة الفاطمية بمصر، وبذلك أصبح خالصًا للصليبيين ساحل الشام وفلسطين جميعًا، وخسر المسلمون بعسقلان قاعدة بحرية طالما هاجموا منها أعداءهم...

وكان مجير الدين حاكم دمشق يسمح لرسل الفرنج أن يدخلوا إلى دمشق ويأخذوا الإتاوات من الرعية..

وفي سنة ٥٤٩ هـ حاصر نور الدين دمشق، واستمر الحصار لمدة عشرة أيام ولم يقم بمهاجمتها تحرجًا من قتال المسلمين، وقال: (لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم البعض..) وبعث نور الدين برسالة إلى حاكم دمشق مجير الدين يوضح له فيها مبررات قدومه إليها:

إنني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالبًا لمحاربتكم ، وإنما دعاني إلى هذا الأمر شكاية المسلمين بأن الفلاحين أُخِذَت أموالهم وشُتِّتَ نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج، وانعدام الناصر لهم ، فلا يسعني مع ما أعطاني الله -وله الحمد- من الاقتدار على نصرة المسلمين، وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال ، ولا يحل لي القعود عنهم والانتصار لهم ، مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها ، والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالفرنج على محاربتي، وبذلتم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلمًا لهم وتعديًا عليهم، وهذا لا يرضي الله ولا أحدًا من المسلمين.

ولكن مجير الدين أرسل إلى الفرنج يستعديهم على جند نور الدين على أن

يبذل لهم الأموال ويسلم قلعة بعلبك إليهم لينجدوه...!!؟

ولكن أهل دمشق بادروا ففتحوا أبواب المدينة ليدخل نور الدين، وقد كانوا يتمنونه، فلما دخل نادي بالأمان ووضع عنها المكوس وأمَّن مجير الدين وسيره إلى حمص.

والعجيب أن ملوك الفرنجة كتبوا إلى نور الدين يهنئونه بدمشق ويتقربون إليه ويخضعون له.. وقد كانت دمشق الطريق الوحيد لاسترداد مدينة عسقلان التي احتلها الصليبيون سنة ٥٤٨ هـ.

ويعتبر عام ٥٥٠ هـ عام وحدة وتجمع القوى الإسلامية، فقد استطاع نور الدين أن يضم إلى أملاكه دمشق، وقد كانت في حماية الصليبيين، فاتحدت الشام كلها تحت ملك نور الدين الذي عمل بعدها على التنسيق مع مصر حتى يكون جبهة قوية ضد الصليبيين؛ ولكن مرضًا ألم به أعاقه عن مواصلة طموحاته، فتمكن الصليبيون من إنزال بعض الهزائم بالمسلمين، ولكنه سرعان ما استعاد صحته ليقف للأعداء من جديد، وفي سنة ٥٥١ هـ فتح نور الدين قلعة تل حارمواقتلعها من أيدي الفرنج، وكانت من أحصن القلاع، وذلك بعد قتال عظيم ووقعة هائلة كانت من أكبر الفتوحات.

ولو تابعنا حال عاصمة الخلافة في ذلك الحين لوجدناها محاصرة من قبل السلطان السلجوقي محمد بن محمود بن ملكشاه، ذلك لأن الخليفة رفض أن يخطب له ببغداد..!!

وفي سنة ٥٥٨ هـ توجه الصليبيون بقوة نحو مصر ولكن نور الدين منع ذلك...

ثم دارت الأحداث بالنسبة لمصر ونهاية الدولة الفاطمية كما سبق وصفه في الجزء الخاص بهذه الدولة، وحتى تمكن صلاح الدين من أن يحكم مصر.

وفي سنة ٥٦٥ هـ لما حاصرت الفرنج دمياط كان الملك نور الدين شديد

الاهتمام، قوى الاغتمام بذلك، حتى قرأ عليه بعض طلبة الحديث جزءًا في ذلك فيه حديث مسلسل بالتبسم، فطلب منه أن يتبسم ليصل التسلسل، فامتنع من ذلك وقال: «إني لأستحي من الله أن يراني مبتسمًا والمسلمون يحاصرهم الفرنج بثغر دمياط».

وقد ذكر الشيخ أبو شامة: أن إمام مسجد أبي الدرداء بالقلعة المنصورة رأى في تلك الليلة التي أجلى فيها الفرنج عن دمياط رسول الله ﷺ وهو يقول: سلم على نور الدين وبشره بأن الفرنج قد رحلوا عن دمياط، فقلت: يارسول الله بأي علامة؟ فقال: بعلامة ما سجد يوم تل محارم وقال في سجوده: اللهم انصر دينك.. ومن هو محمود الكلب؟

فلما صلى نور الدين عنده الصبح بشره بذلك وأخبره بالعلامة، فلما جاء إلى عند ذكر (من هو محمود الكلب)[1] انقبض عن قول ذلك، فقال له نور الدين: قل ما أمرك به رسول الله ﷺ فقال ذلك، فقال صدقت، وبكى نور الدين تصديقًا وفرحًا بذلك...

وفي سنة ٥٦٥ هـ سار نور الدين إلى الرقة فأخذها، وكذا نصيبين والخابور وسنجار، وسلمها إلى زوج ابنته وابن أخيه مودود بن عماد الدين، ثم سار إلى الموصل فأقام بها أربعة وعشرين يومًا، وأقرها على ابن أخيه سيف الدين غازي ابن قطب الدين مودود، مع الجزيرة، وزوَّجه ابنته الأخرى، وأمره بعمارة جامعها وتوسعته، ووقف على تأسيسه بنفسه، فلما كانت آخر ليلة له بالموصل رأى رؤيا أن رسول الله ﷺ يقول له: طابت لك بلدك وتركت الجهاد وقتال الأعداء؟ فنهض من فوره إلى السفر، وما أصبح إلا سائرًا إلى الشام...

وفي سنة ٥٦٧ هـ وفي أول جمعة منها أمر نور الدين صلاح الدين بإقامة الخطبة

---

(١) قالها نور الدين في سجوده.. يعلم أن النصر من عند الله لا من عند محمود فمحمود لا شيء.. إنكارًا لذاته بين يدي مولاه.

في مصر للخليفة العباسي، ليعلن بذلك نور الدين أستاذ صلاح الدين إيمانه العميق بأهمية توحيد قيادة المسلمين، وقضى بذلك على دولة الفاطمين بمصر، وهو عمل له خطورته في مجابهة الصليبيين.

وبذلك يكون ملك نور الدين قد امتد من حد النوبة إلى همذان لا يتخللها إلا بلاد الفرنج، وكلهم تحت قهره وهدنته.

حصول النفرة بين نور الدين وصلاح الدين:

كان نور الدين يغزو في هذه السنة بلاد الفرنج في السواحل فأحل بهم بأسًا شديدًا، ثم عزم على محاصرة الكرك وكتب إلى صلاح الدين أن يلتقي به بالعساكر المصرية إلى بلاد الكرك، ليجتمعا هنالك ليتفقا على المصالح التي يعود نفعها على المسلمين، ولكن صلاح الدين خاف على اختلال الأمور إذا بَعُدَ عن مصر واشتغل عنها، وبعد أن خرج سرعان ما عاد إلى مصر وأرسل يعتذر إلى نور الدين، فوقع في نفس نور الدين منه واشتد غضبه عليه، وعزم على الدخول إلى مصر وانتزاعها من صلاح الدين وتوليتها غيره، ولما بلغ هذا الخبر صلاح الدين ضاق بذلك ذرعه، وذكر ذلك بحضرة الأمراء والكبراء فبادر ابن أخيه تقي الدين عمر وقال:

والله لو قصدنا نور الدين لنقاتله، فشتمه الأمير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين وسبه وأسكته، ثم قال لابنه: اسمع ما أقول لك، والله ماههنا احد أشفق عليك مني ومن خالك هذا - يعني شهاب الدين الحارمي - ولو رأينا نور الدين لبادرنا إليه ولقبلنا الأرض بين يديه، وكذلك بقية الأمراء والجيش، ولو كتب إليَّ أن أبعثك إليه مع نجاب (الذي يقود الجمال) لفعلت، ثم أمر من هنالك بالانصراف والذهاب، فلما خلى بابنه قال له: أمالك عقل؟ تذكر مثل هذا بحضرة هؤلاء فيقول عمر مثل هذا الكلام فتقره عليه، فلا يبقى عند نور الدين أهم من قصدك وقتالك

وخراب ديارنا، وأعمارنا، ولو قد رأى الجيش كلهم نور الدين لم يبق معك واحد منهم، ولذهبوا كلهم إليه، ولكن ابعث إليه وترفق له وتواضع عنده، وقل له: وأي حاجة إلى مجئ مولانا السلطان إلى قتالي؟

ابعث إلى بنجاب أو جمال حتى أجئ معه إلى بين يديك، فبعث إليه بذلك، فلما سمع نور الدين مثل هذا الكلام لان قلبه له، وانصرفت همته عنه، واشتغل بغيره، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا...

وفي سنة ٥٦٨ هـ سار الملك نور الدين إلى بلاد عز الدين قلج أرسلان بن مسعود، وأصلح ما وجده فيها من الخلل، ثم سار فافتتح مرعش وبهسنا وعمل في كل منهما بالحسنى.

وفي سنة ٥٦٩ هـ توفى الملك نور الدين.

ولقلة من يذكر هذا الملك العظيم ومآثره في التاريخ ننقل كاملاً كلام ابن كثير عنه في البداية والنهاية «... هو الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن الملك الأتابك قسيم الدولة عماد الدين أبي سعيد زنكي، الملقب بالشهيد، بن الملك آقسنقر الأتابك الملقب بقسيم الدولة التركي السلجوقي مولاهم.

ولد وقت طلوع الشمس من يوم الأحد السابع عشر من شوال سنة ٥٢١ بحلب. ونشأ في كفالة والده صاحب حلب والموصل وغيرهما من البلدان الكثيرة الكبيرة، وتعلم القرآن والفروسية والرمي، وكان شهمًا ذا همة عالية، وقصد صالح، وحرمة وافرة وديانة بينة.

لما قتل أبوه سنة إحدى وأربعين وخمسمائه، وهو محاصر جعبر، صار المُلكُ بحلب إلى ابنه نور الدين هذا، وأعطاه أخوه سيف الدين غازي الموصل، ثم تقدم، ثم افتتح دمشق في سنة تسع وأربعين فأحسن إلى أهلها وبنى لهم المدارس

والمساجد والربط، ووسع لهم الطرق على المارة، وبنى عليها الرصافات ووسع الأسواق، ووضع المكوس بدار الغنم والبطيخ والعرصد، وغير ذلك.

وكان حنفي المذهب يحب العلماء والفقراء ويكرمهم ويحترمهم، ويحسن إليهم، وكان يقوم في أحكامه بالمعدلة الحسنة، واتباع الشرع المطهر، ويعقد مجالس العدل ويتولاها بنفسه، ويجتمع إليه في ذلك القاضي والفقهاء والمفتون من سائر المذاهب، ويجلس في يوم الثلاثاء بالمسجد المعلق، الذي بالكشك، ليصل إليه كل واحد من المسلمين وأهل الذمة، حتى يساويهم، وأحاط السور على حارة اليهود، وكان خرابًا، وأغلق باب كسان وفتح باب الفرج، ولم يكن هناك قبله باب بالكلية.

وأظهر ببلاده السنة وأمات البدعة، وأمر بالتأذين بحي على الصلاة حي على الفلاح، ولم يكن يؤذن بهما في دولتي أبيه وجده، وإنما كان يؤذن بحي على خير العمل، لأن شعار الرفض كان ظاهرًا بها، وأقام الحدود وفتح الحصون، وكسر الفرنج مرارًا عديدة، واستنقذ من أيديهم معاقل كثيرة من الحصون المنيعة، التي كانوا قد استحوذوا عليها من معاقل المسلمين، كما تقدم بسط ذلك في السنين المتقدمة.

وبنى بدمشق مارستانًا لم يبن في الشام قبله مثله ولا بعده أيضًا، ووقف وقفًا على من يعلم الأيتام الخط والقراءة، وجعل لهم نفقة وكسوة، وعلى المجاورين بالحرمين، وله أوقاف دائرة على جميع أبواب الخير، وعلى الأرامل والمحاويج، وكان الجامع داثرًا (الداثر: الخالي والبالي) فولى نظره القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري الموصلي، الذي قدم به فولاه قضاء قضاة دمشق، فأصلح أموره وفتح المشاهد الأربعة، وقد كانت حواصل الجامع بها من حين احترقت في سنة إحدى وستين وأربعمائة، وأضاف إلى أوقاف الجامع

المعلومة الأوقاف التي لا يعرف واقفوها، ولا يعرف شروطهم فيها، وجعلها قلمًا واحدًا، وسمى مال المصالح، ورتب عليه لذوي الحاجات والفقراء والمساكين والأرامل والأيتام وما أشبه ذلك.

وقد كان رحمه الله حسن الخط كثير المطالعة للكتب الدينية، متبعًا للآثار النبوية، ومحافظًا على الصلوات في الجماعات، كثير التلاوة محبًا لفعل الخيرات، عفيف البطن والفرج، مقتصدًا في الإنفاق على نفسه وعياله في المطعم والملبس حتى قيل: إنه كان أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقة منه من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا، ولم يسمع منه كلمة فحش قط، في غضب ولا رضى، صموتًا وقورًا.

قال ابن الأثير:

لم يكن بعد عمر بن عبد العزيز مثل الملك نور الدين، ولا أكثر تحريًا للعدل والإنصاف منه، وكانت له دكاكين بحمص قد اشتراها مما يخصه من المغانم، فكان يقتات منها، وزاد امرأته من كراها على نفقتها عليها، واستفتى العلماء في مقدار ما يحل له من بيت المال فكان يتناوله ولا يزيد عليه شيئًا، ولو مات جوعًا.

وكان يكثر اللعب بالكرة فعاتبه رجل من كبار الصالحين في ذلك فقال: إنما الأعمال بالنيات، وإنما أريد بذلك تمرين الخيل على الكر والفر، وتعليمها ذلك، ونحن لا نترك الجهاد، وكان لا يلبس الحرير، وكان يأكل من كسب يده بسيفه ورمحه.

وركب يومًا مع بعض أصحابه والشمس في ظهورهما والظل بين أيديهما لا يدركانه، ثم رجعا فصار الظل وراءهما، ثم ساق نور الدين فرسه سوقًا عنيفًا وظِلّه يتبعه فقال لصاحبه: أتدري ما شبهت هذا الذي نحن فيه؟ شبهته بالدنيا تهرب ممن يطلبها، وتطلب من يهرب منها، وقد أنشد بعضهم في هذا المعنى:

مثل الرزق الذي تطلبه   مثل الظل الذي يمشي معك
أنت لا تدركه مستعجلاً   فإذا ولّيت عنه تبعك

وكان فقيها على مذهب أبي حنفية، سمع الحديث وأسمعه، وكان كثير الصلاة بالليل من وقت السحر إلى أن يركب:

جمع الشجاعة والخشوع لديه   ما أحسن الشجعان في المحارب

وكذلك كانت زوجته عصمت الدين خاتون، بنت الأتابك معين الدين، تكثر القيام في الليل فنامت ذات ليلة عن وردها فأصبحت وهي غضبي، فسألها نور الدين عن أمرها فذكرت نومها الذي فوت عليها وردها، فأمر نور الدين عند ذلك بضرب طبلخانة في القلعة وقت السحر، لتوقظ النائم ذلك الوقت لقيام الليل، وأعطى الضارب على الطبلخانة أجرًا جزيلاً وجراية كثيرة.

فألبس الله هاتيك العظام وإن   بلين تحت الثرى عفوًا وغفرانا
سقى ثرى عابديه رحمة ملأت   مثوى قبورهم روحًا وريحانًا

وذكر ابن الأثير أن الملك نور الدين بينما هو ذات يوم يلعب بالكرة، إذ رأى رجلاً يحدث آخر ويومئ إلى نور الدين، فبعث الحاجب ليسأله ما شأنه! فإذا هو رجل معه رسول من جهة الحاكم، وهو يزعم أن له على نور الدين حقًا يريد أن يحاكمه عند القاضي، فلما رجع الحاجب إلى نور الدين وأعلمه بذلك ألقى الجوكان (الجوكان: ما تضرب به الكرة) من يده، وأقبل مع خصمه ماشيًا إلى القاضي الشهرزوري، وأرسل نور الدين إلى القاضي ألا تعاملني إلا معاملة الخصوم، فحين وصلا وقف نور الدين مع خصمه بين يدي القاضي، حتى انفصلت الخصومة والحكومة، ولم يثبت للرجل على نور الدين حق، بل ثبت الحق للسلطان على الرجل، فلما تبين ذلك قال السلطان إنما جئت معه لئلا

يتخلف أحد عن الحضور إلى الشرع إذا دعي إليه، فإنما نحن معاشر الحكام أعلانا وأدنانا شجنكية (شجنكية: الخدم أو الحرس) لرسول الله ﷺ ولشرعه، فنحن قائمون بين يديه طوع مراسيمه، فما أمر به امتثلناه، وما نهانا عنه اجتنبناه، وأنا أعلم أنه لاحق للرجل عندي، ومع هذا أشهدكم أني قد ملكته ذلك الذي ادعى به ووهبته له. قال ابن الأثير: وهو أول من ابتنى دارًا للعدل، وكان يجلس فيها في الأسبوع مرتين، وقيل أربع مرات،وقيل خمس ويحضر القاضي والفقهاء من سائر المذاهب، ولا يحجبه يومئذ حاجب ولا غيره بل يصل إليه القوى والضعيف، فكان يكلم الناس ويستفهمهم ويخاطبهم بنفسه، فيكشف المظالم وينصف المظلوم من الظالم؛ وكان سبب ذلك أن أسد الدين بن شادي كان قد عظم شأنه عند نور الدين، حتى صار كأنه شريكه في المملكة، واقتنى الأملاك والأموال والمزارع والقرى، وكان ربما ظلم نوابُه جيرانَه في الأراضي والأملاك العدل، وكان القاضي كمال الدين ينصف كل من استعداه على جميع الأمراء، إلا أسد الدين هذا فما كان يهجم عليه، فلما ابتنى نور الدين دار العدل تقدم أسد الدين إلى نوابه ألا يَدَعُوا لأحد عنده ظلامة، وإن كانت عظيمة، فإن زوال ماله عنده أحب إليه من أن يراه نور الدين بعين ظالم، أو يوقفه مع خصم من العامة، ففعلوا ذلك، فلما جلس نور الدين بدار العدل مدة متطاولة ولم يرَ أحدًا يستعدى على أسد الدين، سأل القاضي عن ذلك، فأعلمه بصورة الحال، فسجد نور الدين شكرًا لله، وقال الحمد لله الذي جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم.

وأما شجاعته فيقال: إنه لم يُرَ على ظهر فرس قط أشجع ولا أثبت منه، وكان حسن اللعب بالكرة وكان ربما ضربها ثم يسوق وراءها ويأخذها من الهواء بيده، ثم يرميها إلى آخر الميدان، ولم يُرَ جوكانه يعلو على رأسه، ولا يرى الجوكان في يده، لأن الكم ساتر لها، ولكنه استهانة بلعب الكرة، وكان شجاعًا

صبورًا في الحرب، ويضرب المثل به في ذلك، وكان يقول: قد تعرضت للشهادة غير مرة فلم يتفق لي ذلك، ولوكان في خير ولي عند الله قيمة لرزقنيها، والأعمال بالنية.

وقال له يومًا قطب الدين النيسابوري: بالله يامولانا السلطان لا تخاطر بنفسك فانك لو قُتِلت قُتل جميع من معك، وأخذت البلاد، وفسد المسلمون فقال له: اسكت يا قطب الدين فان قولك إساءة أدب على الله، ومن هو محمود؟ من كان يحفظ الدين والبلاد قبلي غير الذي لا إله إلا هو؟ ومن هو محمود؟ قال فبكى من كان حاضرًا رحمه الله.

وقد أسر بنفسه في بعض الغزوات بعض ملوك الإفرنج فاستشار الأمراء فيه هل يقتله أو يأخذ ما يبذل له من المال؟ وكان قد بذل له في فداء نفسه مالاً كثيرًا، فاختلفوا عليه، ثم حسن في رأيه إطلاقه وأخذ الفداء منه، فبعث إلى بلده من خلاصته من يأتيه بما افتدى به نفسه، فجاء به سريعًا فأطلقه نور الدين، فحين وصل إلى بلاده مات ذلك الملك ببلده، فأعجب ذلك نور الدين وأصحابه، وبنى من ذلك المال المارستان الذي بدمشق، وليس له في البلاد نظير، ومن شرطه أنه على الفقراء والمساكين، وإذا لم يوجد بعض الأدوية التي يعز وجودها إلا فيه فلا يمنع منه الأغنياء، ومن جاء إليه فلا يمنع من شرابه، ولهذا جاء إليه نور الدين وشرب من شرابه رحمه الله.

قلت: ويقول بعض الناس إنه لم تخمد منه النار منذ بني إلى زماننا هذا فالله أعلم. وقد بنى الخانات الكثيرة في الطرقات والأبراج، ورتب الخفراء في الأماكن المخوفة، وجعل فيها الحمام الهوادي التي تطلعه على الأخبار في أسرع مدة، وبنى الربط والخانقات.

وكان يجمع الفقهاء عنده والمشايخ والصوفية ويكرمهم ويعظهم، وكان

يحب الصالحين، وقد نال بعض الأمراء مرة عنده من بعض الفقهاء، وهو قطب الدين النيسابوري فقال له نور الدين: ويحك إن كان ما تقول حقًا فله من الحسنات الكثيرة الماحية لذلك ما ليس عندك مما يكفر عنه سيئات ما ذكرت إن كنت صادقًا، على أني والله لا أصدقك، وإن عدت ذكرته أو أحدًا غيره عندي بسوء لأؤذينك، فكف عنه ولم يذكره بعد ذلك.

وقد ابتنى بدمشق دارًا لاستماع الحديث وإسماعه، قال ابن الأثير: وهو أول من بني دار حديث.

وقد كان مهيبًا وقورًا شديد الهيبة في قلوب الأمراء، لا يتجاسر أحد أن يجلس بين يديه إلا بإذنه، ولم يكن أحد من الأمراء يجلس بلا إذن سوى الأمير نجم الدين أيوب، وأما أسد الدين شيركوه ومجد الدين بن الداية نائب حلب وغيرهما من الأكابر، فكانوا يقفون بين يديه، ومع هذا كان إذا دخل أحد من الفقهاء أو الفقراء قام له ومشى خطوات، وأجلسه معه على سجادته في وقار وسكون، وإذا أعطى أحدًا منهم شيئًا مستكثرًا يقول: هؤلاء جند الله وَبِدُعَائِهم ننصر على الأعداء، ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا.

وقد سمع عليه جزء حديث وفيه «خرج رسول الله ﷺ متقلدًا السيف» فجعل يتعجب من تغيير عادات الناس لما ثبت عنه عليه السلام، وكيف يربط الأجناد والأمراء على أوساطهم ولا يفعلون كما فعل رسول الله ﷺ ثم أمر الجند بألا يحملوا السيوف إلا متقلديها، ثم خرج هو في اليوم الثاني إلى الموكب وهو متقلد السيف وجميع الجيش كذلك، يريد بذلك الاقتداء برسول الله ﷺ فرحمه الله.

وقص عليه وزيره موفق الدين خالد بن محمد بن نصر القيسراني الشاعر أنه

رأى في منامه كأنه يغسل ثياب الملك نور الدين، فأمره بأن يكتب مناشير بوضع المكوس والضرائب عن البلاد، وقال له هذا تأويل الرؤيا، وكتب إلى الناس ليكون منهم في حل مما كان أخذ منهم، ويقول لهم إنما صرف ذلك في قتال أعدائكم من الكفرة والذب عن بلادكم ونسائكم وأولادكم، وكتب بذلك إلى سائر ممالكه وبلدان سلطانه، وأمر الوعاظ أن يستحلوا له من التجار، وكان يقول في سجوده: اللهم ارحم المكاس العشار الظالم محمود الكلب، وقيل إن برهان الدين البلخي أنكر على الملك نور الدين في استعانته في حروب الكفار بأموال المكوس، وقال له مرة كيف تنصرون وفي عساكركم الخمور والطبول والزمور؟ ويقال إن سبب وضعه المكوس عن البلاد أن الواعظ أبا عثمان المنتخب ابن أبي محمد الواسطي – وكان من الصالحين الكبار، وكان هذا الرجل ليس له شيء ولا يقبل من أحدٍ شيئًا، إنما كانت له جبة يلبسها إذا خرج إلى مجلس وعظه وكان يجتمع في مجلس وعظه الألوف من الناس- أنشد نور الدين أبياتًا تتضمن ما هو متلبس به في ملكه، وفيها تخويف وتحذير شديد له:

مثل وقوفك أيها المغرور ... يوم القيامة والسماء تمور
إن قيل نور الدين رحتَ مسلمًا ... فاحذر بأن تبقى ومالَك نور
أنهيت عن شرب الخمور وأنت ... كأس المظالم طائشٌ مخمور
عطَّلت كاسات المدامِ تعففًا ... وعليك كاسات الحرام تدور
ماذا تقول إذا نُقِلت إلى البلى ... فردًا وجاءك منكر ونكير
ماذا تقول إذا وقفت بموقف ... فردًا ذليلاً والحسابُ عسير
وتعلَّقَت فيك الخصوم وأنت ... يوم الحساب مسلسلٌ مجرور
وتفرقت عنك الجنود وأنت ... ضيق القبور موسّد مقبور
ووددتَ أنك ما وليت ولايةً ... يومًا ولا قال الأنامُ أمير

وبقيت بعد العز رهنَ حفيرة ... في عالم الموتى وأنت حقير
وحشرت عريانًا حزينًا باكيًا ... قلقًا ومالك في الأنام مجير
أرضيت أن تحيا وقلبُك دارس ... عافي الخراب وجسمك المعمور
أرضيت أن يحظى سواك بقربه ... أبدًا وأنت معذَّبٌ مهجور

فلما سمع نور الدين هذه الأبيات بكى بكاء شديدًا، وأمر بوضع المكوس والضرائب في سائر البلاد، وكتب إليه الشيخ عمر الملا من الموصل - وكان قد أمر الولاة والأمراء بها ألا يفصلوا بها أمرًا حتى يعلموا الملا به، فما أمرهم به من شئ امتثلوه، وكان من الصالحين الزاهدين، وكان نور الدين يستقرض منه في كل رمضان ما يفطر عليه، وكان يرسل إليه بفتيت ورقاق فيفطر عليه جميع رمضان – فكتب إليه الشيخ عمر بن الملا هذا: إن المفسدين قد كثروا ويحتاج إلى سياسة ومثل هذا لا يجئ إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أخذ إنسان في البرية من يجئ يشهد له؟ فكتب إليه الملك نور الدين على ظهر كتابه: إن الله خلق الخلق وشرع لهم شريعة وهو أعلم بما يصلحهم، ولو علم أن في الشريعة زيادة في المصلحة لشرعها لنا، فلا حاجة بنا إلى الزيادة على ما شرعه الله تعالى فمن زاد فقد زعم أن الشريعة ناقصة فهو يكملها بزيادة، وهذا من الجرأة على الله وعلى ما شرعه، والعقول المظلمة لا تهتدي، والله سبحانه يهدينا وإياك إلى صراط مستقيم، فلما وصل الكتاب إلى الشيخ عمر الملا جمع الناس بالموصل وقرأ عليهم الكتاب وجعل يقول: انظروا إلى كتاب الزاهد إلى الملك، وكتاب الملك إلى الزاهد.

وجاء إليه أخو الشيخ أبي البيان يستعديه على رجل أنه سبه ورماه بأنه يرائي وأنه، وأنه وجعل يبالغ في الشكاية عليه فقال له السلطان: أليس الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾ وقال ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾،

فسكت الشيخ ولم يحر جوابا.

وقد كان نور الدين محافظًا على الصلوات في أوقاتها في جماعة بتمام شروطها والقيام بها بأركانها والطمأنينة في ركوعها وسجودها وكان كثير الصلاة بالليل، كثير الابتهال في الدعاء والتضرع إلى الله عز وجل في أموره كلها.

قال: وبلغنا عن جماعة من الصوفية ممن يعتمد على قولهم أنهم دخلوا بلاد القدس للزيارة أيام أخذ الفرنج القدس فسمعهم يقولون: إن القسيم ابن القسيم - يعنون نور الدين – له مع الله سر، فإنه لم يظفر وينصر علينا بكثرة جنده وجيشه، وإنما يظفر علينا وينصر بالدعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي بالليل ويرفع يده إلى الله ويدعو فإنه يستجيب له ويعطيه سؤله فيظفر علينا، قال: فهذا كلام الكفار في حقه.

وحكى الشيخ أبو شامة أن نور الدين وقف بستان الميدان، سوى الغيضة التي تليه، نصفه على تطييب جامع دمشق، والنصف الآخر يقسم عشرة أجزاء جزآن على تطييب المدرسة التي أنشأها للحنفية، والثمانية أجزاء الأخرى على تطييب المساجد التسعة وهي مسجد الصالحين بجبل قيسون وجامع القلعة، ومسجد عطية، ومسجد ابن لبيد بالعسقار، ومسجد الرماحين المعلق، ومسجد العباس بالصالحية، ومسجد دار البطيخ المعلق، والمسجد الذي جدده نور الدين جوار بيعة اليهود، لكل من هذه المساجد جزء من أحد عشر جزءًا من النصف.

ومناقبه ومآثره كثيرة جدًا، وقد ذكرنا نبذة من ذلك يستدل بها على ما وراءها.

وقد ذكر الشيخ شهاب الدين في أول الروضتين كثيرًا من محاسنه، وذكر ما مدح به من القصائد، وذكر انه لما فتح أسد الدين الديار ثم مات، ثم تولى صلاح الدين، هم بعزله عنها واستنابة غيره فيها غير مرة، ولكن يعوقه عن ذلك ويصده قتال الفرنج، واقترب أجله فلما كان في هذه السنة – وهي سنة ٥٦٩ هـ

- وهي آخر مدته، وأضمر على الدخول إلى الديار المصرية وصمم عليه، وأرسل إلى عساكر بلاد الموصل وغيرها ليكونوا ببلاد الشام حفظًا لها من الفرنج في غيبته، ويركب هو في جمهور الجيش إلى مصر وقد خاف منه الملك صلاح الدين خوفًا شديدًا، فلما كان يوم عيد الفطر من هذه السنة ركب إلى الميدان الأخضر القبلى وصلى فيه صلاة عيد الفطر، وكان ذلك نهار الأحد، ورمى العتق في الميدان الأخضر الشمالي، والقدر يقول له: هذا آخر أعيادك، ومد في ذلك اليوم سماطًا حافلا وأمر بانتهابه، وطهر ولده الملك الصالح إسماعيل في هذا اليوم، وزينت له البلد، وضربت البشائر للعيد والختان، ثم ركب في يوم الاثنين وأكب على العادة ثم لعب بالكرة في ذلك اليوم، فحصل له غيظ من بعض الأمراء - ولم يكن ذلك من سجيته - فبادر إلى القلعة وهو كذلك في غاية الغضب، وانزعج ودخل في حيز سوء المزاج، واشتغل بنفسه وأوجاعه، وتنكرت عليه جميع حواسه وطباعه، واحتبس أسبوعًا عن الناس، والناس فى شغل عنه بما هم فيه من اللعب والانشراح في الزينة التي نصبوها لأجل طهور ولده، فهذا يجود بروحه، وهذا يجود بموجوده سرورًا بذلك، فانعكست تلك الأفراح بالأتراح، ونسخ الجد ذلك المزاح، وحصلت للملك خوانيق في حلقه منعته من النطق، وهذا شأن أوجاع الحلق، وكان قد أشير عليه بالفصد فلم يقبل، وبالمبادرة إلى المعالجة فلم يفعل، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا، فلما كان يوم الأربعاء ١١ من شوال من هذه السنة قبض إلى رحمة الله تعالى عن ٥٨ سنة، مكث منها في الملك ٢٨ سنة رحمه الله، وصلى عليه بجامع القلعة بدمشق، ثم حول إلى تربته التي أنشأها للحنفية بين باب الخواصين، وباب الخميين على الدرب، وقبره بها يزار، ويحلق بشباكه، ويطيب ويتبرك به كل مار، فيقول قبر نور الدين الشهيد، لما حصل له في حلقه من الخوانيق، وكذا كان يقال لابنه الشهيد ويلقب بالقسيم وكانت الفرنج تقول له القسيم ابن القسيم).

فلما مات نور الدين بويع من بعده بالملك لولده الصالح إسماعيل، وكان صغيرًا فاختلف الأمراء، وحادت الآراء وظهرت الشرور، وكثرت الخمور، ولم يكن أحد يجرؤ على مقارفتها في حياة نور الدين، وطمعت الأعداء من كل جانب في المسلمين، وعزم الفرنج على نزع دمشق من أيدي المسلمين، فبرز إليهم ابن مقدم الأتابك قواقعهم عند بانياس، فضعف عن مقاومتهم، فهادنهم مدة، ودفع إليهم أموالاً جزيله عجلها لهم، ولولا خوفهم بقدوم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لما هادنوه، ولما بلغ ذلك صلاح الدين كتب إلى الأمراء، وخاصة ابن مقدم الأتابك، يلومهم على ما صنعوا من المهادنة، ودفع الأموال إلى الفرنج وهم أقل وأذل، فرد عليه الأمراء ردودًا غليظة فعزم صلاح الدين على المسير إلى الشام.

ولكن اضطر أن يؤخر ذلك لقيام الفرنجة بغزو مصر سنة ٥٧٠ هـ. كما أن الفاطميين كانوا لا يزالون يحاولون الإطاحة بحكم صلاح الدين..

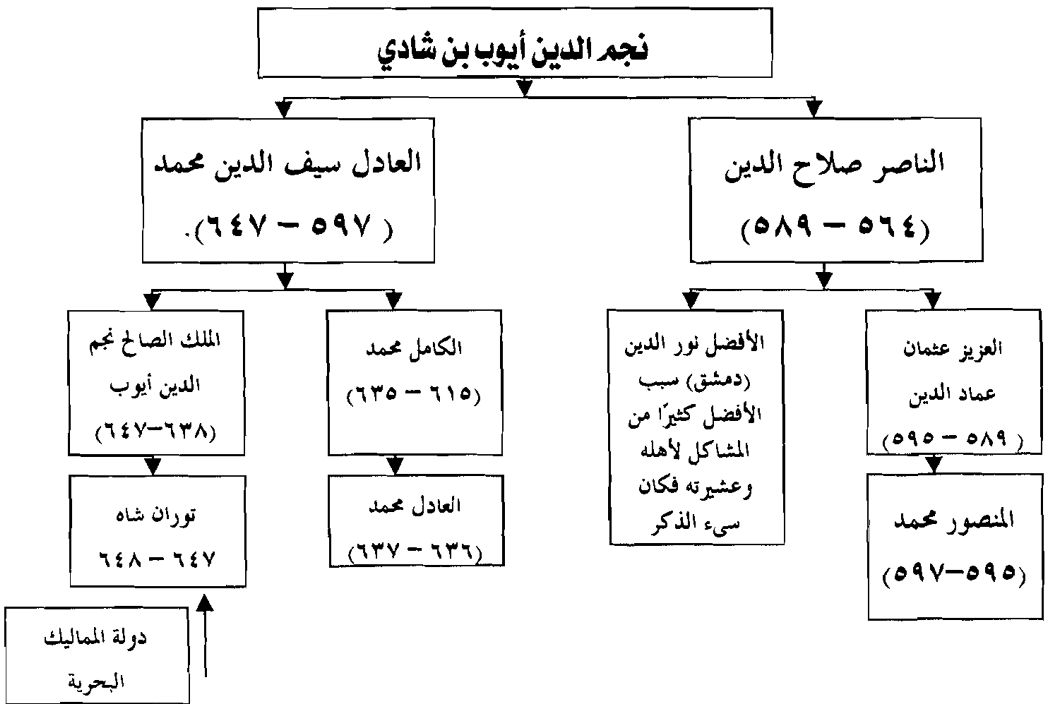
واستطاع صلاح الدين أن يوقف الحملة الصليبية التى تحركت من صقلية لغزو مصر في أسطول لم يسمع مثله، كما استطاع أن يبطل مؤامرة الفاطميين، فلما اطمأن صلاح الدين على الأحوال بمصر توجه إلى بلاد الشام وكان هدفه (جمع شملها والإحسان إلى أهلها، وأمن سهلها وجبلها ونصرة الإسلام ودفع الطغاة وإظهار القرآن وإخفاء سائر الأديان..)

واستناب على مصر أخاه أبا بكر، وتوجه إلى دمشق فدخلها سنه ٥٧٠ دون إراقة دماء، وأبطل ما أحدث فيها من مفاسد بعد وفاة نور الدين، ثم استناب أخاه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب على دمشق، وتوجه إلى حلب وحاول أمراؤها ومعهم طائفة من الفاطميين قتله، ولكن الله أظفره عليهم فقتلوا عن آخرهم..

قام الشيعة بمراسلة القومص صاحب طرابلس الفرنجى، ووعدوه بأموال

جزيله إن هو ساعدهم ضد صلاح الدين.. ولكن صلاح الدين كان حذرًا إلى أبعد الحدود فأفشل مؤامراتهم جميعًا واستطاع أن يعيد حمص وحلب وحماة إلى الصف المسلم.. واصل صلاح الدين جهوده لتوحيد الصف المسلم حتى كون مملكة تشمل شمال العراق (الكردستان) والشام ومصر وبرقة.

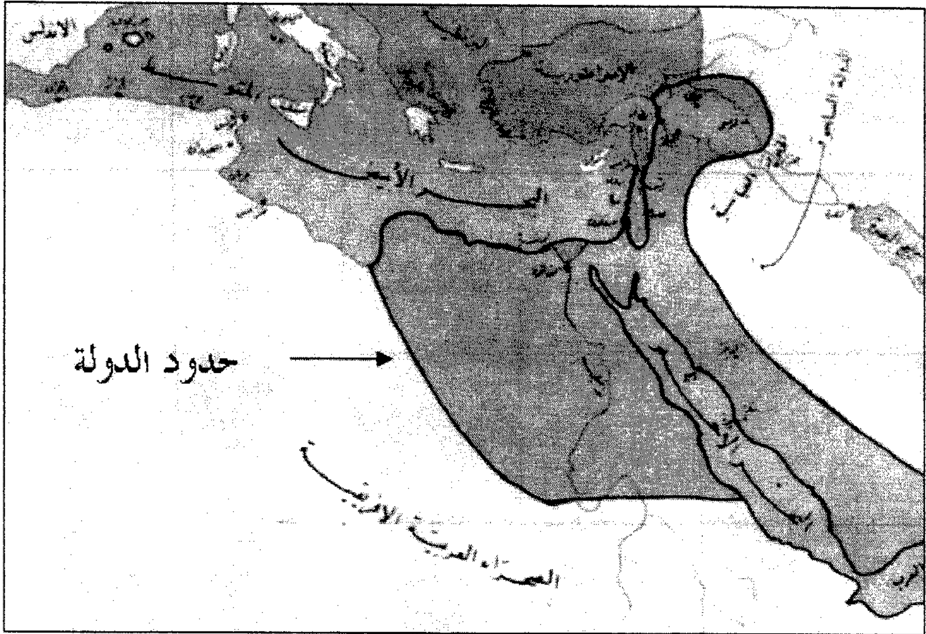
سلاطين الدولة الأيوبية



تعريف بوالد صلاح الدين نجم الدين أيوب بن شادي

كان نجم الدين شجاعًا، خدم الملك محمد بن ملكشاه فرأى فيه شهامة وأمانة، فولاه قلعة تكريت فحكم فيها وعدل، وكان من أكرم الناس، ثم أقطعها الملك مسعود لمجاهد الدين نهروز شحنة (قائد شرطة) العراق، فاستمر فيها، فاجتاز به يومًا الملك عماد الدين زنكي منهزمًا من عدوه، فآواه نجم الدين وخدمه خدمة بالغة وداوي جراحاته وأقام عنده مدة خمسة عشر يومًا، ثم ارتحل إلى بلده الموصل، فحفظها له عماد الدين زنكي ولكن حدثت حادثة من أيوب أغضبت نهروز فأخرجه من قلعته، وفي ليلة خروج نجم الدين أيوب منها ولِدَ له ابنه

صلاح الدين يوسف فتشاءم به لفقده بلده ووطنه فقال له بعض الناس: قد نرى ما أنت فيه من التشاؤم بهذا المولود فما يدريك أن يكون لهذا المولود ملكًا عظيمًا له صيت؟؟! فكان كما قال، فاتصل أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه بخدمة الملك عماد الدين زنكي، ثم كانا عند نور الدين أصحاب منزلة رفيعة عنده، فاستناب نور الدين نجم الدين أيوب على بعلبك وكان أسد الدين من اكبر أمرائه...



حدود الدولة الأيوبية

في سنة ٥٨٢ هـ اعتدى أرناط أمير الكرك على قافلة تجارية تابعة للمسلمين، وكان بين صلاح الدين وبين هذه الإمارة هدنه ومسالمة، وكان من ضمن بنود هذه الهدنة السماح للقوافل الإسلامية بالانتقال من مصر إلى الشام دون تعرض لها، ولكن صاحب الكرك استهان بني الإسلام وقال للأسرى: «إن كنتم تعتقدون في محمد فادعوه الآن يفك أسركم، ويخلصكم من شر ما وقعتم فيه».

فلما وصل الخبر إلى صلاح الدين أقسم لئن أسره ليقتلنه بيده.

بعد هذا الاعتداء الفاضح أخذ صلاح الدين يعد العدة ويجمع الجيوش، وكان الوقت وقت عودة الحجاج المسلمين من أرض الحجاز، وكان صاحب الكرك يتربص بهم للاعتداء عليهم وهم راجعون، فخرج صلاح الدين لحمايتهم وقد أعلن الجهاد على الصليبيين قاطبة، وعسكر في قصر السلامة بالقرب من بصرى وظل فيها حتى مر الحجاج سالمين، ودعا الحجاج للسلطان صلاح الدين بالنصر والغلبة.

معركة حطين:

وفي ١٧ من ربيع آخر سنة ٥٨٣ هـ خرج صلاح الدين من دمشق ولما وصل رأس الماء جعله مركزًا لاجتماع جيوشه، وبقي ولده الملك الأفضل برأس الماء وسار هو إلى بصرى، وسار مظفر الدين كوكبري إلى عكا، ومن بصرى توجه صلاح الدين إلى حصن الكرك والشوبك ثم عاد إلى طبرية...

وفي هذه الأثناء وقبلها لم يكن أحد ينظر إلى صلاح الدين إلا ويجده مغتمًا مهتمًا تعلوه كآبة الحزن.. بل كان عزوفًا عن الطعام لا يتناول من الغذاء إلا الشئ اليسير ولما سئل عن سبب ذلك كان جوابه:«كيف يطيب لي الفرح والطعام ولذة المنام وبيت المقدس بأيدي الصليبين»، ويروي صاحبه ومرافقه القاضي بهاء الدين بن شداد يصف حاله في حروبه الصليبية: «كان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال»، وأيقن الصليبيون باتساع الخطة التي دبرها صلاح الدين ضدهم، فاجتمعت كلمة رؤسائهم وحشدوا جموعهم، وتوجهوا إلى طبرية وتقابل الفريقان في مكان اسمه حطين، واستبد العطش بالصليبين لاستيلاء المسلمين على مواقع المياه، وبعد معارك ضارية بين الطرفين انتصر فيها صلاح الدين انتصارًا حاسمًا، وانهزم الصليبيون هزيمة منكرة لم يفلت منهم أحد، وكانوا بين قتيل وأسير.

وبلغ عدد قتلاهم عشرة آلاف، وفي تلك الأثناء سقط أسقف عكا قتيلاً ووقع بين يديه (صليب الصلبوت) فاستولى عليه المسلمون، وكان ذلك من أعظم المصايب عليهم، وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك،وهكذا ظل المسلمون يزحفون نحو قمة الجبل وأمامهم الصليبيون يتراجعون، والقتل والأسر يعملان في فرسانهم حتى بقي ملك بيت المقدس وحوله (١٥٠) من الفرسان الذين تساقطوا على الأرض من الإنهاك والعطش وأسر ملك بيت المقدس، وأرناط صاحب الكرك...

وأقيمت للسلطان صلاح الدين خيمة اجتمع فيها بذوي الرأي من أتباعه ومستشاريه فسجد الجميع لله شكرًا، ثم أمر بإحضار ملك بيت المقدس وصاحب الكرك فأجلسهما بداخل خيمته، وقد أخذ العطش الملك كل مأخذ فطلب ماءً فأحضر له ماء ثلوج، فشربه إلا قليلاً منه ناوله صاحب الكرك، فقال السلطان حينئذ: «إنا لم نعطه هذا الماء حتى يكون آمنًا على نفسه» ثم قام وأنب صاحب الكرك على سوء صنعه وتطاوله على مقام النبوة، ثم ضرب عنقه بيده تنفيذا لوعده وعند ذلك رعب الملك فطيب السلطان خاطره وقال له: «لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، وأما هذا فإنه تجاوز حده...»

ثم أمر به فأرسل إلى دمشق ومن بقي من قومه بكل حفاوة وإكرام.

وفي جمادى الأولى سنة ٥٨٣ هـ دخل صلاح الدين عكا وانتقل الصليبيون فيها إلى مدينة صور ثم استولى صلاح الدين على (تبنين وصيدا وجبيل وبيروت) وبعد ذلك ساير الساحل وحاصر عسقلان مدة أربعة عشر يومًا وانتهى الأمر باستسلامها، وبذلك نصب صلاح الدين حصارًا على بيت المقدس وحال بينها وبين الإمدادات الخارجية التي كانت تردُ من الساحل.

توجه السلطان بعد استلام الرملة والداروم وغزة وبيت لحم والنطرون إلى

بيت المقدس، وكان لا يريد أن يريق به دمًا، ولكن الصليبيين امتنعوا عن التسليم، فاستطاع صلاح الدين أن يستولي عليها بالقوة ورضى الفرنج بالصلح وتم الاتفاق على «أن يسمح لهم بالخروج في مدة أربعين يومًا، يدفع الرجل منهم عشرة دنانير، والمرأة خمسة والولد اثنين، ومن لم يستطع ذلك فهو أسير وأنهم يتحولون منها إلى مأمنهم وهي مدينة صور..» ولم يتمكن المسلمون أن يصلوا أول جمعة، بالمسجد الأقصى فقد أخذوا ينظفونه مما كان فيه من الصلبان والرهبان والخنازير.

وفي يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ يوم الإسراء، كان أول خطيب للمسجد الأقصى هو قاضي دمشق محي الدين بن الزكي وكان من ضمن خطبته:

«أيها الناس أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى والدرجة العليا، ولما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة، وردّها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريبًا من مائة عام، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع وأن يذكر فيه اسمه، وإماطة الشرك عن طرقه بعد أن امتد عليها رواقة، واستعمر فيها رسمه، ورفع قواعده بالتوحيد فإنه بنى عليه فهو موطن أبيكم ابراهيم، ومعراج نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام، وقبلتكم التي تصلون إليها في ابتداء الاسلام، وهو مقر الأنبياء، ومقصد الأولياء، ومقر الرسل ومهبط الوحي، ومنزل تنزل الأمر والنهي، وهو في أرض المحشر وصعيد المنشر، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين...

وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله ﷺ بالملائكة المقربين، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحه عيسى الذي شرفه الله برسالته وكرمه بنبوته ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته، فقال الله

تعالى: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لله﴾ [النساء:١٧٢].

وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:١٧].

وهو أول القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، ولا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه، ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده، واصطفاه من سكان بلاده، لما خصكم بهذه الفضيله التي لا يجاريكم فيها مجار ولا يباريكم في شرفها مبار، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية، والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية، والفتوحات العمرية، والجيوش العثمانية والفتكات العلوية...

جددتم للإسلام أيام القادسية، والوقعات اليرموكية والمنازلات الخيبرية، والهجمات الخالدية، فجزاكم الله عن نبيكم أفضل الجزاء..» إلى آخر ما جاء في الخطبة.

سماحة الإسلام في سلوك صلاح الدين مع أعدائه:

يقول استيفنسن: إن السلطان قد سمح لعدد كبير بالرحيل من غير فدية...

«إن السلطان قد قضى يومًا من أول بزوغ الشمس إلى غروبها وهو فاتح الباب للعجزة والفقراء تخرج من غير أن تدفع الجزية..».

ويروي أحد المؤرخين عن مل المؤرخ الإنجليزي قائلاً:

«.. وذهب عدد من المسيحيين الذين غادروا القدس إلى إنطاكية المسيحية، فلم يكن نصيبهم من أميرها إلا أن أبى عليهم أن يضيفهم، فطردهم، فساروا على وجوههم في بلاد المسلمين فقوبلوا بكل ترحاب...»

ويقول أيضًا: وقيل للسلطان صلاح الدين، والبطرك خارج بأمواله وذخائره، وكانت كثيرة جدًا لم يصرفها في فداء الفقراء والمساكين، من المسيحيين بعد أن وصف - ستانلي - البطرك بأنه كان من غير ضمير ولا وجدان، قيل

للسلطان: لم لا تصادر هذا فيما يحمل وتستعمله فيما تقوي به أمر المسلمين؟ فقال السلطان: لا آخذ منه غير العشرة دنانير ولا أغدر به...

وتعليقًا على هذه الحادثة يقول ستانلي لي بول: «... وقد وصل الأمر إلى أن سلطانًا مسلمًا يلقي على راهب مسيحي درسًا في معنى البر والإحسان...».

وأخيرًا يقول فيليب حتى: ... وكان الفرق جليًا بين معاملة صلاح الدين للمدنيين الفرنج، ومعاملة الفرنج للمسلمين قبل ذلك بثمان وثمانين سنة..

ورحم الله الشاعر المسلم الذي قال:

ملكنا فكان العدل منا سجية ... فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحلّلتم قتل الأسارى وطالما ... غدونا على الأسرى نمن ونصفح
فحسبكم هذا التفاوت بيننا ... وكل إناء بالذي فيه ينضح

الحملة الصليبية الثالثة سنة ٥٨٥ هـ:

ما إن اجتمعت الفلول الصليبية اللاجئة إلى مدينة صور حتى أغراها اجتماعها وكثرتها على نقض العهد الذي أعطته لصلاح الدين، لهذا توجه الصليبيون إلى مدينة عكا وحاصروها برًا وبحرًا واستمر الحصار عامين ابتداءً من ٨ رجب سنة ٥٨٥ هـ.

فلما وصلت الجيوش الإسلامية، وحاصرت القوات الصليبية من ناحية البر، ونصب صلاح الدين خيمته على (تل كيسان)...

وفي هذه الآونة كانت ممالك أوروبا تستعد لحملة صليبية ثالثة لاسترداد بيت المقدس من يد صلاح الدين وكان على رأس الحملة:-

- إمبراطور ألمانيا (فريديك بربروس).
- ملك فرنسا (فيليب أوغسطس).

- ملك إنكلترا (ريتشارد قلب الأسد).

فأما الحملة الألمانية فقد غرق إمبراطورها في الطريق فتشتت الجيش الألماني وعاد معظمه من حيث أتى ولم يصل إلى عكا إلا عدد قليل من هذا الجيش.

وأما الإنكليز والفرنسيون فقد التقوا في صقلية وأقاموا فيها مدة طويلة لخلاف وقع بينهم.. ثم بارح الفرنسيون صقلية إلى عكا...

ثم بارحها الإنكليز ولكن عاصفة ألقت بأسطولهم على جزيرة قبرص التي كانت تابعة للإمبراطورية البيزنطية، فدخل قلب الأسد في معركة مع البيزنطيين واستولى على قبرص واستقر بها مدة، ثم أبحر إلى عكا بعد أن استنجد به ملك بيت المقدس الذي كان قد عفا عنه صلاح الدين.

ولما وصلت الحملتان ارتفعت معنويات الصليبيين.

وفي يوم الجمعة ١٧من جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ هـ، ارتفعت فجأة الأعلام الصليبية على أسوار مدينة عكا، وفوجئ المسلمون وارتاعوا وهاجم الصليبيون بضراوة، ولم تذهب عكا إلا وقد كلفت المسلمين ٦٠ ألف نفس.

بعدها انصرف الفرنجة في عكا إلى ملذاتهم، واشتغلوا بها فترة من الزمان وهم جيوش حاشدة.

وازداد الخلاف بين ملك فرنسا وملك الإنكليز انتهت برحيل ملك فرنسا إلى بلاده، والذي يهمنا أن معارك ضارية دارت بين قوات المسلمين بقيادة صلاح الدين وبين قوات ريتشارد قلب الأسد وكان النصر فيها سجالاً..

ومن المعارك الكبيرة التي دارت معركة (أرسوف) تغلب فيها الصليبيون واعتبروها أخذًا بثأر معركة حطين..

ثم دخلت سنة ٥٨٨هـ يروى ابن كثير حاكيا عن الحال حينئذ:

استهلت والسلطان صلاح الدين مخيم بالقدس، وقد قسم السور بين أولاده وأمرائه، وهو يعمل فيه بنفسه، ويحمل الحجر بين القربوسين (القربوس: حنو السرج، أي قسمه المقوّس المرتفع من قدّام المقعد ومن مؤخره) وبينه، والناس يقتدون بهم، والفقهاء والقراء يعملون، والفرنج لعنهم الله حول البلد من ناحية عسقلان وما والاها، لا يتجاسرون أن يقربوا البلد من الحرس واليزك الذين حول القدس، إلا أنهم على نية محاصرة القدس مصممون، ولكيد الإسلام مجمعون، وهم والحرس تارة يغلبون وتارة يُغلَبون، وتارة يَنهبون وتارة يُنهَبون.

وفي ٩ من جمادى الأولى استولى الفرنج لعنهم الله على قلعة الداروم فخربوها، وقتلوا خلقًا كثيرًا من أهلها، وأسروا طائفة من الذرية، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ثم أقبلوا جملة نحو القدس فبرز إليهم السلطان في حزب الإيمان، فلما تراءى الجمعان نكص حزب الشيطان راجعين، فرارًا من القتال والنزال، وعاد السلطان إلى القدس ﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب:٢٥].

ثم إن ملك الإنكليز لعنة الله - وهو أكبر ملوك الفرنج ذلك الحين - ظفر ببعض فلول المسلمين فكبسهم ليلاً فقتل منهم خلقًا كثيرًا، وأسر منهم خمسمائة أسير، وغنم منهم شيئًا كثيرًا من الأموال والجمال، والخيل والبغال، وكان جملة الجمال ثلاثة آلاف بعير، فتقوى الفرنج بذلك، وساء ذلك السلطان مساءة عظيمة جدًا، وخاف من غائلة ذلك، واستخدم الإنكليز الجمالة على الجمال والخربندية (البغالون) على البغال، والسياس على الخيل، وأقبل وقد قويت نفسه جدًا، وصمم على محاصرة القدس، وأرسل إلى ملوك الفرنج الذين بالساحل، فاستحضرهم ومن معهم من المقاتلة، فتعبأ السلطان صلاح الدين لهم وتهيأ، وأكمل السور وعمر الخنادق ونصب المنجانيق، وأمر بتغوير ما حول

القدس من المياه، وأحضر السلطان أمراءه ليلة الجمعة ١٩ من جمادى الآخرة فاستشارهم فيما دهمه من هذا الأمر الفظيع، الموجع المؤلم، فأفاضوا في ذلك، وأشاروا كل برأيه، وأشار العماد الكاتب بأن يتحالفوا على الموت عند الصخرة، كما كان الصحابة يفعلون، فأجابوا إلى ذلك، هذا كله والسلطان ساكت واجم مفكر، فسكت القوم كأنما على رؤسهم الطير، ثم قال: «الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله: اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم في ذممكم معلقة، والله عز وجل سائلكم يوم القيامة عنهم، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين، من يلقاه عن العباد والبلاد غيركم، فإن وليتم والعياذ بالله طوى البلاد وأهلك العباد، وأخذ الأموال والأطفال والنساء، وعبد الصليب في المساجد،، وعزل القرآن منها والصلاة، وكان ذلك كله في ذممكم، فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا كله، وأكلتم بيت مال المسلمين لتدفعوا عنهم عدوهم، وتنصروا ضعيفهم، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام».

فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال: يا مولانا نحن مماليكك وعبيدك، وأنت الذي أعطيتنا وكبرتنا وعظمتنا، وليس لنا إلا رقابنا ونحن بين يديك، والله ما يرجع أحد منا عن نصرك حتى يموت، فقال الجماعة مثل ما قال، ففرح السلطان بذلك وطاب قلبه، وانصرفوا من بين يديه على ذلك، ثم بلغه بعد ذلك أن بعض الأمراء قال: إنا نخاف أن يجري علينا في هذا البلد مثل ما جرى على أهل عكا، ثم يأخذون بلاد الإسلام بلدًا بلدًا، والمصلحة أن نلتقي بهم بظاهر البلد، فإن هزمناهم أخذنا بقية بلادهم، وان تكن الأخرى سلم العسكر ومضى بحاله، ويأخذون القدس وتحفظ بقية بلاد الإسلام بدون القدس مدة طويلة، وبعثوا إلى السلطان يقولون له: إن كنت تريدنا نقيم بالقدس تحت حصار الفرنج، فكن أنت معنا أو بعض أهلك، حتى يكون الجيش تحت أمرك، فان الأكراد لا تطيع الترك، والترك لا تطيع الأكراد.

فلما بلغه ذلك شق عليه مشقة عظيمة، وبات ليلته مهمومًا كئيبًا يفكر فيما قالوا، ثم انجلى الأمر واتفق الحال على أن يكون الملك الأمجد صاحب بعلبك مقيمًا عندهم نائبًا عنه بالقدس، وكان ذلك نهار الجمعة، فلما حضر إلى صلاة الجمعة وأذن المؤذن للظهر قام فصلى ركعتين بين الأذانين، وسجد وابتهل إلى الله تعالى ابتهالاً عظيمًا، وتضرع إلى ربه، وتمسكن وسأله فيما بينه وبينه كشف هذه الضائقة العظيمة.

فلما كان يوم السبت من الغد جاءت الكتب من الحرس الذين حول البلد بأن الفرنج قد اختلفوا فيما بينهم، فقال ملك الأفرنسيين إنا إنما جئنا من البلاد البعيدة وأنفقنا الأموال العديدة في تخليص بيت المقدس ورده إلينا، وقد بقى بيننا وبينه مرحلة، فقال الإنكليز إن هذا البلد شق علينا حصاره، لأن المياه حوله قد عدمت، وإلى أن يأتينا الماء من المشقة البعيدة يعطل الحصار، ويلتف الجيش، ثم اتفق الحال على أن حكموا منهم عليهم ثلاثمائة منهم، فردوا أمرهم إلى اثنى عشر منهم، فردوا أمرهم إلى ثلاثة منهم، فباتوا ليلتهم ينظرون ثم أصبحوا وقد حكموا عليهم بالرحيل، فلم يمكنهم مخالفتهم فانسحبوا راجعين لعنهم الله أجمعين، فساروا حتى نزلوا على الرملة وقد طالت عليهم الغربة والزملة (الاجتماع، أو البعد عن العيال) وذلك في بكرة الحادي والعشرين من جمادى الآخرة، وبرز السلطان بجيشه إلى خارج القدس وسار نحوهم خوفًا أن يسيروا إلى مصر، لكثرة ما معهم من الظهر والأموال، وكان الإنكليز يلهج بذلك كثيرًا فخذلهم الله عن ذلك، وترددت الرسل من الإنكليز إلى السلطان في طلب الأمان ووضع الحرب بينه وبينهم ثلاث سنين، وعلى أن يعيد لهم عسقلان ويهب لهم كنيسة بيت المقدس وهي القمامة، وأن يمكن النصارى من زيارتها وحجها بلا شيء، فامتنع السلطان من إعادة عسقلان وأطلق لهم قمامة، وفرض على الزوار ما لا يؤخذ من كل منهم، فامتنع الإنكليز إلا أن تعاد لهم عسقلان

ويعمر سورها كما كانت، فصمم السلطان على عدم الإجابة.

ثم ركب السلطان حتى وافى يافا فحاصرها حصارًا شديدًا، فافتتحها وأخذوا الأمان لكبيرها وصغيرها، فبينما هم كذلك إذ أشرفت عليهم مراكب الإنكليز على وجه البحر، فقويت رءوسهم واستعصت نفوسهم، فهجم اللعين فاستعاد البلد وقتل من تأخر بها من المسلمين صبرًا بين يديه، وتقهقر السلطان عن منزلة الحصار إلى ما وراءها خوفًا على الجيش من معرة الفرنج، فجعل ملك الإنكليز يتعجب من شدة سطوة السلطان، وكيف فتح مثل هذا البلد العظيم في يومين، وغيره لا يمكنه فتحه في عامين، ولكن ما ظننت أنه مع شهامته وصرامته يتأخر من منزلته بمجرد قدومي، وأنا ومن معي لم نخرج من البحر إلا جرائد (أي مجردين من السلاح) بلا سلاح، ثم ألح في طلب الصلح وأن تكون عسقلان داخلة في صلحهم، فامتنع السلطان ثم إن السلطان كبس في تلك الليالي الإنكليز وهو في سبعة عشر مقاتلاً، وحوله قليل من الرجالة فأكب بجيشه حوله وحصره حصرًا لم يبق معه نجاة، لو صمم معه الجيش، ولكنهم نكلوا كلهم عن الحملة، فلا قوة إلا بالله، وجعل السلطان يحرضهم غاية التحريض، فكلهم يمتنع كما يمتنع المريض عن شرب الدواء.

هذا وملك الإنكليز قد ركب في أصحابه وأخذ عدة قتاله، وأهبة نزاله، واستعرض الميمنة إلى آخر الميسرة، يعني ميمنة المسلمين وميسرتهم، فلم يتقدم إليه أحد من الفرسان، ولا نهره بطل من الشجعان، فعند ذلك كر السلطان راجعًا، وقد أحزنه أنه لم ير من الجيش مطيعًا، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولو أن له بهم قوة لما ترك أحدًا منهم يتناول من بيت المال فلسًا، ثم حصل لملك الإنكليز بعد ذلك مرض شديد، فبعث إلى السلطان يطلب فاكهة وثلجًا فأمده بذلك من باب الكرم، ثم عوفي لعنه الله وتكررت الرسل منه يطلب من

السلطان المصالحة لكثرة شوقه إلى أولاده وبلاده، وطاوع السلطان على ما يقول وترك طلب عسقلان، ورضي بما رسم به السلطان، وكتب كتاب الصلح بينهما في سابع عشرمن شعبان، وأكدت العهود والمواثيق من كل ملك من ملوكهم، وحلف الأمراء من المسلمين وكتبوا خطوطهم، واكتفى من السلطان بالقول المجرد كما جرت به عادة السلاطين، وفرح كل من الفريقين فرحًا شديدًا، وأظهروا سرورًا كثيرًا، وعاد السلطان إلى القدس فرتب أحواله ووطدها، وسدد أموره وأكدها، وعزم صلاح الدين على الحج عامه ذلك، فكتب إلى الحجاز واليمن ومصر والشام ليعلموا بذلك، ويتأهبوا له، فكتب إليه القاضي الفاضل ينهاه عن ذلك خوفًا على البلاد من استيلاء الفرنج عليها، ومن كثرة المظالم بها، وفساد الناس والعسكر وقلة نصحهم وأن النظر في أحوال المسمين خير لك عامك هذا، والعدو مخيم بعد بالشام، وأنت تعلم أنهم يهادنون ليتقووا ويكثروا، ثم يمكروا ويغدروا، فسمع السلطان منه وشكر نصحه وترك ما عزم عليه وكتب به إلى سائر الممالك، واستمر مقيمًا بالقدس جميع شهر رمضان في صيام وصلاة وقرآن، وكلما وفد أحد من رؤساء الفرنج للزيارة فعل معه غاية الإكرام، تأليفًا لقلوبهم، ولم يبق أحد من ملوكهم إلا جاء لزيارة القمامة متنكرًا، ويحضر سماط السلطان فيمن حضر من جمهورهم، بحيث لا يرى.

والسلطان لا يعلم ذلك جملة ولا تفصيلاً، ولهذا كان يعاملهم بالإكرام، ويريهم صفحًا جميلاً، وبرًّا جزيلاً.

وهكذا عقد صلح الرملة بين الطرفين وكان أهم ما في هذا الصلح:

١- أن يستقر الصليبيون في الشريط الساحلي الممتد من صور إلى حيفا.

٢- السماح للنصارى بزيارة بيت المقدس دون ضريبة يدفعونها.

٣- أن تقع هدنة بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات وثمانية أشهر.

وبعد الهدنة بقليل غادر قلب الأسد السواحل الشامية قاصدًا بلاده بعد أن اكتسب شهرة عظيمة.

وهكذا انتهت الحرب الصليبية الثالثة بعد حرب دامت خمس سنوات ذهبت فيها أرواح كثيرة، وخربت بلاد بأسرها، وفقدت ألمانيا إمبراطورها، كما أضاعت فرنسا وإنكلترا نخبة من زهرة شبابها وقوادها. ولم يحققوا غايتهم فلم ينالوا سوى عكا، فلم تكافئ في نتيجة هذه الحرب بأي شكل من الأشكال ما تكبدته أوروبا، وفقدته في سبيلها.

وعاش الناس في ظل حكم صلاح الدين آمنين، حتى أن حجاج بيت المقدس من النصارى ازداد جدًا، وخاف ريتشارد قلب الأسد أن يغضب ذلك صلاح الدين فأرسل إلى صلاح الدين (يسأله منع الزوار واقترح ألا يؤذن لهم إلا بعد إحضار علامة من جانبه أو كتاب منه).

وأبى صلاح الدين ذلك وكان رده: (إن هؤلاء قد وصلوا من ذلك البعد لزيارة هذا المكان الشريف فلا أستحل منعهم).

وفي ليلة الأربعاء ٢٧من صفر سنة ٥٨٩ هـ وهي الليلة الثانية عشرة من مرضه فاضت روح صلاح الدين إلى بارئها (وكان يومًا لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله منذ أن فقدوا الخلفاء الراشدين...).

مات محرر بيت المقدس ولم يترك في خزانته سوى سبعة وأربعين درهمًا ناصرية ودينارًا واحدًا...

مات والناس يظنون أنه أدى ما كان يتمناه من تحرير المسجد الأقصى ولكن أمانيه كانت أعلى من ذلك فقد كان يقول: «وفي نفسي أنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل، قسمت البلاد وأوصيت وودَّعتُ وركبت هذا البحر إلى جزائره وابتعثتهم فيها حتى لا ألقي على وجه الأرض من يكفر

بالله أو أموت...».

تولى بعد صلاح الدين العزيز عماد الدين، إلا أنه حدثت بينه وبين أخيه الأفضل ملك دمشق منازعات وحروب انتهت بنفي الأفضل عن دمشق وتولاها العادل سيف الدين محمد أخو صلاح الدين، الذي كان وقتئذ حاكمًا على الجزيرة، وكان العادل من أكثر الناس سياسة وحزمًا، فبعد أن قبض على أزمة الأمور بدمشق دانت له جميع البلاد السورية.

وفي سنة ٥٩٥ هـ مات العزيز، فحضر العادل إلى مصر وتغلب على ابني صلاح الدين وعزل المنصور بن العزيز من مصر (وكان طفلاً صغيرًا) وتولى هو ملكها.

وفي سنة ٥٩٦ هـ دانت له معظم دولة صلاح الدين وصارت مصر صاحبة الشأن الأكبر في هذه الدولة.

وفي سنة ٥٩٧ هـ وقع بمصر قحط شديد ثم وباء عظيم أضعفا شأن المملكة، إلا أن العادل لم يفتر عن توطيد دعائم المملكة، وجمع كلمة المسلمين وجعلهم يدًا واحدة ليستعين بهم على استئصال شأفة الصليبيين.

وكان الصليبيون أثناء اشتغال العادل بتثبيت ملكة بالشام قد جاءتهم أمداد من ألمانيا سنة ٥٩٣ هـ، وأرادوا أن ينتهزوا فرصة تفرق المسلمين للاستيلاء على بيت المقدس فانتصروا على العادل، وأخذوا منه بيروت، ولكنهم تفرقوا بعد ذلك، وعقد العادل معهم صلحًا بالتنازل عن يافا والرملة اعتقادًا منه أن الصلح يتيح له فرصة أكبر لتعزيز موقفه.

الحملة الصليبية الرابعة سنة ٦١٤هـ :

منذ وفاة صلاح الدين والبابا أنوست الثالث يدعو أوروبا إلى حرب صليبية

جديدة لاسترجاع ما استلبه صلاح الدين منهم...

فتحرك على رأس هذه الحملة أمراء فرنسيون وقرروا أن يتوجهوا بها إلى مصر أولاً ثم إلى بيت المقدس.

ولكن ثورة هبت في القسطنطينية أطاحت بالإمبراطور إسحاق الثاني، وفر ابنه الكسيوس إلى الغرب طالبًا المساعدة من البابا ومن الصليبيين، عارضًا في مقابل ذلك إخضاع الكنيسة الشرقية للبابوية ومساعدة الصليبيين في حملتهم ضد مصر... فاتجهت جموع الصليبيين إلى القسطنطينية واستولت عليها وقاموا بتخريبها والعدوان على أهلها حتى تمنى بعض البيزنطيين أن لو كانت القسطنطينية قد وقعت في أيدي المسلمين، وقد أحرق الصليبيون بعض الكنائس والجامع القديم الذي بنى في عهد بني أمية وقاموا بسلب المدينة.

فكان من نتائج هذه الحلمة أن خضعت الكنيسة الأرثوذكسية (الشرقية) للكنيسة الكاثوليكية (الغربية) لأول مرة... وفترت همة المحاربين الصليبيين... وتعمق الخلاف بين مسيحي الشرق ومسيحي الغرب جعلت الطريق البري إلى الشام أشد وعورة وأعظم خطرًا...

يقول أحد مؤرخي الحروب الصليبية: «إن الحملة الصليبية الرابعة جاءت نذيرًا بفشل الحركة الصليبية بأكملها».

الحملة الصليبية الخامسة:

وفي سنة ٦١٥ هـ توفي العادل سيف الدين محمود.

وتولى بعده السلطان الكامل محمد، ومع أول فترة حكمه كانت الحرب الصليبية الخامسة بناء على دعوة البابا أنوسنت الثالث.

وصلت الحملة وفيها من زعماء أوربا:

- ليوبولد السادس دوق النمسا.

- وأندريه الثاني ملك هنغاريا.

- وبهمايو ملك قبرص.

ولكن أندريه الثاني سرعان ما عاد إلى بلاده...

وتوجهت الحملة ناحية مصر واستولت على دمياط بعد قتال شديد، ولكن الكامل قاتلهم عليها ليلاً ونهارًا، إلا أنه لم يفلح في إخراجهم منها، حتى أنه عرض عليهم صلحًا مغريًا إذا خرجوا من دمياط، ولكنهم رفضوا واغتروا بعددهم واتجهوا لمهاجمة القاهرة سنة ٦١٩ هـ.

فتقدموا وسط مثلث تحيط به المياه من ثلاث جهات هي بحيرة المنزلة من الشرق وفرع دمياط من الغرب والبحر الصغير من الجنوب.

ووقفت السفن الإسلامية في النيل لتسد عليهم الطريق وكان وقت فيضان النيل فقطع المسلمون السدود فغرقت الأرض المحيطة بالصليبيين ولم يبق لهم للعودة إلى دمياط سوى طريق ضيق ملأه الملك الكامل بقواته فأخذت عليهم طريق العودة إلى دمياط.

حوصر الصليبيون واضطروا أن يطلبوا الصلح خانعين، فأجابهم الملك الكامل بشرط أن يسلموا له رهائن من ملوكهم حتى يسلموا دمياط للمسلمين، وبالفعل رحلوا عن دمياط في رجب سنة ٦١٨ هـ ودخلها الملك الكامل بفضل الله تعالى، وبذلك تكون الحملة الخامسة قد فشلت أيضًا.

الحملة الصليبية السادسة:

وفي سنة ٦٢٥ هـ خرج الإمبراطور فريدريك الثاني ملك ألمانيا يطالب بإمارة بيت المقدس، وكان على وشك الخروج مع جيوش أوروبية، إلا أنه

أغضب البابا وغيره من أولى الشأن من المسيحيين لاستقلاله عنهم في الرأي فتركوه يخرج وحده لجهاد المسلمين.

وكان فريدريك قليل التعصب الديني يميل إلى المسلمين حتى ظن البابا أنه دخل في دينهم...

وكان الخلاف قد دب بين الكامل وأخيه المعظم والأشرف أو شك أن يصل إلى التحارب والتقاتل، وبالإضافة إلى خطر خارجي أخذ يهدد الدولة الأيوبية من الخوارزميين الذين شتتهم جنكيز خان فتجمعوا في أصفهان وأخذوا يهددون الشام والعراق، فعقد الكامل محالفة مع فردريك على أن يتنازل له عن بيت المقدس، وعن طريق حجاجه المؤدية إلى عكا ويافا، وأن يطلق سراح الأسرى من الفرنج!! ويقوم فردريك نظير ذلك بمساعدته على رد كل مهاجم ولو كان مسيحيًا وأن يمنع المدد عن أمراء الصليبيين الآخرين في الشام مدة عشر سنين ونصف، فأخذ فردريك بيت المقدس بلا ضرب ولا قتال، فعد المسلمون ذلك من أشنع غلطات الكامل...

وبمهادنة الكامل لفردريك وحَّد قواه لانتزاع أملاك أقاربه حتى تمت له السيادة على جميعها، ولم يبق له منازع من آل أيوب وعاش نحو تسع سنيين لم يحارب فيها أحدًا من الصليبيين، وآخر عهده بالحروب أنه خرج سنة ٦٣٥ هـ للاستيلاء على دمشق فتم له النصر، إلا أنه توفى بعدها فعاد النزاع بين ملوك بني أيوب إلى أشد ما كان عليه...

وكان الكامل لا يفتر عن العمل وتقدمت مصر في عهده كثيرًا، بفضل ما قام به من الأعمال لإصلاح الري وتحسين حال الزراعة، وأتم الكامل بناء قلعة صلاح الدين وأسس كثير من المعاهد العلمية، وكان كمعظم أفراد أسرته محبًا للعلم والعلماء يجلس إليهم في ليالي الجمعة لسماع حديثهم والمناقشة معهم.

فائدة: نقول: ولكنه فرط في مقدسات المسلمين حفاظًا على ملكه فماذا يفيده ما أقامه من العمران وحبه للعلم؟! تبدد ملك أسرته وبقى التاريخ يحفظ تلك النقيصة له.

فخلفه ابنه السلطان العادل سيف الدين أبو بكر الثاني فاشتغل باللهو عن التدبير، فأنكر الأمراء ذلك وخلعوه بعد سنتين...

وولي أخوه الملك الصالح أيوب سنة ٦٣٧ هـ فكان من خيرة السلاطين، دبر المملكة أحسن التدبير وأخمد الفتنة وبنى قلعة الروضة بجزيرة الروضة، ونزلها وحشد فيها المماليك من الترك وبالغ في شرائهم (وسيكونون سببًا في استلاب الملك من أولاده كما سلبوه من أولاد المعتصم العباسي) وكان عمه الصالح إسماعيل من أكبر أعدائه، فإنه استولى على دمشق واتحد مع الصليبيين وتنازل لهم عن بعض المواقع، فاستعان الصالح أيوب بقبائل الخوارزمية وهزم الأعداء وأعاد بيت المقدس للمسلمين سنة ٦٤٢ هـ.

واسترد دمشق سنة ٦٤٣ هـ وعسقلان سنة ٦٤٥ هـ ورجعت دولته إلى ما كانت عليه في عهد جده.

الحملة الصليبية السابعة:

وفي آخر مدته نزل الصليبيون في أكثر من مائة ألف إلى دمياط فملكوها بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، فرابط الملك الصالح بالمنصورة ومرض مرض الموت فأرسلت زوجته شجرة الدر إلى ولده (توران شاه) بالجزيرة تستدعيه فلما مات الصالح أخفت موته وأصدرت الأوامر بما يشبه توقيعه، وجمعت قواد الجيش وأرباب الدولة وزعمت أن السلطان يأمرهم بالبيعة لولده توران شاه ففعلوا، ووقع الفرنج في نفس الخطأ الذي وقعوا فيه في

عهد الكامل، فإنهم بدل أن يأتوا مصر من طريق صحراء سيناء مارين بالفارما شأن الفاتحين قبلهم أتوها من قبل دمياط والمنصورة حيث تعترضهم الترع والخلجان، فزحفوا على المنصورة سنة ٦٤٨ هـ وكادوا يملكونها، فحضر توارن شاه، فقاتل الفرنج ودارت عساكره حولهم فاستولى على أكثر مراكبهم وأخذتهم السيوف من كل جانب، وقتل منهم نحو ٣٠ ألفًا، وغرق كثير منهم في النيل وأسر ملكهم لويس التاسع وسجن في دار ابن لقمان بالمنصورة، ثم فدى نفسه وبقية أهله وعساكره بمبلغ ١٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك وخرج من دمياط.

وتعتبر هذه واقعة فاصلة بين المسلمين والصليبيين، ولما ولى السلطان الملك المعظم توران شاه وفرغ من الصليبيين طالب شجرة الدر بمال أبيه وتهدد المماليك، فقتلوه بعد سبعين يومًا من ملكه، وولوا مكانه أم خليل شجرة الدر، ولم يلِ المسلمين امرأة قبل، فأقامت في المملكة ثلاثة أشهر وعزلت نفسها.

واتفق المماليك أن يولوا الأشرف موسى من بيت الملك فولوه وعمره ٨ سنوات وجعلوا عز الدين أيبك التركماني، أحد مماليك الصالح قيمًا عليه، وتزوج شجرة الدر ولم يلبث أن خلع الأشرف واستبد بالملك، وانتهت دولة آل أيوب في مصر وبقيت منهم دولة بالشام دخلوا بعد في طاعة المماليك مع نوع استقلال.

يقول المؤرخون:

كانت الدولة الأيوبية دولة فتح وجهاد من مبدئها إلى منتهاها فمؤسسها صلاح الدين وآخرها توران شاه كللت حياتهم بالانتصار الباهر على الصليبيين وكان بينهما ملوك لم يقصروا عنهما في رد غاراتهم، فكأن هذه الدولة وجدت لتكون عقبة في سبيل تغلب أوربا على الشرق، أو لتأخير ذلك أكثر من ستمائة سنة وعوده بشكل آخر، وكأنها كانت برفقها وقلة تعصبها ووفائها أستاذًا ناصحًا أرشد اختلاف الصليبيين إلى حسن معاملة البشر، ونبذ التعصب الوحشي الذميم ونقض العهود والغدر القبيح، ولولا وقوف الدولة الأيوبية في وجه أوربا المسيحية (المتعصبة في ذلك الوقت) لا نقرض الإسلام من جميع بقاع الشام والجزيرة ومصر وشمالي أفريقية كما أنقرض من الأندلس.

نقول: وكذلك كان آل زنكي الأساتذة الأوائل في دحر الصليبيين...

فكان من نتائج هذه الحروب أنها أحيت روح الإيمان في نفوس عامة المسلمين في مواجهة من احتل ديارهم وانتهك حرمة المسجد الأقصى...

وكان من نتائجها كذلك أن ضعفت الدولة الرومانية الشرقية (بيزنطة) مما مهد الاستيلاء عليها نهائيًا بعد الحروب الصليبية بزمن غير بعيد على يد العثمانيين...

الفصل السادس

دولـــة المماليك

كانوا دائمًا أهل طعان ونزال...كانوا أشقاء للسيف والرمح...أبطال عين جالوت ووقعة حمص ووقعة شقحب وفاتحي قبرص...

ولكن لما نسوا الرسالة التي عاشوا من أجلها في الدفاع الخارجي...نسوا السيف وانقلبوا إلى متسلطين داخليين على الأمة...فقدوا دورهم في التاريخ...

دولة المماليك

(٦٤٨ – ٩٢٢) هـ

أولاً: دولة المماليك البحرية

(٦٤٨ – ٧٨٤) هـ

وعددهم ٢٤ سلطانًا أولهم السلطان عز الدين أيبك التركماني، تولى أمر مصر سنة ٦٤٨ هـ وتزوج الملكة شجرة الدر، ثم سلب منها كل سلطة واضطهدها، ثم قتل سنة ٦٥٥ هـ ثم قتلت شجرة الدر فتولى ابن أيبك الإمارة ولقب بالملك المنصور وهو صبي لا يزيد عمره عن ١١ سنة!!!

ولاية سيف الدين قطز

فقام بأمر الدولة سيف الدين قطز فوقعت في مدته سنة ٦٥٦ هـ النكبة العظمى وهي سقوط بغداد في يد التتار وزوال الخلافة فجمع قطز القضاة والعلماء لذلك، فأفتوه بخلع السلطان الصبي وولوه مكانه، فتولى سنة ٦٥٧ هـ ولقب بالملك المظفر، فلما جاءت سنة ٦٥٨ هـ كان العالم الإسلامي يتحكم فيه ملوك أربعة باستثناء الشمال الأفريقي.

- شمال آسيا (بلاد ما وراء النهر وأذربيجان وسمرقند وخراسان وغيرها يحكمها هولاكو ملك التتار).
- البلاد الشامية يحكمها الملك الناصر بن العزيز.
- بلاد الكرك يحكمها المغيث بن العادل
- ومصر يحكمها قطز.

عجبًا للملوك يتحاربون من أجل الملك ويذهلون عن أعدائهم

وكان ملك الشام بمعونة ملك الكرك قد عزما على محاربة الملك قطز لأخذ

مصر منه عنوة، ولكن وصول الخبر بعزم هولاكو على غزو بلاد الشام حال دون ذلك، فدخل حلب بعد حصار سبعة أيام وأعمل في أهلها القتل وانخلع قلب حاكم حماه فأرسل مفاتيح البلد إلى هولاكو قبل أن يتحرك نحوها ...

ثم دخل دمشق بغير مدافع ولا ممانع في آخر صفر سنة ٦٥٨ هـ واستعصت قلعة دمشق على التتار فضربوها بالمجانيق حتى استسلم من فيها وجعل التتار حكم البلد والقلعة إلى رجل تتري يسمى إبل سيان...

وكان إبل سيان هذا ميالاً إلى النصارى، معظِّمًا لدينهم، فصار للنصارى صولة وجولة وعاثوا في الأرض الفساد، وأخذوا يطوفون بالشوارع وهم يصيحون ظهر الدين الصحيح دين المسيح، وذموا الإسلام وأهله، ورفعوا الصليب، وأجبروا الناس على القيام له، ولما شكا المسلمون إلى الحاكم التتري طردهم وأهانهم، وكان لكتبغا نائب هولاكو أسلوب خبيث في حربه مع المسلمين: فكان إذا فتح بلدًا ساق مقاتلة هذا البلد إلى البلد الآخر الذي يليه ويطلب من أهل ذلك البلد أن يؤوا هؤلاء إليهم، فإن فعلوا حصل مقصوده في تضييق الأطعمة والأشربة عليهم فتقصر مدة الحصار عليه لقلة المخزون ...

فإن امتنعوا من إيوائهم عندهم قاتلهم بأولئك المقاتلة الذين هم أهل البلد الذي فتحه قبل ذلك، فان حصل الفتح وإلا كان قد أضعف أولئك بهؤلاء حتى يُفني تلك المقاتلة، فإن حصل الفتح وإلا قاتلهم بجنده وأصحابه مع راحة أصحابه وتعب أهل البلد وضعفهم حتى يفتحها سريعًا ...

وكان يبعث إلى الحصن وهو يحاصره يقول: إن ماءكم قد قل فنخشى أن نأخذكم عنوة بمن آخركم ونسبي نساءكم وأولادكم فما بقاؤكم بعد ذهاب مائكم، فافتحوا صلحًا قبل أن نأخذكم قسرًا، فيقولون له: إن الماء عندنا كثير فلا نحتاج إلى ماء.

فيقول: لا أصدق حتى أبعث من عندي من يشرف عليه فان كان كثيرًا انصرفت عنكم، فيقولون: ابعث من يشرف عليه، فيرسل رجالاً من جيشه معهم رماح مجوفة محشوة سمًا، فإذا دخلوا الحصن ظهروا أنهم يقيسون عمق الماء بتلك الرماح فينفتح ذلك السم ويختلط بالماء فيكون سبب هلاكهم وهم لا يشعرون!!!

العز بن عبد السلام:

وصلت أخبار التتار إلى مصر، عند ذلك عقد المصريون مجلسًا حضره قاضي مصر بدر الدين السنجاوي والشيخ عز الدين بن عبد السلام ليدبروا أمرهم، واقترح أحد الحاضرين أن تأخذ الدولة شيئًا من أموال الناس للإنفاق على المعركة فوقف الشيخ العز بن عبد السلام وقال: «إذا لم يبق في بيت المال شيء، ثم أنفقتم أموال الحوائض المذهبة وغيرها من الفضة والزينة، وتساويتم أنتم والعامة في الملابس سوى آلات الحرب بحيث لم يبق للجندي سوى فرسه التي يركبها، ساغ للحاكم حينئذ أخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء عنهم، لأنه إذا دهم العدو البلاد، وجب على الناس كافة دفعهم بأموالهم وأنفسهم».

خروج المسلمين إلى التتار

رأى قطز أن يبادر التتار قبل أن يبادروه، وأن يذهب إليهم قبل أن يهاجموه، فجيش جيشه وأعد عسكره وخرج متوجهًا نحو الشام، فاستيقظ جيش التتار بقيادة كتبغا على صهيل جيش قطز تملأ عليهم سهل البقاع ....

وفي رمضان سنة ٦٥٨ هـ كانت عين جالوت، دارت معركة عنيفة بين الطرفين انتهت بهزيمة التتار وقتل قائدهم وكثير من أهل بيته وأمر قطز الأمير بيبرس البنداقداري أن يتبع الجيش المنهزم فأتبعوهم حتى وصلوا إلى حلب...

وأما من كان في دمشق من التتار، فقد فروا هاربين، وتبعهم المسلمون من أهل دمشق يقتلونهم ويستخلصون الأسرى من بين أيديهم ... وأسقط في أيدي

النصارى الذين أيدوا التتار، وهاجم المسلمون الكنيسة التي يخرج منها الصليب وأحرقوها وأحرقوا، بيوت النصارى الذين أجبروهم على القيام للصليب، وقتل المسلمون رجلاً رافضيًا كان عونًا للتتار على الاستيلاء على أموال المسلمين.

ونجح بيبرس أن ينتزع أكثر إمارات الشام من أيدي بني أيوب، فوعده قطز بولاية حلب ولم يستطع أن يفي بوعده، فقتله بيبرس وهم عائدون إلى مصر وتولى بعده أمر مصر.

مشـــهد من المعركة:

ذكر عن الملك قطز أنه لما كان يوم المعركة قتل جواده، ولم يجد أحـدًا في الساعة الراهنة من الوشايقة الذين معهم الجنائب، فترجل وبقى واقفًا على الأرض ثابتًا، والقتال عمال في المعركة، وهو في موضع السلطان من القلب، فلما رآه بعض الأمراء ترجل عن فرسه وحلف على السلطان ليركبنها فامتنع وقال لذلك الأمير: ما كنت لأحرم المسلمين نفعك ... ولم يزل كذلك حتى جاءته الوشاقية بالخيل فركب، فلامه بعض الأمراء وقال: ياخوند لم لا ركبت فرس فلان؟ فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك وهلك الإسلام بسببك فقال: أما أنا فكنت أروح إلى الجنة، وأما الإسلام فله رب لا يضيعه، قد قتل فلان وفلان وفلان حتى عد خلقًا من الملوك؟ فأقام الله للإسلام من يحفظه غيرهم، ولم يضيع الإسلام ...

بدء الملك الحقيقي للمماليك البحرية

المماليك البحرية هم مماليك الصالح نجم الدين أيوب الذين كثر عددهم، وزادت تعدياتهم فضج منهم السكان، فبنى لهم قلعة في جزيرة الروضة سنة ٦٣٨ هـ فعرفوا بالمماليك البحرية.

* * *

الظاهر بيبرس البندقداري

(٦٥٨ -٦٧٦) هـ

ويعتبر أول حاكم لهم بعد مرحلة تأسيس دولتهم هو الظاهر بيبرس البندقداري.

فبدأ بتنظيم أمور الدولة وإصلاح الجيوش وإنشاء الأسطول، ثم عني بتحصين الشام وأنشأ بريدًا سريعًا بالحمام الزاجل بين دمشق والقاهرة، وكان بيبرس يرمي إلى بلوغ ما بلغه صلاح الدين، وإلى استئصال شأفة الصليبيين مما بقى في أيديهم بالشام، ولكي يعزز زعامته للإسلام دعا إلى مصر أحد أولاد الخلفاء العباسيين الذين فروا من وجه التتار من بغداد، وبايعه بالخلافة، وهو المستنصر، ثم إن المستنصر هذا ذهب لمحاربة التتار فقُتِل وبويع بالخلافة من بعده للحاكم بأمر الله أحمد، وهو جد الخلفاء العباسين بمصر، واستمرت الخلافة في العباسيين حتى ورثها منهم العثمانيون.

بركة خان ابن عم هولاكو يدخل في الإسلام

بعد هزيمة التتار في عين جالوت دب النزاع بينهم، وطالب الأمراء هولاكو بنصيبهم من الأموال والأملاك، ووصل النزاع ذروته سنة ٦٦٠ هـ حينما دب الخلاف بين هولاكو وبين بركة خان ابن عم هولاكو ... وكان بركة خان محبًا للمسلمين.. فأعلن دخوله في الإسلام وأرسل إلى الظاهر بيبرس، رسالة يقول فيها: «قد علمت محبتي للإسلام، وعلمت ما فعل هولاكو بالمسلمين، فاركب أنت من ناحية حتى آتيه أنا من ناحية حتى نهزمه أو نخرجه من البلاد، وأعطيك جميع ما كان بيده من البلاد».

وأعجب الظاهر بهذا الرأي، فإن الله -عز وجل- سيكفيه التتار، ويسلط بعضهم على بعض.. ودارت معركة شرسة بين هولاكو وبركة خان انتهت

بهزيمة هولاكو وفراره في شرذمة من بقايا جيشه ...

ثم أغار بركة خان على القسطنطينية فهادنه صاحبها، وأرسل السلطان الظاهر بيبرس إلى بركة خان هدايا وتحفًا عظيمة ...

وجاء وفد من التتار على الظاهر بيبرس مستأمنين يطلبون النجاة، فأمنهم وأحسن وفادتهم، ومنحهم إقطاعيات عظيمة ...

وفي سنة ٦٦٤ هـ كانت وفاة هولاكو حيث مرض بالصرع ودفن في قلعة تلا ...

وقام بأمر التتار بعده ولده أباقاخان وهو أحد أولاده العشرة الذين خلفهم هولاكو ولما علم بركة خان بتولية أباقاخان أمر التتار، قصده بجيشه فهزمه، وفرق عنه جموعه...

وفاة بركة خان

عاش بركة خان بن تولى بن جنكيز خان محبًا للإسلام ولعلمائه، وكان الملك الظاهر يناصحه ويكرم رسله حتى توفى سنة ٦٦٥ هـ.

وقام مقامه بعض أهل بيته، وهو منكوتمر بن طغان بن بابوبن تولى ابن جنكيز خان وكان منكوتمر مسلمًا سار على طريقة بركة خان ...

تهديد التتار من جديد

• كتب أبغا خان إلى السلطان الظاهر وهو في دمشق يقول له: «أنت مملوك بسيواس، فكيف يصلح لك أن تخالف ملوك الأرض؟ وأعلم أنك لو صعدت إلى السماء وهبطت إلى الأرض، ما تخلصت مني، فاعمل لنفسك على مصالحة السلطان أبغا..».

فلما وصلت الرسالة إلى بيبرس قال للرسل:«.. أعلموه أني من ورائه بالمطالبة، ولا أزال حتى أنتزع منه جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض...».

أفزع التتار بقيادة أباقاخان وعاونهم الصليبيون، المسلمين بالديار الشامية حينًا ولكن ...

في سنة ٦٦٩ هـ وقع النزاع بين أبغا خان وريث هولاكو وبين ابن عمه منكوتمر فهزم أباقاخان وجاءت البشارة للسلطان بيبرس وهو في عسقلان ففرح بها.

وفي سنة ٦٧١ هـ بلغ بيبرس أن طائفة من التتار عند الفرات تستعد لعبوره للهجوم على الشام مرة أخرى، فركب السلطان، وخاض الفرات بنفسه وجنوده والتقى مع التتار فقتل منهم مقتله عظيمة وكان معه يومئذ الأمير سيف الدين قلاوون وبدر الدين بيسري.

وفي سنة ٦٧٥ هـ وقعت معركة أخرى بين المسلمين والتتار واستشهد فيها نفر من خيرة المسلمين ولكن النصر حالف المسلمين.

بيبرس والصليبيين

أرهب بيبرس الصليبين فوقع بعضهم صلحًا معه، وتوجه بيبرس إلى إنطاكية التي كانت متحالفة مع التتار، فهاجمها وأسر حاكمها وأسر من أهلها قرابة مائة ألف سنة ٦٦٥ هـ، وكان هذا النصر سببًا في أن طلب ملك أرمينية الصلح مع بيبرس، وحذا حذوه أمير طرابلس وملك بيت المقدس، وقد صالحهم بيبرس ليتفرغ لعدوين خطرين؛ التتار من ناحية والإسماعيلية من ناحية أخرى..

بيبرس والباطنية

استطاع بيبرس أن يخضع الباطنية من الإسماعيلية النازلين في الشام والمسمين عند الإفرنج بالحشاشين [١] بعد أن كانوا آفة على ملوك مصر منذ أيام صلاح الدين...

---

(١) انظر فصل الفرق.

ولم تلهه غزواته في الشمال عن الالتفات للأقاليم الجنوبية، فأرسل جيشًا إلى بلاد النوبة سنة ٦٧٤ هـ فأخضع أهلها وأعاد جزية العبيد بعد أن امتنعوا عنها.

ثم توفى بيبرس سنة ٦٧٦ هـ فحدثت منازعات بشأن تولي الملك، فخلفه ولدان أحدهما بعد الآخر ولم تطل مدتهما، وانتهى الأمر بتولي السلطان الملك المنصور سيف الدين (قلاوون) الصالحي (من سنة ٦٧٨ حتى ٦٨٩ هـ) فبقى الملك في بيته أكثر من مائة عام وبعد أن تم له الأمر عقد هدنة مع الصليبيين لمدة عشر سنوات، على ألا يسمح للسفن المصرية بدخول الموانى المسيحية بالشام، وألا يقوم الصليبيون بأي تحصين جديد في مدنهم، ومن ذلك يعلم مقدار ما وصل إليه الصليبيون أن ذاك من الضعف والهوان.

فائدة: ذلك أن السلطان المنصور قلاوون وقبل وقعة حمص[1].

بعث مرسومًا إلى دمشق بعد أن خرج منها باستسلام أهل الذمة من الدواوين والكتبة، ومن لا يسلم يصلب، فأسلموا كرهًا، وكانوا يقولون آمنا وحكم الحاكم بإسلامنا بعد أن يُعرض من امتنع منهم على الصلب بسوق الخيل وجعلت الحبال في أعناقهم، فأجابوا والحالة هذه. ثم كانت وقعة حمص.

وفي شوال من نفس العام عقد مجلس بسبب أهل الذمة من الكتاب الذين كانوا قد أسلموا كرهًا وقد كتب لهم جماعة من المفتيين بأنهم كانوا مكرهين فلهم الرجوع إلى دينهم، وأثبت الإكراه بين يدي القاضي جمال الدين ابن أبي يعقوب المالكي، فعاد أكثرهم إلى دينهم وضربت عليهم الجزية كما كانوا.

(١) سيأتي ذكرها.

وقد كان عقد الهدنة مع الصليبيين من الحكمة إذا إن التتار كانوا يتأهبون للإغارة على مصر مرة أخرى.

وقعة حمص:

وفي رجب سنة ٦٨٠ هـ كانت معركة حمص الرهيبة التي تشبه في شراستها معركة عين جالوت، وكان السلطان قلاوون لما علم بعزم التتار قد أرسل إلى أمراء المسلمين في أنحاء البلاد الإسلامية، يستدعيهم ويطلب منهم المدد لمواجهة التتار فأقبل الأمراء بجيوشهم إلى حيث يقيم المنصور في دمشق، ووفد إليه الناس من كل مكان، وجاءت التركمان والأعراب وغيرهم وتضرع الناس إلى الله طلبًا للمدد والعون.

ودارت المعركة ورجحت كفة التتار في أول الأمر، وفر بعض المسلمين، ولكن ذلك لم ينل من عزيمة السلطان قلاوون الذي ثبت في جماعة قليلة من الجند، ورأى كثير من الأمراء والفرسان ثبات السلطان فعزموا على العودة والثبات معه، والناس على دين ملوكهم، فدارت الدائرة على التتار وقتل منهم عدد عظيم، وفر الباقون لا يلوون على شيء.

وفي سنة ٦٨٠ هـ مات أباقاخان بن هولاكو، ولم تكن موقعة حمص عن رأيه أومشورته، بل بأمر أخيه، ولكنه خرج مع الجيش يرقب الموقف فلما رأى هزيمة قومه تحسر ومات بعدها بقليل، وتولى الأمر بعده أخوه أحمد بن هولاكو. وفي سنة ٦٨٣ هـ ثار التتار على أحمد هذا وقتلوه وولوا مكانه أرغون بن أبغا.

وقضى قلاوون باقي أيامه في محاربة الصليبيين بعدما أمّن بلاده من جانب التتار، فاتجه إلى حصار اللاذقية فحاصرها واستولى عليها، ثم هاجم طرابلس سنة ٦٨٨ هـ فحاصرها واستولى عليها وأسر معظم سكانها ؤ ولم يبق للصليبين بعد ذلك سوى صور وعكا وبيروت، وكانت عكا أمنع الحصون فقرر الاستيلاء عليها وأعد لذلك العدة ولكن منيته عاجلته

ساد في عهد قلاوون العدل، ومن أعماله العظيمة إنشاؤه البيمارستان الكبير بين القصرين (المسمى بمستشفى قلاوون الآن بالنحاسين) وبجانبه المدرسة العظيمة والقبة التي دُفن بها، ووقف عليها الأوقاف الكثيرة وشرط في وقفه كثيرًا من أنواع البر والخير مما لم يسبق إليه أحد من الملوك..

ثم خلفه ابنه الأشرف خليل سنة ٦٨٩ حتى ٦٩٣ هـ

وكان شجاعًا مقدامًا فـ قام بإعداد الجيش الذي كان يعده والده لفتح عكا آخر مدينة حصينة بقيت بأيدي الصليبين، وهنالك جمع الصليبيون فلول جيوشهم للدفاع عنها، إلا أنهم اختلفوا حسب عادتهم، ففتح جند الأشرف المدينة سنة ٦٩١ هـ، ودمروا حصونها وفتكوا بكثير من الصليبيين ثم سقطت باقي مدن الصليبين في أيديهم وانقرضت دولهم بالشام ، وأما فلول الصليبيين الذين خرجوا من الشام فقد استطاعوا أن يؤسسوا مملكتين صليبيتين في الشرق الأدنى هما: مملكة أرمينية ومملكة قبرص، وأصبح الخطر الصليبي خارج الديار الإسلامية الشامية بإمكانه أن يأتي من إحداها.

وتوفى الأشرف سنة ٦٩٣ وخلفه أخوه الملك الناصر (محمد بن قلاوون سنة ٦٩٣ حتى ٧٤١ هـ) تولى وهو صغير وخلع في هذه المدة مرتين الأولى سنة ٦٩٤ هـ مدة خمس سنوات والثانية سنة ٧٠٨ هـ مدة سنة واحدة

وفي سنة ٦٩٤ هـ: قازان من ولد هولاكو يعلن الإسلام

ظل التتار يتخبطون فيما بينهم يولون الملوك ثم يعزلونهم ثم يقتلونهم، حتى كانت سنة ٦٩٤ هـ وفي أواخر هذه السنة تولى قازان بن أرغون بن أباقاخان ابن هولاكو أمر التتار وأعلن قازان إسلامه على يد الأمير توزون - رحمه الله - ودخل التتار في الإسلام اقتداء بقازان، وكان يوم إسلامه يومًا مشهودًا نثر فيه الذهب والفضة على رءوس الناس، وسمى نفسه (محمودا) وحضر صلاة الجمعة والخطبة،

وخرب كنائس كثيرة وضرب على النصارى الجزية، ورد مظالم كثيرة ببغداد وغيرها، وبدأت المظاهر الإسلامية تظهر بين التتار.

قازان يطمع في بلاد الشام

طمع قازان في توسيع ملكه إلى الشام ومصر فدخل في معارك مع المسلمين بالشام، منها ما كان مجرد مناوشات ومنها ما كان قاسيًا عنيفًا نال المسلمين منه شر عظيم..

ابن تيمية ودوره في هذه البلية:

وهنا ظهرت مسألة كيف نقاتل هؤلاء التتر وهم مسلمون، وليسوا بغاة على الإمام، فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه، فأفتاهم ابن تيمية - رحمه الله - «... هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية، ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم، وهم متلبسون بما هو أعظم منه أضعاف مضاعفة...». وقال لهم مشجعًا: «إذا رأيتموني من هذا الجانب -يعني جانب التتار- وعلى رأسي مصحف فاقتلوني».

وكان ابن تيمية يتحرك في اتجاهين، فهو يشجع المسلمين من أهل الشام ومصر على الثبات ويحرض الأمراء على القتال من جهة، وكان يذهب إلى التتار ليأخذ الأمان للمسلمين من جهة.

وفي ١٣من ربيع الآخر توجه ابن تيمية ومعه جماعة من العلماء والأعيان ليكلموا ملك التتر، فكلمه ابن تيمية كلامًا قويًا فيه جرأة وقوة، فتحققت بذلك مصلحة عظيمة عاد نفعها على المسلمين، وفرض التتار على أهل الشام إتاوات كثيرة.

وفي ٨ من رجب سنة ٦٩٩ هـ ذهب ابن تيمية إلى مخيم القائد التتري (بولاي) وكلمه فيمن تحت يده من الأسرى، وكان من بين الأسرى أهل ذمة فعفا عن جميع الأسرى المسلمين، فقال له ابن تيمية: لا، حتى تعفو عن أهل

ذمتنا فاستخلص عددًا كبيرًا من الأسرى، وأقام عنده ثلاثة أيام ثم عاد ...

واجتازت طائفة من التتر، فمرت بدمشق فخاف الناس خوفًا شديدًا، ونادى نائب دمشق في الناس (احفظوا الأسوار ... ومن بات في داره شنق) فاجتمع الناس على الأسوار لحفظ البلاد، وكان ابن تيمية يدور على الأسوار كل ليلة يدعو الناس إلى الجهاد ويحرضهم على الصبر ويحثهم على قتال العدو.

وكان ابن تيمية أثناء المعركة يقوم مع جماعة من أصحابه إلى الخمارات والحانات فيكسر أوانيها وما فيها من الخمور، وعزر أصحاب الحانات التي كان يرتادها الفسقة لارتكاب الفواحش، ويقول إن هؤلاء هم الذين يؤخرون النصر.

ودخلت سنة ٧٠٠ هـ وكان الناس في هلع من التتار ولكن ابن تيمية -رحمه الله- أخذ يشجعهم ويذكرهم، وكان سلطان مصر محمد بن قلاوون قد تراجع عن نصرة أهل دمشق فسافر إليه ابن تيمية وقال له:

لو قُدّر أنكم لستم حكامًا للشام ولا ملوكه، واستنصركم أهله وجب عليكم النصر فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه، وهم رعاياكم وأنتم مسئولون عنهم.

ولم يزل بهم يقويهم ويضمن لهم النصر، حتى أمضى بقلعة مصر ثمانية أيام ثم عاد إلى دمشق، ولما علم ملك التتار بتجميع كلمة المسلمين، رجع إلى بلده لضعف جيشه وقلتهم ...

وفي رجب سنة ٧٠٢ هـ تأكدت الأخبار بعزم التتار على دخول الشام فخاف الناس ولكنهم اطمأنوا حين علموا بقدوم السلطان ومعه جيشه ...

وقعة شقحب ٣ من رمضان سنة ٧٠٢ هـ

تواجه الفريقان وهُزِمَ التتار شر هزيمة وفروا واعتصموا بالجبال والتلال ولم يسلم منهم إلا القليل، وكان في صفوف الجند ابن تيمية -رحمه الله- الذي كان يدور على الجيش يرفع معنوياتهم ويأكل من شيء في يده ليعلمهم أن الفطر أفضل ...

وكان السلطان محمد بن قلاوون قد قيد فرسه حتى لا يفر من هول المعركة وشارك الخليفة العباسي أبو الربيع سليمان في المعركة...

وفي سنة ٧٠٣ هـ توفى قازان وقام بالملك بعده أخوه خوبندا (محمد) ابن أرغون ولقبوه بالملك غياث الدين وخطب لـه على منابر العراق وخراسان وغيرها من البلاد.

الرافضة مرة أخرى:

تولى خوبندا أمر التتار وهو على طريقة أهل السنة ثم غلب عليه الرفض فتشيع وأقام شعائر الشيعة في بلاده ... وكان بعد ذلك يقرب علماء الرفض مثل جمال الدين بن مطهر الحلي تلميذ الخوجة نصر الدين الطوسي الذي كان وزيرًا لهولاكو، وقد طمع الروافض في أنحاء الأمة الإسلامية في مساعدته لهم لينشروا مذهبهم في أنحاء البلاد، حتى قدم عليه صاحب مكة المكرمة - الأمير حميصة لينصره على أهل مكة ولكن خوبندا مات قبل أن يحقق حميصة مأربة سنة ٧١٦ هـ.

فشلت خطة الشيعة وعاد حميصة إلى مكة خائبًا، وعاد معه أحد كبار الرافضة من التتر يقال له (الدلقندي) وقد جمع مالاً كثيرًا، وأعطاه لحميصة لينشر به مذهب الرفض في الحجاز، فالتقي بهما الأمير محمد بن عيسى زعيم العرب، وأوقع بهما وهزمهما واستولى على ما كان معهما من الأموال، وفرح المسلمون بذلك ورضى السلطان محمد بن قلاوون عن الأمير محمد بن عيسى وقربه وألزمه...

تولى أمر التتار بعد خوبندا أبو سعيد بن خوبندا وعدل عن مذهب أبيه إلى مذهب أهل السنة، يقول عنه ابن كثير: «... وقد كان من خيار ملوك التتار، وأحسنهم طريقة، وأثبتهم على السنة، وأقومهم بها وقد عز أهل السنة بزمانه، وذلت الرافضة ...».

وتوفى سنة ٧٣٦ هـ وبوفاته لم تقم للتتار قائمة بعدها بل اختلفوا فيما بينهم، وقبعت التتار في بلادها ولم يعد لها سلطانها القاهر، الذي هددت به قارة أسيا من قبل حتى جاء تيمور الأعرج لنك...

وفي عهد الناصر محمد بن قلاوون زادت ثروة البلاد، ومما ساعد على ذلك أنه فرض ضريبة على جميع التجارة التي تمر من مصر بنسبة ١٠٪ من ثمنها، وكانت تجارة أوروبا مع الهند تمر من هذا الطريق، وكان الناصر يعني بالشئون الداخلية لبلاده،فضبط الموازين والمقاييس، ومنع شرب الخمر، وتشدد في حفظ الآداب، وفي مدته بلغ فن المباني والنقوش الإسلامية أقصاه؛ إذ اتضح أن أكثر الآثار الإسلامية الجميلة التي في متاحف العالم من صنع هذا العصر.

وهو منشئ لقناطر المياه الموصلة بين القلعة والنيل، ووصل بين النيل والإسكندرية بترعة، وأنشأ طريقًا عظيمًا بجانب النيل أفاد فائدة الجسور وقت الفيضان ... وكان الناصر مع ذلك ضئيل الجسم، أعرج، أعور، إلا أنه بالرغم من ذلك رأينا شدة بأسه على أعدائه، وكان ذا رأي سديد وعزيمة من حديد..

توفى سنة ٧٤١ هـ ولم يترك خلفًا يقدر على القيام بعبء الملك، فوقعت البلاد في فوضى مدة ٤١ سنة تنازع الملك فيها ملك بعد ملك من أولاده وأدومهم أثرًا إلى الآن ابنه السلطان حسن سنة ٧٤٨ حتى سنة ٧٥٢ هـ، وهو باني المدرسة العظيمة التي لم يخلف السلاطين أعظم منها بناء ولا أتقن صناعة وهي المشهورة الآن بجامع السلطان حسن (بجوار قلعة القاهرة) وانتهى الأمر بانقراض هذه الدولة واستيلاء المماليك الشراكسة على الملك.

أسماء سلاطين دولة المماليك البحرية ٦٤٨ - ٧٨٤:

قامت في ظل خلافة عباسية صورية بمصر والشام.

١ - شجرة الدر ٦٤٨ - ٦٤٨ (٨٠ يومًا).

٢- عز الدين أيبك ٦٤٨ - ٦٥٥ (قتل).

٣- نور الدين على بن أيبك ٦٥٥- ٦٥٧ (خلع).

٤- سيف الدين قطز ٦٥٧ - ٦٥٨ (قتل).

٥- الظاهر بيبرس ٦٥٨ - ٦٧٦ (قتل).

٦- السعيد بركة بن بيبرس ٦٧٦- ٦٧٨(خلع).

٧- العادل بدر الدين ٦٧٨ - ٦٧٨ (خلع).

٨- المنصور قلاوون ٦٧٨ - ٦٨٩ (توفى).

٩- الأشرف خليل بن قلاوون ٦٨٩ - ٦٩٣ (قتل).

١٠- الناصر محمد بن قلاوون ٦٩٣ - ٧٤١ (خلع مرتين مرة سنة ٦٩٤ - ٦٩٨ ومرة ٧٠٨ - ٧٠٩ حكم هذه الفترات ثلاثة من المماليك ليس لهم أثر في التاريخ.

١٤- المنصور أبو بكر ٧٤١- ٧٤٢ (خلع).

١٥- الأشرف كجك ٧٤٢ - ٧٤٢ (خلع).

١٦- الناصر أحمد ٧٤٢ - ٧٤٣ (خلع).

١٧- الصالح إسماعيل ٧٤٣ - ٧٤٦ توفى.

١٨- الكامل شعبان ٧٤٦ - ٧٤٧ (قتل).

١٩- المظفر أمير حاج ٧٤٧ - ٧٤٨ (قتل).

٢٠- الناصر حسن ٧٤٨ - ٧٥٢ خلع ثم أعيد ٧٥٥ ـ ٧٦٢.

٢١- الصالح صالح ٧٥٢ - ٧٥٥ خلع.

٢٢- المنصور محمد بن المظفر ٧٦٢ - ٧٦٤ (خلع).

٢٣- الأشرف شعبان ابن حسين ٧٦٤ - ٧٧٨ (قتل).

٢٤- المنصور على بن الأشرف شعبان ٧٧٨ - ٧٨٣ (توفى).

٢٥- الصالح حاجي ابن الأشرف شعبان ٧٨٣ - ٧٨٤ (خلع).

٢٦- برقوق ٧٨٤ ـ ٧٩١.

٢٧- الصالح حاجي ٧٩١ - ٧٩٢.

ثانيًا: دولة المماليك الشراكسة
أو المماليك البرجية (٧٨٤ - ٩٢٢هـ).

هؤلاء المماليك أكثر المنصور قلاوون من شرائهم، وجعلهم في أبراج القلعة فسموا البرجية، وهم يختلفون في الجنس عن المماليك البحرية لأن معظمهم من الشراكسة، وأولئك من الترك ولم يكن الملك فيهم وراثيًا قط كما كان في بيت قلاوون، بل كان استيلاء كل ملك من ملوكهم على الحكم متوقفًا على شهرته الحربية ومقدرته على استجلاب مودة زملائه من الأمراء. وعدد ملوكهم ثلاثة وعشرون حكم تسعة منهم مدة ١٢٥ سنة، وحكم في تسع السنوات الأخرى أربعة عشر.

وقد كان لكثير من ملوك هذه الدولة وأمرائها ولع بالعلوم، واشتهروا بالتنافس في بناء القصور الفخمة والجوامع والمدارس والسبل وغير ذلك من المعاهد الخيرية.

وأكثر ما نراه في القاهرة من المباني العظيمة من آثارهم. إلا أنهم كانوا يميلون إلى الظلم والعسف، فأثقلوا كاهل الأمة بالضرائب، وتسرب الخلل في عهدهم إلى جميع فروع الحكومة، فأصبح العدل فيهم يشترى ويباع.

وكثرت الثورات والفتن في البلاد، حتى ضج الناس من شر الجنود وعبثهم بالأمن، على أنهم بالرغم من شقاقهم فيما بينهم كانوا يدًا واحدة على الأعداء فحفظوا البلاد من الغارات نحو قرن ونصف من الزمان.

وأول سلاطينهم هو **الملك الظافر سيف الدين** (برقوق) خلع آخر المماليك البحرية وتولى الملك، ثم ثار عليه المماليك وخلعوه وأعادوا إلى الملك أحد حفدة الناصر بن قلاوون، فاشتغل بإخماد فتنتهم حتى عاد إليه الملك ثانية.

تهديد التتار مرة أخرى

حكم التتار منذ سنة ٧٩٥ ببغداد قائدهم تيمورلنك وخضعت له الجزيرة بأسرها سنة ٧٩٦ فأرسل رسالة إلى مصر يطلب من حكامها تسليم مصر إليه فامتنع برقوق واتحد مع أمراء شمالي الشام وسلطان العثمانيين، ولكن المنية عاجلته فمات سنة ٨٠١ هـ قبل الشروع في الحرب، فترك ذلك لابنه الناصر (فرج).

وفي سنة ٨٠٣ خرج السلطان فرج إلى الشام لمحاربة تيمورلنك الذي خرب حلب وزحف على دمشق، فوقع بين الجيشين بعض مناوشات بالقرب من دمشق كان الغلب فيها للمصريين، فطلب تيمورلنك من السلطان الصلح فأجابه إليه.

وبينما هم يتفاوضون أثار المماليك فتنة في المعسكر، وتسللوا منه راجعين إلى مصر، فانزعج السلطان واضطر أن يعود مع بقيتهم مسرعًا إليها وترك دمشق يدافع عنها أهلها، فدخلها تيمورلنك وفعل الفظائع بأهلها كما فعل بحلب من قبل، ثم خلع المماليك فرج سنة ٨٠٨ وولوا أخاه، ثم استطاع أن يعود إلى الملك فخرج في عدة غزوات إلى الشام لتوطيد الملك وإخضاع الثائرين من الأمراء.

الملك الأشرف برسباي

فساءت حالة الناس، حتى ولى الملك الأشرف برسباي (سنة ٨٢٥ - ٨٤١) هـ فبالغ في إثقال كاهل الأمة بالضرائب الباهظة وأنواع الاحتكار في التجارة، إلا أنه لشدة بأسه لم تحدث في البلاد فتن في عهده.

فتح قبرص

كانت قبرص منذ أن سقطت عكا سنة ١٢٩١ م. قد أصبحت معقلاً هامًا للصليبيين في الشرق وفتحت أبوابها لكل منهزم من الصليبيين، ولما تولى عرش

قبرص الملك بطرس الأول لورجثان، أخذ يعتدي على السفن الإسلامية ويستولى عليها.. كما هاجم الإسكندرية في يوم جمعة والمسلمون في المساجد سنة (٧٦٧ هـ - سنة ١٣٦٥م)وعاث فيها فسادًا وفر عندما تجمعت له المماليك وأسر معه خمسة آلاف.

وفي عهد السلطان برسباي وفي سنة ١٤٢٢م صمم السلطان على القضاء على شوكة الصليبيين في قبرص فأرسل حملة للاستكشاف أغرقت عددًا من سفن الفرنجة، وعادت بعدد من الأسرى، ثم أرسل حملة أخرى ودارت معركة مع الفرنجة بقبرص قتل فيها خلق من الصليبيين، ورفعت راية السلطان بقبرص وعادت الحملة إلى مصر محملة بالغنائم والأسرى.

ثم أرسل حملة أخرى سنة ١٤٢٦ وكانت الحملة القاضية واستطاعت جيوش برسباي أن تلحق هزيمة ساحقة بالصليبيين ودخل المسلمون نيقوسيا فصلوا الجمعة في كنيستها، وأصبحت قبرص جملة من بلاد السلطان الملك الأشرف برسباي.

بالغ برسباي في فرض الضرائب على سفن الأجانب التي تمر عن طريق مصر، حتى ضج التجار الأجانب وهمت فرنسا باستدعاء جميع تجارها من مصر، فخاف على تجارة البلاد من الكساد فنظر في مطالبهم.

وفي سنة ٨٤١ مات برسباي وولى بعده ابنه، ثم عدة سلاطين لم يكن لهم ذكر في التاريخ حتى ولى الأشرف قايتباي (٨٧٣ حتى ٩٠٢ هـ) وهو أطول ملوك هذه الدولة حكمًا كان شجاعًا يحبه قواده قوي الجسم.

كان أكبر شاغل له قوة العثمانيين الذين صاروا بعد استيلائهم على القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ مصدر خطر لمن جاورهم.. خاصة أنهم تدخلوا في شئون مصر والشام.

عندما منعوا تجارة الرقيق من المماليك الشراكسة وغيرهم عن مصر.

واشتدت العداوة عندما أجار قايتباي أخا (بايزيد الثاني) السلطان العثماني وخصمه وأكرم مثواه، فحنق بايزيد على قايتباي ونشبت معارك كبيرة بين طائفتين من المماليك، ومرض قايتباي فخلعه أرباب الدولة وبايعوا ابنه الناصر ثم مات قايتباي في اليوم التالي.

وكان قايتباي محبًا للعمارة، ولا يضارع عصره في المباني المصرية جمالاً سوى عصر الناصر بن قلاوون.

ثم تولى بعده عدة سلاطين كان من أشهرهم السلطان الأشرف قانصوه الغوري سنة ٩٠٦ - سنة ٩٢٢ هـ وهو باني جامع الغوري والمدرسة الغورية.

تولى الحكم وعمره ستون سنة. وفي عهده اكتشف فاسكودى جاما رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ م فتحولت معظم التجارة الهندية إليه، مما أثر على الاقتصاد المصري حينئذ بشدة فوقعت بين المماليك والبرتغال منازعات.

وفي سنة ٩١٨ خرج سليم خان الأول العثماني بجيش إلى الشام، والتقى بجيش المماليك بميدان مرج دابق شمال حلب سنة ٩٢٢ وانتصر الجيش العثماني بلا مقاومة تذكر وقتل قانصوه الغوري.

وتولى أمر المماليك من بعده طومان باي الذي جمع ما استطاع من جيوشه وخرج لمواجهة سليم خان، والتقى الفريقان بالريدانية بالعباسية فانهزم طومان باي وقبض عليه وصلب على باب زويلة.

وبموته صارت مصر ولاية عثمانية وتنازل الخليفة العباسي بمصر عن الخلافة لآل عثمان.

الفهرس

الباب الثاني: الخلفاء الراشدين

الباب الثالث : الخلافة الأموية

الباب الرابع: الخلافة العباسية

***

2

الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي

تقديم د. راغب السرجانى

السيرة النبوية
الخلفاء الراشدون
الدولة الأموية
الدولة العباسية
الدولة الفاطمية
الدولة الأيوبية
دولة المماليك
المسلمون فى الأندلس
الدولة العثمانية
الأقليات المسلمة



الموسوعة الميسرة

في

التاريخ الإسلامي

الجزء الثاني

إعداد

فريق البحوث والدراسات الإسلامية (فـــدا)

إشراف ومراجعة

قاسم عبدالله إبراهيم

محمد عبد الله صالح

تقديم

الدكتور راغب السرجاني

الطبعة الأولى : يونيو ٢٠٠٥م
الطبعة الثانية : ديسمبر ٢٠٠٥م
الطبعة الثالثة : إبريل ٢٠٠٦ م
الطبعة الرابعة : أكتوبر ٢٠٠٦م
الطبعة الخامسة : يناير ٢٠٠٧ م
الطبعة السادسة : فبراير ٢٠٠٧م
الطبعة السابعة : إبريل ٢٠٠٧م

رقم الإيداع: ٢٠٠٥/٩٨٥١
الترقيم الدولي:I.S.B.N
977 - 6119 - 63 - 8

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٦٩٦٢٦٤٧

مؤسسة اقرأ

للنشر والتوزيع والترجمة
١٠ ش أحمد عمارة - بجوار حديقة الفسطاط
القاهرة ت.ف: ٥٣٢٦٦١٠ محمول:٠١٠٢٣٢٧٣٠٢ - ٠١٠١١٧٥٤٤٧
www.iqraakotob.com
E-mail:info@iqraakotob.com

الباب الخامس

المغـــول المســـلمون

أمة أذاقت المسلمين -فى بداية الأمر- شر ويلاتها...
ثم عرف الإسلام الطريق إلى قلوب أبنائها فتحمسوا له
ونذروا أنفسهم لإعلاء كلمة الله فى الأرض ووسعوا
الرقعة الإسلامية بشكل لم يتكرر حتى الآن...

تاريخ المغول المسلمين

يتبادر إلى ذهن الكثير من الناس عند ذكر التتار أو المغول جميع الصفات التى لا تمت للإنسانية بصلة، من وحشية وقسوة وإبادة وقضاء على الأخضر واليابس؛ وذلك لما بدر منهم فى البداية، عندما اجتاحوا العالم الإسلامى بجيوشهم الجرارة حتى ظن الكثير من الناس فى ذلك الوقت أن نهاية المسلمين قد بدأت، وأن الفناء فى انتظارهم، وكتب الكثير من علماء المسلمين ومؤرخيهم يرثون العالم الإسلامى عاجزين عن الوصف والتعبير عما يحدث[١].

أصل المغـــول

يعود أصلهم إلى صحراء غوبى بأطراف بلاد الصين الشمالية، وهم قبائل رعوية تعبد الأوثان والكواكب وتسجد للشمس عند شروقها، وتنتشر عندهم ديانة يطلق عليها الشامانية ويقدسون أرواح الأجداد ويقدمون القرابين للحيوانات المفترسة.

ويطلق لفظ التتار على قبائل المغول والترك والأويغور والسلاجقة وغيرهم من قاطنى هذه المناطق، فيعتبر لفظ التتار شاملاً لكل من قبائل المغول والترك اللذين سنتناولهما بشكل كبير فى هذا الباب، و فى الباب الخاص بالدولة العثمانية، وقد شمل لفظ المغول أيضًا هذه القبائل؛ نظرًا لسيطرة جنكيز خان - الذى ينتمى لقبائل المغول- على القبائل الأخرى المحيطة به، بل أُطلِق لفظ الجنس المغولى ليشمل معظم قاطنى قارة آسيا (الجنس الأصفر).

(١) راجع وصف ابن كثير فى نهاية الدولة العباسية.

والسؤال الآن ما هو أثر المغول فى تاريخ المسلمين غير القتل والإبادة؟ ماذا تعرف أخى المسلم عن المغول بعد تدميرهم لبغداد وهزيمتهم فى عين جالوت؟

الإجابة -أخى المسلم- والتى تغيب عن أذهان الكثير من المسلمين هى أن المغول بدءوا يدخلون فى الإسلام بعد خمسة وثلاثين عامًا من دخولهم ديار المسلمين، بل لم يمض نصف قرن على دخولهم ديار المسلمين إلا وأصبحت الغالبية العظمى منهم مسلمين وأعز الله بالكثير منهم الإسلام، وفتحوا الكثير من البلاد وثبتوا بها أقدام المسلمين لفترة كبيرة من الزمن، بل حارب الكثير منهم أبناء جلدته فى سبيل الإسلام.

ومما كرس عند كثير من المسلمين الصورة الأولى للمغول و التتار الاجتياح التترى بقيادة تيمورلنك لبلاد المسلمين، وفى هذه المرة يتم الاجتياح والتتار معتنقون الإسلام، ويتبعون وسائل فاقت فى بشاعتها ما فعله سابقوهم قبل أن يدخلوا فى الإسلام.

ولا ننكر أن الكثير من المغول والتتار لم يتخلصوا من بعض الصفات المتأصلة فى الآباء والأجداد حتى بعد دخولهم الإسلام، وأن الجانب العقيدى والدعوى الإسلامى لم يكن مثلما كان فى عهد المسلمين الأوائل، ولكن يجب ألا نغفل عن إبراز إيجابياتهم فى تاريخ المسلمين، وإسهامهم فى زيادة الرقعة الإسلامية بشكل لم يسبق له مثيل، ولم يتكرر حتى الآن، وفى إدخال الإسلام إلى الكثير من البلاد التى لم يطأها المسلمون قبلهم، و تأثيرهم فيها برغم المحاولات المستمرة من أعداء الإسلام لإبادتهم والقضاء عليهم، والتى ذاقوا فيها الأمرين وما زالوا حتى الآن يعيشون آلامها، ولكنهم يتحملون ويتمسكون بدينهم، وحينما يعود المسلمون إلى رشدهم سيكون لهؤلاء المسلمين بالغ الأثر فى إعادة بسط سلطان المسلمين على هذه البلاد وعلى العالم أجمع بإذن الله.

ونستطيع أن نقول أن المغول ورثوا ديار الإسلام من أقصى الشرق إلى حدود المنطقة العربية وحدود وسط أوروبا.

ومن أسباب التعتيم الكبير على تاريخهم أنهم ذابوا فى المجتمعات الإسلامية التى حكموها وأصبحوا من أهلها، كما أن دولتهم الكبيرة تفتتت إلى دول (خانات) كثيرة، وكانت الحروب بينها لا تنقطع، فلم يظهروا بعد إسلامهم كيدٍ واحدة وحتى عندما استطاع تيمورلنك أن يضم أجزاء كثيرة من بلاد المغول ما زادها إلا تفتتًا وتمزيقًا.

تقسيم دولة المغول الكبرى:

احتل جنكيز خان جزءًا كبيرًا من المعمورة وقسم إمبراطوريته بين أبنائه من زوجته الأولى كما كان ينص تشريع المغول (اليساق) فأعطى ابنه الأكبر جوجى بلاد روسيا وخوارزم والقوقاز وبلغار (مدينة قازان الحالية فى روسيا) وما يمكن ضمه من غرب المعمورة، وأعطى ابنه جغطاى بلاد الأويغور (ولاية كانسو فى الصين حاليًا) والتركستان الغربية وبلاد ما وراء النهر، وأعطى ابنه تولوى خراسان وفارس وما يمكن ضمه من آسيا الصغرى وبلاد العرب، وأعطى ابنه أوغطاى بلاد المغول (منغوليا الحالية) والصين والخطا (تركستان الشرقية) وما يمكن ضمه من شرق المعمورة.

وسنتناول فى هذا الباب كل منطقة على حدة، ونتتبع تاريخها إلى ما آلت إليها الآن وسنضيف إليها فصلاً خاصًا بالهند نظرًا لأن المغول هم آخر من حكموا الهند من المسلمين، بل وبلغت الدولة الإسلامية فى الهند أقصى اتساع لها فى عهدهم، وبذلك سيكون ترتيب الفصول كالتالي:

الفصل الأول: منطقة شرقى أوروبا وغربى سيبيريا.

الفصل الثاني: منطقة إيران.

الفصل الثالث: منطقة الصين ومنغوليا.

الفصل الرابع: منطقة تركستان الغربية.

الفصل الخامس: منطقة الهند.

وقبل أن نبدأ فى سرد الأحداث ننقل كلام نفيس للعلامة أبو الحسن الندوى حول معجزة انتشار الإسلام فى التتار.

خريطة توضح أقسام دولة المغول

انتشار الإسلام فى التتار

وقبل أن ينجرف العالم الإسلامى مع هذا السيل الجارف العنيد، وينطمس معالمه وملامحه، كما كان المشاهد الملموس عند ذوى البصيرة والخبرة من المؤرخين المسلمين فى ذلك الحين، بدأت دعوة الإسلام تنتشر فجأة فى هذا الشعب، ويتحقق على أيدى دعاة الإسلام ما لم يتحقق بالأسنة والرماح، وبطش السلاطين والملوك، وبدأ الإسلام يتسرب فى نفوس أعدائه، ويأخذ بمجامع قلوبهم، إن خضوع هذا الشعب الذى قهر المسلمين أمام الإسلام من أغرب الوقائع والأحداث فى التاريخ، فإن هجوم التتر على العالم الإسلامى كالجراد المنتشر، وإخضاع العالم الإسلامى كله، ليس من الغريب المدهش كما يبدو فى الظاهر، فإن عالم الإسلام فى القرن السابع كان بدوره مصابًا بتلك الأمراض والأسقام، التى تلحق الأمم عامة فى أوج حضارتها وشوكتها، وبالعكس من التتر، ذلك الشعب القوى الأبى الذى نشأ على حياة البداوة، والهمجية والضراوة، ولكن الغريب المدهش أن هذا الشعب خضع للمسلمين. المفتوحين المقهورين، واعتنق دينهم فى أوج قوته، وذروة سلطانه، ذلك الدين الذى فقد كثيرًا من سلطانه السياسى والمادى آنذاك، وكان أتباعه موضع سخرية واحتقار فى نظر التتار...

وقد أبدى «أرنولد» استغرابه فى هذا الصدد فى كتابه المشهور «الدعوة إلى الإسلام» Preaching of Islam حيث قال:

«... ولكن لم يكن بد من أن ينهض الإسلام من تحت أنقاض عظمته الأولى، وأطلال مجده الخالد، كما استطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه، ويرجع الفضل فى ذلك إلى نشاط الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعاب أشدها لمناهضة منافسين

قويين، كانا يحاولان إحراز قصب السبق فى ذلك المضمار، وليس هناك فى تاريخ العالم نظير لذلك المشهد الغريب، وتلك المعركة الحامية التى قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام، كل ديانة تنافس الأخرى، لتكسب قلوب أولئك الفاتحين القساة، الذين داسوا بأقدامهم رقاب أهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين فى جميع الأقطار والأقاليم...».

«... ويظهر أنه لم يكن من اليسير منافسة الإسلام فى مستهل الحكم المغولى لغيره من الديانات القوية، كالبوذية والمسيحية كانت عملاً بعيد المنال؛ إذ إن المسلمين كانوا قد قاسوا أكثر من غيرهم من ذلك الاضطراب الذى صحب غارات المغول، وإن معظم هذه المدن التى كانت حتى ذلك الحين مجمع السلطة الدينية وكعبة العلم فى الإسلام فى القارة الآسيوية، قد أصبح معظمها أطلالاً دارسة، حتى أن الفقهاء وأئمة الدين الأتقياء، كان نصيبهم القتل أو الأسر، وكان من بين حكام المغول-الذين عرفوا عادة بتسامحهم نحو الأديان كافة-من يظهر الكراهية للدين الإسلامى على درجات متفاوتة، فقد أمر جنكيز خان بقتل كل من يذبح الحيوانات على النحو الذى قرره الإسلام، ثم سار على نهجه قوبيلائي، فعين مكافآت لكل من دل على من يذبح بهذه الطريقة، واضطهد المسلمين اضطهادًا عنيفًا دام سبع سنين، حتى أن كثيرًا من المعدمين وجدوا فى سن ذلك القانون فرصة لجمع الثروة، واتهم الأرقاء مواليهم بهذه التهمة لكى يحصلوا على حريتهم، وقد عانى المسلمون أقسى ضروب العسف والشدة فى عهد كيوك (١٢٤٦ - ١٢٤٨م) الذى ألقى بزمام أمور الدولة إلى وزيريه المسيحيين، والذى امتلأ بلاطه بالرهبان من المسيحيين...».

«وقد اضطهد أرغون (١٢٨٤ - ١٢٩١ م) رابع إيلخانات المغول فى فارس، المسلمين فى بلاده، وصرفهم عن كافة المناصب التى كانوا يشغلونها فى

القضاء والمالية، كما حرم عليهم الظهور فى بلاطه، وعلى الرغم من جميع المصاعب، أذعن هؤلاء المغول والقبائل المتبربرة آخر الأمر لدين هذه الشعوب التى ساموها العسف وجعلوها فى مواطئ أقدامهم...».

إن هذا الحدث مثار دهشة وعجب، ولكن استغرابنا يشتد، حينما لا نجد تفاصيله وافية فى بطون التاريخ، إننا لا نكاد نعثر على أسماء هؤلاء الأعلام والأبطال الذين حققوا هذه المآثر، وأدخلوا هذا الشعب الهمجى فى حظيرة الإسلام، مع أن هذه المآثر لا تقل أهمية عن أى مأثرة إسلامية فى التاريخ، ولهم فضل لا ينكر لا على رقاب المسلمين فحسب، بل على الإنسانية كلها، إلى أن يأذن الله لها بالفناء، فإنهم أنقذوا العالم من دمار محتوم، ووضعوه تحت رعاية شعب يؤمن بالله وحده، ويدعو إلى دين محمد ﷺ.

إن دولة جنكيز خان توزعت بعد وفاته إلى أربعة فروع، وبدأ الإسلام ينتشر فى هذه الفروع الأربعة، وأصبح التتر يعتنقون الإسلام بجهود الخاقان، حتى دخلوا فى ظرف مائة سنة فى دين الله، وقد سرد أرنولد عدة أحداث تلقى الضوء على هذا الباب، إنه يحكى قصة شيوع الإسلام فى فرع جوجى خان الابن الأكبر لجنكيز خان، الذى كان يحكم على سيرا داردا، الجزء الغربى من الدولة، فيقول:

«وكان بركة خان (١٢٥٦ - ١٢٦٧ م) أول من أسلم من أمراء المغول: وكان رئيسًا للقبيلة الذهبية فى روسيا بين سنتى ١٢٥٦ و ١٢٦٧ م (ومن الأهمية أن نلاحظ أن نجم الدين مختار الزاهدى وضع لبركة خان فى سنة ١٢٦٠ رسالة تؤيد بالبراهين رسالة النبى الدينية، وتدحض ما ذكره المنكرون لهذه الرسالة، وتمدنا بوصف للمناظرات التى قامت بين المسيحيين والمسلمين) وقد قيل فى سبب إسلامه أنه تلاقى يومًا مع عير للتجار آتية من بخارى، ولما خلا بتاجرين منهم سألهما عن عقائد الإسلام، فشرحاها شرحًا مقنعًا انتهى به إلى

اعتناق هذا الدين والإخلاص له وقد كاشف أصغر إخوته أول الأمر عن تغييره لدينه، واعتناقه الإسلام، وحبب إليه أن يحذو حذوه، ثم أعلن بعد ذلك اعتناقه لهذا الدين...».

«وقد دخل بركة خان فى حلف مع ركن الدين الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧م) سلطان المماليك فى مصر، الذى بدأ تلك العلاقات الوثيقة من جانبه، فقد احتفى بشرذمة من جند القبيلة الذهبية يبلغ عدها المائتين، ولما لاحظ هؤلاء الجند العداء المستحكم بين ملكهم وبين هولاكو فاتح بغداد، وهم الذين كانوا ينضوون تحت لوائه، فروا إلى سوريه، حيث يتيممون منها شطر مصر، وهناك استقبلوا بكل مظاهر الحفاوة والتكريم فى بلاط بيبرس، الذى أقنعهم بصحة الدين الإسلامى واعتناقه، وكان بيبرس نفسه فى حرب مع هولاكو، وقد هزمه بيبرس وأخرجه من سورية منذ أمد قريب، وقد أرسل بيبرس اثنين من المغول اللاجئين وغيرهم من الرسل يحملون كتابًا إلى بركة خان، وقد نقل هؤلاء عند عودتهم إلى مصر، أن لكل أمير وأميرة فى بلاط بركة خان إمامًا ومؤذنًا خاصًا، وأن الأطفال كانوا يحفظون القرآن فى المدارس، وكان من أثر هذه العلاقات الودية التى قامت بين بيبرس وبركة خان، أن كثر الوافدون من رجال القبيلة الذهبية على مصر حيث اتخذوا الإسلام دينًا لهم».

إنه يحكى قصة انتشار الإسلام فى الإيلخانية الفرع الثانى لأسرة جنكيز خان ويقول:

«كان الإسلام أقل انتشارًا فى بلاد الفرس حيث أسس هولاكو أسرة إيلخانات المغول، ولكى يقوى على صد هجمات بركة خان وسلطان مصر، تحالف هولاكو مع القوات المسيحية فى الشرق كملك أرمينية والصليبيين وكانت زوجته المحببة إليه مسيحية، فعملت على استمالة زوجها نحو إخوانها فى الدين، كما تزوج ابنه

أباقاخان (١٢٦٥ - ١٢٨١ م) من ابنة امبراطور القسطنطينية، ومع أن أباقا نفسه لم يتخذ المسيحية دينًا له، امتلأ بلاطه بالقسيسين من المسيحيين، وأرسل السفراء إلى بعض أمراء أوربا، فكان يراسل القديس لويس ملك فرنسا، وشارل ملك صقلية، وجيمس ملك أرغونة يطلب إليهم التحالف معه على المسلمين، كما أرسل لهذا الغرض أيضًا بعثًا من ستة عشر سفيرًا من المغول إلى مجمع ليون سنة ١٢٧٤م، حيث دخل رئيس أولئك السفراء فى المسيحية وعمد مع بعض رفاقه، وقد طمع المسيحيون، فعلقوا الآمال على اعتناق أباقا خان المسيحية، ولكن الأيام أظهرت أن تلك الآمال لم تكن إلا سرابًا خادعًا، وكان أخوه تكودار أحمد ، الذى اعتلى العرش من بعده أول إيلخانات المغول الذين اعتقدوا الإسلام فى فارس وقد شب على المسيحية، لأنه (كما يحدثنا بذلك كاتب مسيحى من معاصريه) «تعمد فى صباه وتسمى باسم نقولا ولكنه دان بالاسلام عندما بلغ سن الرشد عن طريق اتصاله بالمسلمين الذين كان كَلِفًا بهم، وأصبح مسلمًا ديّنًا، ولما ارتد عن المسيحية، رغب فى أن يسمى محمد خان ، وبذل قصاراه فى تحويل كافة التتار إلى دين محمد وعقائده، ولما أظهروا صلابة فى الارتداد عن دينهم، لم يجرؤ على حملهم على اعتناق الاسلام، وإنما لجأ إلى ذلك عن طريق بذل العطايا والمنح وألقاب الشرف، حتى أن عددًا كبيرًا من التتار دخل فى عهده فى عقيدة المسلمين»، وقد بعث تكودار أحمد بنبأ إسلامه إلى سلطان المماليك فى مصر (قلاوون) فى ذلك الكتاب:

«إلى سلطان مصر، أما بعد فإن الله -سبحانه وتعالى- بسابق عنايته ونور هدايته، قد كان أرشدنا فى عنفوان الصبا وريعان الحداثة، إلى الإقرار بربوبيته والاعتراف بوحدانيته، والشهادة لمحمد -عليه أفضل الصلاة والسلام- بصدق نبوته وحسن الاعتقاد فى أوليائه الصالحين من عباده وبريته، ﴿فَمَن يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ﴾ فلم نزل

نميل إلى إعلاء كلمة الدين وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين، إلى أن أفضى إلينا الجليل وأخينا الكبير نوبة الملك فأضفى علينا من جلابيب ألطافه ولطائفه، ما حقق به آمالنا فى جزيل آلائه وعوارفه، وجلى هذه المملكة علينا وأهدى عقيلتها إلينا، فاجتمع عندنا فى قوريليان (وهو المجتمع الذى تقدح فيه الآراء) جميع الإخوان والأولاد والأمراء والكبراء، ومقدمو العساكر وزعماء البلاد، واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير، فى إنفاذ الجم الغفير من عساكرنا التى ضاقت الأرض برحبها من كثرتها، وامتلأت الأرض رعبًا من عظيم صولتها وشديد بطشها، إلى تلك الجهة، بهمة تخضع لها صم الأطواد، وعزمة تلين لها الصم الصلاد، ففكرنا فيما تمخضت زبد عزائمهم عنه، واجتمعت أهواؤهم عليه، فوجدناه مخالفًا لما كان فى ضميرنا من اقتفاء الخير العام، الذى هو عبارة عن تقوية شعار الإسلام، وألا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا إلا ما يوجب حقن الدماء وتسكين الدهماء، وتجرى به فى الأقطار، رجاء نسائم الأمن والأمان.

ويستريح به المسلمون فى سائر الأمصار فى مهاد الشفقة والإحسان، تعظيمًا لأمر الله وشفقة على خلق الله، فألهمنا الله تعالى إطفاء تلك النائرة، وتسكين الفتن الثائرة، وإعلام من أشار بذلك الرأى بما أرشدنا إليه من تقديم ما يرجى به من شفاء مزاج العالم من الدواء، وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء، وأننا لا نحب المسارعة إلى هز النصال للنضال إلا بعد إيضاح المحجة، ولا نبادر لها إلا بعد تبين الحق وتركيب الحجة، وقوِى عزمنا على ما رأيناه من دواعى الصلاح، وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجاح؛ إذ كان الشيخ قدوة العارفين بالرحمن، الذى هو نعم العون لنا فى أمور الدين، فأرسلناه رحمة من الله لمن (لبى) دعاه، ونقمة على من أعرض عنه وعصاه، وأنفذنا أقضى القضاة قطب(الملة) والدين،

والأتابك بهاء الدين، اللذين هما من ثقات هذه الدولة الزاهرة؛ ليعرفوهم طريقتنا، ويتحقق عندهم ما ينطوى عليه لعموم المسلمين جميل نيتنا، وبينا لهم أنا من الله تعالى على بصيرة، وأن الإسلام يجب ما قبله، وأنه تعالى ألقى فى قلوبنا أن نتبع الحق وأهله، فإن تطلعت نفوس إلى دليل تستحكم بسببه دواعى الاعتماد، وحجة يثقون بها من بلوغ المراد، فلينظروا إلى ما ظهر من أمرنا مما اشتهر خبره، وعم أثره، فإنا ابتدأنا بتوفيق الله بإعلاء أعلام الدين وإظهاره، فى إيراد كل أمر وإصداره، تقديمًا لناموس الشرع المحمدي، على مقتضى قانون العدل المحمدي، إجلالاً وتعظيمًا، وأدخلنا السرور على قلوب الجمهور، وعفونا عن كل من اجترح سيئة واقترف، وقابلناه بالصفح، وقلنا عفا الله عما سلف، وتقدمنا بإصلاح أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس، وأمرنا بتعظيم أمر الحجاج، وتجهيز وفدها، وتأمين سبلها، وتيسير قوافلها، وأنا أطلقنا سبيل التجار المترددين على تلك البلاد؛ ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم، وهو يلتمس محالفة سلطان مصر بحيث تعمر تلك الممالك وتلك البلاد وتسكن الفتنة الثائرة، وتغمد السيوف الباترة، وتحل العامة أرض الهوينى، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهوان.

وإن من يدرس تاريخ المغول؛ ليرتاح عندما يتحول فجأة من قراءة ما اقترفوه من الفظائع وما سفكوه من الدماء، إلى أسمى عواطف الإنسانية وحب الخير التى أعلنت عن نفسها فى تلك الوثيقة التاريخية التى كتبها تكودار أحمد إلى سلطان المماليك فى مصر، والتى يدهش الإنسان لصدورها من مثل ذلك المغولي.

وقد أحفظ تكودار أحمد واضطهاده المسيحيين، المغول الذين كانوا شديدى الاتصال بهم برغم مخالفتهم فى الدين، وشكوه إلى قوبيلائى خان، متهمين إياه بأنه خالف بذلك سنن أجداده، وقد قامت فى وجهه ثورة على رأسها ابن أخيه

أرغون الذى دبر قتله، ثم خلفه على العرش، وفى أثناء حكم أرغون (١٢٨٤ - ١٢٩١ م) القصير، استرد المسيحيون مكانتهم من جديد، على حين لم يكن بد من أن يلقى المسلمون الاضطهاد، فصرفوا عن كافة المناصب التى كانوا يشغلونها فى القضاء والمالية، وحرم عليهم الظهور فى بلاطه.

وقد ظل خلفاء تكودار أحمد على وثنيتهم، حتى دخل غازان (١٢٩٥ - ١٣٠٤م) سابع الإيلخانات وأعظمهم شأنا فى الدين الإسلامى فى سنة ١٢٩٥م، وجعله دين الدولة الرسمى فى فارس وفى عهد إيلخانات المغول الثلاثة الأخيرين الذين سبقوا غازان، أمل المسيحيون آمالاً كبارًا فى تحويل الأسرة الحاكمة فى فارس عن الدين الإسلامي، تلك الأسرة التى أظهرت نحوهم عطفًا شديدًا، وأسندت إليهم كثيرًا من مناصب الدولة الهامة، وكان بيدوخان سلف غازان، الذى كان رأس الفتنة فى فارس، والذى جلس على العرش فى سنة ١٢٩٥م بضعة أشهر فقط، قد آثر الدين المسيحى وجهد فى وضع العقبات فى سبيل انتشار الإسلام بين المغول، فحرم على كل شخص أن يدعو لذلك الدين، أو أن ينشر عقائده بينهم.

وقد شب غازان على البوذية قبل اعتناقه الإسلام، وشيد عدة معابد للبوذية في خراسان، وكان يسر كثيرًا بمصاحبة الكهنة الذين ينتمون إلى هذا الدين، والذين كانوا قد وفدوا إلى فارس فى جماعات كبيرة منذ بسط المغول سلطانهم فى هذه البلاد، ويظهر أن غازان كان بطبعه يميل إلى تقليب نظره فى المسائل الدينية؛ لأنه درس عقائد الأديان المختلفة المنتشرة فى زمانه.

وقد أيد رشيد الدين، وزيره العالم ومؤرخ عصره، بالبرهان صحة اعتقاده الإسلام، الذى أخذ على عاتقه المحافظة على شعائره فى حماس وغيرة طوال عهده.

إن ابن كثير نفسه ذكر إسلام غازان فى وقائع ٦٩٤هـ بارتياح بالغ، ويبدو

منه – ويؤيده فى ذلك غيره من المؤرخين أن الفضل فى ذلك يرجع إلى الأمير التركى الصالح توزون، فإن ملك التتر أسلم بجهوده، كتب ابن كثير فى وقائع ٦٩٤هـ يقول: وفيها ملك التتار قازان بن أرغون بن أبغا بن تولى بن جنكيز خان فأسلم، وأظهر الإسلام على يد الأمير توزون رحمه الله، ودخلت التتار أو أكثرهم فى الإسلام ونثر الذهب والفضة واللؤلؤ على رءوس الناس يوم إسلامه، وتسمى بمحمود، وشهد الجمعة والخطبة، وخرب كنائس كثيرة، وضرب عليهم الجزية، ورد مظالم كثيرة ببغداد وغيرها من البلاد، وظهرت السبح والهياكل مع التتار والحمد لله. يقول أرنولد: «إن أخاه أولجايتو الذى خلفه فى سنة ١٣٠٤م باسم محمد خدابنده كان على المسيحية -دين أمه- وعمد باسم نيقولا على أنه لم يلبث أن أسلم بعد موت أمه، وهو لا يزال شابًا فى مقتبل العمر، وذلك بتأثير زوجته، ويذكر ابن بطوطة أن سيرة ذلك الأمير كان لها أثر كبير فى نفوس المغول، ومن ذلك العهد غدا الإسلام الدين السائد فى دولة إيلخانات فارس».

الفرع الثالث من هذه الأسرة كان يحكم البلاد المتوسطة، وكان مؤسسها جغطائى بن جنكيز خان. يقول أرنولد: «وإن ما لدينا من المعلومات عن تقدم الإسلام وانتشاره فى امبراطورية المغول الوسطى، التى كانت من نصيب جغطائى لايزال ضئيلاً، وكان كثير من أعقاب هذه الأسرة يستعينون فى دولتهم بوزير من المسلمين، على الرغم من إنه لم يبد أى ميل إلى الاسلام وقد ضيق جغطائى على رعاياه من المسلمين بما سنه من القوانين الشديدة الحرج، التى ضيقت على شعائرهم الدينية، فيما يتعلق بذبح الحيوانات للطعام وفرائض الوضوء، ويذكر الجوزجانى أن جغطائى هذا كان ألد أعداء المسلمين من بين خانات المغول كافة، وقد بلغ من شدة عدائه لهذا الدين أنه لم يكن يرغب فى أن ينطق أحد بكلمة مسلم فى حضرته، اللهم إلا إذا أريد بها التحقير والحط من شأنها، وقد ربت

أرغنة Orghana زوجة قراهولاكو حفيد جغطائى وخليفته، ابنها على الإسلام، وتقدم باسم مبارك شاه فى سنة ١٢٦٤ م، مطالبًا بعرش خاقانية جغطائى الذى كان مثار النزاع بين أمراء المغول، ولكن سرعان ما خلعه ابن عمه براق خان، ويظهر أنه لم يكن لإسلامه أى أثر بين المغول، فإننا لو رجعنا فى الواقع إلى أسماء أبنائه لا نجد أحدًا منهم قد دخل فى دين أبيه، وقد قيل إن براق خان نفسه «قد أدركته البركة بتلقيه نور العقيدة» قبل موته فى سنة ١٢٧٠م بأيام قليلة، وأنه تسمى باسم السلطان غياث الدين، إلا أنه دفن حسب طقوس المغول القديمة ولم يدفن وفق شعائر الدين الإسلامي، وأن من أسلموا فى عهده ارتدوا إلى وثنيتهم الأولى، ولم يتم انتشار الإسلام بين المغول فى مملكة جغطائى إلا فى القرن التالى لإسلام مبارك خان ذلك على إثر إسلام طرما شيرين حوالى سنة ١٣٢٦ م وقد ظل المغول الذين اقتفوا أثر زعيمهم متمسكين فى هذه المرة بدينهم الجديد، وعلى الرغم من ذلك لم يتأصل الميل إلى الإسلام بعد فى نفوس المغول، فان بوزون الذى كان خان المغول فى السنين العشر التالية (ولو أن صحة هذا التاريخ غير محققة) لم يلبث أن طرد طرما شيرين من العرش، واضطهد المسلمين، على أننا لم نسمع عن ظهور أول ملك مسلم فى كاشغر إلا بعد سنين قليلة، وكان ضعف أسرة جغطائى قد أتاح لهذه المملكة أن تستقل بحكم هذه البلاد، ويقول بعض المؤرخين إن إسلام تغلق تيمور خان (١٣٤٧ - ١٣٦٣ م) ملك كاشغر كان على يد رجل من أهل الورع والتقوى فى مدينة بخارى، يقال له الشيخ جمال الدين، وكان معه جماعة من التجار، وكانوا قد اعتدوا على الأراضى التى خصصها ذلك الأمير للصيد، فأمر بأن توثق أيديهم وأرجلهم، وأن يمثلوا بين يديه، ثم سألهم فى غضب: كيف جرؤوا على دخول هذه الأرض، فأجاب الشيخ بأنهم غرباء ولا يعلمون أنهم يجوسون أرضًا محرمة، ولما علم الأمير أنهم من الفرس قال: إن الكلب أغلى من أى فارسي، فأجاب الشيخ: «نعم! قد كنا أخس من الكلب وأبخس ثمنًا

منه لو أننا لم ندن بالدين الحق».

ولما راع الأمير ذلك الجواب أمر بأن يقدم إليه ذلك الفارسى الجسور عند عودته من الصيد، ولما خلا به سأله ماذا يعنى بهذه الكلمات وما ذلك الدين؟ فعرض عليه الشيخ قواعد الإسلام فى غيرة وحماس انفطر لهما قلب الأمير، حتى كاد يذوب كما يذوب الشمع، وصور له الكفر بصورة مروعة اقتنع معها بضلال معتقداته وفسادها، وقال: «ولكنى إذا اعتنقت الإسلام الآن فلن يكون من السهل أن أهدى رعاياى إلى الصراط المستقيم فلتمهلنى قليلاً، فإذا ما آلت إلى مملكة أجدادى فعد إلى».

وذلك أن امبراطورية جغطائى انقسمت فى ذلك الوقت إلى إمارات صغيرة وظلت على ذلك سنين طويلة، حتى نجح تغلق تيمور فى توحيد الامبراطورية كلها تحت سلطانه، وجمع كلمتها كما كانت من قبل، وفى هذه الأثناء كان الشيخ جمال الدين قد عاد إلى بلده حيث مرض مرضًا شديدًا فلما أشرف إلى الوفاة قال لابنه رشيد الدين «سيصبح تغلق تيمور يومًا ما ملكًا عظيمًا، فلا تنس أن تذهب إليه وتقرئه منى السلام ولاتخش أن تذكره بوعده الذى قطعه لي» ولم يلبث رشيد الدين إلا سنين قليلة، حتى ذهب إلى معسكر الخان وكان قد استرد عرش امبراطورية آبائه تنفيذًا لوصية أبيه، ولكنه لم يستطيع أن يظفر بالمثول بين يدى الخان، برغم ما بذله من جهود وأخيرًا لجأ إلى هذه الحيلة الطريفة: ففى ذات يوم أخذ يؤذن فى الصباح المبكر على مقربة من فسطاط الخان فأقلق ذلك الصوت نوم الخان، وأثار غضبه فأمر باحضاره ومثوله بين يديه وهناك أدى رشيد الدين رسالة أبيه، ولم ينس تغلق تيمور وعده وقال: «حقًا ما زلت أذكر ذلك منذ أعتليت عرش آبائي، ولكن الشخص الذى قطعت له ذلك الوعد لم يحضر من قبل، والآن فأنت على الرحب والسعه..» ثم أقر بالشهادتين وأصبح مسلمًا منذ ذلك الحين «وأشرقت شمس الإسلام ومحت بنورها ظلام الكفر...»

ولكى ينشر هذا الدين بين رعاياه اتفق تغلق تيمور ورشيد الدين على أن يستقبل الملك الأمراء واحدا بعد واحد، ويعرض عليهم الإسلام فمن قبله جوزى الجزاء الحسن، ومن أباه ذبح كما يذبح الوثنيون وعباد الأصنام.

أما الفرع الرابع الذى ينتمى إلى اجتائى خان والذى برز فيه من الملوك والفاتحين أمثال منجوخان، وقوبيلائى خان، والذى كان يحكم الجزء الشرقى من امبراطورية التتر، فيقول فيه أرنولد: «ولابد أن يكون هناك كثير من أنصار النبى قد انتشروا فى طول امبراطورية المغول وعرضها، مجاهدين فى طى الخفاء لجذب الكفار إلى حظيرة الإسلام ففى عهد اجتائى (١٢٢٩ - ١٢٤١م) نقرأ عن إسلام بوذى يدعى Kuguz وكان حاكمًا على بلاد الفرس من قبل المغول، وفى عهد تيمور خان (١٢٢٣ - ١٢٢٨م) كان انندا حفيد قوبيلائى (١٢٥٧ - ١٢٩٤م) مسلمًا متحمسًا كما دفع كثيرًا من أهل تانجوت إلى اعتناق هذا الدين، وعلى الرغم من استدعائه إلى بلاط تيمور وبذل الجهد فى ارتداده إلى البوذية، أبى إلا التمسك بدينه الجديد، فألقى به فى غياهب السجن، ولكنه لم يلبث أن أطلق سراحه بعد قليل خشية ثورة أهالى تانجوت الذين كانوا شديدى التعلق به».

وهكذا دخل هذا الشعب (الذى دوخ العالم الإسلامى كله وداس أطرافه بأقدامه ونعال خيوله، والذى لم تتماسك أمامه أى قوة) فى دين الله الإسلام فى بضع سنين وبدت هذه الحقيقة مرة أخرى واضحة جلية أن الإسلام لا يزال يملك أكبر نفوذ ويتمتع بأغرب موهبة فى تسخير الأرواح، وكسب الأنصار والأصدقاء، إن التتر لم يسلموا رسميًا فحسب بل برز فيهم عدد كبير من العلماء والفقهاء والمجاهدين، والدعاة والربانيين وأهل الصدق واليقين وأدوا دورهم الثمين فى حماية حمى الإسلام فى ظروف دقيقة ولحظات عصيبة من التاريخ.

***

الفصل الأول

المغول فى شرقى أوروبا وغربى سيبيريا

نتناول فى هذا الفصل الجزء الذى أقطعه جنكيز خان لابنه الأكبر جوجى والتى شملت بلاد الروس وبلغار والقوقاز، وما يمكن ضمه من غرب المعمورة (شرقى أوروبا وغربى سيبيريا) وأطلق على أسرة جوجى التى حكمت الجزء السابق ذكره أسرة مغول الشمال أو القبيلة الذهبية، وقد وصى جنكيز خان لجوجى بوراثة منصب الخان الأعظم للمغول بعد وفاته، ولكن وافت جوجى المنية قبل أبيه فاختير أخوه أوغطاى لهذا المنصب، وخرج المنصب من عائلة جوجي، ولكن برغم ذلك كانت لأسرة جوجى مكانة خاصة عند المغول فكانت لهم ثلث الغنائم التى يحصل عليها المغول فى حروبهم وهى نسبه توافق النسبة التى تصل إلى الخان الأعظم.

باتو:

ورث باتو الحكم بعد وفاة أبيه جوجى وفى قرارة نفسه حقد شديد على عمه أوغطاى الذى اعتبره قد انتزع منصب الخانية العظمى من أسرة جوجي.

توسعات باتو:

جهز الخان الأعظم أوغطاى جيشًا بلغ ٣٠,٠٠٠ جندى تحت قيادة باتو، ويتضمن الجيش ثلاثة قادة هم كيوك بن أوغطاى ومانغو بن طولوى وبايدار بن جغطاى وكلهم تحت إمرة باتو واستطاع هذا الجيش أن ينتصر على أمير بلغار (وهى التى تمثل الآن مدينة قازان فى روسيا والأجزاء المحيطة بها وهاجر سكان هذه المنطقة إلى البلقان واستوطنوا المنطقة التى يطلق عليها بلغاريا الآن) وكانت قد استعصت على المغول من قبل، وعندما احتلوها واصلوا تقدمهم فى شرق

أوروبا، فقضوا على دولة الخزر وواصلوا تقدمهم إلى بلاد الروس ودخلوا مدينة كييف (عاصمة أوكرانيا الآن) أعظم مدن الروس في ذلك الوقت، ودمروها تدميرًا، وتمكنوا أيضًا من دخول موسكو وأحرقوها، ثم انقسموا قسمين قسم بقيادة باتو سار إلى بلاد المجر وانتصر على جيشها وذبحه بالكامل، أما القسم الآخر فكان بقيادة بايدار واتجه إلى ألمانيا ولكنه انهزم ومات بايدار غمًّا وبهذه الهزيمة توقف تقدم المغول فى أوروبا.

فى ذلك الوقت توفى أوغطاى الخان الأعظم للمغول عام ٦٤٤هـ وانتخب كيوك بن أوغطاى خانًا أعظم للمغول، وتوقفت الحروب فى أوروبا وهاجرت الكثير من قبائل المغول إلى منطقة حوض نهر الفولغا، واستقرت بها وبنيت مدينة سراى على نهر الفولغا لتكون عاصمة لمغول الشمال.

تأثر مغول الشمال بالإسلام:

كان للإسلام بالغ الأثر فى نفوس أبناء جوجي، ويرجع ذلك لأن أباهم جوجى تزوج الأميرة رسالة بنت خوارزم شاه، التى وقعت فى الأسر وهى أخت السلطان جلال الدين، فعاشت مع أسرة جوجي، وكان لها تأثير كبير فى نفوس أبنائه باتو وبركه وغيرهما لذلك كان باتو عطوفًا على المسلمين بالرغم من أنه لم يعتنق الإسلام.

زاد حقد باتو بعد تولى كيوك منصب الخان الأعظم، وقد كان كيوك من قبل تحت إمرته فى الحروب مع أوروبا، وقد تربى كيوك على يد نصرانى عهد أوغطاى له بتربيته، وعندما تولى منصب الخان الأعظم أعلن اعتناق النصرانية وانتشر الكثير من الرهبان والقساوسة فى بلاد المغول، وأخذوا يحرضون كيوك على باتو؛ لأنه يعطف على المسلمين فاشتعلت الخلافات بين باتو وكيوك حتى جهز كيوك جيشًا لمحاربة باتو، إلا أن كيوك توفى عام ٦٤٦هـ قبل وصول الجيش

لمنازلة باتو، فعمل باتو جاهدًا على نزع منصب الخان الأعظم من عائلة أوغطاي، وبمساعدة أخيه بركه نصب مانغو ابن تولوى خانًا أعظم؛ لينتقل منصب الخان الأعظم من أسرة أوغطاى إلى أسرة تولوى عام ٦٤٨هـ.

صرتق:

عندما مات باتو عام ٦٥٠هـ تولى ابنه صرتق رئاسة مغول الشمال ولم يستمر كثيرًا فقد توفى وكان أبناؤه صغارا فتولى عمه بركه خان المنصب.

بركه خان:

يعد أبو المعالى ناصر الدين بركة خان أول من أسلم من حكام المغول، ولذلك كان مغول الشمال سباقين فى دخول الإسلام عن بقية الأسر المغولية، وقد أسلم عام ٦٥٠هـ وهو عائد من قرة قورم، عاصمة دولة المغول الكبرى، فمر على بخارى والتقى بأحد العلماء فيها فأشهر إسلامه، وتولى حكم دولة مغول الشمال عام ٦٥٣هـ، وبإسلامه دخل الكثير من مغول الشمال فى الإسلام، وكان شديد الحب والحماسة للإسلام، فبايع الخليفة المستعصم فى بغداد وأتم بناء مدينة سراى (مدينة سراتوف فى روسيا الآن)، عاصمة مغول الشمال وبنى بها المساجد وجعلها أكبر مدن العالم فى ذلك الوقت.

العداء بين بركة وهولاكو وغيرته على المسلمين:

زين هولاكو لأخيه الخان الأعظم مانغو الهجوم على بغداد والسيطرة على ما بقى من بلاد المسلمين فرحب مانغو بالفكرة، وجهز جيشًا لتنفيذها وما إن وصل الخبر إلى بركة خان وكان ذلك فى عهد باتو إلا والتهبت مشاعره، وألح على أخيه باتو فى منع الهجوم على المسلمين، وقال له:(إننا نحن الذين أقمنا مانغو خانًا أعظمًا وما جازانا على ذلك، إلا أنه أراد أن يكافينا بالسوء فى

أصحابنا ويخفر ذمتنا ويتعرض إلى ممالك الخليفة، وهو صاحبى وبينى وبينه مكاتبات وعقود ومودة، وفى هذا ما لا يخفى من القبح والشناعة).

واقتنع باتو تمامًا بكلام أخيه فبعث باتو إلى هولاكو يكفه عما ينويه، فامتثل هولاكو لباتو، وأجل تنفيذ ما ينوى حتى مات باتو فسار هولاكو، واحتل قلاع فرقة الإسماعيلية الحشاشين الضالة، وأكمل طريقه إلى بغداد، فى الوقت الذى تسلم بركة خان الحكم، فأراد بركة أن يوقف تقدم هولاكو إلا أن جنوده رفضوا معاونته؛ لأنهم بذلك يخالفون ما وافق عليه الخان الأعظم، ولأن أكثر الجنود ما زالوا على وثنيتهم، وما زالوا متأثرين بجانكيزخان فلم يجد بركة خان من طريقة لمحاربة هولاكو إلا باختلاق الذرائع للحرب فطالب بأعمال تبريز ومراغة، اللذين يدخلان ضمن حدوده، واعتبر تعدى جنود هولاكو عليها تعديا عليه، ومن جهة أخرى طالب هولاكو بثلث الغنائم كما جرت العادة فى عهد باتو وبعث رسله بذلك إلى هولاكو، فاغتاظ هولاكو وقتل الرسل بل وسير جيشا لمحاربة بركة خان فانهزم جيش هولاكو شر هزيمة فى عام ٦٦٠هـ، ثم عاود الهجوم على بركة خان فى نفس العام بقيادة قائده تاباى نويان، فانهزم جيش بركة بقيادة نوغاى، وأراد هولاكو أن يجهز على بركة خان فأرسل جيشًا كبيرًا يؤازر جيشه المنتصر بقيادة ابنه أباقا، فسار الجيش لملاقاة بركة خان فخرج لهم بركة خان بنفسه على رأس الجيش، واستطاع أن يلحق بجيش هولاكو هزيمة منكرة عام ٦٦١هـ فى القوقاز وفر ما بقى من جيش هولاكو مع ابنه أباقا.

التعاون مع المماليك:

كثرت المراسلات والاتصالات بين بيبرس وبركة خان؛ حيث حث بيبرس بركة خان على قتال هولاكو، ولفت نظره إلى أن الإسلام يوجب عليه قتال أعداء الدين حتى لو كانوا أهله وعشيرته، وبالفعل ساعد بركة خان بيبرس فى قتال هولاكو،

وفى نفس الوقت كان يحارب هولاكو مباشرة؛ ليخفف من وطأته على المماليك.

محاولات بركة خان لزعزعة وحدة المغول الوثنيين:

لم يكتف بركة خان بمناصرة المسلمين ومحاربة أبناء جلدته فى سبيل الله بل عمل على إضعاف دولة المغول الوثنية وتفتيت كلمتها؛ لتتوفر له فرصة السيطرة عليها وإدخالها فى الإسلام، فاستغل خروج الخان الأعظم مانغو لقتال بعض الخارجين عليه ومعه أخوه قبلاي، وكان قد ترك أخاه أرتق بوكا مكانه لحين عودته، فاستغل بركة خان موت مانغو فى الطريق لإثارة الفتنة بين أرتق بوكا وقبلاي، حيث اتفق الجند والأمراء على تولية قبلاى بينما بعث بركة خان إلى أرتق بوكا قوة لمنازعة أخيه قبلاى على الخانية العظمى، وحرض أيضًا أسرة أوغطاى على مساعدة أرتق بوكا، ووقعت الحرب بينهما عام ٦٥٨هـ، واستمرت عدة سنوات واضطر هولاكو لترك الحروب فى الشام، وعاد إلى قرة قورم وتدخل لإنهاء الحرب فأنهاها ونصب أخاه قبلاى خانا أعظم بعد أن أخضع أسرة أوغطاي، وفى ذلك الوقت حث بركة خان الكثير من جنود هولاكو فى الشام على الانضمام إلى جيش بيبرس والدخول فى الإسلام، وأطاعه الكثيرون وتحولوا لحرب هولاكو، فاشتد الغيظ والحقد فى قلب هولاكو مما سببه بركة من متاعب حتى أصيب بالصرع ومات عام ٦٦٣هـ، وورث أباقا ابن هولاكو الحقد على بركة خان، فسار لمحاربته إلا أن نوغاى قائد جيش بركة قد صد الهجوم، فعاود أباقا الكرة واستطاع أن ينتصر على جيش بركة وأصيب نوغاى فى هذه المعركة بسهم فى عينه وكان له مكانه خاصة عند بركة لإسلامه معه، فسار بركة خان بنفسه لقتال أباقا ولكنه توفى فى الطريق عام ٦٦٥هـ.

مانكوتيمر:

تولى مانكوتيمر بن طغان بن باتو الحكم بعد موت بركة خان؛ حيث لم يكن

لبركة أبناء، واستمرت الحروب بينه وبين أباقا كان النصر فيها حليفا لأباقا وحدثت حروب بين مانكوتيمر وإمبراطور القسطنطينية خرب فيها مانكوتيمر بلاد الإمبراطور.

تدان مانكو:

خلف أخاه مانكوتيمر بعد موته عام ٦٧٩هـ، وحدث قتال بينه وبين براق خان من أسرة جغطاى فانتصر تدان مانكو، ثم حدث الصلح بينهما، فحرض براق خان على قتال أباقا ووقعت بينهما الحروب.

وأعلن تدان مانكو إسلامه بعد مراسلاته مع السلطان المنصور قلاوون، فعمل على تطبيق الشريعة، ثم انصرف عن الحكم لمجالسة العلماء، وخلفه ابن أخيه تلابغا عام ٦٨٦هـ لحكم مغول الشمال.

تلابغا:

وقع خلاف بين تلابغا والقائد نوغاى عندما سارا لحرب بعض أمم الشمال؛ حيث هلك كل من كان مع تلابغا فى الطريق الذى سلكه، بينما لم يهلك أحد مع نوغاى فى الطريق الآخر، فظن تلابغا أن نوغاى أراد هلاكه، فتنبه نوغاى لما ينوى تلابغا فبادر بالتخلص منه، وولى أخاه طقطاى حكم مغول الشمال عام ٦٩٠هـ.

طقطاي:

نشب خلاف بين طقطاى ونوغاي، واستطاع طقطاى أن يقتل نوغاي، ثم ذهب لقتال ملك الدولة الايلخانية غازان لمنازعته على أذربيجان ومراغة، ولكن غازان توفى قبل أن يلتقى بجيوشه مع بطقطاي، ودخل فى حرب مع سلطان ما وراء النهر (اسبنغا) عام ٧٠٩هـ وهزمه وتوفى طقطاى عام ٧١٢هـ.

غياث الدين محمد أوزبك:

وهو بن طغرلجا أخى طقطاي، الذى قتله طقطاي، واتفق مع كبك ملك بلاد ما وراء النهر من أسرة جغطاى على حرب أبى سعيد ملك الدولة الإيلخانية، ولكن هزيمة يبسور قائد جيوش كبك جعلت غياث الدين يتجنب مواجهة أبى سعيد، ومات محمد أوزبك عام ٧٢٢هـ.

محمود جانى بك:

وهو ابن محمد أوزبك، ومما يذكر فى عهده أنه تمكن من ضم أذربيجان، وتوفى عام ٧٥٨هـ.

محمد بردى بك:

هو ابن محمود جانى اشتهر بالظلم، وقتل أكثر أقربائه؛ لكى لا ينازعه أحد فى الحكم، وفرض الضرائب الباهظة والجزية على الروس، وتوفى عام ٧٦٢هـ.

انتشار الفوضى وانقسام دولة مغول الشمال

بالرغم من اتساع دولة مغول الشمال التى امتدت من أواسط بولندا فى الغرب، إلى أواسط سيبيريا فى الشرق، ومن المحيط المتجمد الشمالى فى الشمال إلى أذربيجان فى الجنوب، وكانت تتضمن عدة شعوب منهم التتر المسلمين فى شرق أوروبا وغرب سيبيريا، وحوض نهر الفولغا والروس النصارى فى أجزائها الغربية، والترك فى خوارزم والأذربيين فى أذربيجان، وشعوب القوقاز وغيرهم، إلا أنه بموت محمود بردى بدأت الفوضى تعم البلاد؛ حيث كان ابنه توقتاميش صغيرًا وبدأت الانقسامات فى الظهور فاستقل الحاج محمد خان بمنطقة سيبير، واستقل ماماى خان بالقرم بعد أن نصب عبد الله خان فى مدينة سراي، واستقل الحاج شركس بمنطقة الحاج طرخان.(استراخان)، وفر توقتاميش إلى سمرقند عند الجغطائيين، وكان تيمورلنك قد قوى أمره فى ذلك الوقت، فرحب

بتوقتاميش، و أعاد له ملكه، ولكن ما لبث أن اندلع الخلاف بينهما ونشب القتال عام ٧٨٨هـ، وانتهت الحروب بانتصار تيمورلنك وسيطرته على بلاد مغول الشمال، واختفى توقتاميش، وكثرت الروايات عن مصيره.

وبعد أن سيطر تيمورلنك على بلاد مغول الشمال عين من قبله خانا عليها، واتجه لمواصلة حروبه فى مناطق أخرى فأخذت البلاد فى التدهور والانقسام، وتوالى على بلاد مغول الشمال العديد من الخانات ووقعت الحروب بين التتار والليتوانيين، فانتصر التتار وكذلك وقعت الحروب بين التتار والروس عام ٨١١هـ، ثم اتفقا على حرب الليتوانيين، وظهرت عدة خانات فى بلاد مغول الشمال، وهى قازان والقرم واستراخان وسيبير وخوارزم، وكلها انفصلت عن مدينة سراي، وأخذت تقاتل بعضها البعض، وانحاز فريق منها للروس وانحاز فريق آخر لليتوانيين وتكررت مأساة الأندلس فى بلاد مغول الشمال، واستغل الروس التمزق الذى أصابها فى ابتلاع الجزء تلو الأخر، حتى استولوا عليها بالكامل، وسنتناول هذه الخانات إلى ما آلت إليه الآن باستثناء خانية خوارزم فستدرج فى الفصل الخاص بتركستان الغربية.

خانية قازان

محمد أوغلان خان:

.قل ارتباط قازان بعاصمة مغول الشمال سراى بعد تيمورلنك وعندما وقع الخلاف بين أحد خانات سراى وهو محمد أوغلان وأخوه كجك محمد عام ٨٤١هـ استطاع كجك محمد أن يتربع على عرش سراي، فى حين هرب محمد أوغلان إلى مدينة قازان وسيطر عليها وعلى المناطق المحيطة بها، واستقل بها عن سراى وكون خانية قازان، وبدأ توسعة ملكه منها.

حارب محمد أوغلان الروس، بسبب أنه التجأ إليهم عندما هرب من أخيه كجك محمد، ولكنهم تنكروا له بالرغم من حسن معاملته لهم عندما كان خانًا على سراي، فهجم على بلادهم عدة مرات، وكان يكتفى بالغنائم حتى جاء هجومه عليهم عام ٨٥٠هـ، وحاصر فيه موسكو وأسر بطريقها، وفى أثناء حصاره لموسكو استغل أحد أمراء المغول من أبناء شوبان الفرصة، وسيطر على قازان، فاضطر محمد أوغلان أن يفك الحصار عن موسكو، ويعود إلى قازان، واستطاع أن يستعيد السلطة فيها.

محمود خان:

أطلق محمد أوغلان سراح بطريق موسكو، فتسبب ذلك فى الخلاف بين محمد أوغلان وابنه محمود فقتل محمد أوغلان، وسيطر ابنه محمود على الحكم عام ٨٥٠هـ، ونتيجة لذلك فر إخوة محمود إلى موسكو، واستمر حكم محمود حتى توفى عام ٨٧٢هـ.

إبراهيم خان:

وهو ابن محمود خان، وفى نفس الوقت تزوجت أمه من عمه قاسم الذى فر إلى موسكو، وأخذ يهاجم قازان بمساعدة الروس حتى توفى عام ٨٧٣هـ، واستمرت الحروب بين الروس وقازان برغم محاولات أم إبراهيم فى التوسط بين ابنها، وبين الأمير إيفان الثالث، حتى انسحب الروس إلى موسكو بعد أن خربوا أطراف قازان، وتوفى إبراهيم عام ٨٨٣هـ.

الهام خان:

استمر حكمه عشر سنوات، وكان أخوه محمد أمين قد تشاكل معه، فذهب إلى الروس وأعانوه بقوة هجم بها على قازان عام ٨٩٣هـ، وتمكن من السيطرة

عليها وخلع أخاه الهام وجلس مكانه وأسر أخوه لدى الروس.

محمد أمين خان:

اتصل أهل قازان بماموق خان الشيبانى فى القوقاز ليولوه عليهم خانًا بعد أن كرهوا محمد أمين، فحاول ماموق أن يدخل قازان عام ٩٠٢هـ فاستنجد محمد أمين بإيفان الثالث، فأعانه ففشل ماموق فى دخول قازان، ولكنه عاود الكرة، واستطاع دخول قازان ثم هرب محمد أمين وأسرته إلى موسكو، ولم يستطع ماموق أن يكسب أهل قازان فاستغلوا خروجه للحرب، وأغلقوا أبواب المدينة فى وجهه عند عودته، وراسلوا إيفان الثالث يطلبون تعيين عبد اللطيف أخى محمد أمين خانًا عليهم، فوافق إيفان ونصب فعلاً عبد اللطيف، ولكن محمد أمين استطاع أن يسترد قازان عام ٩٠٨هـ وأرسل عبد اللطيف إلى موسكو أسيرًا، وفى ذلك الوقت قامت زوجة محمد أمين وكانت من قبل زوجة أخيه الهام بإثارة محمد أمين ضد الروس، فسار بجيش كبير من قازان وبلاد النوغاي(الأجزاء التى تتضمن أطراف الأورال مثل مدن أوفا وأورنبرغ) إلى بلاد الروس، وهكذا كثرت الحروب بين الروس وقازان فى أيام محمد أمين، وفى ذلك الوقت أطلق سراح عبد اللطيف أخو محمد أمين بوساطة منكلى كراى خان القرم، فعاد عبد اللطيف إلى قازان بعد أن أمنه أخوه، بل وجعله وليًا للعهد فى قازان، إلا أنه توفى قبل موت محمد أمين الذى مات عام ٩٢٥هـ ولم يكن هناك ولى للعهد فعين الروس شيخ على خانًا على قازان.

صاحب كراي:

اقترح محمد كراى خان القرم على موسكو تعيين أخيه صاحب كراى خانًا على قازان، فرفضت موسكو لخوفها من وحدة المسلمين، فاتفق محمد كراى مع أهل قازان على ذلك وأعانوه وخلعوا شيخ على ونصبوا صاحب كراى خانًا

لقازان، وتوحدت قازان والقرم فى حربها مع الروس، فأخذت موسكو ترسل جيوشها بقيادة شيخ على لمحاربة أهل قازان، وارتكبت هذه الجيوش أبشع الجرائم فى أهل قازان فى عامى ٩٣٠هـ، ٩٣١هـ.

وعرض صاحب كراى خان القرم على الخليفة العثمانى سليمان القانونى تبعية قازان للعثمانيين، فوافق الخليفة وأرسل إلى موسكو يخبرهم بذلك، فكان رد الروس أن إمارة قازان تتبعهم.

صفا كراي:

وسارعت روسيا بإرسال جيوشها إلى قازان حتى تسبق العثمانيين إليها فى الوقت الذى ذهب صاحب كراى إلى العثمانيين للإتيان بقوة وترك مكانه لابن أخيه صفا كراى وحاول الروس احتلال قازان، ولكنهم فشلوا لما أبداه أهلها من مقاومة كبيرة ولكن أهل قازان قد أرهقتهم الحروب، فراسلوا روسيا يعرضون التبعية الاسمية لها، وتعيين خانًا من قبلها فعينت عليهم جان على عام ٩٣٩هـ وترك صفا كراى البلاد متجهًا إلى القرم.

وكان القرم دائمى الهجوم على الروس لتخفيف وطأتهم على قازان وتوفى أمير موسكو واسيلى الرابع وتولى مكانه ابنه إيفان الرابع (الرهيب) وقد أطلق عليه هذا اللقب لما ارتكبه من جرائم بشعة فى المسلمين، فاقت كل الوصف، وفى عام ٩٤٢هـ استطاع أمراء قازان قتل جان على المعين من قبل الروس، وراسلوا صفا كراى ليعود لحكم قازان، فعاد إليها وهاجم الروس فى العام التالى وتوفى صفا كراى عام ٩٥٦هـ فأصبحت قازان بلا خان.

وبعد عدة مناوشات مع الروس عقدوا اتفاقًا معهم بعودة شيخ على إلى حكم قازان، وأخرج أمراء القرم من قازان ومنهم بولك كراى بن صاحب كراي.

ثم قرر إيفان الرهيب حسم مشكلة قازان مستغلاً تحسن علاقاته مع ليتوانيا

وامارة استراخان، وبرغم دعم القرم لقازان ومراسلة الخليفة العثمانى سليمان القانونى لخان النوغاي؛ لمساعدة قازان المسلمة ضد الروس أعداء المسلمين ووصول النوغاى فعلاً إلى قازان، وخلع شيخ على وتنصيب محمد خان من قبلهم على قازان، إلا أن إيفان الرهيب سار مع الشيخ على هذا الخائن الذى لا تهمه إلا مصلحته الشخصية، واتجها إلى قازان واستطاعوا بعد مقاومة عنيفة من أهلها أن يدخلوها عام ٩٥٩هـ لتبتلعها روسيا وترتكب بها أبشع الجرائم والمنكرات التى سنتكلم عنها فيما بعد.

خانية استراخان (الحاج طرخان)

استقل الحاج شركس باستراخان عن سراى عام ٧٦٢هـ واستطاع دخول سراى ولكنه ما لبث أن خرج منها بعد عدة أشهر، وعندما احتل تيمورلنك منطقة مغول الشمال نصب على سراى عاصمة بلاد مغول الشمال قويرجق خان، فخضعت له سراى وما إن توفى حتى تسلم تيمر قتلغ الأمر عام ٨٠٢هـ ثم جاء من بعده براق خان وفى عهده تسلم محمد أوغلان خانية سراي.

انتقلت استراخان لتبعية القرم فى عهد أحمد خان حاكم القرم ثم استقل بها حسين خان ثم عادت للقرم فى عهد محمد كراى عام ٩٣٠هـ.

خضعت استراخان إلى عبد الكريم بن أحمد خان من القرم، ثم ابن أخيه آقوبك ابن قاسم ثم عبد الرحمن خان عام ٩٤١هـ، ثم جاء النوغاى فاستولوا على استراخان وعينوا عليها درويش على خان، ثم حيدر خان بن أحمد خان فى عام ٩٤٨هـ ثم آق كداك خان حفيد أحمد خان ثم يمغورجى خان، حتى استولى عليها صاحب كراى عام ٩٥٨هـ وأعاد درويش على خان، ثم استطاع يمغورجى أن يستعيد استراخان واتفق مع خان القرم وأمير النوغاى بدعم الدولة العثمانية وعزم إيفان الرهيب الأمير الروسى على احتلال استراخان، ووافقه على ذلك

أمير النوغاى مرزا يوسف، فتذرع إيفان للحرب مع استراخان بأن أمر يمغورجى أن يعيد درويش على خان على استراخان فرفض يمغورجي، فانقض إيفان على استراخان واستطاع أن يحتلها عام ٩٦٢هـ بجيش تحت إمرة مرزا إسماعيل ونصب درويش على خانًا عليها، ثم عقد درويش على مع روسيا اتفاقًا ينص على عدم تعيين خانا من بعده على استراخان، أى تكون استراخان من بعده إمارة روسية، وحاول درويش على أن يتفق مع دولت كراى خان القرم على تعيين أحد أبنائه وليًا للعهد على استراخان بعد موت درويش، فلما علمت روسيا بذلك استولت على استراخان عام ٩٦٥هـ وضمتها إليها وواصلت بشائعها مع التتار المسلمين.

خانية سيبيريا

ولى باتو بن جوجى أخاه شيبان على شرقى الأورال، فبنى مدينة سيبير وتأسست عام ٦٤٠هـ إمارة سيبيريا التابعة لسراى عاصمة دولة مغول الشمال، وتوالى على حكم سيبيريا أبناء شيبان (الأسرة الشيبانية)، وبعد عهد تيمورلنك انفصلت عن سراى مع انفصال الإمارات الأخرى، وتوالى على حكمها أبناء شيبان حتى عهد قوتشم خان الذى نقض العهد مع الروس، الذى ينص على التبعية لروسيا وتعاون مع النوغاى فى حرب الروس، وشجع القوزاق على عصيانهم، وفى هذا الوقت ظهر يرمق بن تيما واستطاع أن يجمع حوله بعض أشقياء القوزاق، وقام بعمليات سطو وتخريب فى بلاد التتار، فتمكن من الاستيلاء على قلعة سيبير عام ١٠٠٣هـ وباعها للروس، وفر قوتشم إلى بلاد الباشكير، وعاش بمدينة أوفا حتى مات وحاول ابنه على خان وايشم خان أن يحررا بلادهما من الروس ولكنهما فشلا، وباستيلاء الروس على قازان واستراخان وسيبير واصلو تقدمهم فى بلاد شرقى أورال، فاحتلوا بلاد النوغاى

وقضوا على أكثر خانات بني شيبان فى سيبيريا.

خانية القرم

ماماي:

استقل ماماى صهر محمد بردى بالقرم عن سراى عام ٧٦٢هـ، واستطاع تنصيب عبد الله بن محمد أوزبك خانًا على سراى بعد أن تمكن من السيطرة عليها، واضطر فى حربه مع الروس أن ينسحب إلى مقره فى القرم حتى جاء تيمورلنك، واحتل بلاد مغول الشمال وعين قويرجق خانًا على مغول الشمال.

حاجى كراي:

وفى عهد محمد أوغلان عام ٨٣٩هـ عندما حدث الخلاف بينه وبين أخيه، اتجه بعض أبناء أوغلان إلى شبه جزيرة القرم، أمثال غياث الدين ودولت بردى وتربع حاجى كراى على حكم القرم حتى وفاته عام ٨٧١هـ.

منكلى كراي:

هو ابن حاجى كراى وفى عهده خرج عليه أخوه صدر، فاحتمى بالجنويين الذين كان لهم بعض المواقع على ساحل شبه جزيرة القرم فى مدينة أكفا، وكان فى ذلك الوقت السلطان محمد الفاتح يحارب الجنويين، واستطاع تطهير شبه جزيرة القرم منهم، ووقع منكلى كراى فى يد السلطان محمد الفاتح فذهب به إلى استنبول ثم أعاده خانًا على القرم وأصبحت القرم تحت حماية العثمانيين.

وكان العداء مستمرًا بين القرم وسراي، فحدث خلاف بين منكلى كراى والروس، فى حين اتحد أحمد خان سراى مع الليتوانيين، واستمرت الحروب بين الحلفين، وعندما تولى مرتضى بن أحمد خان الحكم فى سراي، وواصل الحرب مع القرم وتمكن منكلى كراى عام ٨٩٠هـ من الانتصار على سراى وأسر مرتضى

خان، لكن أهل سراى تمكنوا من إحراز الانتصار على القرم فى العام التالى وإطلاق سراح مرتضى خان.

استطاع منكلى كراى أن يحرز انتصارًا كبيرًا على الليتوانيين، وكادت تخضع له لولا تدخل أحمد خان أخى مرتضى خان، واستطاع منكلى كراى أن يقضى على مدينة سراى عام ٩٠٧هـ؛ حيث تأخر الليتوانيون فى دعم سراى فدخلها منكلى كراى ودمرها تدميرًا ومحاها من الخريطة.

بدأت العلاقات تتوتر مع روسيا عام ٩١٧هـ؛ حيث تحالف تتار القرم مع الليتوانيين فى هجومهما على روسيا ثم توفى منكلى كراى عام ٩١٩هـ.

محمد كراي:

تولى الحكم عام ٩٢١هـ بعد موت أبيه منكلى كراي، واستطاع أن يولى أخاه صاحب كراى على قازان، واستطاع أن يسيطر على استراخان فتوحدت هذه الإمارات فى حرب الروس، ولكن هجوم الروس المتواصل على قازان قد جعل أهلها يطلبون الصلح من الروس، ولم يستطع تتار القرم تثبيت أرجلهم فيها وكان تتار القرم دائمى الحرب مع الروس، واستطاعوا دخول مدينة تولا على بعد ١٥٠ كم من موسكو وانتشروا فى ولاية رزان حول تولا حتى استنجدت روسيا بالخليفة العثمانى سليم الأول، فأرسل الخليفة يمنعه وبرغم توضيح محمد كراى للخليفة عداوة روسيا الشديدة للإسلام والتنكيل بالمسلمين إلا أنه صمم على رأيه، وكذلك الخليفة العثمانى سليمان القانونى وخاصة زوجته روكسلان الروسية التى كان لها تأثير كبير عليه؛ فلذلك لم تستمر الغارات على الروس وحارب محمد كراى أيضًا البولنديين.

سعادت كراي:

وعرف الغدر طريقه إلى محمد كراى عام ٩٢٩هـ من قبل ولديه غازى وبابا اللذين قتلاه وتسلم غازى الخانية ولم يرض الخليفة العثمانى عما حدث فى

القرم، فعين من قبله سعادت كراى أخا محمد كراي، وما إن استتب له الأمر فى القرم حتى قبض على غازى وبابا وقتلهما.

إسلام كراي:

استولى إسلام كراى على الحكم فى القرم عام ٩٣٨هـ، فاتفق الخليفة العثمانى مع إسلام كراى على جعل القرم ولاية عثمانية، وإسلام كراى هو الوالى عليها، ثم عاد صاحب كراى فساعده العثمانيون على السيطرة على الحكم فى القرم وقتل ابن أخيه إسلام.

صاحب كراي:

اشتعلت الحروب مع الروس وخاصة وأن صاحب كراى كان خانًا على قازان ثم رحل منها وترك مكانه صفا كراى بن أخيه واستطاع أن يضم استراخان عام ٩٥٨هـ.

دولت كراي:

قتل صاحب كراي؛ لانشغاله بضم استراخان من قازان، ولكنه لم يستطيع تخليص قازان من أيدى الروس واستمر خانا للقرم حتى عام ٩٨٥هـ.

محمد كراى الثاني:

تباطأ محمد كراى فى مساعدة عثمان باشا قائد الجيش العثمانى فى حروبه فى القوقاز، فتحرك عثمان باشا فى اتجاهه، ووعد أخاه إسلام كراى بجعله واليًا للقرم إذا ساعده فقتل إسلام محمد وتسلم منصب الوالى ومن وقتها أصبح تعيين ولاة القرم من قبل العثمانيين فى استنبول.

النفوذ الروسى فى القرم:

استطاعت روسيا أن تجتذب إليها القوزاق نتيجة للمعاملة السيئة التى تعرضوا لها من الصدر الأعظم العثمانى قرة مصطفى، وفى معاهدة أدرنه عام

١١٢٥هـ تخلصت روسيا من الجزية التى كانت تدفعها للقرم، واستطاعت احتلال ميناء آزوف ثم تدخلت فى تعيين شاهين كراى واليًا للقرم عام ١١٨٦هـ وبرغم تمكن دولت كراى الثالث من السيطرة على القرم عام ١١٨٩هـ، إلا أن روسيا أجبرت العثمانيين على إعطاء القرم الاستقلال فى معاهدة كوجوك قينارجة، وأعادت شاهين كراى لحكم القرم واستطاعت أن تضم القرم عام ١١٩٧هـ، ولم تستطع الدولة العثمانية استعادة القرم من روسيا، وفى العصر الحديث أهدت روسيا القرم إلى جمهورية أوكرانيا فى عهد الاتحاد السوفيتي، وبعد تفكك الاتحاد السوفيتى ما تزال القرم تتبع جمهورية أوكرانيا المستقلة.

استطاع الروس أن يبتلعوا أجزاء من بلاد المسلمين مثل مغول الشمال والقوقاز والتركستان، وبمجرد دخولهم لأى جزء منها وخاصة القريبة من موسكو كانوا يقومون بأبشع الجرائم للتنكيل بالمسلمين، والتى فاقت محاكم التفتيش فى إسبانيا، وحاولوا باستمرار تطوير أساليبهم وقد اخترنا بعضا من هذه الوسائل على سبيل المثال لا الحصر:

من هذه الوسائل:

١- مراسلة إسبانيا ليأخذوا منها خبرتها فى التنكيل بمسلمى الأندلس.

٢- القتل وهتك الأعراض وغيرها من وسائل التعذيب والإبادة.

٣- التشريد والتهجير حتى هاجر الكثير من التتر المسلمين إلى الأمصار الإسلامية وأوروبا وأمريكا، وما بقى منهم فى الاتحاد السوفيتى تم توزيع الكثير منهم على أنحاء الاتحاد السوفيتي، حتى يكون المسلمون أقلية فى أى مكان يعيشون فيه، بل وزجوا بالألوف من المسلمين فى مجاهل سيبيريا حيث تصعب الحياة فقضى على كثير منهم فيها، وكان الروس ينفون إلى سيبيريا شعوبًا بأكملها مثلما فعلوا مع تتار القرم والشيشان والباشكير وغيرهم.

٤- توطين الروس فى المناطق المسلمة للمساهمة فى تقليل نسبة المسلمين الكاسحة فيها، ونزع ملكية أخصب الأراضى فى تلك المناطق، وإعطائها للمستوطنين الروس، وهدم ديار الكثير من المسلمين فيها، وقد وطنوا شعوبًا أخرى غير مسلمة فى مناطق المسلمين أيضًا كما وطنوا الكثير من اليهود فى القرم.

٥- هدم الكثير من المساجد وتحويل بعضها إلى كنائس وإسطبلات للخيول ومسارح وثكنات عسكرية، ودور للخمر، ومصادرة الأوقاف الإسلامية، وتحويل المدارس القرآنية والكتاتيب إلى دور لنشر المسيحية.

٦- فرض الضرائب الباهظة على المسلمين، والعمل على خفض مستوى معيشتهم، وإجبارهم على الخدمة العسكرية، فى حين كانت تعفى المرتد عن دينه، وكانوا قله قليلة جدًا، بالإضافة لمن يكتم إسلامه منهم.

٧- الإجبار على التنصير واعتبار اعتناق أى دين غير الأرثوذكسية جريمة عقوبتها الإعدام، وإصدار قانون بذلك فى عهد القياصرة؛ إيفان الرهيب وبطرس الأكبر، والإمبراطورة حنا، والقيصر اسكندر الثاني. وحتى القياصرة الذين كانوا يلغون هذا القانون، مثل الإمبراطورة كاترين الثانية، لم يفعلوا ذلك حبًا فى الإسلام ولكن لخوفهم من العثمانيين الذين كانوا فى حرب معهم، ولمحاولة كسب المسلمين ضد أعداء الروس لذلك اضطر الكثير من المسلمين إلى إظهار النصرانية لعدة قرون بينما قلوبهم مطمئنة بالإيمان، وكانوا يورثون الإسلام سرًّا إلى أبنائهم ثم إلى أحفادهم، حتى أعطيت الحرية الدينية الكاملة عام ١٣٢٣هـ وأظهر الكثير من التتار الذين أجبروا على النصرانية إسلامهم الذى كتموه لعدة قرون.

٨- اختطاف أطفال المسلمين وفصلهم عن أهليهم وتربيتهم فى مدارس نصرانية.

٩- عندما سيطر الشيوعيون على الحكم، وأعلنوا أن الأديان هى أفيون الشعوب، وعملوا على تحجيم الأنشطة الدينية بصفة عامة سواء للمسلمين أو النصارى أو اليهود أو البوذيين بيد أنهم اختصوا المسلمين بالاضطهاد والبطش دون غيرهم.

وتمثل ذلك فى الآتي:

أ- لم تفعل تجاه الأديان الأخرى شيئًا مقارنة بما فعلته بالمسلمين، ويرجع ذلك لأن أصحاب الفكر الشيوعى يهود، ويشترك معهم النصارى الذين يمثلون الحكام فى السيطرة على الحزب الشيوعي، ومهما حاول أى مسلم الوصول إلى الحزب الشيوعى وأظهر إخلاصه لهم بخلوا عليه بالثقة ولو للحظة بل وفتكوا بالكثير منهم لمجرد الشك.

ب- منعوا المسلمين من أداء فريضة الحج ومنعوا الزكاة وأعمال الخير وأجبروا المسلمات على السفور وزادوا من ساعات العمل فى رمضان ليشقوا على المسلمين وأرهبوا المسلمين إذا ما أدوا الصلاة فى المسجد.

ج- العمل على تمكين (جمعية نشر المعلومات السياسية) من تحقيق أهدافها والتى تقوم بحملات دعاية ضد الإسلام وإصدار الكتب بكل اللغات الموجودة فى الاتحاد السوفيتى التى تتضمن الاستهزاء والسخرية بالإسلام وإلصاقه بالتخلف والتأخر للتأثير على المسلمين.

د- فرض اللغة الروسية على السكان وكتابة لغاتهم بحروف أجنبية.

هـ- الحرص على التعليم المختلط لما فيه من فساد للأخلاق وإثارة للشهوات.

و- الإبادة المستمرة لأى صوت معارض، وذكر أنه فى عهد ستالين أبيد من المسلمين ما يقارب ١١ مليون مسلم، واتهمت الكثير من الشعوب المسلمة بالخيانة فى الحرب العالمية الثانية ونفيت إلى مجاهل سيبيريا.

ز- تعطى الإحصائيات الروسية باستمرار نسبا وأعدادا قليلة للمسلمين لتثبيط هممهم وإشعارهم بأنهم أقلية ضعيفة يجب أن تستسلم للأمر الواقع وتخضع للروس؛ لأن أى محاولة من جانبهم لن يكون لها تأثير، ولن تؤدى إلا للإجهاز عليهم، وفى حين أن أعداد المسلمين أكثر بكثير، مما تعطيه الإحصائيات الروسية حيث يزيدون عن عشرين مليون مسلم، وتزايدهم يفوق تزايد الروس والشعوب غير المسلمة الأخرى.

ح- تفتيت وحدة المسلمين، وتقسيم بلادهم إلى وحدات صغيرة، وتقوية النزعة القومية فيهم، وإثارة المشاكل بينهم ودمجهم فى المجتمع الروسى ليسهل السيطرة عليهم، ولتصعب عليهم أى محاولة للاستقلال.

والتقسيم السياسى فى روسيا أثناء فترة الاتحاد السوفيتى بالغ التعقيد حيث يضم ثلاث مستويات؛ المستوى الأول: وهو الجمهوريات الاتحادية وهم ١٥ جمهورية تكون باتحادها الاتحاد السوفيتى الذى يدار من موسكو، وكان من ضمنها جمهوريات التركستان وجمهورية أذربيجان ذوو الأغلبية المسلمة.

وتتضمن هذه الجمهوريات الاتحادية الخمسة عشر جمهوريات أخرى ذات استقلال ذاتي، وهو استقلال اسمى فقط؛ لخداع شعوبها وإيهامهم بأن لهم شخصية ظاهرة وهذا هو المستوى الثانى فى التقسيم السياسي.

أما المستوى الثالث: فهو مقاطعات ذات استقلال ذاتى وهو كذلك يعتبر اسميًا فقط بينما فى الحقيقة لا يمت للاستقلال بصلة وقد تتبع هذه المقاطعات الجمهوريات ذات الاستقلال الذاتى أو تتبع مباشرة الجمهورية الاتحادية.

وقد أدرجت معظم بلاد مغول الشمال والقوقاز ضمن المقاطعات والجمهوريات ذات الاستقلال الذاتي، التى تخضع لجمهورية روسيا الاتحادية، أما القرم فخضعت لجمهورية أوكرانيا الاتحادية.

وعندما انحل الاتحاد السوفيتى عام ١٤١١هـ استطاعت الجمهوريات الاتحادية المسلمة أن تستقل عن روسيا وهي: أذربيجان، قازاكستان، أوزبكستان، قيرغيزستان، طاجكستان، تركمانستان، بينما لم تستطع الجمهوريات والمقاطعات ذات الاستقلال الذاتى التابعة لروسيا وأوكرانيا أن تستقل عنهما.



خريطه توضح الجمهوريات والمقاطعات الإسلامية
ذات الاستقلال الذاتى فى روسيا الاتحادية

وتبين الخريطة أهم الجمهوريات والمقاطعات الإسلامية ذات الاستقلال الذاتى فى روسيا الاتحادية؛ وهي: جمهورية باشكيريا وعاصمتها سترليتاماك، وجمهورية تتاريا (تترستان) وعاصمتها قازان، وجمهورية جوفاشيا وعاصمتها شبوقساري، وجمهورية موردوف وعاصمتها سارانسك، وجمهورية ماريا وعاصمتها يوشكاريولا، وجمهورية أدمورت وعاصمتها آيجفسك، ومقاطعة أورنبرغ وعاصمتها مدينة أورنبرغ.

مقاومة المسلمين:

برغم كل هذه الجهود المضنية لتنصير المسلمين وإبادتهم إلا أن المسلمين تحملوا وتمسكوا بدينهم، وكانوا أقوياء فى صبرهم كما كانوا أقوياء فى حروبهم، وكان للمسلمين التتر النصيب الأكبر من البطش والظلم الروسي، وذلك لقرب بلادهم من موسكو، ولكن بالرغم من ذلك عملوا على نشر الإسلام فى روسيا فدخلت الكثير من القبائل الوثنية فى الإسلام، وكان التتر يستغلون الفرصة عندما يخفف عنهم الروس من وطأتهم، كما حدث فى عهد الإمبراطورة كاترينا الثانية عندما أعطت لهم الحرية الدينية فعكفوا على نشر دينهم وأظهروا إسلامهم الذى أخفوه فى عهد من سبقها من القياصرة، وبمجرد انتهاء عهد كاترينا جاء لحكم روسيا قياصرة أشد بطشًا بالمسلمين ممن سبقوهم، فعاد المسلمون إلى إخفاء إسلامهم، وترسخ لديهم الكره الشديد للروس حتى ارتبط الإسلام عندهم ارتباطًا عصبيًا بجنسهم فتلازم لفظ تترى مع لفظ مسلم لشدة ما فعله الروس بهم، وفى الحرب العالمية الأولى حاول المسلمون الانضمام لكل قوة تناهض النظام الحاكم فى روسيا، ولكن للأسف الشديد كلما تعاونوا مع أى حركة تبدى فى البداية الوعود لهم ثم تنقضها بمجرد الوصول للحكم، وتواصل التنكيل بهم بصورة أشد، وبرغم ذلك كان المسلمون على درجة كبيرة

من السذاجة، ولم يتعلموا من الدروس السابقة ومن أمثلة ذلك تأييدهم للحزب الدستورى الديمقراطي، فغدر بهم ثم اتجهوا إلى الحزب الاشتراكى الثورى فنكلوا بهم وهكذا.. وعندما جاءت الثورة البلشفية عام ١٣٣٦هـ ووعدت المسلمين باحترام دينهم وثقافتهم ورفع الظلم الذى عانوه فى عهد القياصرة إذا ما نصروا الثورة، واستمر المسلمون فى سذاجتهم ونصروا الثورة وما إن استتب الأمر للشيوعيين حتى أذاقوا المسلمين الأمرين، ومارسوا ضدهم سياسة عدوانية رهيبة.وقد جرت محاولات أخرى للمسلمين تعبر عن مقاومتهم تمثلت فى تأسيس الجمعيات والهيئات السياسية الخاصة بهم وقد قضى الشيوعيون على أغلبها وما بقى منها اشترك الشيوعيون فى الإشراف عليه.

محاولات الاستقلال:

حاول المسلمون التتر الاستقلال عن روسيا، ونظموا وحدات عسكرية لهم تسيطر عليها منظمة (حربى شورى) وأعلنوا فى عام ١٣٣٦هـ قيام جمهورية مستقلة باسم ايديل أورال تشمل منطقتى باشكيريا وتترستان، ولكن جاءتها قوة روسية قضت عليها، وكان قد سبقهم تتار القرم بانتخاب لجنة مسلمة لتكون نواة حكومة إسلامية وطنية، ولكنها لم تستمر أكثر من ثلاثة شهور، فقد جاءتها أيضًا قوة روسية قضت عليها.وقد أعاد تتار القرم المحاولة أيام الحرب العالمية الثانية، فتعاونوا مع الألمان واستسلموا لهجومهم الكاسح، وظنوا أن الألمان سيحفظون لهم هذا الجميل، ولكن الألمان أمروا الفرقة التترية المستسلمة لهم بالسير ١٥٠ كم حفاة، فهلك منهم الكثير فى الطريق، ثم أودع من تبقى منهم فى أحد السجون ثم منع عنهم الطعام ليموتوا جوعًا، فبدأ الأحياء يأكلون جثث الموتى فأخرجوهم من السجن وقتلوهم رميًا بالرصاص، وما إن هزمت ألمانيا وسيطر الروس على القرم حتى بدأ الروس الانتقام الأكبر من تتر القرم فأعلنوا أن تتر القرم عملاء للألمان وهدموا مساجدهم، وأحرقوا المصاحف فى ميادين عامة، وفتحوا نيران أسلحتهم على السكان العزل بدون تمييز،

ونفوا من بقى حيا إلى مجاهل سيبيريا حيث الزمهرير الشديد، فمات منهم الكثير وهام الباقون على وجوههم ولم يتبقَ الآن فى شبه جزيرة القرم من التتار إلا القليل.

ويعيش الآن المسلمون التتر فى روسيا وهم يجهلون الكثير عن دينهم نظراً لأثر المحاولات المستمرة من الروس لغزو فكرهم وتشويه الإسلام.

وستعرض لأحوال المسلمين فى التركستان والقوقاز فى الفصول القادمة.

* * *

الفصل الثاني
المغـــــــول فى إيـــــران

أعطى جنكيز خان لابنه تولوى بلاد فارس وخراسان وما يمكن ضـمه مـن بلاد العرب وآسيا الصغرى، وتعتبر أسرة تولوى هـى الأوفـر حظًـا مـن حيـث المساحة التى حكمتها، فقد حكم هولاكو بن تولوى ومـن بعـده أبنـاؤه المنطقـة التى نتناولها فى هذا الفصل، والتى عرفت بالدولة الإيلخانية، ومـن جهـة أخـرى أسس قـوبيلاى أسـرة حكمـت فـى بـلاد الصـين، سـيرد ذكرهـا فـى الفصـل القادم،ونتناول الآن تاريخ الدولة الإيلخانية وحتى وقتنا الحالي.

هولاكو:

سبق أن تكلمنا عنه فى نهاية الدولة العباسية، وفى الفصل السابق وكان له الدور الرئيسى فى نقل الفكرة السيئة عن المغول للمسلمين، لما ارتكبه فيهم مـن جرائم بشعة تقشعر منها الأبدان.

واستطاع أن يضم إلى ملكه بغداد وتوغل فى بلاد الشام فدخل حلـب عـام ٦٥٨هـ وغادر البلاد إلى قرة قورم لتهدئة الأوضاع بين أخوتـه المتنـازعين علـى الخانية العظمى، فاستطاع تهدئة الأمور وتنصيب قوبيلاى خانًا أعظم، وإخضاع أبناء أوغطاى ثم عاد ليجد كتبغا قد دخل دمشق، ولكنه انهزم فى عين جالوت وقتل فيها وازداد غيظه من ابن عمه بركة خان، فأخذ يحاربه فانتصر بركـة خـان فى الجولة الأولى ثم عاود هولاكو الحرب ومعه ابنه أباقا فانتصروا علـى جـيش بركة خان عند مدينـة دربنـت (بـاب الأبـواب)، ثـم جمـع بركـة خـان جيوشـه وهزمهم عند نهر ترك فى بلاد القوقاز، وأخذت أعداد من جنوده تفـر إلى بـلاد

الشام وتنضم للظاهر بيبرس وتدخل فى الإسلام، فنزلت به المصائب من كل مكان، فأصيب بالصرع وكان شديد الكره للمسلمين وزاد من ذلك الكره زواجه بنصرانية أخذت تشجعه على إبادة المسلمين، إلا أنه فى أواخر أيامه عهد بتربية ابنه الثانى تكودار لمرب مسلم ومات هولاكو عام ٦٦٣هـ.

أباقا خان:

كانت مدته كلها حروبًا على جميع الجبهات، فمن الشمال كانت حروبه مع أبناء عمومته مغول الشمال، ففى البداية مع بركة خان ثم مع مانكوتيمر وقد أحرز على مانكوتيمر انتصارًا كبيرًا، ثم ما لبث أن اتحدت عليه أسرة أوغطاى بقيادة قيدو بن قاشين وأسرة جغطاى بقيادة براق خان مع مغول الشمال، فكونت ضده الجبهة الشرقية أما من الغرب فكانت حروبه لا تنقطع مع المماليك، وقد انتصروا عليه عدة مرات منها عام ٦٧٣هـ واستطاعوا الوصول إلى الأناضول فى عهد بيبرس، ثم حاول غزو الشام مرة أخرى ولكنه فشل عام ٦٧٩هـ، ثم انهزم مرة أخرى أمام جيوش السلطان قلاوون عام ٦٨٠هـ، وكان نهر الفرات يمثل الحدود بين الدولة الإيلخانية والمماليك، ومات أباقا عام ٦٨٠هـ وتسلم مكانه أخوه تكودار وقد ورث أباقا كره المسلمين عن أبيه وورثه لابنه أرغون ومما زاد فى كراهيته للإسلام زواجه من ابنة امبراطور القسطنطينية بتخطيط صليبي.

تكودار:

أول من أسلم من أسرة هولاكو، وهو ابنه الذى عهد إلى مرب مسلم بتربيته فشب على الإسلام، وتسمى باسم أحمد وحاول عقد صلح مع السلطان قلاوون عام ٦٨١هـ ولكن ابن أباقا خان أرغون قد تمرد على عمه تكودار وقتله، وتولى مكانه فى الوقت الذى أرسل فيه تكودار وفدًا إلى السلطان قلاوون لعقد الصلح.

أرغـــــون:

ورث كراهية الإسلام عن أبيه أباقا خان، ولذلك تخلص من عمه تكودار المسلم وأخذ يتحالف مع الصليبيين والأرمن ضد المماليك، وكذلك ضد تدان مانكو خان مغول الشمال الذى أسلم ومات عام ٦٩١هـ وتسلم مكانه أخوه كيغاتو.

كيغاتو:

لم يمكث فى الحكم إلا قليلا حتى قتل عام ٦٩٣هـ.

بيدو:

وهو ابن عم كيغاتو وابن طرخاى بن هولاكو ولم تطل مدة حكمه اذ قتل عام ٦٩٥هـ.

غازان:

كان يدين بالبوذية ثم أعلن إسلامه عام ٦٩٤هـ وتسمى باسم محمود، وعندما تولى الحكم عام ٦٩٥هـ أسلمت معه أسرة تولوى كلها وسبعون ألفا من التتار، وأصبحت الدولة الإيلخانية مسلمة، وبرغم ذلك لم تنته حروبه مع المماليك وكان معظمها ينتهى بهزيمته، ومن أشهر هزائمه أمام المماليك معركة شقحب عام ٧٠٢هـ فى بلاد الشام التى اشترك فيها الخليفة العباسى وسلطان المماليك وابن تيمية، وكانت هزيمة منكرة لغازان، وفى نفس الوقت كانت هناك حروب مع مغول الشمال فى عهد طقطاى بسبب مراغة وتبريز التى يسيطر عليها الإيلخانيون، وتسببت الهزائم التى منى بها غازان فى الشام إلى توقف الحرب بينه وبين طقطاي، وتوفى غازان عام ٧٠٣هـ وخلفه أخوه أولجايتو.

أولجايتو:

نشأ على النصرانية ثم اعتنق الإسلام وتسمى باسم محمد (محمد خرابنده) ولكن للأسف الشديد اعتنق المذهب الرافضى (الشيعي) عام ٧٠٩هـ وأخذ

يجبر رعيته على اتباع هذا المذهب، وقعت حروب بينه وبين المماليك ومغول الشمال، كان للأميرين الفارين من المماليك قرة سنقر والأفرم دور كبير فى الانتصار على طقطاى خان مغول الشمال؛ ولذلك راسل طقطاى المماليك للاتحاد ضد الإيلخانيين ولكن ما لبث أن مات طقطاي، وكان المماليك فى حروبهم مع الإيلخانيين لهم الغلبة قى أكثر الأحيان وفى عام ٧١٦هـ جاء إلى محمد خرابنده من مكة حميضة بن أبى نمى لمحاربة أهل مكة فساعده محمد خرابنده وخاصة أن أهل مكة من السنة ولكن مات محمد خرابنده قبل الهجوم على مكة فلم تحدث حرب وتولى بعد محمد خرابنده ابنه أبو سعيد.

أبو سعيد:

عندما تولى الحكم كان صغيرًا وراسل جوبان وزير أبيه محمد أوزبك خان مغول الشمال بتسلم البلاد ولكنه رفض، ثم قامت الحرب بين ييسور قائد جيوش أسرة جغطاى وأبى سعيد، استطاع أبو سعيد أن ينتصر وكان محمد أوزبك قد اتفق مع ييسور على حرب أبى سعيد ولكن هزيمة ييسور جعلت محمد أوزبك ينسحب من الحرب.

وحاول محمد أوزبك الاتحاد مع السلطان محمد بن قلاوون سلطان المماليك لمحاربة أبى سعيد ولكن السلطان محمد قلاوون عقد صلحًا مع أبى سعيد.

وفى عهد أبى سعيد بدأ المذهب السنى يعود للبلاد بعد أن حاول أبوه فرض المذهب الشيعى عليها، وبدأت الأوضاع تتدهور فى الدولة الإيلخانية، وتظهر فيها الانقسامات ويستقل الولاة بما لديهم، وظهرت عدة دول منها الجلائرية والأراتقة فعمت الفوضى فى البلاد، وانقرضت الدولة الإيلخانية والتى كان آخر حكامها أبو سعيد.

جاء تيمورلنك عام ٧٨٤هـ ليجتاح البلاد واستطاع السيطرة على كافة

أجزائها عام ٨٠٧هـ ثم بموت تيمور تجزأت مملكته وتوزعت بين أبنائه وأحفاده وكان تيمورلنك يعتنق المذهب الرافضى (الشيعي) وورث ذلك لأبنائه وأحفاده وكان لهم دور كبير فى نشره فى عدة مناطق من أملاك الدولة التيمورية.

الصفويون:

ومع تجزؤ دولة تيمورلنك بين أبنائه وأحفاده والضعف الذى بدأ ينخر فى أرجائها ظهر الصفويون فى الدولة الإيلخانية.

إسماعيل الصفوي:

تمكن إسماعيل بن حيدر بن الجنيد بين صفى الدين الأردبيلى (أردبيل بلد فى أذربيجان) من أن يجمع حوله أنصارًا من التركمان وأن يسيطر على أملاك أسرة الأق قيلونى عام ٩٠٧هـ ويضم أكثر أجزاء من العراق وأذربيجان، واتخذ من تبريز عاصمة لملكه، وأخضع الأمراء التيموريين فى الجهات التى سيطر عليها واعتنق المذهب الشيعى واستطاع فى وقت قصير أن يمد نفوذه إلى هراة ونهر جيحون شرقا والخليج العربى وخليج عمان جنوبًا، مستغلاً الأقلية الشيعية التى تقف بجانبه فى كل حرب يخوضها، أو فى أى منطقة يدخلها وهزم إسماعيل الصفوى أمام العثمانيين فى موقعة جالديران عام ٩٢٠هـ وفقد بعدها ديار بكر وتبريز، وغيرها، وكان يقاتل أيضًا الأوزبك فى الشرق، وانتصر عليهم فى بداية الأمر ثم انهزم أمامهم واستردوا منه كل ما ضمه من بلادهم، وكانوا يدعونه للعودة إلى السنة والإسلام الصحيح، ولكنه كان متمسكًا بالمذهب الشيعي، وكانت له علاقات طيبة مع ظهير الدين محمد بابر حاكم الهند، ثم ما لبث أن توترت هذه العلاقات بسبب مذهبه الشيعي.

وكان إسماعيل الصفوى شديد الكره للمسلمين السنة، فبالإضافة إلى حروبه معهم اتفق مع البرتغاليين والصليبيين على حرب أهل السنة بصفة عامة

وحرب الدولة العثمانية بصفة خاصة.

وتوفى إسماعيل الصفوى عام ٩٣٠هـ وخلفه ابنه طهماسب، وقد تلقب إسماعيل بلقب شاه وتبعه فى ذلك من جاء بعده.

طهماسب:

تولى الحكم صغيرًا، فكان زعماء الشيعة هم الحكام الفعليين فى بداية الأمر حتى اشتد عوده فحارب الأوزبك وانتصر عليهم، واتجه لتأديب والى بغداد الذى أعلن خضوعه للعثمانيين ولكن العثمانيين استطاعوا دخول العراق وضموا إليهم بغداد وطردوا الصفويين من العراق، وفى الوقت ذاته كان الأوزبك يتقدمون من الشرق فى بلاد الصفويين، ودخلوا مدينة مشهد عاصمة خراسان، فاضطر طهماسب لأن يعقد صلحًا مع العثمانيين، وهدأت الأوضاع على الجبهتين الشرقية والغربية وتوفى طهماسب عام ٩٨٤هـ وتولى بعده ابنه إسماعيل، وكان طهماسب شديد القسوة عديم الثقة بأى شخص حتى أبناءه فقد حبس ابنه إسماعيل فى السجن قرابة ٢٥ عامًا ولم يخرج إلا بعدما توفى أبوه، وحدث صراع على السلطة بين أبناء طهماسب إسماعيل ومحمد وعباس، فتولى فى البداية إسماعيل ثم قتل ثم تولى (محمد خرابنك) لمدة ١٠ سنوات ثم تبعهم عباس عام ٩٩٥هـ.

عباس:

استغل العثمانيون فترة الفوضى التى عمت الدولة الصفوية وضموا إليهم تبريز وأرمينيا وبلاد الكرج (جورجيا) والداغستان ففكر عباس فى تهدئة الأوضاع على الجبهة الغربية للتفرغ للأوزبك فى الجهة الشرقية، فنقل العاصمة إلى أصفهان وعقد معاهدة صلح مع العثمانيين اعترف فيها بضمهم للأراضى السابق ذكرها مع أذربيجان، واتجه لحرب الأوزبك فانتصر عليهم واقتطع جزءًا

من أرضهم وبعد ١٥ عامًا من الصلح مع العثمانيين، وبعدما استتب له الأمر من جهة الشرق اتجه غربًا لقتال العثمانيين لاسترداد ما ضموه من الصفويين، وكان قد درب الإنكليز جنوده وأعدوهم جيدًا للقتال، واستغل عباس الثورات الداخلية فى الأناضول، فهجم على الأراضى العثمانية المتاخمة له استطاع أن يضم تبريز وأرمينيا وجزءًا كبيرًا من أذربيجان، وقارص، واتجه إلى بغداد فلم يستطع دخولها فلجأ إلى المكر والخديعة مع حاكمها الذى يعطى الأولوية لمصلحته الشخصية، فتمكن من دخولها، وكان أمر البرتغال قد بدأ يضعف فاتفق عباس مع الإنكليز على طرد البرتغاليين من الخليج العربي، وتمكنوا من طردهم من هرمز عام ١٠٣١هـ وكان أيضًا شديد التعصب للمذهب الشيعى شديد الحقد على المسلمين السنة، وكان يتمنى لو يتحالف معه الأوروبيون ضد العثمانيين، وكان شديد الغلظة فقد قتل ولده الكبير، وفقع أعين اثنين من أبنائه ومات عام ١٠٣٧هـ وتولى بعده حفيده صفى الدين.

صفى الدين:

بدأ الضعف يعرف طريقه للدولة الصفوية، فحاربهم العثمانيون واستردوا منهم العراق وبغداد، وعقد معاهدة بين الدولتين عام ١٠٤٩هـ؛ لتحديد الحدود بينهما.

عباس الثاني: تولى الحكم عام ١٠٥٢هـ وأهمل شئون الحكم.

سليمان الأول (صفى الثاني): تولى عام ١٠٧٧هـ واستولى فى عهده الهولنديون على جزيرة قشم، وضم الأوزبك خراسان وأغار حكام عمان (اليعاربة) على ميناء بندر عباس.

حسين الأول: وهو ابن عباس الثاني، وفى عهده بدأت تظهر الحركات الأفغانية، فأعلن مير محمود بن أويس فى هراه التمرد على الصفويين، واستطاع أن يضم مشهد عام ١١٣٥هـ، وأخذ يتوغل فى الدولة الصفوية ودخل أصفهان

عاصمتهم ولم يبق للصفويين إلا بعض الأجزاء الشمالية، واستغل الروس هذه الفرصة وأبدوا للشاه حسين الأول مساعدته ضد الأفغان، وهم فى الحقيقة يريدون ضم المزيد من أراضى الدولة الصفوية فأبدى الصفويون موافقتهم.

طهماسب الثاني:

كان الروس قد توغلوا فى الدولة الصفوية واحتلوا بلاد داغستان، وأخذوا يتقدمون نحو بلدة شماكا، فبرز لهم العثمانيون، وهددوهم بأن أى تقدم فى أراضى الصفويين يعنى إعلان الحرب على العثمانيين فتوقف هجومهم.

ووقع طهماسب مع الروس معاهدة يتنازل فيها عن الكثير من الأجزاء الشمالية للبلاد، فاستنجد أهلها بالعثمانيين المسلمين من الروس الصليبيين، فوقعت معاهده بين الروس والعثمانيين، تضمنت ضم الروس لسواحل بحر قزوين وجيلان ومازندران، فى حين يأخذ العثمانيون الولايات الغربية، وواصل العثمانيون بعدها تقدمهم فى فارس فضموا تبريز وهمدان، فى الوقت الذى كان مير محمود يذبح ما بقى من الأسرة الصفوية، ثم ضعفت الإمكانيات العقلية لمير محمود فاتفق الأفغان على تولية الأمير أشرف عليهم عام ١١٣٧هـ، ووقع القتال بينه وبين العثمانيين، ثم عقد بينهما صلح بمقتضاه يعترف أشرف بأن السلطان العثمانى هو خليفة المسلمين، ويعترف العثمانيون به شاها على فارس وأبقى العثمانيين ما ضموه من أراضى فارس.

ظهر نادر خان وكان من قطاع الطرق وجمع حوله الأتباع وأيد طهماسب واستطاع أن يطرد الأفغان من هراة ومشهد، وأخذ يتبعهم حتى دخل أصفهان وسقط أشرف قتيلاً فى حروبه مع نادر خان عام ١١٤٢هـ، وبهذا انتهى حكم الأفغان لفارس بعد سبع سنوات حكموا فيها.

واصل نادر خان انتصاراته فاتجه لحرب العثمانيين، واستطاع أن يهزمهم

عند همدان ودخل أذربيجان.

أحب طهماسب أن يثبت وجوده، فحارب العثمانيين ولكنه انهزم أمامهم عام ١١٤٤هـ واضطر أن يوقع معهم معاهدة للتنازل عن جزء من أراضيه.

الأفشار

نادر خان:

استغل نادر خان وهو مؤسس أسرة الأفشار الفرصة لبسط نفوذه على البلاد، فانتقد المعاهدة التى أبرمها طهماسب، وقبض عليه وعين ابنه الصغير عباس مكانه وأعلن نفسه وصيًا عليه لمحاربة الدولة العثمانية، واستطاع فى النهاية أن ينتصر وأبرم مع الدولة العثمانية معاهدة أعادت له بمقتضاها الأراضى التى دخلتها فى فارس، باستثناء العراق واستعاد مازندران وجيلان من الروس، ثم استعاد داغستان وأذربيجان منهم؛ لأنه هددهم بالتحالف مع العثمانيين ضدهم.. وبموت ولى العهد عباس الثالث عام ١١٤٨هـ أعلن نادر خان نفسه حاكمًا على البلاد، واستطاع أن يتوسع فى ملكه، فضم إليه كافة بلاد الأفغان وأغار على عمان عام ١١٥٠هـ، واستطاع دخول بلاد الهند ودخل دهلى عام ١١٥١هـ، ولكنه لم يعلن نفسه سلطانًا عليها وتوغل فى بلاد الأوزبك، وضم بخارى وخوارزم، ولكن عمت الفوضى بلاده وكثرت الثورات، منها ثورة قبائل اللزكى فى داغستان، التى سار ليؤدبها فانهزم فتأثر بذلك نفسيًا وكثرت الضغوط عليه فى البلاد من ثورات وحروب مع العثمانيين وغيرها، وحاول إعادة المذهب السنى للبلاد، وعمل على جعل مذهب الإمام جعفر الصادق مذهبًا خامسًا للمسلمين، ولكن العثمانيين لم يقبلوا وأكره الفرس على ذلك، وحاول إنشاء أسطول فارسي، ولكنه فشل ومات وهو فى طريقه لإخماد ثورة فى بلاد الأكراد عام ١١٦٠هـ.

علي بن إبراهيم:

اختلف قادة نادر خان، فانسحب أحدهم وهو أحمد خان الدورانى وأسس إمارة الأفغان فى قندهار، وضم إليها أجزاء كثيرة، بينما عين على قولى ابن أخى نادر خان سلطانًا على الفرس، وعرف بعادل شاه وقتل كل أسرة نادر خان باستثناء حفيده شاه رخ، ثم حدثت خلافات بين على وأخيه إبراهيم قتل على إثرها إبراهيم، ثم قتل على وتولى الحكم بعدهما شاه رخ.

شاه رخ:

عندما تولى كان صغيرًا فثار عليه مرزا سيد محمد، وأعلن أن شاه رخ ينوى مواصلة ما بدأه جده فى القضاء على المذهب الشيعي، واستطاع مرزا أن يتمكن من شاه رخ ويضعه فى السجن، وأعلن نفسه شاهًا على فارس ولكن يوسف على قائد جيوش شاه رخ قد تمكن من قتل مرزا وأبنائه، وأعاد شاه رخ إلى الحكم وأعلن نفسه وصيًّا عليه لأنه كفيف وصغير.

وتدخل قائدان أحدهما يقود فرقة بحرية عربية ويدعى علم خان، والآخر يقود فرقة كردية ويدعى جعفر خان فقبضا على يوسف وقتلاه وأودعا شاه رخ فى السجن، ثم اختلفا واقتتلا فانتصر علم خان، ثم قتل علم خان فى حربه مع أحمد خان الدورانى حاكم بلاد الأفغان، الذى ضم إليه بلاد خراسان من الفرس ومات شاه رخ فى السجن عام ١٢١٠هـ وانتهى حكم الأفشار.

الزنديـــون:

كريم خان:

كان كريم خان الزندى الكردى فى جيش نادر خان قد تحالف مع زعيم البختيار، ثم اختلف معه فقتله وخضع له بذلك الجزء الجنوبى ثم دخل فى حرب مع القاجار والأفغان واستطاع فى النهاية أن ينتصر عليهم واستقرت البلاد.

زكى خان:

هو أخو كريم خان من أمه، تسلم الحكم بعد وفاة أخيه ولكنه وُوجه بأبى الفتح بن كريم، فلجأ إلى الحيلة بإعلان أنه من جند كريم خان، وما إن استتب له الأمر حتى قضى على كل خصومه، ووقف جنده بعد ذلك مع صادق خان أخى كريم خان فهدد بإبادة كل من يعين صادق خان فخاف الناس.

أرسل جيشًا لمحاربة القاجار المعارضين له وكان قائدهم أغا محمد، فانقلب قائد جيش زكى خان وكان يدعى مراد خان على زكى خان واغتالوه عام ١١٩٥هـ.

سقوط الدولة الزندية:

خلا الجو لأبى الفتح بن كريم فتولى الحكم ولكن صادق خان عمه قد وقف فى وجهه، وخلعه وتسلم مكانه ثم جاء القائد على مراد خان وتمرد على صادق خان وقتله، وقتل جميع أسرته باستثناء جعفر خان، ووقعت الحرب بين على مراد خان والقاجار فاستغل جعفر خان الفرصة وقام بثورة، ومات على مراد خان وهو فى طريقه لإخماد الثورة.

ثم أصبحت الحرب بين القاجار بقيادة أغا محمد وجعفر خان ومات جعفر مسمومًا، ثم تولى ابنه لطف خان قيادة جيشه فهزم أمام القاجار واضطر فى النهاية إلى الاستسلام إليهم فقتلوه، وقتلوا كل من بقى فى أسرة الزندية وانتهت تمامًا عام ١٢٠٩هـ.

القاجار:

أغا محمد قاجار:

بعد أن قضى على أسرة الزندية عام ١٢٠٩هـ واستطاع أن يضم إليه جورجيا وأرمينيا، وكان الجيش الروسى قد احتل داغستان، وبدأ يتوغل فى

أذربيجان، ولكنه انسحب عندما ماتت القيصرة كاترينا الثانية، وجاء من بعدها قيصر مسالم.. واتخذ أغا محمد من طهران عاصمة لدولته وقتل عام ١٢١١هـ.

فتح على شاه:

حاول عقد المعاهدات مع الصليبيين ولكنهم كانوا باستمرار يخذلونه، فقد حاول مع الإنكليز وكانوا على وشك إبرامها، ولكن خافت إنكلترا من أن ينتج عن المعاهدة تعاون بين الروس والفرنسيين فلم يبرمها، فاتجه إلى فرنسا وأبرم معاهدة وتنازل لها عن جزيرة خرج فى الخليج العربي، وبعد شهرين من المعاهدة أبرمت فرنسا مع روسيا معاهدة تعطى لروسيا الحق فى التوسع فى الدولة الفارسية والعثمانية، وبالفعل هاجمت روسيا الأراضى الفارسية، واحتلت أرمينيا، واضطر الشاه أن يعقد اتفاقية مع روسيا يتنازل فيها عن داغستان وجورجيا وأرمينيا ونصف أذربيجان وغيرها، ولم يقنع الروس بهذا بل احتلوا تبريز عام ١٢٤٣هـ وأجبروا الشاه على توقيع معاهدة تركمان جاي.

حارب العثمانيين عام ١٢٣٥هـ وكان يريد بذلك استرداد العراق، وقد استطاع أن يستعيد بعض أملاكه السابقة، ووقع معاهدة أرضروم عام ١٢٣٨هـ بين الطرفين.

محمد شاه عباس:

وهو حفيد فتح على شاه، تولى الحكم عام ١٢٥٠هـ وكثرت فى عهده الثورات ولكنه قضى عليها جميعًا، وظهرت فى عهده الحركة البابية والتى تفرعت منها البهائية، وهى إحدى الفرق الضالة، بدعم من الروس لكى تنشب الفتنة بين المسلمين وحارب فرقة الإسماعيلية الضالة بعد أن فر قائدها إلى الهند، ودعمه الإنكليز فى شن غارات على فارس.

وتوغل الأفغان فى إقليم سستان، واحتل الإنكليز جزيرة خرج.

ناصر الدين شاه:

تولى الحكم عام ١٢٦٤هـ وفى عهده قامت ثورة البابية عام ١٢٦٤هـ وأعدم زعيمهم، ونفى حسن بن على المازندرانى وبهاء الله الذى أسس فرقة البهائية الضالة، والتى دعمها الإنكليز وساعد الإنكليز ضد أمير الأفغان ووش محمد، واضطر ناصر الدين أن ينسحب من غرب أفغانستان، بعد معاهدة باريس عام ١٢٧٤هـ بين انكلترا والأفغان، واحتل الإنكليز ميناء بوشهر على الخليج العربى وميناء المحمرة على شط العرب، وزاد النفوذ الروسى فى شمال البلاد بينما زاد النفوذ البريطانى فى الجنوب..

وقامت ضد الشاه حركة سلمية يقودها أحد علماء الشيعة وذلك للتدخل الإنكليزي، واستبداد الشاه، فأحب الشاه أن يرضيهم، فألغى معاهدة التبغ مع شركة تالبوت الإنكليزية.

مظفر الدين شاه:

تولى الحكم عام ١٣١٣هـ وأقام فى عهده المجلس التشريعى وقامت فى عهده عدة حركات وتوفى عام ١٣٢٤هـ.

محمد على شاه:

قسم الروس والإنكليز البلاد فى عهده إلى مناطق نفوذ، وأراد أن يفرض الحكم العسكرى على البلاد، فتحرك الجنود الروس وضربوا مبنى المجلس النيابي، فحدثت ثورة فى البلاد لاستبداد الحاكم ونفوذ الروس الكبير فى البلاد، حتى اضطر إلى منح البلاد دستورًا ولكن الثورات لم تهدأ، فاضطر أن يغادر البلاد إلى روسيا، وعين بدلاً منه ابنه الصغير أحمد شاه، وعين عضد الملك

وصيًّا عليه، ولما مات عين أبا القاسم خان ناصر الملك وصيًّا.

أحمد شاه:

عندما تسلم الحكم كان تحت الوصاية فعاش حياة الترف واللهو وحتى بعدما بلغ سن الرشد وتوج ملكًا لم يتغير أسلوبه فى الحياة، وفى عهده اتفق الإنكليز والروس على تقسيم البلاد إلى ٣ مناطق نفوذ، الأولى: فى الشمال وهى للروس، والثانية: فى الجنوب وهى لانكلترا، والثالثة: فى الوسط وهى محايدة، وفيها حكومة طهران وتعهدوا بعدم المنافسة فى أى من المجالات السياسية أو التجارية.. وحدثت الحرب العالمية الأولى وكانت فارس أرضًا لنزاع الروس والإنكليز من جهه، والألمان والعثمانيين من جهه أخرى، فلما انتهت الحرب كانت روسيا قد سحبت نفوذها من فارس، حتى تتفرغ للثورة الشيوعية، وحتى لا تعين فارس معارضى الثورة الشيوعية، فخلا الأمر للإنكليز وعقدت مع فارس اتفاقية عام ١٣٣٧هـ تعترف باستقلال فارس ولكنها فى الحقيقة تتضمن فرض الحماية البريطانية على فارس، فانتقد الشعب الفارسى هذه الاتفاقية وقامت الثورات والحركات الانفصالية فى أذربيجان وجيلان وخراسان ومازندران وغيرها، بالإضافة إلى أن الولايات المتحدة والدول الكبرى الأخرى قد رفضتها.

انقلاب حوت:

قاده كل من رضا بهلوى وضياء الدين الطباطبائى وهو انقلاب سلمى لتغيير الحكومة والغاء الاتفاقية بين فارس وإنكلترا، ووجد الإنكليز فى رضا بهلوى الصفات التى يتمنونها فى رجالهم من تسلط وحب للزعامة، فأعانوه واضطر الشاه لأن يغير الحكومة ويكلف ضياء الدين الطباطبائى بتشكيل الحكومة الجديدة وأشار الطباطبائى إلى إنكلترا بأن الحكومة الجديدة لكى تنجح

يجب أن تلغى الاتفاقية مع إنكلترا، فوافقت إنكلترا على إلغائها ليكون نفوذها فى إيران خفيًّا لا ظاهرًا ولإنجاح عملائها، أما رضا بهلوى فكان طموحه أكبر من ذلك بكثير، فتولى قيادة فرق القوزاق التى هى القوة العسكرية العظمى فى إيران، وبذلك يكون له التحكم الحقيقى ويستطيع فى أى وقت أن يغير النظام وأخذ يفرض إرادته على الحكومة، وأجبرها على دمج الشرطة فى وزارة الحربية وفرض نفسه زعيمًا لوزارة الحربية مع احتفاظه بقيادة فرق القوزاق، وأخذ يتصل بالكتلة الوطنية ليحقق بها أهدافه المنشودة، ثم أخذ يحرج الحكومة ويعمل على تشويه صورتها حتى تقوم عليها الثورات وأجبر الشاه على عزل صديقه ضياء الدين الطباطبائى من رئاسة الحكومة؛ ليخلو له الجو ودعت بريطانيا فارس لتولية رضا بهلوى رئاسة الحكومة، ولكن الشاه رفض فتوالى على رئاسة الحكومة عدة رؤساء كان رضا بهلوى يعمل دائمًا على إفشالهم، وعزلهم حتى اضطر الشاه إلى تعيين رضا بهلوى رئيسًا للحكومة فاستتب له الأمر وفرض نفسه وجعل المجلس النيابى يختاره ملكًا للبلاد عام ١٣٤٤هـ، وبذلك انتهى حكم الأسرة القاجارية.

الأسرة البهلوية:

رضا بهلوي:

أعلن نفسه شاهًا للبلاد وأصبحت كل مقاليد الحكم بيده وغير اسم البلاد من فارس إلى إيران، ليوهم الشعب بعدم سيطرة الفرس على الشعوب الأخرى داخل بلاده من ترك وعرب وأكراد، وغيرهم، وكان منفتحًا على الفكر الأوروبى فظهرت نساؤه الثلاث سافرات، وأمر بخلع الزى الإيراني، ولبس الزى الإفرنجى وأمر الشرطة بنزع الحجاب عن وجوه النساء، وكل ذلك إرضاءً لأوروبا، ولم يستطع زعماء الشيعة معارضته باستثناء والد الخمينى فى مدينة قم،

فذهب إليه الشاه بنفسه وضربه حتى أسكته، واستطاع رضا بهلوى أن يقضى على جميع معارضيه وعمد إلى تطبيق القانون الفرنسي.

ووقع الشاه اتفاقية مع العراق عام ١٣٥٦هـ تنازل فيها العراق عن جزء من شط العرب يقدر بـ ٧٧٥٠ مترا.

إيران والحرب العالمية الثانية:

أعلن الشاه حياده التام فى بداية الأمر، ثم اكتسحت ألمانيا أوروبا اكتساحًا كبيرًا فأخذ الشاه يميل إلى ألمانيا، وكانت إيران هى المصدر الوحيد لألمانيا فى المواد الخام، وخاصة فى بداية الحرب حيث كان الروس متحالفين مع ألمانيا، ثم تحول التحالف بين الروس والألمان إلى عداء ودخلت ألمانيا الأراضى الروسية، فأكد الشاه حياد بلاده، وفى نفس الوقت كان التعاون مع الألمان يتم سرًّا وكثر عدد العملاء والخبراء الألمان فى إيران فدعا الحلفاء إلى ترحيل الألمان الذين لا تدعو الحاجة لوجودهم فى إيران، فرفض الشاه وهو يظن أن الألمان ستكون لهم الغلبة، وسيردون إليه القوقاز من روسيا، ولكن انهزم الألمان فوافق الشاه على إبعاد الألمان من بلاده ثم فرض الحلفاء عليه تسليمهم، فاضطر للموافقة على ذلك وحاولوا التذرع بأى شيء لدخول إيران حتى أسرعوا بدخولها عام ١٣٦٠هـ وتقدم الروس فى أذربيجان واحتلوا تبريز ودخل الإنكليز من الهند ومن العراق إلى ولاية كرمنشاه، وفى نفس الوقت تقدمت البحرية الإنكليزية فى اتجاه ميناء المحمرة واضطرت إيران فى النهاية إلى توقيع اتفاقية توافق بموجبها على بقاء القوات الروسية والإنكليزية فى الأراضى التى احتلتها فى إيران، وطرد البعثات السياسية لدول المحور، وأجبرت روسيا وإنكلترا الشاه على التنازل عن العرش لابنه محمد، وغادر الشاه البلاد إلى جزيرة موريشيوس حيث فرضت عليه الإقامة الجبرية هناك، ثم انتهى به المطاف إلى مدينة جوهانسبرج فى جنوب أفريقيا حتى مات.

محمد رضا بهلوى:

تسلم الحكم عام ١٣٦٠هـ فى أثناء الحرب العالمية الثانية وأظهر ميله للإنكليز والروس، لأنهم يسيطرون على أجزاء كبيرة من البلاد وكان الشاه ميالاً لحياة اللهو والترف، وكون شرطة سرية بلغت فى آخر أيامه ٥٠٠٠٠ شرطى سرى (السافاك) عقدت معاهدة بين الإنكليز والروس وإيران تعترف فيها إنكلترا وروسيا باستقلال إيران، وتعهدا بسحب قواتهما من إيران بعد ستة أشهر من انتهاء الحرب مع ألمانيا، وأعلنت إيران عام ١٣٦٢هـ الحرب على دول المحور لترضى الحلفاء.

ويدأ النفوذ الأمريكى يدخل إيران فى الحرب العالمية الثانية، وأخذ الخبراء الأمريكيون يتدفقون على إيران ويحلون محل الألمان.. وفى عام ١٣٦٢هـ عقد مؤتمر فى طهران حضره كل من رئيس أمريكا روزفلت، والرئيس الروسى ستالين، ورئيس وزراء بريطانيا تشرشل، أكدوا فيها استقلال إيران وأشاع الروس والإنكليز أنهم سيعيدون الأسرة القاجارية إلى الحكم حتى يخضع لهم الشاه، فلجأ لأمريكا فأصدر الرئيس الأمريكى بيانًا يؤكد فيه أنه لن يسمح أبدًا بتقسيم إيران.

وكانت الشعوب الغير فارسية فى إيران دائمًا مهملة، ويفضل عليهم الفرس، فأخذت الحركات الثورية تقوم، وفى نفس الوقت كانت روسيا وإنكلترا تساعدهم وذلك لإثارة الفتن بين المسلمين والعمل على تفتيتهم ونشر مفاهيم القومية.

ومن الحركات التى ظهرت إعلان جمهوريتى أذربيجان وكردستان المستقلتين عن إيران عام ١٣٦٥هـ ولكن حكومة إيران عملت على إيقاع الشقاق بينهما، ثم داهمت القوات الإيرانية الجمهوريتين فاستسلمت أذربيجان، واقتحمت القوات الإيرانية كردستان، التى قاومت واستطاعت إيران إخضاع كردستان بعد أن قتلت ١٥,٠٠٠ كردى، وأعدمت زعماء الانفصال.ونظرًا لنفوذ الإنكليز فكان الشاه يجاملهم ولو على حساب دينه، فعندما ظهرت قضية فلسطين وتقسيمها وإعلان دولة إسرائيل رفضت الدول الإسلامية كلها ذلك باستثناء

تركيا وإيران اللتين كان للانكليز نفوذ فيهما.

وحرصت أمريكا على تقوية إيران عسكريًا، وذلك لعدة أهداف منها: مناهضة الشيوعية القريبة منها فى روسيا، ولأن السكان أكثرهم من الشيعة فيختلفون عمن حولهم من المسلمين السنة، فتكون قنبلة موقوتة للمنطقة، وفى نفس الوقت لا تعادى إيران إسرائيل وليدة أمريكا، وفى نفس الوقت تكون ردءًا للعراق ذات النفوذ الإنكليزي، ولذلك دعمت إيران الأكراد المتمردين فى العراق حتى التقى ممثلو الدولتين فى الجزائر فى مؤتمر أوبك (الدول المصدرة للبترول) عام ١٣٩٥هـ واتفقوا على كف إيران عن مساعدة التمرد الكردى فى العراق فى مقابل التفاهم حول منطقة شط العرب.

الثورة الإسلامية:

شاع فى البلاد فساد الشاه، وولعه بالنساء والجنس، وجزيرة كبش التى أعدها لتكون مقرًا للرذيلة والفجور، وانتشرت أفاعيل أخته الأميرة أشرف فى قصرها، وزاد الطين بله فساد المجتمع وانتشار زواج المتعة فى البلاد الذى يحله الشيعة، بالإضافة إلى الإسراف والبذخ، وتدهور اقتصاد البلاد برغم إمكانياتها وما ترتكبه الشرطة السرية (السافاك) من تعذيب وقتل لكل من يظهر المعارضة للشاه، وبرز الخمينى واندلعت الثورات فى أنحاء إيران واستمرت لمدة عام وكان ذلك فى عام ١٣٩٩هـ قتل فيها أكثر من ٧٦ ألف قتيل من الشعب الإيراني، واضطر الشاه أن يغادر البلاد ووصل الخمينى من فرنسا فاستقبلته الجماهير الإيرانية، وأعلن قيام الجمهورية الإسلامية، وعين أبو الحسن بنى صدر أول رئيس للجمهورية ومهدى بازر رئيسًا للوزراء، وأعلنت الثورة مبادئها التى كانت تبديها فقط لتكسب التأييد الداخلى والخارجى من المسلمين، ومنها العمل بالإسلام دون التعصب للمذهب الشيعى ومبادئه، وكذلك تأييد القضية

الفلسطينية ومعاداة الصليبية وقطعت علاقاتها مع أمريكا، ولكن بمجرد ما استتب لهم الأمر بدأت الأقنعة تسقط، وبدأوا يظهرون نزعتهم الشيعية المتعصبة ضد المسلمين السنة، وبدأوا يضيقون الخناق عليهم، وكان الخمينى هو الحاكم الفعلى لإيران والحكومة كانت صورة فقط للدولة.

الحرب مع العراق:

طالبت العراق إيران بايعاز من أمريكا باسترجاع ما أخذته من شط العرب، والانسحاب من جزيرتى طنب وأبى موسى اللتين احتلتهما إيران من الإمارات عام ١٣٩١هـ ولكى تفرض على إيران الحرب طالبت بمنطقة عربستان من إيران، والتى تقطنها غالبية عربية، وبها المصدر الرئيسى للبترول فى إيران، فاندلعت الحرب بين الدولتين عام ١٤٠٠هـ والتى بدأتها العراق بدخول قواتها لأراضى إيران، واستمرت الحرب ثمانية أعوام حتى توقف إطلاق النار فى بداية عام ١٤٠٩هـ وتبين فى هذه الحرب أن أمريكا كانت تمد إيران بالأسلحة، وكذلك اليهود، وبذلك انكشفت المؤامرة التى أشعلت نيران الحرب لاستنزاف المسلمين..

ومنذ قيام الثورة وحتى موت الخمينى كان الخمينى هو المتحكم الفعلى فى البلاد، وكان له الدور الأكبر فى عزل وتولية رؤساء إيران، فقد عزل أبا الحسن بنى صدر، وعين مكانه محمد رجائي، وفر أبو الحسن بنى صدر إلى باريس، هو ومسعود رجوي، الذى كون منظمة مجاهدى خلق ضد النظام الإيراني، وفى عام ١٤٠١هـ قتل رئيس الجمهورية محمد على رجائي، وكذلك رئيس الحكومة محمد جواد فى انفجار قنبلة، ثم تولى المنصب الرئيس على خامنئى حتى عام ١٤٠٩هـ وفى هذا العام مات الخميني، ثم تولى رئاسة إيران على أكبرهاشمى رفسنجانى ثم محمد خاتمي.

ثم عاد رفسنجاني ليخوض معركة انتخابية بعد انتهاء فترة محمد خاتمي، ولكنه منى بهزيمة ساحقة أمام أحمدي نجاد محافظ طهران الذي يرتدي الملابس الأوروبية بدلاً

من الزي التقليدي لزعماء إيران، وقد أعلن أحمدي نجاد أنه سيعمل على إعادة إيران إلى حظيرة المجتمع الدولي، وكذلك عدم الممانعة في إعادة العلاقات مع أمريكا .

تبلغ نسبة المسلمين السنة فى إيران ٣٦٪ بينما تبلغ نسبة الشيعة ٦٢٪ ومما هو جدير بالذكر أن نسبة الشيعة فى إيران كانت لا تزيد عن ١٠٪ فى عهد إسماعيل الصفوي، ولكن استمرار حكم الصفويين الشيعة الذى بلغ ما يقرب من ٢٠٠ عام قد أثر على الشعب الفارسي، وخاصة مع الوسائل التى كان الشيعة يتبعونها مع السنة من اضطهاد وإجبار فى كثير من الأحيان على اعتناق المذهب الشيعي، فأدى ذلك إلى انتشار المذهب الشيعى فى البلاد وهجرة الكثير من أهل السنة والذين بقوا منهم حتى الآن يضيق عليهم الخناق باستمرار.



خريطة إيران

الفصل الثالث
المغول فى بلاد الصين ومنغوليا

فى هذا الفصل سنتعرف على تاريخ المنطقة التى أقطعها جنكيز خان لابنه أوغطاى وهى بلاد المغول (منغوليا) والصين والخطا (تركستان الشرقية) ونوجه انتباه القارئ إلى تداخل أسرة جغطاى وأسرة تولوى فى حكم هذه المنطقة مع أسرة أوغطاي؛ كى لا يلتبس الأمر على القارئ، وسنتناول دراسة المنطقة التى تمثل الآن جمهورية الصين الشعبية وجمهورية منغوليا.

أوغطاي:

عندما مات جوجى بن جنكيز خان قبل موت أبيه نصب أوغطاى خانًا أعظم للمغول بعد موت جنكيز خان عام ٦٢٦هـ.

كيوك:

عندما توفى أوغطاى تسلم ابنه كيوك منصب الخان الأعظم، وكان فى ذلك الوقت يحارب تحت قيادة ابن عمه باتو بن جوجى فى أوروبا، وبمجرد تولى كيوك المنصب عام ٦٤٤هـ أعلن تنصره بإيعاز من مربيه النصرانى وزاد فى عهده الرهبان والقساوسة فى البلاد الخاضعة للمغول، وأخذوا يحثون كيوك على قتال المسلمين وقتال ابن عمه باتو الذى يعطف على المسلمين، وأعد كيوك العدة لقتال باتو ولكنه مات عام ٦٤٧هـ وجيشه فى الطريق إلى باتو فلم يحدث قتال.

خروج منصب الخان الأعظم من أسرة أوغطاي

ما إن مات كيوك حتى استغل ابن عمه باتو الفرصة وأرسل قوة إلى قرة قورم لتنصيب مانغو بن تولوى، فانتقل منصب الخان الأعظم من أسرة أوغطاى إلى أسرة

تولوى فاغتاظت لذلك أسرة أوغطاي، وكان كبيرها حينئذ قاشين أخو كيوك.

خرج مانغو مع أخيه قوبيلاى لحرب من خرج عليه فى بلاد الخطا، وترك مكانه لحين عودته أخاه أرتق بوكا، ومات مانغو قبل أن يعود إلى قرة قورم فدعم كل من بركة خان بن جوجى وقيدو بن قاشين بن أوغطاى أرتق بوكا وحثوه على التمسك بمنصب الخان الأعظم فى حين كان قوبيلاى يريد نفس المنصب، فوقع بين الأخوين أرتق بوكا وقوبيلاى الحرب، فترك أخوهم هولاكو الحروب فى غرب مملكة المغول، وجاء ليوقف القتال واستطاع بالفعل أن يوقفه وأن ينصب أخاه قوبيلاى خانًا أعظم وأن يخضع قيدو بن قاشين بن أوغطاي.

نقل قوبيلاى مقر الحكم من قرة قورم إلى (خان باليغ) وهى مدينة بكين الآن، وخان باليغ تعنى مقر الخان، وبذلك انقسمت المنطقة الخاضعة لأسرة أوغطاى إلى منطقتى نفوذ:

١- منطقة منغوليا وبلاد الخطا (تركستان الشرقية) وعاصمتها مدينة قرة قورم تحكمها أسرة أوغطاي، وستدخل فى حكمها أسرة جغطاي.

٢- منطقة بلاد الصين وعاصمتها بكين ويحكمها قوبيلاى بن تولوي.

وسندرس كل منطقة على حدة حتى نصل إلى ما آلت إليه في تاريخنا المعاصر.

منطقة منغوليا وبلاد الخطا :

عندما نقل قوبيلاى مقر الخان الأعظم إلى بكين بقيت قرة قورم وما يحيط بها من بلاد الخطا لأبناء أوغطاي.

قيدو :

وقد تولى قيدو بن قاشين بن أوغطاى بعد أبيه قاشين، وكان قيدو يوالى المسلمين، ويتمتع بعلاقة طيبة مع بركة خان، والسلطان بيبرس وقد وقع القتال بين

قيدو وبراق خان من أسرة جغطاي، انتهت بهزيمة قيدو فأصبح الجغطائيون هم أسياد الموقف، وبموت قيدو عام ٧٠٤هـ وافقوا على تعيين ابنه شابار مكانه، ثم اندلعت الحروب من جديد بين الأوغطائيين والجغطائيين انتهت بانتصار الجغطائيين على الأوغطائيين وكان زعيمهم هو دوداخان وخضعت له التركستان الشرقية كلها (الخطا) والغربية وبلاد الأوغطائيين، واختلط فى حكم هذه المنطقة الجغطائيون والأوغطائيون فقد تولى حكمها عام ٧٤١هـ أحد أفراد أسرة أوغطاى وهو على خان، وانتشر الإسلام فى هذه المنطقة أيام طرما تشيرين (٧٢٢ - ٧٣٥هـ) الذى أسلم وأسلم معه الكثير من المغول من أسرة جغطاي.

وحكم أيضًا هذه المنطقة من أسرة أوغطاى دانشمندجه ولما احتل تيمورلنك المنطقة ولى سيورغتمشر بن دانشمندجة، وتبعه ابنه محمود ولكن السلطة الفعلية للمنطقة كانت بيد تيمورلنك، ثم بموت تيمورلنك تفككت مملكته، وعندما حكم منغ الصين وطرد منها ما بقى من أسرة قوبيلاى توجهوا للشمال فى قرة قورم، فتبعهم وأخضعهم وجعل تعيينهم من قبله فى حين أن الوضع فى التركستان الشرقية كان أشبه بالتفتت، وأصبحت عبارة عن عدة خانات فى كاشغر وأقصو وغيرها تدين بالولاء لمانغو، وبذلك أصبحت منطقتا منغوليا وبلاد الخطا (تركستان الشرقية) والأويغور (كانسو) تدين بالولاء لأسرة مانغو وسنستكمل ما حدث لهما فى الحديث عن منطقة الصين.

بلاد الصين:

عهد أسرة قوبيلاي(٦٧٥ — ٧٦٩هـ):

(العهد المغولي) عندما نقل قوبيلاى مقر الخان الأعظم إلى بكين، كان المغول يسيطرون على الجزء الشمالى من الصين، أما الجزء الجنوبى والذى يشمل مملكة سونغ فقد استطاع قوبيلاى أن يضمه عام ٦٧٩هـ وأسس قوبيلاى امبراطورية واسعة فى

الصين، وأخذت أسرة قوبيلاى تحكم هذه الامبراطورية حتى عام ٧٧١هـ فى عهد طوغان تيمور، واشتهرت هذه الأسرة بالبذخ والإسراف فى المتع والشهوات.

وصل الإسلام إلى الصين منذ أيام عثمان بن عفان عن طريق التجارة والدعوة، وبلغ عدد البعثات الإسلامية للصين فى عهد الأمويين ١٦ بعثة وفى عهد العباسيين ١٢ بعثه، وقد انتشر الإسلام فى عهد أسرة قوبيلاى (العهد المغولي) فقد اعتمد حكامها على المغول المسلمين سواء فى الجيش أو فى المناصب ففى الجيش جاء الكثير من المسلمين من تركستان وبلاد ما وراء النهر جنودًا، وفى المناصب وصل نفوذ المسلمين إلى أنهم حكموا ٨ ولايات من ١٢ ولاية تتكون منها الصين، ومن أشهر المسلمين نفوذًا فى الصين شمس الدين عمر الذى كان ضابطًا فى الجيش ثم حاكمًا عسكريًا فى مدينة تاى يوان، ثم حاكمًا لمدينة بنيانغ، ثم قاضيًا فى مدينة بكين، ثم حاكمًا لبكين ثم مديرًا سياسيًا فى بلاط قبلاى خان، ثم حاكمًا لولاية ستشوان، ثم حاكمًا لولاية يونان، وقد قام بإنشاء المدارس والمعاهد الدينية، ولعل أكثر المساجد الموجودة الآن فى الصين كان بناؤها فى العهد المغولي، وكان المسلمون فى الصين لهم مكانة مرموقة، سواء من الناحية المادية أو الفكرية أو الثقافية، وكانوا دائمًا يشغلون أعلى المناصب؛ لتميزهم وبروز شخصيتهم بين السكان.

عهد منغ (٧٧٠ – ١٠٥٢هـ):

تمكن منغ أحد أعداء امبراطورية المغول أن يدخل بكين عام ٧٧٠هـ فى عهد طوغان تيمور، وأن يطرد أسرة قوبيلاى من الامبراطورية، ففروا إلى الشمال فى قرة قورم وما حولها، وتوالى عدة خانات من أسرة قوبيلاى على قرة قورم وما حولها يعينون من قبل أسرة منغ، حتى تمت السيطرة الصينية الكاملة عليها عام ١٠٤٣هـ وكان الضعف والتفكك قد دب فى أوصال تركستان

الشرقية وقامت عدة إمارات، فيها فى كاشغر وأقصو وطرفان يحكمها أفراد من أسرة جغطاي، ويدينون بالولاء لأسرة منغ فبسطت أسرة منغ نفوذها على منغوليا وبلاد تركستان الشرقية والأويغور (كانسو).. وظل وضع المسلمين فى عهد أسرة منغ، كما كان فى عهد أسرة قوبيلاى وظل لهم دور بارز فى البلاد.

العهد المنشورى (١٠٥٤: ١٣٢٩):

عندما جاءت أسرة تسونغ (الأسرة المانشورية) إلى الحكم اختلف تعاملها مع المسلمين عمن سبقوها، فقد ظل المسلمون فى الصين سواء من جاءوها من خارجها أو الذين أسلموا فيها أصحاب مناصب عالية فى البلاد، ولهم عاداتهم وتقاليدهم الإسلامية الرفيعة، التى تجبر الناس على احترامهم، والنظر إليهم بتقدير واحترام ويرفضون الرضوخ لأى شيء يخالف دينهم، فخشى حكام الأسرة المنشورية من المسلمين ومن نفوذهم، واشتعل الحقد فى نفوس الموظفين الصينيين الذين يرون المسلمين أصحاب مراكز عالية، وقيم مثلى، ومؤهلات وإمكانات عالية لم يكن للصينيين مثلها، فعمل الموظفون الصينيون على إثارة الدسائس ضد المسلمين، ومما زاد من غضب وحقد الأسرة المانشورية على المسلمين مساعدة قائدين مسلمين لينغان وانغ آخر أمراء أسرة منغ فى محاولة استعادة ملكه، وأعلنا العصيان فى ولاية كانسو عام (١٠٥٨هـ) ولكن قضى على الحركة وقتل ٥ آلاف مسلم وبدأ حكام الأسرة المنشورية يتربصون بالمسلمين للقضاء عليهم وتوترت العلاقات بين الحكام والمسلمين، فقام المسلمون بعدة ثورات، وللأسف الشديد كان المسلمون يختلفون معًا ويقتل بعضهم بعضًا لأتفه الأسباب، وللاختلاف فى أمور فقهية بسيطة، فكانت السلطات المانشورية ترسل الجيش إلى المناطق التى يحدث فيها نزاع بين المسلمين بحجة تهدئة الأوضاع، ولكنها فى الحقيقة كانت ترسل الجيش لإبادة المسلمين، وقتل الكثير منهم، مستغلة الفرقة بينهم، وظل المسلمون يقومون بثورات ضد الحكام،

ولكن لتفرقهم وقيام الثورات الإسلامية فى مناطق كثيرة دون التنسيق بينها، كانت السلطات المنشورية تقضى عليها، وتقتل الكثير من المسلمين ويبدو أن السياسة القمعية التى اتبعتها الأسرة المنشورية مع المسلمين، قد جعلت أكثرهم يتجه للسلم، وحاول حكام الأسرة المنشورية أيضًا اتباع نفس الأسلوب بعد ذلك، ووافقوا عام ١٣٢١هـ على إعطاء ترخيص لإمام مسجد بكين (إلياس عبد الرحمن) بإنشاء معهد إسلامى وتدريس اللغة العربية فيه، وحاول الخليفة العثمانى عبد الحميد الثانى الاتصال بمسلمى الصين وإرسال مبعوثين إلى بكين أسسوا مدرسة فى مسجد بكين والتحق بها الكثير، ولكن السلطات الصينية لاحقتهما لخوفها من إحياء النشاط الإسلامى فى الصين فعادا إلى استنبول.

العهد الجمهوري(١٣٢٩: ١٣٦٩هـ):

أيد المسلمون قيام الحكم الجمهورى ليخلصهم من اضطهاد الأسرة المنشورية، واعترف الحكم الجمهورى بأن المسلمين أحد العناصر التى تكون شعب الصين وبذا يتكون الشعب الصينى من

(١) الصينيون (٢) المنشوريون

(٣) المغول (٤) المسلمون (الهوي)

(٥) التبت

وقد كان العلم الصينى مكونًا من خمسة ألوان هى الأحمر والأزرق والأصفر والأبيض والأسود، ويمثل المسلمون اللون الأبيض، وهدأت أوضاع المسلمين فى الصين باستثناء تركستان الشرقية، وتأسس الكثير من المؤسسات الإسلامية التى أدت دورًا كبيرًا فى تعليم المسلمين، وجمع التبرعات لهم، والقيام بالأعمال الخيرية والاتصال بالدول الإسلامية.

الوضع فى تركستان الشرقية:

فتح قتيبة بن مسلم الباهلى إقليم تركستان الشرقية، ودخل مدينة كاشغر عام ٩٦هـ وسيطر المسلمون عليها فترة من الزمن، وأسلم أكثر أهلها وكان لهم دور كبير فى نشر الإسلام فى الصين عن طريق الدعوة، ثم سيطرعليها المغول ثم أخذ الضعف ينخر فى أوصالها، وتفككت إلى عدة خانات مما سهل للأسرة المنشورية السيطرة عليها فى الفترة ما بين ١١٤٩ - ١١٩٩هـ وأطلقت عليها سيكيا نغ أى الولاية الجديدة.

كثرت الثورات فى منطقة تركستان الشرقية وكانسو ومن أشهرها ثورة يعقوب بك عام ١٢٧١هـ، وتمكنت تركستان الشرقية من الاستقلال عن الصين وأعلنت قيام جمهورية تركستان الشرقية واستمر استقلالها ١٣ عامًا، وفى نفس الوقت كانت كانسو تناهض الاحتلال الصينى ولم تؤازرها تركستان الشرقية كما يجب، فسحق الصينيون المقاومة فى كانسو، وتفرغوا لتركستان الشرقية، واستطاعوا أن يسيطروا عليها عام ١٢٩١هـ وقتلوا يعقوب بك.

وجاء العصر الجمهورى فاستفز الصينيون مسلمى تركستان ببعض التصرفات، منها بطش الحاكم المعين من قبل الصين مسعود بك، وقيامه بقتل الكثير من المسلمين المعارضين لظلمه، فطلب المسلمون من الحكومة الصينية سماع قضاياهم دون أن تمر على هذا الطاغية، فنصحته الحكومة بالكف عن البطش بالناس فأبدى طاعته ولكن فى الحقيقة تمادى فى الظلم والبطش بالناس، فثار السكان وقتلوا المفوض السياسى فى البلاد، وانتخبوا تيمور قائدًا لهم وأرسلت الصين جيشًا لوقف الثورة، ولجأ قائده للحلول السلمية مع الثائرين واتفق معهم على العفو العام ومغادرة تيمور البلاد وهدأت الأوضاع.

واعتدى رئيس الشرطة فى عام ١٣٤٩هـ على امرأة مسلمة، فجن جنون

السكان وقتلوا رئيس الشرطة فى حفلة استدرجوه إليها، واتحد المسلمون فى تركستان الشرقية، واستطاعوا السيطرة عليها، برغم معاونة روسيا للصين فى حربها مع المسلمين، وأعلن المسلمون قيام جمهورية باسم تركستان الشرقية عام ١٣٥٢هـ عاصمتها كاشغر، وعين جوجنياز رئيسًا لها، وثبت دامل رئيسًا لوزرائها ولكنها لم تستمر أكثر من عام، فداهم الصينيون والروس البلاد وسيطروا عليها عام ١٣٥٣هـ وأعدم رئيس الدولة ورئيس وزرائها وأعضاء الحكومة وعشرة آلاف مسلم.

الوضع أثناء الحرب العالمية الثانية:

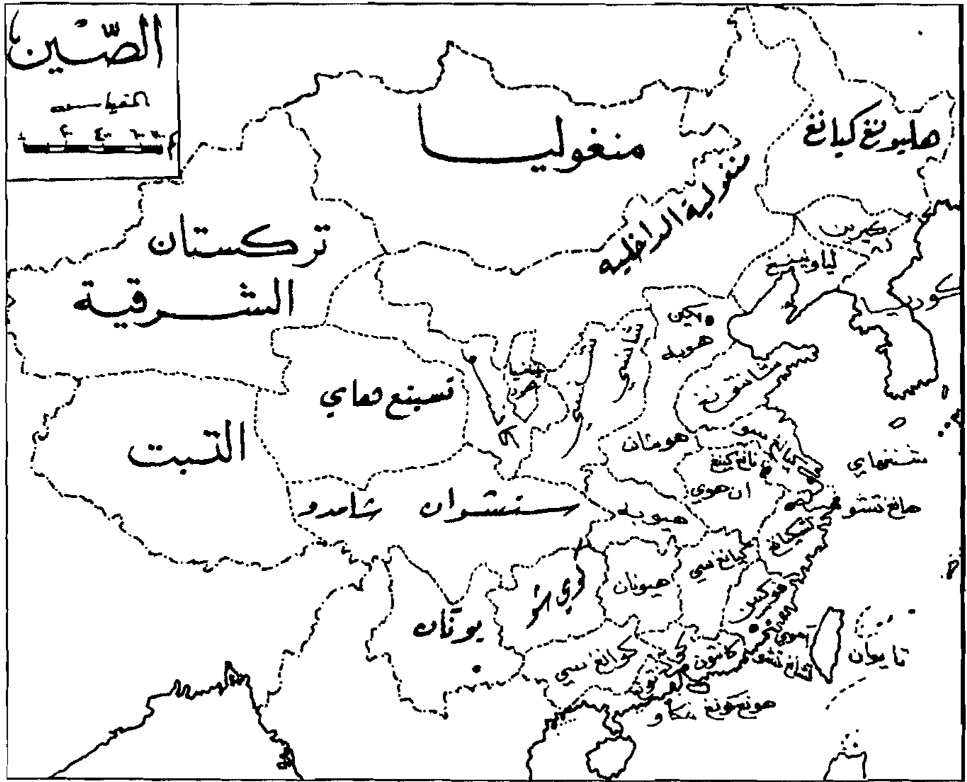
استطاعت اليابان فى الحرب العالمية الثانية أن تخضع شمالى الصين لقبضتها، وتمكنت من دخول بكين فى الفترة من ١٣٥٢ - ١٣٥٧هـ وكانت الصين وروسيا تحاربان اليابان، وحاولت اليابان تقريب المسلمين إليها ليساعدوها فى السيطرة على الصين، فتركت لهم حرية إنشاء المدارس التعليمية، وإصدار الجرائد ونظم المسلمون فى تركستان الشرقية أنفسهم، وأنشئوا المطابع والمدارس والمجلات والجرائد، وأصدرت اليابان قرارًا بإطلاق الحرية للصينيين فى اعتناق الإسلام، ويسرت السفر لأداء فريضة الحج.

انقسم المسلمون إلى فريقين، فريق يؤيد اليابان، وفريق آخر يؤيد الشيوعيين، الذين بدأوا يظهرون نتيجة للعلاقات مع روسيا، فحارب فريق مع اليابان وحارب فريق آخر مع الشيوعيين الذين أكثروا من الوعود للمسلمين، وعندما انتهت الحرب العالمية الثانية و هزمت اليابان، استطاع الشيوعيون بسط نفوذهم على أكثر أجزاء الصين، باستثناء جزيرة تايوان التى انتقلت إليها الحكومة الوطنية السابقة وكان الروس يحاولون ضم أكبر قدر ممكن من أراضى الصين بسياستهم التوسعية، وحاول المسلمون الاستقلال فى كانسو، لكنهم هزموا من

الشيوعيين فى معركة لانتشو، وكان قائد المسلمين حسين مابوفانغ، ثم تابع الشيوعيون سيرهم إلى تركستان الشرقية، وكان المسلمون قد استقلوا بجزئها الشمالى بدعم من الروس بقيادة على خان، ولكن الشيوعيين قد تمكنوا من السيطرة الكاملة على تركستان الشرقية وفر زعماء البلاد.

وما زالت تركستان الشرقية حتى الآن تحاول الاستقلال عن الصين، ولكن الصينيين يخمدون أى محاولة تظهر هناك، والإعلام يعتم على ما يحدث للمسلمين فى الصين.

وبالنظر إلى وضع الصين الآن فقد سيطر الصينيون على كافة أجزاء الصين وتركستان الشرقية ما عدا جزيرة تايوان التى يدعمها الغرب ضد الصينيين، واستطاعت منغوليا أن تنفصل بجزء كبير من أراضيها وتستقل عن الصينيين، وذلك بدعم الروس وتكون دولة منغوليا وعاصمتها آلان باتور (قرة قورم سابقًا) ويكثر المسلمون فى الأجزاء الشمالية الغربية حيث تزيد نسبتهم بينما تقل كلما اتجهنا نحو الشرق، ويشكل الآن المسلمون فى الصين حوالى ١٠٪ من إجمالى السكان البالغ عددهم ما يزيد عن مليار و٣٠٠ مليون نسمة، ويحاول الصينيون إعطاء إحصائيات أقل بكثير من العدد الحقيقى للمسلمين، حتى تثبط عزائم المسلمين، وغيّر الصينيون أسماء الكثير من المدن الإسلامية لفصلها عن تاريخها ولتصبح مرتبطة بالفكر الشيوعى ومن أمثلة ذلك مدن أورمجي، تيهوا يارقند، سوجي، كاشغر، شوفو، وغيرها.



جمهورية الصين وجمهورية منغوليا

الفصل الرابع
المغول فى تركســـــتان الغربية

كان نصيب جغطاى من البلاد التى استولى عليها المغول كل من تركستان وبلاد الاويغور (كانسو) وبلاد ما وراء النهر، وقد علمنا من الفصل السابق أن بلاد الاويغور وتركستان الشرقية قد آلت فى النهاية للصينيين، وتكون الآن إحدى الولايات الصينية، وسنتناول فى هذا الفصل الجزء الباقى من تركستان.

تتابع على حكم هذه المنطقة من أسرة جغطاى العديد من الخانات كان أول من دخل فى الإسلام منهم مبارك شاه الذى تولى الحكم عام ٦٦٤هـ وقد كان سبب إسلامه أمه أرغنه المسلمة زوجة قرة هولاكو حفيد جغطاي، ولم يدم ملكه إلا قليلاً فسرعان ما خلعه ابن عمه براق خان وحل محله فى نفس العام.

واشتهر براق خان بحروبه ضد أسرة أوغطاى وانتصاره عليهم، ويقال إنه أسلم فى آخر أيامه وتسمى بغياث الدين ثم جاء من بعده حكام منهم:

دودا خان الذى استطاع إخضاع الأوغطائيين، وكجك خان الذى كثرت فى عهده الحروب بين الجغطائيين والدولة الإيلخانية، وانتصرت فيها الدولة الإيلخانية، وضعف بعدها الجغطائيون، وخاصة أن مملكتهم الواسعة، والتى كانت تضم أملاكهم وأملاك الأوغطائيين، تسلم أمرها خانات ضعاف لم يتمكنوا من السيطرة عليها.

وعندما تسلم أمر هذه المملكة الواسعة طرما شيرين عام ٧٢٢هـ اعتنق الإسلام وأسلم معه الكثيرون من أسرة جغطاي، ولكن التفكك قد عرف طريقه إلى الدولة، واحتفظ بعض حكامها بوثنيتهم (مغولستان) وأسلم

الآخرون، واستطاع بوزون خان أن يخلع طرما شيرين ويحل مكانه ولم يكن بوزون مسلمًا فاضطهد المسلمين وبرغم ذلك تمكن المسلمون من تنصيب حاكم مسلم هو على خان من أسرة أوغطاى على المنطقة، وجاء من بعده حاكم آخر مسلم هو محمد خان فى الفترة من(٧٤٣ - ٧٤٤هـ) ثم قازان الذى بوفاته عام ٧٤٧هـ انقسمت المملكة إلى عدة إمارات، واستطاع الأمراء الأتراك أن يحاربوا المغول ويسيطروا على أجزاء كثيرة من البلاد، حتى ظهر توغلق خان الذى استقل بكاشغر فى تركستان الشرقية فى عام ٧٤٨هـ، وأخذ يتوسع فى ملكه حتى ضم بلاد ما وراء النهر وفى عهده أسلم ما يزيد عن ١٦٠٠٠٠ من المغول.

تيمورلنك

يرجع أصل تيمورلنك إلى قبيلة البرلاس التركية وقد دعم أحد أجداده جنكيز خان فأحبه وجعله وصيًّا على ابنه جغطاي، فبرز بين المغول، وقد ولد تيمورلنك فى بلدة كش عام ٧٣٦.

أرسل توغلق خان جيشًا إلى سمرقند لإخضاعها، وكانت قبيلة البرلاس تسكن فى إحدى ضواحيها، فاتصل تيمورلنك بقائد الجيش وأكرمه فأعطى القائد أوامره للجيش بألا يقربوا من قبيلة البرلاس، ودعى تيمورلنك لمقابلة الخان، الذى كافأه بتعيينه حاكمًا لمدينة كش وهى المدينة التى ولد فيها تيمورلنك.

تيمور يوسع ملكه:

عين تيمور أميرًا على مدينة سمرقند، وعين إلياس بن توغلق على بلاد ما وراء النهر، وكان تيمورلنك يسيء إلى أهل سمرقند فدب الخلاف بينهما فراسل إلياس أباه، فأوصاه أبوه بقتل تيمورلنك أمير سمرقند، ففر تيمور قبل أن يصلوا

إليه واتحد مع أخى زوجته الأمير الفار أيضًا، وجمعوا حولهم بعض المؤيدين وحاربوا المغول فانتصروا عليهم، وعندما توفى توغلق خان غادر ابنه إلياس بلاد ما وراء النهر ليتسلم مكان أبيه، فدانت لتيمورلنك بلاد ما وراء النهر واتخذ سمرقند عاصمة لدولته.

حارب إلياس بن توغلق تيمورلنك وانتصر عليه، ولكن إلياس فشل فى دخول سمرقند ثم أعلن أخو زوجة تيمورلنك نفسه أميرًا على سمرقند فلم يعترض تيمور حتى لا يتفرقوا أمام المغول، ثم ما لبث أن حاربه وانتصر عليه وأصبح تيمور أميرًا للتتار وسيطر تمامًا على ما وراء النهر، حتى أن قمر الدين المعين عليها اسميًا من قبل أسرة جغطاى اضطر لمغادرتها، وعين تيمور عام ٧٧١ سيورغتمش بن دانشمندجة من أسرة أوغطاى خانًا على بلاد ما وراء النهر، وعين تيمور نفسه وزيرًا لسيورغتمش بينما السيطرة الفعلية كانت بيد تيمور، واستطاع تيمور أن يضم إلى ملكه هراة وخوارزم، فى الوقت الذى كانت تركستان الشرقية تحت سلطة جغطاي، وبذلك ضمن تيمور عدم اتحاد المنطقتين. وقد ظلت تركستان الشرقية تحت حكم الجغطائيين حتى احتلها الصينيون، استنجد توقتاميش خان بلاد مغول الشمال بتيمور بعدما دخل ماماى خان القرم مدينة سراي، فأنجده تيمور ودخل مدينة سراى واستطاع أيضًا إخضاع الروس ودخل مدينة موسكو عام ٧٨٣هـ واستطاع تيمور فى الفترة من ٧٨٢ – ٧٨٦هـ أن يضم أكثر أجزاء الدولة الإيلخانية.

ووقعت الخلافات بين تيمورلنك وتوقتاميش فسار تيمورلنك إلى بلاد المغول الشمالية، وانتصر عليهم، وعين على سراى خانًا من قبله.

اتجه تيمورلنك عام ٨٠٠هـ إلى الهند واستطاع ضم كشمير ودهلى وهزم السلطان محمود وعين على دهلى حاكمًا من قبله...

اتجه تيمورلنك إلى الأناضول لمحاربة السلطان العثمانى بايزيد الأول؛ وذلك لإيوائه أحمد بن أويس، وقرة يوسف الخارجين على تيمورلنك بعد أن أخضع فى طريقه حلب ودمشق وبغداد، وخاف المماليك من تيمور ودفعوا له إتاوة وخطب باسمه ثم واصل تيمور طريقه لمحاربة العثمانيين، فالتقى معهم فى سهل أنقرة عام ٨٠٥هـ وهزم العثمانيين ومات تيمورلنك عام ٨٠٨هـ وهو فى طريقه لغزو الصين، ومما يذكر عن تيمورلنك (لنك أى الأعرج) أنه نشأ على المذهب الشيعى وتبعه فى ذلك أبناؤه وأحفاده، وهذا ما رسخ المذهب الشيعى فى عدة مناطق من ملكه، وبالذات بلاد الفرس (إيران) ولجأ الشيعة فى أكثر الأحيان لفرض المذهب الشيعى على الناس.

وللأسف الشديد لم تؤد توسعات تيمورلنك إلا لتفتيت البلاد، فكان من نتائج غزوه لبلاد مغول الشمال أن ازداد تفككها، وظهرت الإمارات فيها بشكل واسع وأعاد للأناضول عصر الطوائف، وتسبب فى توقف فتوحات العثمانيين فى أوروبا، ليلموا شمل دولتهم التى فتتها، ولم يذق بأسه الشديد إلا المسلمون، برغم أنه كان مسلمًا ولكن الأمة كثيرا ما ترزأ بمصائب من أبنائها، وكان يسره إذا انتصر على جيش أن يجمع أفراده ويكون من جماجمهم هرمًا، وفى بعض الأحيان كان يضعهم فى حفرة ويدفنهم أحياء، وكان يستمتع بإهانة الأمراء والملوك المهزومين، وبهذا انتمى تيمور للإسلام اسمًا فقط بينما سوّدت أفعاله تاريخه؛ ولذلك ترسخ عند الكثير من المسلمين الصورة السيئة للمغول والتتار حتى بعد إسلامهم، واستغل أعداء الإسلام انتساب تيمور للإسلام ليشوهوا به الإسلام والمسلمين والإسلام بريء تمامًا من أفاعيله.

تفكك الدولة التيمورية بعد وفاة تيمورلنك:

بعد موت تيمورلنك أخذت النزاعات تدب فى أوصال الأسرة التيمورية،

واستقل الكثير من أطراف البلاد، وظلت الأسرة التيمورية تحكم بلاد ما وراء النهر حتى جاء آخر ملوكها السلطان محمود ومات عام ٩٠٠هـ، فدب الخلاف بين أبنائه وظهر الأوزبك والصفويون وغيرهم، أما فى الهند فحكم فرع من الأسرة التيمورية، وسيرد ذكرها فى الفصل الخاص بالهند.

وسنتناول الآن أحوال تركستان الغربية بعد الأسرة التيمورية وحتى الآن..

الأسرة الشيبانية:

ترجع أصول هذه الأسرة إلى شوبان بن جوجي، وكان باتو أخا شيبان قد أعطاه شرق أورال بحيث يتبع سراى عاصمة مغول الشمال.

وفى منتصف القرن العاشر الهجرى اتجه محمد الشيبانى أحد أحفاد شوبان من سيبيريا الى بلاد ما وراء النهر، يقود جيشًا عرف بجيش أوزبك، مستغلاً التفكك الذى تعانى منه بلاد التتار، وقضى على أبناء محمود خان آخر السلاطين التيموريين، وهاجرت قبائل مع محمد الشيبانى من سيبيريا إلى بلاد ما وراء النهر والذين بقوا منها هناك عرفوا بقياصرة تيومن.

أسس محمد الشيبانى الدولة الشيبانية عام ٩٠٦هـ فى بلاد ما وراء النهر واستطاع أن يضم سمرقند ويتخذها عاصمة لدولته، وقد استنجد خان سمرقند بحاكم الهند ظهير الدين محمد بابر، والذى يرجع فى أصوله للتيموريين، وقامت الحروب بين محمد الشيبانى وظهير الدين محمد بابر، والذى كان يعاونه الصفويون فى الدولة الإيلخانية، ولكن محمد الشيبانى استطاع أن يبسط نفوذه على بلاد ما وراء النهر، برغم المقاومة من حاكم الهند، وتوفى محمد الشيبانى قتيلاً فى حروبه عام ٩١٦هـ، وتتابع من بعده على حكم بلاد ما وراء النهر عدد من الخانات من أسرة شوبان لمدة قرن من الزمان حتى عام ١٠٠٧هـ؛ حيث دب الضعف فى أواخر أيام الأسرة الشيبانية، فعندما آل الحكم إلى عبد

الله الثانى عام ٩٩١هـ ثار عليه ابنه عبد المؤمن بإيعاز من الصفويين، فهُزم عبد الله أمام ابنه، وفقد الكثير من ملكه حتى مات عام ١٠٠٦هـ ثم ما لبث ابنه أن قتل عام ١٠٠٧هـ وضاعت هيبة الشيبانيين (الأوزبك) وتولى الحكم بعدهم أنسباؤهم الذين عرفوا بالجانيين.

الأسرة الجانية:

وهم أنسباء الشيبانيين، ويعود أصلهم إلى استراخان، حيث فر الكثير من أمرائها عندما احتلها الروس، واستقروا فى بخارى وقوى نفوذهم فى عهد الشيبانيين (الأوزبك) حتى تسلموا مقاليد البلاد وظلت تحكم البلاد حتى قضى عليهم عام ١٢٠٠هـ وفى فترة حكمهم انقسمت البلاد إلى عدة خانات هى بخارى وخوقند وفرغانه، وسمرقند وخوارزم وغيرها، والتى تشكل الأجزاء التى خضعت للاحتلال الروسى من تركستان، أما بلخ وبادخشان وغيرها من الأجزاء الواقعة شرقى نهر جيحون، فكونت بلاد الأفغان، والآن سندرس الأجزاء التى خضعت للاحتلال الروسي:

الأجزاء التى خضعت للاستعمار الروسي:

تكونت عدة خانات فى تركستان الغربية وأهمها.

خانية بخارى:

حكمت أسرة المانغيت خانية بخارى، فقد تولى أحد أبنائها وهو عبد الرحيم، وزارة بخارى أيام الجانيين، ثم تزوج مير معصوم شاه أحد أبناء الأسرة من ابنة أبى الغازي، آخر خانات الجانيين، فدانت له خانية بخارى عام ١٢٠٠هـ وحاول استرداد ما فقده الجانيون فى بلاد الأفغان، ولكنه فشل وضعفت خانية بخارى فى بداية القرن الرابع عشر، وتوالت عليها الهجمات الروسية (١٢٨٢ - ١٢٨٩هـ) وتقدم الروس فى الخانية عام ١٣٢٨هـ فى الوقت الذى تولى فيه سيد مير الخانية، وقامت

الحرب العالمية الأولى، وبدأ النفوذ الروسى يقل، فاستقل سيد مير بخانية بخارى، إلا أن الثورة الشيوعية قامت واستطاعت إتمام احتلال خانية بخارى عام ١٣٣٨هـ.

خانية خوارزم:

كما سبق وأن ذكرنا، كانت خوارزم تابعة لدولة مغول الشمال، حتى ضمها تيمورلنك إلى أملاكه ثم بعد تفكك الدولة التيمورية، استطاع الشيبانيون أن يسيطروا عليها ويؤسسوا بها خانية خوارزم (خيوة) عام ٩٢١هـ ودخلوا فى حروب مع خانية بخارى، وامتد حكمهم حتى عام ١٢١٩هـ باستثناء عام ١١٥٣هـ عندما استطاع نادر خان أن يحتل خوارزم، ثم ما لبث أن عادت إليهم منذ عام ١٢١٩هـ وبدأ وزراؤهم يتسلمون حكم الخانية، حتى دخل محمد سيد أحمد خان خوارزم فى طاعة الروس عام ١٢٩٠هـ ولكنهم كانوا يعتبرون أنفسهم مستقلين، وعندما قامت الثورة الشيوعية انسحب الروس منها عام ١٣٣٦هـ ثم ما لبث أن احتلها الشيوعيون عام ١٣٣٧هـ.

خانية خوقند (فرغانة)

استقلت عام ١١١٢هـ وحكمها أحفاد محمد بابر ظهير الدين مؤسس دولة المغول فى الهند، واستطاع عالم خان أحد حكام خوقند أن يضم طشقند عام ١٢١٥هـ ونشبت الحرب بين خانية خوقند وخانية بخارى واستطاع حكام بخارى أن يستولوا على (فرغانة) خوقند ما بين عام (١٢٥٥ - ١٢٥٦هـ)ولكن حكام خوقند استطاعوا أن يستعيدوها، واستمر حكمهم لخوقند حتى عام ١٢٩٣هـ حيث احتلها الروس.

التركستان تحت وطأة الاحتلال الروسي:

استطاعت روسيا أن تضم جميع جهات التركستان، باستثناء تركستان الشرقية التى ضمتها الصين، وكان آخر ما ضموه من بلاد التركستان هى

الثلاث خانيات السابقة، ومنعهم احتلال الإنجليز لأفغانستان من مواصلة ابتلاعهم لبلاد المسلمين.

وما إن وطئت أقدام الروس بلاد تركستان حتى واصلوا جرائمهم، التى سبق وأن ذكرناها فى فصل مغول الشمال، ولكنها كانت بصورة أقل، ذلك لأن احتلال التركستان كان فى فترة قريبة، وأيضا لأن تركستان بعيدة عن موسكو، بينما كان التتار فى حوض نهر الفولغا وشمال القوقاز كان لهم النصيب الأكبر من الطغيان الروسي.

وللأسف الشديد اختلفت اتجاهات المسلمين من تتار وترك وقوقاز فى روسيا، فكان البعض يريد الاستقلال التام والبعض يريد الاستقلال الذاتي، وكان كل فريق يسير فى اتجاه غير الذى يسير فيه الآخرون، فالبعض يسير فى اتجاه الاشتراكية والبعض يسير فى اتجاه الشيوعية وغيرها، وكان السياسيون فى روسيا يستغلون المسلمين باستمرار فى الوصول إلى الحكم، ويمنونهم بالأمانى إذا وصلوا للحكم، ولكنهم بمجرد وصولهم للحكم يذيقون المسلمين ألوانا من العذاب تفوق سابقيهم.

لم يتعظ المسلمون من التجارب، وكانوا ينضمون لأى حركة معارضة للنظام الحاكم، حتى لو كانت مبادئها تتعارض مع الإسلام، وبالتالى يتنازلون عن بعض أمور دينهم ويظنون أن من انضموا إليهم سيخلصونهم من الظلم المحيط بهم، فما كان من الذين أحسنوا الظن بهم إلا أن غدروا بهم وزادوهم رهقًا وظلمًا بمجرد ما يستتب لهم الأمر، أضف إلى ذلك الجهل وعدم الفهم الصحيح للإسلام المنتشر بين كثير من المسلمين فى روسيا ومحاولات روسيا المستمرة لتشويه صورة الإسلام، والاستهزاء به وغزوها الفكرى للمسلمين، سواء فى التعليم أو الدعاية أو برامج الإذاعة أوالكتب أوالمجلات أو السينما أو

النشاط الاجتماعى وغيرها.

وبرغم كل هذا فقد قاوم المسلمون الاحتلال الروسى ومن الأمثلة على ذلك: قيام قبائل الأوزبك بحركة ضد الروس عام ١٣٢٢هـ (حركة الجهاد) ولكنها فشلت وعندما قامت الثورة الشيوعية فى البلاد ١٣٣٦هـ أعلن الأوزبك استقلال بلادهم، وكونوا حكومة تركستان المستقلة والتى اتخذت من مدينة خوقذو مقرًا لها إلا أن الشيوعيين قد انقضوا عليهم وطوقوا بلادهم وارتكبوا فيهم أبشع الجرائم لإخمادهم.

التقسيمات السياسية فى تركستان:

عملت روسيا على تفريق وحدة سكان التركستان، فقسمت بلادهم إلى خمس جمهوريات اتحادية، بل وأعطت بعض المناطق بداخل هذه الجمهوريات الاستقلال الذاتى فى شكل مقاطعات وذلك كالآتي:

١- جمهورية قازاقستان (كازاخستان):

وهى ليست جزءًا من بلاد ما وراء النهر، ولكنها ضمن منطقة التركستان وهى جمهورية كبيرة المساحة ٢,٧١٧,٣٠٠كم٢ وعاصمتها ألماآتا وقد دفعت روسيا بأعداد كبيرة من الروس والأوكرانيين ليرفعوا نسبة النصارى فى هذه الجمهورية الشاسعة حتى وصلت نسبتهم الآن إلى ٥٤٪ من إجمالى عدد السكان وكانت الجمهورية الإسلامية الوحيدة فى روسيا التى تحتوى على معامل نووية.

٢- أوزبكستان:

وبها أكبر مدن تركستان مثل سمرقند، والعاصمة طشقند، وبخارى، وخوقند، وتحتوى على مقاطعة ذات استقلال ذاتى، وهى قرة قالباق، وعاصمتها نوخوس وبها مدينة خوارزم (خيوة).

٣- تركمانستان:

وعاصمتها عشق أباد وبها مدينة مرو، استولى الروس على القسم الأكبر من بلاد التركمان إثر الحرب التركمانية ١٢٩٧-١٢٩٨.

٤- قيرغيزستان:

وكانت عاصمتها أثناء الاحتلال الروسى فرونزى، نسبة إلى القائد الروسى الذى احتلها، وبعد أن استقلت أصبحت العاصمة مدينة بيشكيك ويوجد بها مدينة فرغانة وعند الاحتلال الروسى لها أبيد أكثر من ثلث سكانها والجمهوريات الأربع السابقة يرجع معظم سكانها إلى أصل تركي.

٥- جمهورية طاجكستان:

ويرجع معظم سكانها إلى أصل فارسى وعاصمتها مدينة دوشانبى وبها إقليم غورنو باداخشان ذو الاستقلال الذاتي.

الاستقلال عن روسيا:

وكانت المقاومة للاستعمار على أشدها فى التركستان ولكن الروس كانوا يعتمون عليها إعلاميًا حتى جاء عام ١٤٠٩هـ؛ حيث سقطت الشيوعية فى الاتحاد السوفيتى ثم انحل الاتحاد السوفيتى عام ١٤١١هـ، فاستقلت الجمهوريات الخمس السابقة، وبدأت تنفتح على العالم الإسلامى، وحرصت على تكوين علاقات طيبة مع الدول الإسلامية، وبخاصة تركيا لتشابهها معها فى اللغة والأصل، وغيرها من الروابط وأصبحت علاقتها مع روسيا فى ظل رابطة دول الكومنولث، واستقرت الأوضاع إلى حد كبير فى الجمهوريات التركستانية باستثناء طاجكستان، حيث قامت فيها حرب أهلية بين المعارضة ورئيس طاجكستان الذى يدعمه الروس.

تواجه قازاقستان مشكلة زيادة نسبة المهاجرين الروس، والأوكرانيين عن

السكان الأصليين؛ حيث تصل نسبتهم إلى ٥٤٪ بينما السكان المسلمون الأصليون نسبتهم ٤٥٪ وبمجرد حصول قازاقستان على الاستقلال، أجبرتها أمريكا على التخلص من المفاعلات النووية التى فى أرضها، وكذا الأسلحة النووية التى خلفها الروس.

تسعى روسيا لإيجاد نفوذ لها فى تركستان، وأقرب دليل على ذلك مساعدتها لرئيس طاجكستان فى حربه ضد المعارضة.

أفغانستان:

لم تظهر دولة الأفغان إلا قريبًا حيث كانت الأجزاء المكونة لها تتوزع بين الدولة الإيلخانية والهند والأوزبك.

فقد سيطر على أجزائها التيموريون، ثم ما لبث أن انقسمت دولتهم إلى إمارات عديدة، ومنها إمارة هراه التى كانت تتبع خراسان، والتى كان يحكمها أحد فروع الأسرة التيمورية، وكانت هناك إمارة كابل وغزنة وكان يسيطر عليها ظهير الدين محمد بابر حاكم الهند، وكان ذلك عام ٩٣٢هـ واستطاع الصفويون دخول قندهار ثم أخذها منهم الأوزبك، ثم عاد مغول الهند فسيطروا عليها عام ١٠٢١هـ وسلموها للصفويين عام ١٠٣٨هـ.

أفغانستان تحت السيطرة الصفوية

استطاع الصفويون أن يضموا إلى دولتهم أكثر الأجزاء الأفغانية، ثم ظهرت بعض المحاولات للاستقلال عن الصفويين أهمها ما حدث فى قندهار وهراة؛ حيث ظهر فى قندهار ميرأويس واستطاع أن يطرد الحاكم المعين من قبل الصفويين عام ١١٢٠هـ، وحكمها مير ثم توفى وورث ابنه محمود الحكم وهو صغير فاستولى عمه على الحكم بدعم الصفويين، ولكن ما لبث محمود أن كبر فحارب عمه واسترد قندهار.

أما ما حدث فى هراة فكان أكبر بكثير، فقد شجع ما حدث فى قندهار على القيام بعمل أكبر ضد الصفويين، فظهر أسد الله من القبائل الدورانية (العبدلية) واستطاع أن يسيطر على هراة ويحكمها، ثم جاء مير محمود من الأسرة الدورانية فحارب الصفويين وانتصر عليهم، واستطاع أن يبسط نفوذه على معظم أراضيهم بما فيها عاصمتهم أصفهان عام ١١٣٥هـ، ولم يتبق للصفويين إلا أجزاء صغيرة فى الشمال، فاستنجد الصفويون بالروس فاستغلوا الفرصة وأخذوا يتقدمون فى أراضى الصفويين، فأوقف العثمانيون تقدمهم ثم حدثت معاهدة بين العثمانيين والروس لتقسيم الأجزاء الشمالية بينهم، ثم خلع الأفغان مير محمود لضعفه عقليًّا وتسلم مكانه ابن عمه أشرف بن عبد العزيز، فاتجه لمحاربة العثمانيين، لأنه لم يرض عن اتفاقهم مع الروس على اقتسام الأراضى الشمالية من الصفويين، ثم ظهر نادر خان الذى يدعم الصفويين، وقاتل الأفغان واستطاع أن يخرجهم من أراضى الصفويين، بل استطاع إخضاع بلادهم بالكامل.

ظهور الدولة الأفغانية:

بعد وفاة نادر خان عام ١١٦٠هـ رجعت فرقة الأفغان التى كانت تحارب معه إلى قندهار، ونادت قائدها أحمد شاه العبدلى من الأسرة الدورانية وعرفت إمارته باسم الدولة الأفغانية.

الأسرة الدورانية:

حكمت الأسرة الدورانية أفغانستان أكثر من قرنين من الزمان، وقد توالى عليها عدد من الحكام:

أحمد شاه:

وهو مؤسس الأسرة الحاكمة ومؤسس دولة أفغانستان، واستطاع أن يضم

إليه الملتان ولاهور وكشمير، وحارب السيخ، واتخذ من قندهار عاصمة لدولته ومات عام ١١٨٧هـ وتسلم بعده ابنه تيمور شاه.

تيمور شاه:

نازع أخوه سليمان فى الملك، ولكنه تمكن من السيطرة على قندهار، وقتل أخاه ونقل العاصمة إلى كابل، وحارب السيخ الذين احتلوا الملتان، وانتصر عليهم واسترد منهم الملتان عام ١١٩٦هـ، واستقل فى أيامه أمراء السند ذاتيًّا وحارب أمير بخارى معصوم ، وانتصر عليه وأخمد ثورة فى كشمير، وكان الإنكليز يشجعون السيخ فى الهند والقاجاريين فى فارس على قتاله، وتوفى عام ١٢٠٧هـ وتولى ابنه زمان شاه الحكم.

نزاع أبناء تيمور على الحكم:

تولى زمان شاه الحكم بعد أبيه حتى عام ١٢١٥ فخلعه أخوه محمود ووضعه فى السجن، ولكن أخاهم الثالث شجاع الملك أعلن نفسه ملكًا فى بيشاور واستطاع أن يحتل كابل، ويخلع أخاه محمود، ويخرج أخاه زمان شاه من السجن وقد عمي.. ثم استطاع محمود أن يعود للملك مرة أخرى عام ١٢٢٤هـ ثم قتل محمود أخًا له يدعى فتح خان ، فقام أخ لهم آخر يدعى دوست محمد بمحاربة محمود، والثأر لأخيه واستطاع دخول كابل، واستغل أعداء الأفغان الفرصة، فاحتل الفرس هراه واحتل السيخ الإمارات الهندية، واستنجد شجاع الملك بالإنكليز، فساروا بقوة ودخلوا كابل وأعادوا شجاع الملك إلى الحكم ١٢٥٥هـ، واستسلم دوست محمد للإنكليز فنفوه إلى البنغال.

وفى أثناء انسحاب الجيش الإنكليزى هجم الأفغان عليه بقيادة محمد زائى ومعه أكبر خان بن دوست محمد، وكاد الجيش الإنكليزى أن يباد وقتل شجاع الملك فى الحرب، واضطر الإنكليز أن يعيدوا دوست محمد للحكم.

دوست محمد خان:

حاول تهدئة الأوضاع الداخلية بإعادة إخوته وأبنائه للإمارات وكذلك الأوضاع الخارجية بعقد معاهدة صداقة مع إنكلترا والصلح مع الروس، ولكن نقم الإنكليز عليه لعدم مساعدتهم فى الثورات التى قامت ضدهم فى الهند، وحاول الإنكليز غزو بلاد الأفغان، ولكنهم وجدوا مقاومة عنيفة جعلتهم يفشلون فى دخولها وتوفى دوست محمد عام ١٢٨٠هـ وتسلم بعده ابنه شير على

شير على و الاحتلال الإنكليزى لأفغانستان:

زادت تدخلات إنكلترا فى شئون الأفغان بعدة ذرائع، منها صد هجمات القبائل الأفغانية عن الهند، ومرة بالوقوف فى وجه الامتداد الروسى، ولذلك اضطر شير على أن يستعين بالروس ضد الإنكليز، فرحب بالوفد الروسى ورفض الوفد الإنكليزى، فانقضت إنكلترا على أفغانستان واحتلتها عام ١٢٩٥هـ وتوفى شير على فى العام التالي.

يعقوب بن شير على:

تولى بعد أبيه الحكم تحت الاحتلال الإنكليزى وكان مسايرًا للاحتلال فرفضه الأفغانيون، واضطر أن يتنازل عن الحكم بعد ٣ أعوام من توليه، لأن رجاله هاجموا الوزير الإنكليزى فى كابل وقطعوه إربًا واشتدت المقاومة الأفغانية للاحتلال الإنكليزى، حتى اضطرت إنكلترا للانسحاب من أفغانستان وعقدت اتفاقية تستقل بمقتضاها أفغانستان، مع استمرار تحكم الانكليز فى سياستها الخارجية.

عبد الرحمن:

تسلم الحكم بعد خروج الإنكليز وهو ابن أفضل بن دوست محمد وحاولت روسيا دخول مدينة هراة عام ١٣٠٢هـ فأسرعت إنكلترا لوقفها، وعقدت بين

الروس والإنكليز معاهدة بطرسبرغ التى بمقتضاها تكتفى روسيا بما احتلته من إقليم خراسان (جمهورية تركمانستان)، وعدم التقدم فى أفغانستان، ولكن روسيا عادت للتدخل فى أفغانستان، وحاولت ضم باداخشان فعقدت إنكلترا وروسيا معاهدة عام ١٣١٣هـ اعترفت فيها روسيا أن باداخشان جزء من بلاد الأفغان، ورسمت الحدود بين مناطق السيطرة الروسية وأفغانستان، وحاول أيوب بن عم على، الذى فر إلى إيران وجمع رجاله وغزا بلاد الأفغان، واحتل قندهار إلا أن عبد الرحمن أجبره على الانسحاب والرجوع إلى إيران، وكذلك حاول إسحاق خان ابن عم عبد الرحمن الذى تولى المناطق الشمالية أن يحتل كابول، ولكن عبد الرحمن استطاع أن يهزمه واضطر للفرار إلى سمرقند فى حماية الروس وتوفى عبد الرحمن عام ١٣١٩هـ.

حبيب الله خان:

تولى الحكم بعد موت أبيه عبد الرحمن وزاد فى عهده النفوذ الإنكليزى، واضطرت روسيا وإنكلترا أن يبرما معاهدة يعترفان فيها باستقلال أفغانستان، وحاول العثمانيون استقطاب حبيب الله فى الحرب العالمية الأولى، ولكنه كان يؤيد الإنكليز فنقم عليه الأفغانيون وقتلوه عام ١٣٣٨هـ

أمان الله خان:

هو ابن حبيب الله خان، تسلم السلطة بعد موت أبيه وتلقب باسم ملك، وفى عهده حارب الأفغان الإنكليز بقيادة محمد نادر شاه، وانتصر الأفغان وطردوا الإنكليز من كل المناطق التى يحتلونها، وأبرموا مع الإنكليز معاهدة تعترف فيها باستقلال أفغانستان، وشعر أن الأمر قد استتب له، فركن إلى الترف واللهو وأعجب بالحضارة الأوروبية، فسار يقلدها رغم ما تحمله من مخالفات للإسلام، وانصرف إلى رحلة طويلة فى أوروبا، وأبعد عن البلاد محمد نادر شاه بتعيينه سفيرًا لأفغانستان فى

باريس، وأعجب بالسفور فطبقه على أهل بيته، وظهرت نساؤه سافرات متبرجات، فى رحلته الأوروبية فنقم عليه الشعب، فما زاده ذلك إلا إصرارًا، وأصدر أمرا بخلع الزى الأفغانى وجعل الزى الأوروبى زيًا عامًا فاشتد غضب الشعب فاستغل أحد الوصوليين هذه الظروف، وهو باجى السقاوجمع حوله أهل المصالح وقطاع الطرق واستطاع أن يسيطر على كابول وأن يجبر أمان الله على التنازل عن الحكم لأخيه عناية الله وسافر أمان الله إلى بريطانيا ليكمل لهوه وترفه.

عناية الله:

اشتد فى عهده خطر باجى السقا، الذى أعلن نفسه ملكًا على أفغانستان باسم حبيب الله غازى، وعمت الفوضى البلاد، وفشل عناية الله فى السيطرة عليها، وتدخل محمد نادر شاه وخاصة أنه من الأسرة الحاكمة، والتف حوله الشعب نظرًا لبلائه الحسن فى القتال ضد الإنكليز، ورفعوه على عرش أفغانستان عام ١٣٤٨هـ.

محمد نادر خان:

بمجرد وصوله إلى الحكم ألقى القبض على باجى السقا، وأعدمه شنقًا ومضى فى إصلاح البلاد مما أصابها فقضى على الرشوة والفساد، وعفا من إدارة البلاد الذين عرفوا بفسادهم، ولكنه قتل على يد أحد أبناء الذين شملهم الإعفاء، عام ١٣٥٢هـ وتسلم بعده ابنه محمد ظاهر شاه.

محمد ظاهر شاه:

عندما تسلم الحكم كان يبلغ من العمر ١٩ عامًا، ولكن رجال أبيه أعانوه فى شئون الحكم فسارت البلاد بشكل طيب لمدة ١٥ عامًا، ثم بدأ يشعر بذاتيته فأبعد من كان حوله وبدأ ينحرف عن الطريق الصحيح وأصدر منشورًا ملكيًا عام ١٣٧٩هـ يبيح للنساء الخروج سافرات فاستجابت الأسر التى تحب التقليد

الأعمى لأوروبا، وخلع نساؤها الحجاب وزاد الانفتاح على الدول النصرانية فى البلاد، وسمح للروس بزيادة نفوذهم فى أفغانستان، وأخذوا يبحثون عن مؤيدين لهم فيها فوجدوا ضالتهم فى رئيس الوزراء محمد داود، وفى نفس الوقت زوج أخت الشاه، فأحس الشاه بميول محمد داود فأعفاه من منصبه، فأخذ محمد داود يعمل فى الخفاء للقضاء على النظام الحاكم فى أفغانستان، وبدأ الشيوعيون يظهرون فى البلاد وقويت شوكتهم، وفيما يبدو أن المعسكرين الشرقى والغربى قد قسموا العالم إلى مناطق نفوذ بينهما، وكانت أفغانستان من نصيب الروس فأطلقوا لهم العنان فى مد النفوذ فيها، وفى نفس الوقت بدأ الوعى الإسلامى بالخطر المحيط من قبل الروس، وزيادة خبرائهم فى البلاد.

وحدثت مصادمات بين المسلمين والشيوعيين، انتهت أغلبها بنصر المسلمين برغم تفوق الشيوعيين فى الإمكانيات الحربية ودعم الروس والصينيين.

الحكم الشيوعي:

محمد داود:

استطاع محمد داود بتنسيق بين الروس والشيوعيين أن يقوم بانقلاب عسكرى فى عام ١٣٩٣هـ والشاه فى إيطاليا، وتمكن محمد داود من البلاد، وألغى الملكية وأعلن الجمهورية ونصب نفسه رئيسًا لها وأخذ يضيق الخناق على الحركات الإسلامية.

ما لبث أن توترت العلاقات بينه وبين الشيوعيين، لأنه كان يعتبر أنه بوصوله للحكم استتب له الأمر، بينما الروس يعتبرونه مرحلة من مراحل دخول الشيوعية تمهيدًا لترسيخها فى البلاد، فكثرت الاغتيالات وذلك لإثارة الفوضى فى البلاد والإشارة إلى عدم استقلالها، فأحس محمد داود بالخطر المحيط به فأسرع بالقبض على زعماء الشيوعية فى البلاد ومنهم نور محمد تراقي، وحفيظ

الله أمين، وبابرك كارمل ولكنه قبل أن يجهز على من تبقى حدث انقلاب ضده عام ١٣٩٨هـ بقياد محمد غلاب أحد قادة حزب خلق الشيوعى، ومعه العميد الشيوعى عبد القادر الذى قاد الانقلاب السابق ضد محمد ظاهر شاه، والآن يقوده ضد حليفه محمد داود وسمى هذا الانقلاب بثورة ساور (أى ثورة نيسان)، وأخرج من السجن الزعماء الشيوعيين وعين نور محمد تراقى زعيم حزب خلق الشيوعى رئيسًا للجمهورية.

نور محمد تراقي:

ما إن تسلم السلطة حتى سفك الدماء وأزهق الأرواح فى البلاد وأظهر الشيوعية فى أبهى صورها، وقتل فى يوم واحد ١٥٠٠٠، وجيء بمحمد داود وقتل أمامه أبناؤه الـ ٢٩، ثم أجهز عليه هو وباقى أفراد أسرته، وأقام القتل فى زعماء المسلمين وعامتهم، والتفت لحزب برشام الشيوعى المنافس، فأبعد قادته من البلاد بتعيين زعمائه سفراء فى الخارج، ومن أمثلتهم بابرك كارمل الذى عين سفيرا فى تشيكوسلوفاكيا.

بدأ خطر هؤلاء الزعماء الخارجى فى الظهور، فقد بينوا الحالة التى تحياها البلاد وخاصة أن حزب برشام يرى الارتباط بموسكو مباشرة والمناداة بالشيوعية العالمية، بينما يرى حزب خلق الحاكم أن العمل بالشيوعية يكون فى نطاق الدائرة المحلية فقط، فقام نور محمد تراقى بعزل السفراء المعينين فى الخارج، ولكنهم لم يعودوا إلى أفغانستان لما يتوقعونه من فتك ينتظرهم، ثم اتجه نور محمد تراقى إلى موسكو، وأبرم معاهدة مع الروس يفتح بها أبواب البلاد للجيش الروسى بحجة حماية نظامه ضد المعارضة والمقاومة الداخلية، وبدأ يظهر الحزب الإسلامى بقيادة قلب الدين حكمتيار عام ١٣٩٩هـ وحدثت انتفاضة فى معسكرات هراة، وتمرد العسكر فى الجيش، فأرسل الروس إلى أفغانستان أول

وحدة هجومية فى رمضان عام ١٣٩٩هـ ووقع الخلاف بين رئيس الجمهورية ورئيس وزرائه حفيظ الله أمين، ودعا الروس نور محمد تراقى للاستعانة ببابرك كارمل، ولكن نور محمد تراقى اعتذر بحجة أن رئيس الوزراء لا يطيق بابرك، فدبر الروس محاولة لاغتيال حفيظ الله أمين بتأييد رئيس الجمهورية، ولكنها فشلت واستطاع حفيظ الله أمين أن يسيطر على البلاد، ويعتقل نور محمد تراقى وينصب نفسه رئيسًا للجمهورية فى أواخر عام ١٣٩٩هـ.

حفيظ الله أمين:

حاول حفيظ الله أمين أن يهدئ الأوضاع فى البلاد ويحسن العلاقات مع دول الجوار، ولكن روسيا كانت تريد رئيسًا خاضعًا خضوعًا كاملاً لموسكو لا جزئيًا، فأخذت تثير الفوضى فى البلاد ووقعت مصادمات بين الجيش الأفغانى والروس الموجودين فى البلاد، ودعم الروس حزب برشام الذى يعيش رئيسه بابرك كارمل فى تشيكوسلوفاكيا كلاجئ سياسى أى خاضعًا للروس، وأعد الروس عدتهم للإطاحة بحفيظ الله أمين وتنصيب عميلهم بابرك كارمل، فدعموا وزير الدفاع محمد أسلم، الذى قام بالهجوم على القصر الجمهورى عام ١٤٠٠هـ واعتقل رئيس الجمهورية حفيظ الله أمين وأعدمه فى اليوم التالى ونصب بابرك كارمل رئيسًا لأفغانستان وهو بخارج البلاد.

بابرك كارمل:

ما إن وصل بابرك إلى كابول حتى تدفق الروس على البلاد وسيطروا على كابول وأرسلوا قواتهم للسيطرة على بقية الأقاليم، وأصدرت الأمم المتحدة قرارها بانسحاب الروس من أفغانستان، وأعلن وزراء خارجية الدول الإسلامية فى إسلام أباد أن الغزو الروسى يعد مخالفة كبيرة للقانون الدولى، غير أن كل هذه النداءات لا تفيد، فالأمم المتحدة هى أداه تتحكم بها الدول الكبرى فى العالم، وقتل فى عام

١٤٠٠هـ ما يقارب مليون مسلم على يد الروس فى أفغانستان.

المقاومة الإسلامية:

كانت المقاومة الإسلامية للشيوعيين والروس على أشدها فى أفغانستان، فأهل أفغانستان يشتهرون منذ زمن بعيد بتمسكهم الشديد وتحمسهم للإسلام، فأخذوا يقاومون أعداء الإسلام، وألحقوا بهم خسائر فادحة برغم تقدم الأسلحة الروسية، ولكن من عيوب المقاومة انقسام رجالها إلى عدة جمعيات، كثيرًا ما حدثت بينها خلافات أدت للتناحر بينها.

من أشهر الجمعيات التى حدث بينها تصادم الجمعية الإسلامية بقيادة برهان الدين ربانى والحزب الإسلامى بقيادة قلب الدين حكمتيار، وبرغم ذلك لقن المجاهدون الأفغان الروس والشيوعيين دروسًا فى القتال لن ينسوها، ووجدت روسيا نفسها فى مستنقع تفقد فيه يوميًا العديد من فلذات أكبادها وتخسر المليارات من الأموال، واستطاعت هذه الحفنة الصغيرة من المجاهدين، التى اعتقد الروس أنهم سيسحقونها، أن تذيق الروس الأمرين وخاصة أنهم أهل البلاد الأكثر دراية بالقتال.

فاضطر الروس عام ١٤٠٨هـ لتوقيع اتفاق يقضى بانسحابهم من أفغانستان بعد الخسائر الفادحة التى تكبدوها فى هذه الحرب لينقذوا ما يمكن إنقاذه، ولا يمكن وصف العناء الشديد الذى تحمله الشعب الأفغانى من قتل وتشريد ولاجئين فى باكستان وغيرها من الدول الإسلامية، ولم يترك الروس البلاد إلا وعملاؤهم الشيوعيون يسيطرون على الحكومة الأفغانية، وكان آخرهم نجيب الله محمد ولم يهدأ المجاهدون وحاولوا القيام بانقلاب عسكرى ضد الحكم الشيوعى، ولكن الروس عاونوا الشيوعيين فى إخماده، وواصل المجاهدون جهادهم ضد الشيوعيين، وشكلوا وزارة مؤقتة مرتين ولكنهم سرعان ما

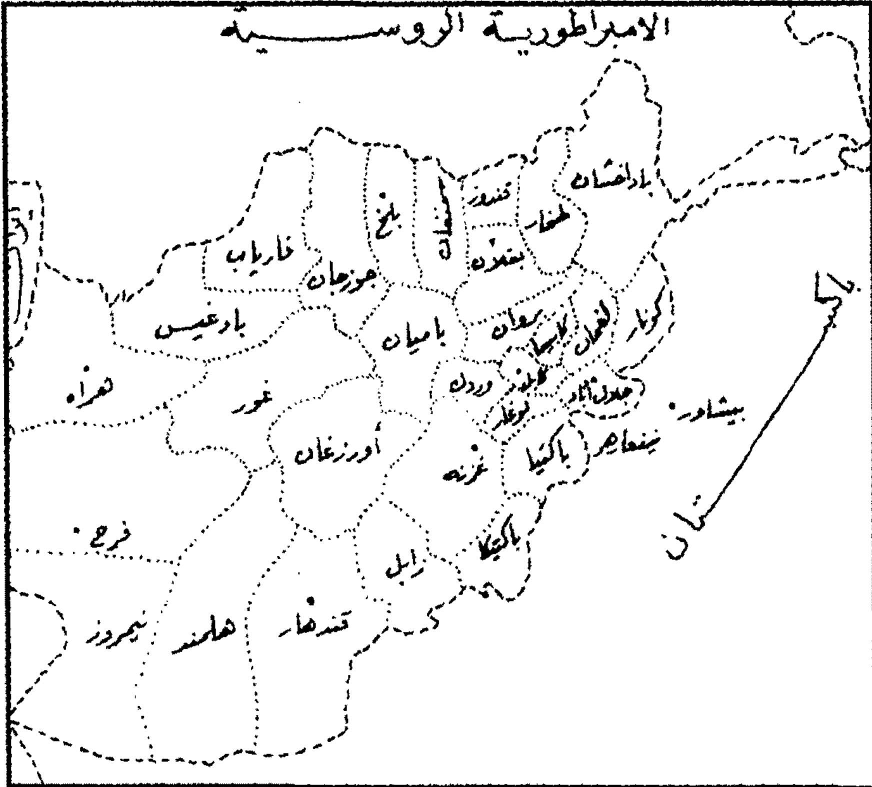
اختلفوا، وفى نفس الوقت وجد النظام الشيوعى نفسه عاجزا عن المقاومة، فاستقال الرئيس نجيب الله محمد عام ١٤١٢هـ من منصبه وتهيأ الوضع للمجاهدين فى السيطرة على البلاد، ولكن استمرت المصادمات بينهم وبعد أن كانوا بالأمس يضربون أروع الأمثال فى الكفاح والجهاد ضد أعداء الإسلام زاد البأس بينهم، وانقسمت أفغانستان لعدة مناطق متناحرة وأخذ أعداء الإسلام يمدونهم بالأسلحة لإضرام نيران الفتنة والشقاق بينهم.

حركة طالبان:

ظهرت فى عام ١٤١٥هـ تدعمها باكستان واستطاعت السيطرة على أكثر أجزاء أفغانستان حتى دخلت كابول عام ١٤١٥هـ واستطاعت أن تسيطر على أكثر من ٧٥٪ من مساحة البلاد، وتحالفت ضدها الفصائل الأفغانية الأخرى بدعم من الروس وإيران والدول المجاورة الأخرى باستثناء باكستان، حيث خافت هذه الدول من امتداد مفاهيم الحركة إليها.

وكادت طالبان أن تقضى على المعارضة لولا المساعدات الخارجية التى أنقذتها، واستطاع أحمد شاه مسعود أن يستعيد مدينة مزار شريف (كبرى مدن المعارضة) بعد أن دخلتها قوات طالبان، وظلت نبرة المعارضة تعلو تارة وتنخفض تارة أخرى، كما انهارت العلاقات الدولية بين أفغانستان والمجتمع الدولي إبان حكم طالبان بزعامة الملا محمد عمر.

وبعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ الشهيرة، التي حدث فيها اعتداء على الولايات المتحدة الأمريكية، أشارت أصابع الاتهام إلى تنظيم القاعدة، الذي يتخذ زعيمه أسامة بن لادن من أفغانستان مقرًا له، وبالفعل هاجمت أمريكا أفغانستان واجتاحتها وفر ابن لادن والملا محمد عمر إلى مكان مجهول وقضى الأمريكان على حركة طالبان ونصبت حامد كرزاي رئيسًا لأفغانستان.



خريطة مقطعات أفغانستان

الفصل الخامس
المغـــول فى الهنــــد

سيكون مجال دراستنا فى هذا الفصل هو منطقة شبه القارة الهندية، والتى تمثل الآن عدة دول هى الهند وباكستان وبنجلاديش ونيبال وبوتان وسريلانكا والمالديف.

وصل الإسلام إلى الهند عن طريق التجارة والدعوة والفتح، فمنذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب كانت محاولات فتح الهند على نطاق ضيق، وبدأت تأخذ شكلها الجلى فى عهد الأمويين عندما أرسل الحجاج بن يوسف الثقفى عدة حملات لفتح الهند، فنجحت إحداها بقيادة محمد بن القاسم فى فتح بلاد السند (جزء من باكستان اليوم) عام ٩٢هـ واستمرت الحروب بين المسلمين والهنود حيث كان ملوك الهند وحكام مقاطعاتها والبراهمة (ذوو النفوذ الكبير فى المجتمع الهندى حيث كانوا يعتبرون أعلى طبقة فى المجتمع لدرجة ألحقتهم بالآلهة فمنحوا نفوذًا وامتيازات كبيرة فى المجتمع الهندي)يحثون الطبقات الدنيا من الشعب الهندى لقتال المسلمين ودعاتهم خوفًا على مراكزهم ونفوذهم فى المجتمع مما قلل من انتشار الإسلام فى الهند.

وفى عهد الدولة العباسية تمكن هشام بن عمرو التغلبى والى السند من فتح الملتان وكشمير.

ثم بضعف الدولة العباسية وتفكك أجزائها تكونت عدة إمارات فى السند منها إمارة المنصورة وإمارة الملتان وإمارة إسماعيلية حتى جاء الغزنويون.

الغزنويون:

ورث الغزنويون الدولة السامانية وتسموا بالغزنويين نسبة إلى مدينة غزنة، التى

اتخذوها عاصمة لدولتهم ومؤسسها هو سُبُكْتكين الذى حارب البنجاب وانتصر عليهم، ثم جاء ابنه محمود بن سبكتكين، وكان كثير الجهاد فى سبيل الله وغزا فى بلاد الهند سبع عشرة مرة، واستطاع أن يوحد أجزاء السند تحت إمرته ثم فتح قنوج وكوجرات، وهدم فيها معبد سومنات، الذى يعتبره الهنود مكان تناسخ الأرواح حسب معتقداتهم، وانتشر الإسلام فى أكثر الأجزاء التى فتحها محمود فى الهند.. وتوفى محمود عام ٤٢١هـ وجاء ابنه مسعود ففتح مدينة بنارس على نهر الغانج وانتهى حكم الغزنويين عام ٥٥٥هـ وتولى بعدهم الغوريون الحكم.

الغوريون:

استطاع شهاب الدين الغورى أن يسيطر على أجزاء الدولة الغزنوية، ثم أخذ يتوغل فى بلاد الهند، وتمكن مملوكه قطب الدين أيبك من السيطرة على دهلى وانفرد بما تحت يديه، واتخذ دهلى عاصمة له وعين له نائبا على ما وراء نهر الغانج وهو محمد بن بختيار الخلجى الذى استطاع أن يفتح بيهار والبنغال واستقل بما لديه واتخذ لانغبور عاصمة له.

قطب الدين أيبك:

اعتقل شهاب الدين الغورى مملوكه قطب الدين أيبك ثم أعتقه، ومات شهاب الدين، فكون قطب الدين دولة له واتخذ لاهور عاصمة لها.

ايلتمش:

لما مات قطب الدين أيبك استقل مملوكه شمس الدين ايلتمش بدهلى، وأسس أسرة حاكمة فيها انتهت عام ٦٦٤هـ.

بلبن:

عندما مات ناصر الدين محمود بن ايلتمش تولى الحكم نائبه على دهلى غياث الدين بلبن، فانفرد بالسلطة وكون أسرة حكمت حتى عام ٦٨٩هـ.

دولة الخلجيين:

برز جلال الدين فيروز الخلجى نائب معز الدين كيقباد آخر ملوك دولة بلبن، فخرج على معز الدين وخلعه وقتله وتولى السلطة وأسس الدولة الخلجية.

جهز علاء الدين ابن أخى جلال الدين جيشًا التقى بعمه وقتله وتولى مكانه عام ٦٩٦هـ وحارب التتار وانتصر عليهم وردهم عن دهلى، ودخل كوجرات وفتح فى عام ٧٠٣هـ بلاد الدكن فى الهند، ووصل إلى أقصى جنوب الهند ودخل كيرالا، وبموت علاء الدين تولى ابنه الصغير شهاب الدين الحكم، فكانت السلطة بيد نائب أبيه على دهلى، فسجن إخوة شهاب الدين الثلاثة وأعمى أعينهم واكتفى بحبس أخيهم الرابع (قطب الدين مبارك) فحزنت أمهم لذلك حزنًا شديدًا ودبرت لقتل نائب علاء الدين حتى قتل فتسلم الحكم مبارك وسجن أخاه شهاب الدين مع إخوته ثم أرسل جيوشه إلى غربى الدكن وكيرالا وأجزاء أخرى من الهند.

ثم اتفق الأمراء على خلع قطب الدين مبارك وتولية ابن أخيه خضر الذى كان غلامًا صغيرًا، فخاف قطب الدين على ملكه فقتل إخوته الأربعة وابن أخيه خضر، أحس ناصر الدين خسرو خان كبير أمراء قطب الدين بالخطر القادم من سيده، فقتله وتسلم الحكم مكانه ولكن المسلمين كرهوه لميله للهنود، فجاء أمير السند غياث الدين بقوة ودخل دهلى وتسلم الحكم بينما فر ناصر الدين خسرو.

آل تغلق:

يعتبر غياث الدين تغلق هو مؤسس أسرة تغلق، التى حكمت الهند قرابة قرن من الزمان منذ عام ٧٢٠هـ، وتولى بعده ابنه جونه الذى تسمى بمحمد، وتلقب

بأبى المجاهد فكان يقتل تارك الصلاة، وتمكن من فتح كيرالا وأرسل قوة إلى الصين ولكنها هلكت فى جبال الهيمالايا، ولما مات تولى ابن عمه فيروز شاه الذى كان من العابدين، فأنشا المدارس وبنى المساجد والمستشفيات، وأقام الحصون، وبعد موته عمت الفوضى فى البلاد، وتنازع الأمراء على الحكم، ثم تولى الحكم عدة ملوك حتى دخل تيمورلنك دهلى عام ٨٠١هـ، ثم خرج منها فرجع إليها محمود شاه آخر ملوك آل تغلق، ثم مات عام ٨١٥هـ وبموته انتهى حكم آل تغلق وكان دخول تيمورلنك الهند السبب الرئيسى فى تفكك الدولة الهندية المسلمة واستقلال كل إمارة بذاتها.

آل خضر:

خضر هو أحد رجال تيمورلنك وقد بقى بدهلى حتى بعد خروج تيمورلنك واستطاع أن ينفرد بالسلطة بعد موت محمود شاه، وحكمت أسرته حتى عام ٨٥٥ حيث خرج بهلول اللودى على علاء الدين آخر ملوك آل خضر وتمكن من الانتصار عليه وأسس الأسرة اللودية.

اللوديون:

أسسها بهلول اللودى الأفغانى وحكمت فى دهلى من عام ٨٥٥هـ حتى ٩٣٢هـ وفى نفس الوقت كانت هناك عدة إمارات فى الهند مستقلة بذاتها الغالبية العظمى منها يحكمها المسلمون، والقليل جدًا يحكمها هندوك مثل إمارة فيا يانكر فى أقصى غربى جنوب الهند وكانت تقاتل الإمارات المسلمة.

الحكم المغولى (التيموريون)

محمد بابر شاه:

تمكن إبراهيم الثانى آخر ملوك اللوديين من السيطرة على الحكم فى دهلى،

فاتصلوا بظهير الدين محمد بابر حاكم غزنة فى بلاد الأفغان، الذى أقبل بجيشه إلى الهند، واستطاع أن ينتصر على إبراهيم الثانى فى موقعة بانى بت عام ٩٣٢هـ واتخذ من مدينة أغرة مقرًا له فى الهند، ثم اجتمع بقية أمراء اللوديين وتعاون معهم الراجبوت الذين يمثلون أكبر قوة فى وسط الهند، وكونوا حلفا ضد ظهير الدين فأعلن ظهير الدين الجهاد ضد الكفرة والراجبوت ومن يؤازرهم، فالتقى الجمعان فى موقعة خانوه عام ٩٣٣هـ وانتصر ظهير الدين وأعلن بعدها التسامح الدينى فى الهند ليسيطر على الحكم، وتوفى عام ٩٣٧ وتولى بعده ابنه همايون.

همايون:

وفى عهده تفتتت الدولة المغولية واستقلت الكثير من الإمارات وازداد الخطر الصليبي، فقد وصل البرتغال إلى سواحل الهند، وأقاموا بعض المراكز لهم منذ عام ٩١٤هـ واستنجد حاكم كوجرات المستقلة بالخليفة العثمانى سليمان القانونى لإبعاد البرتغاليين عن سواحله، فأرسل الخليفة أسطولاً كبيرًا أنزل بالبرتغاليين هزائم منكرة، ثم تعاهد حاكم الكوجرات مع البرتغاليين على بناء قلعة لهم فى ديو عام ٩٤٢هـ، ثم عاد فنقض معهم العهد ودخل معهم الحرب فانتصر البرتغاليون واحتلوا ديو عام ٩٤٣هـ، فسارع الخليفة سليمان العثمانى بإرسال الأسطول العثمانى إلى الهند، فحاصر ديو ولكن حاكم كوجرات ظن أن العثمانيين يريدون ضم كوجرات فمنع عنهم المؤن، فاضطر الأسطول العثمانى أن يغادر سواحل كوجرات، وتمكن همايون من ضم أكثر بلاد الأفغان لملكه ودخل كابل.

محمود جلال الدين (أكبر شاه):

وفى عهده بلغت الدولة أقصى اتساع لها فقد ضم معظم الهند بالإضافة إلى

بلاد الأفغان، وفى عام ٩٨٦هـ اتخذ فكرة غريبة ظنًا منه أنها ستقوى نفوذه فى الهند، وهى إيجاد دين يجمع بين الإسلام والبراهمية والبوذية والزرادشتية وغيرها، وحرم ذبح الأبقار وأباح الزواج من المشركات بل وأباح للمشركين الزواج من المسلمات، وجعل مدينة فتح بور مقرًا للعقيدة المخترعة، وفى عهده تأسست فرقة السيخ ذات الفكر الغريب، ويعتبر غور هو مؤسسها حيث يدعى أتباعه أنه ذهب إلى مكة وحج للبيت وقرأ القرآن وعرف أنه إله، وأعطاه الملك أكبر شاه قطعة أرض بنى عليها مدينة أمريستار، ويصل عددهم الآن فى الهند إلى ١٠ ملايين يتركزون فى البنجاب.

ثم تولى من بعده عدة حكام من أشهرهم محى الدين محمد أورنكزيب الذى ضم إلى ملكه بخارى وخوارزم وبيجابور وأبطل ما ابتدعه أكبر شاه ودون الفقه، ثم جاء ابنه قطب الدين محمد معظم بهادور فاعتنق المذهب الشيعي، وبدأت الدولة فى عهده فى الضعف، وقوى أمر السيخ والمهراتا، وتوالى الحكام وازداد الضعف وبدأت الإمارات الهندية تستقل، فاستقل السيخ بالبنجاب، واستقل المهراتا بالكوجرات، واستقلت الدكن، وبدأ النفوذ الإنكليزى يدخل الهند حتى انتهت الدولة المغولية بآخر حكامها بهادور حيث أسقط الإنكليز الدولة المغولية عام ١٢٧٣هـ ونفوا بهادور خارج الهند.

الاستعمار الأوروبى للهند:

البرتغاليون:

كانوا أول الأوروبيين وصولاً إلى الهند، فقد وصل فاسكودى غاما إلى الهند عام ٩٠٤هـ، فطمع فى البلاد فعاد فاستأذن دولته فى احتلال الهند، فأرسلت الأساطيل لاحتلال الهند، واستطاع البرتغاليون الاحتفاظ فقط ببعض المواقع الساحلية، ولم يستطيعوا التوغل للداخل لكثرة السكان وقلة عدد البرتغاليين،

وكان الأمراء المسلمون فى الهند يستعينون فى البداية بالمماليك، ولكن البرتغاليين انتصروا عليهم ثم استعان الأمراء المسلمون فى الهند بالعثمانيين، فأعانوهم وانتصروا على البرتغاليين، ولكن خشى بعض الأمراء أن يضم العثمانيون ممالكهم إليهم فمنعوا عنهم المؤن فغادر العثمانيون الهند، واحتفظ البرتغاليون ببعض المراكز الساحلية فى الهند مثل: دامان شمال بومباى، وجزيرة ديو، وغوا بالإضافة إلى جزر المالديف وجزيرة سيلان (سريلانكا) التى احتلها البرتغاليون، وارتكبوا فيها الفظائع، وأبشع الجرائم ضد المسلمين منها مذبحة ماتار فى سريلانكا عام ١٠٥٣هـ، ومارسوا الاضطهاد الدائم للمسلمين، واستطاع البرتغاليون أن يسيطروا على التجارة فى المحيط الهندى ما يزيد على قرن.

الهولنديون:

عندما استقل الهولنديون عن الإسبان وتحطم الأسطول الإسبانى عام ٩٩٨هـ على يد الإنكليز، لم تكتف هولندا بالاستقلال عن الإسبان بل سعت للحصول على أكبر قدر ممكن من المستعمرات، ومنها جزر المالديف وجزيرة سريلانكا، وغيرهما فى المحيط الهادى، وبدأ الهولنديون فى رفع أسعار التوابل لسيطرتهم على الكثير من طرق التجارة فى المحيط الهادى، مما شجع الإنكليز على الدخول فى المنافسة معهم.

الإنكليز:

عندما رفعت هولندا أسعار التوابل عمل الإنكليز على التجارة مباشرة مع المشرق، فعملوا على إنشاء شركات تجارية لهم فى بلاد المشرق، واتخذت عدة أسماء حتى اتحدت معًا وتسمت باسم (شركة الهند الشرقية) وكانت مراكزها فى البداية فى جزر الهند الشرقية (إندونيسيا وماليزيا) وغيرهما لأن البرتغاليين

والهولنديين منعوا انكلترا من دخول الهند، فدخلت معهم فى حرب، حتى تمكنت من النزول على بر الهند، وكانت أول المدن التى نزلتها هى مدراس، ثم توغلوا فى الهند حتى دانت لهم كلها إلى أن استقلت عنهم.

الفرنسيون:

اتبعوا نفس سياسة الإنكليز فى إنشاء شركات تجارية فرنسية فى الهند، وكانت الشركات الأجنبية كلها تحرص على شراء أراض لها، وبناء حصون لها لدعم مركزها فى الهند، وتمهيدًا لاحتلال البلاد، وكان للفرنسيين بعض المراكز فى الهند منها مونديشيرى وعندر ونياوان وكاريكال.

الاحتلال الإنكليزى للهند:

بدأت (شركة الهند الشرقية) الإنكليزية فى شراء الأراضى فى الهند وبناء الحصون، وأخذت تتوغل فى الهند، وفى البداية كانت تنقل المواد الخام إلى أوروبا من الهند، ثم بحدوث الثورة الصناعية فى أوروبا أخذت تنقل المواد المصنعة من أوروبا إلى الهند، وفى نفس الوقت كانت الشركات الإنكليزية تحصل على ضرائب من السفن التى تمر فى الطرق التى تسيطر عليها، حيث كان للشركة الإنكليزية أسطول يحميها، فتحولت الشركة البريطانية من ملكية الأفراد لها إلى ملكية بريطانية لها، بعد أن تملكت بريطانيا أملاك شركة الهند الشرقية أخذت تغزو الإمارات الهندية وتضم الواحدة تلو الأخرى، ورأى الإنكليز أن المسلمين هم العقبة الأساسية فى توغلهم فى الهند، فأخذوا يستميلون الهنادك وخاصة أن الهنادك يحقدون على المسلمين؛ لأنهم هم الحكام، وفى نفس الوقت كان العداء الصليبى المستفحل من الإنكليز يدفعهم لفعل أى شيء ضد المسلمين، فأخذ الإنكليز يعينون الهنادك والسيخ والمهراتا على المسلمين حتى تمكن لهم فى الهند.

سقوط الدولة المغولية فى الهند:

كانت إنكلترا إذا احتلت جزءًا من الهند عملت على تقريب الهنادك واضطهاد المسلمين، وكانت الحامية البريطانية فى الهند تتضمن هنودًا سواء من المسلمين أو الهنادك، وذلك للحصول على مصدر يرزقون منه، حيث عم الفقر فى البلاد بعد سيطرة الإنكليز على كل مواردها، وفى مرة من المرات أمر الإنكليز جنودهم باستخدام الشحم المأخوذ من الخنزير لكى يصونوا بنادقهم، فثار المسلمون على هذا الأمر ورفضوه، وخاصة أنه يمس عقيدتهم، فقضى الإنكليز على الثائرين من المسلمين، فتألم إخوانهم لذلك وهجموا على الضباط الإنكليز، وقتلوا أحدهم ثم فروا إلى دهلى عند الملك بهادور آخر ملوك المغول، واشتعلت الثورة فى أكثر بلاد الهند، فسار الإنكليز بقوة كبيرة إلى دهلى وحاصروها، ثم استطاعوا دخولها لتفوق أسلحتهم وقبضوا على الملك بهادور وقتلوا أبناءه أمامه، بل وطبخوا له طعامًا من لحومهم، ونفوه إلى رانغون عاصمة بورما، وألغى الإنكليز الحكم المغولى فى الهند، وأعلنت فرض سيطرتها الكاملة على كافة أجزاء الهند، وأخذوا ينكلون بالمسلمين فهدموا الكثير من المساجد وصادروا أملاكهم، وحولوا بعض المساجد إلى ثكنات عسكرية، ورحب الهنادك بهذه الأفاعيل وأخذوا يشاركون الإنكليز فى أفاعيلهم الوحشية.

ولم يكتف الإنكليز بذلك بل عملوا على فتح المدارس للهنادك وتحضيرهم، فى حين أن المسلمين كان الكثير منهم يرفض الالتحاق بهذه المدارس؛ لأنها تبث كره الإسلام والمسلمين، وتعمل على نشر النصرانية، فعم الجهل والفقر بالمسلمين بعد أن كانوا حكام البلاد، وبرغم ذلك فقد كان هناك بعض الحكام لبعض الولايات من المسلمين والمعينين من قبل الإنكليز، لأن حكمهم للبلاد كان واقعًا وعرفًا معتادًا للهنادك برغم قلة عددهم بالنسبة للهندوك.

وقد حرص الإنكليز على تفتيت المسلمين وهدم الإسلام، وذلك من خلال

تشجيع الفكرة القومية الهندية من جهة، ومن جهة أخرى إنشاء فرق ضالة ذات وجهة إسلامية لتفريق صفوفهم، فعملت على إحياء فكرة العقيدة المشتركة لأكبر شاه، ووجدت ضالتها فى أحد المسلمين ويدعى مرزا غلام أحمد القاديانى ودعمته فى تأسيس مذهب القاديانية الضال و انقسمت فرقته إلى فرقتين: الأحمدية والقاديانية.

ومازال الإنكليز إلى يومنا هذا يدعمون القاديانيين فى كل مكان لمحاربة الإسلام فى كل بقاع الأرض، ورغم ذلك حاول المسلمون مقاومة المستعمرين الإنكليز، وعملوا على تكوين الأحزاب والجمعيات الخاصة بهم، وكان الإنكليز والهنادك يقفون ضدهم دائما.

تفاعل المسلمين فى الهند مع الأحداث فى العالم الإسلامى

وتأثر المسلمون فى الهند مما أصاب العالم الإسلامي، فعندما سقطت الخلافة الإسلامية العثمانية عام ١٣٣٧هـ قامت مظاهرات للمسلمين فى أنحاء الهند تندد بالإنكليز وبالدور الذى قاموا به فى إسقاط الخلافة، ومن قبلها أخذوا يندون باحتلال إيطاليا لليبيا، وكذلك كان للحركة الوهابية أثرها فى الهند، ونددوا بمعاملة الهولنديين الوحشية لشعب إندونيسيا المسلم، ورفضوا تكوين دولة لليهود فى فلسطين وغيرها من المواقف التى تؤكد مؤازرتهم لإخوانهم المسلمين فى شتى بقاع الأرض.

وبرغم كل ذلك فقد كان هناك تباين فى توجهات المسلمين، فبالإضافة إلى اختلاف مذاهبهم من سنة وفرق ضالة مثل الشيعة والإسماعيلية والقاديانية، كانت هناك أراء متباينة فى وضع المسلمين فى الهند، فالبعض يرى التخلص من الاحتلال الإنكليزى للهند والاندماج مع الهندوس فى دولة واحدة، لكى يؤدى ذلك إلى أثر إيجابى فى الدعوة إلى الإسلام فى الهند، والبعض الآخر يرى التخلص من الاستعمار واستقلال المسلمين فى دولة خاصة بهم بعيدًا عن

الهندوس الذين يمتلئون حقدًا وبغضًا للإسلام والمسلمين، وكان صاحب هذه الفكرة هو الشاعر محمد إقبال، وكان من أشهر الأحزاب التى تكونت فى الهند حزب المؤتمر الذى يتزعمه غاندى المتعصب لهندوسيته والذى كان يلين قليلاً للمسلمين حتى يحوز تأييدهم، وحزب الرابطة الإسلامية بقيادة محمد على جناح والذى يرى الانفصال عن الهندوس وتكوين دولة مستقلة للمسلمين فى الهند.

استقلال الهند وتقسيمها :

كان الإنكليز برغم تفضيلهم للهندوس على المسلمين، إلا أنهم كانوا ينكلون بأبناء أى جنس آخر غيرهم فى سبيل حفظ أبنائهم، فقد شكل الهنود الكثير من فرق الجيش الإنكليزى، وعندما قامت الحرب العالمية الثانية وزاد خطر اليابان بعد وصولها لبورما على حدود الهند خاف الإنكليز، ووعدوا الهند بمنحها الاستقلال بعد الحرب، حتى لا يستغل الهنود فرصة الحرب وينقلبوا على الإنكليز، وفى نفس الوقت كان الإنكليز كما ذكرنا يدفعون بالجنود الهنود إلى الهلاك فى الحرب، فعلى سبيل المثال فى معركة العلمين أراد الإنكليز اقتحام حقل للألغام، ولم يكن لديهم عدد كاف من المواشى لتفجيره، فزجوا بكتيبة هندية للقيام بهذه المهمة فهلكت عن آخرها، وهذا ما زاد فى الكره المشترك للمسلمين والهندوس للإنكليز، وفى عام ١٣٦٦هـ قررت بريطانيا منح الهند استقلالها فى نطاق تقسيمها إلى دولتين، إحداهما للهندوس ويطلق عليها الهند والأخرى للمسلمين، والتى أطلق عليها المسلمون باكستان أى أرض الأطهار، وإطلاق الحرية فى كل ولاية هندية للانضمام للهند أو باكستان أو الاستقلال بنفسها برغم معارضة غاندى الشديدة لهذه الفكرة لأنه كان يريد السيطرة على المسلمين تمامًا.

وبالفعل كونت الولايات الشمالية الشرقية فى الهند (البنغال الشرقية وجزء من آسام) والشمالية الغربية (جزء من البنجاب والسند وبلوجستان) دولة

باكستان وعاصمتها كِراتشـــى، والبـاقى للهنـد وعاصـمتها دلهـى ثـم أصـبحت نيودلهى وكل مـن باكسـتان والهنـد يأخـذان نظـام الــدومنيونات أى يكـون مـع استقلالها ارتبـاط مـع التـاج البريطـانى، وخضـوعها لإشـراف الحـاكم العـام البريطاني، وكان تقسيمًا جائرًا على المسلمين فقد قسموا بعـض الولايـات ذات الأغلبية المسلمة مثل البنجاب والبنغال بين المسلمين والهندوس، وأرادت بعـض الولايات الهندية الانضـمام لباكسـتان مثـل جوناكـاد، ودعـا إلى ذلـك حاكمهـا المسلم وكذلك إمارة حيدر أباد بسـبب حاكمهـا المسـلم، ولكـن الهنـد رفضـت ذلك، وأرسلت قوة إلى كل ولاية لاحتلالها وضمها إلى الهند، بينما ولايتا نيبـال وبوتان كانتا فى الأصل مستقلتين عن الإنكليـز، حيـث لم يـدخلوهما، وأهلـهما بوذيون فلم ينضما إلى الهنـد وانضـمت ولايـة سـكيم إلى الهنـد عـام ١٣٩٦هــ واستقلت سرى لانكا عن الهند عام ١٣٦٧هـ وكانت جزر المالديف ذات الأغلبيـة المسلمة تتبعها ثم استقلت جزر المالديف عن سرى لانكا عام ١٣٧٣هـ، وعندما انقسمت الهنـد إلى الهنـد وباكسـتان نكـل الهنـدوس بالمسـلمين فـى الهنـد أشـد التنكيل، فهاجر الكثير منهم إلى باكستان، وكان الهندوس يحرقون القطارات التى تنقل المسلمين إلى باكستان لحقدهم الشديد عليهم.

مشكلة كشمير:

نظرًا لمناعة كشمير الطبيعية من حيث انتشار الجبال الشاهقة فيها، فقد استعصـت على المسلمين فى فتحها حتى جاء رجـل يـدعى شمس الدين شاه مــرزا مـن خراسـان ليخدم ملكها الوثني، فقربه إليه الملك وأقطعه هو وابنه منـاطق كـثيرة بحكمانهـا، ثـم عندما مات الملك تزوج بامرأته التى آل إليها الحكم، وأسلمت وأرادت أن تغـدر بـه، فسجنها وانفـرد بالسـلطة وأسـس أسـرة حكمـت الـبلاد أكثـر مـن قـرنين (٧٤٤ - ٩٧٠هـ)، وفى نهاية عهدهم كان أكبر شاه ملك الهند قد بسـط نفـوذه علـى كشـمير

منذ عام ٩٦٣هـ حتى ١٠١٤هـ ومنذ حكم المسلمون كشمير والإسلام ينتشر بين أهلها، حتى غدت غالبيتهم العظمى مسلمة، وعندما انتهى حكم المغول لكشمير عام ١١٦٤هـ سيطر عليها الأفغان حتى عام ١٢٣٤هـ وازداد فيها انتشار الإسلام ثم جاء الإنكليز فأعانوا السيخ على الأفغان فاحتل السيخ كشمير عام ١٢٣٤ وحتى عام ١٢٦٢هـ وعملوا على اضطهاد المسلمين، ونشروا الظلم فى البلاد وهدموا وحرقوا الكثير من المساجد وحولوا بعضها إلى اصطبلات للخيول، وقام المسلمون بالكثير من الثورات ضد السيخ حتى سيطر الإنكليز على البلاد عام ١٢٦٢هـ فباعوا كشمير لأسرة الدونمرا لمدة ١٠٠ عام بسبعة ونصف مليون روبية وعقدت الاتفاقية فى مدينة أمريستار التى هى منبع الفكر السيخى، وأخذ حكام أسرة الدونمرا يذيقون المسلمين ألوانًا من الظلم والاستعباد والاضطهاد طوال فترة حكمهم للبلاد، من ضرائب باهظة، ومصادرة أراضيهم، وأملاكهم، وحرموا عليهم ذبح الأبقار وكانت عقوبة ذلك الإعدام، ثم خففت للحبس ١٠ سنوات، واضطر الكثير من السكان للهجرة إلى البنجاب للنجاة من الظلم المقام عليهم، وأخذ الإنكليز يساعدون أسرة الدونمرا فى صب القهر والتعذيب على شعب كشمير المسلم، وأخذت الحركات الإسلامية تظهر فى كشمير تدعو للتخلص من هيمنة أسرة الدونمرا، والإنكليز المعادين للإسلام، وجاء وقت الاستقلال للهند عام ١٣٦٦هـ وتقسيمها فأراد الشعب الكشميرى المسلم الانضمام إلى باكستان بينما حاكم كشمير (المهراجا) آخر حكام أسرة الدونمرا عمل على منع حدوث ذلك، فأسس عصابات من الهندوس الكشميريين، والهندوس الذين أتوا من الهند لمنع انضمام كشمير إلى باكستان، وأخذت هذه العصابات فى الهجوم على المسلمين، وقتلت منهم ١٣٧٠٠٠ مسلم، فقام المسلمون بالمظاهرات وأطلقت الشرطة التابعة للمهراجا النار على المتظاهرين الذين يطالبون بانضمام كشمير إلى باكستان وسجنت الكثير منهم، وتدفق المجاهدون المسلمون على كشمير لنجدة إخوانهم، واستطاعوا

تحرير جزء من كشمير بينما فر المهراجا (هرى سنغ) إلى الهند، وعقد مع الهند اتفاقية بانضمام كشمير إلى الهند عام ١٣٦٦هـ برغم أن المسلمين يشكلون ٨٠٪ من سكانها وهذا ما يتنافى مع شروط تقسيم الهند إلى منطقتين، مسلمة وهندوسية تعتمد على الغالبية القاطنة، وتعهدت الهند بإجراء استفتاء فى الولاية بمجرد إعادة الاستقرار بها وسحب قواتها منها، ولكن اتضح أن هذه الدعوة ما هى إلا وسيلة تساعد الهند فى احتلال كشمير، فأرسلت جيوشًا إلى كشمير لتساعد جيوش حاكمها السابق، وأعلنت أنها ستساعد من يرغب فى الهجرة إلى باكستان، وأعلنت عن مكان يتجمع فيه راغبو الهجرة، وما إن احتشد الكثير من المسلمين فى هذا المكان حتى أطلقت عليهم النيران وقتل ما يزيد عن نصف مليون مسلم، واستطاع عدد مماثل لهم أن يفر إلى باكستان وأخذ الجنود الهنود يقبضون على كثير من النساء المسلمات لهتك أعراضهن، ويقطعون أثداء النساء أمام أهلهن، وقتل مئات الألوف من المسلمين، واندلع القتال بين الهندوس والمجاهدين المسلمين فى كشمير فى الحرب الهندية الباكستانية الأولى عام ١٣٦٧هـ، وقد تمكن المجاهدون من تحرير جزء كبير من كشمير، وأخذوا يوقفون تقدم الهندوس فى كشمير، وأرسلت باكستان قواتها إلى كشمير عام ١٣٦٧هـ، وهكذا اندلعت الحرب بشكل كبير بين الهندوس وبين الجيش الكشميرى المدافع عن كشمير الحرة، ويساعده المجاهدون والجيش الباكستانى، ولم تستطع الهند التقدم فى كشمير الحرة، فقد وقف لها المجاهدون بالمرصاد برغم تفوق الهندوس فى العدد والعتاد، إلا أن الروح الإيمانية للمسلمين قد أوقفت توغل الهند فى كشمير، وبعد أن طال سكوت الأمم المتحدة على الحرب فى كشمير، ظنًّا بأن الهند ستحسم المشكلة وتحتل كشمير، وكل ذلك بإيعاز من الدول الصليبية التى تسيطر على الأمم المتحدة وتحكم من خلالها العالم.

اضطرت الأمم المتحدة إلى إصدار قرار بوقف إطلاق النار فى كشمير عام

١٣٦٨هـ وقررت خروج القوات العسكرية من كشمير وإجراء استفتاء فيها لتقرير المصير، فأبدت الهند موافقتها على قرار الأمم المتحدة، بينما فى الحقيقة ظلت قواتها مرابضة فى الجزء الذى دخلته فى كشمير ثم أعلنتها صراحة فى عام ١٣٧٧هـ بأنها ترفض استقلال كشمير عن الهند، وأخذ الهنود فى اضطهاد السكان المسلمين وأخذوا يجلبون الهنادك ليسكنوا أجزاء كشمير التى وقعت تحت سيطرتهم ليقللوا الأغلبية الكاسحة للمسلمين فيها.

وحاول الهندوس بشتى الوسائل تغيير هوية المسلمين وغزوهم فكريًا، بل وأرسلوا رجال مخابراتهم إلى إسبانيا وروسيا ليعطوهم خبرتهم فى التنكيل بالمسلمين سواء الأندلسيين أو التتار.

أخذ المسلمون يقاومون كل المحاولات الهندية لفصل المسلمين عن دينهم وثقافتهم، وانتشرت حركات الجهاد وظهرت جبهة تحرير جامو وكشمير، وغيرها، واتحد المجاهدون تحت اسم الاتحاد الإسلامى لمجاهدى كشمير واتحدت المنظمات السياسية تحت اسم حركة تحرير كشمير، وقد نشأت أيضًا فى باكستان الكثير من المنظمات الإسلامية أبرزها الجماعة الإسلامية، والتى طالبت بتطبيق الشريعة ومؤسسها هو أبو الأعلى المودودى وكان أول رئيس لباكستان (بنغلاديش وباكستان المتحدتين) هو محمد على جناح والذى قامت فى عهده أول حرب بين باكستان والهند، وما لبث أن توفى وتسلم مكانه الخوجا نظام الدين عام ١٣٦٧هـ ثم غلام محمد عام ١٣٧١هـ ثم اسكندر مرزا عام ١٣٧٤هـ الذى ألغى نظام الدومينون فى باكستان، ثم أيوب خان عام ١٣٧٨هـ والذى جعل حكم البلاد عسكريًا وغير العاصمة من كراتشى إلى روالبندي(إسلام أباد)كى تكون قريبة من كشمير ولكنه حل الجماعة الإسلامية واعتقل أعضاءها وصادر أموالها.

الحرب الهندية الباكستانية الثانية عام ١٣٨٥هـ:

اندلعت الحرب بين الهند وباكستان للمرة الثانية بسبب كشمير، وامتدت جبهات القتال إلى باكستان الغربية بينما لم تدخل الهند باكستان الشرقية لتهديد الصين بدخول الحرب إذا فعلت ذلك، حيث كانت على خلاف حدودى مع الهند، وحدثت بينهما حرب عام ١٣٦٢هـ انتصرت فيها الصين؛ ولذلك كانت الصين تدعم باكستان واستطاع الباكستانيون أن يبدوا مقاومة فائقة وبطولات رائعة فى القتال، حتى إذا تحولوا للانتصار، وكادت الهند أن تهزم أسرع مجلس الأمن وأعلن وقف إطلاق النار، وعقد مؤتمر طشقند فى جمهورية أوزبكستان التابعة للاتحاد السوفيتى فى ذلك الوقت، وقد نص الاتفاق على إعادة الحال كما هو عليه قبل الحرب، وتبادل الأسرى وحل مشكلة كشمير بالطرق السلمية، ففقدت باكستان وكشمير جهودهما وانتصاراتهما.

أخذت الهند ونصارى العالم يعملون على تفتيت الوحدة بين شطرى باكستان، حتى يتفرق المسلمون وتضعف شوكتهم، وبرز مجيب الرحمن زعيم حزب عصمة عوامى فى باكستان الشرقية (بنغلاديش) والذى يطالب بالاستقلال الذاتى لها، وبرز أيضًا ذو الفقار على بوتو زعيم الشعب، والذى يتمثل نشاطه فى باكستان الغربية، وقامت المظاهرات فى باكستان الشرقية، فاضطر أيوب خان أن يعتزل الحكم عام ١٣٨٩هـ وجاء من بعده يحى خان، والذى كان شيعيًا فأدت سياسته إلى زيادة الفوضى والاضطرابات فى البلاد، وفى نفس الوقت عملت الهند على دعم المعارضة فى باكستان الشرقية، والتى يتزعمها مجيب الرحمن، ودعت الهندوس فى باكستان الشرقية إلى دعمه وتأييده، ودعمته أمريكا، وفى نفس الوقت دعمت المعارضة فى باكستان الغربية بقيادة ذى الفقار على بوتو، ودعمه الشيعة والقاديانيون، وبذلك فالخطة الدولية قامت على دعم الانفصال

فى باكستان بشطريها، وقائدا المعارضة رجلان انتهازيان تطغى مصلحتهما الشخصية على المصلحة العامة.

وتفجرت الأوضاع فى باكستان الشرقية فى عام ١٣٩١هـ نتيجة تأجيل اجتماع المجلس النيابى، وعمت الفوضى، وانتشرت الجرائم فيها، فاعتقل مجيب الرحمن، وحدثت فيضانات كبيرة فى بنغلاديش أدت إلى لجوء ما يقرب من ٩ملايين شخص أكثرهم من الهندوس إلى الهند، وأخذت الهند تستعد للضربة المرتقبة لباكستان، وأخذ الانفصاليون يطلبون العون من دول العالم وعلى رأسها اليهود، التى أعلن وزير خارجيتهم أنهم يؤيدون كفاح بنغلاديش ضد باكستان.

الحرب الهندية الباكستانية الثالثة ١٣٩١هـ:

أعدت الهند عدتها لفصل شطرى باكستان عن بعضهما، وعقدت حلفًا عسكريًا مع روسيا عام ١٣٩١هـ لردع أى محاولة تهديد تأتى من الصين، ثم أعلنت الهند أن الثوار البنغلاديش والذين تكونوا من اللاجئين قد شنوا هجومًا على بنغلاديش، وهذه كلها أكاذيب حقيقتها أن الهند هى التى تهاجم بنغلاديش، وخاصة أنها تحيط بنغلاديش من كل جانب عدا الجنوب حيث خليج البنغال، وفى نفس الوقت كان معظم التركز العسكرى فى باكستان الغربية وكشمير الحرة؛ لأنها جبهات القتال الأساسية، ولم يحدث من قبل تكوين جبهة قتال فى باكستان الشرقية، فالقوة الباكستانية فى بنغلاديش كانت أقل، وفى نفس الوقت كانت القوات الهندية تفوق القوات الباكستانية فى الجبهة الشرقية بما يعادل ٦ أضعافها، ومجهزة بكل الوسائل الحديثة فى القتال تدعمها روسيا واليهود، وبينما إمكانيات الباكستانيين فى الشرق ضعيفة، واندلع القتال على كافة الجبهات الشرقية والغربية وكشمير، وتقدمت الهند فى بنغلاديش وبرغم المقاومة الباسلة التى أبداها الباكستانيون فى الشرق إلا أنهم اضطروا

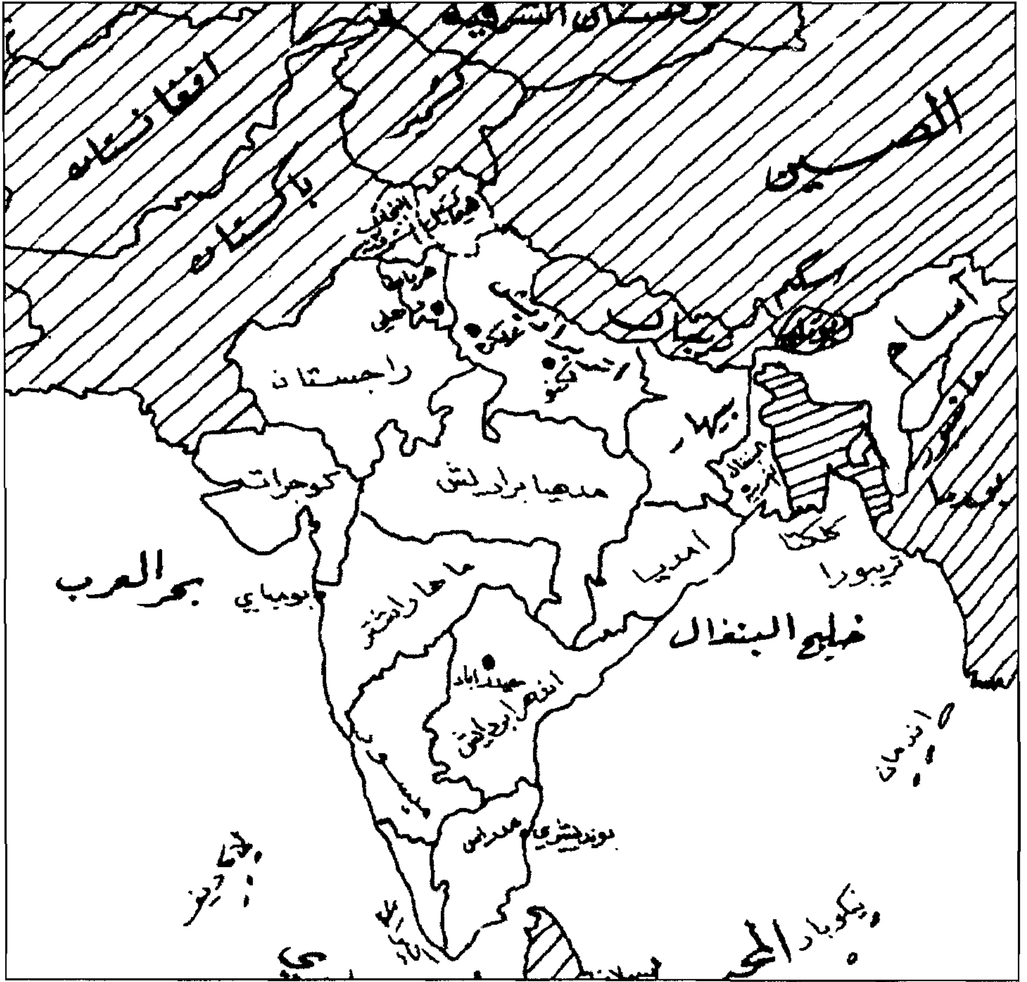
للاستسلام، أما فى الغرب فكانت الحرب سجالا بين الطرفين وأعلن مجلس الأمة وقف القتال، إلا أن الهندوس والروس قد عارضوا حتى توقف القتال فى نهاية ١٣٩١هـ ولا يمكن وصف المجازر والمذابح التى أقيمت للمسلمين فى بنغلاديش بعد إعلان الاستسلام، فقد تفنن الهنود فى أساليب القتل والتعذيب للمسلمين، وكأنهم فى مسابقة للإبداع فى الإبادة.

سلم يحيى خان البلاد إلى ذى الفقار على بوتو وغادر البلاد بعد أن خربها إلى إيران، حيث إنه -كما ذكرنا- شيعى، وأعلنت بنغلاديش استقلالها عن باكستان وقيام الجمهورية وأخرج مجيب الرحمن من السجن وعين حاكمًا لبنغلاديش، واعتبر أن الفترة السابقة كانت احتلالاً باكستانيًا لبنغلاديش، فنكل بباكستان، واعتبر الجيش الباكستانى الموجود فى بنغلاديش من الأسرى فأخذ يقتل فيهم وفى عام ١٣٩٥هـ قام انقلاب ضده وتولى مشتاق أحمد ولكن ما لبث أن كثرت الانقلابات فتولى خالد مشرف الرئاسة ثم عبد الستار محمد صايم ثم ضياء الرحمن عام ١٣٩٧هـ واغتيل فى انقلاب عسكرى عام ١٤٠١ وتسلم مكانه عبد الستار محمد صايم، ثم ما لبث أن حدث انقلاب عسكرى أبيض عليه عام ١٤٠٢هـ وتسلم الحكم حسين محمد إرشاد، ويتنازع على رئاسة الوزراء كل من خالدة ضياء والشيخة حسينة

اتفاقية سيملا:

عقدت القمة بين رئيس باكستان ذى الفقار على بوتو، ورئيسة الوزراء أنديرا غاندى التى تتحمل قدرًا كبيرًا من المسؤولية عما حدث لباكستان، واتفقوا فى مدينة سيملا على: استقلال بنغلاديش واستعادة باكستان (باكستان الغربية) لكافة ما فقدته أثناء الحرب ويقدر بـ ٨٦٢٠ كم٢ باستثناء ما فقدته فى كشمير والتى تقدر بـ ٤٠٠كم٢، وأن تسترد الهند ما فقدته فى الحرب ويقدر بـ ٦٠٠كم٢.

أما في باكستان فقد عم العنف السياسى، وطالبت المعارضة بإبعاد ذى الفقار على بوتو عن الحكم حتى قام انقلاب عسكرى ضده عام ١٣٩٧هـ، قاده قائد الجيش محمد ضياء الحق وتسلم منصب رئاسة الدولة عام ١٣٩٨هـ وفى نفس الوقت رئاسة الوزراء، وقرب إليه الجماعة الإسلامية حيث كان خاله أمير الجماعة الإسلامية، فأعطى بعض الوزارات إليهم، ولكنهم برغم ذلك عارضوه لتطبيقه لنظام الحكم العسكرى، وأُعدم ذو الفقار على بوتو بتهمة قتل أحد معارضيه عام ١٣٩٩هـ، وحرص على العلاقات الطيبة مع أمريكا، وساعد المجاهدين الأفغان فى حربهم مع الروس، وفتح بلاده للاجئين الأفغان، وأمدهم بالسلاح وكانت أمريكا الممول الأول للسلاح، ليس لحبها للمسلمين ولكن لمنافستها لحلف وارسو، والحرب الباردة بينهما، وأواخر أيامه دعا لتطبيق الشريعة الإسلامية وقتل عام ١٤٠٩هـ بانفجار قنبلة، ولم يعلم حتى الآن من الذى وضع القنبلة، وتولى بعده غلام إسحاق خان وشكلت الوزارة.



خريطة دول الهند الآن

وضع المسلمين فى الهند:

يعيش الآن فى الهند ما يزيد عن ٩٠ مليون مسلم، يذوقون ألوان البأس والاضطهاد من الهندوس، من هدم للمساجد، وهتك للأعراض، وإزهاق للأرواح، وإبادة، وقد يتساءل البعض: لماذا لم ينتشر الإسلام فى الهند مثلما انتشر فى شمال إفريقيا وبلاد الفرس والروم وغيرها برغم أن المسلمين قد فتحوا الهند وحكموها عدة قرون؟ يرجع ذلك لعدة أسباب من أهمها: أن معظم المسلمين الذين حكموا الهند كانوا حديثى العهد بالإسلام، وكان أكثرهم

لا يطبق الشريعة الإسلامية فى البلاد، ولم يكن لديهم التربية الإسلامية الكافية للدعوة إلى الإسلام، وإنما كان همهم الأكبر السيطرة والتحكم فى البلاد، بالإضافة إلى الجهل باللغة العربية التى هى لغة القرآن، مما أدى إلى جهلهم بالكثير من أمور الدين.

كما سعى بعض الحكام المسلمين إلى كسب ود أهل البلاد بإعطائهم مطلق الحرية فى دينهم وإقامة طقوسهم وعاداتهم التى يحرمها الإسلام، مثل حرق الزوجة بعد موت زوجها، والسماح بالزواج من المشركات، بل والسماح بزواج المسلمات من المشركين، وتحريم ما أحل الله، مثل تحريم ذبح الأبقار التى يقدسونها، ومن جانب آخر سعى بعض الحكام إلى إيجاد ما يطلق عليه العقيدة المشتركة بين الإسلام وغيره من الأديان فى الهند، وكانوا يظنون أن ذلك سيثبت سلطانهم فى البلاد ويرضى جميع الأطراف، ومن هنا ظهرت الكثير من الأديان بهذا الشكل مثل السيخ وغيرهم.

عمل الاستعمار الإنكليزى على اضطهاد المسلمين، والتعاون مع الهندوس ضدهم، وعمل على تضليل المسلمين بإنشاء المزيد من الفرق الضالة مثل القاديانية، والأحمدية، ودعمها باستمرار لإثارة الفتن، والتضليل بين المسلمين وحتى الآن يدعم الإنكليز هذه الفرق الضالة فى العالم، وتبلغ نسبة المسلمين فى الهند ١٤٪، وهى الديانة الثانية بعد الهندوكية، وتبلغ نسبة المسلمين فى سريلانكا ٨٪ وفى نيبال حوالى ٤٪ وفى بوتان ٥٪ أما فى باكستان وبنغلاديش والمالديف فأغلبية كاسحة للمسلمين، أما فى كشمير فنتيجة لسياسة الهند الاضطهادية فيها قد وصلت نسبتهم إلى ٦٥٪، بعد أن كانت أكبر من ذلك بكثير، وتواجه بنغلاديش أخطار الفقر والجفاف والإرساليات التنصيرية إلى بلادها، وخاصة بعد انفصالها عن باكستان.

***

الباب السادس

الدولــــة العثمانية

ظل العثمانيون فى حروب وجهاد ضد أعداء الإسلام أكثر من ستة قرون، ويكفيهم فخرًا أنهم فتحوا القسطنطينية بعد أن عجز من سبقهم عن فتحها، واستطاعوا أن يفتحوا بلادًا لم يطأها أحد من المسلمين قبلهم، وامتدت فتوحاتهم إلى قلب أوروبا، ففتحوا اليونان ويوغسلافيا (الصرب والجبل الأسود الآن) والبوسنة والهرسك وألبانيا ومقدونيا وبلغاريا ورومانيا والمجر وبسارابيا (ملدافيا) وأوكرانيا وقبرص، وأجزاء واسعة من روسيا والنمسا وبولندا وسلوفاكيا وإيطاليا، كما أنهم فتحوا ما بقى من آسيا الصغرى(تركيا حاليًا) وأرمينيا وجورجيا، وكافة بلاد القوقاز، وتوقفت فتوحاتهم عند أسوار فيينا.

الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى إلغاء الخلافة

نتناول فى هذا الباب الدولة العثمانية والتى ظهرت منذ عام ٦٩٩هـ ولكنها لم تتسلم مقاليد الخلافة إلا فى عام ٩٢٣هـ لتتحول من مجرد دولة إسلامية إلى مقر للخلافة الإسلامية، وحامى حمى الإسلام حتى انطوت صفحتها فى عام ١٣٣٧هـ.

ورغم أنها لم تشمل كل الأمصار الإسلامية إلا أنها ضمت أكثرها، وكانت محطًا لأنظار المسلمين فى الأمصار التى تخرج عن نطاقها، بصفتها مقرا للخلافة وبصفة أن حاكمها خليفة للمسلمين، وأيضا لكونها دولة من القوى العظمى آن ذاك فى العالم إن لم تكن أعظمها.

ولعل من أهم أهداف هذا الباب -بعد معرفة هذه الفترة الزمنية الهامة من تاريخ المسلمين- هو إزالة التشويه الكبير الذى لحق بالخلافة العثمانية، والذى عكف عليه أعداء الإسلام فى أوروبا النصرانية، بدافع من حقدهم الصليبى الشديد على الإسلام، وللأسف الشديد تبعهم الكثير من مؤرخى المسلمين بسبب التقليد الأعمى لأوروبا، باعتبارها رمزا للحضارة العصرية، وتقدمها فى مختلف علوم المعرفة «والله لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه وراءهم».

وقد يتبادر إلى الذهن سؤال هام هو: لماذا بالذات هذا الكم الكبير من التشويه فى حق الخلافة العثمانية مقارنه بأى خلافةٍ أخرى فى تاريخ المسلمين؟

لقد كان العثمانيون يقاتلون أوروبا، حتى قيل إنهم كانوا يحاربون فى الجهات الأربع الأصلية فى سبيل الإسلام فى وقت واحد، فمن الغرب يقاتلون امبراطورية النمسا، والإسبان فى المغرب العربي، ومن الجنوب يقفون فى وجه البرتغاليين فى الجزيرة العربية، ويضغطون على الروس من الشمال ليخففوا من

وطأتهم على التتر والشراكسة المسلمين، ومن الشرق يحاربون الشيعة الذين عقدوا حلفًا مع الصليبيين لمحاربة أهل السنة والجماعة بصفة عامة، والخلافة العثمانية بصفة خاصة.

فماذا تنتظر -أخى المسلم- من نصارى أوروبا إلا التشويه للخلافة العثمانية، لقد سجلوا كل سلبية لها، وبالغوا فيها وجاءوا بكثير من الافتراءات، وتجاهلوا تمامًا إيجابياتها بل وعَدُّوا الحكم العثمانى استعمارًا دخل بلاد المسلمين بالقوة والقهر، لكى يحدثوا الفتنة بين المسلمين، ويفرقوا شملهم وأثاروا العرب خاصة إلى مناهضة العثمانيين.

فالخلافة حسب دعواهم يجب أن تكون محصورة فى العرب، ونسى بعض العرب قول رسول الله ﷺ: «لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى».

وأخذ الأوربيون يصورون كل حركة ضد العثمانيين نصرًا سواء كانت للمسلمين أو النصارى، ويصفون القائم بها بالإخلاص والوطنية، حتى لو كان القائمون بها من قطاع الطرق.

وجاء الأوروبيون بأفكار القومية ليشتتوا ويفرقوا المسلمين، حتى يتكون المناخ الملائم لأوروبا، لكى تلتهم الأمصار الإسلامية الواحدة تلو الأخرى، وبسبب النجاح الكبير الذى حققته أوروبا فى تفريق المسلمين والوصول بهم لحالة من التأخر والتخلف، اتجهت أنظار الكثير من المسلمين إلى أوروبا كنموذج للتقدم والازدهار، وأقبل عليها الكثيرون من طلبة العلم من بلاد المسلمين الذين يجهلون الكثير عن أمور دينهم، فنقلوا ما تعلموه من ضلال وتشويه حرفيًا وكتبوا المناهج الدراسية والتاريخ بما أملاه عليهم أعداء الإسلام، فكانت النتيجة أن هيمنت فكرة على كثير من المسلمين، وهى أن الخلافة العثمانية هى المسئولة كلية عما وصل إليه المسلمون من تخلف وضياع، وأن الوسيلة الوحيدة

للنهوض بالأمة الإسلامية هي التقليد الأعمى لأوروبا، لكى تصل إلى ما وصلت إليه من تقدم وازدهار، ونسى المسلمون أنه ما كانت لتقوم لهم قائمة فى الأرض إلا بتمسكهم بدينهم، وأن ما لحق بهم من ذل ودمار كان نتيجة طبيعية لتركهم دينهم وحب الدنيا والانغماس فى الشهوات.

ولا نقول إن الخلافة العثمانية كانت تمثل الإسلام بشكل صحيح، أو كانت تخلو من الأخطاء، بل نقول إن لها سلبيات وإيجابيات، شأنها شأن الخلافة منذ عهد الأمويين، وحتى العهد العثمانى، فهكذا كل عصر له إيجابياته وسلبياته التى يجب أن نبرزها لكى نستفيد بالإيجابيات، ونتعلم من الأخطاء فلا نكررها. ولنبدأ فى تناول هذه الصفحة اللامعة من تاريخ المسلمين.

نبذة عن الترك:

قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة أن جمهورية تركيا الحالية (آسيا الصغرى سابقًا) هى الموطن الأصلى للأتراك والتى ترجع إليها أصولهم، ولكن هذه المعلومة خاطئة تمامًا، فالأتراك موطنهم الأصلى هو بلاد تركستان الموجودة بأواسط آسيا، والتى تمثل أراضيها الآن جمهوريات قازاقستان وتركمانستان وطاجكستان وقيرغيزستان وأوزبكستان، والتى استقلت مؤخرًا عن الاتحاد السوفيتى السابق، بالإضافة إلى جزء تحتله الصين حتى الآن يعرف بتركستان الشرقية، والذى تطلق عليه الصين إقليم سيكيا نغ، أى الولاية الجديدة، ويوجد جزء آخر من بلاد تركستان فى كل من إيران وأفغانستان، والذى كان يعرف سابقا بخراسان، حيث تقتسمه كل من إيران وأفغانستان وجمهورية تركمانستان السابق ذكرها.

والسؤال الآن كيف انتقلت بعض قبائل الترك إلى آسيا الصغرى (الأناضول)؟

يرجع الترك إلى الجنس المغولى (ذوى البشرة الصفراء) (أو أبناء يافث بن نوح) الذى يضم معظم قارة آسيا مثل الصينيين واليابانيين والمغول والتتر والملايو وغيرهم.

وكان الترك معروفين ببأسهم الشديد، وقدرتهم الحربية الفائقة نظرًا لقسوة البيئة التى يعيشونها، حيث المرتفعات والأودية الجافة والصحارى ويشاركهم فى ذلك أبناء جلدتهم المغول والتتر، وكانوا قبل الفتح الإسلامى يعبدون الأوثان والكواكب.

وفى عصر الدولة الأموية فتح المسلمون هذه البلاد، ودخل أهلها فى دين الله أفواجًا وتوارد على فتحها قادة مسلمون ذوو حماسة شديدة للإسلام، أشهرهم قتيبه بن مسلم الباهلى وآل المهلب الذين ولاّهم الحجاج بن يوسف الثقفي،وأعز الله الإسلام بالترك.

نعود إلى السؤال الذى طرحناه منذ قليل، وهو: كيف وصلت بعض قبائل الترك إلى آسيا الصغرى؟ الإجابة أنه فى عهد الدولة العباسية زاد نفوذ الترك، فقد عمل العباسيون على توطين أقسام من جيش خراسان فى الأجزاء الأناضولية التابعة لهم والمتاخمة للامبراطورية البيزنطية، وكانت الحدود بينها وبين الخلافة العباسية يطلق عليها الثغور، والتى كانت مسرحًا للقتال بين الطرفين، وكان الخليفة المهدى يستقدم الأتراك من فرغانة (فى جمهورية قيرغيزستان الآن) وبلخ (فى خراسان)، ويسكنهم الثغور مثل طرطوس وأضنة ومرعش وخرشنه وغيرها، وكلها فى المناطق الجبلية الفاصلة بين المسلمين والروم، وزاد عدد الترك فى هذه المناطق فى عهد المأمون والمعتصم.

وفى عهد المتوكل أصبح الأتراك هم عماد الجيش فى الدولة، وأصبحت الثغور الأناضولية تحت إمرتهم، وكانوا يخضعون للخليفة العباسى تارة، أو للحمدانيين فى حلب تارة، أو للطولونيين فى مصر تارة أخرى، ورغم هذا الانقسام فإن القتال لم ينقطع بين المسلمين والروم وكانت الحروب سجالاً بين الطرفين.

وفى مراحل ضعف الدولة العباسية ظهرت دولة السلاجقة، وهم من

الأتراك، وكانوا على صراع دائم مع الروم، ومن أبـرزهم ألـب أرسـلان الـذي انتصر على الروم انتصارًا حاسمًا فى معركة ملاذكرت عام ٤٦٣هـ.

وانساح السلاجقة بعد تلك المعركة فى الأناضول، وأسسوا إمـارات كـثيرة واستطاع السلاجقة المنتشرون فى الأناضول أن يقدموا للمسـلمين آثـارًا إيجابيـة كثيرة منهـا: اسـترداد بعـض الأجـزاء مـن الـروم التـى سبق أن أخـذوها مـن المسلمين، وفتح كثير من أراضى الأناضول، وزاد التوسع والانتشـار كـثيرًا فـى أيام ملكشاه بن أرسلان، وبقيت بعـض الإمـارات الصـليبية فـى الأناضـول تم فتحها بالكامل فى عهد العثمانيين.

وعندما جاء الهجوم المغولى على بلاد المسلمين خاف بعض الحكام وتحالفوا للأسف الشديد مع المغول الكفرة ضد أبناء عقيدتهم المسلمين.

ووقعت بلاد السلاجقة بيد المغول، واستسلم أمراؤها لهم وصـاروا معهـم حربًـا على المسلمين ثم هزم المغول فى عين جالوت سنة ٦٥٨هـ وخرجوا بعدها مـن بـلاد الشام، فسار الظاهر بيبرس عام ٦٧٥هـ إلى بلاد السلاجقة لينتقم منهم، والتقى بهـم وبحلفـائهم المغـول والكـرج فـى معركـة البسـتان، وانتصـر علـيهم، ثـم سـار ففـتح عاصمتهم قيصرية، ومع ضعف المغول زالـت دولـة سـلاجقة الـروم، وقامـت عـدة إمارات فى الأناضول، منها أبناء أيدين، وأبناء تركـة، وأبنـاء أرتنـا، وأبنـاء كرميـان، وأبناء حميد، وأبناء أشرف قره عيسى، وأبناء صاروخان، وأبناء منتشا، وأبناء جانبـدار (أسفنديار)، وأبناء بروانة، وأبناء صاحب أتا، وأبناء قزمـان، وأبنـاء رمضـان، وأبنـاء ذى القادر.



الإمارات السلجوقية في الأناضول قبل قيام الدولة العثمانية

وكادت الأناضول أن تصاب بمثل ما أصيب به المسلمون فى بلاد الأندلس وبلاد التتار، نتيجة لتفرق المسلمين ومحاربتهم لبعضهم البعض، والاستعانة بأعداء الإسلام على المسلمين، رغم ما حذرنا منه الله عز وجل من آثار التفرق فى كتابه الكريم: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

ولكن الله -عز وجل- قيض للأناضول العثمانيين الذين استطاعوا توحيد إماراتها، ونجت بإذن الله، من ويلات التفرق كما سنعلم فى الصفحات التالية.

نشأة الدولة العثمانية:

مع زيادة الضغط المغولى القادم من الشرق على الأمصار الإسلامية لجأت الكثير من القبائل إلى الهجرة إلى الغرب هربًا من بربرية المغول، وهجومهم الوحشى، ومن ضمن هذه القبائل قبيلة قاتى التركمانية برئاسة **سليمان شاه بن قيا ألب**، وكان موطنها بالقرب من مرو قاعدة بلاد التركمان فاتجهت القبيلة إلى

الغرب، حتى وصلت إلى خلاط شمال بحيرة وان، وهدأ الزحف المغولى فرغب سليمان فى الرجوع إلى موطنه الأصلى، وفى طريق عودته وأثناء عبوره لنهر الفرات غرق فيه، واختلف أبناؤه الأربعة فى الوجهة التى يتجهون إليها، فحقق الأخوان سنغور تكن وكون طوغور رغبة والدهما فى العودة إلى موطن أبيهم وأما الآخران أرطغرل ودندان فقد اتجها الى الشمال، وتولى أرطغرل زعامة أفراد القبيلة الذين بقوا فى الأناضول، وبعث أرطغرل ابنه ساوجى ليطلب من الأمير علاء الدين السلجوقى، أمير إمارة القرمان التى مركزها مدينة قونية أن يعطيه أرضًا تعيش فيها القبيلة، ولكنه توفى فى الطريق، وفى هذه الأثناء لاحظ أرطغرل جيشين يقتتلان؛ أحدهما مسلم -وكانت عليه علامات الهزيمة والضعف- وجيش بيزنطى نصرانى يكاد ينتصر، فأسرع بعاطفته الإسلامية ليساعد الجيش المسلم، واستطاع بفضل الله أن يحول الهزيمة إلى نصر، وكان الجيش المسلم تحت إمرة الأمير علاء الدين والذى سعد بأرطغرل وأقطعه أرضًا على حدود بلاد الروم (الدولة البيزنطية) ليصد غاراتهم ويغير عليهم، وكان فى كل انتصار يحققه عليهم يقطعه الأراضى التى فتحها.

وكان لأرطغرل ابن اسمه عثمان كان يتردد على رجل صالح يتحدث معه، وفى إحدى الزيارات رأى عثمان ابنة الرجل الصالح فأسرّته، فطلب نكاحها من أبيها فرفض أبوها، فحزن عثمان لذلك حزنًا شديدًا، وفى يوم من الأيام إذ هو فى سبات عميق إذا بحلم عجيب يراه فى منامه ما إن استيقظ منه حتى ذهب إلى الرجل الصالح فقص عليه الحلم، فوافق الرجل على زواجه من ابنته، وكان الحلم أنه رأى القمر صعد من صدر هذا الرجل الصالح وصار بدرًا ثم نزل فى صدر عثمان ثم خرجت من صلب عثمان شجرة نمت فى الحال حتى غطت الأجواء بظلها عبر جبال القوقاز والبلقان وطوروس وأطلس، وخرج من جزعها أنهار دجله والفرات والنيل والطونه

(فى البلقان) ورأى ورق هذه الشجرة كالسيوف، تحولها الريح نحو مدينة القسطنطينية، فعند سماع الرجل الصالح هذا الحلم تفاءل وزوجه ابنته.

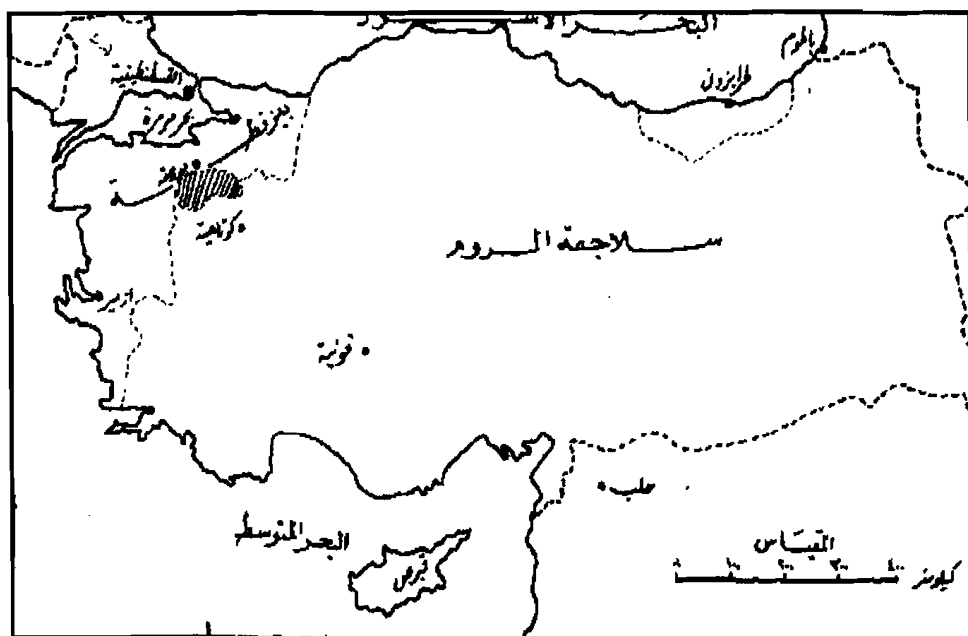
وبشره بأن أسرة عثمان ستحكم العالم.

السلطان الغازى عثمان الأول

(٦٩٩ - ٧٢٦هـ)

ولما توفى أرطغرل سنة ٦٨٧هـ تولى عثمان مكانه فبدأ يوسع أملاك القبيلة بموافقة علاء الدين أمير القرمان، وفى سنة ٦٩٩هـ أغار المغول على إمارة القرمان ففر من وجههم علاء الدين إلى بلاد بيزنطة ومات فى هذا العام، وتولى من بعده ابنه غياث الدين ثم قتل المغول غياث الدين، فأفسح المجال لعثمان لكى يستقل بما تحت يديه من أراضى ويقيم الدولة العثمانية التى نسبت لاسمه، واتخذ لها عاصمة هى مدينة يني شهر أى المدينة الجديدة (اسكى شهر سابقا)، واتخذ راية له هى علم تركيا حتى الآن، ودعا عثمان أمراء الروم فى آسيا الصغرى إلى الإسلام فإن أبوا فعليهم أن يدفعوا الجزية، فإن رفضوا فالحرب، فخشوا على أملاكهم منه واستعانوا بالمغول عليه، غير أن عثمان قد جهز جيشًا بإمرة ابنه الثانى أو رخان، وسيرّه لقتال المغول، فشتت شملهم ثم عاد وفتح مدينة بورصة عام ٧١٧هـ وأمّن أهلها وأحسن إليهم فدفعوا له ٣٠,٠٠٠من عملتهم الذهبية، وأسلم حاكمها أفرينوس، وأصبح من القادة البارزين ثم توفى عثمان فى عام ٧٢٦هـ وقد عهد لابنه أورخان بالحكم بعده، ودفن بمدينة بورصة التى أصبحت مدفن العائلة العثمانية بعد ذلك.

مما هو جدير بالذكر أن لفظ الغازى بمعنى المجاهد، وقد اتخذ السلطان عثمان هذا اللقب واتخذ شعارًا يسير عليه هو «إما غازٍ وإما شهيد» وقد تبعه فى ذلك الكثيرون من سلاطين الدولة العثمانية.



خريطة المنطقة التى قامت عليها الدولة العثمانية

السلطان الغازى أورخان الأول (٧٢٦ - ٧٦١هـ)

على الرغم من أنه الابن الثانى لعثمان، إلا أن أباه قد أوصى بالحكم إليه من بعده، لاتصافه بعلو الهمة والشجاعة، بينما لم يوص لابنه الأكبر علاء الدين لميله للعزلة والورع، ولم يخالف علاء الدين الوصية فقدّره أخوه أورخان وسلمه الأمور الداخلية، وتوجه أورخان لتوسيع رقعة الدولة والأعمال الخارجية ونقل أورخان عاصمة البلاد إلى مدينة بورصة.

الإصلاحات الداخلية ووضع نظام للجيش:

قام علاء الدين بضرب العملة من الفضة والذهب، ووضع نظامًا للجيش وجعلها دائمة؛ حيث كانت الجيوش قبل ذلك لا تجمع إلا وقت الحرب وتصرف بعده، وخشى من تحزب كل فريق من الجند للقبيلة التابع إليها فأشار عليه (قرة خليل) والذى صار وزيرًا بعد ذلك باسم خير الدين باشا بأخذ

الأطفال المشرّدين والأطفال الذين فقدوا آباءهم في الحرب من الروم وتربيتهم تربية إسلامية وتدريبهم على فنون القتال في ثكنات عسكرية؛ بحيث لا يعرفون حرفة إلا الجهاد في سبيل الله ولا يعرفون إلا السلطان سيدًا لهم، فمن جهة يحمونهم من التشرد والانحراف والضياع، ومن جهة أخرى يدخلون في الإسلام ويكونون ردءا ضد أعدائه، وأطلق عليهم يني تشرى أى الجيش الجديد وحرفت بالعربية لتكون انكشارية، وغدا هذا الجيش قوة كبيرة ساعدت في مد الفتوحات العثمانية في أوروبا، وهذا ما أثار نصارى أوروبا وبلغ حقدهم الصليبي أوجه؛ حينما تمثلت أمامهم حقيقة أن هذا الجيش يمثل أبناءهم الذين لم يكتفوا باعتناق الإسلام بل تحولوا لقتالهم وفتح بلادهم، وعكف المؤرخون النصارى على تشويه صورة الانكشارية في التاريخ، واتهموا الدولة العثمانية بأخذ الأطفال من آبائهم قهرًا وإجبارهم على اعتناق الإسلام وهذه إحدى الافتراءات على العثمانيين.

ومع توارد السلاطين في الدولة العثمانية ظهر منهم الضعفاء الذين سمحوا للإنكشارية بالتدخل في شئون الحكم، وأدى ذلك إلى زيادة نفوذهم في الحكم وتحولهم إلى طريق الفساد والهزيمة حتى قُضى عليهم سنة ١٢٤٢هـ في عهد الخليفة محمود الثاني.

كما اهتم أورخان بإعمار البلاد، ففتح المدارس وسن الأنظمة اللازمة لاستتباب الأمن بالداخل، وأكثر من بناء المساجد والتكايا وأجزل العطايا للعلماء والشعراء.

فتوحات أورخان (الشئون الخارجية):

وواصل أورخان فتوحاته، ففتح أزميروأزنيق وإمارة قرة سى التى مات حاكمها فاختلف ولداه، فضمها أورخان كى لا تقع فريسة بيد الروم (كلها مناطق في

الأناضول) وكان أورخان إذا فتح مدينة عامل أهلها باللين والرفق ولم يعارضهم في إقامة شعائر دينهم وأذن لمن يريد الهجرة بأخذ كافة منقولاته وبيع عقاراته.

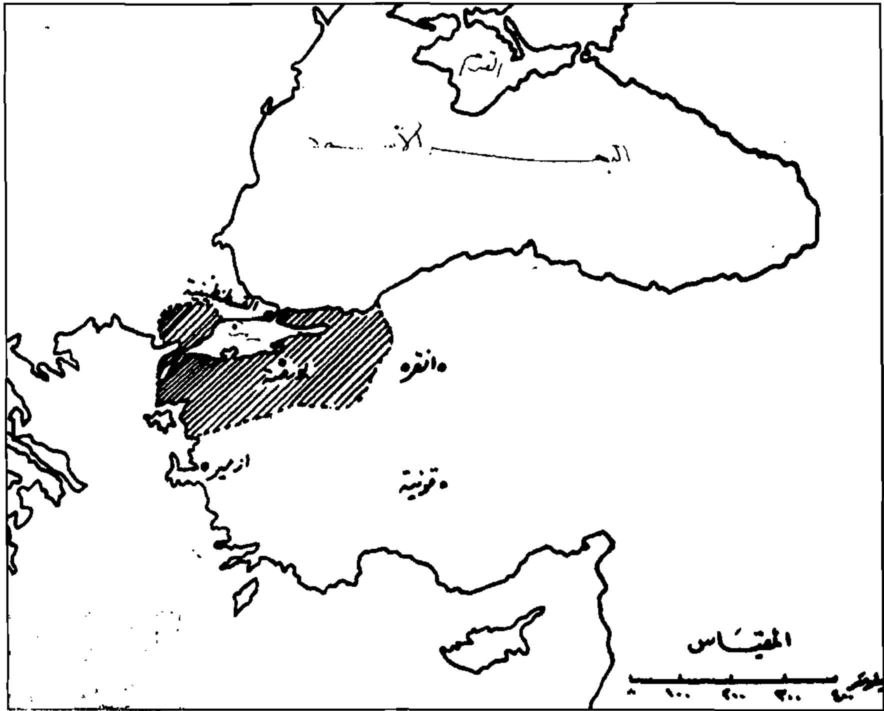
الزواج من الأجنبيات:

وفى عام ٧٥٦هـ طلب إمبراطور بيزنطة يوحنا الخامس من السلطان أورخان مساعدته ضد إمبراطور الصرب أصطفان دوشان، الذى تحالف مع البندقية والإمارات الصربية للهجوم على القسطنطينية، على أن يزوجه بابنة الوصى على العرش يوحنا كانتا كوزين، والتى أختها زوجة لإمبراطور بيزنطة أى يصبح عديلاً للسلطان، ووافق أورخان إلا أن أصطفان قد أدركه الموت والجنود العثمانية فى الطريق فعادوا إلى بلادهم وتمت الزيجة، ومما هو جدير بالذكر أن زواج السلاطين من الأجنبيات النصارى قد انتشر بصورة كبيرة فى عهد الدولة العثمانية، فقد سبق لعثمان الأول الزواج من مسيحية من فليقيا وسبق لأورخان الزواج من فتاه يونانية مسيحية، وتبعهم الكثير من السلاطين العثمانيين فى ذلك، وكان ذلك من سلبيات الدولة العثمانية، حيث تمسك كثير من الزوجات النصرانيات بدينهن، واستغللن منصبهن كزوجة للسلطان فى التعصب لأبناء جلدتهن ومن على دينهن من رعايا الدولة العثمانية.

العبور للبر الأوروبي:

لاحظ أورخان ضعف الدولة البيزنطية، وانكماش رقعتها فقرر النزول إلى الشاطئ الأوروبى وفتح الأراضى التى تقع غرب القسطنطينية تمهيدًا لفتحها، حيث إن المسلمين حاولوا فيما سبق فتحها من جهة الشرق، ولكنهم فشلوا فانطلق ابن أورخان الكبير سليمان مع أربعين من رجاله الأبطال، وعبروا للشاطئ الأوروبى، واستولوا على الزوارق هناك، ثم عادوا إلى الشاطئ الشرقى حيث لم يكن لدى الدولة أسطول فى ذلك الوقت، ثم انطلقوا مره أخرى إلى

الشاطئ الأوروبى فاتحين، فسيطروا على قلعة تزنب وشبه جزيرة غاليبولى ذات القلاع الهامة وبها تحكموا فى مضيق الدردنيل وفى عام ٧٦٠هـ، توفى سليمان ولى العهد والقائد الفذ نتيجة سقوطه عن جواده وفى العام الثانى توفى أورخان وتولى الحكم ابنه الثانى مراد الأول.



الدولة العثمانية فى عهد أورخان الأول

السلطان الغازى مراد الأول

(٧٦١ - ٧٩١هـ)

الشئون الخارجية فى الأناضول:

كانت سياسة مراد الأول الخارجية متمثلة فى توسيع رقعة الدولة العثمانية، سواء من جهة الأناضول أم من جهة أوروبا، ولأن جهات الأناضول تحتوى على إمارات مسلمة فقد حاول بقدر الإمكان ضمها بالطرق السلمية كما

سنرى، مثل مصاهرة الأمراء؛ وذلك لأنه أراد توحيد المسلمين لمنازلة أعداء الإسلام؛ ولأن الجيش المسلم كان شديد الحماسة للجهاد في أوروبا أما في الأناضول فكان الجيش قليل الحماسة حتى قيل إن الجنود كانوا يساقون للقتال في الأناضول.

عندما تسلم السلطان مراد الأول الحكم واجه عداوة أمير القرمان (علاء الدين)، الذى استنهض همم الأمراء المستقلين فى الأناضول لمحاربة الدولة العثمانية، فأعد السلطان مراد الأول جيشًا استطاع به دخول أنقرة عاصمة إمارات القرمان، واضطر علاء الدين أن يتنازل عن أنقرة للعثمانيين حتى يحافظ على بقية أملاكه وتزوج السلطان ابنة علاء الدين.

ومع ذلك لم تبرد نار الحقد فى قلب الأمير علاء الدين، وانتظر الوقت المناسب حتى يعاود الكرة فى الهجوم على الدولة العثمانية حتى إذا أعد العدة واتحد معه بعض الأمراء المستقلين فى الأناضول، وقاموا بحرب ضد الدولة العثمانية فى سنة ٧٨٧هـ فأرسل لهم مراد الأول جيشًا انتصر عليهم فى سهل قونية، وأسر الأمير علاء الدين غير أن ابنته قد توسطت له عند السلطان فعفا عنه، وأبقى له إدارته ولكنه فرض عليه مبلغًا من المال سنويًا.

زوج السلطان ابنه يزيد من ابنة أمير كرميان، فقدم الأب مدينة كوتاهيه لابنته، فضمت إلى الدولة العثمانية وفى عام ٧٨٢ ألزم أمير دويلة الحميد بالتنازل عن أملاكه للدولة العثمانية.

فى أوروبا:

وفى عام ٧٦٢هـ فتح العثمانيون مدينة أدرنه فى الجزء الأوروبى، ونقل مراد إليها عاصمته لتكون نقطة التحرك والجهاد فى أوروبا، وقد ظلت عاصمة للعثمانيين حتى فتحوا القسطنطينية عام ٨٥٧هـ.

كما تم فتح مدينة فليبه (جنوبى بلغاريا اليوم) وكلجمينا و وردار، وبذلك صارت القسطنطينية محاطة بالعثمانيين من كل جهة فى أوروبا.

وخاف أمراء أوروبا الذين يجاورون العثمانيين من المد العثمانى، فكتبوا إلى البابا يستنجدونه وذهب إمبراطور القسطنطينية إلى البابا، وركع أمامه وقبل يديه ورجليه وطلب منه الدعم، برغم أن الإمبراطور على المذهب الأرثوذكسى والبابا على المذهب الكاثوليكى، وهما شديدا الاختلاف والعداوة، ولكنهما ضد الإسلام يتحدون، فلبى البابا النداء وراسل ملوك أوروبا، يطلب منهم الاستعداد لشن حرب صليبية جديدة لوقف المد الإسلامى فى قلب أوروبا ولم ينتظر ملك الصرب (أوروك الخامس) دعم البابا، وانطلق فى اتجاه أدرنه هو وأمراء البوسنة والأفلاق (جنوبى رومانيا) وأعداد من فرسان المجر المرتزقة الذين رحبوا بالإغارة على العثمانيين، مستغلين انشغال السلطان ببعض حروبه فى الأناضول، غير أن الحامية العثمانية فى أوروبا اصطدمت بهم على نهر مارتيزا الذى يمر بأدرنه، وهزمتهم هزيمة منكرة فولوا الأدبار، وخشيت إمارة راجوزة الواقعة على سواحل دلماسيا المطلة على البحر الادرياتيكى من قوة العثمانيين، فأبرمت صلحًا مع الدولة العثمانية تدفع بموجبه جزية سنوية قدرها ٥٠٠ دوكا ذهبًا.

اتفق ملك الصرب لازار بلينا نوفيتش وأمير البلغار سيسمان على قتال العثمانيين، ولكن بعد مناوشات خفيفة مع العثمانيين أدركوا مدى ضعفهم مقارنة بالعثمانيين، فاضطروا إلى دفع جزية سنوية وتزوج السلطان بابنة أمير البلغار.

نتيجة لتأخر الصرب والبلغار فى دفع الجزية اندفعت إليهم الجيوش العثمانية، ففتحت بعض المدن الصربية فى جنوبى يوغوسلافيا اليوم، وتمكنت من فتح مدينة صوفيا عام ٧٨٤هـ بعد حصار ثلاث سنوات وتم فتح مدينة سالونيك المقدونية التى تقع فى اليونان الآن.

حرم إمبراطور بيزنطة يوحنا باليوج ابنه اندرونيكوس من ولاية العهد؛ لأنه اتحد مع ساوجى بن السلطان مراد الذى أعلن التمرد على أبيه فأرسل السلطان لهم جيشًا قتل ساوجى وراسل السلطان الامبراطور البيزنطى الذى قتل بدوره اندروبيكوس أيضًا.

واقعة قوص أوه (كوسوفو) ٧٩١هـ:

استغل الصرب انشغال العثمانيين بمحاربة الأمير علاء الدين فى الأناضول، وقاموا بهجوم على الدولة العثمانية، واستطاعوا أن يحققوا بعض الانتصارات فى جنوب الصرب مما شجع أمير البلغار وسيسمان للهجوم على الدولة العثمانية، ولكن الجيوش العثمانية داهمته ففر إلى الشمال واعتصم فى مدينة نيكوبلى فى شمال بلغاريا، وجمع ما بقى من جيوشه وهجم على القوات العثمانية فهزم شر هزيمة ووقع أسيرًا ولكن السلطان أحسن إليه وأبقاه أميرًا على نصف بلاده وضم النصف الآخر للدولة العثمانية، ولما علم ملك الصرب ما لحق بسيسمان انسحب بجيوشه إلى الغرب، فأدركته الجيوش العثمانية والتقت معه فى موقعة قوص أوه أو سهل كوسوفو (إقليم يحاول الاستقلال عن يوغوسلافيا الآن وتسكنه أكثرية ألبانية مسلمة) وكان القتال سجالاً بين الطرفين حتى انحاز صهر الملك لازار إلى جانب المسلمين بفرقته البالغ قوامها ١٠٠٠٠ مقاتل فانهزم الملك لازار، وقتله المسلمون بسبب ما فعله من أفاعيل دنيئه بأسرى المسلمين.

وبينما يتفقد السلطان مراد الأول القتلى الصرب قام إليه جندى صربى من بين الجثث وطعنه بخنجره فصرعه وقتل الجنود العثمانيون الصربى على الفور. ومما يذكر فى هذه المعركة دعاء السلطان مراد الأول فى الليلة التى سبقت يوم المعركة:

(يا إلهى إننى أقسم بعزتك وجلالك أننى لا أبتغى من جهادى هذه الدنيا الفانية، ولكنى أبتغى رضاك ولا شيء غير رضاك، يا إلهى قد شرفتنى بأن هديتنى إلى طريق الجهاد

فى سبيلك فزدنى تشريفًا بالموت فى سبيلك).

الشئون الداخلية فى عهد مراد الأول:

نظمت فرقة الخيالة والتى عرفت بسيباه أو السباهية أو الفرسان، بحيث يعطى لكل فارس جزءًا من الأرض إقطاعًا له. والمقيمون فى هذه الأرض مسلمون كانوا أم نصارى يدفعون له خراجًا فى وقت السلم، ويجهزونه بقدر المستطاع وقت الحرب ويجهزون جنديا آخرًا معه، وبرغم الخدمات التى قدمها هذا النظام فى بداية الأمر إلا أنه جعل الجنود أصحاب نفوذ، وتسلط الكثير منهم على الموجودين بالأرض فنقموا عليهم وبالتالى على الحكم.

السلطان الغازى بايزيد الأول
(٧٩١ - ٨٠٤هـ)

تسلم الحكم وهو يبلغ من العمر ٣٠ عامًا واشتهر بدوام الجهاد والحماسة الشديدة للإسلام حتى لقب باسم (يلدرم) أى الصاعقة لإقدامه وانقضاضه المفاجئ على العدو.

نشاطه فى الأناضول:

فى عام ٧٩٣هـ ضم إمارات منتشا وآيدين وصاروخان دون قتال، ولجأ أبناء حكامها إلى قسطمونى عاصمة إمارة اسفنديار، كما فتح مدينة الأشهر آخر المدن للروم فى غرب الأناضول، كما تنازل له أمير القرمان علاء الدين عن جزء من أملاكه بدلاً من ضياعها كلها.

واشتهر علاء الدين بالمراوغة والخيانة كما سبق فى عهد السلطان مراد الأول، فاستغل انشغال السلطان بايزيد بالجهاد فى أوروبا وهاجم العثمانيين واستطاع أن يسترد بعض الأراضى التى تنازل عنها، وأسر كبار القادة العثمانيين

فى الأناضول، فأسرع إليه الصاعقة بايزيد فهزمه وأسره هو وولديه، وبذلك انتهت إمارة القرمان، ولحقتها إمارة سيواس وتوقات ثم شق طريقه إلى إمارة اسفنديار ملجأ الفارين من أبناء الأمراء، فطلب من أمير اسفنديار تسليم الأمراء الفارين فأبى، فانقض عليه بايزيد وضم بلاده إليه، والتجأ الأمير إلى تيمورلنك الذى سيرد ذكره بعد قليل.

جهاده فى أوروبا:

عين السلطان بايزيد الأمير اصطفان بن لازار ملكًا للصرب، وسمح له بالاستقلال مقابل دفع جزية سنوية، ومساعدته هو وجنوده فى أى وقت يطلبهم، وتزوج السلطان بايزيد أوليفير أخت اصطفان.

اتجه إلى القسطنطينية عام ٧٩٤هـ وحاصرها، فهو بذلك أول سلطان عثمانى يحاصر القسطنطينية، وتركها محاصرة ثم انطلق إلى الأفلاق وأجبر حاكمها على معاهدة يعترف فيها بسيادة العثمانيين على بلاده مقابل جزية يدفعها سنويًا.

ضم السلطان بايزيد الأول نصف بلاد البلغار المتبقى بعد موت ملكها سيسمان، وأسلم ابنه فأخذه السلطان وجعله واليًا على صامسون وبذلك أصبحت بلغاريا ولاية عثمانية.

دب الذعر فى أوروبا من انتصارات الدولة العثمانية، واستغاث ملك المجر بالبابا ونصارى أوروبا فأعلن البابا قيام حرب صليبية على العثمانيين، واستجاب له دوق بورغونيا (تقع فى شرق فرنسا) وأمراء النمسا وبافاريا (جنوب ألمانيا) وفرسان القديس يوحنا، الذين أخرجوا من عكا ثم إلى قبرص ثم رودس فمالطة، وسار الجميع فى عام ٧٩٨هـ وحاصروا مدينة نيكويلى شمال بلغاريا، ووصل جيش العثمانيين وكان بقيادة أمير الصرب أصطفان، ومعه كثير من النصارى الخاضعين للدولة العثمانية والجنود العثمانيين، والتقى

الجمعان وهزم الجيش الصليبى هزيمة منكرة، وأسر الكثير من أمراء أوروبا فى هذه المعركة، منهم دوق بورغونيا الذى فدى نفسه بفدية كبيرة وأقسم للسلطان بايزيد ألا يقاتله أبدًا مادام حيا فرد عليه بايزيد بقولته الشهيرة: (أنى أجيز لك ألا تحفظ هذا اليمين فأنت فى حل من الرجوع لمحاربتى إذ لاشيء أحب إلى من محاربة جميع مسيحى أوروبا والانتصار عليهم).

وبعد هذا الانتصار دفع إمبراطور بيزنطة ١٠٠٠٠ دينار ذهبية مقابل فك العثمانيين للحصار المفروض على القسطنطينية، وسمح للمسلمين ببناء مسجد لهم فيها.

الحرب مع تيمورلنك وتجزؤ الدولة العثمانية

نتصور فيما ذكرناه حتى الآن عن الدولة العثمانية أننا نعيش فى حلم جميل لا نريد الاستيقاظ منه، فإذا بنا نفاجأ بكابوس مفزع يصرفنا مؤقتا عن الحلم الجميل.

يأتى ذكر هذا الكابوس المفزع مع قدوم الهجوم الشرس الذى يشنه تيمورلنك من الشرق على الأمصار الإسلامية وتيمورلنك كما أوردنا فى تاريخ التتر المسلمين أنه ينتسب للإسلام اسمًا فقط وقد جعل منه أعداء الإسلام سلاحًا من أسلحتهم المتعددة، يشوهون به الإسلام والإسلام بريء من أفعاله.

عندما وصل تيمورلنك إلى بغداد وخربها عن آخرها فر أميرها إلى السلطان بايزيد، فأرسل إليه تيمورلنك يطلب تسليم الأمير الفار، فرفض السلطان بايزيد فانطلق تيمور إلى الدولة العثمانية ودخل مدينة سيواس، وقتل الأمير أرطغرل بن السلطان بايزيد الأول، وأخذ يتوغل فى الدولة العثمانية حتى التقى بجيشه البالغ قوامه ٨٠,٠٠٠ مع الجيش العثمانى البالغ ١٥٠,٠٠٠ فى أنقرة سنة ٨٠٤هـ واستمرت المعركة من قبل شروق الشمس إلى ما بعد غروبها، ولكن أثناء المعركة انضمت من جيش السلطان بايزيد فرق آيدين ومنتشا وكرميان

وصاروخان إلى جيش تيمورلنك فانهزم السلطان بايزيد ووقع هو وابنه موسى فى الأسر واختفى ابنه مصطفى وفر أبناؤه سليمان وعيسى ومحمد، وحاول السلطان بايزيد الفرار ٣ مرات ولكنه فشل فشلاً ذريعًا فأصابه الحزن الشديد من الإهانة التى لحقت به، وتوفى فى عام ٨٠٥هـ وقيل أنه انتحر.

استولى تيمورلنك على بقية أراضى الدولة العثمانية فى الأناضول، ولم يتركها إلا وقد عادت الإمارات التى كانت موجودة فيها قبل أن تضمها الدولة العثمانية إلى التجزؤ من جديد.

وانتهزت الولايات الأوروبية التى تحت الحكم العثمانى ما حل بالدولة فأعلنت استقلالها، وهى البلغار والصرب والأفلاق فانكمشت الدولة العثمانية.

ومما زاد الدولة تمزقًا تنازع أبناء السلطان بايزيد على السلطة، فاستقل سليمان بالجزء الأوروبى من الدولة العثمانية بما فيها مدينة أدرنه، وعقد حلفًا مع عمانويل الثانى إمبراطور بيزنطة ليساعده ضد إخوته، وأعطاه فى سبيل ذلك مدينة سالونيك وبعض سواحل البحر الأسود وتزوج من إحدى قريباته.

أما عيسى فبمجرد وفاة أبيه أعلن نفسه سلطانًا فى مدينة بورصة.

وأما محمد الذى كان مختبئًا فى الأناضول فحينما خف ضغط التتار خرج ومن معه من الجند يقاتل ما بقى من التتار وتمكن من السيطرة على توقات وأماسب واستطاع تخليص أخيه موسى من الأسر وسار لمحاربة إخوته.

انتصار محمد على إخوته وانفراده بالسلطة:

استطاع محمد أن ينتصر على أخيه عيسى بعد عدة معارك بينهما، وقتل عيسى ثم أرسل جيشًا بقيادة أخيه موسى لمحاربة أخيهما سليمان، ولكنه عاد يجر ذيل الخيبة وراءه، ولكنه لم ييئس فحاول موسى مرة أخرى الهجوم، واستطاع فى هذه المرة أن ينتصر وقتل سليمان على أبواب أدرنه عام ٨١٣هـ.

اتجه موسى لتأديب الصرب على موقفهم أثناء الهجوم التترى، وحارب ملك المجر الذى حاول مساعدة الصرب وانتصر موسى عليه.

وأراد موسى أن ينفصل بالجزء الأوروبى، وضرب الحصار على القسطنطينية، فاستنجد امبراطورها بالأمير محمد الذى أسرع فعقد حلفًا مع إمبراطور القسطنطينية، وملك الصرب ضد أخيه، وانتصر الحلف وقتل الأمير موسى وانفرد الأمير محمد بالسلطة.

السلطان الغازى محمد الأول
(٨١٦ - ٨٢٤هـ)

الشئون الخارجية:

يبدو أن السلطان محمد عاش معذب الضمير من جراء قتله لإخوته الثلاثة عيسى وموسى وسليمان، ولذلك انعكس ذلك فى معاملة الآخرين، ويتضح ذلك عندما انتصر على أمير القرمان وعفا عنه بعد أن أقسم له بالطاعة، ثم تمرد عليه مرة أخرى فانتصر السلطان عليه مرة أخرى وعفا عنه، وأيضا فى انتصاره على أمير أزمير قرة جنيد ثم عفا عنه وعينه حاكمًا لمدينة نيكوبلي.

الشئون الداخلية:

قام أحد القضاة ويدعى بدر الدين بحركة يدعو فيها إلى مبادئ مشابهة للاشتراكية، وتبعه فى ذلك الكثير وخاصة من أصحاب الديانات الأخرى، وأحس السلطان باستفحال أمره فقاتله وانتصر عليه وقتله.

ظهور الأمير مصطفى بن السلطان بايزيد:

ظهر فجأة الأمير مصطفى بن السلطان بايزيد وأخو السلطان محمد، وطالبه بالحكم فقاتله، وانضم إليه قرة جنيد ودخل إلى بلاد اليونان، ولكنه هزم ففر إلى

إمبراطور بيزنطة الذى رفض تسليمه إلى السلطان محمـد، ولكنـه وعـده بوضـع أخيه تحت الإقامة الجبرية وخصص السلطان لأخيه راتبًا شـهريًا وبـرغم خيانـة قرة جنيد إلا أن السلطان عفا عنه مرة أخرى.

ومات السلطان عام ٨٢٤هـ ووصى لابنه مراد من بعده ولعلنا نلمـس مـن الآن فصاعدًا إحدى سلبيات العهد العثماني، وهى قتل الإخوة لبعضهم تنازعًا على الملك، والتى ستظهر بصورة واضحة فى السلاطين القادمين.

السلطان الغازى مراد الثانى
(٨٢٤ - ٨٥٥هـ)

تولى السلطة عام ٨٢٤ وعمره لا يزيد عن ١٨ سنة.

وانتهج سياسة تنبنى على إعـادة السـيطرة علـى إمـارات الأناضـول التـى استقلت عن الدولة العثمانية أثناء غزو تيمورلنك، حتى يوحـد عـدد كـبير مـن المسلمين يكونوا قوة كبيرة تنطلق لفتح أوروبا، لذلك فقد أجل الفتوحـات فـى أوروبا لحين استعادة إمارات الأناضول، فعقد هدنة مع ملك المجر مـدتها خمـس سنوات ولكن ظهرت عدة مشكلات:

طلب إمبراطور بيزنطة من السلطان مراد عـدم الهجـوم علـى القسـطنطينية ولكى يضمن ذلك طلب من السلطان أن يسلمه اثنين من أخوته كرهينة، وهدد إمبراطور بيزنطة بإطلاق سراح مصطفى عم السلطان مراد إذا لم ينفذ شـروطه، فرفضها السلطان مراد الأول فأطلق سراح عمه مصطفى، وزوده بعشرة مراكب فانطلق بها مصطفى لحصار مدينة غاليبولى على مضيق الدردنيل، فدخلها وترك فيها حامية، إلا أنه لم يتمكن من دخول قلعتها، وسار مصطفى نحو أدرنـه وقتـل القائد العثمانى بايزيد باشا، وسار نحو ابن أخيه مراد ولكن حـدثت خيانـة فـى صفوف قواده، ففر مصطفى إلى مدينة غاليبولى حيث قبض عليه وأعدم.

وسارع السلطان مراد الثانى لينتقم من امبراطور بيزنطة فضرب الحصار على القسطنطينية عام ٨٢٥هـ ولكنه لم يتمكن من فتحها.

فتنة أخو السلطان:

استغل الأمير مصطفى أخو السلطان مراد انشغال السلطان بمحاصرة القسطنطينية، فقام بالتمرد عليه يدعمه أمراء الدويلات المستقلة فى الأناضول، فاضطر مراد أن يفك الحصار عن القسطنطينية ويقاتل أخاه حتى هزمه وقتله.

فتنة قرة جنيد:

لم يؤثر عفو السلطان محمد الأول عن هذا الخائن مرتين، فقد أدمن الخيانة وبدأ يزاول هوايته فى عهد مراد الثانى، فاستولى على إمارة آيدين وأعلن انفصاله عن الدولة فوثب عليه الجيش العثمانى وقتله.

نشاط السلطان مراد فى الأناضول:

واصل السلطان مراد تحقيق هدفه الأول وهو إعادة الإمارات التى استقلت عن الدولة العثمانية فى الأناضول فعقد صلحًا مع أمير القرمان.

وجد أمير قسطمونى نفسه فى موقف حرج، إذ كان يدّعم الأمير مصطفى أخا السلطان مراد، فأسرع بالتنازل عن نصف إمارته للسلطان مراد وزوجه ابنته.

سيطر السلطان مراد الثانى على إمارات آيدين، منتشا، وصاروخان، وإقليم الحميد، وكرميان التى أوصى أميرها قبل موته بإلحاقها بالدولة العثمانية حيث لم يكن له من يعقبه، وانتهت بذلك مشاكل الأناضول وأصبح السلطان متفرغًا للجهاد فى أوروبا.

الجهاد فى أوروبا:

من أكثر الحروب التى خاضها السلطان فى أوروبا تلك التى خاضها مع

ملك المجر، وكان المسلمون تارة ينتصرون وتارة ينهزمون.

بدأ القتال بين السلطان وملك المجر وكان النصر للمسلمين حيث عقدت معاهدة تنازل فيها ملك المجر عن أملاكه شرقى نهر الدانوب، الذى أصبح حدًا فاصلاً بين الدولتين.

خشى أمير الصرب جورج برنكوفتش على ملكه، فعقد معاهدة مع العثمانيين تنازل فيها عن بعض المواقع للعثمانيين، وبمقتضاها يدفع جزية سنوية وتعهد بقطع علاقاته مع ملك المجر وتزوج السلطان ابنته مارا.

استعاد السلطان مراد الثاني مدينة سالونيك والتى آلت إلى البندقية عام ٨٣٣هـ واعترف أمير الأفلاق بالسيادة العثمانية عام ٨٣٦هـ واستطاع السلطان إخضاع بلاد الأرنؤوط (ألبانيا) وسلم أميرها أبناءه الأربعة كرهينة للسلطان، وعندما مات الأمير عام ٨٣٤هـ ضم السلطان أملاكه إليه، وما كاد السلطان يستعد لفتح القسطنطينية حتى عادت الدولة النصرانية إلى نقض العهود والتمرد، فقد عاد أمير الصرب جورج برنكوفتش إلى العصيان، فهاجمه السلطان وقتله، وفتح جزءًا من بلاد الصرب وحاصر بلغراد ستة أشهر، ولكنه لم يتمكن من فتحها، وأرسل السلطان جيشًا إلى إقليم ترانسلفانيا (الجزء الغربى من رومانيا حاليا) والذى كان يتبع وقتها المجر، فهزم الجيش واستشهد قائده مع ٢٠,٠٠٠ من الجند، ثم أعاد الكرة مرة أخرى وأرسل جيشًا قوامه ٨٠ ألفًا فانهزم للمرة الثانية وأسر القائد العثمانى عام ٨٤٥هـ.

استغل ملك المجر الهزيمتين الأخيرتين للجيش العثمانى وسار بجيشه ومن انضم إليهم -من ألمان، وفرنسيين، وبنادقة، وبولنديين، وجنوبيين، وصرب، وأفلاق- إلى بلاد الصرب وانتصر على العثمانيين فى ثلاث معارك متتالية، اضطر بعدها السلطان مراد لتوقيع معاهدة تنازل بمقتضاها عن الأفلاق للمجر،

ورد للصرب بعض المواقع وقامت هدنة مدتها ١٠ سنوات، واختار السلطان أن يخلد إلى الراحة بعد هذه الحروب المتتالية وبعد وفاة ابنه الأكبر علاء الدين فذهب إلى ولاية آيدين فى غربى الأناضول، وترك ابنه محمدًا الذى لم يبلغ من العمر ١٤عاما لتولى السلطة.

تحالف صليبى جديد ضد المسلمين:

استغل البابا هزائم المسلمين الأخيرة وحث ملك المجر على نقض العهد مع المسلمين، وتنادى نصارى أوروبا بحرب صليبية جديدة ضد المسلمين، وخاصة أن السلطان قد ترك الحكم لابنه الصغير قليل الخبرة فى القتال.

موقعة وارنا (فارنا) ٨٤٨هـ:

جمع ملوك أوروبا جموعهم وهاجموا بلاد البلغار، وخرج لهم السلطان مراد من عزلته، وهاجمهم بجيش تولى قيادته بنفسه، والتقى الجمعان فى مدينة فارنا البلغارية على البحر الأسود فهزم الحلف الصليبى شر هزيمة، وقتل ملك المجر فى المعركة، فاختل توازن الأعداء فهاجم السلطان معسكرهم وقتل مندوب البابا وترك مرة أخرى السلطان لابنه.

ثم اضطر السلطان للعودة مرة أخرى لتأديب الانكشارية الذين استخفوا بابن السلطان الصغير، فشغلهم بالحرب فى بلاد اليونان، حيث قسم الإمبراطور البيزنطى ملكه بين أولاده، فأعطى جنا القسطنطينية، وأعطى قسطنطين بلاد المورة (الجزء الجنوبى من اليونان).

تمرد اسكندر بك:

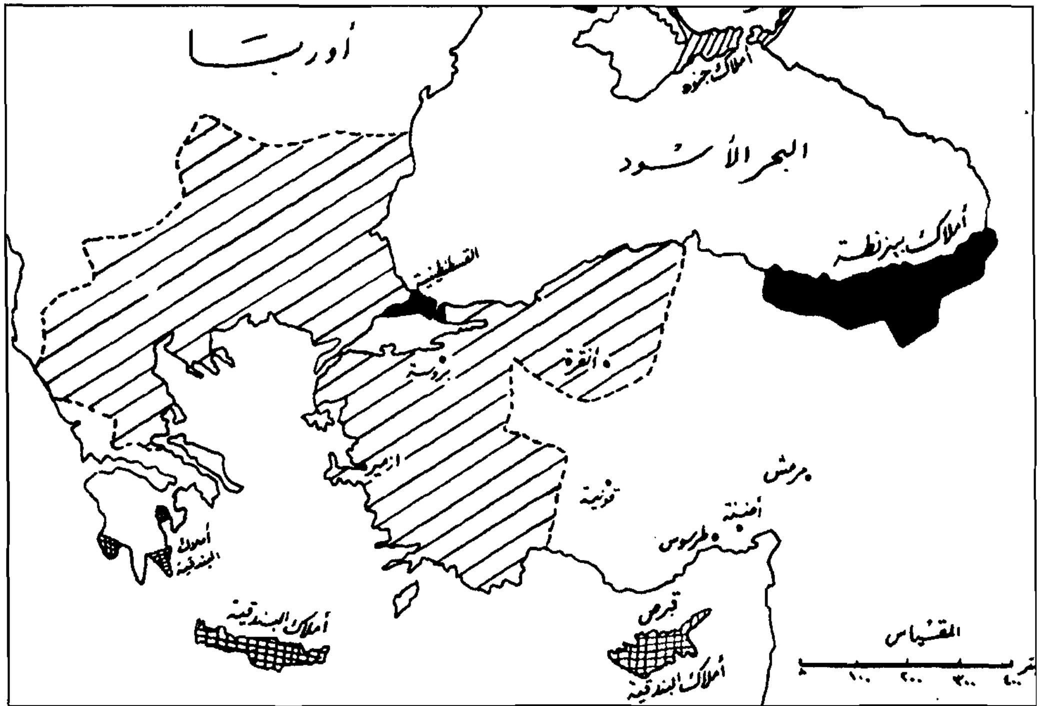
اسكندر بك هو أحد أبناء أمير ألبانيا الذين كانوا رهينة عند السلطان العثماني، أعلن اسكندر إسلامه واستغل انشغال السلطان بالحرب فهرب إلى

ألبانيا، وطرد العثمانيين منها، فقاتله السلطان وانتصر عليه وأخذ منه بعض المواقع عام ٨٥١هـ ثم اضطر لتركه لمحاربة المجريين فى كوسوفو، وقد عرض السلطان عليه أن يسلمه حكم ألبانيا مقابل جزية سنوية يدفعها، ولكنه رفض وبينما يستعد السلطان لمحاربته إذ وافته المنية.

معركة كوسوفو الثانية عام ٨٥٢هـ

للمرة الثانية يلتقى المسلمون فى هذا السهل مع نصارى أوروبا، ولكن هذه المرة مع الجيش المجرى، والذى أراد الانتقام لهزيمته فى معركة فارنا وانتصر المسلمون نصرًا عزيزًا على الجيش المجري.

توفى السلطان مراد الثانى فى عام ٨٥٥هـ وتسلم السلطة ابنه محمد الثانى (محمد الفاتح).



الدولة العثمانية فى عهد مراد الثاني

السلطان الغازى محمد الفاتح (محمد الثاني)
(٨٥٥ - ٨٨٦هـ)

يحتل السلطان محمد الفاتح عند أغلب المسلمين الشهرة الأولى فى الدولة العثمانية، وذلك لعكوف مؤرخى أوروبا على تشويه تاريخ الدولة العثمانية، وللأسف الشديد تأثر كثير من المسلمين بهم حتى باتوا لا يعرفون عن إيجابياتها شيئًا غير فتح القسطنطينية، ولا يعرفون من حكامها إلا محمد الفاتح.

ومن الجدير بالذكر أنه برغم إيجابياته الكبيرة فهناك حكام آخرون بلغت فى عهدهم الدولة العثمانية أوجها أكثر بكثير من عهد محمد الفاتح، كما سيرد ذكره عن سيرة الحكام القادمين، ولكن لا ينكر أحد أن عهد محمد الفاتح من ألمع صفحات تاريخ العثمانيين بالكامل، ويكفيه شهادة رسول الله ﷺ عنه أنه قال: «لتفتحن القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش».

تولى محمد الفاتح الحكم وعمره ٢٢ عامًا وأول ما قام به أن أعاد زوجة أبيه الصربية مارا إلى أبيها ثم قتل أخاه أحمد الرضيع كما هو العرف السائد منذ زمن السلطان محمد الأول.

فتح القسطنطينية:

حاول المسلمون فتح القسطنطينية قبل العهد العثمانى عدة مرات يحدوهم فى ذلك حديث الرسول ﷺ عن أبى قبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص، وسئل أى المدينتين تفتح أولاً: القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق، قال: فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله ﷺ بكتب إذ سئل رسول الله ﷺ : أى المدينتين تفتح أولاً: أقسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ : «مدينة هرقل تفتح أولاً» يعنى قسطنطينية.

﴿ كانت أول محاولة للمسلمين لفتح القسطنطينية فى خلافة عثمان ابن عفان ﷺ، وذلك فى أواخر سنة اثنتين وثلاثين هجرية (٦٥٣م) إذ قصدها جيش بقيادة معاوية بن أبى سفيان أمير الشام يومئذ، فاخترق آسيا الصغرى حتى ضفاف البسفور. كما قصدها أسطول إسلامى بقيادة بُسْر بن أبي أرطأة لدعم الجيش الإسلامى البري، فتحرك من (طرابلس الغرب) صوب القسطنطينية ولكن هذه المحاولة لم تنجح.

﴿ وفى سنة أربع وأربعين هجرية (٦٦٤ م) كانت الحملة الثانية فى عهد معاوية بن أبى سفيان، ولكن هذه المحاولة لم تنجح أيضًا.

﴿ وفى سنة تسع وأربعين هجرية (٦٦٩ م) أعاد معاوية الكرة لفتح القسطنطينية، فبعث جيشًا ضخمًا بقيادة سفيان بن عوف، ومعه يزيد ابن معاوية وجماعة من أكابر الصحابة من المهاجرين والأنصار منهم عبد الله بن العباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وأبو أيوب الأنصاري. وسار الأسطول الإسلامى بقيادة بسر بن أبي أرطأة، واخترق مضيق الدردنيل دون مقاومة. واستمر حصار المدينة برًا وبحرًا سبعة أعوام دون جدوى، فانسحب المسلمون سنة ثمان وخمسين هجرية (٦٧٨ م) إلى قواعده.

﴿ وفى سنة ست وتسعين هجرية (٧١٥ م) تولى الخلافة سليمان بن عبد الملك، فأعاد الكرة وانتدب أخاه مسلمة بن عبد الملك وأمره ألا يبرح القسطنطينية حتى يفتحها أو يأتيه أمره. وسار مسلمة فى أوائل سنة ثمان وتسعين هجرية (٧١٦ م) مخترقًا هضاب الأناضول، وفتح عدة مدن وحصون للروم، ثم بدأ حصار القسطنطينية، فحاصرها ثانية فى اليوم الثانى من محرم سنة تسع وتسعين هجرية (١٥ آب – أغسطس – ٧١ م) ولكن لم تمض أسابيع قلائل على حصارها حتى

توفى سليمان بن عبد الملك في العاشر من صفر سنة تسع وتسعين هجرية (٧١٧ م) ودخل فصل الشتاء وكان شديد البرد، فانسحب مسلمة إلى ثغور الشام.

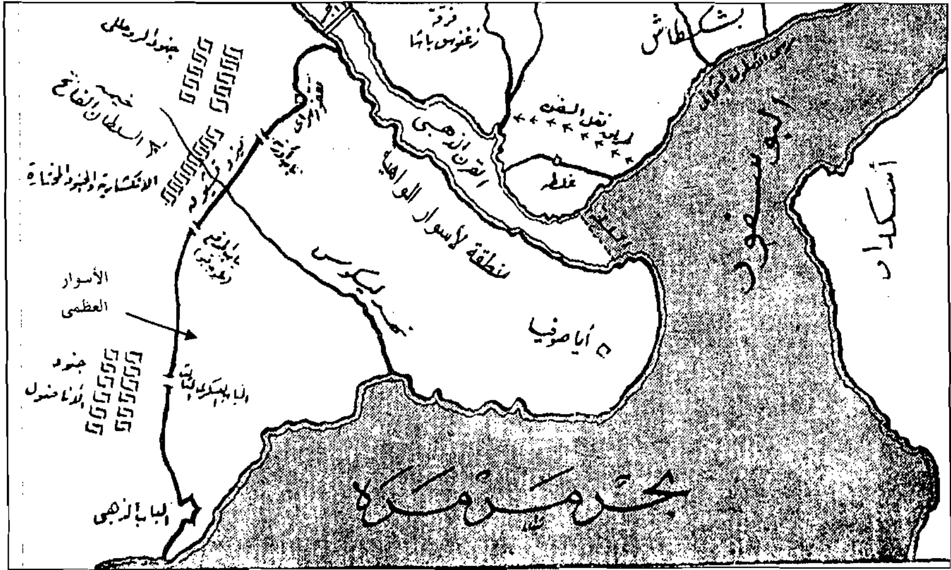
- ولم تحاول الخلافة بعد ذلك أن تعمل جادة لافتتاح القسطنطينية وإن كانت جيوشها قد اقتربت بعد ذلك غير مرة من هذه العاصمة.

- وقد وقعت أشهر هذه الغزوات أيام الخليفة المهدى من بنى العباس، حيث سار ولده هارون الرشيد فى صيف سنة خمس وستين ومائة هجرية (٧٨٣ م) غازيًا للدولة البيزنطية، فاخترق هضاب الأناضول حتى أشرف على ضفاف البسفور الآسيوية، وعسكر فوق تلال خريسوبوليس (أسكوتاري) فى مواجهة القسطنطينية، وكان على عرش القياصرة يومئذ طفل هو قسطنطين السادس، ومقاليد الحكم بيد أمه إيرينى (ريني)، فهزم المسلمون البيزنطيين هزيمة نكراء، واضطرت إيرينى أن تعقد الصلح وأن تتعهد بدفع جزية سنوية للمسلمين.

- وكانت أول محاولة للعثمانيين لفتح القسطنطينية فى سنة ثمان وتسعين وسبعمائة الهجرية (١٣٩٥ م)، ولكن وصول تيمورلنك إلى حدود الدولة العثمانية الشرقية اضطر السلطان بايزيد إلى التخلى عن الحصار. وقد كانت القسطنطينية محط أنظار العثمانيين ومعقد آمالهم، منذ بداية حكمهم، فأوصى السلطان عثمان مؤسس الدولة العثمانية خلفاءه بفتحها، فلم توفق السلاطين بعد عثمان فى تحقيق هدفهم، حتى جاء السلطان محمد الفاتح، فكتب الله أن يكون فاتح هذه المدينة العظيمة، ومن يومها حمل لقب: الفاتح.

لذلك أعد السلطان محمد الفاتح العدة لفتحها فبدأ ببناء قلعة على البر الأوروبى تشرف على مضيق البوسفور، وتقابلها على البر الأسيوى القلعة التى بناها السلطان بايزيد الأول، وبذلك يتحكم فى مضيق البوسفور ويمنع وصول الإمدادات إلى القسطنطينية.

وشعر امبراطور القسطنطينية بعزم السلطان على فتحها فعرض عليه دفع الجزية فرفض السلطان، وقبل أن نتعرض لأحداث الفتح نلقى نظرة على تحصين مدينة القسطنطينية الذى جعل منها مدينة صعبة المنال.



مدينة القسطنطينية

أولاً: كما نرى المانع المائى المتمثل فى بحر مرمرة وحتى مدخل القرن الذهبى عليه سلسلة عظيمة لمنع أو السماح بدخول أى سفينة.

ثانيًا: الأسوار التى تحيط بالمدينة من جميع الجهات حتى من جهة البحر، ومن جهة البر توجد الأسوار العظمى التى يصعب اختراقها.

ثالثًا: الحصن الموجود عند مدخل القرن الذهبى لمقاومة أى عدو.

نعود مرة أخرى لسير الأحداث، فعندما رفض السلطان محمد الثانى أن يدفع له امبراطور بيزنطة الجزية فى مقابل عدم مهاجمة القسطنطينية، استنجد امبراطور بيزنطة بنصارى أوروبا، فأرسلت له جنوه (وهى إحدى الإمارات الأوروبية فى ذلك الوقت) ٣٠ سفينة حربية وجاءت فى الوقت الذى يحاصر فيه العثمانيون القسطنطينية من جميع الجهات، فاصطدمت السفن بالأسطول العثمانى واستطاع الجنويون التسلل إلى القرن الذهبى، وحينما حاول العثمانيون اللحاق بهم أغلقت السلسلة فى وجوههم بعد أن دخل الجنويون القرن الذهبي.

كان عدد الجنود العثمانيين الذين يحاصرون المدينة من الجهة البرية قرابة ٢٥٠,٠٠٠ جندى أما من الناحية البحرية فكان هناك قرابة ١٨٠ سفينة بحرية.

وجمع محمد الفاتح قواده وقال لهم:

إذا تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث رسول الله ﷺ ومعجزة من معجزاته، وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التقدير، فأبلغوا أبناءنا العساكر فردًا فردًا أن الظفر العظيم الذى سنحرزه سيزيد الإسلام قدرًا وشرفًا، ويجب على كل جندى أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه، فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافى هذه التعاليم، وليجتنبوا الكنائس والمعابد، ولا يمسوها بأذى، ويدعو القساوسة والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون.

وأراد العثمانيون الدخول إلى القرن الذهبى حيث توجد بعض الأسوار الواهية فاتبعوا طريقة لم تخطر ببال أحد، وهى أنهم أعدوا ألواحًا خشبية تصل بين البحر فى

القرن الذهبى والبحر عند مدخل مضيق البوسفور، وألقوا على هذه الألواح الخشبية الدهون والشحوم، وأخذوا يزلقون السفن الحربية على الألواح الخشبية من مضيق البوسفور إلى القرن الذهبى، ثم أخذت المدافع العثمانية تدك أسوار القسطنطينية من جميع الجهات، فلم تستطع المدينة أن تصمد أمامهم، فدخلوها دخول الأبطال المنتصرين فى فجر يوم ١٥ من جمادى الأولى عام ٨٥٧هـ وقتل امبراطورها فى المعركة، وسيطر العثمانيون عل المدينة سيطرة كاملة، وأمر السلطان محمد الفاتح أن يؤذن فى كنيسة آيا صوفيا إيذانًا بتحويلها إلى مسجد، ومما هو جدير بالذكر أن كنسية آيا صوفيا هذه هى مقر الأرثوذكس العالمى، التى تضاهى الفاتيكان مقر الكاثوليك العالمى، كما أمر السلطان بتغيير اسم المدينة إلى إسلام بول (استنبول) أى مدينة الإسلام، واتخذت عاصمة للدولة العثمانية وظلت العاصمة حتى إلغاء الخلافة، وبذلك سقطت تمامًا الدولة البيزنطية العدو الأول للمسلمين على مدى أكثر من ٨ قرون، وأمن أهل المدينة النصارى على حرية دينهم وممارسة شعائرهم، واشترى نصف كنائس المدينة وحولها إلى مساجد وترك النصف الآخر من الكنائس للنصارى لممارسة شعائرهم.

وأثناء حصار المسلمين للقسطنطينية عثر على قبر الصحابى الجليل أبى أيوب الأنصارى، الذى استشهد أثناء محاصرة القسطنطينية فى عهد يزيد بن معاوية، فبعد فتح القسطنطينية بنى مسجد فى هذا الموقع، وغدا تسلم السلاطين مقاليد الحكم فى هذا المسجد عُرفًا متبعًا حيث يتسلم السلطان الجديد سيف عثمان أرطغرل مؤسس الدولة.

الفتوحات فى أوروبا :

بعد أن تم فتح القسطنطينية وترميم أسوارها التى هدمت أثناء الفتح تقدم السلطان محمد الفاتح ليستكمل فتوحاته.

تحويل ولاية الصرب إلى ولاية عثمانية

كما نعلم أن السلاطين السابقين كانوا يعطون الاستقلال لإمارة الصرب فى مقابل جزية تدفع كل عام، ولكن كثيرًا ما كان الصرب يستغلون أى ظروف سيئة تمر بها الدولة العثمانية، ويمتنعون عن دفع الجزية، فأراد السلطان محمد الفاتح أن يعزز سيطرة الدولة العثمانية على بلاد الصرب، فسار إليها ودخلها عام ٨٥٨هـ ولكنه لم يتمكن من فتح عاصمتها بلغراد، وذلك لأن ملك المجر هونياد استمات فى الدفاع عنها، ولكن بهذا الفتح فقدت الصرب استقلالها وتحولت إلى ولاية عثمانية، ولم يبق خارج سيطرة العثمانيين إلا بلغراد التى تركها العثمانيون، ونجحوا فى إصابة ملك المجر الذى مات متأثرًا بجراحه بعد مغادرة العثمانيين بعشرين يومًا.

فتح بلاد مورة (جنوب اليونان):

تمكن السلطان محمد الفاتح من فتح بلاد مورة عام ٨٦٣هـ وتمكن أيضًا من فتح معظم الجزر فى بحر ايجه.

فتح بلاد الأفلاق (جزء من رومانيا الحالية):

وصل للسلطان محمد الفاتح تعدى أمير الأفلاق على بعض التجار العثمانيين النازلين ببلاده، فجهز السلطان محمد الفاتح جيشًا لمحاربته، فطلب الأمير الصلح مقابل جزية سنوية قدرها ١٠,٠٠٠ درهم ولكن اتضح أن أمير الأفلاق لم يطلب ذلك إلا ليتحد مع أمير المجر لمحاربة العثمانيين، فبعث إليه السلطان برسولين ليستفسرا عن ذلك، فقتل الرسولين، ولم يكتف بذلك بل أغار على بلاد البلغار التابعة للدولة العثمانية، فأعمل فيها القتل والسلب وعاد إلى بلاده ومعه ٢٥,٠٠٠ أسير، فأرسل له السلطان يدعوه إلى إعادة الأسرى والطاعة للدولة العثمانية، فأمر الرسل برفع عمائمهم لتعظيمه فأبى رسل السلطان فأمر الأمير بتثبيت العمائم على

رءوسهم بمسامير من حديد، وعلم السلطان بما حدث فجمع ١٥٠,٠٠٠ مقاتل وسار قاصدًا بلاد الأفلاق، فهزم أميرها الذى فر إلى بلاد المجر بعد أن مثل بالأسرى المسلمين شر تمثيل، وامتلأت ضواحى بخارست عاصمة الأفلاق بجثثهم وبذلك أصبحت الأفلاق ولاية عثمانية.

فتح بلاد البوسنة ودخول أهلها فى دين الله أفواجا:

امتنع أمير البوسنة عن دفع الجزية، فجهز السلطان محمد الفاتح جيشًا لفتح البوسنة، فسار إليها وفتحها عام ٨٦٦هـ وحاول ملك المجر ماتياس نزع البوسنة من أيدى العثمانيين، ولكنه فشل وما إن تم فتح البوسنة وجعلها ولاية عثمانية إلا ودخل أهلها وأشرافها فى دين الله أفواجًا وانضم للجيش من أهلها ٣٠,٠٠٠ شاب.

اسكندر بك يعود إلى الظهور:

دعا البابا لحرب صليبية على العثمانيين بعد أن تمكنوا من فتح الكثير من بلاد أوروبا وسقوط القسطنطينية، غير أن البابا قد مات ولم تقم الحرب الصليبية، وكان اسكندر بك ممن شجعهم البابا على حرب العثمانيين، فلم ينتظر قيام حرب صليبية وقام بشن هجوم على العثمانيين، وكانت الحروب بين الطرفين سجالاً حتى توفى اسكندر بك سنة ٨٧١هـ واستطاع بعدها السلطان محمد الفاتح أن يُخضِع الأرناؤوط (ألبانيا) لسلطة الدولة العثمانية.

سيطرة العثمانيين على القرم والفشل فى فتح بلاد البغدان:

عرض السلطان فى عام ٨٧٨هـ على أمير البغدان اصطفان الرابع دفع الجزية، فرفض فسار إليه الجيش العثمانى وانتصر عليه، لكنه لم يستطع فتح الإقليم، ففكر السلطان فى دخول شبه جزيرة القرم والاستفادة من فرسانها فى فتح البغدان، واستطاع السلطان أن يطرد الجنويين من مواقع كانوا يحتلونها فى شبه جزيرة القرم، واتفق السلطان مع سكان شبه جزيرة القرم من التتر المسلمين على دفع خراج

سنوى، ثم اتجه الأسطول العثمانى من شبه جزيرة القرم إلى مصب نهر الدانوب، فدخل بلاد البغدان وفر من أمامه الجيش البغدانى ليستدرجوه إلى غابة كثيفة ثم انقضوا عليه وهزموه عام ٨٨١هـ ولذلك اشتهر أصطفان الرابع بمحاربة العثمانيين وسماه البابا بشجاع النصرانية وحامى الديانة المسيحية.

محاربة البنادقة:

أغار السلطان على بلاد البنادقة عام ٨٨٢هـ واستطاع فتح بلاد كرواتيا ودلماسيا (الجبل الأسود وجزء من ألبانيا وجزء من كرواتيا) ثم فتح مدينة اشقودرة فلجأ البنادقة إلى إبرام الصلح معه عام ٨٨٧هـ.

الفشل فى فتح ترانسلفانيا (الجزء الغربى من رومانيا):

وجهت الجيوش لفتح إقليم ترانسلفانيا الذى كان يتبع المجر فى ذلك الوقت، فانهزم الجيش العثمانى وقتل الكثير من العثمانيين، وارتكب ملك المجر فيهم جرائم وحشية، وقتل جميع الأسرى ونصبت موائد الجيش على جثث المسلمين.

محاولة فتح إيطاليا:

لم يغب عن ذهن السلطان محمد فتح إيطاليا ورفع لواء الإسلام على رومية بعد أن فتح القسطنطينية يحركه فى ذلك يقينه بالله وبشارة الرسول ﷺ بفتح رومية حتى أنه أقسم بأن يربط حصانه فى كنيسة القديس بطرس (الفاتيكان).

ورأى أن يمهد لذلك بأن يفتح جزيرة رودس التى يسيطر عليها فرسان القديس يوحنا، ولكن الأسطول العثمانى فشل فى فتحها وأبرم صلحًا معهم عام ٨٨٥هـ ثم عاد فاتجه لفتح إيطاليا، فنزل الجيش العثمانى بسواحل إيطاليا واستطاع فتح مدينة أوترانت عام ٨٨٥هـ وفى العام الذى تلاه اشتغل بإعداد حمله عظيمة لإتمام فتح إيطاليا، ولكن وافته المنية وعندما توفى انصرف العثمانيون عن هذه الجهة وأخلى خَلَفه بايزيد الذى اشتهر بميله إلى السلم مدينة أوترانت من الجيش العثماني.

الفتوحات والتوسع فى الأناضول:

فتح السلطان إمارة طرابزون آخر إمارة صليبية فى الأناضول، وبذلك طهر الأناضول تمامًا من الصليبيين وضم إليه إمارة القرمان نهائيًا.

هاجم أوزون جيش من حلفاء تيمورلنك شرقى الأناضول فأرسل السلطان إليهم جيشًا هزمهم عام ٨٧٤هـ.

وتوفى السلطان محمد فى يوم ٤من ربيع الأول عام ٨٨٦هـ ، الذى استحق لقب الفاتح لجهاده الكبير فى سبيل الله وفتحه الكثير من البلاد، وهو يعد جيشًا كبيرًا لفتح إيطاليا فجزاه الله خيرًا عن المسلمين جميعًا.



الدولة العثمانية بعد توسعات محمد الفاتح

السلطان بايزيد الثانى
(٨٨٦ - ٩١٨هـ)

اشتهر بالميل إلى السلم، ولم يكد يجلس على العرش حتى خرج عليه أخوه جم، ولقى السلطان فى محاربته الكثير من العنت إلى أن اضطر إلى الفرار منه إلى مصر.

وكما ذكرنا كان يميل إلى السلم لا يدخل الحروب إلا مدافعًا، وعظم فى عهده أمر الأسطول العثمانى حتى أصبح خطرًا يهدد الملك الأوربى فما لبث أن اشتبك مع أسطول البنادقة فى موقعه هائلة هى فاتحة الانتصارات البحرية العثمانية، وفى عهده سقطت غرناطة آخر معاقل المسلمين فى الأندلس مما يدل على مدى تفرق المسلمين وظهرت فى عهده أيضًا دولة روسيا التى تمكن أميرها إيفان الثالث (إيفان الرهيب) من تخليص موسكو من أيدى التتر المسلمين ومحاربتهم وابتلاع بلادهم وإقامة الأفعال الوحشية، فيهم وبعث إلى السلطان بأول سفير روسى عام ٨٩٧هـ. وفى عصر السلطان بايزيد الثانى اعترفت البغدان بالسيادة العثمانية، وقامت بدفع الجزية سنويًا.

سيطرة سليم الأول على الحكم:

كان جنود الانكشارية لا يعجبهم انكماش بايزيد وضعفه، فالتفوا حول أصغر أبنائه سليم الذى وجدوا فيه العقلية العسكرية القوية، وكان يحكم فى ذلك الوقت إمارة طرابزون، وابنه سليمان فى كافا عاصمة القرم، فسار سليم إلى ابنه فى كافا وجمع جيشًا سار به إلى الولايات العثمانية فى أوروبا، وحاول السلطان بايزيد تهديد ابنه بالقتل، لكنه تراجع وترك له حكم بعض الولايات الأوروبية عام ٩١٦هـ فطمع سليم وسار إلى أدرنه وأعلن نفسه سلطانًا، فحاربه أبوه وانتصر عليه ففر إلى القرم ثم عفا السلطان عنه وأعاده إلى ولايات أوروبا، فلم يهدأ سليم إلا بعد أن جمع الانكشارية وسار بها إلى استنبول، وأرغم والده على التنازل عن الحكم ثم سرعان ما مات السلطان سليم الأول.

الدولة العثمانية من مجرد دولة إلى مقر للخلافة الإسلامية

الخليفة سليم الأول

(٩١٨ - ٩٢٦هـ)

الاتجاه إلى توحيد العالم الإسلامي:

بهذه العقلية العسكرية والتسلط الغير محدود الذى يتمتع به السلطان سليم الأول، رأى أن يجعل كل همه فى توحيد الأمصار الإسلامية الأخرى، حتى تكون يدًا واحدة ضد التحالف الصليبى الذى لا ينتهى فى أوروبا ضد المسلمين، وخاصة بعد سقوط الأندلس، والتى لم يحاول إنقاذها أى مصر إسلامى قائم فى ذلك الوقت.

ومما زاد رغبته فى توحيد المسلمين ما تردد وقتها من أن البرتغاليين احتلوا بعض المواقع فى جنوب العالم الإسلامى، ليواصلوا طريقهم إلى المدينة المنورة وينبشوا قبر رسول الله ﷺ ويساوموا المسلمين على القدس الشريف، وفى نفس الوقت يتحرش الصفويون الشيعيون بالعثمانيين من الشرق، ويجبرون السكان السنيين الذين تحت أيديهم على اعتناق المذهب الشيعى، ويزحفون على العالم الإسلامى، بل ويعقدون حلفًا مع البرتغاليين أعداء الإسلام على المسلمين السنة بصفة عامة، وعلى العثمانيين بصفة خاصة.

الهجوم على الدولة الصفوية وموقعة جالديران:

ولم يضيع السلطان سليم الأول الوقت، وأعد العدة لمنازلة الصفويين، وخشى فى طريقه أن يعترضه السكان الشيعة الذين هم داخل الدولة العثمانية على الحدود المتاخمة للصفويين، فأمر بقتلهم جميعًا ثم سار مباشرة فى اتجاه عاصمة الصفويين (تبريز) وأراد الجيش الصفوى أن يخدع العثمانيين بالفرار من أمامه حتى يصاب الجيش بالإرهاق فينقضوا عليه، وحدث الصدام بين

الجيشين فى جالديران شرقى الأناضول عام ٩٢٠هـ وانتصر العثمانيون، وبعدها بعشرة أيام دخل السلطان سليم الأول مدينة تبريز واستولى على خزانتها ثم اقترب فصل الشتاء ففترت عزائم الانكشارية، فانتظر السلطان حتى انتهى فصل الشتاء ثم سار مرة أخرى فى اتجاه الدولة الصفوية، واستولى على بعض القلاع فى أذربيجان، ثم عاد إلى استنبول وجمع ضباط الانكشارية الذين فترت عزيمتهم وامتنعوا عن مواصلة الزحف عندما حل فصل الشتاء، فقتلهم جميعًا حتى يكونوا عبرة لغيرهم.

الهجوم على المماليك:

ما إن انتهى السلطان سليم الأول من الصفويين حتى أعد العدة للهجوم على المماليك الذين ضعف أمرهم فى ذلك الوقت، ولم يحاولوا الوقوف فى وجه البرتغاليين، بالإضافة للخلاف الثائر بين المماليك والعثمانيين على إمارة ذى القادر التى تقع على الحدود الفاصلة بينهما.

موقعة مرج دابق ٩٢٢هـ:

استطاع السلطان سليم الأول جذب ولاة الشام فى صفه لقتال المماليك، ووعدهم بالإبقاء عليهم فى إماراتهم إذا ما تم له النصر، ثم سار بجيشه لملاقاة المماليك الذين بدورهم أعدوا أنفسهم لملاقاة العثمانيين، والتقى الجمعان فى موقعة مرج دابق عام ٩٢٢هـ واحتدم القتال العنيف بينهما، فتسلل ولاة الشام بجيوشهم وانضموا للعثمانيين، فضعف أمر المماليك وهزموا وقتل فى المعركة السلطان قنصوه الغورى وبهذه المعركة أصبحت الشام فى قبضة سليم الأول، أى ما يعادل نصف دولة المماليك وغدت الأناضول بأكملها تحت سلطان العثمانيين.

موقعة الريدانية ٩٢٣هـ:

تولى السلطان طومان باى مكان قنصوره الغورى فعرض عليه السلطان سليم الأول أن يعترف بسيادة العثمانيين ودفع خراج سنوى لهم، فأبى طومان باى فبرز إليه السلطان سليم فانهزم طومان باى على حدود الشام الجنوبية، فتتبعه السلطان سليم حتى مدينة القاهرة، حيث التقى الجيش فى موقعة الريدانية وانتصر العثمانيون برغم الدفاع المستميت للمماليك، ووقع طومان باى فى يد العثمانيين نتيجة لخيانة أحد أتباعه فأعدموه على باب زويلة.

تسلم العثمانيين مقاليد الخلافة:

بانتهاء دولة المماليك تنازل الخليفة العباسى الأخير محمد المتوكل- والذى كان كمن سبقه من الخلفاء فى دولة المماليك ليس له أى سيطرة و إنما كان صورة فقط- للسلطان سليم الأول عن الخلافة ودخلت الحجاز فى تبعية الدولة العثمانية، وأصبح السلطان سليم الأول أول خليفة عثمانى فنقل مقر الخلافة من القاهرة إلى استنبول وتوفى السلطان سليم الأول عام ٩٢٦هـ.

الخليفة سليمان الأول

(٩٢٦ - ٩٧٤هـ)

بلغت الدولة فى عهده أقصى اتساع لها حتى أصبحت أقوى دولة فى العالم فى ذلك الوقت، واشتهر بسليمان القانوني،لأنه وضع نظمًا داخلية فى كافة فروع الحكومة، فأدخل بعض تغييرات فى نظام العلماء والمدرسين الذى وضعه محمد الفاتح، وجعل أكبر الوظائف العليا وظيفة المفتي، وأدخل التنظيمات على جيش الانكشارية، وكانت كلها فى ضوء الشريعة الإسلامية، ولم تكن مستمدة من القوانين الوضعية كما قد يتبادر إلى الأذهان.

أعمال العثمانيين فى الأمصار الإسلامية:

تمرد حكام الشام:

ما إن وصل خبر موت السلطان سليم الأول إلى جانبرد الغزالى إلا وأعلن تمرده، وعرض على حاكم مصر أن يحذو حذوه فخدعه حاكم مصر بابداء الموافقة، وفى نفس الوقت كان يطلع الخليفة سليمان على كل ما يرمى إليه حاكم الشام، وبدأ حاكم الشام فى تنفيذ تمرده بمحاصرة حلب، ولكن بمجرد وصول الجيوش العثمانية إلى حلب، ولى حاكم الشام الأدبار ثم تحصن بدمشق وواجه الجيوش العثمانية فهزم، وحاول أن يفر متنكرًا فسلمه أحد أعوانه للعثمانيين فقتلوه.

فى بلاد فارس (الدولة الصفوية):

فى عام ٩٤١هـ دخل العثمانيون تبريز للمرة الثانية، ومنها اتجهوا إلى بغداد فضمت إلى أملاك الدولة العثمانية، وفى عام ٩٥٤هـ طلب أخو الشاه الصفوى مساعدة السلطان ضد أخيه، فدخل العثمانيون تبريز للمرة الثالثة.

فى بلاد العرب:

احتدم الخطر الإسبانى والبرتغالى الصليبى على المسلمين، فبعدما استولوا على آخر معاقل المسلمين فى بلاد الأندلس، وعاهدوا المسلمين على أن يكفلوا لهم الحرية الدينية وممارسة الشعائر لكنهم سرعان ما أخلفوا العهود ونقضوا المواثيق، فأخذت محاولات التنصير الضارية تنهمر على المسلمين فى الأندلس، مستعملين فى ذلك كل الوسائل من إبادة وتشريد وهتك للأعراض واستعباد، وغيرها من الوسائل التى يعجز القلم عن وصفها، فهام المسلمون فى الأندلس على وجوههم، منهم من لحقته الإبادة ومنهم من ذاب فى المجتمع النصرانى ومنهم من استطاع أن يفر بدينه ليهاجر للأمصار الإسلامية.

ولم يكتف الأسبان والبرتغاليون بالأندلس، فبعد أن استتب لهم الأمر فيها اتجه الأسبان نحو الأمصار الإسلامية الأخرى ليعيدوا المأساة فيها، واحتلوا بعض المراكز فى شمال إفريقيا مثل طرابلس والجزائر وبنزرت ووهران وغيرها.

فأرادت الدولة العثمانية تحرير شمال إفريقيا من الأسبان ثم الاتجاه للأندلس ولم شمل المسلمين.

البحّارة خير الدين وأخوه عروج:

وفى عهد السلطان سليم الأول ظهر أحد البحارة الذين لهم صفحات لامعة فى التاريخ الإسلامي، وهو البحار خير الدين الذى كان قرصانًا نصرانيًا فى جزر بحر إيجه ثم اعتنق الإسلام هو وأخوه عروج ونزرا نفسيهما لخدمة الإسلام، وكانا ينتقمان من القراصنة النصارى الذين كانوا يعترضون السفن المسلمة ويسترقون ركابها وينهبونها، فكانا بالمثل يعترضان سفن النصارى ويبيعان ركابها عبيدًا، ثم فى عهد السلطان سليم الأول أرسلا إليه إحدى السفن التى أسروها فقبلها منهما فأعلنا طاعتهما وخدمتهما للعثمانيين.

ضم الجزائر:

وانطلقا يطهران شواطئ إفريقيا من الصليبيين، فحرر عروج مدينة الجزائر ومدينة تلمسان وكان ذلك فى عهد السلطان سليم الأول فعين خير الدين واليًا على الجزائر وبالتالى ضمت الجزائر إلى الدولة العثمانية.

ضم طرابلس الغرب (ليبيا):

أرسل السكان المسلمون إلى الخليفة يستغيثونه بعد احتلال الإسبان لطرابلس، فأرسل إليهم قوة بحرية صغيرة عام ٩٢٦هـ بقيادة مراد أغا ولكنه فشل فى تحريرها، فأرسل الخليفة الأسطول العثمانى بقيادة طورغول بك فحرر المدينة من الإسبان وطردهم شر طردة، وواصل تحرير المدن الإسلامية من

وطأتهم فحرر بنزرت. ووهران وغزا ميورقة (إحدى جزر البليار جنوب شرقى أسبانيا) وكورسيكا وبذلك غدت طرابلس الغرب (ليبيا) ولاية عثمانية.

فى تونس:

دعا الخليفة سليمان البحار خير الدين وأميره بالاستعداد لغزو تونس وتحريرها من ملكها الحفصى، الذى اشتهر بميله إلى شارلكان الملك النصرانى شديد العداوة للإسلام، فأعد خير الدين العدة وبنى أسطولاً كبيرًا لهذا الغرض، وسار من مضيق الدردنيل قاصدًا تونس و فى طريقه أغار على مالطة وجنوبى إيطاليا للتمويه، ولكى لا يعرف مقصده الأساسى ثم وصل تونس وبمنتهى السهولة سيطر عليها وعزل السلطان حسن الحفصى، ووضع مكانه أخاه، فاشتاط شارلكان ملك أسبانيا وإيطاليا والنمسا وغيرها من بلاد أوروبا، وصمم على استعادة نفوذه فى تونس وإعادة ملكها العميل المخلص له، فقاد شارلكان بنفسه الجيوش، وتمكن من دخول تونس وترك الحرية لجنوده فى النهب والقتل وهتك الأعراض وهدم المساجد و السبى والاستعباد، وأعاد السلطان حسن الحفصى للحكم بعد أن أجبره على التنازل له عن مدن بنزرت وعنابة وغيرها، واضطر خير الدين إلى الانسحاب من تونس.

فى الجزيرة العربية والهند:

كما ذكرنا من قبل الخطر الذى بدأ يظهر من قِبَل البرتغاليين واحتلالهم لبعض المواقع فى جنوب شبه الجزيرة العربية ومواصلة الزحف لنبش قبر الرسول ﷺ، هذا بالإضافة إلى خطرهم على بلاد الهند التى كانت فى ذلك الوقت تحت سلطان المغول المسلمين.

أمر الخليفة سليمان بتجهيز أسطول للسيطرة على الجزيرة العربية وتطهيرها من البرتغاليين، فتمكن العثمانيون من ضم اليمن وعدن ومسقط ومحاصرة جزيرة هرمز،

وبالتالى أغلقوا الأبواب فى وجه البرتغاليين وأهـدافهم الدنيئـة، وفـى نفـس الوقـت استنجد المغول المسـلمون بالسـلطان سـليمان مـن البرتغـاليين الـذين احتلـوا بعـض سواحل الهند، فأرسل إليهم أسطولاً تمكن من تحرير بعـض القـلاع مـن البرتغـاليين، ولكن الأسطول العثمانى هزم فى معركة ديو البحرية فاضطر إلى الانسـحاب وخاصـة بعدما حاول الأعداء إثارة الفتن وإشاعة أن العثمانيين يريدون ضم الهند.

الجهاد فى أوروبا:

البحار خير الدين والانتقام لمسلمى الأندلس:

عندما سمع البحار خير الدين وأخـوه عـروج بمـا حـدث للمسـلمين قامـا لنجدة إخوانهم فى الأندلس، وكانت سفنهم تتجه إلى شواطئ الأندلس لتحمل المسلمين الفارين بدينهم من محاولات الإبـادة والتنصـير الإسـبانية إلى الأمصـار الإسلامية، وفـى نفـس الوقـت أراد أن ينـتقم لمسـلمى الأنـدلس مـن نصـارى أوروبا بصفة عامة ونصارى إسبانيا بصفة خاصة، والذين اشتركوا جميعًا وباركوا إبادة المسلمين فى الأندلس.

فأغار على الكثير مـن شـواطئ إيطاليـا وفرنسـا وإسـبانيا وزج فـى سـفنه بالكثير من أهالى هـذه الـبلاد تمهيـدًا لبـيعهم عبيـدًا فـى الأمصـار الإسـلامية، ليعلمهم أن المسلمين بقـدر سمـاحتهم وعفـوهم، فهـم قـادرون علـى الانتقـام لإخوانهم، وكان قد صب تركيـزه علـى إسـبانيا بعـد أن عقـدت معاهـدة بـين العثمانيين وفرنسا.وانتصر خير الدين بعـد انسـحابه مـن تـونس علـى أسـطول شارلكان فى عام ٩٤٤هـ وحاول فتح جزيرة كريت ولكنه فشل فى فتحها.

فتح جزيرة رودس:

استغل الخليفة انشغال أوروبا بالحروب كحروب شار لكان ملك النمسا مع ملك فرنسا فرانسوا وأيضًا الخلاف المذهبى بين الكاثوليك والبروتستانت واتجـه

لفتح جزيرة رودس، وتمكن بالفعل من فتحها عام ٩٢٩هـ وفر فرسان القديس يوحنا من رودس إلى جزيرة مالطة، التى أهداها لهم شارلكان ملك النمسا.

تحويل القرم إلى ولاية عثمانية:

وقع الخلاف بين التتر المسلمين الذين يحكمون القرم، والتى تعترف بسيادة الدولة العثمانية، فتدخلت الدولة العثمانية وجعلتها ولاية عثمانية عام ٩٣٩هـ.

تحويل الأفلاق إلى ولاية عثمانية:

قرر السلطان سليمان أن يجعل ولاية الأفلاق ولاية عثمانية، فدخلها عام ٩٣١هـ ودخل عاصمتها بخارست، ولكن الأعيان فيها ثاروا بمساعدة أمير ترانسلفانيا وعينوا أميرًا جديدًا فوافق الخليفة فى مقابل زيادة الجزية.

تحالف العثمانيين مع فرنسا:

اشتد خطر شارلكان ملك النمسا على فرنسا، وخاصة بعدما أحاط بها من جميع الجهات، فقد ضم إليه إسبانيا وأجزاء كبيرة من إيطاليا وهولندا وألمانيا، فاقترح ملك فرنسا على الخليفة سليمان القانونى أن يهاجم شرق مملكة شارلكان، فى حين يهاجم ملك فرنسا من الغرب فاقتنع الخليفة بالفكرة

فتح بلغراد:

أرسل الخليفة إلى ملك المجر يأمره بدفع الجزية، فقتل الملك رسول الخليفة فجهز الخليفة جيشًا قاده بنفسه وسار ففتح بلغراد عام ٩٢٧هـ بعد أن كانت أكبر مانع للعثمانيين لدخول بلاد المجر.

فتح بلاد المجر:

سار الخليفة بنفسه ومعه جيش قوامه ١٠٠,٠٠٠ جندى و٣٠٠ مدفع و٨٠٠ سفينة قى نهر الدانوب جنوب بلاد المجر، جاعلاً بلغراد قاعدته الحربية

ففتح عدة قلاع فى أثناء مسيرته واستطاع أن يفتح عاصمتها بودا فى عام ٩٣٢هـ بعد أن هزم ملك المجر وفرسانه والتقى بأعيان البلاد، اتفق معهم على تعيين جانزابولى ملك ترانسلفانيا ملكًا على المجر.

الحرب مع النمسا ومحاصرة ويانة (فيينا):

ادعى أخو الملك شارلكان فرديناند سلطته على المجر واستطاع أن يحتل عاصمتها بودا فاستنجد ملكها جان زابولى بالخليفة، فانقضت الجيوش العثمانية على بودا التى فر منها فرديناند فتبعته الجيوش المظفرة وحاصرت عاصمة النمسا ويانه (فيينا) وأحدثت ثغرًا فى أسوارها إلا أن الذخيرة نفدت منهم وأقبل فصل الشتاء فرجع الخليفة إلى بلاده.

وفى عام ٩٣٨هـ حاول ملك النمسا احتلال بودا ولكنه لم يستطيع فسار إليه الخليفة فى العام الثانى، ولكنه رجع عندما علم باستعدادات شارلكان.

فرنسا تنقض الحلف مع العثمانيين:

ثار الرأى العام فى أوروبا على تحالف فرنسا النصرانية مع الدولة العثمانية المسلمة ضد شارلكان ومملكته النصرانية فما كان من فرانسوا ملك فرنسا إلا أن عقد هدنة مع ملك النمسا، ونقض التحالف مع العثمانيين فاستغلت النمسا الفرصة وأعادت الكرة فى الحروب مع العثمانيين ولكنها انهزمت عام ٩٤٣هـ.

تحريض أمير البغدان على العثمانيين:

قام أخوا الملك شارلكان بتحريض أمير البغدان على الدولة العثمانية فأعلن تمرده فتمكن منه العثمانيون وعينوا أخاه اصطفان أميرًا للبغدان وعززوا الحامية العثمانية فيها.

مواصلة الحروب مع النمسا:

اقتنع زابولى ملك المجر بفكرة فرديناند فى اقتسام المجر، وإلغاء الحماية

العثمانية عليها، وأرسل فرديناند صورة من الاتفاق السرى بينهما للخليفة ليعلمه بعدم ولاء زابولى له، وقبل أن يعاقب الخليفة الملك زابولى كان الموت أسرع إلى زابولى عام ٩٤٦هـ فاستغل فرديناند الفرصة ليحتل المجر فاحتل مدينة بست (على الضفة الأخرى لنهر الدانوب والمواجهة لمدينة بودا واللتان اندمجتا معًا لتكونا العاصمة الحالية للمجر بوادبست) فانقض عليهم الجيش العثمانى عام ٩٤٧هـ ففر النمساويون. وبهذا أصبحت المجر ولاية عثمانية، ورضيت أرملة زابولى بذلك حتى يكبر ابنها الذى مازال طفلاً، وأخيرًا عقدت معاهدة بين العثمانيين والنمسا لمدة خمس سنوات تدفع بموجبها النمسا جزية سنوية مقابل ما بقى تحت يديها من المجر.

السيطرة على ترانسلفانيا:

واستمر الأوروبيون النصارى فى نقض العهود فتنازلت ايزابيلا أرملة زابولى عن ترانسلفانيا لفرديناند، وبذلك نقض العهد بين العثمانيين والنمسا فأسرعت الدولة العثمانية بالسيطرة على ترانسلفانيا عام ٩٥٧هـ.

عقد الاتفاقيات مع فرنسا:

أرادت الدولة العثمانية استمالة أحد الأطراف الصليبية إليها حتى تفرق وحدتهم ضدها، فعقدت مع فرنسا اتفاقية فى عام ٩٤٢هـ ولكنها شملت الكثير من الامتيازات لفرنسا التى سببت مشاكل كثيرة للعثمانيين، حتى سقطت الخلافة، خاصة وأن الكثير ممن خلفوا الخليفة سليمان قد تبعوه فى منح الامتيازات التى جعلت للأجانب دولة داخل الدولة العثمانية وجعلت القنصل يحكم بقوانين بلاده فى الدولة العثمانية فى كل ما يتعلق بالرعايا الفرنسيين، ومن أمثالها: ألا تسمع الدعاوى المدنية للسكان المسلمين ضد تجار ورعايا فرنسا، ولا يحق لجباة الخراج إقامة دعاوى عليهم، وأن يكون مكان دعواهم عند

الصدر الأعظم لا عند أى محكمة كباقى الشعب، وإذا خرج فرنسى من الدولة العثمانية وعليه ديون فلا يسأله أحد عنها، وتكون فى طى النسيان، وغيرها من الامتيازات التى جعلت لهم نفوذًا كبيرًا فى أنحاء الدولة، بمرور الزمن حتى أصبحوا يعيشون فى أرض يباح لهم فيها فعل كل ما يريدون، من استحلال للمنكرات والفجور ولا يستطيع أحد أن يكلمهم، بل قيل أن سجونهم التى كانت تدار بواسطة بلادهم فى الدولة العثمانية كانت عبارة عن قصور بها ما لذ وطاب من الجوارى و الخمور وغيرها.

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أخذت كل دولة أجنبية تطالب بامتيازات لها فى الدولة العثمانية كلما قوى أمرها كما سنعلم فى الصفحات الآتية ليزداد الخناق على الدولة العثمانية من الداخل، بالإضافة إلى الخناق المفروض عليها من الخارج والمتمثل فى الحروب.

الأفعى روكسلان ويهود الدونمة:

أسر التتر المسلمون فى القرم فى إحدى غاراتهم على الروس فتاة بالغة الجمال تدعى روكسلان، فأهدوها إلى الخليفة الذى اتخذها زوجة له، وقيل إنها كانت يهودية روسية، فعكفت عل التدخل فى شئون الحكم، فطلبت من الخليفة أن يسمح لليهود الذين طردوا من الأندلس مع المسلمين بالاستيطان فى أرجاء الدولة العثمانية، والذين يطلق عليهم يهود الدونمة، والذين لم يحفظوا الجميل للعثمانيين بعد أن رفضهم العالم وضاقت بهم الأرض بما رحبت، فلم يجدوا إلا الدولة العثمانية تفتح لهم أحضانها، وتظلهم بظلها، وسيكون لهم دور رئيسى فيما بعد فى سقوط الخلافة العثمانية كما سنعلم فى الأحداث التالية.

وتوسطت أيضًا لدى الخليفة ليمنع التتر فى القرم من محاربة الروس، برغم أن الروس فى ذلك الوقت كانوا قد سيطروا على أكثر بلاد التتر، وارتكبوا فيها

أبشع الجرائم التى تدل على حربهم الصريحة للإسلام.

ولم تكتف روكسلان بذلك، بل اجتهدت لتولى ابنها من السلطان سليمان - والذى سمى بسليم- الخلافة بعد أبيه برغم وجود أخيه الأكبر مصطفى القائد العظيم الذى حظى بحب الجيش والشعب له، فقامت بعمل دسيسة نفذها الصدر الأعظم رستم باشا (المعيّن) بواسطتها وهو فى نفس الوقت (زوج ابنتها من السلطان)، فحرّض رستم باشا الخليفة ضد ابنه، وكتب إليه يحذره أن ابنه مصطفى يريد عزله وتنصيب نفسه على السلطنة فخرج إليه الخليفة، وكان مصطفى يحارب الدولة الصفوية فاستدعاه أبوه إلى خيمته، فما إن جاء ابنه حتى انقض عليه بعض الخدم فخنقوه، ولم تكتف الأفعى بقتل مصطفى فأرسلت من يقتل ابنه الرضيع.

ثم توفى الخليفة سليمان عام ٩٧٤هـ وتولى بعده:

الخليفة سليم الثانى
(٩٧٤ - ٩٨٢هـ)

ومما يميز عصره أن أصبحت وظيفة الصدر الأعظم تشكل لمن يتقلدها الحاكم الفعلى وقائد الجيوش، وكان من أسباب اللجوء إلى هذه الوظيفة كبر رقعة الدولة واتساعها، وتدفق الأموال على خزائنها، مما جعل الحكام بعد ذلك يلجأون للترف والراحة تاركين للصدر الأعظم تحمل المسئولية.

وسليم هو ابن روكسلان الروسية، والذى تولى السلطة بعد أن نجحت الدسائس التى وضعتها روكسلان فى قتل أبناء الخليفة سليمان، واشترك سليم الثانى فى بعضها.

وهذا الخليفة لم يكن قويًا كالخلفاء والسلاطين السابقين ولكن وجود الوزير محمد الصقلى قد حفظ للدولة مكانتها.

أعمال العثمانيين فى الأمصار الإسلامية :

قمع الثورات فى اليمن:

قامت ثورة فى اليمن، وكان قائدها المطهر بـن شـرف الـدين فأرسـل إليـه جيش بقيادة عثمان باشا يسانده سنان باشا والى مصر، وتمكن الجيش مـن إخمـاد الثورة عام ٩٧٦هـ.

تحرير تونس من الأسبان وجعلها ولاية عثمانية:

استطاعت إسبانيا احتلال تونس عام ٩٨٠هـ وإعادة عميلها مولاى حسـن الحفصى، ولكن سرعان ما استطاع العثمانيون طرد الإسبان من تونس وجعلـها ولاية عثمانية عام ٩٨١هـ وكان قائد التحرير فيها هو سنان باشا والى مصر.

الأعمال فى أوروبا :

مع النمسا:

فى عام ٩٧٦هـ أبرمت الدولة صلحًا مـع النمسـا يـنص علـى اعـتراف الدولـة بحماية النمسا على بعض الأجزاء فى المجر، وتدفع النمسا مقابل ذلـك جزيـة سـنوية، وتعترف فى نفس الوقت بتبعية ترانسلفانيا والأفلاق والبغدان للعثمانيين.

مع فرنسا:

أكد الخليفة تأييده للمعاهدات والامتيازات المبرمة مع فرنسا وهذا ما ساعد على تدفق الإرساليات الكاثوليكية فى أنحاء الدولة العثمانية وبالذات فـى بـلاد الشام وبدأ العمل ضد الدولة العثمانية بضربها داخليا عن طريـق زرع الانتمـاء إلى فرنسا والنصارى بصفة عامة.

مع لهستان أو بولونيا (بولندا الحالية)

فرضت الدولة تعيين أخى ملك فرنسا ملكًا على لهستان، متحدية كـلاً مـن

النمسا وروسيا، وبذلك أصبحت لهستان (بولندا) تحت حماية العثمانيين.

فتح قبرص:

استطاعت الدولة العثمانية انتزاع قبرص من أيدى البنادقة الذين كانوا يحتلونها وذلك فى عام ٩٧٨هـ.

موقعة ليبانت البحرية:

بعد ازدياد الخطر العثمانى فى البحر المتوسط على أوروبا، وخاصة بعد فتح جزيرة قبرص، وبعض المواقع على بحر الأدرياتيك، وغزو جزيرة كريت، تحالف نصارى أوروبا لمحاربة العثمانيين، فاتحدت أساطيل البندقية مع إسبانيا مع رهبان جزيرة مالطة تحت مباركة البابا، واصطدمت هذه الأساطيل بالأسطول العثمانى عام ٩٧٩ وانهزم الأسطول العثمانى وفقد فى هذه المعركة ١٣٠ سفينة و٣٠٠ مدفعًا و٣٠ ألف أسير، أخذتها الأساطيل النصرانية، وكان لهذا الانتصار رنينه الشديد فى أوروبا، فخطب البابا فى كنيسة القديس بطرس بروما (الفاتيكان) يشكر دون جوان قائد الأساطيل المظفرة، وما إن وصلت أخبار الهزيمة إلى استنبول إلا وثار السكان المسلمون، يريدون أن يفتكوا بالنصارى لولا أن منعهم الوزير محمد الصقلى، وأخذت الدولة تعد أسطولاً جديدًا للأخذ بالثأر، فخافت البندقية فعرضت الصلح على العثمانيين مقابل اعترافها بسيادة العثمانيين على قبرص، ودفع غرامة حربية كبيرة وتم ذلك عام ٩٨٠هـ.

فى البغدان:

قضى العثمانيون على تمرد ببلاد البغدان عام ٩٨١هـ، وتوفى الخليفة سليم الثانى عام ٩٨٢هـ وتولى الحكم ابنه مراد الثالث.

الخليفة مراد الثالث
(٩٨٢ - ١٠٠٣هـ)

الشئون الداخلية:

بمجرد توليه الحكم أمر بقتل إخوته الخمسة حتى لا ينازعه أحد فى الحكم.

حاول السلطان منع شرب الخمر، والذى استفحل أيام أبيه، فأصدر قرارًا بمنعه فثارت الانكشارية وأجبروه على إلغاء هذا القرار.

جدد الامتيازات لدول أوروبا (فرنسا و البندقية) وأعطى سفير فرنسا مكانة خاصة، حيث يتقدم باقى السفراء فى المحافل الرسمية، وأجبرت السفن الأوروبية التى تدخل الموانى العثمانية أن ترفع علم فرنسا، باستثناء البندقية، ثم استثنيت إنكلترا أيضًا فى عهده.

الأعمال فى الأمصار الإسلامية:

فى مراكش:

استنجد سلطان مراكش بالعثمانيين لإخماد ثورة اندلعت فى بلاده، واستعان قائدها بالبرتغاليين، فلبى العثمانيون النداء، واصطدموا مع البرتغاليين فى موقعة القصر الكبيرعام ٩٨٥هـ، وتحقق النصر للعثمانيين فأعادوا السلطان إلى الحكم.

مع الدولة الصفوية:

استغل العثمانيون الاختلاف على تولية حاكم للدولة الصفوية بعد موت طهماسب عام ٩٨٤هـ فضموا إليهم من أملاكها بلاد الكرج (جورجيا) عام ٩٨٥هـ، ثم أذربيجان الشمالية (شروان عام ٩٨٦هـ)، ثم بلاد داغستان عام ٩٩١هـ، وفى هذه السنة سار القائد عثمان باشا إلى بلاد القرم ليؤدب خانها الذى لم يمد العثمانيين فى حربهم مع الصفويين، برغم أنهم طلبوا منه المدد،

وتمكن عثمان باشا من إغراء أخى خان القرم بتوليته بدلاً من أخيه فقتل أخاه، واستطاع عثمان باشا أن يدخل عاصمة القرم كافا، وتولى منصب الصدر الأعظم بعد موت محمد باشا الصقلى، هذا الرجل الذى حفظ للدولة مكانتها طوال توليه منصب الصدر الأعظم (١).

وأجبر عثمان باشا الصفويين على الاعتراف بما ضمه من أملاكهم، فدخل عاصمتهم تبريز عام ٩٩٣هـ فأجبروا على التنازل عما تم ضمه بالإضافة إلى جنوب أذربيجان بما فيها العاصمة تبريز.

الأعمال فى أوروبا:

بولندا تحت الحماية الفعلية للعثمانيين:

فرضت الدولة تعيين أمير ترانسلفانيا ملكا على بولونيا بعد مغادرة ملكها السابق هنرى إلى فرنسا، وبذا اعترفت النمسا بحماية الدولة على بولونيا عام ٩٨٤هـ فى معاهدة الصلح التى تمت بينهما، والتى كانت مدتها ٨ سنوات، وبذا تحولت الحماية العثمانية على بولندا من حماية اسمية إلى حماية فعلية.

مشاكل الإنكشارية التى لا تنتهي:

نظرا لتوقف الحروب سواء مع النمسا أو مع الصفويين لم تجد الإنكشارية عملاً لها إلا السلب والنهب فى المدن العثمانية، فأراد الصدر

(١) من مواقف هذا الرجل: طلب نائب البندقية الصليبية فى استانبول - فى معركة ليبانت السابق ذكرها وكان الأسطول العثمانى قد تحطم فى هذه المعركة- مقابلة الصدر الأعظم (محمد باشا الصقلي) ليسبر غوره ويقف على اتجاهات السياسة العليا للدولة العثمانية تجاه البندقية، وقد بادره الصدر الأعظم قائلاً: إنك جئت بلا شك تتحسس شجاعتنا وترى أين هي، ولكن هناك فرق كبير بين خسارتنا وخسارتكم، إذ أن استيلاءنا على جزيرة قبرص كان بمثابة ذراع قمنا ببتره وكسره، وبإيقاعكم الهزيمة بأسطولنا لم تفعلوا شيئًا أكثر من حلق لحانا، وإن اللحية لتنمو بسرعة وبكثافة تفوقان السرعة والكثافة اللتين تنبت بهما فى الوجه لأول مرة.

الأعظم أن يشغلهم بالحروب مع النمسا فى المجر، ونظرًا لما وصل إليه الإنكشارية من فوضى توالت عليهم الهزائم، وفقدوا بعض القلاع واستطاع سنان باشا أن يستردها عام ١٠٠٣هـ.

واستغل أمراء الأفلاق والبغدان وترانسلفانيا الموقف، وانضموا إلى النمسا فى حروبها ضد العثمانيين، فدخل سنان باشا عاصمة الأفلاق بخارست، إلا أن أميرها استطاع أن يجعل الجيوش العثمانية تتقهقر إلى ما بعد نهر الدانوب وانتزع منهم عدة مدن. وتوفى الخليفة مراد الثالث فى العام نفسه ١٠٠٣هـ وتولى ابنه محمد الثالث.

الخليفة محمد الثالث
(١٠٠٣ - ١٠١٢هـ)

وهو ابن الخليفة مراد الثالث من جارية إيطالية من البندقية، وكان لها تدخل كبير فى شئون الدولة، وما إن تولى الحكم حتى أمر بقتل إخوته التسعة عشر.

موقعة كرزت:

منذ أواخر عصر سليمان القانونى ومن خلفوه، كانت قيادة الجيوش بيد الصدر الأعظم، فخرج محمد الثالث عن هذه القاعدة، وخاصة بعد ما توالت الهزائم على الجيوش العثمانية، فقاد محمد الثالث الجيوش بنفسه فدبت الحمية الدينية فى قلوب الجيش العثمانى، وازدادت الروح القتالية وهزموا جيوش المجر والنمسا عام ١٠٠٥هـ فى موقعة كرزت.

اندلاع الثورات:

ثورة فراري:

فى أثناء موقعة كرزت فرت فرقة من الجيش، ولم تثبت فى المعركة فنفيت

إلى الأناضول، وأطلق عليها اسم فرارى، كنوع من التجريس والإهانة لها حتى تكون عبرة لغيرها.

فادعى أحد قادتها (قره يازجي) أنه رأى الرسول ﷺ فى المنام يبشره بالنصر على العثمانيين، فاستولى على مدينة عينتاب فحاصره العثمانيون، فوافق على التسليم فى مقابل أن يعين على ولاية أماسيا، فوافق العثمانيون، إلا أنه ما لبث أن عاد للتمرد بمجرد مغادرة العثمانيين، فعادوا إليه و فى هذه المرة يساعده أخوه ولى حسن والى بغداد فانهزم قره يازجى، ومات متأثرا بجراحه فى حين استطاع أخوه ولى حسن أن ينتصر على صقلى حسن باشا ويقتله عام ١٠١٠هـ ولكى تتجنب الدولة المزيد من الفتن أعطته ولاية البوسنة ليحارب الأوروبيين حتى هلك هو وأتباعه.

ثورة الخيالة (السباه):

ونتيجة للثورة السابقة طالب الخيالة بتعويضهم عما لحق بهم من أضرار، فانقض عليهم جيش الإنكشارية فأخمدهم.

وتوفى الخليفة محمد الثالث عام ١٠١٢هـ وتولى الخلافة ابنه أحمد الأول.

الخليفة أحمد الأول
(١٠١٢ - ١٠٢٦هـ)

تولى الحكم ولم يبلغ الرابعة عشرة من عمره، ولم يقم بقتل أخيه مصطفى ولكنه اكتفى بحبسه مع الجوارى والخدم.

حركات التمرد فى الدولة العثمانية: تعددت فى عهده الحركات ضد الدولة مستغلين صغر سنه، ومن أمثلة هذه الحركات حركة بولاد الكردى وحركة والى أنقرة قلندر أوغلى وحركة عز الدين المعنى وهو درزى تمكن من جمع الكثير من

النصارى والنصيرية والدروز، وأظهر للخليفة الطاعة فأعطاه الإشراف على مناطق كثيرة فى الشام مثل جبل لبنان وأجزاء من سوريا وغيرها، فاتفق مع الإيطاليين، فأمدوه بما يحتاج لبناء وتجهيز جيش قوامه ٤٠,٠٠٠ جندى ثم أعلن التمرد عام ١٠٢٢هـ فهزمته الجيوش العثمانية بعد أن استطاع الفرار إلى إيطاليا.

انتشار الدخان: انتشر شرب الدخان عن طريق الهولنديين، فتعاطاه الكثير من الجنود فأفتى المفتى بمنع الدخان، فهاج الجنود ومعهم الموظفون حتى أجبروا السلطان على إباحته.

التراجع أمام الصفويين: استطاع الشاه عباس ملك الصفويين أن يستغل الفتن الداخلية فى الدولة العثمانية، فاستعاد تبريز وشمال العراق وغيرها ومما زاد (الطين بلة) موت الصدر الأعظم مراد باشا، الذى أبلى بلاءً حسنا فى القضاء على الثورات والفتن، فاضطرت الدولة لعقد معاهدة صلح مع الصفويين عام ٩٢١هـ، تنازلت بموجبها عن كل ما ضمه العثمانيون من أملاكهم منذ عهد سليمان القانوني.

فى أوروبا:

جددت الامتيازات مع إنكلترا وفرنسا وحظيت الفلمنك (هولندا) بنصيب منها، وعقد صلح مع النمسا عام ١٠١٥هـ تدفع بمقتضاه النمسا ٢٠٠٠٠٠ دوكا دفعة واحدة وتتوقف عن الجزية السنوية التى كانت تدفعها.

عقدت معاهدة مع بولندا تحمى الدولة بها بولندا من تتار القرم فى حين تحمى بولندا الدولة من القازاق.

كثرت المعارك البحرية بين العثمانيين ونصارى أوروبا، وكان النصر فيها حليفًا للنصارى، مما دفع الدولة إلى سحب أسطولها من البحر الأسود لصد أساطيل النصارى فى البحر المتوسط، فاستغل القازاق هذه الفرصة وهاجموا ميناء سينوب العثمانى على البحر الأسود، ووقع الخلاف بين الخليفة والصدر

الأعظم نصوح باشا فقتل على أثره الصدر الأعظم.

توفى السلطان أحمد الأول عام ١٠٢٦هـ وكان في الثامنة والعشرين من عمره، وكان ابنه صغيرًا فعهد إلى أخيه مصطفى بالخلافة.

الخليفة مصطفى الأول
(١٠٢٦ - ١٠٢٧هـ)

خرج من حبسه مع الجوارى والخدم لا يعرف شيئًا عن الحكم، ولم تزد فترة حكمه عن ثلاثة أشهر ثم تم عزله وتولى ابن أخيه عثمان الثانى الخلافة عام ١٠٢٧هـ.

الخليفة عثمان الثانى
(١٠٢٧ - ١٠٣١هـ)

تولى الحكم وعمره لا يزيد عن ١٣ عاما فقتل أخاه محمد كما هى العادة.

عفا عثمان الثانى عن فخر الدين المعنى، وسمح له بالعودة من إيطاليا فعاد إلى جبل لبنان وبدأ يتحرك للتمرد مرة أخرى.

قامت الحرب بينه وبين بولونيا فطلبت بولونيا الصلح فتم عام ١٠٢٩هـ وخاصة بعد تخاذل الانكشارية فى القتال، فأراد أن يؤدبهم ويستبدل بهم جنودًا جددًا مدربين، فثاروا عليه وقتلوه، فى أول سابقة من نوعها فى الدولة العثمانية ومما يبين مدى النفوذ الذى وصل إليه الانكشارية، وأعادوا عمه مصطفى إلى الحكم عام ١٠٣١هـ، وما إن انتشر خبر قتل الخليفة حتى عمت الفوضى والثورات أرجاء الدولة العثمانية، وقام الولاة يعلنون الاستقلال عن الدولة فأشار الصدر الأعظم المعين بواسطة الإنكشارية بعزل الخليفة مصطفى الأول وتعيين ابن أخيه مراد الرابع خليفة عام ١٠٣٢هـ.

الخليفة مراد الرابع
(١٠٣٢ - ١٠٤٩هـ)

وهو ابن الخليفة أحمد الأول وكان حين تولى الحكم لم يبلغ الرابعة عشرة بعد.

الشئون الداخلية:

ثورة أباظة باشا: تولى الخليفة مراد الرابع الحكم والدولة تملؤها الفتن والثورات ومن أشهرها ثورة أباظة باشا، والى أرضروم الذى دخل إلى أنقرة وسيواس، ونظرًا لصغر سن الخليفة فقد سيطر الانكشارية فى بداية الأمر، فكانت المسئولية بأكملها ملقاة على عاتق الصدر الأعظم حافظ أحمد باشا، الذى استطاع أن يخمد ثورة أباظة باشا بعد الانتصار عليه فى موقعة قيصرية عام ١٠٣٣هـ، ثم عاد أباظة باشا إلى الثورة بعد تعيين خسرو باشا صدرًا أعظم فسار إليه خسرو باشا وأخضعه وعينه على ولاية البوسنة ١٠٣٧هـ.

ثورة الإنكشارية: ثارت الإنكشارية فى أثناء الحروب مع الدولة الصفوية، وكان الخليفة قد اشتد عوده فتصدى لهم وقتل مثيرى الفتنة منهم فأخمدهم.

تجدد ثورة فخر الدين المعني: ما إن استتب الأمر لفخر الدين المعنى حتى استغل الظروف التى تمر بها الدولة من فتن وثورات، وقام بثورة جديدة فخرج إليه والى دمشق واستطاع أن ينتصر عليه ويأسره هو وولديه، وأرسلهم إلى الخليفة الذى برغم تكرار خيانة فخر الدين وتعاونه الدائم مع أعداء الإسلام من الصليبيين، إلا أن الخليفة قد أحسن معاملته هو وذويه، مما شجع حفيده قرقماز على الثورة فنفد صبر الخليفة وقام بقتل فخر الدين المعنى وابنه الأكبر وأخضع ثورة قرقماز.

الحروب مع الصفويين: بدأت الحروب مرة أخرى مع الصفويين عندما قتل قائد الشرطة فى بغداد بكير أغا والى بغداد، فحاصره الصدر الأعظم حافظ باشا،

ولكنه اتصل بالشاه عباس، وعرض عليه تسليم المدينة، وفى نفس الوقت عرض على الصدر الأعظم تسليم المدينة وله ولايتها فوافق، ودخلت الجيوش العثمانية المدينة قبل وصول الشاه عباس، وما إن وصل الشاه عباس حتى ضرب الحصار على بغداد ٣ شهور، فعرض على ابن بكير أغا تسليم المدينة وإعطاءه ولايتها فوافق وخان العثمانيين، فدخلت جيوش الشاه بغداد وقتلت بكير أغا وابنه لأنهما خائنان لا يمكن الاعتماد عليهما.

حاول الصدر الأعظم حافظ باشا استرداد بغداد، ولكن الإنكشارية لم يحاربوا معه مما أدى إلى عزله، واستغل الصدر الأعظم خسرو باشا وفاة الشاه عباس ١٠٣٨هـ وتولى ابنه الصغير الحكم فاسترد مدينة همدان ١٠٣٩هـ وحاول استرداد بغداد مرتين ولكنه فشل فسار الخليفة بنفسه لقتال الصفويين وخاف أن يخرج عليه أخواه بايزيد وسليمان فأمر بقتلهما، ثم دخل مدينة تبريز عام ١٠٤٥هـ بعد مقاومة عنيفة من الصفويين، واسترد بعض القلاع ثم عاد إلى استنابول فاستغل الصفويون الفرصة واستردوا بعض القلاع، فخرج الخليفة إليهم وتمكن من دخول بغداد عام ١٠٤٨هـ وعقد صلحا بين الدولتين عام ١٠٤٩هـ وتوفى الخليفة فى نفس العام.

الخليفة إبراهيم الأول

(١٠٤٩ - ١٠٥٨هـ)

تولى الخلافة بعد وفاة أخيه مراد الرابع.

العمل فى أوروبا:

اندلعت الحروب من جديد بين القازاق والعثمانيين واستطاع القازاق احتلال مدينة آزارق (آزوف) على السواحل الشمالية للبحر الأسود ولكن العثمانيين استطاعوا استردادها عام ١٠٥٢هـ.

فتح جزيرة كريت:

جهز العثمانيون أسطولاً لفتح جزيرة كريت التى كانت تتبع البندقية فى ذلك الوقت، وتمكن العثمانيون من فتحها عام ١٠٥٥هـ ودخلوها بمنتهى السهولة لعدم وصول الأسطول البندقى، فاغتاظ البنادقة لذلك وأحرقوا بعض الموانى العثمانية، فأراد الخليفة الانتقام فى شخص نصارى الدولة، ولكن المفتى عارضه فامتثل لرأى المفتي، ولما ازداد تمرد الانكشارية أراد الخليفة أن يؤدبهم، ولكنهم لما علموا بذلك داهموه وأسرعوا بعزله وعينوا ابنه الصغير محمد الرابع الذى لم يتجاوز السبع سنوات، وذلك فى عام ١٠٥٨هـ ثم قتلوا الخليفة إبراهيم الأول خوفا من عودته للحكم.

الخليفة محمد الرابع
(١٠٥٨ - ١٠٩٩هـ)

الشئون الداخلية:

شاعت الفوضى فى أنحاء الدولة نظرا لصغر سن الخليفة، وكما ذكرنا سابقا كان الصدر الأعظم هو الذى يتحمل المسئولية كاملة، فاضطر الصدر الأعظم حسين باشا لرفع الحصار عن مدينة كنديا فى جزيرة كريت، بسبب الفوضى التى أشعلها الانكشارية فى البلاد.

ثورة قاطرجى أوغلي:

وفى عام ١٠٥٩هـ قام قاطرجى أوغلى بثورة فى الأناضول يدعمه كورجى ينى واستطاعا أن يهزما والى الأناضول أحمد باشا، ثم سارا إلى استنبول ولكنهما اختلفا فاستطاعت الجيوش العثمانية أن تهزمهما، وقتل كورجى وطلب قاطرجى أوغلى العفو فعفا عنه وتولى القرمان.

الحروب فى أوروبا:

استطاع الأسطول البندقى أن ينتصر على الأسطول العثمانى ويحتل جزيرتى تيدنوس وليمنوس اللتين تتحكمان فى مضيق الدردنيل، ولم تستطع السفن المحملة بالغذاء الوصول إلى استنبول فارتفعت أسعار الغذاء.

تولى محمد كوبريلى الصدارة العظمي:

من أشهر من تولى منصب الصدارة العظمى هو وأبناؤه بل وأحفاده فى تاريخ الدولة العثمانية، وذلك لما أبلوه من بلاء حسن فى الجهاد فى أوروبا وضبط الشئون الداخلية.

وبمجرد توليه المنصب عام ١٠٦٧هـ عمل على ضبط الأمور الداخلية، فأدب الانكشارية وأعمل فيهم القتل، وقام بقتل بطريرك الروم الذى كان له دور كبير فى الفوضى السائدة بالبلاد، فاستقرت الأوضاع الداخلية ليتفرغ للجهاد فى أوروبا.

وكانت بادرة أعماله تحرير الجزر والمرافئ التى احتلتها البندقية من الدولة العثمانية بعد عناء شديد.

تمرد أمراء ترانسلفانيا والأفلاق والبغدان:

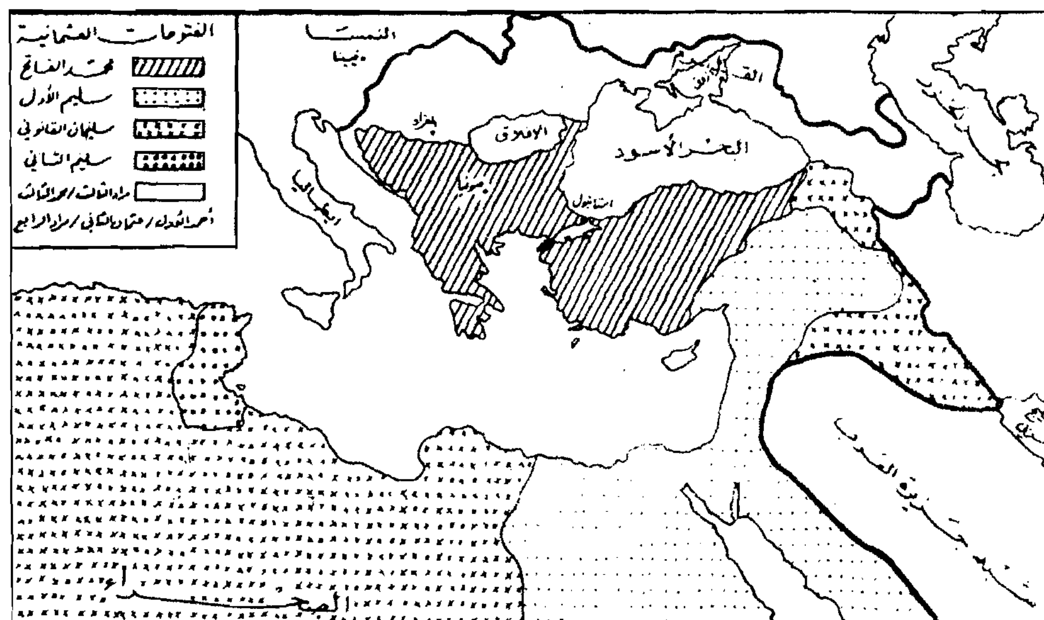
قامت الحرب بين السويد وبولندا، فعرضت السويد على العثمانيين أن يعاونوها فى مقابل السماح للدولة العثمانية ببسط سيطرتها على بولندا، فرفض محمد كوبريلى ولكن استطاعت السويد استمالة أمراء الأفلاق والبغدان وترانسلفانيا لحرب بولندا، فأمرت الدولة بعزلهم، فقام أمير ترانسلفانيا المعزول بمنازلة العثمانيين فأسرع إليه الصدر الأعظم فهزمه، ثم توجه إلى أمير الأفلاق الذى حاول العصيان فأخضعه.

تولى أحمد كوبريلى منصب الصدر الأعظم:

وبعد وفاة الصدر الأعظم محمد كوبريلى عام ١٠٧٢هـ بعدما أعاد للدولة هيبتها واستقرارها. تولى ابنه أحمد كوبريلى المنصب فسار على نهج أبيه.

فتوحات عثمانية جديدة:

رفض أحمد كوبريلى الصلح الذى عرضته كل من النمسا والبندقية، وتمكن الصدر الأعظم من التوغل فى أراضى النمسا، وفتح قلعة نوهزل الشهيرة، ثم واصل فتوحاته ففتح مورافيا (المنطقة بين التشيك وسلوفاكيا الآن) وإقليم سينزيا (الواقع الآن فى بولندا).



الدولة العثمانية فى أقصى اتساع لها

توتر العلاقة مع فرنسا:

توترت العلاقات بين العثمانيين وفرنسا نتيجة لمساعدة فرنسا للبنادقة فى كريت، ثم جاءت الحروب مع النمسا لتزيد من توتر العلاقات، فقد استنجدت النمسا بالبابا بعد الهزائم المتوالية لها أمام العثمانيين، فلبى البابا النداء واستنهض فرنسا التى أمدت النمسا بـ ٦٠٠٠ جندى، ودارت الكثير من المعارك، ولكنها كانت سجالاً بين الطرفين، حتى حدث الصلح بين العثمانيين والنمسا، والذى ينص على تقسيم المجر بينهما، وبرغم ذلك واصلت فرنسا قرصنتها البحرية على المرافئ العثمانية فى شمال أفريقيا، وعلى السفن المسلمة ثم حاولت فرنسا إعادة الامتيازات والتقرب إلى العثمانيين فرفض الصدر الأعظم أحمد كوبريلى، وزاد رفضه حينما حاولت فرنسا إرسال أسطول حربى لمنازلة العثمانيين، ثم أشار أحد وزراء فرنسا على ملكها أن يستعمل سياسة اللين مع العثمانيين، فتمكن من استعادة الامتيازات لفرنسا وتحسنت العلاقات بين فرنسا والعثمانيين وكان ذلك عام ١٠٨٤هـ.

الحروب مع بولندا:

أعلن القوزاق تبعيتهم للعثمانيين مما أثار أحقاد بولندا التى انقضت على أراضيهم (والتى تمثل الآن أغلب أراضى أوكرانيا)، فسار الخليفة بنفسه يقود الجيش الذى ألحق بالبولنديين هزيمة منكرة، فطلب البولنديون الصلح وتم ذلك فى معاهدة بوزاكس عام ١٠٨٣هـ، وكان من شروطه أن تضم الدولة العثمانية إقليم بودوليا فى غرب أوكرانيا، ويستحوذ القوزاق على باقى أوكرانيا، وتدفع بولونيا جزية قدرها ٢٢٠ ألف بندقى ذهبا.

رفض الشعب البولندى هذه المعاهدة، وسار قائده سوبيسكى الشهير بقتال العثمانيين واستطاع أن يحقق بعض الانتصارات، ثم عقد صلحا آخر بين بولندا والعثمانيين يكون للعثمانيين فيه مثل ما كان فى المعاهدة السابقة، باستثناء بعض

المدن وكان ذلك عام ١٠٨٧هـ وشارك سوبيسكى فى المفاوضات بعدما أصبح ملكًا على بولندا.

وما إن توفى الصدر الأعظم أحمد كوبريلى حتى تسلم مكانه صهرة قرة مصطفى عام ١٠٨٧هـ فلم يكن فى كفاءة سابقيه، وعمل فى سبيل مصلحته الشخصية لا مصلحة الدولة، وكانت بادرة أعماله السيئة إثارة القوزاق الذين استنجدوا بروسيا فاصطدمت بالعثمانيين عام ١٠٨٨هـ، ولم تتوقف الحرب إلا فى عام ١٠٩٢هـ ووقعت معاهدة راد زين بينهما لتعيد الحال إلى ما كان عليه قبل الحرب، ولكن أصبح القوزاق يكرهون العثمانيين ويميلون إلى الروس.

تجدد الحروب مع النمسا:

تجددت الحروب مع النمسا عام ١٠٩٢هـ والتى بدأها قره مصطفى بداية العمالقة ثم أنهاها نهاية الأقزام، وتسبب فى كارثة كبرى للدولة العثمانية.

فبدأ بالكثير من الانتصارات ووصل العثمانيون لويانه (فيينا) للمرة الثانية، وحاصروها بعد أن حاصرها العثمانيون أول مرة فى عهد الخليفة سليمان القانونى، ولم ينتبه قره مصطفى لتأمين ما فتحه من بلاد النمسا، ووضع كل تركيزه لفتح ويانه ولكن أوروبا ما كانت لتتركه يصل إلى هدفه، فنادى البابا أوروبا لنجدة النمسا، فما إن أصبح العثمانيون قاب قوسين أو أدنى من فتح ويانه حتى انهالت الجيوش الأوروبية عليهم، يتقدمهم سويسكى الذى أمره البابا بنقض العهد مع العثمانيين -كعادتهم دائما- وتساعده الإمارات الألمانية؛ ساكسونيا وبفاريا، وبرغم استبسال المسلمين فى الحروب إلا أنهم اضطروا للانسحاب، فلاحقهم سوبيسكى يقتل منهم ما تصل إليه يده.

التحالف الصليبى ضد العثمانيين:

لما علم الخليفة بالهزيمة التى تعرض لها العثمانيون، أمر بقتل قره مصطفى

وتولية إبراهيم باشا مكانه، فى الوقت الذى ابتهجت أوروبا للنصر المتحقق وقامت كل من البندقية والنمسا وبولندا وروسيا ورهبان مالطة يدعمهم جميعًا البابا بما أطلقوا عليه التحالف المقدس لإفناء العثمانيين من على وجه الأرض، فانطلقت النمسا على جبهة المجر فاحتلت مدينة بست ثم توغلت حتى ضمت الكثير من أراضى المجر واستطاعت احتلال مدينة بودا عام ١٠٩٧هـ التى فقدها العثمانيون نهائيًا ولم يستطيعوا دخولها مرة أخرى، كما احتلت النمسا إقليم ترانسلفانيا وأجزاء من كرواتيا، فى نفس الوقت كانت بولندا بقيادة سوبيسكى تغير على البغدان.

أما البنادقة ورهبان مالطة فتمكنت أساطيلهم من احتلال الكثير من مدن شبه جزيرة المورة، فعمت الفوضى أنحاء البلاد فقرر العلماء والوزير الثانى عزل الخليفة محمد الرابع وكان ذلك عام ١٠٩٩هـ وتولى مكانه أخوه سليمان الثاني.

الخليفة سليمان الثانى
(١٠٩٩ - ١١٠٢هـ)

الشئون الداخلية: عمت الفوضى بعد عزل الخليفة محمد الرابع وزاد نفوذ الانكشارية، فقتلوا الصدر الأعظم سياوس باشا. وسبوا أهل بيته كل هذا والخليفة لا يبدى أى مقاومة.

الشئون الخارجية: توالت الهزائم على الدولة العثمانية فاحتلت النمسا بلغراد وأجزاء من بلاد الصرب فى عامى ١٠٩٩هـ، ١١٠٠هـ وواصلت البندقية تقدمها، فاحتلت أجزاء كثيرة من كرواتيا ودلماسيا وأكثر أجزاء المورة.

تولى مصطفى كوبريلى الصدارة العظمي:

وجاء مصطفى باشا سليل عائلة كوبريلى الشهيرة بالبلاء الحسن فى

الصدارة العظمى، جاء فى الوقت المناسب ليعيد للدولة بعضًا من هيبتها التى فقدت، فبدأ بالإصلاح الداخلى فحفظ الأهالى من بطش الانكشارية، وأحسن للنصارى فى استنبول فكسب حب الناس، حتى أن النصارى الأرثوذكس فى المورة استطاعوا طرد البنادقة من أرضهم لمحاولتهم فرض المذهب الكاثوليكى عليهم وقبلوا حماية العثمانيين عليهم لعدم تعرضهم لعقيدتهم، وسار مصطفى كوبريلى على نهج أبيه محمد كوبريلى فاستطاع استرجاع بلغراد عام ١١٠١هـ، واستطاع القادة العثمانيون إخماد الثورة فى الصرب واستعادة إقليم ترانسلفانيا.

وتوفى الخليفة عام ١١٠٢هـ وتولى أخوه أحمد الثانى الخلافة لأن سليمان لم ينجب.

الخليفة أحمد الثانى
(١١٠٢ - ١١٠٦هـ)

لم تطل مدة حكمه على أربع سنوات، فقدت خلالها الدولة مصطفى كوبريلى شهيدًا فى القتال مع النمسا، ولم يكن خلفه عربجى باشا فى كفاءته فاحتلت البندقية جزيرة ساقز فى بحر ايجة. وتوفى الخليفة أحمد الثانى عام ١١٠٦هـ وتولى الخلافة بعده الخليفة مصطفى الثاني.

الخليفة مصطفى الثانى
(١١٠٦ - ١١١٥هـ)

استمرار الحروب مع أوروبا:

اتسم هذا الخليفة بالشجاعة والإقدام، فقاد الجيوش بنفسه لمنازلة البولنديين، واستطاع أن ينتصر عليهم بمساعدة فرسان القوزاق، وفى عام ١١٠٧هـ أجبر قيصر الروس بطرس الأكبر على فك الحصار عن مدينة

(آزوف) التى يسعى لضمها لتكون منفذا لروسيا على البحر الأسود، وتوجه الخليفة لملاقاة النمسا على أرض المجر، واستطاع أن ينتصر عليهم حتى فاجأ القائد النمساوى (أوجين دى سافوا) العثمانيين وهم يعبرون نهر تيس، واستطاع أن يهزمهم وغرق الكثير منهم فى النهر وأخذ يلاحقهم حتى استطاع دخول بلاد البوسنة.

وفى الوقت نفسه استغل بطرس الأكبر الفرصة، واحتل مدينة آزوف (أزوق) عام ١١٠٨هـ ومع توالى الهزائم على العثمانيين تولى الصدارة العظمى حسين كوبريلي فاستطاع الانتصار على النمسا، وطردهم من البوسنة، واسترداد بعض الجزر فى بحر إيجه.

معاهدة كارلوفتس ١١١٠هـ:

اضطرت الدولة إلى إبرام معاهدة كارلوفتس بوساطة فرنسا، خاصة بعدما تحالفت عليها الكثير من دول أوروبا والتى بمقتضاها تنازلت:

١- عن مدينة آزوف لروسيا.

٢- عما بقى لها من بلاد المجر للنمسا وعقدت هدنة مع النمسا لمدة ٢٥ عاما

٣- عن أوكرانيا وبودوليا لبولندا.

٤- عن ساحل دلماسيا وبعض جزر بحر ايجه للبندقية.

وحزن الصدر الأعظم حسين كوبريلى لهذه المعاهدة فقدم استقالته عام ١١١٤هـ، وثارت الانكشارية بعده على الخليفة حتى عزلوه عام ١١١٥هـ وتولى أخوه أحمد الثالث الخلافة.

***

الخليفة أحمد الثالث

(١١١٥ - ١١٤٣هـ)

نجح فى خداع الانكشارية فنفذ مطالبهم ووافقهم على قتل المفتى فيض الله حتى إذا اطمأنوا له، قتل رءوس الفساد فيهم وعزل الصدر الأعظم المعين برغبتهم، والذى كان قائدًا لثورتهم.

الحروب فى أوروبا :

الحرب مع روسيا ومحاصرة القيصر: طلبت السويد دعم العثمانيين فى حربها ضد الروس، ولكن الصدر الأعظم نعمان كوبريلى رفض ذلك، وما أن استلم بلطجى محمد باشا منصب الصدارة العظمى، حتى أعلن الحرب على روسيا وأتيحت له الفرصة لأن يفنى دولة روسيا من الوجود، بعدما تمكن من حصار القيصر وعشيقته كاترينا، التى أصبحت امبراطورة فيما بعد، والتى تمكنت من إغراء الصدر الأعظم بالجوهرات والمال، ففك الحصار واكتفى بتوقيع معاهدة تتعهد فيها روسيا بالتخلى عن ميناء آزواف، وأن لا تتدخل فى شئون القوزاق، وبسبب خيانة الصدر الأعظم فقد تم عزله ونفيه لاحدى جزر بحر إيجه، وتولى منصبه يوسف باشا الذى أبرم مع روسيا معاهدة جديدة تقضى بهدنه مدتها ٢٥ عاما بين الدولتين، عرفت بـمعاهدة أدرنه، ولكن ما لبثت روسيا أن عادت لنقض العهود، فتدخلت إنكلترا وهولندا لتأثير الحروب على تجارتهما وعقدت معاهدة أدرنه عام ١١٢٥هـ والتى تنص على سيطرة العثمانيين على كافة السواحل الشمالية للبحر الأسود، وفى نفس الوقت لا تدفع روسيا جزية لخانات القرم.

تطهير كريت من البنادقة: منذ فتحت كريت والأوضاع بها غير مستقرة، نظرًا لوجود بعض المواقع ظلت البندقية تسيطر عليها فى الجزيرة حتى

تمكن العثمانيون من طردهم منها تمامًا عام ١١٢٩هـ.

معاهدة بساروفتس ١١٣٠هـ: استنجدت البندقية بالنمسا التى هددت العثمانيين بالحرب إن لم يعيدوا ما أخذوه من البندقية، فضرب العثمانيون بتهديدهم عرض الحائط، فنشبت الحرب بينهما، واستطاعت النمسا أن تنتصر على العثمانيين وتحتل بلغراد عام ١١٢٩هـ ثم عقد الصلح عام ١١٣٠هـ بمعاهدة بساروفتس التى بمقتضاها:

١- تفقد الدولة بلغراد ومعظم بلاد الصرب جزءًا من الأفلاق للنمسا.

٢- وأن تعود بلاد مورة للعثمانيين.

٣- تظل البندقية مسيطرة على سواحل دلماسيا.

الحرب مع الصفويين: استغل العثمانيون ضعف الصفويين، بعد ما تنازل الشاه حسين لأمير أفغانستان مير محمد عن الحكم، فضموا إليهم بلاد الكرج وأرمينيا، واستغلت روسيا الفرصة فاحتلت بلاد داغستان، وكاد العثمانيون أن يصطدموا بالروس لولا الوساطة الفرنسية.

وحاول الصفويون استرداد ما فقدوه، فهزموا وفقدوا تبريز وهمدان وغيرهما ثم جرى الصلح عام ١١٤٠هـ، ثم ما لبث أن تجددت الحرب بينهما بعدما تولى طهماسب حكم الصفويين، ولميل الخليفة للصلح ثار الانكشارية وقتلوا الصدر الأعظم ثم عزلوا الخليفة وولوا ابن أخيه مكانه.

استطاعت الدولة العثمانية أن تنزل بالصفويين الهزيمة عام ١١٤٤هـ ثم تم الصلح بتنازل الصفويين عن همدان وتبريز وإقليم لورستان، ولكن والى خراسان نادر شاه رفض المعاهدة، واستطاع أن يسير إلى الشاه ويعزله ثم اتجه لقتال العثمانيين وألحق بهم الهزيمة حتى عقد صلحًا بين العثمانيين والصفويين

فى مدينة تفليس ببلاد الكرج عام ١١٤٩هـ، تنازل فيه العثمانيون عن كل ما أخذوه من الصفويين وأصبح نادر شاه ملكًا على فارس.

دخول الطباعة الدولة العثمانية: ومما يذكر فى عهد الخليفة أحمد الثالث إنشاء أول دار للطباعة فى استنبول لتكون السابقة الأولى من نوعها فى الدولة العثمانية.

الخليفة محمود الأول
(١١٤٣ - ١١٦٨هـ)

عندما تولى الحكم كان النفوذ الأعظم لقائد ثورة الانكشارية بطرونا خليل الذى عزل الخليفة ثم ما لبث أن اختلف معه الانكشارية وقتلوه.

معاهدة بلغراد:

احتلت روسيا بولندا بدعم من النمسا، وعندما رغبت فرنسا فى إنقاذ بولندا أرضتها النمسا بمعاهدة فيينا لكى تتفرغ النمسا لقتال العثمانيين، وبدأت روسيا بإشعال الحرب مع العثمانيين، واحتلت ميناء آزوف، فاتحدت الدولة العثمانية مع الفرس واستطاعت وقف هجومهم، وفى نفس الوقت أخذت تلاحق الجيوش العثمانية النمسا حتى تمكنت من هزيمتها وعقدت معاهدة بلغراد عام ١١٥٢هـ والتى نصت على:

١- عودة بلغراد وما تحتله النمسا من أراضى الصرب والأفلاق إلى الدولة العثمانية.

٢- وأن تلتزم روسيا بهدم قلاع مدينة آزوف وألا تكون لها سفينة فى البحر الأسود.

وتوفى الخليفة محمود الأول عام ١١٦٨هـ وتولى الخلافة أخوه عثمان الثالث.

الخليفة عثمان الثالث

(١١٦٨ - ١١٧١هـ)

ولد عام ١١١٠هـ وكان عمره حين تولى الخلافة يزيد على الثامنة والخمسين عامًا، قتل الصدر الأعظم على باشا لسوء تصرفه وعين محمد راغب باشا مكانه، فكان عونًا له، وأهلاً للإصلاح، وكان الخليفة يسير متنكرًا في الليل، ويطلع على أحوال الرعية، ويعمل على الإصلاح. وقد توفى في عام ١١٧١هـ.

الخليفة مصطفى الثالث

(١١٧١ - ١١٨٧هـ)

وهو ابن الخليفة أحمد الثالث وتولى الخلافة عام ١١٧١هـ.

الحرب مع الروس:

أغار القوزاق التابعون لروسيا على حدود الدولة العثمانية، فأعلنت الدولة الحرب على روسيا، وقاد خان القرم كريم كراى الجيش وانتصر على الروس وعاد بعدد كبير من الأسرى الروس عام ١١٨٢هـ.

من الأشياء التى جدت فى عهد هذا الخليفة ومن تبعه هو قتل الصدر الأعظم أو القائد إذا فشل أو انهزم فى الحرب، حتى يكون عبرة لغيره، ففى الحرب مع الروس فشل الصدر الأعظم فى فك حصارهم عن عدة مدن، فكان جزاؤه القتل، ثم جاء الصدر الأعظم الجديد وحاول اجتياز نهر الدينستر وكان النهر فى ذلك الوقت فائضًا فغرق الكثير من الجند، وهزم العثمانيون وكان ذلك عام ١١٨٣هـ واستطاع الروس احتلال إقليمي الأفلاق والبغدان.

وحاول الروس احتلال طرابزون ولكنهم لم يستطيعوا، ولكنهم استطاعوا فى عام ١١٨٥هـ فصل القرم عن الدولة العثمانية، وتعيين جاهين كراى باسم

الإمبراطورة كاترين الأولى إمبراطورة روسيا، وتوسطت النمسا لإنهاء الحرب ولكن الروس طلبوا شروطًا مجحفة، وهم يعلمون تمامًا أن الدولة سترفضها وذلك طمعًا فى استمرار الحرب ومواصلة تقدمهم فى أملاك الدولة، فاندلعت الحرب من جديد ولكن خاب ظن الروس فقد صدت القوات العثمانية هجوم الروس، وتمكنت من إجلائهم عن كثير من المناطق التى احتلوها.

الفتن الداخلية: حاولت روسيا إثارة الفتن داخل الدولة العثمانية، حتى تضربها داخليًّا مع استمرار منازلتها خارجيًّا.

ثورة نصارى المورة: أثار الروس نصارى المورة واتجه الأسطول الروسى إلى المورة لدعم الثورة، ولكنه منى بالهزيمة، ولكن بعض السفن التى أفلتت تمكنت من إحراق جزء كبير من الأسطول العثمانى، ثم اتجهت لاحتلال جزيرة لمنوس فأجبرتها البحرية العثمانية على التقهقر عام ١١٨٥هـ وأخمدت الثورة فى المورة.

ثورة على بك الكبير فى مصر: استطاع الروس أن يقنعوا على بك الكبير والى مصر بمد نفوذه فى الدولة العثمانية مستغلاً انشغالها بالحروب مع روسيا، واتجه الأسطول الروسى فى البحر المتوسط يمد على بك الكبير بما يحتاج من ذخيرة، فدخل بلاد الشام ولم يقو أحد على إيقافه، وخاصة أن الأسطول الروسى يتحرك معه، ولكنه فوجئ بتمرد نائبه فى مصر محمد أبى الذهب فعاد إلى مصر لقتاله، ولكنه هزم فاتجه إلى ضاهر العمر وهو أحد قطاع الطرق، وكان فى نفس الوقت من جباة الأموال فوجد فيه سندًا له فواصل تقدمه فى الشام، وكان الخليفة فى بداية الأمر يعترف بما ضمه على بك وذلك لانشغاله بقتال الروس، ولكن لما استفحل أمره التقى به الجيش العثمانى بالقرب من مدينة صيدا فانتصر على بك الكبير، وخاصة أن الأسطول الروسى كان يساعده بإلقاء قذائفه على السواحل الشامية.

وبعد ذلك استعد على بك الكبير لمهاجمة الأناضول، وفقًا لاتفاقه مع الروس، بأن يهاجم هو من الجنوب ويهاجم الروس من الشمال، فتقع الدولة العثمانية بين فكيهما، ولكنه رأى أن يقضى أولاً على محمد أبى الذهب فى مصر فسار إليه والروس يدعمونه بأربعمائة جندي، والتقى بمحمد أبى الذهب فى عام ١١٨٧هـ فهزم على بك الكبير هزيمة منكرة ومات متأثرا بجراحه، ووقع فى الأسر الجنود الروس الذين يدعمونه، وتخلصت الدولة من فتنة هذا الخائن التى كادت تقضى على الدولة وتفتح لروسيا أبوابها، وعين محمد أبو الذهب واليًا لمصر نظرًا لإخلاصه وتفانيه فى خدمة الدولة.وتوفى الخليفة مصطفى عام ١١٨٧هـ.

الخليفة عبد الحميد الأول
(١١٨٧ - ١٢٠٣هـ)

كان محبوسًا فى قصره حتى توفى أخوه فخرج ليتسلم الخلافة.

اتفاقية قينارجة ١١٨٧هـ:

أغارت أساطيل روسيا على مدينة وارنا (فارنا) البلغارية وأنزلت قواتها التى استطاعت محاصرة معسكر العثمانيين فطلب الصدر الأعظم الصلح فعقدت اتفاقية قينارجة والتي نصت على:

١- إعتراف العثمانيين باستقلال القرم وكذلك إقليم بسارابيا (يمثل الآن جمهورية ملدافيا وجزء من أوكرانيا ومقاطعة دوبروجة من جمهورية رومانيا) وكذلك منطقة قوبان الواقعة شمال غربى القوقاز وكانت روسيا تهدف لاستقلال هذه المناطق تمهيدًا لاحتلالها.

٢- حرية ملاحة السفن الروسية فى البحر الأسود.

٣- وأن تدفع الدولة العثمانية لروسيا غرامة حربية مقدارها ١٥ ألف كيس تدفع على ثلاثة أقساط في مطلع كل عام نصراني.

٤- وأن يكون لروسيا حق حماية النصارى الأرثوذكس الذين يقيمون فى الدولة العثمانية وتبنى كنيسة في استنبول.

وواصلت روسيا تحقيق أهدافها فأشعلت الفتن فى القرم لتجد لها مبررًا للتدخل، وبالفعل احتلت القرم واشتاطت الدولة العثمانية من تصرف الروس، وكادت تعلن الحرب عليها لولا ما أبداه السفير الفرنسى من استعدادات روسيا ومن تضامن النمسا معها وانتظار الفرصة لتفتيت الدولة العثمانية.

وواصلت روسيا استفزازاتها للزج بالدولة العثمانية فى حرب معها كى تقتطع منها المزيد من الأراضى، فأعلنت حمايتها على بلاد الكرج وأطلقت لجواسيسها العنان لإثارة الفتن، وخاصة فى الأقاليم ذات الأغلبية الأرثوذكسية مثل؛ الأفلاق والبغدان والمورة والصرب، وأخذت روسيا تشحن شعبها للحرب مع العثمانيين، فعندما زارت الإمبراطورة كاترينا الثانية القرم استقبلت بأقواس النصر المكتوب عليها الطريق إلى بيزنطة؛ والمقصود بها القسطنطينية، فالروس أصحاب المذهب الأرثوذكسى لم ولن ينسوا أن العثمانيين أخذوا أقدس مكان لهم على الأرض، بل وحولوه إلى مسجد، فكانت أسمى أمانيهم السيطرة على استنبول، وإرجاع ما كان فى العهد القديم، وخاصة بعدما نقل مقر الكنيسة الأرثوذكسية إلى موسكو بصفة أن الروس حامى حمى الأرثوذكس فى العالم وأقوى شعوبهم.

ولما علمت الدولة العثمانية بما يحدث، أرادت أن تبادر بالهجوم على الروس قبل أن ينقضوا عليها، فأبلغت السفير الروسى بعدة طلبات لروسيا كى تجد سببًا لجرها للحرب، وهذه الطلبات هى:

- رفع الحماية عن بلاد الكرج.
- تعيين قناصل عثمانيين فى السواحل التى تحتلها روسيا من البحر الأسود بدلاً من الذين يثيرون السكان.
- أحقية الدولة فى تفتيش السفن الروسية التى تعبر مضيق الدردنيل.
- تسليم حاكم الأفلاق اللاجئ سياسيًا لروسيا.

وكما هو متوقع رفضت روسيا الطلبات، فأعلنت الدولة العثمانية الحرب عليها، وجرت مناوشات بين الطرفين تمكنت روسيا عام ١٢٠٣هـ من احتلال مدينة أوزى، وفى نفس الوقت انتهزت النمسا الفرصة للإغارة على بلاد الصرب ولكنها فشلت فى احتلالها.

التخلص من ضاهر العمر: استطاع محمد أبو الذهب بأمر من الخليفة أن يتتبع ضاهر العمر فى الشام فحاصره في عكا، ثم فر إلى جبال صفد، ثم قتله عام ١١٨٨هـ.

وتوفى الخليفة عبد الحميد عام ١٢٠٣هـ.

الخليفة سليم الثالث
(١٢٠٣ - ١٢٢٢هـ)

وهو ابن الخليفة مصطفى الثالث، تسلم الخلافة فى وقت عصيب، فقد استطاعت روسيا أن تحتل إقليم الأفلاق والبغدان وبساربيا، وساعدها على هذا النجاح مساندة النمسا لها واحتلالها لبلاد الصرب ودخولها بلغراد.

ولكن جاءت عناية القدر، عندما ظهرت الثورة الفرنسية وانشغل الإمبراطور النمساوى بها، وخاف أن تمتد إلى بلاده، فعقد صلحًا مع العثمانيين

عام ١٢٠٥هـ أعاد إليها بلاد الصرب وبلغراد، ولكن روسيا لم تتوقف فى حربها ضد الدولة العثمانية واستطاعت أن تحتل المزيد من الأراضى، وكانت إذا دخلت بلادًا للمسلمين ارتكبت الفظائع وتجردت معهم من الإنسانية.

معاهدة ياسى ١٢٠٦هـ:

توسطت إنكلترا وهولندا وبروسيا بين العثمانيين والروس وعقدت معاهدة ياسي التي بمقتضاها:

١- تعود الأفلاق والبغدان للدولة العثمانية.

٢- تعترف الدولة العثمانية بسيادة روسيا على القرم وبسارابيا ومدينة أوزى وجزء من بلاد الشركس.

الشئون الداخلية: بعد المعاهدات التى أبرمت مع روسيا والنمسا حاول الخليفة إصلاح الشئون الداخلية للدولة، وجاء بفكرة الجنود النظامية ليتخلص من الانكشارية الذين أصبحوا منبعًا للفتن والهزائم، وحاول تقليد أوروبا بعد ما رأى التقدم الذى وصلت إليه، فجعل إنشاء السفن على الطريقة الفرنسية، واستعان بالسويد فى وضع المدافع، وترجم المراجع العلمية فى الرياضيات والفن العسكري.

وأثار إنشاء الجنود النظامية جنود الانكشارية، وخاصة بعد فصل الخليفة الأسطول والمدفعية عن الانكشارية، فثار الانكشارية ومعهم الجنود غير النظاميين وأجبروا الخليفة إلغاء النظام العسكرى الجديد، ولم يكتفوا بذلك بل عزلوا الخليفة عام ١٢٢٢هـ.

الحملة الفرنسية على مصر وتوتر العلاقات:

ومما يذكر فى عهد الخليفة سليم الثالث الحملة الفرنسية على مصر عام ١٢١٣هـ التى استطاع فيها نابليون دخول مصر، فتحول أعداء الأمس إلى

أصدقاء، وعرضت روسيا مساعدة العثمانيين فى الحرب مع فرنسا، وكذلك أبدت إنكلترا استعدادها لذلك، وفى ذلك الوقت كان نابليون يواصل توغله فى الأراضى العثمانية، فدخل بلاد الشام ولكنه فشل فى دخول عكا لاستبسال واليها أحمد باشا الجزار ومساعدة الأسطول الإنكليزى له، ثم استطاع الأسطول الإنجليزى تدمير الأسطول الفرنسى فى الإسكندرية عام ١٢١٣هـ واندلعت الثورة فى أنحاء مصر، وكان للجامع الأزهر كبير الأثر فى ذلك، وكان من أهم نتائج الثورة قتل كليبر خليفة نابليون فى مصر عام ١٢١٥هـ.

وأصبحت فرنسا فى مستنقع تفقد فيه الكثير من جنودها، حتى نزلت القوات العثمانية والإنكليزية فى مصر، وواصلت تقدمها إلى القاهرة، فاضطرت فرنسا للانسحاب من مصر عام ١٢١٦هـ بعد إبرام اتفاقية العريش وعادت العلاقات لسابقها مع فرنسا وتجددت الامتيازات

ثم عادت روسيا للعداء مع الدولة العثمانية، وخاصة بعد أن عزلت الدولة أميرى الأفلاق والبغدان المؤيدين من قبل روسيا، تدعمها إنكلترا وهددا الدولة بدخول استنبول، إن لم تعط إقليمى الأفلاق والبغدان لروسيا، وتعطى لإنكلترا أسطولها وقلاع الدردنيل، وكادت الدولة أن تخضع لهذه الشروط لأنها لا تملك القوة التى تستطيع المقاومة، إلا أن العناية الإلهية قد تمثلت فى اختلاف المصالح بين الدول، فجاء السفير الفرنسى للخليفة وعرض عليه عون فرنسا، فوافق الخليفة وتوجه الأسطول الفرنسى إلى مدخل مضيق الدردنيل مطوقًا الأسطول الإنكليزى فى بحر مرمرة فاضطرت إنكلترا للانسحاب فورًا خوفًا من تدمير أسطولها وحاولت تعويض فرارها فى الحملة التى شنتها على مصر بقيادة فريزر عام ١٢٢٢هـ ولكن شعب رشيد الباسل قد لقنها درسًا لن تنساه فانسحبت تجر أذيال الخيبة وراءها.

وكان محمد على أحد الجنود الذين جاءوا ضمن الجيش العثمانى لإخراج الفرنسيين من مصر، فما لبث أن جذب إليه المماليك والعلماء والأهالى، حتى نصب واليًا على مصر عام ١٢٢٠هـ فما إن استتب له الأمر حتى تخلص من المماليك فى مذبحة القلعة عام ١٢٢٦هـ وأثار الفتن بين العلماء لينفرد بالحكم وحده.

وفى عهد الخليفة سليم الثالث تكونت جمهورية مستقلة فى بلاد اليونان تحت ضغط دول أوروبا، وبرغم أن هذه الجمهورية تكون تحت حماية الدولة العثمانية إلا أن الوضع الذى أصبحت عليه سيمهد لها الطريق إلى الاستقلال التام عن الدولة العثمانية كما سنرى فى الصفحات المقبلة.

الخليفة مصطفى الرابع
(١٢٢٢ - ١٢٢٣هـ)

وهو ابن السلطان عبد الحميد الأول.

وفى ذلك الوقت لم ترد روسيا التخلى عن الأفلاق والبغدان، وفى نفس الوقت كانت روسيا فى حرب مع فرنسا، وانتصرت فرنسا فى الحرب ففرضت فرنسا رأيها على العثمانيين بأن يخلى الروس ولايتى الأفلاق والبغدان، على ألا تدخلها الجيوش العثمانية فوافق العثمانيون ولكن روسيا لم تترك الولايتين.

فى البداية انصاع الخليفة لأوامر الانكشارية بعدما عزلوا عمه وعين قائدهم قباقجى أوغلى حاكمًا لقلاع البوسفور، ثم ما لبث أن اختلف الانكشارية، وقتل قبابجى أوغلى وطلب القائد الجديد للإنكشارية إعادة الخليفة سليم الثالث، ولكن سليم وافته المنية فقتل الخليفة مصطفى القائد الجديد، فاجتمع عليه الانكشارية وعزلوه وولوا أخاه محمود الثانى عام ١٢٢١هـ.

الخليفة محمود الثانى

(١٢٢٣ - ١٢٥٥هـ)

امتلأ عهد محمود الثانى بأحداث هامة سواء على الصعيد الداخلى أو الخارجي.

الحركة الوهابية:

نتيجة للضعف الشديد الذى دب فى أوصال الدولة العثمانية ظهر فيها اتجاهان.

الاتجاه الأول.. والذى أرجع ما وصلت إليه الدولة العثمانية من ضعف إلى الابتعاد عن الإسلام، الذى ما كان للمسلمين أن تقوم لهم قائمة فى الأرض إلا بالتمسك به.

الاتجاه الثاني.. يقوم على ضرورة تقليد أوروبا تقليدًا أعمى، لكى نصل إلى ما وصلت إليه من تقدم وازدهار.

الاتجاه الأول: تمثل فى الحركة الوهابية التى قامت فى أنحاء الجزيرة العربية، واجتذبت إليها الكثير من أهلها.

والاتجاه الثاني: كان متمثلا فى محمد على، الذى أخذ فى إرسال البعثات إلى أوروبا لتأتى بكل ما تجده فى أوروبا، حتى لو كان لا يتفق مع الدين، ولذلك نجد الأوروبيين قد أثنوا دائمًا عند الكتابة عن محمد على، واعتبروا أن النهضة فى مصر قد بدأت منذ عهده.

ولما زاد أتباع الحركة الوهابية، أوحى الأوروبيون وغيرهم من أعداء الوهابيين إلى الدولة العثمانية بأنها حركة انفصالية خارجة عن سلطة الدولة، وكانت الجيوش العثمانية فى ذلك الوقت فى حروب مع أوروبا، فتركت مهمة

القضاء على الحركة لمحمد على، الذى استطاع أن يجهز جيشا قويًا يحمى به نفوذه ويخوض به المعارك، فأسرع ببناء أسطول لنقل القوات إلى ميناء ينبع على البحر الأحمر، ونزلت القوات التابعة لمحمد على بإمرة ابنه طوسون، واستطاعت أن تسيطر على المدينة المنورة، ولكنه حوصر فى الطائف فجاءه أبوه بنفسه، فاحتل مكة المكرمة ثم واصل طوسون زحفه فى الجزيرة العربية، فأرسل إليه عبد الله بن سعود أمير الدولة السعودية الراعية للحركة الوهابية، وطلب الصلح فتم، ولكن طوسون اضطر للعودة إلى مصر بعدما سمع بتمرد جند والده، وما إن هدأت الأوضاع فى مصر حتى بعث محمد على حملة جديدة بقيادة ابنه إبراهيم، واستطاع الوصول إلى الدرعية قاعدة السعوديين فاستسلمت وعقد الصلح فى عام ١٢٣٣هـ وبذلك قضى على الحركة الوهابية وسافر عبد الله بن سعود إلى استنبول، بعد أن أمّنه الخليفة ولكن ما لبث أن قتل بمجرد وصوله.

الأوضاع فى أوروبا:

مع استمرار الحروب مع روسيا وإشعال فتن الاستقلال عن الدولة فى ولاية الصرب، ومع تقدم الروس فى الأراضى العثمانية، تجددت الخلافات بين فرنسا وروسيا، فمالت روسيا للصلح مع الدولة العثمانية، لكى تتفرغ لقتال الفرنسيين فعقدت معاهدة بخارست التى تنص على سيادة الدولة العثمانية على الأفلاق والبغدان والصرب، وسيادة روسيا على بساربيا، واستطاعت روسيا أن تنتصر فى حروبها مع فرنسا مما اعتبره نابليون خيانة من العثمانيين.

ثورة الصرب: وفى بلاد الصرب اشتد غيظ السكان من معاهدة بخارست التى تبقيهم تحت الحكم العثمانى، فاندلعت الثورة فأخضعهم العثمانيون وفر زعماؤها إلى النمسا ما عدا تيودروفتش الذى أبدى طاعته للدولة وهو فى الحقيقة يعمل على زرع بذور الانفصال عنها فى السكان، حتى إذا قويت

شوكته أعلن التمرد عام ١٢٣٠هـ فاصطدمت معه الجيوش العثمانية، حتى أبدى الطاعة مرة أخرى للخليفة على ألا تتدخل الدولة فى شئون الصرب الداخلية وأن تكون السيطرة للعثمانيين فى الصرب على القلاع فقط فوافقت الدولة.

ثورة اليونان: كنتيجة طبيعية لعدم تدخل الدولة العثمانية فى عقيدة أو حضارة أو لغة الأمصار المفتوحة؛ افتقدت هذه الأمصار الارتباط مع الدولة العثمانية، وخاصة غير المسلمين، وكان من ضمن هذه الأمصار اليونان التى سافر العديد من أبنائها إلى أوروبا، ليعودوا مشحونين بالنزعات الانفصالية عن العثمانيين، وأسسوا جمعيات سرية فى النمسا وروسيا لدعم الانفصال عن العثمانيين، وما إن أعدوا العدة حتى أعلنوا التمرد على العثمانيين، فتوجه إليهم خورشيد باشا فهزم أمامهم وانتحر بعد الهزيمة.

فلم يجد الخليفة لإخماد الثورة فى اليونان غير محمد على الذى أتم فتح السودان، فأمر الأسطول المصرى أن يتحرك بإمرة ابنه إبراهيم متوجها إلى اليونان للقضاء على الثورة، حتى يضمها هى الأخرى إلى مناطق نفوذه، واستطاعت الجيوش المصرية أن تحقق انتصارات كاسحة فى اليونان، برغم الإمدادات التى كانت تنهال عليها من أوروبا بأسرها، وتمكن من دخول أثينا عام١٢٤١هـ فسارعت كل من روسيا وإنكلترا بالتدخل، وضغطت على العثمانيين لعقد معاهدة آق كرمان عام ١٢٤٢هـ وكان من أغرب ما تتسم به أنها لم تذكر شيئًا عن اليونان، بالرغم من أن التدخل كان بسبب الثورة فى اليونان، ومن أهم بنودها حرية الملاحة لكافة السفن فى البحر الأسود، وأحقية روسيا فى المرور فى مضائق البوسفور و الدردنيل بدون تفتيش، بالإضافة إلى أحقيتها فى انتخاب أمير الأفلاق والبغدان، ولا يحق للعثمانيين عزل أى منهما إلا

بموافقة روسيا، وأن تصير إمارة الصرب مستقلة ذاتيًا، ويحتفظ العثمانيون فيها بثلاث قلاع فقط منهم بلغراد.

مؤتمر لندن: واصلت أوروبا استفزازها للعثمانيين لجرهم إلى الحرب، ففى عام ١٢٤٢هـ طلبت إنكلترا من العثمانيين أن تكون الدول النصرانية هى الوسيط بين العثمانيين والولايات العثمانية ذات الأغلبية النصرانية، فرفضت الدولة، فجعلت أوروبا هذا الرفض ذريعة للحرب، واتفقت روسيا وإنكلترا وفرنسا على حرب العثمانيين، إذا لم يعطوا اليونان الاستقلال التام، وأعطوا مهلة للخليفة شهر لسحب قواته من اليونان، فلم يمتثل لهم الخليفة فتوجهت أساطيل روسيا وإنكلترا وفرنسا إلى اليونان، وأمرت إبراهيم باشا بالانسحاب من اليونان فضرب بكلامهم عرض الحائط، فدمر الحلف الأوروبى الأسطول العثمانى والمصرى فى اليونان، واستشهد ما يزيد على ٣٠ ألف مصرى فى مقاومة الحلف الصليبي، ثم اضطر إبراهيم باشا إلى الانسحاب بمن بقى معه من الجنود، وعقد التحالف الصليبى مؤتمر لندن الذى دعيت إليه الدولة العثمانية، فرفضت الحضور فأعلن التحالف استقلال اليونان عن الدولة العثمانية، فرفضت الدولة العثمانية الاعتراف بقرارات المؤتمر.

معاهدة أدرنه: أعلنت روسيا الحرب على العثمانيين، وتمكنت من احتلال البغدان والأفلاق، وعينت عليهم حاكمًا من قبلها، واستطاعت دخول مدينة وارنا (فارنا) البلغارية بعد خيانة أحد القادة العثمانيين، وهو يوسف باشا، الذى سلم المدينة لهم واستطاعت روسيا أيضًا أن تدخل شرقى الأناضول، ثم كانت الفاجعة باحتلالها مدينة أدرنه، وغدت قاب قوسين أو أدنى من استنبول فأسرعت إنكلترا وفرنسا بوقف تقدم روسيا، وذلك ليس من أجل العثمانيين ولكن لأن وصول روسيا إلى استنبول يهدد مصالح فرنسا وإنكلترا فعقدت

معاهدة أدرنه والتي من نصوصها:

١- عودة الأفلاق والبغدان ومقاطعة دوبروجة وقارص وأرضروم إلى العثمانيين.

٢- عدم تفتيش سفن روسيا المارة فى المضائق العثمانية.

٣- أن تتمتع روسيا بنفس الامتيازات التى تتمتع بها الدول الأخرى.

٤- أن يدفع العثمانيون غرامة حربية كبيرة لروسيا كتعويض لمصاريف الحرب.

٥- استقلال بلاد الصرب وتسليم ما تحتفظ به الدولة من قلاعها.

وتأمل أخى المسلم البند الرابع كى تلاحظ أن دول أوروبا لا تريد ترك الفرصة للعثمانيين أن يعيدوا بناء أنفسهم، ولا تنظيم جيوشهم وأن تزيد عليهم الخناق، حتى يكونوا فريسة سهلة فى القضاء عليها وأيضا من بنود المعاهدة.

احتلال الجزائر:

اختلقت فرنسا الذرائع التافهة لغزو الجزائر عام ١٢٤٥هـ، واستطاعت أن تحتلها برغم استبسال المقاومة بقيادة عبد القادر الجزائرى الذى اضطر للاستسلام عام ١٢٦٣هـ.

إلغاء الانكشارية:

أصبح الانكشارية كما ذكرنا لفترة من الزمن هم المسيطرون الفعليون على البلاد، يعزلون خليفة ويقتلون آخرًا، ويعينون ثالثًا، فعزم الخليفة محمود الثانى على القضاء عليهم، وخاصة بعدما سُرَّ بالنظام العسكرى الحديث، والذى تمثل فى جيش محمد على، فاجتمع فى بيت المفتى ودعا إلى الاجتماع مع كبار الدولة وكبار الانكشارية وقرر إلغاء نظام الانكشارية، فوافق الجميع إلا الانكشارية، وحاولوا التمرد وتجمعوا فى أحد ميادين استنبول، فحصدتهم المدفعية العثمانية

حصدًا فى عام ١٢٤٠هـ وأعلن النظام الجديد للجند، والذى قلد فيه الأوروبيين ودرب الجيش مدربون أوروبيون، واتجه بالبلاد إلى تقليد أوروبا حتى أنه تزيا بزيهم واستبدل بالعمامة الطربوش.

زيادة أطماع محمد على:

بعد أن ضم محمد على الحجاز وجزيرة كريت إلى أملاكه لم يقتنع بكل هذا، بل بدأ زحفه على بلاد الشام عام ١٢٤٧ بقيادة ابنه إبراهيم باشا، واستطاع أن يزيح جميع العقبات فى طريقه، سواء من الولاة أم من الجيش العثمانى، خاصة وأن الأسطول المصرى يسير بجانبه، ويمده بما يحتاج، وامتد زحفه إلى الأناضول، فهزم القائد العثمانى رشيد باشا وأخذه أسيرًا وأصبح قاب قوسين أو أدنى من استنبول.

معاهدة كوتاهية ١٢٤٨هـ:

وبرغم تشجيع أوروبا لمحمد على فى بداية الأمر، إلا أنها خشيت أن يستعيد المسلمون قوتهم وأن يصبح محمد على قوة تهددهم، فعرضت روسيا مساندتها للعثمانيين وأرسلت ١٥ ألف جندى لاستنبول بحجة حمايتها، فخشيت إنكلترا وفرنسا من امتداد النفوذ الروسى وتوسطت للصلح مع محمد على.

وبالفعل عقدت معاهدة كوتاهية عام ١٢٤٨هـ والتى نصت على:

١- انسحاب محمد على من الأناضول إلى ما بعد جبال طوروس.

٢- تكون مصر لمحمد على مدة حياته.

٣- يعين إبراهيم بن محمد على واليًا على أضنه وهو الإقليم المتاخم للأناضول.

٤- يعين محمد على واليًا من قبله على ولايات الشام الأربع (عكا، وطرابلس، ودمشق، وحلب) وعلى جزيرة كريت.

لم يقتنع محمد على بمعاهدة كوتاهية، ولكنه أراد أن تكون مصر والشام وجزيرة العرب له ولأولاده من بعده، وراسل أوروبا فى ذلك، فتشاورت معه

الدولة العثمانية، فاتفق الطرفان على أن تكون مصر وجزيرة العرب له وراثية أما الشام فتكون له مدة حياته فقط، ولكن نشب الخلاف بين الجانبين في احتلال جبال طوروس، المانع الطبيعي بين الشام والأناضول، فسار الجيش العثماني بقيادة حافظ باشا وقد استعان العثمانيون بالقائد الألماني المشهور فون مولتكه، فالتقى بإبراهيم باشا في موقعة نزيب وكان النصر حليف إبراهيم باشا ففر الجيش العثماني تاركًا عتاده وراءه.

وتوفى الخليفة محمود الثاني عام ١٢٥٥هـ.

معاهدة خونكار اسكله سي:

أبرمت معاهدة بين الدولة العثمانية وروسيا تتعهد فيها روسيا بالدفاع عن الدولة العثمانية وبالتالي أصبح لروسيا نفوذ كبير في الدولة.

الخليفة عبد المجيد الأول

(١٢٥٥ - ١٢٧٧هـ)

وهو ابن الخليفة محمود الثاني استلم الخلافة وكان عمره ١٨ سنة.

استمرار الحرب مع محمد علي:

ازدادت حدة الخلافات مع محمد علي، وخاصة بعدما رأى قائد البحرية العثمانية أن محمد علي هو الوحيد القادر على أن يعيد للدولة العثمانية، هيبتها المفقودة، فسار بالأسطول العثماني وسلمه لمحمد علي في الإسكندرية.

فدب الذعر في قلوب الدول الأوروبية لزيادة قوة محمد علي، وبخاصة بعدما أصبحت الدولة العثمانية غير قادرة على الصمود أمامه، فقدمت كل من روسيا والنمسا وإنكلترا وفرنسا لائحة مشتركة إلى الخليفة بألا يتخذ قرارًا يتعلق بمحمد علي إلا بمشورتهم، ووعدوه بالتوسط بينه وبين محمد علي فوافق الخليفة.

ثم اجتمعت كل من إنكلترا وروسيا وبروسيا والنمسا عام ١٢٥٦هـ فعقدوا اتفاقية صدق عليها العثمانيون وانسحبت منها فرنسا وشجعت محمد على رفضها ووعدته بأنها ستساعده فى الوقوف ضد الدول الأخرى وكانت من النصوص المقترحة لهذه الاتفاقية:

١- أن ينسحب محمد على من الأجزاء التى دخلها فى أملاك الدولة العثمانية.

٢- أن يحتفظ لنفسه فقط بمصر وجنوب الشام، وأن يكون لكل من إنكلترا والنمسا الحق فى مساعدة السكان فى الشام على عصيان محمد على فى الأجزاء الخاضعة له، وأن يكون لكل من النمسا وإنكلترا وروسيا الحق فى دخول استنبول إذا ما تعرضت لهجوم من محمد على، أما إذا لم تتعرض فلا يدخلها أحد.

وفى مصر جاء قناصل إنكلترا وروسيا وبروسيا والنمسا يعرضون عليه فى بداية الأمر أن تكون له مصر وراثية وعكا وجنوب الشام مدى حياته، ثم جاءوا ومعهم مندوب العثمانيين يخبرونه بأن مصر فقط ستكون له وراثية، فرفض وطردهم من مصر ولم تساعد فرنسا محمد على كما وعدته فتركته يواجه مصيره أمام دول أوروبا بمفرده وكان دور الدول المتحالفة كالآتي:

اكتفت روسيا بوجودها فى استنبول، أما إنكلترا فكان لها الدور الأكبر فى نقل أساطيلها إلى الشام مع القليل من سفن النمسا، ونزلت القوات المتحالفة ببيروت، واستطاعت أن تحرز انتصارًا كبيرًا على جيوش محمد على بقيادة ابنه إبراهيم باشا، فاضطر إبراهيم للانسحاب إلى مصر، وقضى على الكثير ممن معه أثناء العودة حيث انقضت عليهم القبائل العربية فى الطريق.

ثم توسطت الدول الأوروبية بين محمد على والعثمانيين على أن تكون له مصر وراثية فى مقابل أن يرد إلى العثمانيين أسطولهم، ويجعل جيشه محددًا بـ

١٨٠٠٠ جندى فقط، وألا يقوم ببناء أسطول وأن يدفع للعثمانيين ٨٠,٠٠٠ كيس سنويًا.

معاهدة المضائق ١٢٥٧هـ:

واستغلت إنكلترا وفرنسا الفرصة لنزع نفوذ روسيا من الدولة العثمانية، فاتفقوا جميعًا على إلغاء معاهدة خونكار اسكله سى، وأن تكون المضائق العثمانية مغلقة أمام الجميع.

حروب القرم مع روسيا:

كانت فرنسا فيما سبق تشرف على كنائس بيت المقدس، ثم أخذت روسيا مكان فرنسا أيام حرب نابليون، ثم أرادت فرنسا العودة لما كانت عليه فشكلت الدولة العثمانية لجنة من رجال الكنائس أقروا بأحقية فرنسا فى الإشراف على الكنائس، فهددت روسيا بالحرب، واتصلت بإنجلترا تعرض عليها تقسيم الدولة العثمانية بينهما، وتكون لإنكلترا مصر فرفضت إنكلترا، ثم حاولت أن تغرى فرنسا بنفس الإغراء على أن تكون تونس لفرنسا، فرفضت، فهددت روسيا باحتلال الأفلاق والبغدان، إن لم تعد الدولة العثمانية معاهدة خونكار اسكله سى وتعطى لروسيا حق حماية النصارى فى الدولة العثمانية، فلم يبد الخليفة أى اهتمام لتهديدات روسيا، وخاصة أن إنكلترا وفرنسا وعدتاه بالوقوف فى وجه روسيا ضد أى عمل تقوم به.

تحركت الأساطيل الإنكليزية والفرنسية باتجاه مضيق الدردنيل لصد أى هجوم روسى مرتقب، وبالفعل احتلت روسيا إقليمى الأفلاق والبغدان وحاولت النمسا الصلح بين العثمانيين والروس بعقد مؤتمر ويانة (فيينا) ١٢٦٩هـ ولكن سعت إنكلترا وفرنسا لإفشال المؤتمر، وحثتا العثمانيين على رفض جميع اقتراحاته.

وتحالفت إنكلترا وفرنسا والنمسا ومملكة البيمونت بإيطاليا والسويد مع العثمانيين ضد روسيا، وتقدمت قوات الحلف على جميع الجبهات وضربت أساطيل إنكلترا وفرنسا ميناء سيباستيبول فى شبه جزيرة القرم، وضربت الكثير من قلاعه بالإضافة للإغارة على الكثير من موانى روسيا على البحر الأسود، وتوغلت القوات المتحالفة فى أراضى روسيا حتى طلبت الصلح وعقدت **معاهدة باريس ١٢٧٥هـ** والتى تنص على:

١- تبقى الأفلاق والبغدان تحت حماية الدولة العثمانية.

٢- عودة الأراضى التى دخلتها القوات المتحالفة فى روسيا إلى الروس، ويطلق سراح جميع الأسرى.

٣- أن يكون للصرب استقلال ذاتى، وتكون فى نفس الوقت مرتبطة مع العثمانيين.

٤- ألا تقيم كل من روسيا أو العثمانيين أى قواعد بحرية حربية فى البحر الأسود، تكون حرية الملاحة فيه للجميع.

٥- تطلق حرية الملاحة في نهر الدانوب.

الفتن الداخلية:

واستمرت دول أوروبا فى إشعال الثورات فى أنحاء الدولة العثمانية، فاتفقت الدول الأوروبية على اتحاد الأفلاق والبغدان تحت حكومة شبه مستقلة تسمى حكومة الإمارات المتحدة، وتكون تحت حماية جميع الدول وحذرت الدولة العثمانية من قمع الثورات فى الصرب أو الجبل الأسود وغالبًا ما كانت الدول الأوروبية تدعم تلك الثورات.

وقد حدث اعتداء على النصارى فى جدة، وأصيب قنصل فرنسا، وهدأ والي مكة الأوضاع، غير أن الإنكليز ضربوا جدة بالمدافع.

الفتن الطائفية فى الشام: تمتلئ منطقة جبل لبنان بالطوائف المختلفة من دروز و موارنة وشيعة و نصيرية وغيرهم، وكان الدروز لهم السيطرة على جبل لبنان ويدعمهم الإنجليز، أما الموارنة فكانت فرنسا تدعمهم، وفى عام ١٢٥٧هـ دخل الدروز دير القمر واعتدوا على الموارنة، وارتكبوا أبشع المنكرات فيهم، وازدادت الاعتداءات بين الدروز والموارنة، والدولة تحاول تهدئة الوضع بالطرق السلمية، ولكنها فشلت ووجدت الدول الأوروبية الفرصة للتدخل فى شئون الدولة من جهة، وتقوية النصارى فى الدولة من جهة أخرى، وبرغم إرسال الدولة الجيش ليسيطر على الموقف إلا أن دول أوروبا أجبرت العثمانيين على السماح لهم بالتدخل، بحجة أن العثمانيين لا يستطيعون السيطرة على الموقف، وأرسلت فرنسا ٦٠٠٠ جندى إلى جبل لبنان عام ١٢٧٧هـ، ثم أبرم اتفاق ينص على تكوين حكومة مستقلة فى جبل لبنان تحت سيادة العثمانيين، يتولى رئاستها نصرانى لمدة ٣ سنوات لا يحق للدولة عزله إلا بعد موافقة الدول الأوروبية، وبذلك انسحبت فرنسا من جبل لبنان وتوفى الخليفة عبد المجيد عام ١٢٧٧هـ.

الخليفة عبد العزيز
(١٢٧٧ - ١٢٩٣هـ)

وهو أخو الخليفة عبد المجيد ومما يذكر فى عهده فتح قناة السويس عام ١٢٨٥هـ وقيام ثورة فى جزيرة كريت عام ١٢٨٣هـ وتم إخمادها وكان الخليفة كثير التجوال فى البلاد الخارجية، فزار مصر وزار دول أوروبا، وحاول تقريب روسيا إليه حتى تخافه دول أوروبا، وجاء أحمد مدحت باشارئيس مجلس الشورى العثمانى بفكرة عزل الخليفة، وتمكن من عزله ذلك عام ١٢٩٣هـ ومات قتيلاً وأشيع أنه انتحر.

الخليفة مراد الخامس

(١٢٩٣ - ١٢٩٣هـ)

تولى بعد أخيه الخليفة عبد العزيز، ولم يستمر عهده أكثر من ٣ شهور وتم عزله بسبب اختلال عقله.

الخليفة عبد الحميد الثانى

(١٢٩٣ - ١٣٢٨هـ)

وهو ابن الخليفة عبد المجيد الذى توفى عام ١٢٩٣هـ، تسلم الخليفة عبد الحميد الثانى الحكم وقد وصلت الدولة إلى مرحلة من الضعف والركود، سواء على الصعيد الداخلى أو الخارجى، فحاول الخليفة أن ينهض بها بل وبكل بلاد المسلمين التى باتت فى حالة سبات عميق، فأراد أن يحرر المسلمين من نفوذ أوروبا، وأن يوحدهم، فنادى بالجامعة الإسلامية، وحاول القضاء على الفساد فى بلاده، وحاول أن يتجنب الصدام داخليًّا و خارجيًّا ولكن لم تكن أوروبا لتتركه يوقظ المسلمين، بل سعت بكل الطرق الممكنة لإحباط محاولاته وحاولت إحاطته بالمشاكل الداخلية والخارجية حتى لا تترك له الفرصة لعمل شيء كما سنرى.

على الصعيد الداخلي:

انتشار مفاهيم القومية: انتشرت فى أنحاء الدولة العثمانية مفاهيم القومية بصورة صارخة لم يسبق لها مثيل، وكان روادها يتمثلون فى المفتونين بأوروبا من المسلمين والنصارى، وسعى النصارى بالذات لنشر هذه المفاهيم، لأنه الطريق الوحيد لمد نفوذهم ولأنهم إذا حاولوا أن يتخذوا طريقًا آخر، مثل التعصب الدينى مثلاً، لقضى عليهم، حيث إنهم يمثلون أقلية بالنسبة للمسلمين، وأخذت أوروبا تدعم القائمين بالحركات القومية سواء من خلال الإرساليات التنصيرية

أو من خلال فتح بلادها لتكون مقرًا للجمعيات والهيئات التى تحمل أفكار القومية.

ازدياد نفوذ يهود الدونمة: ذكرنا من قبل كيف كان دخول يهود الدونمة (الدونمة بمعنى الردة) واستيطانهم فى أنحاء الدولة العثمانية، فى عهد الخليفة سليمان القانونى بدعم من زوجته روكسلان، وأخذ اليهود يخططون لزيادة نفوذهم فى الدولة والعمل على تدميرها، برغم الخدمات التى قدمتها إليهم الدولة، يحركهم فى ذلك كرههم وعداؤهم الأبدى والأزلى للمسلمين، كما قال الله عز وجل: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة:٨٢].

ومن نسل اليهود الدونمة برز فتى يدعى ساباتاى فى أزمير، وادعى فى عام ١٠٥٧هـ أنه المسيح فأراد رجال الدين اليهودى قتله فرحل فى أنحاء الدولة العثمانية حتى عاد مرة أخرى إلى أزمير، فقبض عليه ونقل إلى أدرنه فخاف أن يصاب بأذى فادعى الإسلام، وأوهم العثمانيين أنه سيعمل على نشر الإسلام بين اليهود، وفى الحقيقة كان يدعوهم لإظهار الإسلام ليدخلوا بين صفوف المسلمين، ويصلوا إلى المراكز العليا فى الدولة، فيملكون الزمام وينفذون فى المسلمين كافة خططهم العدوانية

وبالفعل رحب اليهود بهذه الفكرة وأخذوا يواصلون العمل بها وفى عهد عبد الحميد الثانى ظهر هرتزل صاحب فكرة إنشاء وطن لليهود، وأصر على أن تكون فلسطين هى وطن اليهود، وذلك فى مؤتمر بازل بسويسرا عام ١٣١٤هـ الذى اجتمع فيه يهود العالم، وحاول هرتزل أن يتقرب إلى الخليفة عبد الحميد الثانى ويقدم له الإغراءات ليمكن لليهود فى فلسطين، ولكن الخليفة كان يدرك أغراض هرتزل فلم يحقق له مراده، بل ومنع هجرة اليهود إلى فلسطين فاتجه

هرتزل إلى دول أوروبا لتساعده فى تحقيق هدفه، فوجد عندها السند الكبير وخاصة أنه سيكون وسيلة أخرى للقضاء على الدولة العثمانية.

وإليك أخى نص الرسالة التى رد بها السلطان عبد الحميد على هرتزل:

بلغوا الدكتور هرتزل ألا يبذل بعد اليوم شيئًا عن المحاولة فى هذا الأمر (التوطن بفلسطين)، فإنى لست مستعدًا أن أتخلى عن شبر واحد من هذه البلاد لتذهب إلى الغير، فالبلاد ليست ملكى بل هى ملك شعبى روى ترابها بدمائه . فليحتفظ اليهود بملايينهم لست مستعدًا لأن أتحمل فى التاريخ وصمة بيع بيت المقدس لليهود، وخيانة الأمانة التى كلفنى المسلمون بحمايتها.

إن ديون الدولة العثمانية ليست عارًا لأن غيرها من الدول الأخرى مدين مثل فرنسا.

إن بيت المقدس قد افتتحه المسلمون أول مرة بخلافة سيدنا عمر ابن الخطاب رضى الله عنه، ولست مستعدًا أن أتحمل فى التاريخ وصمة بيعها لليهود وخيانة الأمانة .

وكان هرتزل قد عرض على السلطان خمسين مليونًا من الجنيهات الذهب لخزانة الدولة، وخمسة ملايين من الجنيهات الذهب لخزانة السلطان الخاصة، بالإضافة إلى مشاريع أخرى كثيرة لدعم الدولة العثمانية اقتصاديًا.

أخطار الماسونية:

وهى من إحدى الاختراعات اليهودية، فهى منظمات عالمية تهدف أساسًا إلى تفريق الأمة الواحدة إلى عدة أمم وشعوب، مما يخلق نزاعًا أبديًا بين شعوبها، فيحارب بعضها بعضًا، وبذا تتحقق الأهداف اليهودية فى إفناء شعوب

الأرض حتى يظل اليهود هم الباقين فيها ولذلك عملت الماسونية على دعم الحركات الانفصالية ومساندة كل رجل تجد عنده حب التسلط والزعامة والسيادة والاستقلال، وكثر أعضاؤها وأخذوا يساندون بعضهم البعض، وقد وجدت الماسونية فى الدولة العثمانية مأربها فكانت الدولة العثمانية التربة الخصبة لتحقيق أهدافها فعملت على زيادة نفوذها فى الدولة

تنظيم الاتحاد والترقى:

كما سبق وأن ذكرنا بدأ المفتونون بأوروبا والداعون لمفاهيم القومية فى إنشاء المؤسسات والجمعيات التى تحمل أفكارهم، واستطاعت استقطاب الكثير من أبناء الدولة العثمانية، وانضم إليها الكثير من اليهود والنصارى وأعضاء الماسونية، لتكون هذه الجمعيات من وسائل تحقيق أهدافهم، وكان من أهم هذه الجمعيات جمعية تركيا الفتاة، التى تأسست فى باريس وكان لها فروع أخرى فى برلين، وفى أنحاء الدولة العثمانية فى سالونيك واستنبول، واستطاعت أن تضع لها قدمًا فى الجيش العثمانى، وكان لها جناح عسكرى عرف بتنظيم الاتحاد العثماني وكان لها جناح مدني هو الانتظام والترقى، واتفق الفريقان أن تكون جمعيتهم باسم (الاتحاد والترقى)، وكانت الماسونية الدعاية الأساسية لها ومن ورائها أعداء الإسلام كافة.

وامتد نفوذ الاتحاد والترقى فى الدولة، فضم إليه الكثير من ضباط الفيلق الأول المسيطر على استنبول، وكذلك الفيلقين الثانى والثالث المرابطين فى الولايات العثمانية فى أوروبا.

ولما استفحل أمر الاتحاد والترقى وسيطروا على أكثر الجيش، فرضوا على الخليفة إعلان الدستور، ولم يستطع الخليفة مقاومتهم، فأعلن الدستور وسيطر الاتحاديون على معظم مقاعد المجالس النيابية، ووجدوا أن الخليفة سيكون عائقًا

فى تحقيق أهدافهم، فقاموا بإثارة الاضطرابات فى البلاد، فتحرك جزء من أتباعهم نحو المجلس النيابى يظهرون تمردهم على الدستور، ودعوتهم لتطبيق الشريعة الإسلامية، ويطالبون الخليفة بعزل أعضاء الاتحاد والترقى المسيطرون على المجلس النيابى من مناصبهم.

وما كانت هذه الاضطرابات إلا من عمل رجال الاتحاد والترقى، لتكون لهم ذريعة لكى يتقدم الجيش الموجود فى سالونيك بحجة حماية الدستور والمجلس النيابى، واستطاعوا بالفعل السيطرة على استنبول وعزلوا الخليفة عبد الحميد الثانى وولوا أخاه محمد الخامس مكانه وبذلك تحولت السلطة المطلقة من يد الخليفة إلى أيدى الاتحاديين، ليجروا البلاد إلى حافة الهاوية وبذلك كان الخليفة عبد الحميد الثانى آخر الخلفاء الذين كانت لهم سلطة فى البلاد، أما من سيأتى بعده فسيكون صورة فقط أما السيطرة الحقيقية فتكون بأيدى رجال الاتحاد والترقي.

ومما يذكر فى عهد الخليفة عبد الحميد الثانى أنه قام بفتح المدارس والجامعات، والمكتبات، والمستشفيات، ودور المعلمين، ومد أنابيب المياه، ومد الخط الحديدى الحجازى من دمشق إلى المدينة المنورة، وحاول إعداد جيش كفء مدرب تدريبًا حديثًا على أيدى قادة ألمان، والكثير من الإنجازات ولكن لم يتركه أعداء الإسلام ليكمل المسيرة.

انتشار الثورات فى الولايات الأوروبية:

عملت دول أوروبا على إشعال الثورات فى أنحاء الدولة العثمانية، وبخاصة فى الولايات الأوروبية وذلك تمهيدًا لفصلها عن الدولة العثمانية حتى لا تجعل للمسلمين قدمًا فى أوروبا.

ومن أمثلة هذه الثورات الثورة التى حدثت فى بلاد الهرسك، وأخمدتها الدولة، وكانت دول أوروبا تستغل دائمًا الثورات للتدخل فى شئون الدولة،

وتفرض عليها لائحة لمعاملة النصارى، وحدثت أيضًا ثورة فى بلاد البلغار.. بسبب أن الدولة أسكنت بعض العائلات الشركسية التى احتل الروس أرضهم فى بلغاريا، وكانت روسيا هى الراعى الرئيسى للثورة، تشاركها النمسا، وكانت روسيا والنمسا تحتضن الجمعيات الداعية للاستقلال فى بلغاريا والصرب والجبل الأسود، وغيرهم من الولايات الأوروبية.

ثورة الصرب والجبل الأسود:

شجعت روسيا والنمسا الصرب والجبل الأسود (مونتجيرو)، على حرب العثمانيين حيث تريد النمسا ضم البوسنة والهرسك، بينما تريد روسيا ضم الأفلاق والبغدان وبلغاريا، ووعدت روسيا النمسا والصرب والجبل الأسود بالوقوف بجانبهم إذا قامت حرب بينهم وبين العثمانيين، وبدأت ذرائع الحرب بطلب الصرب إخماد الثورة فى البوسنة، وطلبت الجبل الأسود (مونتجيرو)، زيادة رقعتها على حساب الهرسك، فلم يعط لطلبها أى اهتمام، فبدأت جيوشهما تتوغل فى الأراضى العثمانية، وهى فى الواقع جيوش روسيا التى تسللت إلى البلاد، فكانت الحرب مع روسيا وبرغم ذلك استطاعت الجيوش العثمانية وخاصة بعد وصول الكثير من الجنود المصريين الانتصار على الصرب وأصبحوا على مشارف بلغراد، غير أن تدخل أوروبا قد أوقف الحرب.

وعرض سفراء أوروبا على العثمانيين خطة تقوم على تقسيم بلغاريا إلى ولايتين يعين عليهما أمراء نصارى، وأن تتكون نصف الحامية العثمانية المرابطة هناك من النصارى، وأن تنفذ هذه المطالب فى البوسنة والهرسك أيضًا، وأن تعطى بعض الأراضى للصرب والجبل الأسود، فرفضت الدولة، فغادر سفراء أوروبا، الدولة العثمانية بما يشير إلى قطع العلاقات السياسية معها.

عملت الدولة على عقد صلح منفرد مع الصرب تسحب بمقتضاه قواتها

من الصرب، وتتعهد الصرب بعدم بناء قلاع جديدة، وأن يرفع علم الصرب والعثمانيين إشارة إلى الحماية العثمانية.

على الصعيد الخارجي:

الحرب مع روسيا: قدمت دول أوروبا لائحة للدولة العثمانية تقضى بتحسين الأحوال المعيشية للنصارى فى الدولة العثمانية، ومراقبة الدول الأوروبية لتنفيذ إجراءات التحسين.

فرفضت الدولة اللائحة؛ لأن هذا يعتبر تدخلاً صريحًا فى شئونها، فاستغلت روسيا الرفض واعتبرته سببًا كافيًا للحرب، وفى هذه المرة أطلقت أوروبا العنان لروسيا لتتصرف كيفما تشاء مع العثمانيين.. كانت روسيا قد عقدت اتفاقًا مع الأفلاق والبغدان لوضع كافة إمكاناتهما تحت تصرف روسيا، فدخلت روسيا الأفلاق والبغدان، ثم عبرت نهر الدانوب واستطاعت التوغل فى بلغاريا حتى احتلوا أدرنه وأصبحوا على مسافة ٥٠ كيلو مترًا فقط من استنبول، فى الوقت الذى تقدمت فيه الجيوش الروسية من الشرق فى الأناضول، واستغل الصرب والجبل الأسود الفرصة فأعلنا الحرب على الدولة، فاضطرت الدولة إلى طلب الصلح، ومما يذكر فى هذه الحرب أن نصارى بلغاريا استغلوا دخول الروس بلادهم فأخذوا يفتكون بالمسلمين فى بلغاريا، ويرتكبون فيهم أبشع الجرائم، ففر من فر منهم ولجأ الكثير منهم للجبال ليقوموا بحرب عصابات على مجرمى بلغاريا.

معاهدة سان استيفانوس: ومع توقف القتال عام ١٢٩٥هـ عقدت معاهدة سان استيفانوس التى فرضت على الدولة العثمانية وكان من نصوصها.

١- استقلال الصرب والجبل الأسود نهائيًا عن العثمانيين.

٢- الاستقلال التام للأفلاق والبغدان وتكوين دولة رومانيا باتحادهما مع

ترانسلفانيا وبسارابيا.

٣- الاستقلال الإدارى لبلغاريا وإخلائها تمامًا من الجيوش العثمانية.

٤- دفع غرامة حربية لروسيا مقدارها (٢٤٥,٢١٧,٣٩١) ليرة ذهبية ويمكن لروسيا الحصول على الأراضى مقابلها.

٥- أن يخلى المسلمون ديارهم فى الأراضى التى فقدتها الدولة العثمانية ويمكن لهم أن يبيعوا أملاكهم.

٦- حرية الحركة لسفن روسيا فى المضائق العثمانية.

٧- إصلاح الأحوال المعيشية للنصارى فى الدولة العثمانية.

وطبعًا أرادت بقية دول أوروبا أخذ نصيبها من الكعكة العثمانية أو تركة الرجل المريض،كما كانوا يطلقون على الدولة العثمانية، فطلبت إنكلترا من العثمانيين أن تحتل جزيرة قبرص حتى تحميها من ازدياد الخطر الروسى فاضطرت الدولة لقبول احتلالها ثم عقد مؤتمر برلينلتقسيم الولايات الأوروبية على دول أوروبا.

معاهدة برلين: وقعت عام ١٢٩٥هـ معاهدة برلين والتى عدلت معاهدة سان استيفانوس للآتي:

١-استقلال بلغاريا نهائيًا.

٢- إعطاء البوسنة والهرسك للنمسا.

٣- تعطى بسارابيا لروسيا وتحتفظ رومانيا منها بمقاطعة دوبروجة.

٤- تتكون للدولة العثمانية فى أوروبا ولاية يطلق عليها الروملى الشرقى (وتشمل الآن أجزاء من بلغاريا ومقدونيا وألبانيا وإقليم كوسوفو التابع الآن ليوغوسلافيا الجديدة وجزء من الهرسك، وجزء من اليونان) وتكون القوات المرابطة فيها مشتركة من الروس والعثمانيين وحاكمها نصراني.

٥- تزيد حدود اليونان إلى الشمال -برغم أنها لم تكن طرفًا فى الحرب.

احتلال تونس: تمكنت فرنسا عام ١٢٩٩هـ من احتلال تونس ولم تستطع الدولة العثمانية أن تفعل شيئًا.

احتلال مصر: تدخلت انكلترا فى شئون مصر واستطاعت احتلالها عام ١٢٩٩هـ بعد موقعة التل الكبير.

احتلال السودان: كانت السودان تابعة لمصر منذ أن فتحها محمد على، فما إن احتل الإنكليز مصر حتى اتجهت أعينهم للسودان، واستغلوا قيام الحركة المهدية التى ادعى قائدها أنه هو المهدى المنتظر، واستطاع أن يسيطر على كثير من أجزاء السودان، فاستطاع الإنكليز إخماد حركته وبذلك تمكنوا من السيطرة على السودان.

شرقى أفريقيا التابع لمصر: أما عن هذا الجزء فقد تقاسمته فرنسا وإيطاليا مع الحبشة وتوفى الخليفة عبد الحميد الثانى بعد عزله عام ١٣٣٦هـ.

الخليفة محمد الخامس

(١٣٢٨ - ١٣٣٧هـ)

أصبح الاتحاديون هم الحكام الفعليين للبلاد، أما الخليفة فلم يكن بيده أى شيء.

تسلم محمد الخامس منصب الخليفة عام ١٣٢٨هـ بعد عزل أخيه.

احتلال إيطاليا لليبيا:

لم يتبق للعثمانيين فى افريقيا غير ولاية طرابلس (ليبيا)، بعد أن احتل الإنكليز مصر، واحتلت فرنسا المغرب العربى، فأرادت إيطاليا أن تأخذ نصيبها من تركة الرجل المريض، فأصبحت ليبيا هدفها، وبدأت التخطيط لاحتلال ليبيا بشراء

الأراضى وإرسال البعثات النصرانية وغيرها، من وسائل التمكين، حتى إذا ما أتيحت لها الفرصة جاءت للعثمانيين بالذريعة التى تمكنها من احتلال ليبيا، وهى أن العثمانيين يقفون عقبة فى سبيل تحضر الشعب الليبى، واحتلت إيطاليا ليبيا عام ١٢٣٨هـ وبرغم المقاومة من العثمانيين بقيادة عزيز المصرى والفدائيين، وتحقيق بعض الانتصارات على إيطاليا إلا أن إيطاليا هددت باحتلال استنبول وضربت مرافئ الدولة فاضطرت الدولة لتوقيع معاهدة سلام مع إيطاليا عام ١٣٢٩هـ تنسحب بها من ليبيا تاركة المقاومة للمجاهدين وعزير المصري.

الحروب البلقانية:

١- **الحرب البلقانية الأولى ١٣٣٠هـ:** اتحدت دول البلقان المستقلة والمتمثلة فى الجبل الأسود والصرب وبلغاريا واليونان، ليتوسعوا على حساب العثمانيين، ويحتلوا ولاية الرومللى الشرقى وقد تمكنوا من الانتصار على العثمانيين واستخدمت الطائرات لأول مرة فى هذه الحرب فى قصف مدينة أدرنة، وكان من نتائج الحرب استقلال ألبانيا عن العثمانيين وتقسيم الرومللى الشرقى بين أعضاء التحالف البلقاني.

عودة الاتحاد والترقي: وما إن انتهت الحرب البلقانية الأولى بهزيمة العثمانيين حتى قام أنور باشا أحد الضباط الاتحاديين الذين حاربوا فى طرابلس بانقلاب عسكرى، ومعه العديد من الضباط الاتحاديين، واستطاع أن يجبر الوزارة على الاستقالة، ويكون وزارة جديدة كان رئيسها محمود شوكت الذى لم يكن من الاتحاديين، فقتل بعد توليه بستة أشهر وتولى مكانه أحد الضباط الاتحاديين.

٢- **الحرب البلقانية الثانية ١٣٣٢هـ:** وقعت بسبب اختلاف دول التحالف البلقانى فى تقسيم مقدونيا بينهم، حيث أصرت بلغاريا على حقها فى

كل مقدونيا، بينما أرادت دول البلقان الأخرى نصيبًا من مقدونيا، فاندلعت الحرب بين بلغاريا من جهة، ودول البلقان الأخرى، اليونان ورومانيا والصرب، من جهة أخرى وانضمت الدولة العثمانية للتحالف ضد بلغاريا فانهزمت بلغاريا وقسمت مقدونيا بين الصرب واليونان وبلغاريا، في حين حصلت الدولة العثمانية على جزء مما فقدته في الحرب البلقانية الأولى متمثلاً في تراقيا ومدينة أدرنه.

الحرب العالمية الأولى:

استطاع أنور باشا والذى كان يشغل منصب وزير الحربية أن يجر البلاد إلى الحرب العالمية الأولى، بفرض الأمر الواقع على كل من عارضه، وكان القرض المالى الذى عرضته ألمانيا على العثمانيين والمقدر بـ (٥ ملايين ليرة ذهبية) من الأشياء التى شجعت المعارضين على الرضوخ للحرب.

وفى البداية أرادت الدولة أن تساوم الحلفاء فى دخول الحرب، فقدمت لهم مذكرة مقابل حيادها تمثلت فى إلغاء الامتيازات الأجنبية وخروج الإنكليز من مصر وضم جزر بحر ايجة للعثمانيين، ومنع روسيا من التدخل فى شؤون العثمانيين، فلم يرد الحلفاء على شروطها، فدخلت الدولة العثمانية الحرب، والتى كانت بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير وكان القتال على أربع (٤) جبهات هي:

١- جبهة شرقية: وحاول فيها أنور باشا بنفسه اجتياح روسيا من الشرق فى الشتاء القارص، ولكنه منى بالفشل الذريع واضطر للانسحاب.

٢- جبهة قناة السويس: سارت القوات العثمانية فى سيناء متجهة إلى قناة السويس، وقاموا بالهجوم قبل الموعد المحدد مع المصريين الذين اتفقوا معهم على حرب الإنكليز، وفشل هذا الهجوم الذى أتبعه هجومان آخران بقيادة الألمان ولكنهما فشلا أيضًا.

٣- جبهة عدن: وحاول فيها العثمانيون طرد الإنكليز من عدن ولكنهم فشلوا، وساعد الإدريسى حاكم اليمن الإنكليز فى عسير على العثمانيين.

٤- جبهة الدردنيل: حصّن العثمانيون مضيق الدردنيل حتى يعجز الأعداء عن الوصول إلى استنبول، وبدأ الإنكليز فى هجومهم على الدولة العثمانية، واستطاعوا دخول فلسطين وعندما وصل القائد الإنكليزى اللنبي القدس قال عبارته المشهورة: الآن تنتهى الحروب الصليبية. واستطاع الفرنسيون احتلال سوريا.

الخليفة محمد السادس (وحيد الدين)

(١٣٢٨ - ١٣٣٧هـ)

استلم الخلافة فى أثناء الحرب العالمية الأولى، والهزائم تتوالى على العثمانيين، حتى استطاع الحلفاء أن يحتلوا استنبول لتسقط لأول مرة منذ فتحها السلطان الغازى محمد الفاتح.

واحتلت إيطاليا جزءًا من جنوب الأناضول، بينما احتلت اليونان القسم الغربى من الأناضول، بالاضافة إلى تراقيا فاستسلمت الدولة العثمانية، وهكذا فى الوقت القليل الذى تسلم فيه الاتحاديون الحكم فى البلاد أضاعوها، وأعادوها إلى الخلف عدة قرون، مع إلباسها لباس الذل والمهانة والهزيمة النكراء.

وفى هذا الوقت الذى تولى فيه الخليفة محمد السادس قرب إليه مصطفى كمال، الذى كان يرافقه فى رحلته إلى برلين عندما كان وليًّا للعهد وكان مصطفى كمال قد بدأ يعمل لنفسه فرفض الخليفة أن يكون صورة كمن سبقه، فتنازل عن الخلافة لعبد المجيد الثانى ابن الخليفة عبد العزيز.

مصطفى كمال أتاتورك:

ومما هو جدير بالذكر أن نعرف القارئ بمصطفى كمال الذى يطلق عليه أتاتورك (أى أبو الأتراك) فهذا الرجل ولد فى سالونيك أكبر تجمعات يهود الدونمة فى الدولة العثمانية، ولذلك رجح الكثير أنه كان من يهود الدونمة، نظرًا لأفعاله الخسيسة ومحاربته الشديدة للإسلام، وكان أحد رجال الاتحاد والترقى، وكان أحد القادة فى الجيش العثمانى فى الشام، وكان دائم الفرار أمام جيوش الحلفاء حتى قيل إن فراره امتد من الشام إلى بلاد الأناضول فى الحرب العالمية الأولى، ووجد أعداء الإسلام فيه ضالتهم، فهذا الرجل هو الذى سيضرب المسلمين فى مقتل، لأنه يدعى أنه من المسلمين، فأراد الحلفاء أن يرفعوا شأنه فى البلاد حتى يتركوا له المهمة فيما بقى من أراضى الدولة العثمانية، ففوجئ الجميع به فى سيواس يعقد مؤتمرًا للدفاع عن البلاد، ويعين رئيسًا للمؤتمر، ثم انتقل إلى أنقرة وناهض الحكومة العثمانية، وساعده الحلفاء بإملاء الشروط القاسية على الحكومة، بل وأجبروها على قبولها وقد تضمنت من الشروط: إقامة دولة فى استنبول، وفصل بلاد العرب عن العثمانيين، استقلال أرمينيا، الاستقلال الذاتى لكردستان، ضم تراقيا وجزر بحر إيجة لليونان، وضع المضائق تحت إشراف دولى، وسيطرة الحلفاء على المالية، توجيه الجيش العثمانى وتحديد عدد أفراده من قبل الحلفاء.

وفى ذلك الوقت كان أتاتورك قد أعلن عن قيام مجلس جديد للعثمانيين، أى حكومة أخرى فى أنقرة، وأعلن رفضه لشروط الحلفاء، وأطلق الحلفاء العنان لأتاتورك ليظهر بمظهر البطل. فتركوا اليونان تواجه تركيا بمفردها، فحققت تركيا بعض الانتصارات أشهرها موقعة سقاريا، واضطرت اليونان إلى الانسحاب من الأناضول وتراقيا الشرقية عام١٣٤٠هـ، وكذلك تركت فرنسا كيليكيا، وانسحبت إيطاليا من انطاكيا، أما الروس فقد انشغلوا أثناء الحرب

بالثورة الشيوعية، ثم اتفق أتاتورك معهم على أن يترك لهم مدينة باطوم على البحر الأسود فى مقابل وقف القتال بينهما.

الخليفة عبد المجيد الثانى
(١٣٤٠ - ١٣٤٢هـ)

مؤتمر لوزان:

عقد مؤتمر لوزان سنة ١٣٤١هـ بعد ثلاثة أيام من تولى عبد المجيد الثانى الخلافة، وحضره ممثلون من حكومة أنقرة، وضع الإنكليز فيه شروطًا للاعتراف باستقلال تركيا عرفت بشروط كرزون الأربعة وهي:

١- إلغاء الخلافة العثمانية.

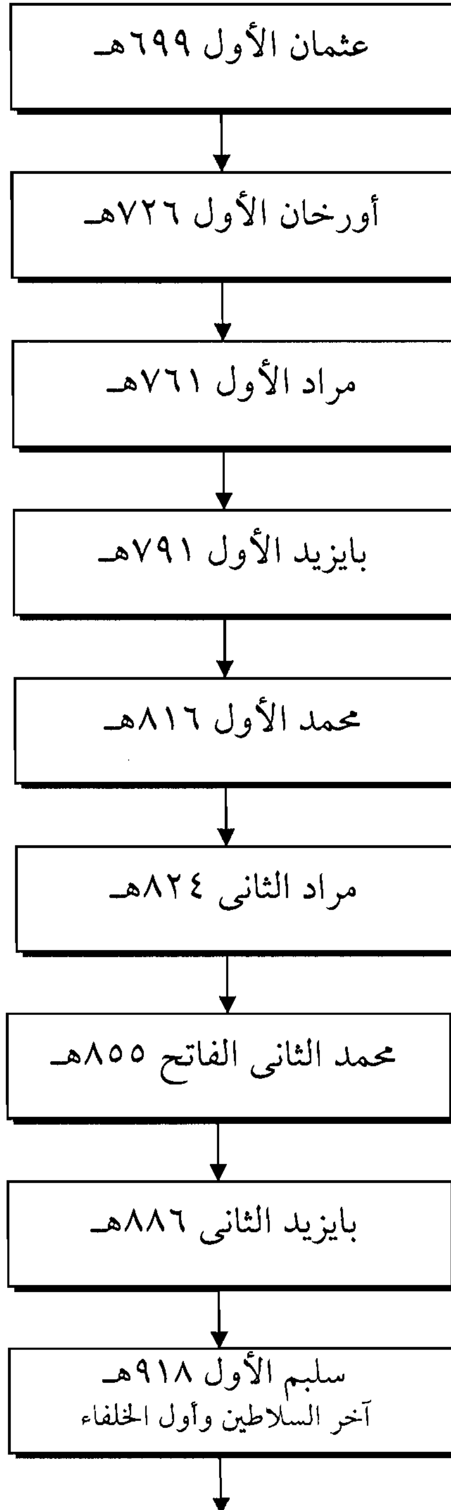
٢- قطع كل صلة بالإسلام.

٣- إخراج أنصار الخلافة والإسلام من البلاد.

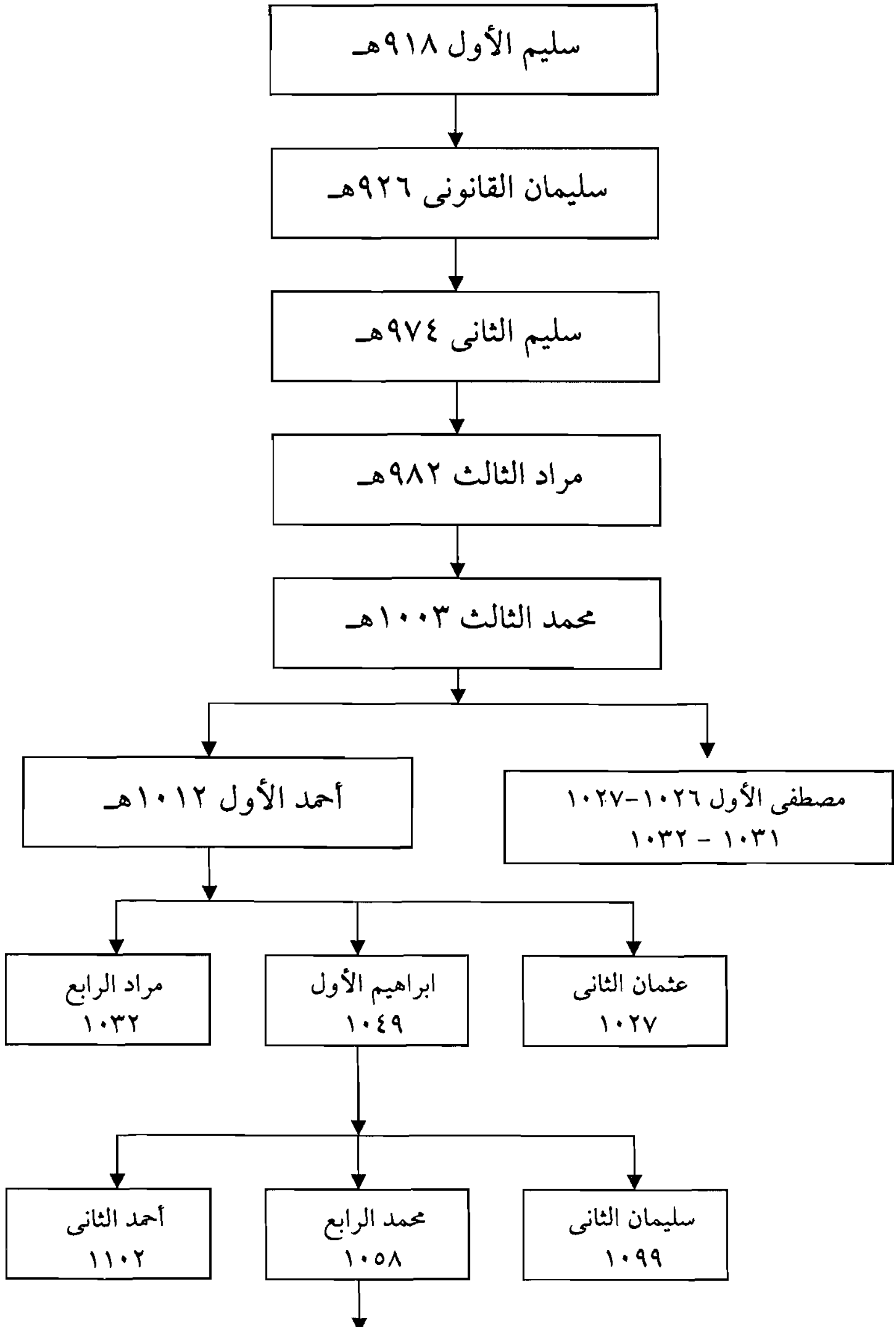
٤- اتخاذ دستور مدنى بدلاً من دستور تركيا القديم المؤسس على الإسلام.

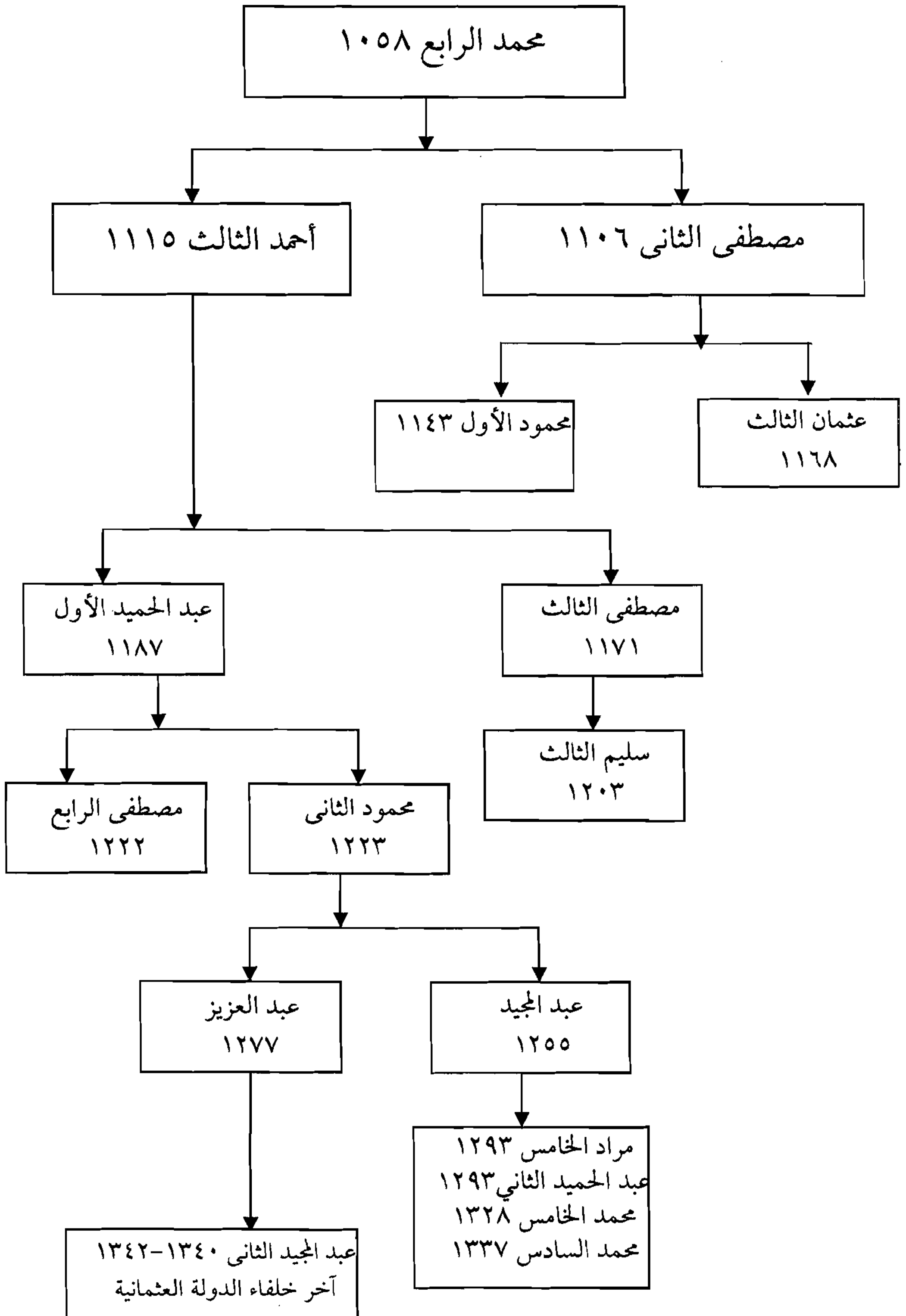
وحاول البعض الالتفاف حول الخليفة، ولكن أتاتورك قد قويت شوكته واستطاع أن يزيح كل من وقف فى طريقه، وأعلن إلغاء الخلافة عام ١٣٤١هـ وأعلن قيام جمهورية تركيا، وألغى الوظائف الدينية وسلط جنده على السكان يجردون النساء من حجابهن وجعل من نصوص الدستور أن يكون له تمثال فى جميع أنحاء تركيا، وجعل الآذان باللغة التركية، وجعل كتابة اللغة التركية بحروف لاتينية بعدما كانت كتابتها بحروف عربية، وغيرها من الجرائم البشعة التى لا يتجرأ على فعلها الكفار. وهكذا وبكل الحسرة والألم انتهت آخر خلافة للمسلمين منذ عهد الرسول ﷺ وحتى وقتنا الحالي.

خلفاء الدولة العثمانية



سلاطين الدولة العثمانية قبل تسلم الخلافة من العباسيين


سليم الأول ٩١٨هـ
سليمان القانونى ٩٢٦هـ
سليم الثانى ٩٧٤هـ
مراد الثالث ٩٨٢هـ
محمد الثالث ١٠٠٣هـ
أحمد الأول ١٠١٢هـ
مصطفى الأول ١٠٢٦-١٠٢٧
١٠٣١ - ١٠٣٢
مراد الرابع
١٠٣٢
ابراهيم الأول
١٠٤٩
عثمان الثانى
١٠٢٧
أحمد الثانى
١١٠٢
محمد الرابع
١٠٥٨
سليمان الثانى
١٠٩٩


محمد الرابع ١٠٥٨
مصطفى الثانى ١١٠٦
أحمد الثالث ١١١٥
عثمان الثالث ١١٦٨
محمود الأول ١١٤٣
مصطفى الثالث ١١٧١
عبد الحميد الأول ١١٨٧
سليم الثالث ١٢٠٣
محمود الثانى ١٢٢٣
مصطفى الرابع ١٢٢٢
عبد المجيد ١٢٥٥
عبد العزيز ١٢٧٧
مراد الخامس ١٢٩٣
عبد الحميد الثاني١٢٩٣
محمد الخامس ١٣٢٨
محمد السادس ١٣٣٧
عبد المجيد الثانى ١٣٤٠-١٣٤٢
آخر خلفاء الدولة العثمانية

تركيا من إلغاء الخلافة حتى الآن

أتاتورك:

استبد مصطفى كمال أتاتورك بحكم تركيا وجعل حزبه (حزب الشعب الجمهوري) الحزب الحاكم، وقد سبق أن ذكرنا بعضا من جرائمه فى حق الإسلام والمسلمين.

حركة الأكراد:

نادى أتاتورك بالقومية التركية التى جعلت الأكراد يثورون ويطالبون بتكوين دولة لهم، وكانت الدول الاستعمارية تستغل الأكراد كقنابل موقوتة ضد أى نظام يعارضهم، لذلك شتتت بلاد الأكراد وقسمتها على كل من تركيا والعراق وإيران وسوريا وأرمينيا، ولم تقم لهم دولة لكى تضغط بورقة الأكراد على هذه الدول، وتجعلها تمشى فى ركابها وإلا ساعدت الانفصاليين الأكراد.

وعدد الأكراد فى العالم يزيد عن ٣٠ مليونًا غالبيتهم العظمى من المسلمين، ويتميزون بالقوة والشجاعة، وتعد تركيا أكبر تجمع لهم، سواء من حيث العدد أو المساحة، ولكن أتاتورك عمل على إخماد أى حركة يقومون بها بيد من حديد، وتبعه فى ذلك سدنة نظامه الذين يسيطرون على الحكم فى تركيا.

واستمرارًا لمعاونة الحلفاء لمصطفى كمال أتاتورك ليرسخ أهدافهم وأفكارهم فى تركيا، ومن جهة أخرى لخلق النزاعات والفتن مع الدول المجاورة. لإظهار مصطفى كمال أتاتورك بمظهر البطل أمام الشعب التركى، تنازلت فرنسا -التى كانت تحتل سوريا- عن لواء الاسكندرونة لتركيا برغم معارضة الشاميين لذلك.

وأخذت المناهج الدراسية ووسائل الإعلام تمجد وتعظم فى أتاتورك، لينشأ جيل يعتبره المثل الأعلى، وتوفى هذا الطاغية عام ١٣٥٧هـ وتسلم بعده ذراعه

الأيمن عصمت اينونو رئيس الوزراء فى عهد أتاتورك.

وسار اينونو على نهج أتاتورك فى محاربة الإسلام، وواصل سياسة العصبية القومية والسير فى فلك الغرب وخاصة إنكلترا، واتبع سياسة أتاتورك، والتزمت تركيا الحياد فى الحرب العالمية الثانية، وذلك إرضاءً للحلفاء برغم أن الشعب كان يكرههم، فهم السبب فى إلغاء الخلافة وتقسيم بلاد المسلمين.

وأسس محمود جلال بايار -الذى كان رئيسًا للوزراء وعزله اينونو- الحزب الديمقراطى المعارض لحزب الشعب الجمهورى الحاكم، الذى يرأسه رئيس الجمهورية.

اعترفت الحكومة بدولة اليهود فى فلسطين برغم رفض الشعب التركى لذلك.

واشتدت المعارضة التركية للحكومة القائمة فى البلاد، وجرت الانتخابات النيابية وفاز الحزب الديمقراطى برئاسة محمود جلال الدين بايار بالأغلبية وتبعتها انتخابات الرئاسة ففاز محمود جلال الدين بايار بالمنصب.

وبرغم اختلاف المسميات من حزب ديمقراطى أو حزب الشعب الجمهورى إلا أن الجوهر لكليهما هو اتخاذ العلمانية مذهبًا، وبتسلم الحزب الديمقراطى الحكم انتهى عصر الحزب الواحد الحاكم، وبدأ عصر الحكم النيابى أى يشترك أكثر من حزب فى المجلس النيابى وتتنافس على الحكم.

وفى عهد محمود جلال الدين بايار انضمت تركيا إلى حلف الأطلسى عام ١٣٧٠هـ وشكلت مع اليونان ويوغوسلافيا حلف البلقان عام ١٣٧٤هـ.

وقد انضمت تركيا من قبل إلى حلف بغداد، لمنع أى توسع لروسيا فى الدول المحيطة بها وقد تغير اسم الحلف إلى الحلف المركزى عام ١٣٧٧هـ لانسحاب العراق منه.

وأخذت الأوضاع الاقتصادية تتدهور فى البلاد، وقوى حزب الشعب المعارض، فاضطرت الحكومة إلى حله والقبض على أعضائه، فتكون بدلاً منه الحزب القومى الجمهورى، وحزب الحرية، وحزب الفلاحين الجمهورى، واتحدت معًا لتكون جبهة معارضة قوية، وبدأت الحكومة تحاول التعلق بأى قشة فى سبيل تثبيت أقدامها فى البلاد، فتراجعت عن عداء الإسلام، وسمحت بقراءة القرآن الكريم فى الإذاعة، بعد أن كانت قراءته ممنوعة، وأعادت الأذان باللغة العربية وفتحت بعض المدارس والكليات الإسلامية.

وخشى الغرب من عودة العاطفة الإسلامية مرة أخرى لتركيا فأعانت الولايات المتحدة الجنرال جمال غورسيل على القيام بانقلاب عسكرى عام ١٣٧٩هـ وتخلت عن الحكومة السابقة ونجح الانقلاب وأعدم رئيس الوزراء عدنان مندريس، واثنان من وزرائه، بينما خفف حكم الإعدام على رئيس الجمهورية إلى السجن المؤبد حيث كان هلاكه عام ١٣٩١هـ.

أجريت الانتخابات الحزبية، وفاز حزب الشعب الجمهورى الذى عاد للظهور، وكلف زعيمه عصمت اينونو بتشكيل الوزارة، ثم أجريت الانتخابات الحزبية ففاز حزب العدالة بها وعهد إلى سليمان ديميريل بتشكيل الوزارة الجديدة، واضطر جمال غورسيل رئيس الجمهورية إلى اعتزال السلطة نتيجة مرضه، وأجريت انتخابات رئاسية فاز بها جودت صوناى برئاسة تركيا.

بدأت البلاد تأخذ شكل الاعتدال فى سياستها بين الشرق والغرب، برغم انضمامها لحلف الأطلسى فأدانت العدوان الإسرائيلى على العرب عام ١٣٨٧هـ- ١٩٦٧م وألغوا الاتفاقيات التجارية مع إسرائيل، وكذلك أغلقوا المكتب السياحى الإسرائيلى فى تركيا عام ١٣٨٨هـ، وأصبح الجيش التركى هو المسيطر على السياسة فى البلاد وظهر فى عهده حزب الأمة الوطنى الذى يحمل

اتجاهات إسلامية لأول مرة برئاسة الدكتور نجم الدين أربكان.

ثم انتهت مدة جودت صوناى فى الحكم، فعين العسكريون فخرى كورتوك رئيسًا للجمهورية، برغم مخالفة ذلك للقانون التركى الذى ينص على كون رئيس الجمهورية من مجلس الشيوخ التركي وكان فخري كورتوك رئيسًا للأركان، فاستقال من منصبه، وفى نفس الوقت استقال وزير الدفاع الوطني محمد أزمان من منصبه، ومن عضوية مجلس الشيوخ، ليفسح المجال لرئيسي الجمهورية لتعيين فخري كورتوك.

وأجريت انتخابات الأحزاب، وشكلت الوزارة بائتلاف من حزبى الشعب والسلامة الوطنى، حيث يرأس الوزارة بولاند أجاويد رئيس حزب الشعب وشغل نجم الدين أربكان رئيس حزب السلامة الوطنى منصب نائب رئيس الوزراء وقام بعدها بعمل بطولى بإنزال القوات التركية فى جزيرة قبرص لحماية الأقلية الإسلامية هناك، فاشتد حقد حزب الشعب الجمهورى على حزب السلامة الوطنى وعلى رئيسه نجم الدين أربكان فقد أخذت شعبيته تزداد يومًا بعد يوم، وحدث الشقاق بينهما فاستقال نجم الدين أربكان من منصبه، وانحلت الوزارة الائتلافية ثم شكلت عدة وزارات أخرى باءت كلها بالفشل إلى أن حدث انقلاب عسكرى فى تركيا عام ١٤٠٠هـ بقيادة كنعان ايفيرين.

كانت الولايات المتحدة وراء هذا الانقلاب لخمد الحركات الإسلامية التى بدأت تظهر فى تركيا، وتصل إلى الحكم، وفى نفس الوقت ظهر بعض الشيوعيين فى تركيا وجاء كنعان ايفيرين ليوسع من نفوذ العسكريين فى البلاد، فقد شغل منصب رئيس الجمهورية وفى نفس الوقت رئيس الأركان العامة ورئاسة المجلس العسكرى الوطنى، وظهر تورغوت أوزال الذى أسس حزب الوطن الأم، وخاض الانتخابات واستطاع أن يفوز بها عام ١٤٠٣هـ وشكل

تورغوت أوزال الوزارة الجديدة فى تركيا، وتحسنت العلاقات بين تركيا والدول الإسلامية فى عهده وتولى تورغوت أوزال الرئاسة فى تركيا بعد كنعان ايفيرين.

وفى عهده بدأت مشروعات إقامة سد نهر الفرات فى تركيا، والتى عارضتها سوريا وتعاون هو والعراق فى سحق الحركات الانفصالية الكردية.

وعندما قامت العراق ياحتلال الكويت أعلن تورغوت أوزال أن تركيا ستكون على الحياد، وعندما توفى تورغوت أوزال تولى منصب الرئاسة سليمان ديميريل.

عندما تولى رئاسة تركيا توالت المشكلة الدائمة بها فى تشكيل الوزارة، وعندما عهد إلى تانسو تشيلر رئيسة حزب الوطن الأم بتشكيل الوزارة، عملت على ضم تركيا لدول الاتحاد الأوروبى، والذى ترفضه اليونان وتماطل أوروبا فيه، وقامت بتوقيع معاهدة للتعاون العسكرى مع إسرائيل يرفضها العالم الإسلامى، وتورطت تانسو تشيلر فى قضايا فساد كثيرة هددت حزبها، وزادت المشكلة السياسية فى تركيا، والتى تتمثل فى تشكيل وزارة مستقرة، وظهر نجم الدين أربكان بحزب الرفاه الذى يعتبر امتدادًا لحزب السلامة الوطنى، واستطاع أن يفوز بالانتخابات الحزبية فى تركيا، وظهرت المشكلة فى تكوين وزارة جديدة، وهى أن المقاعد التى احتلها حزب الرفاه غير كافية لتشكيل وزارة جديدة، ويجب عليه تكوين ائتلاف مع أحد الأحزاب الأخرى، وفشلت محاولات تشكيل حكومة ائتلافية، جديدة فكلف مسعود يلمظ رئيس حزب الطريق القويم بهذه المهمة ففشل، وكذلك تانسو تشيلر، ثم عاد أربكان فكلف بتكوين وزارة جديدة، فاقنع تانسو تشيلر بتكوين ائتلاف معه، وخاصة أنها كانت فرصة لها لتحسين صورتها بعد قضايا الفساد المتورطة فيها، وقد قدم حزب الرفاه تنازلات كبيرة لحزب الوطن الأم فى هذا الائتلاف، مثل تنازله للوطن الأم عن وزارات الدفاع والأمن والتعليم، وكان يهدف إلى أخذ

الوزارات التى تجعل الشعب يسر من حزب الرفاه؛ كوزارة الخدمات وغيرها، ولكنه نسى أن العسكريين هم المسيطرون على الحكم ولن يرضوا برئيس وزراء له اتجاهات إسلامية، وخاصة بعد جولته الإسلامية لتعزيز الروابط والعلاقات مع الدول الإسلامية، وفى نفس الوقت يراقب الغرب الوضع ويخطط لضربة قاصمة للإسلاميين فى تركيا.

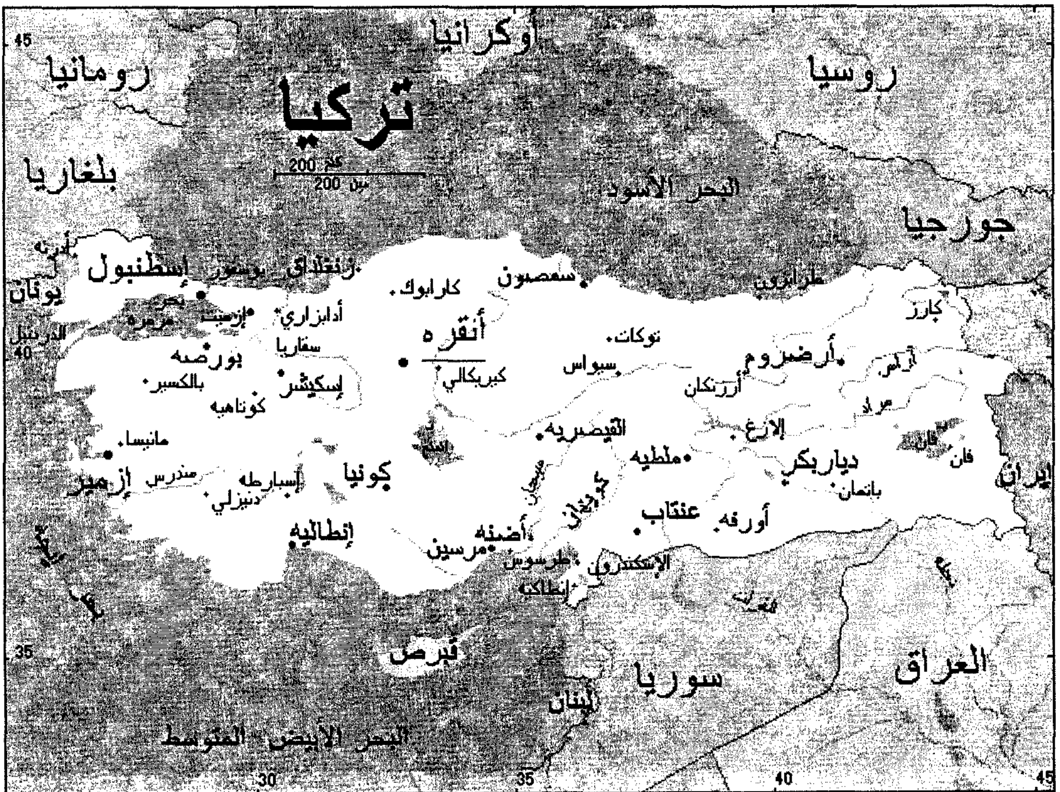
فأخذ العسكريون يقيلون الضباط ذوى الاتجاهات الإسلامية، ويضغطون على حكومة الائتلاف حتى اضطرت إلى الاستقالة وفى نفس الوقت كلف مسعود يلمظ صاحب الاتجاهات العلمانية المعادية للإسلام بتشكيل الوزارة الجديدة، الذي عمل على سحق كل الاتجاهات الإسلامية ألغى الحجاب مرة أخرى فى الجامعات وزاد من سنوات التعليم العلمانى، ورفع قضية فى المحكمة الدستورية على حزب الرفاه، يطالب فيها بحل حزب الرفاه بسبب اتجاهاته التى تشكل خطرًا على العلمانية فى تركيا، ومما يثير الدهشة أن المحكمة الدستورية حكمت بحل حزب الرفاه ومنع أربكان من رئاسة أى حزب فى تركيا لمدة خمس سنوات، وقد استعد أعضاء حزب الرفاه لهذا الاحتمال والآن هم فى طريقهم للانضمام إلى حزب الفضيلة البديل لحزب الرفاه.

وقام يلمظ بتعزيز التعاون مع إسرائيل وعمل مسعود يلمظ والعسكريون فى تركيا على سحق الحركات الإسلامية فى تركيا، تمهيدًا للانتخابات فى عام ١٩٩٨ (١٤١٨هـ)، ويزيد من الهجمات العسكرية على الأكراد، ويتوغل وراءهم فى العراق، ولا يستفيد من هذه الحرب إلا العسكريون الضباط الكبار الذين يحصلون على بدلات كبيرة، بينما يذوق ويلاتها الأكراد والجنود الأتراك الذين يساقون إلى القتال. ولا ننسى استفادة الغرب وأمريكا وإسرائيل من إيرادات بيع الأسلحة للطرفين المتقاتلين، ونشوة أعداء الإسلام من تقاتل المسلمين.

حزب العدالة والتنمية:

وقد تشكل هذا الحزب في أواخر عام ۲۰۰۲ م، من بعض قيادات حزب الفضيلة، وسرعان ما اجريت الانتخابات وكانت المفاجأة بفوز ساحق لهذا الحزب الوليد، في الانتخابات البرلمانية التركية، التي خرجت منها كل الأحزاب التقليدية خالية الوفاض، باستثناء حزبي العدالة والشعب.

وقد تشكلت الحكومة برئاسة عبدالله جول، ثم انتقلت إلى رئيس الحزب، رجب طيب أردوغان، فيما تولى عبدالله جول وزارة الخارجية.



خريطة تركيا

الفصل الثانى
بـــلاد العـــرب

وتفتتت الأمة العربية إلى ٢١ دولة وزرعت الألغام الحدودية بينها يستخدمها الأعداء عند اللزوم.

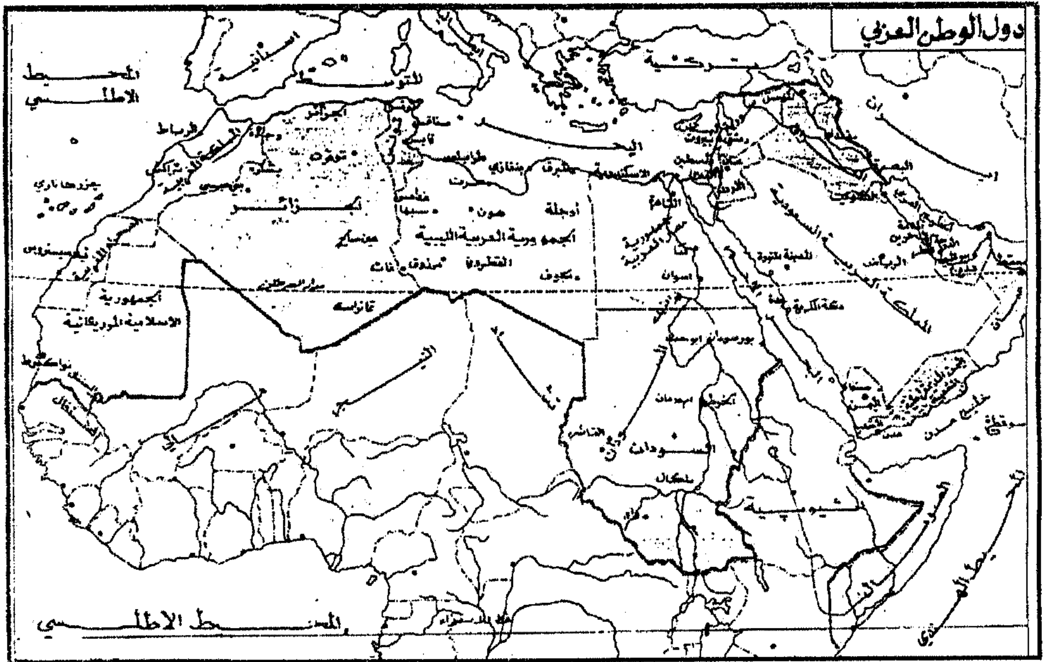
ما إن انطوت صفحة الخلافة العثمانية إلا وكانت بلاد العرب قد وقعت تحت وطأة الاستعمار سواء من الإنكليز أو الفرنسيين أو الطليان، وقد قاوم المسلمون الاستعمار مقاومة جعلتهم يحزمون أمتعتهم ويتيقنون تمامًا من استحالة استمرار احتلالهم العسكرى فى بلاد العرب، والعزم على تغيير شكل الاحتلال والنفوذ، بالإضافة إلى الخوف الشديد من وحدتهم لوجود كافة العوامل المؤدية للوحدة، من عقيدة وجنس ولغة، وذلك ليقينها بأن توحدهم سيؤدى إلى بروز قوة عظمى للمسلمين، يمكن أن تستعيد للمسلمين هيبتهم المفقودة، وخاصة أن العرب هم أول من حمل لواء الإسلام ونشروه فى الكثير من البلاد، ولغتهم هى لغة القرآن.

فكل هذه العوامل وغيرها جعلت أعداء الإسلام يعملون جاهدين على تمزيق الأمة العربية وتفتيتها، فلم يتركوا بلادهم إلا وقد قسموها إلى كيانات صغيرة، وأخرى كبيرة، وقد لجأت إلى تركيز الثروات فى الكيانات الصغيرة، مثل أغلب دول الخليج، لتشمل الثروات فئة صغيرة من الشعب العربى، بينما الدول الأخرى الأكبر مساحة أقل ثروة، وبالتالى يزداد الحقد والتفاوت بين الشعوب، مما يزيد من تفريقها وتشتيتها، ويخلق بينها الصراعات والحروب.

ولم تكتف بذلك بل زرعت إسرائيل فى فلسطين لتكون ورمًا خبيثًا فى بلاد العرب، تستخدمه فى إراقة الدماء العربية، وجعلها منطقة مشتعلة لا تعرف

الاستقرار، وأخذت تتحكم من عواصمها فى الدول العربية والويل كل الويل لمن يعصى أمرها أو يسير فى غير فلكها.

ونتناول فى هذا الجزء المنطقة العربية منذ إلغاء الخلافة العثمانية حتى وقتنا المعاصر.



خريطة الوطن العربي

المبحث الأول: الجزيرة العربية

السعودية

الدولة السعودية الأولى (١١٣٧-١٢٣٣هـ):

يعود أصل السعوديين إلى سعود بن محمد بن مقرن، وقد استقر مقرن جد سعود فى منطقة حنيفة بنجد فى الجزيرة العربية، وقد جاءوا من بلدة داريا على الخليج العربي؛ ولذلك أطلقوا على المنطقة التى استوطنوها من وادى حنيفة (داريا) التى عرفت بعد ذلك بالدرعية، وبدأ سعود بتوسيع ملكه لما حول الدرعية، ثم جاء ابنه محمد بن سعود الذى يعتبر مؤسس الدولة السعودية الأولى، وقد ظهر فى عهده الشيخ محمد عبد الوهاب الذى دعا الأمة الإسلامية إلى العودة إلى الإسلام، وتطبيق الشريعة الإسلامية، واتباع نهج السلف الصالح للقضاء على البدع التى استفحلت فى بلاد المسلمين، فرحب محمد بن سعود بالمبادئ الإسلامية التى يدعو إليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وعمل على نشرها فى أنحاء الجزيرة، وبذلك تكَّون للدولة السعودية الجانبان السياسى والدينى، وتحول فكرها القبلى إلى فكر دينى.

واستطاعت أن تضم جهات كثيرة فى الجزيرة العربية، وواصل الشيخ عبد العزيز بن محمد بن سعود ما سار عليه أبوه، فاتسعت رقعة الدولة فى عهده حتى بلغت الدولة السعودية أقصى اتساع لها فى عهد سعود بن عبد العزيز، والذى لقب بسعود الكبير، فقد شملت الدولة عمان واليمن والحجاز وكافة الجزيرة العربية، ووصلت لحدود الشام، وفى نهاية عهده بدأ محمد على بإيعاز من العثمانيين يرسل حملاته للسيطرة على جزيرة العرب، وتمكن من ذلك فى عهد عبد الله الأول حيث دخلت جيوشه الدرعية فى عام ١٢٣٣هـ وقضى بذلك على الدولة السعودية الأولى.

الدولة السعودية الثانية (١٢٣٤ - ١٢٨٩هـ):

بدأ الوجود المصرى يقل فى الجزيرة العربية، واكتفوا بوجودهم فى الحجاز، بينما انسحبوا من نجد، مكتفين بالسيادة الاسمية عليها وذلك عام ١٨٢١هـ ثم أرغمت الجيوش المصرية على الانسحاب من الحجاز عام ١٨٤٠هـ وتولى حكم الحجاز أسرة الأشراف التابعين للعثمانيين، بينما تولى حكم نجد الأمراء السعوديون، وزادت الفتن والصراعات بين الأمراء السعوديين فاستغل آل ابن الرشيد ذلك واستولوا على أملاكهم، بينما لجأ من بقى من الأسرة السعودية إلى آل الصباح فى الكويت، وانتهت بذلك الدولة السعودية الثانية.

الدولة السعودية الثالثة (١٣١٩هـ):

عبد العزيز الثاني:

تطلع عبد العزيز أحد الأمراء السعوديين إلى استعادة ملك السعوديين فى الجزيرة العربية، وكانت فى ذلك الوقت سيادتها بين العثمانيين والإنكليز، فالإنكليز يسيطرون على الكويت والبحرين وسواحل الخليج العربى، بينما تتبع اليمن والحجاز ونجد للعثمانيين، وتعاون الإنكليز مع السعوديين، وفضل السعوديون ذلك لعدة أسباب منها: أن آل ابن الرشيد الذين استولوا على أكثر أملاك السعوديين فى نجد يتبعون العثمانيين، وفى نفس الوقت فآل الصباح الذين لجأ إليهم السعوديون وقدموا لهم العون يتبعون الإنكليز، وبدأ عبد العزيز الثانى بالهجوم على الرياض، واستطاع انتزاعها من آل ابن الرشيد، ثم أخذ ينظم صفوفه واستطاع مد نفوذه إلى الإحساء عام ١٣٣٢هـ، ثم اتجه إلى آل ابن الرشيد فى حائل والذين يعاونهم العثمانيون، وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى وانسحب العثمانيون من بلاد العرب ضعف أمر آل ابن الرشيد وتمكن عبد العزيز الثانى من ضم حائل عام ١٣٤٠هـ، واستطاع أن يضم إمارات

عسير والتى كان يحكمها الإدريسيون وآل غائض.

طلب أمير الأدارسة عام ١٣٤٩هـ من الملك عبد العزيز الانضمام إلى مملكته فوافق وضمت الجيوش السعودية إمارات آل غائض، وكان الصراع على أشده بين السعوديين والأشراف -حكام الحجاز- وخاصة بعدما أعلن ملكهم الشريف حسين نفسه خليفة للمسلمين بعد القضاء على الخلافة العثمانية، وكان فى البداية تربطه علاقات طيبة مع الإنكليز، مما جعله يضع ابنه عبد الله على شرق الأردن، وجعل ابنه فيصل ملكًا على العراق، ثم ما لبث أن نشب الخلاف بينه وبين الإنكليز، وأرسل إلى الملك عبد العزيز آل سعود يأمره بمبايعته خليفة للمسلمين، ونشبت بينهما الحرب وانتهت بانتصار السعوديين وضمهم للحجاز، وأعلن فى عام ١٣٥١هـ عن قيام المملكة العربية السعودية.

واجه الملك عبد العزيز فى فترة حكمه مشكلة الإخوان، وهم جماعة من المقاتلين معه والتى بدأت تسلك آراء متشددة، وتكفر الكثير من المسلمين سواء فى الحضر أو البادية، وتقاتلهم، وترفض جميع المظاهر الحديثة، حتى التى لم يحرمها الله عز وجل، فقاومهم الملك عبد العزيز وكسر شوكتهم، وبدأ يعد جيشًا نظاميًّا لحماية حدود الدولة السعودية، وتوفى عام ١٣٧٣هـ وتولى بعده ابنه الملك سعود بن عبد العزيز.

سعود بن عبد العزيز:

وبرز فى عهده أخوه فيصل بن عبد العزيز، الذى كلف عدة مرات بتشكيل الوزارة وظهر تفوقه فى إدارة البلاد عن أخيه الملك سعود، حتى قرر العلماء وأمراء أسرة آل سعود خلع الملك سعود بن عبد العزيز، وتولية أخيه الملك فيصل بن عبد العزيز. وفى عهده تأسست جامعة الدول العربية وتعتبر المملكة العربية السعودية من مؤسسيها.

الملك فيصل بن عبد العزيز:

كانت له شعبية كبيرة فى المملكة السعودية بل وفى سائر البلدان الإسلامية، واتجه إلى التصنيع، حتى لا يكون البترول هو المصدر الوحيد للإيرادات السعودية، وعمل على تنمية الجانب الثقافى والتعليم فى المملكة، فأنشأ الكثير من المدارس والجامعات، وكان له دور كبير فى حرب العاشر من رمضان، حينما دعا الدول الإسلامية إلى وقف إرسال البترول إلى الغرب، فاستجابت باستثناء إيران وغيرها من الدول التى تسير فى فلك السياسة الغربية، وكان لذلك تأثير كبير على سياسة الدول الغربية تجاه العرب وتجاه الاحتلال الإسرائيلى للأراضى العربية، واغتيل الملك فيصل عام ١٣٩٥هـ على يد ابن أخيه فيصل بن مساعد بن عبد العزيز، وتألم الكثير من المسلمين لموته، وأعدم قاتله فى نفس العام.

الملك خالد بن عبد العزيز:

تولى الحكم بعد وفاة أخيه الملك فيصل عام ١٣٩٥هـ ولم يستمر كثيرًا فقد توفى اثر مرضه عام ١٤٠٢هـ.

الملك فهد بن عبد العزيز:

تولى الحكم بعد وفاة أخيه الملك خالد بن عبد العزيز عام ١٤٠٢هـ وولى عهده هو الأمير عبد الله بن عبد العزيز، وتنازل عن لقب صاحب الجلالة، وتسمى بخادم الحرمين الشريفين وأخذ يتوسع فى مشروعات التعمير والتنمية فى أنحاء المملكة العربية السعودية وكذلك وسع مساحة الحرمين الشريفين.

سلطنة عمان:

تعود الأسرة الحاكمة الآن فى عمان إلى قبيلة البوسعيد الذين يحكمون البلاد منذ عام ١١٥٤هـ وحتى الآن، والمسلمون يحملون كل التقدير والاحترام

للعمانيين الذين أبلوا على مر تاريخهم بلاءً حسنًا فى الإسلام، وأذلوا البرتغاليين شديدى الحقد والعداوة للإسلام والمسلمين أشد إذلال، بالإضافة إلى فتوحاتهم فى شرق أفريقيا ونشرهم الإسلام فى جهاتها.

وبعد الفتح الإسلامى لعمان مرت عليها أربعة عهود، فمنذ عام ١٣٥هـ حتى عام ٩١٤هـ كان حكم الأئمة الإباضية، ثم جاء الاحتلال البرتغالى لعمان عام ٩١٣هـ واستمر حتى عام ١٠٣٤هـ حيث طردهم اليعاربة من أنحاء عمان، فقد بدأ الجهاد الكاسح ضدهم بقيادة الإمام ناصر بن مرشد، ثم جاء ابن عمه سلطان بن سيف، فأخرجهم تمامًا من عمان، ولم يكتف بذلك بل تتبعهم فى مستعمراتهم فى شرق أفريقيا والهند، وتمكن اليعاربة من طرد البرتغاليين من جزيرتى زنجبار وبمبا والصومال، وأغار على مواقعهم فى الهند ديودامان وعاد بغنائم كثيرة، ثم جاء ابنه سيف بن سلطان فانتزع من البرتغاليين مدينة ممبسة التى تمثل عاصمة مستعمراتهم فى شرق إفريقيا، ومن مآثر اليعاربة إنشاء جيش ضخم قوامه ٩٠٠٠٠ مجاهد، وأسطول كبير، وتعمير البلاد، وبناء القلاع والحصون وأقاموا فى جبرين مدرسة لطلاب العلم.

وبدأ الضعف يدب إليهم فى آخر أيام حكمهم، حتى استولى الفرس على عمان ثم جاء البوسعيديون عام ١١٥٤هـ وخلصوا البلاد من الفرس وجاء فى عهدهم الإنكليز والذين لبثوا فى البلاد حتى عام ١٣٩٠هـ حتى استقلت عنهم عمان.

البوسعيديون.. أحمد بوسعيد:

هاجرت قبيلة آل بوسعيد من اليمن إلى عمان واستقرت بها واختار سيف ابن سلطان أحد أبنائها وهو أحمد بوسعيد ليكون مستشارًا له، وولاه على مدينة صحار، ومد الفرس نفوذهم إلى عمان، فاستنهض أحمد بو سعيد همم العمانيين، واستطاعوا بالحيلة تارة وبالحرب تارة أخرى أن يطردوهم من عمان،

وبدأ حكم بوسعيد بعمان، ولكن عمت الانقسامات فى البلاد، والتى كان من نتائجها انفصال عدة إمارات فى البلاد، والتى كونت فيما بعد دولة الإمارات العربية المتحدة، وأصبحت الأوضاع فى عمان غير مستقرة حتى جاء الإنكليز وسيطروا على البلاد.

وكان للعمانيين نفوذ كبير فى شرق إفريقيا فى عهد البوسعيديين، فعندما انكمشت الرقعة التى يسيطرون عليها فى آسيا اتجهوا بكل قوتهم إلى إفريقيا وسنتعرض لهم بشيء من التفصيل فى الفصل الخاص بإفريقيا بمشيئة الله.

وكان انقسام السلطنة العمانية إلى شطرين، أحدهما الذى يمثل عمان الآن والآخر فى شرق إفريقيا بعد وفاة السيد سعيد بن سلطان عام ١٢٧٢هـ، فوقع النزاع بين ابنيه توينى الذى استقل بعمان، وابنه الآخر ماجد الذى حكم شرق إفريقيا، وهذا ما أتاح الفرصة للاستعمار الإنكليزى أن يمد نفوذه إلى عمان وأملاكها فى أفريقيا، وأخذ المستعمر الإنكليزى يعقد المعاهدات التى بمقتضاها يبسط نفوذه على البلاد، بل والأدهى من ذلك أنه فى عام ١٣٣١هـ بدأت الإمامة تعود إلى عمان، بعد أن خفت ضوءها فى عهد البوسعيديين، فانقسمت البلاد إلى جزء تسيطر عليه الإمامة، وجزء يحكم باسم البوسعيديين الذين سيطر الإنكليز على أملاكهم فى عمان، وبدأ الإنكليز يستحثون البوسعيديين على مد نفوذهم فى المناطق التى تحكمها الإمامة وأمد الإنكليز البوسعيديين بالجيوش التى تمكنت من السيطرة على مناطق الإمامة، وبذلك بسط الإنكليز نفوذهم على عمان بالكامل، ثم استقلت البلاد عن الإنكليز عام ١٣٩٠هـ.

وتسلم السلطان قابوس بن سعيد السلطة فى البلاد وبدأ يشق الطريق نحو النهوض بالبلاد فى جميع المجالات، وانضمت عمان لجامعة الدول العربية فى عام ١٣٩١هـ، وقد ظهرت فى أواخر عهد السلطان سعيد والد السلطان

قابوس حركة متمردى ظفار الشيوعية، التى كان يدعمها الشيوعيون فى العالم، وكان متمردو ظفار يتخذون من اليمن الجنوبية قاعدة لهم للهجوم المتواصل على الأراضى العمانية، وقتل الأبرياء وإثارة الاضطرابات فى ظفار، وقد دعاهم السلطان قابوس فى البداية للرجوع إلى صوابهم، ولكنهم أبوا ذلك حيث كان الشيوعيون فى العالم يعدونهم لبسط النفوذ الشيوعى على الخليج العربى، حيث كان الشيوعيون قد غيروا اسم الحركة من جبهة تحرير ظفار إلى جبهة تحرير الخليج العربى، ولكن الجيش العمانى تمكن من الإجهاز عليهم والقضاء عليهم.

اليمـــن :

ضم العثمانيون أجزاء واسعة من اليمن إليهم، ولكنهم لم يستقروا فى الأجزاء الجنوبية منها، بينما ظلت الأجزاء الشمالية منها تابعة لهم حتى سقطت الخلافة العثمانية.

الأجزاء الشمالية من اليمن

الإمام يحي: كان الزيديون (إحدى فرق الشيعة) هم المسيطرون على الحكم فى اليمن عندما جاءها العثمانيون.

وفى عام ١٣٢٢هـ برز الإمام يحى، الذى ينحدر من أسرة آل حميد الدين من بيت القاسم الزيدية، وأخذ يحارب العثمانيين وحقق الكثير من الانتصارات عليهم، واضطر العثمانيون إلى عقد صلح عام ١٣٢٩هـ عترفوا فيه باستقلال اليمن، واحتفظ العثمانيون بحامية صغيرة فى صنعاء كشكل من أشكال الارتباط الإسلامى لليمن بالخلافة، وبعد ذلك قامت الحرب العالمية الأولى فانسحبت الحامية الصغيرة للعثمانيين من اليمن.

نشبت الصراعات بين اليمن والسعوديين على منطقتى عسير ونجران، اللتين

تدعى كل من المملكتين أحقيتها فيها، ونشبت بينهما الحروب التى انتهت بانتصار السعوديين، ووصلوا إلى مدينة الحديدة اليمنية، ثم عقد اتفاق الطائف الذى اعترفت فيه اليمن بتبعية نجران وعسير للسعودية، وانسحبت السعودية من المناطق التى دخلتها فى اليمن، وظل الإمام يحيى فى الحكم حتى عام ١٣٦٧هـ، حيث اغتيل بمؤامرة دبرها عبد الله بن أحمد، عضو ديوان الإمام الذى كان يطمع فى الحكم، واتجه لقتل ولى العهد الإمام أحمد، ولكن الإمام أحمد استطاع أن ينجو منه ووقع القتال بين الإمام أحمد وعبد الله الوزير انتهى بانتصار الإمام أحمد.

الإمام أحمد:

اتجه إلى تشجيع الحركات العربية، فشكل مع مصر والسعودية الحلف الثلاثى عام ١٣٧٦هـ، واتحد مع الجمهورية العربية المتحدة المكونة من مصر وسوريا عام ١٣٧٨هـ الذى ما لبث أن انحل عام ١٣٨١هـ، بسبب انفصال سوريا وحدثت فى عهده ثورة ١٣٧٤هـ لإرغامه على التنازل عن الحكم، واضطر لأن يتنازل لأخيه عبد الله المؤيد من الجيش، ثم ما لبث أن استجمع أعوانه وابنه بدر قواتهم، وأعادوه للحكم وأعدم قادة الثورة.

وتعرض الإمام أحمد لمحاولة اغتيال عام ١٣٨٠هـ وأخذ فى العلاج من الإصابات التى لحقت به، حتى توفى متأثرًا بها عام ١٣٨٢هـ وتولى ابنه بدر الذى لم تتجاوز مدة حكمه أسبوعًا، حيث قامت ثورة عام ١٣٨٢هـ والتى عرفت بثورة ٢٦ سبتمبر لإلغاء الإمامة وإعلان الجمهورية، وخاف الثوار من فشل الثورة، فاستنجدوا بجمال عبد الناصر الذى أمدهم بما يحتاجون من عتاد ورجال، ووقع الجيش المصرى فى مستنقع اليمن، حيث جمع الإمام بدر حوله القبائل المؤيدة له، وأعانته السعودية التى كانت علاقتها متوترة مع مصر فى ذلك الوقت، وخاصة من تصريحات جمال عبد الناصر التى كانت ترمى لإسقاط

الأنظمة الملكية، وإحلال النظام الجمهورى مكانها، فكان عون السعودية للإمام بدر حماية لنظام الملكية بها وقتل الكثير من الجنود المصريين لتفوق اليمنيين عليهم فى الخبرة بجغرافية اليمن، وكاد الإمام بدر أن يستعيد ملكه، لولا اعتراف الولايات المتحدة بالجمهورية اليمنية، وتوقف المساعدات السعودية له وفى نفس الوقت اضطر جمال عبد الناصر لسحب جيوشه من اليمن. بسبب الاجتياح الإسرائيلى للأراضى العربية، والهزيمة المنكرة فى عام ١٣٨٧هـ والتى كانت حرب اليمن من أهم أسبابها، وثبت الثوريون أقدامهم فى اليمن، وكان عبد الله السلال أول رئيس لجمهورية اليمن الشمالية، ولكن أطيح به من منصبه فى عام ١٣٨٧هـ وتسلم القاضى عبد الرحمن المنصب ثم قامت ثورة فى اليمن عام ١٣٩٤هـ أو بعبارة أصح انقلاب عسكرى أدى إلى عزل رئيس الجمهورية، وتولى إبراهيم الحامدى رئاسة الدولة، وظل فى الحكم ٤ سنوات حتى اغتيل عام ١٣٩٨هـ بمؤامرة دبرها رئيس اليمن الجنوبى سالم ربيع، الذى أرسل مبعوثًا خاصًّا على طائرة خاصة من عدن إلى رئيس اليمن الشمالى ليسلمه رسالة كان يضعها فى حقيبة وما إن فتح المبعوث الحقيبة إلا وانفجرت الحقيبة ولقى كل من الرئيس إبراهيم الحامدى والمبعوث مصرعهما، وألقى اليمن الشمالى مسئولية الحادث على اليمن الجنوبي وقطع معه العلاقات الدبلوماسية وتولى بعد ذلك العقيد على عبد الله صالح الحكم فى البلاد وكان من أبرز أعماله إنشاء سد مأرب عام ١٤٠٦هـ.

الأجزاء الجنوبية من اليمن:

وتتمثل فى ثلاثة من مناطق هى؛ عدن، والمقاطعات الشرقية، والمقاطعات الغربية، وقد وقعت تحت النفوذ البريطانى، وقد ضم العثمانيون عدن عندما ضموا اليمن الشمالى، ولكنهم لم يثبتوا أقدامهم فيه فاحتله الإنكليز عن طريق

شركة الهند الشرقية، التى تذرعت بأتفه الأسباب لاحتلال عدن، ثم أخذ الإنكليز يزيدون من إثارة الفتن بين القبائل فى الجنوب اليمنى، واستطاعوا أن يمدوا نفوذهم إلى المقاطعات الشرقية والغربية من جنوب اليمن.

وقد وحدت إنكلترا عددًا من المقاطعات الشرقية والغربية للجنوب اليمنى لتكوين مستعمرة متحدة كانت تدار فى البداية من عدن، ثم أتبعتها للحاكم الإنكليزى فى الهند، ثم أعلنت مستعمرة تاج عام ١٢٥٦هـ نظرًا لاتجاه الهند للاستقلال عن إنكلترا ثم أعلنت قيام حكومة الاتحاد عام ١٣٧٨هـ فى جنوب اليمن التابعة لإنكلترا ولكن اليمنيين لم يقبلوا هذا الوضع، وشجعهم على ذلك قيام ثورة فى اليمن الشمالى عام ١٣٨٢هـ ومساعدة جمال عبد الناصر لهم فأعطت الإنكليز الاستقلال لليمن الجنوبى عام ١٣٨٧هـ وكان رئيسها هو عبد القوى مكاوى ثم جاء بعده سالم ربيع الذى تورط فى اغتيال رئيس اليمن الشمالى، ثم حدث انقلاب فى عام ١٣٩٨هـ أطاح بسالم ربيع وتولى قائد الثورة عبد الفتاح إسماعيل الحكم، وكان الاتحاد السوفيتى يسانده فى ذلك، والطائرات الروسية تعزز موقفه ثم حدث انقلاب عسكرى آخر فى اليمن أطاح بعبد الفتاح إسماعيل، وتولى على ناصر الحكم وتوالت الانقلابات العسكرية وفى عام ١٤٠٦هـ تولى أبو بكر السقاف الحكم.

الوحدة اليمنية:

منذ أن استقل اليمن الجنوبى وهو يحاول الاندماج مع الشمالى الذى أبدت نفس الرغبة، وقد جرت محاولات جادة لدمجهما عام ١٣٩٢هـ ولكن القيادات فى البلدين لم تتفق ثم جاء عام ١٤١٠هـ فاتحدت الدولتان واتخذت صنعاء عاصمة للدولة الجديدة، وشغل على عبد الله صالح منصب رئيس الدولة وأبو بكر السقاف منصب رئيس الوزراء، ثم حدث تراجع من قبل أبى بكر السقاف

الذى أراد الانفصال مرة أخرى، ووقعت حرب أهلية فى اليمن بين دعاة الانفصال يقودهم أبو بكر السقاف، والرئيس على عبد الله صالح الذى يرفض الانفصال، وانتصر جيش على عبد الله صالح ودخل عدن وما زالت اليمن حتى الآن موحدة.

مشكلة جزر حنيش:

بعد استقلال اريتريا عن أثيوبيا دعم اليهود والغرب إريتريا لتهديد الاستقرار فى المنطقة العربية وإفريقيا، فهى من جهة تساعد الانفصاليين فى السودان، ومن جهة أخرى تريد أن تزيد نفوذها فى البحر الأحمر، والذى يعنى زيادة نفوذ الدول التى تعتبر إريتريا عميلة لهم، فبتخطيط يهودى وبأسلحة يهودية وأمريكية بل باشتراك الجنود اليهود احتلت إريتريا جزيرة حنيش الكبرى وتقدمت فى عدة جزر أخرى فى مضيق باب المندب، وكانت هذه الجزر تابعة للجمهورية اليمنية وسكت العالم على الأحداث التى تحدث فى باب المندب وكأنه يعزز التعديات الإريترية على اليمن، وفرضت أمريكا واليهود على اليمن توقيع اتفاق للتحكيم الدولى على عدة جزر فى المضيق مع إريتريا، لكن محكمة العدل الدولية حكمت بأحقية اليمن في هذه الجزر.

البحريـــن

كانت كلمة البحرين تطلق على المنطقة الممتدة من قطر إلى البصرة وتشمل الجزر التى تحمل هذا الاسم الآن، ثم أخذت الدولة فى التقلص حتى لم يبق تحت سيطرتها الآن إلا جزر البحرين التى كونت دولة البحرين.

احتل البرتغاليون البحرين فى القرن العاشر الهجرى وازداد نفوذهم فى الخليج العربى حتى أوقف العثمانيون تقدمهم فى شبه الجزيرة العربية، ولم يستطع البرتغاليون تثبيت أقدامهم فى هذه الجهات نظرًا للمقاومة الإسلامية

الشديدة لهم، سواء من العرب أو العثمانيين أو الفرس، ولم يتوقف الأمر على ذلك بل دخل الإنكليز والهولنديون الصراع ضد البرتغاليين، وكان العمانيون لهم دور كبير فى القضاء على البرتغاليين فى الجزيرة العربية، فبعد أن طهروا البلاد منهم طردوهم من بقية الأجزاء التى يسيطرون عليها، وأخرجوهم من البحرين عام ١٠١١هـ. وتعاون الإنكليز مع الفرس لجعل السلطة للفرس على البحرين بعد خروج البرتغاليين، وأخذ الفرس يعينون على البحرين عاملاً لهم من العرب ثم بدأ الضعف يدب فى الفرس، واستطاع آل خليفة أن ينتصروا على عامل الفرس فى البحرين فى موقعة الزبارة عام ١١٩٧هـ على شاطئ قطر، ودخل آل خليفة جزر البحرين، وفى عام ١٢١٥هـ ضم العمانيون البحرين إليهم، فاستنجد حاكمها الشيخ سليمان بن أحمد بن محمد بن خليفة بالسعوديين فأعانوه بقوة بقيادة ابن عفيصان، واستطاع أن يطرد العمانيين منها، ولكنه احتل الجزيرة لنفسه فجمع آل خليفة جموعهم واستطاعوا أن يطردوا ابن عفيصان من البحرين، ففر إلى قطر، وعادت السلطة فى البحرين لآل خليفة وفى عهد الشيخ محمد بن خليفة بن سلمان امتد نفوذ الإنكليز إلى البحرين، وتحكموا فى عزل وتعيين حاكمها فعزلوا الشيخ محمد وعينوا عيسى بن على من آل خليفة أيضًا، وظل النفوذ الإنكليزى فى البحرين حتى استقلت البحرين عام ١٣٩١هـ وذلك فى عهد الشيخ عيسى بن سلمان بن حمد آل خليفة وانضمت البحرين لجامعة الدول العربية.

حاولت إيران ضم البحرين التى تعتبرها إيران جزءًا من أراضيها لكثرة الشيعة بها، ولكن الإنكليز رفضوا ذلك حتى لا يفقدوا صلتهم بالعرب، وحتى الآن تحاول إيران ضم البحرين إليها بنشر لغتها فى البحرين وإقامة المدارس الفارسية، وفتح الباب على مصراعيه لتعليم أبناء البحرين فى إيران، وتقديم

التسهيلات إليهم، وتسعى الدول العربية لزيادة الرابطة بين البحرين والعرب وكان من أمثلة ذلك جسر الملك فهد، الذى يربط بين البحرين والسعودية، وكذلك إنشاء جامعة الخليج العربى، التى تضم السعودية وقطر والبحرين والإمارات والكويت وعمان، وتتخذ من البحرين مقرًا لها، وصارت البحرين مملكة في الوقت الحالي.

قطـــر :

كانت قطر جزءًا من دولة البحرين كما ذكرنا من قبل، ثم خضعت للعمانيين فى القرن الثامن الهجرى، ثم احتلها البرتغاليون عام ٩٢٢هـ، ولم يلبثوا فيها كثيرًا إذ أرسل الخليفة العثمانى سليمان القانونى أسطولاً بقيادة سليمان باشا، طرد البرتغاليين من قطر وأجزاء أخرى فى الخليج ضمت للدولة العثمانية، ثم ضعف أمر العثمانيين فى البلاد وخرجوا منها عام ١٠٨٠هـ، ثم خضعت للسعوديين فى عهد عبد العزيز بن محمد، ثم ضعف نفوذ السعوديين فيها بسقوط الدرعية، فمد آل خليفة سلطانهم إليها، وكانت عاصمتهم الزبارة فى قطر، فنقلوها إلى جزيرة المنامة بالبحرين وجعلواآل ثانى هم نوابهم فى قطر، ثم نشب الخلاف بين آل ثانى وآل خليفة، واندلعت الحروب بينهما، فانتهزت إنكلترا الفرصة وتدخلت وبسطت نفوذها، وعقدت بين آل ثانى وآل خليفة معاهدة بمقتضاها استقلت قطر عن البحرين.

حكم آل ثاني:

واستمر حكم آل ثانى لشبه جزيرة قطر حتى الآن، وقد أجبر الإنكليز العثمانيين على توقيع اتفاقية يتنازل بمقتضاها العثمانيون عن جميع حقوقهم فى قطر، ليحل النفوذ الإنكليزى مكانهم فى عام ١٣٣١هـ واضطرالشيخ عبد الله ابن قاسم من آل ثانى أن يعقد معاهدة مع إنكلترا يعطى لها نفوذًا فى قطر وفى

عهده اكتشف البترول فى قطر.

توالى حكم آل ثانى على قطر، وأعطيت الاستقلال عن إنكلترا، وأعلنت قيام دولة قطر عام ١٣٩١هـ وفشلت المحاولات لدمج قطر والبحرين والكويت مع دولة الإمارات العربية المتحدة وذلك فى عهد الشيخ أحمد بن على وتتسم الحياة السياسية فى قطر بالخلافات الدائمة بين أمير الدولة وولى العهد، فقد تنازل الشيخ على لابنه أحمد عن الحكم، ونص التنازل على أن يكون الشيخ خليفة بن حمد (ابن عم أحمد) وليًّا للعهد، وكان الشيخ خليفة بن حمد هو الحاكم الفعلى لقطر، حتى أنه هو الذى أعلن الاستقلال عن إنكلترا عام ١٣٩١هـ، واستطاع أن ينفرد بالحكم فى نهاية عام ١٣٩١هـ بحركة انقلابية وظل الشيخ خليفة يحكم البلاد حتى قام ابنه وولى عهده حمد بانقلاب مماثل مستغلا وجود أبيه بالخارج وتولى الحكم مكانه.

دولة الإمارات العربية المتحدة :

سبق أن ذكرنا من قبل فى الحديث عن عمان أن دولة الإمارات كانت جزءًا من عمان، ثم بدأت تستقل بذاتها عندما دب الضعف والانقسام بالعمانيين، وظلت على هذه الحال حتى شكلت دولة الإمارات المتحدة.

فقد كانت هذه الإمارات تتبع اليعاربة حتى جاء البوسعيديون لحكم عمان، فظهر القواسم الذين قد غزوا بقوة بحرية كبيرة وأعلن زعيمهم رحمة بن مطر الاستقلال بالمنطقة التى بها دولة الإمارات الآن، ووافق أحمد بوسعيد على ذلك واتخذ رحمة مدينة رأس الخيمة عاصمة له، ثم وصلت فلول المستعمرين الإنكليز وخاضت مع القواسم حروبًا ضارية حتى تمكنت من بسط نفوذها على المنطقة، وعقدت مع حكام المنطقة معاهدة عام ١٣٣٥هـ أجبرتهم فيها على الاعتراف بالسيادة البريطانية على المنطقة.

أخذ الإنكليز يزيدون من انقسام هذه المنطقة، فقسموها إلى ٧ إمارات وهى أبو ظبي، الشارقة، دبي، رأس الخيمة، الفجيرة، أم القوين، وعجمان.

وظل الاحتلال الإنكليزى لهذه الإمارات حتى أعلن الإنكليز عن انسحابهم من منطقة الخليج عام ١٣٩٠هـ، فاتحدت الإمارات السبع وأعلنت قيام دولة الإمارات العربية المتحدة ورفضت الكويت وقطر والبحرين الانضمام إليها، وكان للشيخ زايد بن سلطان جهودًا كبيرة فى قيام هذا الاتحاد، واختير لرئاسة هذا الاتحاد، واستطاعت الإمارات أن تسير بخطى سريعة فى شتى مجالات التنمية والبناء والتعمير، وتتمتع بعلاقات طيبة مع كافة دول العالم، ولها مساهمات فعاله فى تمويل الكثير من المشاريع فى العديد من الدول الإسلامية.

الكويت:

كانت البقعة التى تمثل الكويت الآن ليس لها أى أهمية فى الماضى، بل لم يكن يقطنها أحد، حتى جاء إليها آل الصباح وأعلنوا تبعيتهم للعثمانيين واستوطنوا تلك المنطقة النائية، وكان معهم كل من آل خليفة والجلاهمة ثم انفصل عنهم آل خليفة واستوطنوا منطقة قطر ثم وقع الخلاف بين الجلاهمة وآل الصباح فتمكن آل الصباح من طرد الجلاهمة من الكويت.

برزت أهمية الكويت عندما احتل الفرس البصرة من العثمانيين عام ١١٦٨هـ وظلوا يحتلونها لمدة أربع سنوات، فى الوقت الذى كان الإنكليز يعتمدون على الطريق الذى يمر بالبحر المتوسط، ثم البصرة، ثم الخليج العربى، للوصول إلى الهند فغيرت إنكلترا الطريق من البصرة إلى الكويت لتصل إلى الخليج العربى، وبدأ حكام آل الصباح يظهرون ميلهم للإنكليز، بسبب ضعف العثمانيين وظهور قوة الإنكليز، ولكن الإنكليز لم ينازعوا العثمانيين فى هذه البقعة، حيث لم تكن لها الأهمية الكافية فى ذلك الوقت، وكانت بريطانيا لديها

أطماع أخرى ذات أهمية كبرى فى الدولة العثمانية، ثم جاء عهد الشيخ مبارك الصباح وظل الميل للإنكليز الذين وجدوا الوقت مناسبًا لبسط نفوذهم على الكويت، فى الوقت الذى توترت فيه العلاقات بين العثمانيين والكويت، وكان العثمانيون قد أتبعوا الكويت إلى ولاية البصرة، ثم قامت الحرب العالمية الأولى وأخذت الكويت جانب الإنكليز فى الحرب، وبسط الإنكليز نفوذهم على الكويت وظل النفوذ الإنكليزى على الكويت حتى عام ١٣٨١هـ عندما منح الإنكليز الكويت الاستقلال التام، وكان ذلك فى عهد الشيخ عبد الله بن سالم وقد أعلن عبد الكريم قاسم رئيس العراق حينئذ أنه عازم على ضم الكويت لأنها كانت تابعة لولاية البصرة فى العهد العثمانى، ولكن الرئيس جمال عبد الناصر أرسل تهديدًا للعراق بأنه سيمنع أى محاولة لضم الكويت، فعدل عبد الكريم عما كان يعزم عليه وعم الثراء فى الكويت نظرًا لانتشار آبار البترول بها، واحتلالها للمركز الثانى بين الدول العربية فى إنتاجه، وفى نفس الوقت مساحتها صغيرة وسكانها قليلون، واستمرت البلاد تنعم بما يفيض من الغنى والثروات، حتى جاءها الغزو العراقى عام ١٤١١هـ الذى سنتناوله فى الجزء الخاص بالعراق وحرر الكويت فى عام ١٤١٢هـ ويحكم الكويت حاليا الشيخ جابر الصباح

* * *

المبحث الثاني
العـــــــراق

وقعت العراق تحت الانتداب الإنكليزى بعد هزيمة العثمانيين فى الحرب العالمية الأولى، والتى تنازل فيها العثمانيون عن بلاد العرب، وكان الحلفاء قد وعدوا العرب بإعطائهم الاستقلال بعد الحرب ولكنهم -كعادتهم- أخلوا بالعهود وعينوا على العراق الملك فيصل بن حسين شريف الحجاز ، والذى أخذ جانبهم فى الحرب العالمية الأولى.

ورفض الشعب العراقى الاحتلال الإنكليزى، وأخذت المقاومة تشتعل فى أنحاء العراق وقامت الثورات التى كان من أهمها ثورة عام ١٣٣٨هـ، ولكن أخمدها الإنكليز وقد أعلن الإنكليز إنهاء الانتداب الإنكليزى على العراق عام ١٣٥١هـ ولكن هذا الاستقلال كان صوريًا، فالنفوذ الإنكليزى ظل فى العراق.

وتوفى الملك فيصل بن حسين عام ١٣٥٢هـ وجلس ابنه غازى على العرش، والذى قتل فى حادث غامض عام ١٣٥٩هـ فخلفه ابنه فيصل الثانى البالغ من العمر ٤ سنوات، فعين خاله عبد الإله وصيًا عليه، وحدثت ثورة أخرى عام ١٣٦١هـ فى العراق بقيادة رئيس الأركان بكر صدقي، ولكن ما لبث أن قتل، وقامت انتفاضتان للشعب عام ١٣٥٨هـ، ١٣٦٢هـ وتسلم الملك فيصل الثانى مهامه عام ١٣٦٣هـ بعد أن وصل إلى سن الرشد، وانضمت العراق إلى حلف بغداد عام ١٣٦٥هـ، الذى يعتبر تكريسًا للنفوذ الإنكليزى.

ثم أعلن عام ١٣٥٧هـ عن قيام الاتحاد العربى بين الأردن والعراق برئاسة فيصل الثانى، ردًا على قيام الجمهورية العربية المتحدة بين مصر و سوريا، ولكن الاتحاد العربى لم يمكث كثيرًا ففى عام ١٣٧٨هـ قامت ثورة فى البلاد، ألغت

الملكية، وأعلنت قيام الجمهورية فى العراق برئاسة عبد الكريم قاسم والتى أنهت النفوذ الإنكليزى فى العراق، ثم ما لبث عبد الكريم قاسم أن استبد بالبلاد، وتوترت علاقات العراق مع الوطن العربى، ونشبت الصراعات بين ضباط الثورة، والتى أدت إلى مذابح رهيبة فى البلاد ومجازر وحشية، ونكل بالأكراد أشد تنكيل.

قامت على إثر ذلك ثورة ١٣٨٢هـ التى أطاحت بعبد الكريم قاسم وعينت مكانه عبد السلام عارف، وأعدم عبد الكريم قاسم، وتحسنت العلاقات مع الدول العربية وبدأ يصحح أخطاء الثورة السابقة، ولكن توفى عبد السلام عارف فى حادث سقوط طائرته عام ١٣٨٥هـ، وتولى أخوه عبد الرحمن عارف رئاسة الجمهورية والذى تدهور فى عهده اقتصاد البلاد، وأهمل الجانب العسكرى فقامت على أثر ذلك ثورة ١٣٨٨هـ التى أطاحت به.

وتولى رئاسة الجمهورية أحمد حسن البكر وعين صدام حسين نائبًا له والذى كان الحاكم الفعلى للبلاد، ثم انفرد صدام حسين بالسلطة عام ١٣٩٩هـ وعقد مؤتمر القمة العربى فى بغداد عام ١٣٩٩هـ، بسبب توقيع معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل، وأعلنت الدول العربية قطع علاقاتها الدبلوماسية مع مصر باستثناء عمان والسودان والصومال وكذلك توقفت المساعدات العربية لمصر.

الحرب العراقية الإيرانية (١٤٠٠- ١٤٠٨هـ):

زج صدام حسين بالعراق فى حرب طائشة مع إيران، سبق أن تكلمنا عنها فى الجزء الخاص بإيران، شجعه أعداء الإسلام عليها، ووجدوا فيه آذانا صاغية وطموحات لا حصر لها، ولكنها بعيدة المنال، ولم يحصد من هذه الحرب إلا مليون قتيل عراقى، وتدمير البلاد وإثقال عاتق البلاد بالديون، بل تنازل عن كل

مطالبه فى النهاية تمهيدًا لاجتياح الكويت، وحاول صدام حسين فى البداية عدم إثارة الأكراد بإعطائهم حكمًا ذاتيًا موسعًا وحصولهم على نسبة من عائدات البترول، وبمجرد انتهاء الحرب نكل بهم أشد تنكيل، وارتكب فيهم مذبحة مروعة عام ١٤٠٨هـ بالغازات السامة.

مجلس التعاون العربي:

اتفقت مصر والعراق واليمن والأردن على تكوين مجلس التعاون العربى بينهما عام ١٤٠٩هـ وظهرت آراء كثيرة فى مغزى مجلس التعاون العربى، ومن أهمها رأى يرجح أن العراق كان يستعد لحرب الخليج واحتلال الكويت، فشجع كل من الأردن واليمن على التعاون معه، بحيث يمهد احتلال الكويت إلى تقدم الأردن فى السعودية واحتلالها للحجاز والجوف، وتقدم اليمن فى عسير فى السعودية، حيث كانت هذه الأجزاء تابعة لهم من قبل وضمتها السعودية إليها فى عهد الملك عبد العزيز آل سعود، ووجدوا أن لمصر ثقلها ومكانتها فى المنطقة، فأحبوا أن يورطوها معهم، ولكن كان موقف مصر رفض العدوان العراقى على الكويت وأدى ذلك إلى حل مجلس التعاون العربى فى فترة حرب الخليج.

حرب الخليج (١٤١١هـ):

بعد القضاء على أكبر الأنظمة الشيوعية فى العالم، وانتهاء الحرب الباردة بين الشرق والغرب، وصل أعداء الإسلام فى أوروبا وأمريكا لمرحلة التفرغ الكلى للقضاء على المسلمين، وقد أثبتت تجاربهم السابقة فى هذا الصدد أن غزوهم المباشر لبلاد المسلمين واحتلالها هو بمثابة دخول المستنقع؛ ولذلك لن تكون إبادة المسلمين إلا بأيدى المسلمين، فعمدت منذ عهد قريب إلى تغيير سياستها الاستعمارية من الاحتلال العسكرى إلى الاحتلال الاقتصادى، ومن الحرب المباشرة مع المسلمين إلى تقابل المسلمين مع بعضهم البعض.

لقد أغروا صدام بالكويت وبثرواتها البترولية الكبيرة، التى بامتلاكها يتحقق الرخاء للعراق الخارج من حرب دامت ٨ سنوات دمرته تمامًا وفى نفس الوقت لن يجد مقاومة تذكر، حيث لا وجه للمقارنة بين إمكانات العراق والكويت الحربية، وعلاوة على ذلك لن يخطر على بال الكويت أن العراق سيغزو بلاده، وقد مدت الكويت يد العون للعراق فى حربها الضارية مع إيران، فاختلقت العراق أسبابًا واهية لا تعقل واجتاحت الكويت عام ١٤١١هـ واحتلتها، واعتقد صدام حسين أن حلف الأطلسى سيبارك عمله كما وعده ويسكت عليه كما سكت من قبل على مذابحه للأكراد عام ١٤٠٨هـ، ولكن الغرب أعلن رفضه للاحتلال العراقى للكويت، فظن صدام أن ذلك من باب التمويه والخداع وحبك اللعبة الدولية.

واستيقظ صدام حسين من الحلم الجميل الذى يعيشه بضم الكويت والتمتع بثرواتها على كابوس مفزع، وتيقن من أنه خدع وما وعد إلا غرورًا، وبدلاً من أن ينقذ ما يمكن إنقاذه، ويصحح الخطأ الكبير الذى وقع فيه أصر صدام على موقفه، واستمر فى مواصلة المعركة إلى آخرها حتى انهزم تمامًا وأضاع كل شيء وأخرجت القوات المتحالفة العراق من الكويت عام١٤١٢هـ وكان من آثار هذه الحرب تحقيق أهداف أعداء الإسلام وهي:

١- ضرب الاقتصاد الإسلامى المتمثل فى دول الخليج.

٢- تحطيم الترسانة العسكرية للعراق والتى تشكل خطرا على إسرائيل.

٣- إعادة الشقاق والضغائن إلى الدول العربية المسلمة بعد المصالحة التى تمت بينهم فى مؤتمر الرباط عام ١٤٠٨هـ.

٤- تثبيت نفوذ حلف الأطلسى فى دول الخليج بحجة حماية دوله من أطماع الدول المجاورة.

٥- لفت أنظار العالم عن قضية فلسطين وتحويلها إلى قضية أخرى.

٦- إذلال الشعب العراقى وفرض الحصار الاقتصادى والغذائى عليه فى سبيل القضاء عليه بعد ما كان يشكل قوة إسلامية كبرى.

وظل الحصار مفروضا على العراق لأكثر من عشر سنوات، والضحية هو الشعب العراقي، وتماطل أمريكا فى رفع الحصار عن العراق لتذل شعبه وتهلكه؛ استمرارًا فى خطتها الرامية لتفتيت هذا البلد المسلم وتشجيع الأكراد فى الشمال على الحركات الانفصالية وكذلك الشيعة فى الجنوب، وتكون بذلك قد قطعت شوطًا لا بأس به فى المنطقة العربية وكل ذلك يحدث والمسلمون يقفون موقف المتفرج لا يفعلون شيئا وكأنهم ينتظرون أن تأتى الكرة عليهم.

وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، واحتلال الولايات المتحدة الأمريكية لأفغانستان اتجهت إلى العراق، وادعت أن العراق يأوي الإرهاب ويدعمه وأن لديه أسلحة دمار شامل، وأرسلت الأمم المتحدة بفرق التفتيش التي نقبت تحت كل حجر عراقي ولم تجد شيئًا من هذه الأسلحة المزعومة، لكن أمريكا أصرت على وجود هذه الأسلحة وكونت حلفًا ضم بريطانيا وإسبانيا، وبالإضافة إلى حكاية أسلحة الدمار الشامل فإنها تذرعت بحجة القضاء على النظام العراقي الديكتاتوري وإحلال الديمقراطية والعدل.

اجتاحت أمريكا وحلفاؤها العراق في ٢٠/ ٣/ ٢٠٠٣م واستخدمت جميع الأسلحة المباحة والمحرمة دوليًا في حربها على العراق، ودخلت بغداد في ٩/ ٤/ ٢٠٠٣م واندلعت المقاومة في كل مكان، وألقت الولايات المتحدة الأمريكية القبض على صدام حسين في ١٤/ ١٢/ ٢٠٠٣.

عملت قوات التحالف على تدمير البنية التحتية في العراق والقضاء على كل أشكال الحضارة والتراث الإنساني والإسلامي في بغداد، كما عمدت إلى تدمير المساجد واحتلال المنشآت النفطية، كما فجرت الفتنة الطائفية بين السنة والشيعة، وحاولت العراق إلى سجن كبير تمارس فيه أبشع أنواع التعذيب والاغتصاب والقتل، وهتكت أعراض النساء داخل المساجد، لتقدم لنا واحدة من أبشع صفحات الحروب الصليبية ضد الإسلام.

***

المبحث الثالث
بلاد الشام (سوريا)

قبل أن تقع بلاد الشام تحت الاستعمار الأوربى وتُنتزع من العثمانيين، كان كل من الإنكليز والفرنسيين قد حققوا نفوذًا لهم فى بلاد الشام، وبالتحديد فى منطقة لبنان الحالية، فقد استغل المستعمرون وجود الكثير من الطوائف فى هذه المنطقة، واستغلوا أيضًا النزاع الذى لا ينقطع بينها، فعمد الفرنسيون إلى مساعدة الموارنة وتقريبهم، بينما عمد الإنكليز إلى الدروز ومدوا إليهم يد العون والتقريب، فكانت هذه المنطقة مشتعلة بالخلافات والفتن التى أثقلت عاتق الدولة العثمانية، وكان العثمانيون يقسّمون منطقة الشام إلى أربعة مناطق إدارية (ولايات) وهي: دمشق وحلب وطرابلس وصيدا.

الاحتلال الأجنبى لبلاد الشام وتقسيمها:

قبل الحرب العالمية الأولى كانت بلاد الشام والعراق وجزيرة العرب ترتبط بالعثمانيين سواء سياسيًا أو اسميًا، ويمكن أن نقول إن العثمانيين لم يتحقق لهم الاستقرار فى هذه المنطقة فى الفترة التى سبقت الحرب العالمية الأولى مباشرة، فعمل الاستعمار على قطع الروابط بين العثمانيين وما بقى تحت أيديهم من بلاد العرب، بواسطة وسائل كثيرة من أهمها النعرات القومية، سواء فى تركيا أو بلاد العرب، وأخذت تملى الوعود والأمانى للعرب فى استقلالهم عن العثمانيين، ووعدت الشريف حسين (شريف الحجاز من أسرة الأشراف التى كانت تحكم الحجاز ويعود نسبها إلى أهل البيت) بتنصيبه ملكًا على الأجزاء العربية التابعة للعثمانيين إذا ما ساعدها، وأخذ جانبها فى الوقت المناسب.

وجاء الوقت المناسب والذى يتمثل فى الحرب العالمية الأولى، وأعلن

الشريف حسين فكرة استقلال العرب تساعده فى ذلك جمعية العربية الفتاة (القومية)، وبرزت فكرة تولية الشريف حسين ملكًا للعرب، وساعد المستعمرون الشريف حسين فى دعايته ليس من أجله ولكن باعتباره الوسيلة التى ستمكن لهم فى بلاد العرب، وعندما يستتب لهم الأمر سيكون أول ضحاياهم بعد أن أدى مهمته -من وجهة نظرهم- وبالفعل انتهت الحرب العالمية الأولى بهزيمة العثمانيين، ووقوع بلاد العرب فى أيدى المستعمرين، وفى البداية عملوا على إظهار الشريف حسين على بلاد العرب، لكى يثبتوا أقدامهم فيها، فعينوا ابنه فيصل على بلاد الشام، ثم راجعوا أنفسهم فوجدوا أن تحقيق أهدافهم لا يستدعى هذا الكم الكبير من البريق للشريف وأسرته، بل ويمكن أن يؤدى ذلك إلى تحول الخطة فى غير صالحهم، لأنه بذلك تكون بلاد الشام موحدة، فطوروا الخطة إلى تعيين الملك فيصل على بلاد العراق، وخلق ولاية شرق الأردن فى الشام وتولية الأمير عبد الله بن الشريف عليها، وبذلك يكونون قد أخفتوا من بريق الشريف حسين وعائلته وفى نفس الوقت يمتد نفوذهم فى البلاد بشكل أكبر.

وما إن استتب لهم الأمر حتى أظهروا وجههم الحقيقى، وبدءوا فى مرحلة جنى الثمار فعملوا على إضعاف الشريف حسين، فأعانوا السعوديين عليه حتى فقد الشريف حسين،الحجاز -قاعدته الأساسية التى يستمد منها المكانة السياسية والدينية لدى العرب- وبالتالى تخلصت من القوة التى تخشى مقاسمتها السلطة، برغم أنها كانت بالأمس وسيلتها للنفوذ فى بلاد العرب وبالتالى لم يبق للأشراف من وجود فى بلاد العرب إلا فى العراق وولاية شرق الأردن، وكلاهما خاضعان للسيطرة الأجنبية، فقضت بذلك على أى خطر من الأشراف، وبدأ الأستعمار يطبق سياسة فرق تسد فى البلاد، حتى يصعّب على

العرب المقاومة ولا تقوم لهم قائمة، وفى هذا الجزء سنعرض سياسته فى الشام.

كانت بداية التجزئة فى بلاد الشام متمثلة فى انقسامها إلى منطقتى نفوذ، إحداهما لفرنسا وتمثل الجزء الشمالى، والأخرى لإنجلترا وتمثل الجزء الجنوبى، ومارست فرنسا سياسة التفتيت فى الجزء الخاضع لها، فأعلنت عن عزمها إنشاء دولة لبنان الكبير والتى كانت نواتها الموارنة الذين يرتبطون بفرنسا دينيًا وثقافيًا منذ عهد العثمانيين، فأضافت إلى إقطاعياتهم إقطاعيات أخرى من سوريا، كونت دولة لبنان، ولم تكتف فرنسا بذلك بل قسمت ما تبقى من سوريا إلى دويلات وهى دمشق وحلب وجبل العلويين وجبل الدروز على حدود الأردن، وذلك بعد أن أعطت لواء الاسكندورنة لأتاتورك.

بينما قسم الإنكليز الجزء الخاضع لهم والذى كان يطلق عليه فلسطين إلى جزءين، أحدهما احتفظ بنفس الاسم وعملوا على توطين اليهود به؛ تنفيذًا لوعد بلفور، والآخر هو إمارة شرق الأردن التى نصبوا عليها الأمير عبد الله بن الشريف حسين، وبالنسبة للجزء الذى احتلته فرنسا فى الشام فقد اشتدت المقاومة، وعمت الثورات ضد الاستعمار الفرنسى، ومن أهمها ثورة **إبراهيم هتانو** عام ١٣٣٨هـ فى سوريا، والثورة الكبرى فى الجبل فى الفترة من (١٣٣٤ -١٣٤٦هـ) بقيادة سلطان الأطرش.

وكانت للحرب العالمية الثانية دور كبير فى إضعاف الاحتلال فى كثير من المستعمرات، وكان للمسلمين الدور الكبير فى مقاومة الاحتلال فى كافة البلاد التى دخلها الاحتلال الأجنبى، وكان بها أغلبية أو أقلية مسلمة، لأن عقيدتهم ترفض سيادة غير المسلمين عليهم، وتأثر بهم الكثير من أصحاب الديانات الأخرى وناهضوا الاستعمار ومن أمثلة ذلك ما حدث فى سوريا، فقد جاءت الحرب العالمية الثانية وركعت باريس للألمان وضعف الفرنسيون، وبرغم إنقاذ

الحلفاء لفرنسا وهزيمة الألمان بعد ذلك، إلا أن فرنسا لم تعد كما كانت قبل الحرب واضطرت للانسحاب التام من سوريا ولبنان عام ١٣٦٦هـ.

سوريا:

كما سبق وأن ذكرنا أن الأجزاء المتبقية من سوريا بعد اقتطاع الإسكندرونة ولبنان منها قد فتتها الفرنسيون إلى عدة دويلات، ولكن حكومات هذه الدويلات رفضت التفتيت، وأعلنت عن رغبتها فى العودة كدولة واحدة، وكان استقلال سوريا عن الفرنسيين عام ١٣٦٦هـ، وتعتبر الوريثة الكبرى للشام، والدول الأخرى تعتبر فى الشام جزءًا من كيانها المفقود، وكان أول رئيس لسوريا فى ظل استقلالها هو شكرى القوتلى ثم تعرضت سوريا لثلاثة انقلابات فى الفترة (١٣٦٨ -١٣٦٩هـ) أولها انقلاب حسنى الزعيم ثم سامى النادى ثم أديب الشيشكلى ثم حدث انقلاب عسكرى عام ١٣٧٣هـ بقيادة فيصل الأتاسى ليعيد الحياة الدستورية والانتخابات للبلاد، وعين فى البداية هاشم الأتاسى رئيسًا للجمهورية، ثم أجريت فى سوريا الانتخابات عام ١٣٧٥هـ وعاد بها شكرى القوتلى رئيسا للجمهورية ثم حدثت الوحدة العربية بين مصر وسوريا عام ١٣٥٧هـ والتى كونت الجمهورية العربية المتحدة برئاسة جمال عبد الناصر ولكنها لم تستمر أكثر من ٤ سنوات، ففى عام ١٣٨١هـ قام انقلاب فى سوريا أدى إلى تولى ناظم القدسى رئاسة الجمهورية وتوالت الانقلابات فى سوريا ففى آخر عام ١٣٨١هـ حدث انقلاب ولكنه أبقى على رئيس الجمهورية فى منصبه، وعدل فى الوزارة ونفى زعماء الانقلاب السابق إلى خارج سوريا، ثم عاد زعماء الانفصال إلى البلاد، وحاولوا القيام بانقلاب جديد عام ١٣٨٢هـ ولكنهم لم ينجحوا، ثم جاء انقلاب آخر عام ١٣٨٢هـ، وتكون مجلس ثورة يرأسه لؤى أتاسى، وحاول إعادة الوحدة مع مصر وإدخال العراق فى الوحدة،

ولكن سرعان ما تولى زعماء حزب الشعب وأعضاؤه دعاة الانفصال السلطة فى البلاد فى عام ١٣٨٣هـ، وتولى منهم أمين حافظ السلطة ثم جاء انقلاب عام ١٣٨٦هـ بجناح آخر من حزب البعث وعين نور الدين أتاسى رئيسًا للجمهورية ثم استطاع الرئيس حافظ الأسد أن ينفرد بالسلطة فى أواخر عام ١٣٩٠هـ، وحتى عام ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م وخلفه في الحكم ابنه بشار الأسد.

لبنـــــان:

عندما استقل لبنان عن فرنسا عام ١٣٦٦هـ تولى بشارة الخورى رئاسة الجمهورية، وظل فى هذا المنصب حتى عام ١٣٧١هـ، ومما هو جدير بالذكر أن لبنان دولة فسيفسائية متباينة الأديانو فنسبة الشيعة بها ٢٨٪ ونسبة الموارنة ٢٤٪ أما نسبة السنة فهي ١٩٪ ونسبة الأرثوذكس ٩٪ ونسبة الدروز ٦٪ ونسبة الكاثوليك ٦٪ ونسبة الأرمن ٥٪.

وقد قام الفرنسيون بصنع هذه الدولة ليكون للنصارى نفوذ وشخصية بها، وبالتحديد الموارنة، وقد وضع الفرنسيون أسسها السياسية على النحو التالى، فرئيس الجمهورية ماروني، أما رئيس الوزراء فسني، ورئيس مجلس النواب شيعى، أما القائد الأعلى للجيش ورئيس المخابرات فمارونى، ورئيس الأركان درزى، ومقاعد الجيش والبرلمان تتوزع بين الطوائف المختلفة من مسلمين ومسيحيين، وعندما قامت جمهورية لبنان أصبحت تمثل قنبلة موقوتة محتملة الانفجار فى أى وقت، ونظامها الرئاسى يقوم على انتحاب رئيس جديد كل ٦ سنوات، وفى عام ١٣٧١هـ انتخب كميل شمعون لرئاسة لبنان، والذى حاول فى نهاية مدته أن يغير الدستور بحيث يعطية الحق فى ترشيح نفسه لفترة رئاسة ثانية، ولكن وقفت له المعارضة بالمرصاد، وكادت الحرب الأهلية أن تندلع وخاصة بعد استنجاد كميل شمعون بالولايات المتحدة التى قامت بإنزال قواتها

فى لبنان، ولكن الله سلم وانسحبت الولايات المتحدة وانتخب رئيس جديد للبنان عام ١٣٧٨هـ هو فؤاد شهاب ثم تلاه عام ١٣٨٤هـ الرئيس شارل حلو وجاءت نكسة ٦٧ فى عهده، وزاد اللاجئون الفلسطينيون الذين طردهم اليهود من الأراضى التى خضعت لسيطرتهم، فعقد اتفاق القاهرة عام١٣٨٩هـ الذى أبرمه رئيس الوزراء اللبنانى رشيد كرامى مع الرئيس جمال عبد الناصر، والذى ينص على إقامة مخيمات للاجئين الفلسطينيين بلبنان، ثم تولى سليمان فرنجية رئاسة لبنان عام ١٣٩٠هـ وفى عهده بدأ النشاط الفلسطينى بلبنان، والقيام بالعمليات الفدائية على الحدود مع اليهود وبدأت القوة الفلسطينية تظهر فى لبنان، حتى قيل إن الفلسطينيين كونوا لهم دولة فى لبنان، وعجزت السلطة اللبنانية عن السيطرة على الموقف بالبلاد، وبدأت إسرائيل تشن غاراتها على لبنان، وتقوم المخابرات الإسرائيلية بالاغتيالات لزعماء منظمة التحرير الفلسطينية، واشتعل الموقف فى لبنان.

الحرب الأهلية فى لبنان ١٣٩٥هـ:

وقامت الحرب الأهلية عام ١٣٧٥هـ بين الفصائل اللبنانية المختلفة، فقد شعر المسيحيون بنفوذ الفلسطينيين الكبير فى لبنان، والذى لا يوقفه أحد وفى نفس الوقت يؤيدهم مسلمو لبنان، وكذلك أقلق اليهود والولايات المتحدة الوجود الفلسطينى بلبنان، والذى شكل خطرًا عليها، فكان لليهود والغرب الدور الكبير فى إشعال الحرب فى لبنان، وعقدت القمة العربية عام ١٣٩٦هـ لبحث مشكلة الحرب الأهلية فى لبنان بدمشق، والتى تقرر فيها دخول الجيوش السورية إلى لبنان، لضبط الأوضاع والسيطرة على الموقف فيه وانتخب فى عام ١٣٩٦هـ **الياس سركيس** رئيسًا للبنان وفوجئ الجميع بالغزو الإسرائيلى للبنان، عام ١٣٩٧هـ والذى احتل جنوب لبنان مستغلاً الأوضاع المتردية فى

البلاد، وازداد الموقف اشتعالاً واحتدم الصراع بين كافة الطوائف، وكان دخول سورية فى بداية الأمر لمواجهة التمرد الفلسطينى فى لبنان ومن يؤيده من فصائل مسلمة، وعندما تمكنت من هذا أعلن الفلسطينيون والمسلمون تأييدهم لسوريا فغيرت سوريا وجهتها إلى الميليشيات المسيحية وحاولت الميليشيات المسيحية الاستنجاد بأوربا والولايات المتحدة، ولكنهم لم يفعلوا لها شيئًا لإجبارها على اللجوء لإسرائيل، وبالفعل اتصلت الميليشيات المسيحية باليهود، الذين وجدوها فرصة كبيرة لتفاقم الموقف فى لبنان، وأخذ اليهود يدربون الميليشيات المسيحية ويمدونهم بالأسلحة الأمريكية المتقدمة لقتال الجيش السورى والفلسطينيين ومسلمى لبنان.

وتدهور الموقف بلبنان ولم يستطع الموارنة والمسيحيون فى لبنان تحقيق كل أهدافهم المنشودة، فطلبوا من إسرائيل التدخل المباشر فى لبنان، فبارك اليهود طلبهم الذى يحقق لهم احتلال المزيد من الأرض والقضاء على المسلمين، واكتسحت إسرائيل لبنان عام ١٤٠٢هـ واستخدمت إسرائيل القنابل العنقودية والأسلحة المحرمة دوليًا، والتى وهبتها لها الولايات المتحدة.

ووصل اليهود إلى بيروت التى قسمت إلى قسمين أحدهما للمسيحيين (الجزء الشرقي) والآخر للمسلمين (الجزء الغربي)، وفتح المسيحيون أبوابهم لليهود ودخل اليهود بيروت الشرقية وتحصن المسلمون ببيروت الغربية واستماتوا فى وقف التقدم الإسرائيلي، وجرت معارك طاحنة بين الفلسطينيين ومسلمى لبنان، الذين يدعمهم السوريون ولم تستطع إسرائيل التقدم أكثر من ذلك.

وبدأ رد الفعل العالمى بعد أن دمر اليهود لبنان وقتلوا الآلاف فى غزوهم الغاشم وهدد اليهود الفلسطينيين بالخروج من لبنان أو التدمير الشامل لهم لكنهم رفضوا ذلك إلا فى حالة وجود قوة تحمى خروجهم، فجاءت الولايات

المتحدة لذلك، ولكنها لم تستطع وضع قدميها فى لبنان فسرعان ما غادرته وانتخب فى ذلك الوقت بشير الجميل رئيسًا للبنان -وكان أحد قادة حزب الكتائب المسيحى الذى دعى إسرائيل لاجتياح لبنان- فقاومه اللبنانيون واغتيل فى نفس العام الذى اكتسحت فيه إسرائيل لبنان وتولى المنصب أخوه أمين الجميل الأكثر هدوءًا.

استغل اليهود الاغتيال الذى حدث وتعاونوا مع حزب الكتائب المسيحية فى مذبحة صبرا وشاتيلا للفلسطينيين فى بيروت الغربية، حيث أمدت حزب الكتائب بالأسلحة وقامت بحراسة قواته حتى دخلت مخيم صبرا وشاتيلا، وذبحت الآلاف من الفلسطينيين وتابعت إسرائيل مذابحها للمسلمين فارتكبت مذبحة عين الحلوة عام ١٣٩٤هـ.

ونتيجة للأحداث السابقة طلب أمين الجميل من الولايات المتحدة التدخل لحفظ الأمن فى لبنان، وكونت القوات المتعددة الجنسيات من الولايات المتحدة، وفرنسا، وبريطانيا، ودخلت لبنان، ولكن الولايات المتحدة لم تلبث أن غادرت لبنان لكثرة العمليات الفدائية ضدها، والتى دمر إحداها مقر القيادة الأمريكية فى لبنان، وفقدت الولايات المتحدة المئات من أبنائها، ووجد اليهود أنهم قد وضعوا أنفسهم فى مستنقع لبنان فأخذوا ينسحبون جزئيًا من لبنان، واحتفظوا بجزء احتلوه فى الجنوب اللبنانى والبقاع والذى أطلقوا عليه الحزام الأمنى، والذى كونته إسرائيل عام ١٤٠٥هـ، وظل الموقف مشتعلاً بلبنان، وظهر النفوذ الإيرانى بها عن طريق حزب الله الشيعي، وتمثل النفوذ الإسرائيلى فى جيش لبنان الموالى لإسرائيل، والذى يشترك مع اليهود فى تعزيز الوجود الإسرائيلى فى لبنان.

أحس الشعب اللبنانى أن ما يحدث فى لبنان تستفيد به إسرائيل وحدها، وإنه لابد من التوحد بين اللبنانيين لمواجهة العدو الحقيقى والمتمثل فى إسرائيل، التى

تحتل جيوشها ٨٪ من مساحة لبنان، وبالفعل انتهت الحرب الأهلية فى لبنان عام ١٤١٠هـ باتفاق الطائف، وقد حاول اليهود إحياء الحرب الأهلية من جديد بتدبير مؤامرة اغتيال أول رئيس للبنان فى ظل نهاية الحرب، وذلك عن طريق سيارة ملغومة انفجرت أثناء مرور موكبه فأردته قتيلا، وقتلت معه العشرات من الأبرياء ولكن الشعب اللبنانى أصر على إنهاء الحرب الأهلية وتسلم الياس الهراوى رئاسة البلاد وفي تطور لاحق للأحداث تولى رئاسة البلاد إميل لحود وأسندت رئاسة الوزارة إلى رفيق الحريري الذي انتقل بعد ذلك إلى المعارضة الذي اغتيل بتفجير سيارته في ١٤ فبراير ٢٠٠٥ ، ١٤٢٦هـ لتدخل لبنان في دوامة عنف جديد.

لبنان بعد الحرب الأهلية:

سعى لبنان إلى تضميد جراحه بعد الحرب التى دامت ١٥ عامًا استنفدت فيها البلاد مواردها وعملت الحكومة اللبنانية على نزع السلاح من جميع الفصائل فى لبنان، وبالفعل أبدت جميع الفصائل موافقتها وسلمت أسلحتها للجيش اللبنانى باستثناء حزب الله الشيعى، وبرغم هذا التصرف الذى يجعل هناك بذورًا للشقاق من جديد فى لبنان، إلا أنه لا ينكر أحد الدور الفعال الذى يقوم به حزب الله فى مقاومة الاحتلال الإسرائيلى لجنوب لبنان، بالاستعانة بالمقاومة اللبنانية، وساهم فى الكثير من العمليات الفدائية فى الجنوب اللبنانى ضد القوات الإسرائيلية والقوات الموالية لها، وفى قصف شمال إسرائيل بصورايخ الكاتيوشا، وتحاول إسرائيل تدمير المقاومة لها بشن الغارات المستمرة على قواعد حزب الله والقوات اللبنانية، بل ويحاول أعضاء الحكومة الإسرائيلية إثبات وجودهم بالتدمير المستمر للبنان، وكان من أبرز الأمثلة على ذلك مذبحة قانا عام ١٤١٦هـ والتى قام بها الجيش الإسرائيلى للدعاية لحكومة بيريز قبل دخولها الانتخابات الإسرائيلية، لكنها اضطرت إلى الانسحاب من

الجنوب اللبناني بسبب شدة المقاومة اللبنانية.

المملكة الأردنية الهاشمية:

علمنا فيما سبق كيف نشأت المملكة الأردنية الهاشمية وأنها كانت عبارة عن إمارة شرق الأردن التى نُصِّب عليها الملك عبد الله بن الشريف حسين، ثم أعطيت الاستقلال عن بريطانيا عام ١٣٦٦هـ، وقد دخلت مع العرب فى حرب فلسطين عام ١٣٦٨هـ، وضم الملك عبد الله الضفة الغربية لنهر الأردن بعد الحرب ودعا إلى مشروع سوريا الكبرى، والذى يتضمن اتحاد سوريا والأردن ولبنان وفلسطين تحت سلطانه، ولكن المشروع رفض وقد اغتيل الملك عبد الله فى القدس عام ١٣٧١هـ، وتولى بعده ابنه طلال الذى عزل من منصبه عام ١٣٧٣هـ لاتهامه بالجنون وتولى بعده ابنه الملك حسين.

وقد حدثت فى عهده الوحدة مع العراق عندما كانت العراق تابعة لأسرة الأشراف، ثم ما لبث أن أعلن قيام الجمهورية فى العراق فتم الانفصال، وقد عاصر نكسة ٦٧ التى فقدت فيها الأردن الضفة الغربية لنهر الأردن وشريطًا ضيقًا من الحدود المتاخمة لفلسطين، وكان الأردن أول من أعاد العلاقات مع الدبلوماسية مع مصر بعد المقاطعة العربية عام ١٣٩٩هـ، وكانت الدول العربية قد قررت فى عام ١٣٩٤هـ أن أى أرض يتم تحريرها من فلسطين ستكون للفلسطينيين، فوافق على ذلك وكان له مواقف غريبة فى حرب الخليج عام ١٤١١هـ حيث وقف مع العراق فى البداية ثم ما لبث أن غير رأيه بعد الحرب وعقد معاهدة للسلام عام ١٤١٥هـ، مع إسرائيل فى وادى يعرب بالأردن الذى أطلق عليه فيما بعد وادى السلام، وعاد للأردن الشريط الضيق الذى احتلته إسرائيل فى حرب عام ٦٧، ولكن المعاهدة بها بعض النقاط المثيرة للدهشة، فعلى سبيل المثال هناك مستوطنتان فى الأردن اتفق مع إسرائيل على

أن تؤجرها لمدة ٢٥ عامًا مما يتعارض مع مبدأ الأرض مقابل السلام!.

ومن الجدير بالذكر أن الأردن يتسم بقلة موارده ويعتمد على المساعدات من الغرب، وقد اتفقت مصر وسوريا والمملكة السعودية على أن يدفعوا للأردن ١٢ مليونًا من الجنيهات عام ١٣٨٧هـ وذلك لمساعدته فى إكمال الميزانية وأن يصبح فى غنى عن مساعدات الغرب، ولكن الاتفاق لم يدخل نطاق التنفيذ بسبب المؤامرات الغربية، وقد توفى الملك حسين عام ١٤١٩هـ-١٩٩٩م وخلفه ابنه الملك عبد الله الثاني.

فلسطين والصراع العربى الإسرائيلي:

المخطط الصهيونى لاحتلال فلسطين:

كما سبق وأن ذكرنا فى عهد الدولة العثمانية عن طرد الإسبان للمسلمين واليهود من الأندلس، وضاقت باليهود الأرض بما رحبت ولم يجدوا مأوى لهم ولا أرضًا إلا فى الدولة العثمانية، التى احتضنتهم من باب الإنسانية والعطف والشفقة، فما كان جزاؤها منهم إلا الجحود ونكران الجميل والعمل على تدمير الدولة، وبرز هرتزل الصحفى اليهودى الألمانى الشهير، ونادى بفكرة إنشاء وطن لليهود وتكون فلسطين مقره، وذلك لارتباطهم تاريخيًا ودينيًا بها، والتى يطلقون عليها أرض الميعاد، وحاول هرتزل مساومة الخليفة عبد الحميد الثانى على فلسطين، فرفض الخليفة رفضًا باتًا ومنع هجرة اليهود إلى فلسطين، فعمل اليهود على القضاء على الدولة العثمانية، والتعاون مع الحلفاء فى ذلك، وبدءوا يعملون على نشر مفاهيم القومية والماسونية فى الدولة، ويدخلون فى جمعية الاتحاد والترقى، ولا ننسى يهود الدونمة الذى أعلن الكثير منهم إسلامه، وهم فى قرارة أنفسهم يهود يعملون على هدم الإسلام من داخله، ونجحوا فى إثارة الفتن والحركات الانفصالية فى البلاد، وساعدهم الحلفاء فى وصول جمعية

الاتحاد والترقى للحكم، والتى كان الكثير من أعضائها يهودًا وجاءت الحرب العالمية الأولى لتقضى على الدولة العثمانية.

وعد بلفور ١٣٣٦هـ:

وعد وزير الخارجية البريطانى بلفور بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ووقعت فلسطين تحت الانتداب الإنكليزى بعد الحرب العالمية الأولى، وبدأت فلول المهاجرين اليهود تأتى إليها من كل مكان فى العالم، وبالذات اليونان التى تركز فيها يهود الدونمة، ومما هو جدير بالذكر أن هدف الإنكليز من إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين هو تفتيت العرب من جهة، وفصل شقهم الأفريقى عن شقهم الأسيوى لوأد الاستقرار فى بلاد العرب، وإضعاف وحدتهم، ومن جهة أخرى تتدفق عليهم الأموال اليهودية لشراء فلسطين، وتتخلص هذه الدول من قدر كبير من الجاليات اليهودية التى تمتلك عصب الحياة الاقتصادية فى بلادها.

ورفض العرب تنفيذ الخطة الرامية لتمكين اليهود من فلسطين وقامت فى فلسطين ثورة عارمة فى الفترة من (١٣٥٥ - ١٣٥٨هـ)وعرض الإنكليز تقسيم فلسطين لأول مرة بين العرب واليهود، فيما عرف بتقسيم ١٩٣٧ ورفضه العرب رفضًا باتًا وأخذت هجرة اليهود إلى فلسطين تزداد، وبلغت أوجها أثناء الحرب العالمية الثانية، مع الاضطهاد الألمانى لليهود، وساعدت الوكالة اليهودية فى فلسطين على تهجير الكثير من اليهود بالاتفاق مع الحكومة النازية الألمانية، وبدأ النفوذ البريطانى يضعف، وبدأ الظهور الأمريكى، فاتجه اليهود إلى أمريكا (الولايات المتحدة) التى لليهود نشاط واسع فيها سواء على المستوى السياسى أو الاقتصادى، وبدأت الولايات المتحدة مساعدتها الكبرى لليهود، وعقدت مؤتمر بلتيمور عام ١٣٦٢هـ الذى أيد الأهداف الصيهونية فى فلسطين وتعهد بمساعدتها.

تقسيم ٤٧ لفلسطين:

عرضت قضية فلسطين على الأمم المتحدة، ووضعت اقتراحات التقسيم وضغطت أمريكا على الدول الأعضاء لقبول قرار التقسيم، والذى أعطى لليهود أخصب أراضى فلسطين، وأعطى للفلسطينيين أفقر أراضيها، وجعل القدس والأماكن المقدسة منطقة دولية، وأعلنت انكلترا إنهاء انتدابها على فلسطين لتترك لليهود الفرصة لإعلان قيام دولتهم، وذلك بعد أن أجلت العرب من الكثير من المناطق التى أعطيت لليهود.

حرب فلسطين ٤٨:

عمل اليهود على إرهاب العرب وإجبارهم على ترك فلسطين، وقاموا بحرب عصابات واسعة على الفلسطينيين، وارتكبوا الكثير من المذابح منها مذبحة دير ياسين عام ١٣٦٧هـ.

ولم يجد العرب خيارًا آخر غير الحرب ليخلصوا فلسطين من الاحتلال الإسرائيلى، فقامت حرب عام ٤٨ (١٣٦٨هـ) والتى دخل فيها من الدول العربية كل من مصر وسوريا والأردن والعراق، وكانت الانتصارات حليفة الجيوش العربية فى البداية، ثم أعلن عن قيام هدنة مدتها شهر بضغط من الولايات المتحدة والغرب، ووافق عليها العرب وكانت الهدنة تنص على عدم حصول أى من الطرفين -العرب و اليهود- على أسلحة طوال فترة الهدنة، فالتزم العرب، ونقض اليهود العهد وأخذت الأسلحة من الولايات المتحدة والغرب تتدفق عليهم، ثم استمرت الحرب وظهرت قضية الأسلحة الفاسدة فى الجيوش المصرية، والتى قامت بريطانيا والولايات المتحدة والغرب بتدبيرها، فانقلبت الآية ومنيت الجيوش العربية بالهزيمة، وزادت الرقعة التى استولى عليها اليهود عما كانت عليه فى تقسيم٤٧.

وخضعت الضفة الغربية للإشراف الأردنى، بينما خضع قطاع غزة للإشراف المصري.

حرب ٥٦ (العدوان الثلاثي):

تكونت العداوة المشتركة لمصر من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل فمصر أعلنت تأميم القناة، مما يحرم بريطانيا من السيطرة على أهم ممر مائى فى العالم، وكانت مصر تساعد ثورة الجزائر -أقام الجزائريون حكومة مؤقتة لهم فى القاهرة لمناهضة الاستعمار الفرنسى مما أقلق فرنسا- وفى نفس الوقت نادت مصر باتحاد العرب وإخراج اليهود من فلسطين، وبالفعل احتلت قوات العدوان الثلاثى سيناء عام ١٣٧٦هـ وأخذت تقصف مدن القناة، وظهرت المقاومة الشعبية ولجأت مصر إلى الاتحاد السوفيتى فضغط هو والولايات المتحدة على الدول المعتدية بالانسحاب من مصر، وبالفعل انسحبت القوى الغاشمة من مصر.

نكسة ٦٧ (١٣٨٧هـ):

استغلت إسرائيل انشغال الجيش المصرى -أقوى الجيوش العربية- بحرب اليمن وشنت عدوانها الغاشم على مصر وسوريا والأردن، واحتلت سيناء وقطاع غزة من مصر، وهضبة الجولان من سوريا، والضفة الغربية من الأردن، وبعد تحقق النصر لإسرائيل أعلنت الأمم المتحدة القرار رقم ٢٤٢ الذى ينص على الانسحاب الإسرائيلى من الأراضى التى احتلتها إسرائيل عام ١٣٨٧هـ، ولكن إسرائيل لم تعط أهمية للقرار، لأنها تعلم أن الولايات المتحدة والغرب سيعززون موقفها، وبرزت مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، وفتحت لبنان أبوابها لإيوائهم وأخذت إسرائيل تبنى المستوطنات فى الأراضى التى احتلتها لتثبت أقدامها فيها.

حرب عام (١٣٩٣هـ) أكتوبر ١٩٧٣:

أخذ العرب يعدون أنفسهم لجولة جديدة مع إسرائيل يحررون بها الأراضى

التى اغتصبت منهم، ووقف العالم الإسلامى مع العرب واتخذوا قرارا بمنع تصدير البترول للغرب المؤيد لإسرائيل، واستمرت حرب الاستنزاف ٦ سنوات حتى قام الهجوم العربى لتحرير الأراضى المغتصبة فى العاشر من رمضان عام ١٣٩٣هـ، حققت الجيوش العربية انتصارات كبيرة على اليهود وعبرت قناة السويس، وحطمت أسطورة خط بارليف، وسارعت الولايات المتحدة بإنقاذ إسرائيل، وأعلن وقف إطلاق النار، وتعهدت أمريكا بضمان انسحاب إسرائيل من الأراضى التى احتلتها فى عام ١٣٨٧هـ، ولكن سرعان ما أخلت بتعهدها وأخذت اسرائيل تتلاعب بالألفاظ وتقول إن قرار وقف إطلاق النار قد نص على الانسحاب من أراضى احتلتها إسرائيل فى عام ١٣٨٧هـ أى بعض الأراضى وليس كلها، وغضب العرب من الخداع الإسرائيلى ولجأت مصر إلى مبادرة السلام عام ١٣٩٧هـ، وسافر الرئيس أنور السادات إلى فلسطين المحتلة وألقى خطابًا فى الكنيست الإسرائيلى، وعقد مؤتمر **كامب ديفيد** عام ١٣٩٨هـ فى الولايات المتحدة عام ١٣٩٨هـ، وأبرمت على أثره اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل عام ١٣٩٩هـ التى تنص على انسحاب إسرائيل من سيناء، فغضب العرب أشد الغضب واعتبروا أن مصر راعت مصلحتها فقط، وأهملت حق الشعب الفلسطينى فى تحرير أرضه وتقرير مصيره، فعقد مؤتمر القمة العربية فى بغداد عام ١٣٩٩هـ وأعلن المقاطعة العربية لمصر، ووافقت الدول العربية على ذلك باستثناء عمان و السودان والصومال، وبعد حرب العاشر من رمضان ١٣٩٣هـ أغلقت الجبهات المصرية والأردنية والسورية مع إسرائيل وفتحت عليها جبهة جديدة متمثلة فى العمليات الفدائية التى يقوم بها المتسللون من اللاجئين الفلسطينيين فى لبنان إلى فلسطين المحتلة التى بلغت أوجها عام ١٣٩٥هـ، فعمدت إسرائيل والغرب على بث الفتن واندلعت بالفعل الحرب الأهلية فى لبنان عام ١٣٩٥هـ، وبدأت إسرائيل تقتحم الأراضى اللبنانية

وتشعل الصراع بلبنان كما سبق وأن ذكرنا فى الجزء الخاص بلبنان.

ضرب المفاعل النووى العراقى عام ١٤٠١هـ:

أغارت الطائرات الإسرائيلية على المفاعل النووى العراقى عام ١٤٠١هـ وكان تعليل إسرائيل لذلك أن المفاعل النووى يشكل خطرًا على أمن إسرائيل، وكان العراق وقتها مشغولاً بحربه مع إيران فلم يكن له رد فعل.

وبالنسبة للأراضى المحتلة فقد استمرت المقاومة الفلسطينية للاحتلال اليهودى، وكثرت العمليات الفدائية وأعلن فى عام ١٤٠٧هـ قيام الانتفاضة الفلسطينية على الاحتلال الإسرائيلى بقيادة حركة المقاومة الإسلامية حماس وأعلن قيام الدولة الفلسطينية على الأراضى التى تحتلها إسرائيل من فلسطين، وبدأت المفاوضات بين العرب وإسرائيل، وعقد مؤتمر مدريد لذلك ثم عقد اتفاق غزه أريحا بين الفلسطينيين واليهود، والذى ينص على إقامة الحكم الذاتى للفلسطينيين فى هاتين المنطقتين، وإعادة انتشار القوات الإسرائيلية فى الضفة وغزة، وكان ذلك عام ١٣٩٣هـ وفى عهد إسحاق رابين رئيس الوزراء الإسرائيلى، وكان حزب العمل الإسرائيلى هو الحاكم، ثم اغتيل إسحاق رابين من متعصب يهودى يرفض إعطاء أى شبر من فلسطين المحتلة للفلسطينيين عام ١٤١٥هـ، وجاء شيمون بيريز وتسلم رئاسة الوزراء لحين إجراء انتخابات فأظهر ميله للسلام ونفذ بقية بنود اتفاق غزة أريحا المتعلقة بإعادة انتشار الجيش الإسرائيلى فى الضفة وغزة، وجرت المفاوضات بين سوريا وإسرائيل لحل مشكلة الجولان، ثم حدثت مذبحة قانا فى لبنان على يد الغارات الإسرائيلية، وأجريت الانتخابات الإسرائيلية ففاز حزب الليكود، بالحكم وتسلم بنيامين نيتانياهو رئاسة الوزراء، وتدهور السلام بعد أن أبدى نيتانياهو آراءه المتعارضة تمامًا مع اتفاق السلام، وأخذ يكثر من المستوطنات ويخالف اتفاق أوسلو

الخاص بوقف بناء المستوطنات، وأبدى معارضة شديدة للانسحاب من الجولان ولإقامة دولة فلسطين.

وفي ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠م قام إريل شارون ـ زعيم المعارضة آنذاك ـ بزيارة للمسجد الأقصى وسط حراسة الشرطة الإسرائيلية مما أشعل الغضب في نفوس أبناء فلسطين واندلعت الانتفاضة الثانية (انتفاضة الأقصى) والتى راح ضحيتها الآلاف من أبناء الشعب الفلسطيني.

كما شرع شارون بعد تولية رئاسة الوزراء في بناء الجدار العازل لفصل أراضي السلطة الفلسطينية واقتطاع أجزاء منها وإدخالها ضمن حدود إسرائيل، واتبع سياسة اغتيال رموز المقاومة الفلسطينية كما حدث مع الشيخ أحمد ياسين الذي اغتيل في مارس ٢٠٠٤، وبعد حوالي شهر اغتيل الدكتور/ عبد العزيز الرنتيسي أحد أشهر قادة حماس رحمهما الله، ورحم جميع الشهداء.

***

المبحث الرابع
جمهورية مصر العربية

بدأ انفصال مصر عن العثمانيين منذ تولى محمد على وأسرته حكم مصر، ولم تعد تربطها بالدولة العثمانية إلا التبعية الاسمية، حتى جاء الاحتلال البريطانى لمصر ففقدت به مصر أى ارتباط مع العثمانيين.

محمد على:

سبق أن تكلمنا عن محمد على فى الدولة العثمانية، وعرفنا كيف كانت توسعاته، وكيف انتهى به الحال إلى حكمه لمصر وراثيًّا وانفتح محمد على على أوربا، كما سبق وأن ذكرنا، وزحف على السودان، وقاد حملة السودان ابنه إسماعيل بك، فسار بمحاذاة النيل الأزرق، وفتح بربر وشندى وسنار، ثم تفشى المرض بين الجنود المصريين وأصيب إسماعيل أيضًا بالمرض، فأرسل إلى أبيه يطلب منه النجدة، فأرسل محمد على حملة أخرى للسودان بقيادة ابنه إبراهيم بك سارت بمحاذاة النيل الأبيض، بينما أحرق الملك نمر (ملك شندى)إسماعيل وحاشيته غدرًا فأرسل محمد على صهره محمد بك الدفتر دار لينتقم من الملك، الذى فر إلى الحبشة وبنى محمد بك مدينة الخرطوم، عند الموقع الذى يلتقى فيه النيل الأبيض بالنيل الأزرق وعندما توفى محمد على تولى حفيده عباس بن طوسون بن محمد على الحكم إذ توفى إبراهيم فى حياة أبيه.

عباس:

كان له رأى غريب وهو أن العلم إذا توفر للشعب فسيهدد ذلك عرشه، فعمد إلى طمس كل معالم التقدم، فأغلق المدارس والمصانع، وحاول مع تركيا تغيير نظام الولاة فى مصر، لكى يجعل الحكم فى أبنائه وذريته بدلاً من أن يتولى حكم مصر أكبر أفراد أسرة محمد على، ولكنه فشل وقتل بسبب ذلك فى قصره،

وكان قد بدأ فى عمل خط سكك حديدية بين القاهرة والإسكندرية.

سعيد:

وهو ابن محمد على، من أهم إيجابيات سعيد هو تخفيف الاستبداد فى حكم مصر، فأعطى الحق فى تملك الأرض فأقبل الكثير من المصريين على شرائها، وقبل المصريين فى الوظائف الكبرى، وساوى فى التجنيد بين أبناء المشايخ والعمد والفلاحين، بعد أن كان التجنيد مقصورًا على أبناء الفلاحين فقط، وأتم الخط الحديدى بين القاهرة والإسكندرية، أما عن سلبياته فمعاونة الجيش المصرى لفرنسا فى حربها بالمكسيك، لصداقته بنابليون، ومنح الامتيازات للأجانب بشكل كبير، وأنه دفع ١٧ مليون جنيه من تكاليف شق قناة السويس، والتى بلغ إجماليها ١٨ مليونًا وسخر الشعب فى حفرها وبرغم كل ذلك اتفق على أن يحصل فقط على ١٥٪ من الأرباح، فى حين حصل الأوربيون على الباقي، بل وأعطاهم امتيازًا لمدة ٩٩ عاما.

إسماعيل:

لحق بعهد إسماعيل بن إبراهيم بالذات تشويه كبير، نظرًا لاستهانته بأمور الدين، وتقليد الغرب، وكثرة الديون والبذخ، وكانت له إنجازات في توسيع رقعة البلاد، وفى المجالات الثقافية والسياسية، فقد وصل إسماعيل فى فتوحاته الإفريقية إلى أن ضم وادى النيل من منابعه فى بحيرة فكتوريا إلى مصبه فى البحر المتوسط، وضم أجزاء كثيرة من الحبشة، وأرسل حملة إلى الصومال، وضم شمالها، ومن الناحية الثقافية فقد أنشأ الكثير من المدارس والمدارس العليا فى مصر والسودان، ومن الناحية الحضارية اهتم بالبناء والتشييد وتعمير المدن وإنشاء المستشفيات ومن الناحية السياسية، فقد جعل الحكم فى أكبر أفراد أسرته، بدلاً من أكبر فرد فى أسرة محمد على وهذا ما طلبه سعيد، ولكن إسماعيل هو الذى استطاع تحقيقه، وفى عهده استطاع أن يتخلص من التحديد فى عدد الجيش، وأصبح من حق مصر أن يزيد عدد جيشها، و ألغى فى عهده

السخرة التى كانت فى عهد سعيد، والتى كانت تأخذ المصرين وتجبرهم على العمل فى حفر القناة بدون أجر فاتفق مع شركة قناة السويس على أن يدفع لها ٣ ملايين و١٩٠ألفًا فى مقابل إعفاء المصريين من السخرة، وساهم فى تحرير الرقيق مع غيره من دول العالم، وحصل على لقب خديوى (نائب السلطان) له ولمن تبعه وقد كلفه هذا أموالاً طائلة.

ومن السلبيات التى حدثت في عهده البذخ والاستدانة، فقد كلف حفل افتتاح قناة السويس الملايين من الجنيهات، والتى استقبل فيها ملوك أوربا، وأنشأ دار التمثيل (الأوبرا) ليظهر بمظهر المتحضر، وأنشأ القصور والحدائق لاستقبالهم، واستدان فى سبيل ذلك بالربا الفاحش وباع أسهم مصر فى قناة السويس لانجلترا، فأصبح لها نفوذ قوى في مصر، وبدأت الدول الأوروبية تطالب بالديون، ولما رأت عجز الخديوى، عينت إنجلترا وفرنسا لجنة ثنائية لمراقبة الخزينة المصرية واستيفاء الديون، وهي اللجنة التي تدخلت في كافة شؤون مصر حتى في تعيين الوزراء وعزلهم.

وعندما رأت دول أوربا توسع إسماعيل فى أفريقيا خافت أن ينافسها فى توسعاتها الإفريقية، وجعلت الخليفة العثمانى بصدر قرارًا بعزل إسماعيل، ولم يرفض إسماعيل هذا القرار خوفًا أن يناله مصير محمد على.

توفيق والاحتلال الإنكليزى لمصر:

وكان ضعيفًا شديد الارتباط بأوروبا، معتبرًا أن لها الدور الأكبر فى توليته وقامت فى عهده الثورة العرابية عام ١٢٩٨هـ مرتين لإنصاف الضباط المصريين المضطهدين، وانصاع الخديوى للثورة العرابية، وخاف على مركزه الذى بدأ يضعف، فاستغل الإنكليز الفرصة وعرضوا عليه دخول مصر وحماية مركزه فوافق، وبالفعل قاموا بدخول مصر وقاومهم عرابى ولكنه انهزم فى النهاية فى

موقعة التل الكبير، ووقعت مصر تحت الاحتلال الإنكليزي، والذى كان يؤيده الخديوى توفيق، الذى اعتقد أنهم سيحمون عرشه ونفى عرابى وزملاؤه إلى جزيرة سيلان (سرى لانكا).

من الأحداث الهامة فى عهد توفيق الثورة المهدية فى السودان، وكان التخطيط الإنكليزى يقضى بإخلاء مصر للسودان ثم تجيء القوات الإنكليزية لاحتلاها، وبالفعل ضغط الإنكليز على المصريين للانسحاب من السودان، وأرجعت ذلك إلى الثورة المهدية التى حققت الكثير من الانتصارات على الحامية المصرية هناك، وأخلى الجنود المصريون السودان، فجاءت الفرصة لإنكلترا التى زعمت أنها ستعيد سيطرة مصر على السودان، واستطاع الإنكليز أن ينتصروا على المهديين وأن يحتلوا السودان وضموها إلى مصر، أو بمعنى أصح ضموها للحماية الإنكليزية بما سمى بالحكم الثنائى المصرى الإنكليزى ومات توفيق عام ١٣١٠هـ وتولى ابنه عباس حلمى مكانه.

عباس حلمي:

وبدأت فى عهده الحركات التى تدعو لإجلاء الاحتلال الإنكليزى عن مصر، ولكن وللأسف الشديد كانت تسير بمبادئ قومية وكانت هناك حركة مصطفى كامل الذي أسس الحزب الوطني، واتجاهه أقرب إلى الإسلام، وعمل على تقوية العلاقات بين مصر والدولة العثمانية.

وكان الخديوى فى البداية يشجع هذه الحركات عندما كان المندوب السامى البريطانى هو كرومر، وحدثت فى عهده مأساةدنشواى عام ١٣٢٤هـ وظهر فى رئاسة وزراء البلاد خونة مثل بطرس غالى الذى حكم فى دنشواى بإعدام ٤ مصريين، وجلد ثمانية، والأشغال الشاقة لاثنى عشر، واستمر فى خيانته فمد امتياز قناة السويس للشركة الأجنبية المسيطرة عليها، واغتيل عام ١٣٢٨هـ وعندما مات مصطفى كامل عام ١٣٢٦هـ أخذ محمد فريد مكانه الذي نادة بالاستقلال فسجن

واضطهد، واضطر إلى مغادرة مصر، وتوفى مشردًا في أوروبا عام ١٣٣٨هـ.

وفى ذلك الوقت أتى إلى مصر مندوب سام بريطانى جديد هو ألدن غورست، الذى اتبع سياسة كسب الخديوى وتعاون مع الإنكليز ضد الشعب، ثم جاء مندوب سام أخر وهو كتشنر، الذى غير سياسته لجذب الشعب المصرى، وترك الخديوى وجاءت الحرب العالمية الأولى فأعلن الخديوى انحيازه للعثمانيين، فخلعه الإنكليز وألغوا التبعية الاسمية للعثمانيين وأعلنوا صراحة الاحتلال (الحماية البريطانية) على مصر.

حسين كامل:

كان مجرد صورة للحكم، ولكن السلطة الفعلية كانت بيد الإنكليز، الذين أطلقوا عليه لقب سلطان نكاية بالخليفة العثماني ولم يعترض ولم يبرز له رأى ولم تظهر له شخصية إلا السير فى فلك الاحتلال، وظل فى هذا المنصب حتى توفى عام ١٣٣٦هـ.

أحمد فؤاد:

تولى الحكم بعد وفاة أخيه، وفى عهده قامت (ثورة ١٩١٩) عام ١٣٢٨هـ التى نددت بالاحتلال الإنكليزى لمصر، وبمنع سعد زغلول ورفاقه من السفر لمؤتمر الصلح فى باريس بعد الحرب العالمية الأولى ليطالبوا باستقلال مصر، بل ونفتهم إلى مالطة، واضطرت إنكلترا للإفراج عن سعد زغلول ورفاقه، وسافروا إلى باريس ظانين أن الدول الاستعمارية الأخرى ستعطيهم حقهم، ولكنهم خذلوا فازدادت الثورات بمصر، وعقد الإنكليز المفاوضات مع سعد زغلول ورفاقه، واضطرت إنكلترا أن تعطى مصر عام ١٣٤٠هـ استقلالاً صوريًّا ينص على بقاء قوات عسكرية إنكليزية بمصر، وحق إنكلترا فى الدفاع عن مصر ضد أى تدخل أجنبى، وحماية الأجانب فى مصر.

وكان موقف الملك فؤاد محايدًا فى الصراع بين الإنكليز والمصريين، ثم بدأ يتعاون مع الإنكليز خوفًا على منصبه، وعقدت إنكلترا مع مصر معاهدة ١٩٣٦ (١٣٥٥هـ) التى غيرت بعض البنود فى تصريح ٢٨ فبراير مثل حماية مصر للأجانب بدلاً من الإنكليز، والاحتفاظ بقوات عسكرية إنكليزية فى منطقة القناة، والعمل على إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية فى مصر، والحكم الثنائى للسودان ويبدو أن إنكلترا كانت تشعر بقرب الحرب العالمية الثانية، فنصت المعاهدة على أن تقدم مصر لبريطانيا المساعدات داخل مصر فى حالة قيام حرب دولية.

الملك فاروق:

وهو ابن الملك فؤاد وتسلم الحكم فى بداية الحرب العالمية الثانية وسار فى فلك الإنكليز، وتورط فى صفقة الأسلحة الفاسدة فى حرب فلسطين عام ١٣٦٧هـ، ودعمه البوليس السياسى فى القضاء على أى معارضة له أو للإنكليز، وعم الفساد والإقطاع فى البلاد، وانتشرت فضائح الملك وغرامياته فاشتعل الشعب.

ظهر الإمام حسن البنا الذى عمل على إصلاح المجتمع بنشر المبادئ الإسلامية التى افتقدها، وأسس جماعة الإخوان المسلمين كبرى الحركات الإسلامية فى العصر الحديث، وتعاون الإخوان مع الضباط الأحرار للتخلص من فساد الملك.

ثورة ٥٢ (١٣٧٢هـ):

محمد نجيب:

قام الضباط الأحرار بثورة يوليو ٥٢ مستغلين وجود الملك فى الإسكندرية، وأطاحوا بالملك وعينوا ابنه الرضيع ملكًا على مصر، وكسبوا تأييد الشعب عن طريق الإخوان، ثم ألغيت الملكية وأعلنت الجمهورية وعين محمد نجيب رئيس مجلس قيادة الثورة أول رئيس للجمهورية، وعندما استتب الأمر للضباط الأحرار ظهر جمال عبد الناصر الذى بيده القيادة العسكرية فأطاح بمحمد نجيب، وبدأ ينادى بالوحدة العربية ويندد بالاستعمار فى الدول العربية وغيرها من

الدول النامية، واستبد جمال عبد الناصر بالحكم، وفرض حكم الحزب الواحد الاشتراكي، ولم يترك الفرصة لأى شخصية أو فكر فى الظهور، وتكونت فى عهده الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا، ولم تدم كثيرًا فسرعان ما انسحبت سوريا، منها وزج بالجيش المصرى فى مستنقع اليمن ثم جاءت نكسة ٦٧ لتلحق العار بالعرب وبالجيش المصرى وتوفى فى عام ١٣٩٠هـ.

محمد أنور السادات:

أعلن عن استعداده للسلام مع إسرائيل إذا ما انسحبت من الأراضى التى تحتلها فى إسرائيل، فشلت جميع المحاولات السلمية لانسحاب إسرائيل من الأراضى العربية، وأدرك العرب أنه لا وسيلة إلا الحرب لاسترداد ما فقدوه، ولإزالة العار الذى لحق بهم فقامت حرب رمضان عام ١٣٩٣هـ وانتصر العرب، وتعهدت الولايات المتحدة وإسرائيل بالانسحاب من الأراضى المحتلة فى حرب الأيام الستة السوداء، ولكنهما أخلا بوعودهما ليضعوا العرب أمام الأمر الواقع، فلجأ السادات إلى المغالاة فى السلام وسافر إلى فلسطين المحتلة، وفى تصرفه هذا جرح شديد لشعور العرب والمسلمين فى الوقت الذى يمارس فيه اليهود كافة الأساليب الوحشية مع الفلسطينيين والعرب سواء فى الأراضى المحتلة أو لبنان، ورحبت الولايات المتحدة وإسرائيل بما يحدث، واتجها إلى السير فى المفاوضات مع مصر لبث الفرقة والعداوة بين مصر والمسلمين، ولكسب أكبر قوة عسكرية فى الوطن العربى، وعقدت معاهدة السلام عام ١٣٩٩هـ التى أعادت لمصر ما احتله اليهود منها وقاطع العرب مصر، وظهرت المعارضة الإسلامية على أشدها، واتجه السادات إلى سياسة القمع الشديد لها فاغتيل فى الاحتفال بذكرى انتصار أكتوبر وذلك عام ١٤٠١هـ وتولى المنصب الرئيس محمد حسنى مبارك.

المبحث الخامس
بلاد المغرب العربي

ليبيا:

احتلت إيطاليا ليبيا في الفترة من ١٣٣٠ : ١٣٣١هـ وانتزعتها من العثمانيين، وكان التمهيد لاحتلال ليبيا يتمثل في النفوذ الإيطالي بها، حتى أجبرت العثمانيين على التنازل عن ليبيا، واشتدت المقاومة الشعبية للاحتلال الإيطالي، وكان من أبرز قادتها عزيز المصرى، وكان المصريون على اتصال بإخوانهم في ليبيا، وأخذوا يهربون لهم السلاح وتطوع الكثير منهم في المقاومة، وأخذ الليبيون(السنوسيون) يقاومون الاحتلال الإيطالي لليبيا، وتعاونوا مع العثمانيين في الحرب العالمية الأولى، ولكنهم هزموا من الإنكليز، فلم يهدءوا وعملوا على توحيد جهودهم وخاصة بعد تولى موسولينى حكم إيطاليا وقد عمل موسولينى على فتح باب الهجرة إلى ليبيا، لتغيير التركيبة السكانية لها واعتبرها جزءًا من إيطاليا وأخذ الليبيون ينسقون التعاون بينهم في ولايتى برقه وطرابلس، ونصبوا محمد إدريس السنوسى ملكًا على البلاد.

المجاهد الكبير الشيخ عمر المختار:

وهو من شيوخ الزوايا السنوسية، تولى قيادة المجاهدين الليبيين ضد الاحتلال الايطالي، وأنزل بالايطاليين خسائر فادحة، واختل توازن الإيطاليين في ليبيا فأرسلت إيطاليا قوة كبيرة بقيادة جرازيانى للسيطرة على الأوضاع في ليبيا، فعاثت فسادًا في البلاد، وذبحت الآلاف من السكان، واستطاعت أن تقبض على الشيخ عمر المختار وأعدمته عام ١٣٥٠هـ.

الحرب العالمية الثانية ومجئ الاحتلال الانكليزى والفرنسي:

اندلعت الحرب العالمية واتخذت دول المحور من ليبيا قاعدة للهجوم على

الانكليز فى مصر، واستطاعت أن تتوغل فى مصر حتى جاءت معركة العلمين الشهيرة التى انهزمت فيها قوات المحور، وأخذ الحلفاء يتتبعونها حتى سيطروا على ليبيا، وقسمت ليبيا بين الإنكليز والفرنسيين، فضمت انكلترا كل من برقة وطرابلس بينما ضم إقليم فزان لفرنسا.

استقلال ليبيا:

استمرت حركات الجهاد فى البلاد ضد الدول الاستعمارية، وزادت جهود الدول الإسلامية، وكذلك جامعة الدول العربية لمنح ليبيا الاستقلال، واضطرت الدول الاستعمارية إلى منح ليبيا الاستقلال عام ١٣٧١هـ، وأعادوا توحيدها واختار الشعب الليبى محمد إدريس السنوسى ملكًا للبلاد وانضمت لجامعة الدول العربية ومن سلبيات الحكم الملكى فى ليبيا عقد معاهدة مع كل من إنكلترا والولايات المتحدة تسمح لهما بوجود عسكرى فى ليبيا، كما تسمح للولايات المتحدة بإقامة قواعد ومطارات عسكرية على أراضى ليبيا، ومدة هذه المعاهدة ٢٠ عامًا ثم عدلت ليبيا عن هذه المعاهدات بإيعاز من جامعة الدول العربية وخاصة بعد العدوان الثلاثى على مصر والذى استخدمت فيه بريطانيا قواعدها فى ليبيا لشن الغارات على مصر، فألغت الحكومة الليبية هذه المعاهدة وتدفق البترول فى ليبيا مما جعلها تنتعش اقتصاديا وأصبحت ليبيا فى غير حاجه للمساعدات الخارجية.

ثورة الفاتح وإلغاء الملكية:

قام الجيش الليبى بقيادة العقيد معمر القذافى بالثورة على النظام الحاكم فى عام ١٣٨٩هـ وألغيت الملكية وأعلنت الجمهورية برئاسة العقيد معمر القذافى الذى يحكم ليبيا حتى الآن، واتجهت سياسة ليبيا فى عهد القذافى إلى معاداة الولايات المتحدة، وأخرج الأمريكان من آخر قاعدة لهم فى ليبيا وأنهت وجود

الجالية الإيطالية فى ليبيا، وأيدت ليبيا الوحدة العربية وكونت اتحاد الجمهوريات العربية بين مصر وليبيا وسوريا عام ١٣٩١هـ، وجرت محاولات أخرى للاتحاد مع كل من تونس عام ١٣٩٤هـ وسوريا عام ١٤٠٠هـ والمغرب عام ١٤٠٤هـ وتوترت فى عهده العلاقات مع مصر فى عهد السادات أدت إلى اشتباك مسلح عام ١٣٩٧هـ ثم تحسنت فى عهد مبارك، وكان اتجاه ليبيا مع المعسكر الشرقى حيث عقد مع الاتحاد السوفيتى عام ١٣٩٥هـ اتفاقية تسمح ببناء قواعد سوفيتية برية وبحرية وجوية فى ليبيا، فى مقابل حصول ليبيا على أسلحة سوفيتية تعادل ١٢ مليار دولار وتقديم الخبرة العسكرية لليبيا.

العدوان الأمريكى على ليبيا:

أدى توتر العلاقات بين ليبيا والولايات المتحدة إلى الصدام العسكرى، فقد شنت الولايات المتحدة غارات على ليبيا فى عام ١٤٠٦هـ.

استمرت ليبيا فى عدائها للغرب وتورطت ليبيا فى تفجير الطائرة الأمريكية فى لوكيربى باسكتلندا، وطالبت أمريكا ليبيا بتسليم المتهمين فى تفجيرها، ولكن ليبيا رفضت، فأعلنت الأمم المتحدة فرض الحصار الجوى على ليبيا ومنع الطائرات الليبية من الهبوط فى مطارات أخرى، كذلك منع أى طائرات أخرى من الهبوط فى المطارات الليبية، وقد سبب ذلك آثارًا جسيمة، وصنفت ليبيا من الدول الإرهابية أو التى تدعم الإرهاب فى العالم، مع سوريا وإيران والسودان وأفغانستان، واضطرت ليبيا لتسليم المتهمين في حادث لوكيربي، ودفعت تعويضات هائلة ومبالغ فيها لأسر الضحايا، وتم رفع الحصار، وسمحت ليبيا للمفتشين الدوليين بدخول أراضيها للبحث عن الأسلحة النووية عام ١٤٢٥هـ.

تونس:

احتلت فرنسا تونس عام ١٢٩٨هـ بعد أن اتفقت كل من إنكلترا وفرنسا

وألمانيا على أن تكون تونس لفرنسا، وقبرص لإنكلترا، والالزاس واللورين لألمانيا، وذلك فى مؤتمر برلين عام ١٢٩٥هـ، وباحتلال فرنسا لتونس أزالت التبعية الاسمية للعثمانيين، وأجبرت الباب العالى على الاعتراف بالاحتلال.

حاولت فرنسا فَرْنَسة تونس كما سبق أن حاولت فى الجزائر، وفى كل منطقه تحتلها، ولكن تونس استطاعت الاحتفاظ بهويتها الإسلامية، وبدأت تظهر الحركات الوطنية والقومية فى تونس للتخلص من الاستعمار الفرنسى، واستمرت حتى الحرب العالمية الثانية، ومن أبرزها الحركة الوطنية بزعامة الحبيب بورقيبة، وبعد جهود داخلية وخارجية متمثلة فى كفاح الشعب التونسى وجامعة الدول العربية أعطت فرنسا تونس الاستقلال عام ١٣٧٦هـ، وأصبح بورقيبة أول رئيس لتونس، واحتفظت فرنسا ببنزرت حتى انسحبت منها عام ١٣٨٣، وظل بورقبية يحكم حتى عام ١٤٠٧هـ حيث تمت تنحيته لظروفه الصحية، وتولى الرئيس زين العابدين بن على الحكم، ومما هو جدير بالذكر أن جامعة الدول العربية نقلت من القاهرة إلى تونس عندما حدثت المقاطعة العربية لمصر، ثم عادت لمصر عام ١٤٠٩هـ عندما حدثت المصالحة العربية لمصر.

الجزائـــر:

اتخذت فرنسا ذريعة واهية لتحقيق مطامعها فى احتلال الجزائر لتكون بداية لتوسعها فى افريقيا تعويضًا عما فقدته فى الهند والقارة الأمريكية، واستطاعت فرنسا أن تحتل الجزائر عام ١٢٤٦هـ وألغت السيادة العثمانية عليها.

ومنذ دخول القوات الفرنسية للجزائر وهى تعمل على فرنستها، فاشتدت المقاومة الجزائرية للاحتلال الفرنسى، ودفعت الجزائر آلاف الشهداء فى سبيل الدفاع عن دينها وهويتها، حتى أطلق عليها بلد المليون شهيد، ومن أشهر زعماء الكفاح فى الجزائر الأمير عبد القادر الجزائرى، الذى اتخذ مدينة مسكرة

جنوب وهران قاعدة للهجوم على المحتلين، وأنزل بهم خسائر فادحة اضطرتهم لعقد اتفاقية معه تنص على اعتراف فرنسا به حاكمًا لوسط وغرب الجزائر، ثم واصل الفرنسيون القتال واستطاعوا احتلال المزيد من أرض الجزائر، واضطر الأمير عبد القادر للفرار إلى مراكش ولكن ضغط الفرنسيين على مراكش منعت حاكمها من مساندة عبد القادر الجزائرى، الذى اضطر فى النهاية للاستسلام للفرنسيين الذين نفوه إلى دمشق، ومكث بها حتى مات.

وأخذ الظلم الفرنسى يشتد على الجزائر، واتجه المحتلون إلى مصادرة الأراضى من أصحابها المسلمين، ومنحها للفرنسيين وشجعت الهجرة إلى الجزائر، وعملت على إلغاء اللغة العربية وإبدالها باللغة الفرنسية وتعانى الجزائر حتى الآن من ضعف اللغة العربية عند مواطنيها، وانتشار اللغة الفرنسية بينهم، واستغل المحتل ثروات الجزائر المعدنية.

ومع اشتداد الظلم اشتدت المقاومة، وحمل لواءها الأمير خالد بن عبد القادر الجزائرى أثناء الحرب العالمية الأولى، وحاول بالوسائل السلمية مثل حق تقرير المصير، الذي أعلنه الرئيس الأمريكي ولسن، ولكن الفرنسيين أخمدوا جهوده، ثم تزعم علماء الجزائر الدعوة إلى المحافظة على هوية الجزائر الإسلامية، ومحاربة الفرنسة وكان ذلك عام ١٣٤٥هـ، وظهرت جماعة نجمة شمال أفريقيا عام ١٣٤٧هـ، بزعامة مصالى الحاج والتى كافحت الاستعمار الفرنسي.

وبعد الحرب العالمية الثانية ازدادت ضراوة الثورات فى الجزائر ضد الاستعمار الفرنسى، وخاصة وأن الجزائريين ساعدوا فرنسا فى حربها مع الألمان، بعدما ركعت باريس ودخلها الألمان،و بدلاً من أن يمنح الفرنسيون الجزائر الاستقلال، عمل ديجول على عدم التخلى عن الجزائر واعتبارها جزءًا لا يتجزأ من فرنسا، وفى عام ١٣٧٤هـ أعلنت الثورة الجزائرية الكبرى والتى

اتخذت من القاهرة مقرًا لحكومتها المؤقتة، وساهمت الدول العربية فى مد الجيش والشعب الجزائرى بما يحتاج من أموال، واستمرت الثورة ثمانية أعوام استشهد فيها الكثير من أبناء الجزائر، حتى اضطرت فرنسا التى يئست من استمرار وجودها فى الجزائر إلى منح الجزائر الاستقلال عام ١٣٨٢هـ، باتفاقية ليفيان وتولى ابن بيلا رئاسة الجمهورية الجزائرية وكانت ميوله اشتراكية.

مشكلة تندوف:

نشب خلاف بين المغرب والجزائر على منطقة تندوف التى ضمتها فرنسا للجزائر، وتطالب بها المغرب ونشبت بين الطرفين حرب عام ١٣٨٣هـ بسببها ولكنها لم تستمر كثيرا.

الانقلاب العسكرى عام ١٣٨٥هـ:

قام العقيد هوارى بومدين بانقلاب عسكرى على النظام الحاكم فى البلاد، وتمكن من السيطرة عليها، وخلع بن بيلا وتولى هوارى بومدين منصب الرئاسة فى الجزائر، وفى عهده عادت القواعد البحرية التى احتفظت بها فرنسا إلى الجزائر وذلك فى عام ١٣٨٨هـ، وتوفى هوارى بومدين عام ١٣٩٨هـ وجرت الانتخابات فى الجزائر والتى فاز بها الرئيس الشاذلى بن جديد، والذى تم فى عهده الصلح بين الجزائر والمغرب، ولكن فى عهده جرت الانتخابات الحزبية فى عام ١٤١٢هـ وفازت بها جبهة الإنقاذ الإسلامية، وزادت الضغوط الداخلية والخارجية على الجزائر، فحكومتها العسكرية لا تقبل تولى زمام البلاد غيرها وبالذات إذا كان من الإسلاميين، وفى نفس الوقت يخشى أعداء الإسلام فى الخارج ظهور دولة إسلامية جديدة بعد الثورة الإسلامية فى إيران، فألغت الحكومة الانتخابات بغير وجه حق، فاعتزل الشاذلى بن جديد الحكم، وعمّت الثورات فى الجزائر، ورفض عبد المالك بن جبلس تولى المنصب حتى جاء

بوضياف فقبل المنصب، وانفجر الوضع فى الجزائر وكثرت التفجيرات، وقتل الآلاف من الشعب الجزائري، واغتيل الرئيس بوضياف فى عنابة، ثم تولى الحكم على كافى الذى لم يدم إلا قليلاً ولم يستطع وقف الصراع الدائر فى الجزائر، ثم جاء الرئيس زروال الذى تولى المنصب، وأجرى انتخابات أجمع الكثير من النقاد على تزويرها، وظل الوضع متفجرًا بالجزائر والحكومة غير قادرة على السيطرة على البلاد والقتلى بالألوف ثم تولى عبد العزيز بوتفليقة حكم البلاد الذي أعلن المصالحة الوطنية وبدأ الاستقرار يعود للبلاد.

المملكة المغربية:

من أكثر المناطق الإسلامية التى ظهر فيها الاستقلال عن الخلافة منذ العباسيين وحتى جاءها الاحتلال الفرنسي، وكان لهم دور كبير فى نشر الإسلام فى غرب إفريقيا ومساعدة المسلمين فى الأندلس، ففى الوقت الذى دب الضعف والتفتت فى أوصال الخلافة العباسية، ظهر الأدارسة فى المغرب واستطاعوا أن يكونوا لهم دولة فيها فى الفترة من (١٧٢: ٣٧٥هـ) ثم ضعفت دولة الأدراسة وتفككت وأصبحت القبائل المختلفة فى المغرب مستقلة، واستغل الفاطميون الظروف التى تمر بها البلاد فمدوا سلطانهم إلى الأجزاء الشمالية منها.

ثم حكم المغرب المرابطون فى الفترة من ٤٤٨ حتى ٥٤١هـ، ثم الموحدون الذين ظهروا منذ عام ٥٢٤هـ وامتد سلطانهم ليشمل المغرب، وظلت دولتهم حتى عام ٦٦٨هـ، وظهر بنو مرين فى الفترة الأخيرة من دولة الموحدين فى عام ٥٩١هـ، وبدءوا يبسطون نفوذهم فى المغرب حتى سيطروا عليها حتى عام ٩٥٧هـ واحتل البرتغاليون أجزاء كثيرةً من المغرب، وسقطت غرناطة آخر معاقل المسلمين فى الأندلس وظهر فى عهدهم أيضًا بنو وطاس الذين أخذوا

يحاربون المحتلين بشراسة ليخرجوهم من المناطق التى أخضعوها وارتكبوا فيها الفظائع بالمسلمين، ثم ظهر الأشراف الحسينيون والتف الشعب حولهم وجاهدوا البرتغاليين، وقد حكموا المغرب من عام ٩١٥هـ حتى عام ١٠٦٩هـ، وقد وصلت الدولة العثمانية فى عهدهم للجزائر وأصبحت على حدودهم وكان العثمانيون يتعاونون مع المغرب فى حروبهم ضد الإسبان والبرتغاليين وكثيرًا ما كان الحكام فى المغرب يستعينون بالعثمانيين لحماية مركزهم فى البلاد، وإخماد أى تمرد وصد أى اعتداء من الإسبان أو البرتغال، ولكن أعداء الإسلام قد بثوا الخوف فى صدور حكام المغرب من ضم العثمانيين لبلادهم وهذا ما جعل المغرب لا تعترف بالسيادة العثمانية عليها كما أن العثمانيين لم يحاولوا ضم المغرب؛ حرصًا على عدم تفرق المسلمين فى مواجهتهم لخطر الإسبان والبرتغاليين، وبدأ الضعف يدب فى الأشراف الحسينيين وبدأت القبائل تستقل عن حكمهم، وظهرت أسرة الشبانات التى وقعت فى حرب مع الأشراف الحسينيين واستطاعت القضاء عليهم، ولكنها لم تستمر كثيرًا فسرعان ما ظهر الأشراف الفلاليون وقضوا على الشبانات، ودان لهم حكم المغرب ومازالوا يحكمون البلاد حتى الآن.

سياسة العزلة فى المغرب:

فرض مولاى سليمان أحد حكام الأشراف الفلاليون سياسة العزلة على المغرب، فعقد صلحا مع الإسبان اعترف فيه باحتلالهم لبعض المدن الساحلية فى المغرب، ومنع الهجمات المغربية على السفن وسواحل أوروبا، ومنع التجار المغاربة من التجارة فى بلاد الفرنجة وغيرها من الوسائل التى عزلت المغرب عن البلاد المجاورة، وظلت هذه العزلة حتى جاء الاحتلال الفرنسى للجزائر، فتأثر المغاربة بإخوانهم المسلمين فى الجزائر وأخذوا يمدون إليهم يد العون.

وتأخر تحقيق الأهداف الفرنسية فى احتلال المغرب بسبب مؤتمر مدريد عام ١٢٩٧هـ الذى نص على عدم التدخل فى المغرب إلا باتفاق الجميع.

الاحتلال الأجنبي:

قسمت الدول الأوروبية نفوذها فى البلاد الإسلامية، فكانت مصر من نصيب إنكلترا، وليبيا من نصيب إيطاليا، وقسمت المغرب بين أسبانيا وفرنسا، فكان لأسبانيا الجهات الشمالية، وكان لفرنسا الجهات الوسطى والجنوبية، ووضعت مدينة طنجة تحت الإدارة الدولية وكان ذلك عام ١٣٣١هـ وتفجرت المقاومة، والثورة ضد الاحتلال الأجنبي، ومن أشهر قادتها محمد عبد الكريم الخطابى، الذى قاد ثورة فى إقليم الريف ضد الحكم الأسبانى وحقق انتصارات كبيرة على الأسبان، ولكن تحالف الإسبان عليه أدى إلى هزيمته واستسلامه فى نهاية الأمر، ومارست فرنسا محاولاتها لفرنسة المغرب كما سبق أن حاولت فى الجزائر وتونس، وحاول الفرنسيون إبراز القومية البربرية لتفتيت وحدة المسلمين فى البلاد، وجاءت الحرب العالمية الثانية وتعاون السلطان محمد الخامس مع الحلفاء الذين وعدوه بمنح المغرب استقلالها بعد الحرب، ولكنهم أخلوا بوعودهم بعد الحرب فزادت انتفاضة الشعب المغربي، وتكونت لجنة تحرير المغرب فى القاهرة، وعرض السلطان محمد الخامس القضية المغربية على الأمم المتحدة فنفاه الفرنسيون إلى خارج البلاد عام ١٣٧٣هـ وزادت المقاومة للاحتلال الفرنسى الذى لم يستطع تحملها وأعاد السلطان لعرشه.

استقلال المغرب من قيود الاحتلال:

مراحل استقلال المغرب:

منح الفرنسيون المغرب استقلالها عام ١٣٧٦هـ مع الاحتفاظ ببعض القواعد العسكرية فيها، ثم جلت القوات الفرنسية عن آخر قاعدة لها فى

المغرب عام ١٣٨١هـ، وكانت الولايات المتحدة قد أقامت هى الأخرى قواعد عسكرية فى المغرب فى فترة الاحتلال الفرنسى، ثم اتفق الملك الحسن الثانى -فى زيارته للولايات المتحدة- مع كيندى على إخلائها، وبرزت مشكلة موريتانيا بعد استقلال المغرب، فموريتانيا كانت تتبع المغرب منذ فترة طويلة، ومنها ظهر المرابطون وظلت مع المغرب دولة وحدة حتى أتاها الاستعمار الفرنسى الذى فصل بين المغرب وموريتانيا وأعلن فى موريتانيا جمهورية مستقلة عام ١٣٨٠هـ.

المناطق الخاضعة للاحتلال الأسباني:

احتفظت أسبانيا ببعض المواقع فى المغرب بعد استقلالها، ثم أعادت للمغرب أكثرها، ولكنها للآن لا تزال تحتفظ بمدينتين هما سبتة ومليلية وتطالب بهما المغرب، ومن المشاكل التى خلفها الاستعمار الأسبانى مشكلة الصحراء التى أعلن سكانها أنهم يريدون الانفصال، وتكوين دولة خاصة بهم وتشكلت جبهة البوليساريو التى كانت الجزائر تساعدها فى بداية الأمر بسبب خلافها مع المغرب على منطقة تندوف الواقعة بالجزائر، ولكن تم الصلح بين المغرب والجزائر فى عام ١٤٠٨هـ.

وأعلنت الأمم المتحدة اقتراحًا بإجراء استفتاء لتحديد مصير الصحراء المغربية وبرغم وجود قوات عسكرية مغربية فى الصحراء إلا أن المسألة لم تحسم حتى الآن.

***

الفصل الثالث

البلقـــــان

خريطة البلقان

بلغاريا:

يرجع البلغار إلى أصول تركية، حيث هاجروا من مدينة بلغار (قازان حاليا) فى حوض نهر الفولغا عند قدوم التتار إلى هذه المناطق، واستقروا فى البلقان وسيطروا على أجزاء فيه أطلقوا عليها اسم مدينتهم السابقة بلغار وللأسف الشديد تحولوا إلى النصرانية بعد أن كانوا مسلمين، وذلك لأن المجتمع الذى

يحيط بهم من النصارى الأرثوذكس وكان ذلك عام ٣٥١هـ.

دخل الفتح الإسلامى لبلغاريا على يد العثمانيين فقد فتح السلطان مراد الأول أجزائها الجنوبية عام ٧٧٤هـ، ثم أتم ابنه بايزيد الأول فتح الجزء الشمالى عام ٧٩٦هـ ثم فقدها العثمانيون بعد غزو تيمورلنك ثم استردها العثمانيون فى عهد السلطان محمد الفاتح، وظلت تحت الحكم العثمانى حتى مؤتمر برلين عام ١٢٩٥هـ حيث أجبر الأوروبيون العثمانيين على إعطائها الاستقلال الذاتي، وقد كان بها عدد كبير من المسلمين، نكل أهل البلاد النصارى بأكثرهم أثناء الغزو الروسى الذى تسبب فى استقلال بلغاريا الذاتي، وارتكبوا بحقهم جرائم بشعة ففر جزء من المسلمين إلى الأراضى العثمانية وتحصن آخرون بالجبال، وأخذوا يشنون حرب عصابات انتقاما مما فعله البلغاريون بالمسلمين.

ثم استقل البلغاريون تمامًا عن العثمانيين عام ١٣٢٦هـ وشكلوا مملكة البلغار، ثم جاءت الحرب البلقانية الأولى عام ١٣٣٠هـ التى اتحدت فيها دول البلقان لانتزاع ولاية الرومللى الشرقى التابعة للدولة العثمانية فى البلقان، وانتصروا على العثمانيين وأخذت بلغاريا منطقة تراقيا (الجزء الأوروبى من تركيا)، ثم اختلف الحلف البلقانى على تقسيم مقدونيا حيث أرادت بلغاريا ضمها بالكامل فحدثت الحرب البلقانية الثانية عام ١٣٣٢هـ وفى هذه المرة تحالفت دول البلقان مع العثمانيين على بلغاريا، وهزمت بلغاريا واسترد العثمانيون تراقيا وقسمت مقدونيا بين كل من اليونان والصرب والبلغار، حيث حصل الصرب على ٢٧٪ منها بينما حصلت بلغاريا على ١٠٪ منها وحصلت اليونان على بقية مقدونيا.

ثم جاءت الحرب العالمية الأولى فانضمت بلغاريا إلى دول المحور فى الحرب وتسببت هزيمة دول المحور فى إصابتها بالنكبات.

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية واحتلها الألمان فى البداية ثم انهزمت ألمانيا فى الحرب، وأخذت تتراجع فدخلت الجيوش الروسية بلغاريا، وأجبرتها بعد الحرب على الانضمام إلى حلف وارسو، والذى يعد بمثابة تكريس للاحتلال الروسى للدول التى دخلتها روسيا فى الحرب العالمية الثانية، حيث لا تملك دولة منهم الانسحاب من الحلف، وروسيا هى الدولة القائدة للحلف ولا منازع لها، وبدخول بلغاريا فى حلف وارسو مكن الروس للشيوعيين فى البلاد، وأعطوهم زمامها وكما علمنا فى كل الأنظمة الشيوعية التى ظهرت فى العالم كانت تعتبر الإسلام ألد أعدائها، وتحاربه بجرأة وبقسوة لا مثيل لها فى أى نظام آخر فى العالم.

ومن صور محاربة الإسلام والمسلمين فى بلغاريا هدم أكثر مساجدها وتحويل الكثير مما تبقى إلى مسارح ودور للهو واصطبلات للخيول حتى المسجد الوحيد الذى تبقى فى صوفيا حولوه إلى متحف، بالإضافة إلى وضع خطة مرحلية لتنصير المسلمين ويجبرنهم على تغيير أسمائهم الإسلامية إلى أسماء نصرانية، ويمنعون النساء من الاحتشام ويجبرونهن على السفور، ويمنعون المسلمين من دفن موتاهم على طريقتهم ويمنعونهم من دفن موتاهم فى مقابر خاصة ويمنعونهم من الخروج لعيد الأضحى، وغيرها من السبل التى تهدف إلى محو المظهر الإسلامى، وحتى الآن لا يريدون الاعتراف بهم كأقلية برغم أنهم يشكلون أكثر من ٢١٪ من سكان بلغاريا، ويمنعونهم من أداء فريضة الحج ومن الاتصال بإخوانهم المسلمين فى أنحاء العالم، وبرغم كل هذه الضغوط إلا أن المسلمين يحاولون المقاومة بكل طاقتهم، ويزج الكثير منهم فى السجون ويذوقون الويلات فى سبيل دينهم.

رومانيا:

شكلت الأفلاق والبغدان وترانسلفانيا ودوبروجة (جزء من بسارابيا) دولة رومانيا الحالية، وكان اتحاد هذه الإمارات بدعم من أوروبا ليقفوا صفًا واحدًا فى وجه الدولة العثمانية، واستقلت رومانيا تماما عن العثمانيين، وفقًا لشروط مؤتمر برلين عام ١٢٩٦هـ وقد ضمتها روسيا لحلف وارسو بعد الحرب العالمية الثانية، وأعطت زمامها للشيوعيين، وبعد أن كانت مملكة أصبحت جمهورية شيوعية تابعة لحلف وارسو، وهاجر أكثر المسلمين إلى تركيا وأجزاء أخرى من العالم ويتركز المسلمون فى رومانيا فى منطقة دوبروجة وجزيرة إدة قلعة، والمجيدية وباباداغ، ويعتنق أكثر السكان الديانة النصرانية على المذهب الأرثوذكسى، وبرغم انتهاء حلف وارسو وسقوط الشيوعية فى رومانيا إلا أن أوضاع المسلمين هناك بقيت على ما كانت عليه أثناء الحكم الشيوعى، وهناك اتجاه لضمها لحلف الأطلنطى فى عام ١٤١٩هـ.

مولدافيا:

وهى فى الأصل إقليم بسارابيا الذى انتزعه الروس من العثمانيين ثم ضم لرومانيا، ثم انتزعه الروس مرة أخرى، وتركوا فيه لرومانيا إقليم دوبروجة، وقد كان به الكثير من المسلمين، فعمد الروس إلى تمزيقه لتفريق شمل المسلمين ولجعل الدولة المتولدة عنه ضعيفة، فأقطع جزء منه لأوكرانيا وجزء احتفظت به رومانيا كما ذكرنا، والجزء المتبقى كون جمهورية مولدافيا السوفيتية الاتحادية، وظلت تابعة للاتحاد السوفيتى حتى انحل فى عام ١٤١١هـ، فاستقلت مولدافيا ومعلوماتنا عن المسلمين فيها قليلة، حيث عتم الشيوعيون على أنبائهم أثناء الاتحاد السوفيتى وبعد الاستقلال فلا يعرف عنهم إلا القليل.

المجر:

وصل الإسلام إلى المجر عن طريق هجرة بعض قبائل الباشكير المغولية

المسلمة إليها من حوض نهر الفولجا، وبرغم أن المجتمع المحيط بهم من النصارى إلا أنهم تمسكوا بإسلامهم، ثم عمدت أوروبا للحروب الصليبية التى كان ملك المجر (لاديسلاوس) من أشد مؤيديها، فأجبروا سكان البلاد على النصرانية أو الهجرة من البلاد، وقد جاءها من الأندلس والمغرب دعاة لنشر الإسلام، وعندما جاءها الفتح العثمانى عام ٩٣٣هـ فى عهد الخليفة سليمان القانونى وصل عدد المسلمين فيها إلى أكثر من ربع مليون مسلم، ووصل عدد المساجد فى بودابست إلى أكثر من ٨٣ مسجدًا، ووجدت المدارس الإسلامية، ولكن العثمانيين اضطروا للانسحاب من المجر عام ١١١١هـ فنكل بالمسلمين وأبيدوا وهجر أكثرهم وهدمت كل المساجد وما بقى منها تحول إلى كنائس، وقد فرض عليها الروس الانضمام لحلف وارسو بعد الحرب العالمية الثانية، ثم انحل حلف وارسو عام ١٤٠٩هـ، ويعيش الآن فى المجر عدة آلاف من المسلمين، والمجر فى طريقها للانضمام إلى حلف الأطلنطى عام ١٤١٩هـ.

سلوفاكيا:

كانت خاضعة لمملكة بوهيميا (التشيك) ثم فتحها العثمانيون بقيادة أحمد كوبريللى، وسكن فيها عدة عائلات عثمانية، واعتنق بعض أهل البلاد الإسلام، ثم اضطر المسلمون للانسحاب منها عام ١١١١هـ عندما قام سوبيسكى ملك بولندا بالهجوم المضاد على العثمانيين، فخضعت للنمسا التى صبت على المسلمين فيها جام حقدها الصليبى، فهاجروا وأبيد أكثرهم، وكانت النمسا قد أخضعت بوهيميا (تشيكيا) ثم ظهرت تشيكوسلوفاكيا بعد الحرب العالمية الأولى، ثم احتلها الألمان فى الحرب العالمية الثانية، ثم دخلتها الجيوش الروسية وضمت إلى حلف وارسو، وسيطر عليها الشيوعيون حتى سقطت الشيوعية عام ١٤٠٩هـ وانفصلت تشيكيا عن سلوفاكيا سلميًّا وأصبحت كل منهما تشكل دولة مستقلة وعاصمة سلوفاكيا هى مدينة برتسلافا.

النمسا:

كانت فى حروب دائمة مع العثمانيين، انتزع العثمانيون الكثير من أملاكها فى أوروبا، بل دخلوا النمسا وحاصروا مدينة ويانة (فيينا) مرتين إحداهما فى عهد الخليفة سليمان القانونى والأخرى فى عهد الخليفة محمد الرابع، ولكنهم لم يستطيعوا فتحها، وعندما ضعف أمر العثمانيين وأخذت النمسا تقتطع منهم الجزء تلو الآخر، هاجر عدد من المسلمين فى الأجزاء التى خضعت للنمسا إلى النمسا نفسها، وأكثرهم من البوشناق (البوسنة) وكان أول اتحاد بينها وبين العثمانيين فى الحرب العالمية الأولى والتى انتهت بهزيمتهما وفقد الكثير من أملاكهما، ثم جاءت الحرب العالمية الثانية وضمتها ألمانيا، فلما انهزمت ألمانيا دخلها الروس، ولكنهم انسحبوا منها ولم تنضم إلى أى من المعسكرين الشرقى أو الغربى، وتضاءلت مساحتها جدًا عما كانت عليه سابقًا ويوجد فيها أقلية مسلمة تزيد على الـ ٥٠٠٠٠ مسلم.

اليونان:

وصل الفتح الإسلامى إلى جزر كريت ورودس وغيرهما منذ عهد المسلمين الأوائل، ولكن لم يستتب الأمر للمسلمين فيها، واستردها الروم وأبادوا المسلمين عن آخرهم، ثم جاء الفتح العثمانى ففتح بلاد اليونان بأكملها وجزر بحر إيجة وكريت ورودس، وكان المسلمون فى اليونان يمثلون نصف سكانها، ثم أخذت أوروبا تعين اليونان على العثمانيين، وتمدهم بالأسلحة والعتاد والجنود حتى استقلوا عن العثمانيين، وشكلت مملكة اليونان، وكان الجزء المستقل لا يمثل أكثر من شبه جزيرة المورة، ثم أخذت أوروبا توسع أملاك اليونان على حساب الدولة العثمانية، وتجبر العثمانيين على التنازل لليونان عن المزيد من الأراضي.

وأخذ اليونانيون يضطهدون المسلمين وأجبروا الكثير منهم على الهجرة إلى

الأراضى العثمانية، ثم حدثت الحرب البلقانية الأولى والتى ضمت فيها اليونان الكثير من الأجزاء العثمانية من ولاية الروميللى الشرقى، وعندما فقدت الدولة العثمانية ولاية الروميللى الشرقى أخذت كل من اليونان والصرب يقتطعون الأجزاء تلو الأخرى من ألبانيا، ثم حدثت الحرب البلقانية الثانية لتقسيم مقدونيا، فكان من نصيب اليونان الجزء الأكبر منها، ثم حدثت الحرب العالمية الأولى واحتل الحلفاء الكثير من الأجزاء العثمانية وامتد نفوذهم إلى الأناضول ومكنوا لليونانيين فى الأجزاء العثمانية، ونشبت الحرب بين تركيا واليونان التى أقطعها الحلفاء الكثير من الأراضى التركية، فانتصر الأتراك وكانت موقعة سقاريا من أشهر انتصاراتهم على اليونان.

واستردوا أكثر الأجزاء التى ضمت لليونان، وكان منها استنبول وأزمير وتراقيا الشرقية ولكن اليونانيين احتفظوا بجزر بحر إيجة، حتى المتاخمة للسواحل التركية، ووقعت اتفاقيات بين الأتراك واليونانيين تقضى بتبادل السكان المسلمين بالنصارى الأرثوذكس، وهاجر الكثير من المسلمين الذين كانوا يشكلون قبل ذلك ربع سكان اليونان وأبيد الكثير منهم فى أنحاء اليونان وقضى تمامًا على مسلمى جزيرة كريت وردوس برغم أن غالبيتهم من اليونانيين، ووصل عدد المسلمين الآن فى اليونان إلى حوالى ربع مليون بعد أن كان أكثر من ٢,٥ مليون فى وقت من الأوقات.

والنزاع مستمر بين تركيا واليونان فى قبرص وجزر بحر إيجة حتى الآن، وتتبادل الدولتان الاتهامات والتهديدات والعلاقات بينهما فى توتر دائم، ومما هو جدير بالذكر أن الملكية ألغيت فى اليونان وأعلنت الجمهورية فى عام ١٣٩٣هـ وتعيش فى اليونان أقليات تركية وألبانية وبلغارية معظمها من المسلمين.

ألبانيا:

تم فتحها فى عهد السلطان العثماني مراد الثانى وبرغم حركة تمرد إسكندر بك التى استمرت حتى عهد السلطان محمد الفاتح، إلا أن العثمانيين استتب لهم الأمر فى المنطقة، ثم كونت مع مقدونيا وأجزاء أخرى من البلقان ولاية الروميللى الشرقى والتى ظلت تحت السيادة العثمانية حتى قامت الحرب البلقانية الأولى وانهزمت الدولة العثمانية فاستقلت ألبانيا عن العثمانيين.

وبدأت تظهر الأطماع الصربية واليونانية فى ألبانيا، فاقتطعوا الكثير من أرضها، ثم جاءت الحرب العالمية الثانية فاحتلت إيطاليا الجزء الذى يمثل الآن ألبانيا، ثم انهزمت دول المحور التى كانت إيطاليا إحدى دوله، وقسمت أوروبا بين المعسكر الشرقى والغربى، فكانت ألبانيا من نصيب الروس الذين ضموها إلى حلف وارسو وأقاموا فيها الحكم الشيوعي.

وقد دخل معظم الأرناؤوط (الألبان) فى الإسلام أثناء الحكم العثماني؛ ولذلك عكفت أوروبا على تقسيمها، وزادت أطماع الدول المجاورة فيها حتى أصبحت مساحتها تعادل ثلث المساحة التى كانت عليها ألبانيا فى أثناء الحكم العثماني؛ ولذا العلم الألبانى يمثل نسرًا ذا رأسين، رأس تنظر جهة اليمين والأخرى جهة اليسار إشارة للأراضى الألبانية التى يحتلها كل من الصرب واليونان.

وبرغم أن معظم أهلها من المسلمين إلا أن الحكم الشيوعى لها قد ضيق الخناق على النشاط الإسلامى، وعزل ألبانيا عن العالم الإسلامى وعكفت أوروبا على جعل ألبانيا أفقر دولة فى أوروبا.

وعندما انحل حلف وارسو عام ١٤٠٩هـ انفتحت ألبانيا على المسلمين، وانضمت إلى منظمة المؤتمر الإسلامى الذى يضم الدول الإسلامية المستقلة، وتسلم الديمقراطيون البلاد، وبدأت المحاولات الأوروبية لزعزعة استقرار ألبانيا وذلك فى

محاولاتها المستمرة للقضاء على المسلمين فى أنحاء العالم وبالذات أوروبا الصليبية، فبعد أن ارتكبت أبشع وأقذر الجرائم فى البوسنة، وقسمتها وثبتت أقدام جيوشها فيها، اتجهت إلى ألبانيا بشركات توظيف الأموال الأوروبية التى خدع الشعب الألبانى الفقير بها، وظن أن الفقر الذى طال أمده سينتهى بإيداع أموالهم وممتلكاتهم فى هذه الشركات، التى أوهمتهم باستثمار أموالهم وتدفق الأرباح عليهم كالسيل، وما لبث أن ضاربت شركات توظيف الأموال الأوروبية بأموال المودعين الألبانيين فى البورصة، وأضاعت أموالهم بتخطيط أوروبى صليبي.

فهب الشعب الألبانى الذى وضع أبناؤه كل ما يملكون فى هذه الشركات وحملوا الحكومة الألبانية المسئولية، وامتدت الأيدى الأوروبية بالأسلحة للثوار الألبانين لتحدث الفتنة والتقسيم فى ألبانيا، وعمت الفوضى بالبلاد وأفلت زمام الدولة من حكومتها، واتخذت أوروبا كل هذه الظروف كذريعة لإرسال قواتها إلى ألبانيا فى شكل قوات شرطة، بحجة أن الألبانيين فقدوا السيطرة على بلادهم ولتنظيم الانتخابات فى ألبانيا لتشكيل حكومة جديدة.

وهكذا استطاع الأوروبيون النصارى أن يضعوا أرجلهم فى ألبانيا ويتدخلوا فى شؤونها الداخلية كخطوة مرحلية للقضاء على ألبانيا وعلى كل المسلمين فى أوروبا ثم يأتى التفرغ تمامًا للقضاء على المسلمين فى العالم، وفاز الشيوعيون بالانتخابات، وفضلت أوروبا عودة النظام الشيوعى لها كنظام اشتهر بمحاربته للإسلام فى ألبانيا وفى كل دول العالم التى تمكن للشيوعيين فيها.

يوغوسلافيا

تعنى كلمة يوغوسلافيا السلاف الجنوبيين، وتشمل هذه المنطقة عدة شعوب

منها الصرب والكروات والبوشناق (هاجرت قبائل البوشناق والكومان من موطنها الأصلى فى حوض نهر الفولغا، واستقر بالبلقان) والمقدونيين والألبان والسلوفينيين والمونتغيرو (سكان الجبل الأسود).

منذ أن استقل الصرب عن العثمانيين ذاتيًا وهم يعملون على الاستقلال التام عن العثمانيين، وكذلك التوسع على حساب الأراضى العثمانية، وعندما تم لهم الاستقلال التام عن العثمانيين هم والجبل الأسود، أخذوا يعملون على ضم المزيد من أراضى الدولة العثمانية، وبالفعل اندلعت الحرب البلقانية الأولى واستطاع الصرب والجبل الأسود وحلفاؤهم فى بلغاريا ورومانيا واليونان أن يخرجوا العثمانيين من ولاية الروميللى الشرقى، ومن أجزاء البلقان، باستثناء استنبول، ثم جرت الحرب البلقانية الثانية لتقسيم مقدونيا بين دول التحالف فكان نصيب الصرب ٢٧٪ منها.

وفى ذلك الوقت كانت البوسنة والهرسك وكرواتيا وسلوفينيا وسواحل دلماسيا تابعة للنمسا، وكان الصرب يواصلون توغلهم فى الأراضى الألبانية، وضموا إقليم كوسوفو وسنجق وغيرها ذات الأغلبية الألبانية.

واندلعت الحرب العالمية الأولى بسبب مقتل ولى عهد امبراطور النمسا فى سراييفو التابعة للنمسا، والتى حملت الصرب مسئولية قتله وتكونت دول المحور من النمسا وألمانيا والدولة العثمانية، بينما كانت دول الحلفاء هى روسيا وإنكلترا وفرنسا وإيطاليا، ودخل الصرب الحرب وانحازوا للحلفاء فلما انتصر الحلفاء كافؤا الصرب بأن ضموا إلى مملكتهم كل من البوسنة والهرسك وكرواتيا وسلوفينيا.

أصبحت النمسا دولة داخلية لا منفذ لها على البحر، وكان الاحتلال النمساوى للبوسنة قد أدى إلى خفض نسبة المسلمين فيها، نتيجة للهجرة أو القتل ثم جاء الصرب ليواصلوا رحلة الاضطهاد والإبادة للمسلمين، واندلعت

الحرب العالمية الثانية، وكان الصرب فى صف الحلفاء كسابق عهدهم، ووقعت الصرب فى يد ألمانيا التى ركزت فى وجودها على معاداة الصرب والمسلمين، وتقريب الكروات والسلوفينيين حيث الصرب نصارى أرثوذكس بينما الكروات نصارى كاثوليك فعقيدتهم مثل أكثر الألمان.

فلما انهزمت ألمانيا فى الحرب طردت الجيوش الروسية الألمان من مملكة الصرب، وانسحبت روسيا منها وهى تظن أن العون التاريخى الذى قدمته للصرب سواء فى أيام الدولة العثمانية أو فى الحرب العالمية سيجعل الصرب ينضمون إلى حلف وارسو، ولكن الصرب خيبوا ظنهم ولم ينضموا إلى حلف وارسو الذى يعتبر شكلاً خادعًا لإخفاء الاحتلال الروسى لدول الحلف. أعلنت يوغوسلافيا وقد اختارت هذا الاسم لتوحى للشعوب الأخرى المكونة ليوغوسلافيا أنها لا ترفع الصرب عليهم، ولكن الحقيقة الواقعة كانت غير ذلك، فالحياة الدبلوماسية والقوات المسلحة يشكل الصرب ٨٠٪ منها ولا يسمح لأى مسلم بالانضمام للقوات المسلحة.

وما إن استتب الأمر للشيوعيين بقيادة تيتو الكرواتى حتى أظهر الصرب الكراهية للمسلمين، فذبحوا عشرات الألوف منهم فى مدينة توزلا البوسنية و ٣٠٠٠ فى سراييفو، بالإضافة إلى المذبحة البشعة التى ذبح الصرب فيها ٦٠٠٠٠ مسلم وألقوا بهم فى نهر الفولجا فى البوسنة الذى أصبح لونه أحمر من كثرة القتلى وغيرها من المذابح الأخرى، وقتل مفتى كرواتيا وحكم على عدة زعماء مسلمين ألبانيين بالإعدام فى الجزء التابع لهم فى مقدونيا، وأعدم المزيد من زعماء المسلمين فى أنحاء يوغوسلافيا، وهدم الكثير من المساجد حتى بلغراد نفسها التى كان بها ما يقرب من ٢٧٠ مسجدًا هدم أكثرها، وحُوّل الباقى إلى ملاهى ليلية واصطبلات للخيول ولم يبق إلا مسجد واحد فى بلغراد وأغلقت الكتاتيب والمدارس الدينية وغيرها، وعقدت يوغوسلافيا اتفاقيات مع تركيا لرحيل مئات الألوف من المسلمين من يوغوسلافيا إلى تركيا وقسمت

يوغوسلافيا إلى ٥ جمهوريات اتحادية هي:

١- صربيا: وتضم إقليمين ذوى حكم ذاتى، وهما فويفودينا وعاصمته مدينة نوفيساد وكوسوفو وعاصمته مدينة برشتينا.

٢-كرواتيا (ولفظ كرواتى يعنى كاثوليكي): وعاصمتها مدينة زغرب.

٣-البوسنة والهرسك: وعاصمتها مدينة سراييفو.

٤- مقدونيا: وعاصمتها مدينة سكوبيا.

٥- سلوفينيا: وعاصمتها مدينة لوبليانا.

٦ – الجبل الأسود (مونتغيرو): وعاصمتها مدينة تيتو غراد.

وقد اقتطع من أراضى البوسنة وضم إلى كل من كرواتيا والجبل الأسود وصربيا، وفى نفس الوقت تدفق على البوسنة والهرسك مواطنون صرب وآخرون كروات لتغيير التركيبة السكانية فى البوسنة والهرسك، وفى حرب فلسطين كان هناك فرقة من المجاهدين البوشناق مع العرب.

أخذت الحركات الإسلامية فى البوسنة والهرسك تظهر، وكان الصرب يقابلون ذلك بالتعسف الشديد، وقد قبضت الحكومة الشيوعية على بقية أعضاء حركة الشبان المسلمين فى البوسنة وأودعتهم السجن عام ١٤٠١هـ بتهمة قلب نظام الحكم، وكان منهم على عزت بيجوفيتش حيث سبق للصرب أن حبسوا أعضاء الشبان المسلمين من قبل.

وجاء سلوبودان ميلوسوفيتش ليتسلم رئاسة الحزب الشيوعى الحاكم فى يوغوسلافيا، وألغى الحكم الذاتى لإقليم كوسوفو وكان مجيئه فى نهاية عصر الشيوعية العالمية فقد انحل حلف وارسو وسقطت الكثير من الأنظمة الشيوعية فى العالم وخصوصًا أوروبا فأعلنت كل من كرواتيا وسلوفينيا استقلالهما عن يوغوسلافيا عام ١٤١١هـ.

فخشى الصرب من تفكك صربيا الكبرى (يوغوسلافيا) فانقضت جيوشهم على كرواتيا وانفصلت سلوفينيا سلميًّا، أما كرواتيا فاندلعت الحرب فيها وكانت أوروبا والفاتيكان من ورائها يحركهم البابا -لأنهم كاثوليك- بينما الصرب أرثوذكس فأعلن مجلس الأمن قراره الذى يقضى بوقف القتال فى كرواتيا، وأرسلت الأمم المتحدة ١٤٠٠٠ جندى على طول الجبهات الصربية الكرواتية، واحتفظ الصرب بوجودهم فى إقليم كرايينا وسلافونيا ونقل بقية الجيش اليوغوسلافى إلى البوسنة، وتمركز فى ٦٥٪ منها ليمنع أى محاولة لانفصالها عن يوغوسلافيا، ولجأ المسلمون للوسائل السلمية فى الانفصال فأعلن الرئيس على عزت بيجوفيتش عن إجراء استفتاء فى البوسنة لتحديد مصيرها إما بالاستمرار مع يوغوسلافيا أو بالانفصال عنها.

فى نفس الوقت كانت قوات الجيش اليوغوسلافى المتمركزة فى البوسنة توزع الأسلحة على السكان الصرب لقتال المسلمين العزل من السلاح، وما إن أعلنت نتائج الاستفتاء بانفصال البوسنة عن يوغوسلافيا حتى كان الصرب قد دبروا حيلة للحرب مع المسلمين بأن جعلوا صرب البوسنة يعلنون عن تكوينهم لدولة فى البوسنة مساحتها ٦٥٪ من البوسنة والتى يسيطر عليها الجيش اليوغسلافى فى حين أن الصرب فى البوسنة لا تزيد نسبتهم عن ٣٠٪ ومعظمهم -إن لم يكن كلهم- من الذين جاءوا إلى البوسنة لتغيير التركيبة السكانية فيها، وبذا تظهر للعالم أنه إذا اندلعت حرب فى البوسنة فستكون بين الانفصاليين الصرب والحكومة البوسنية، ولكن فى الحقيقة هى حرب بين الحكومة البوسنية وكل صرب يوغوسلافيا.

وكما هو متوقع رفضت الحكومة البوسنية القرار الصربى فاندلعت الحرب فى عام ١٤١٢هـ بين المسلمين الممثلين لحكومة البوسنة العزل من السلاح وبين الصرب المدججين بأحدث الأسلحة وارتكب الصرب أبشع الجرائم التى تعجز

الألسنة عن وصفها والأقلام عن كتابتها، والغريب أن القساوسة الصرب كانوا يبيحون ارتكابها، ووقف العالم موقف المتفرج لا يفعل شيئا وتباين موقف الأمم المتحدة فى البوسنة وكرواتيا فقد أرسلت إلى كرواتيا جنودها ليوقفوا تقدم الصرب بينما لم تفعل شيئًا فى البوسنة، غير أنها أرسلت حفنة من جنودها لتكريس الاحتلال الصربى للبوسنة، وكانت الأمم المتحدة قد تقدمت بخطة مبعوثها فانس أوين لتقسيم البوسنة، وجعلها عدة كيانات بين الصرب والكروات والمسلمين بحيث يمنح للمسلمين ٤٤٪ من مساحة البوسنة و٢٠٪ للكروات و٣٧٪ للصرب وقد وافق المسلمون والكروات عليها إلا أن الصرب رفضوها بصفتهم يسيطرون على أكثر من٧٠٪ من البوسنة، ولم يكتف أعداء الإسلام بذلك بل عكفوا على تصفية النزاع بين الصرب والكروات وتجميع كلمتهم فى سبيل ابتلاع البوسنة.

اتفق الصرب والكروات على وقف القتال بينهما وإعطاء الجزء الذى يقطنه الصرب فى كرواتيا حكمًا ذاتيًا موسعًا، وتحالف الصرب والكروات ضد المسلمين، وغدر الكروات بالمسلمين الذين ظنوا أن قوات كرواتيا التى أرسلت للبوسنة هى للدفاع عن البوسنة، ووقف تقدم الصرب، فتحولت هذه القوات إلى قوات محتله تؤازر الصرب فى القضاء على المسلمين، وأخذ الجنود الصرب المحاصرين لسراييفو يمطرون المسلمين بقذائف الهاون المدمرة حتى قال أحد قادة الصرب: إنهم يدمرون المسلمين ليحموا أوروبا من المد الإسلامى فيها.

لم يكتف أعداء الإسلام بكل ذلك بل اتخذوا قرارًا بحظر الأسلحة عن يوغوسلافيا السابقة، وهو فى حقيقة الأمر حظر على المسلمين فقط فالصرب الكروات يتدفق عليها السلاح من أوروبا واليهود فالصرب يدعمهم الروس ومعظم الدول الأرثوذكسية المجاورة، وكذلك اليهود، بينما يدعم كرواتيا

الفاتيكان ومن ورائها أوروبا، وبرغم كل ذلك وبرغم سيطرة الصرب على ٧٢٪ من أراضى البوسنة وسيطرة الكروات على ٢٠٪ حتى لم يبق للمسلمين فى البوسنة إلا أقل من ١٠٪ برغم أنهم يشكلون أكثر من ٥٠٪ من سكان البوسنة إلا أن إرادة الله فوق كل شيء وكما يقول سبحانه وتعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِم وَاللهُ مُتِم نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ﴾.

وتسلح المسلمون بسلاح الإيمان وتوكلوا على الله خير توكل واستطاعوا أن يحققوا بعض الانتصارات وكان مصدر أسلحتهم الرئيسى عن طريق غنائم الانتصارات على الأطراف الأخرى، وزاد تقدمهم على الجبهة الكرواتية، حتى استطاعوا أن يطوقوا إحدى المناطق وبها ٦٠٠٠٠ جندى كرواتى، فاضطرت كرواتيا للتفاوض مع البوسنيين وخاصة أنها فكرت فيما سيحدث بين الصرب والكروات من تصفية للحساب بعد الحرب فى البوسنة، فعمدت إلى الاتجاه مرة أخرى للتحالف مع المسلمين، وكونت الأجزاء التى يسيطر عليها الكروات فى جنوب غربى البوسنة اتحادًا فيدراليًا مع الأجزاء التى يسيطر عليها المسلمون.

كانت الولايات المتحدة قد أعدت جيوش كرواتيا جيدًا لاستعادة الأجزاء التى يسيطر عليها الصرب فى كرواتيا، لأنها تعتبر الصرب امتدادًا لروسيا وللشيوعية فى أوروبا، وبالفعل استطاعت كرواتيا أن تحرر سلافونيا الغربية وكرايينا من أيدى الصرب فى وقت صغير جدًا، وكان ذلك من الأشياء التى ساهمت فى تقدم المسلمين فى جبهات القتال ضد الصرب، ولم يتبق للصرب فى كرواتيا إلا إقليم سلافونيا الشرقية الذى يقترب من ٥٪ من مساحة كرواتيا.

وبدأ الضمير العالمى يستيقظ وأعلن المسلمون فى المؤتمر الإسلامى فى ماليزيا بأنهم غير ملزمين بقرار حظر الأسلحة عن البوسنة، وهددت الأمم المتحدة بالضربات الجوية للصرب إذا ما قذفوا المدنيين فى سراييفو.

لم يستجب الصرب لتهديدات الأمم المتحدة وواصل رادوفان كاراداسيتش زعيم صرب البوسنة وراتكوميلاسيتش قائد قواتها ارتكاب البشائع تجاه المسلمين، منها قتل أكثر من ١٥٠٠٠ مسلم عندما احتلوا مدينة سيربريتشا وجيبا المسلمتين.

قامت قوات الأمم المتحدة ببعض الضربات الجوية للصرب، ثم كفت عنها عندما استخدم الصرب جنود الأمم المتحدة كدروع بشرية، ثم أفرج الصرب عنهم فضربت طائرات الأمم المتحدة مواقع الصرب فى البوسنة.

استغل المسلمون الفرصة وكذلك كروات البوسنة، فتقدموا فى الأراضى التى يحتلها الصرب وحرروا الكثير منها حتى سيطر المسلمون على أكثر من ٣١٪ من البوسنة، وسيطر الكروات على ٢٠٪ منها وبقى للصرب ما يقارب ٤٩٪ من مساحة البوسنة.

فخافت دول أوروبا من تقدم المسلمين، وأجبرت الأطراف الثلاثة على وقف إطلاق النار وتوقيع اتفاق دايتون للسلام عام ١٤١٦هـ والذى يقضى بإقامة دولة فيدرالية فى البوسنة تضم كيانين أحدهما صربى يسيطر على ٤٩٪ من مساحة البوسنة والآخر بين المسلمين والكروات ويظهر بوضوح ظلم الاتفاقية للمسلمين، وضعف الاتفاق وهشاشته حيث يجعل فى البوسنة ثلاثة جيوش ومجلس رئاسى يتكون من ٣ رؤساء، ويتيح الفرصة بسهولة لكل من الصرب والكروات للانفصال عن البوسنة فى أى وقت، وقد أجبرت الولايات المتحدة المسلمين على قبوله، ليكون لها ولحلف الأطلنطى نفوذ فى البوسنة بحجة وجود قوات تحفظ تنفيذ اتفاقية دايتون.

اضطر المسلمون لقبول الاتفاق ليلتقطوا أنفسهم ليتدفق عليهم السلاح من الولايات المتحدة كما وعدتهم، وكذلك ليعود اللاجئون فى أنحاء أوروبا للبوسنة فيستجمع المسلمون قوتهم ويستعدوا حينئذ لتحرير بقية أراضى

البوسنة، وقد أجريت انتخابات فى البوسنة لرئاسة مجلس رئاسة البوسنة، وقد فاز الرئيس على عزت بيجوفيتش، وفى نفس الوقت تماطل الولايات المتحدة فى إرسال دفعات السلاح التى وعدت بإرسالها للمسلمين.

استقلت مقدونيا سلميًّا عن يوغوسلافيا فى أثناء الحرب فى البوسنة، وذلك بإجراء استفتاء أظهرت نتائجه الرغبة فى الانفصال عن يوغوسلافيا بينما شكلت كل من صربيا والجبل الأسود جمهورية يوغوسلافيا الجديدة.

تظهر فى يوغوسلافيا مشكلة إقليم كوسوفو ذى الأغلبية الألبانية المسلمة، والذى يريد الانفصال عن يوغوسلافيا، ولكن الصرب يشددون من قبضتهم عليه، ويعاملون الثائرين هناك بكل قسوة، وكذلك يتقاسم الصرب والجبل الأسود إقليم سنجق ذى الأغلبية المسلمة.

ومما يذكر فى حرب البوسنة تناقض السياسة الأمريكية الغربية فى نظرتها لمشكلة الكويت وحسمها عسكريًا، وسياسة المتفرج المتبعة فى قضية البوسنة والإجابة معروفه، فالصليبية العالمية تصل فى النهاية لهدف واحد وهو القضاء على المسلمين، وقد ذبح من المسلمين فى حرب البوسنة ما يزيد عن ٢٠٠,٠٠٠ مسلم، وشرد أضعافهم، وطرد الكثير من المسلمين من أرضهم، فيما يطلق عليه سياسة التطهير العرقى وأحل محلهم صرب، وارتكبت فى المسلمين كما سبق وأن ذكرنا جرائم تقشعر لها الأبدان من قتل وتمثيل بالضحايا، وجعل الكثير منهم أصحاب عاهات وتشويه وهتك للأعراض لم يسبق له مثيل بغرض التنكيل والإذلال، فلم يكتفوا باغتصاب الفتيات والأطفال والعجائز بل كانوا لا يتركون الفتاه إلا وهى على وشك الوضع لتضع طفلاً سفاحًا، وعمدوا إلى قطع أثداء النساء وبقر بطون الحوامل، ومهما تكلمنا عن المزيد من الجرائم فلا يمكننا وصف بشاعتها ولا يسعنا إلا أن نقول:(حسبنا الله ونعم الوكيل، وإنا لله وإنا إليه راجعون).

بولندا

وصل التتار إلى بولندا وتوقفوا عندها فى زحفهم على أوروبا وعندما أسلموا كان البولنديون يستعينون بهم ضد الألمان، فاستقر عدد من الجنود التتار المسلمين فى بولندا، ومارسوا حياتهم بصورة مستقرة، وبنوا المساجد والمدارس الإسلامية وفى أثناء العهد العثمانى وقعت بولندا تحت الحماية العثمانية لفترة قليلة من الزمن، وسيطر العثمانيون على الأجزاء الجنوبية منها، ثم ما لبث أن تقاسمها الروس والنمساويون والبيلاروس (الروس البيض)، ووقع الاضطهاد للمسلمين واختفت بولندا عدة مرات، ثم ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى يوجد بها ما يزيد عن ١٠٠,٠٠٠ مسلم ثم احتلها الألمان فى الحرب العالمية الثانية، ثم انهزموا فدخلتها الجيوش الروسية وضمتها إلى حلف وارسو، الذى يسمى باسم عاصمتها واقتطعت روسيا أجزاء من شرق بولندا وعوضتها بأجزاء من شرق ألمانيا، وقل عدد المسلمين فى بولندا حتى وصل إلى ما يزيد بقليل عن ٢٥٠٠٠ مسلم، ولا ندرى أين اختفى الباقون، إذ يحتمل أن يكون إختفاؤهم بسبب الإبادة أو التهجير أو وجود الكثير منهم فى الأجزاء التى ضمتها روسيا إليها.

قبرص

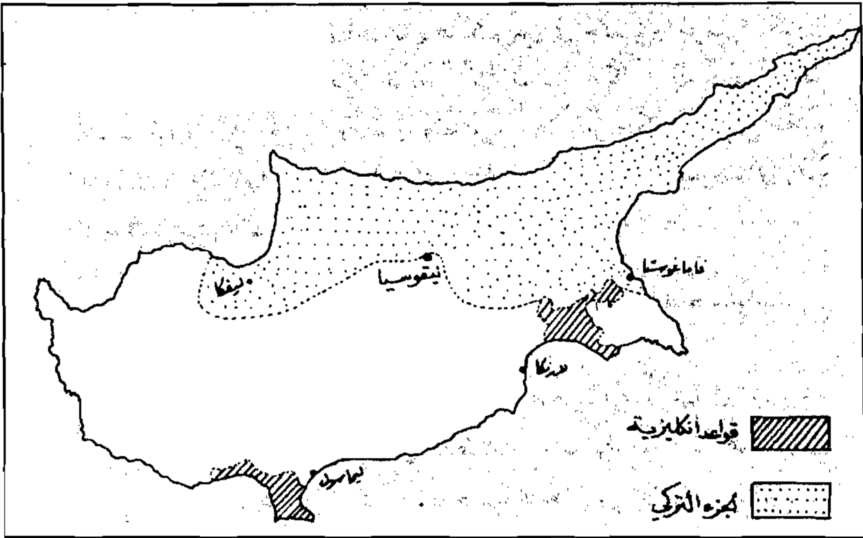
فتح المسلمون قبرص فى عهد الخليفة عثمان بن عفان، وانتشر فيها الإسلام ثم استردها الروم فى عهد عبد الملك بن مروان، ولم تستقر أقدام المسلمين فيها بعد ذلك حتى جاءها العثمانيون، وفتحوها فى عهد الخليفة سليم الثانى وظلت تحت الحكم الإسلامى ثلاثة قرون (٩٧٩ - ١٢٩٦هـ) أصبح المسلمون فيها ثلاثة أضعاف النصارى، ثم أجبرت إنكلترا العثمانيين على عقد معاهدة معهم تترك بمقتضاها قبرص لإنكلترا عام ١٢٩٦هـ، حتى

تحمى إنكلترا الأراضى العثمانية من أى هجوم خارجي، وما إن استتب الأمر للإنكليز حتى عملوا على تغيير التركيبة السكانية للجزيرة، بتشجيع هجرة اليونانيين إليها وضغطت على المسلمين ليتركوا الجزيرة، فهاجر الكثير من المسلمين، وتأسست فى اليونان عدة حركات إحداها تدعوا للاتحاد مع اليونان، وأخرى تدعو إلى تكوين دولة مستقلة، وزاد الضغط على المسلمين وخاف المسلمون من الانضمام لليونان، وخاصة وأن إخوانهم فى جزيرة كريت قد أبيدوا عندما ضمت كريت إلى اليونان.

ثم منحت إنكلترا قبرص الاستقلال عام ١٣٨٠هـ وكان ينص الاستقلال على أن يكون رئيس قبرص من الجالية اليونانية، ونائبه من الجالية التركية وكان فى ذلك الوقت وفقًا للإحصائيات تبلغ نسبة المسلمين فى الجزيرة ١٩٪ بينما تبلغ نسبة اليونانيين فى الجزيرة ٧٨٪ و٣٪ يهود.

وقعت الصدامات بين الأتراك واليونانيين عام ١٣٨٣هـ وهاجم اليونانيون المناطق الإسلامية، ونكلوا بأهلها وتكرر ذلك عام ١٣٨٧هـ.

وقع انقلاب عسكرى فى قبرص عام ١٣٩٤هـ على المطران مكاريوس حاكم الجزيرة، وخافت تركيا من ضم جزيرة قبرص إلى اليونان فأمرت القوات المسلحة التركية بنزول قبرص وتمكنت القوات التركية من السيطرة على ٣٨٪ من مساحة قبرص لتحمى المسلمين من الحقد الصليبى اليونانى، ورحب الأهالى المسلمون بالجيوش التركية وأدى ذلك إلى اشتعال الموقف وتوتر العلاقات بين تركيا واليونان والوضع مازال على ما هو عليه.


نيقوسيا
فاماغوستا
ليفكا
ليماسول
قواعد انكليزية
الجزء التركي

جزيرة قبرص

بلاد القوقاز

يطلق لفظ بلاد القوقاز (القفقاس، القفجاق) على المنطقة الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود

العرب

وقد دخل الإسلام هذه المنطقة بالفتح، فقد فتح سراقة بن عمرو أذربيجان عام ٢٢هـ في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وأتم عبد الرحمن بن ربيعه دخول باب الأبواب (دربند) فى داغستان، وعمّر الإسلام بلاد أذربيجان وداغستان، ثم واصل سراقة بن عمرو فتوحاته فى القوقاز، ففى عهد الخليفة عثمان بن عفان فتح أرمينيا وبلاد الكرج (جورجيا)، ثم ارتد الأرمن فجاءهم جيش بإمرة حبيب بن مسلمة فأخضعهم ولم يستقر الوضع للمسلمين فى هذه البلاد، حيث كانوا فى حروب مستمرة مع الخزر، وكما سبق وأن ذكرنا انتشر الإسلام فى الجهات الشرقية والجنوبية منها، وبقيت الأجزاء الوسطى، والتى تتضمن بلاد الأرمن والكرج سكانها نصارى، وكان الروم يحثونهم باستمرار على خلع الطاعة عن المسلمين ومنازلتهم، وكانوا يمدونهم بما يحتاجون من السلاح والمقاتلين واستمر الوضع بهذا الشكل فى العهد الأموى والعهد العباسى الذى سيطر السلاجقة فى نهايته على أكثر جهات القوقاز عام ٤٦٥هـ.

المغول:

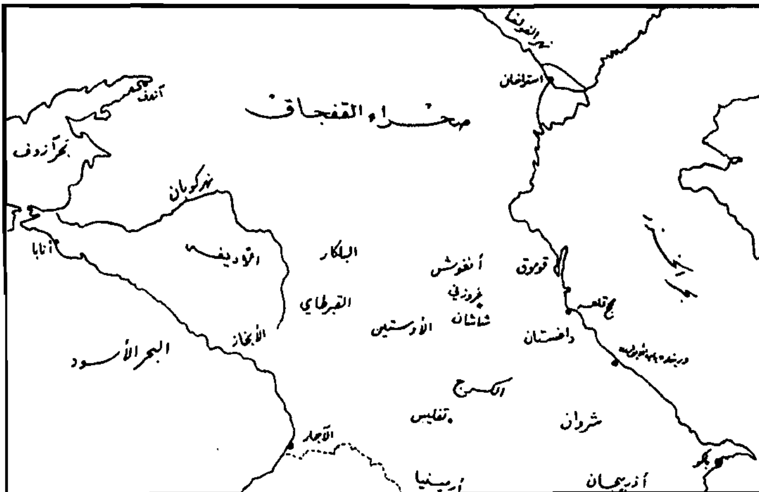
ثم جاء المغول فسيطروا على كل أجزاء القوقاز التى كانت من نصيب أسرة جوجى بن جنكيز خان، ولكن برغم دخول أسرتهم فى الإسلام إلا أنهم كانوا حديثى العهد به؛ ولذلك لم يعملوا على نشر الإسلام فى جهات القوقاز، بالإضافة إلى انشغالهم بالحرب مع الدولة الإيلخانية على حدود القوقاز والتى

ضمت الكثير من جهات القوقاز.

العثمانيون والفرس:

بدأ العثمانيون يمدون نفوذهم إلى بلاد القوقاز والقرم وخاصة بعدما استفحل الخطر الروسى والذى أخذ يبتلع بلاد التتر المسلمين فأوقفتهم الدولة العثمانية وكانت فى صراع مع الفرس على القوقاز، فقد كان الصفويون يضمون أكثر جهات القوقاز، فأخذ العثمانيون يأخذون الجزء تلو الآخر من الصفويين، وخاصة وأن الصفويين شيعه يجبرون السكان فى بعض الأحيان على اعتناق المذهب الشيعى، وقد تمكنوا من فرضه على أذربيجان، فأوقف العثمانيون المد الشيعى فى البلاد.

كانت هناك بعض القبائل التى لم تدخل بعد فى الإسلام مثل الشركس وغيرهم فبدأ الإسلام ينتشر انتشارًا كبيرًا فى جهات القوقاز فى عهد العثمانيين، فاعتنقه القبرطاى والأديغة والأبخاز وجزء من الأوستين والشيشان والأنغوش، بينما احتفظ أكثر الأرمن بنصرانيتهم، وأصبح المسلمون فى القوقاز أكثرهم من السنة، وقد عمل العثمانيون على تقريبهم فازداد القوقازيون ميلاً للعثمانيين وفضلوهم على الروس النصارى والفرس الشيعة.



قبائل القوقاز

وبرغم ذلك كان الفرس كثيرًا ما يقوى أمرهم فيضمون أجزاء واسعة من القوقاز، باعتبارها من أملاكهم وأن العثمانيين قد اقتطعوها منهم، وفى نفس الوقت بدأ الروس يركزون توجهاتهم نحو القوقاز حيث أنهم إذا ضموها صارت مانعًا حصينًا لهم أمام العثمانيين والفرس، ومن جهة أخرى يصلون للكرج والأرمن أبناء عقيدتهم والذين يعتبرون أنفسهم من رعايا الروس، ووصل الروس إلى صحراء القوقاز وأصبحوا على أطراف بلاد القوقاز، وكان الفرس قد استعادوا أكثر أجزاء القوقاز من العثمانيين، ثم بدأ الضعف يدب فى الفرس حيث ضعف أمر الصفويين وبدأ مير محمد الأفغانى فى السيطرة على الدولة الصفوية، فاستغل الروس الفرصة واحتلوا داغستان فانتفض العثمانيون وأسرعوا بضم أرمينيا والكرج، وهددوا بطرس الأكبر قيصر الروس بأن أى تقدم فى القوقاز سيعتبره العثمانيون إعلانًا للحرب عليهم، ثم اضطر طهماسب الثانى آخر من حكم من الصفويين أن يتنازل للروس عن داغستان وشروان التى استنجد أهلها بالعثمانيين، فتنازل طهماسب عن أرمينيا وشروان للعثمانيين وأجزاء أخرى من بلاد فارس ثم أخذ الصراع يحتدم بين العثمانيين والروس والفرس فى السيطرة على القوقاز.

الاستعمار الروسي:

وبدأ الضعف يدب فى أوصال العثمانيين والفرس، فقد اضطر العثمانيون فى عام ١١٥٢هـ فى معاهدة بلغراد أن يمنحوا بلاد القبرطاى استقلالها، وكانت روسيا قد اشترطت ذلك لتسهيل مهمتها فى السيطرة على القبرطاى والقوقاز بأكملها، وأخذ الروس فى التقدم فى بلاد القوقاز، وكان كل انتصار يحرزونه على العثمانيين أو الفرس يضمون فيه جزءًا جديدًا من بلاد القوقاز.



الجمهوريات والمقاطعات الإسلامية بالقوقاز

مقاومة أهالى القوقاز:

بعد تقدم الروس فى البلاد وتراجع العثمانيين والفرس لم يجد المسلمون فى القوقاز سبيلاً للمقاومة إلا بالاعتماد على أنفسهم بعد الله -عز وجل-، وكونوا فى عام ١٢٤١هـ حكومة فى داغستان كان أكثر أعضائها من العلماء وتولى الشيخ شامل قيادة المقاومة للاستعمار الروسى فى أنحاء القوقاز، وأرسل الشيخ محمد أمين إلى بلاد الشراكسة، وأخذ العلماء المسلمون يستحثون أهل البلاد لمقاومة المستعمر الصليبى، وأخذ المسلمون ينزلون النكبات بالروس، وخاصة وأن أهل هذه البلاد أولو بأس شديد نظرًا للطبيعة الجبلية القاسية للبلاد، وأخذوا يلقنون الروس دروسًا فى الحرب والقتال خاصة وأن روسيا كانت منشغلة بحروب القرم فى ذلك الوقت، وما إن انتهت من القرم حتى حشدت ما يربو على ٣٠٠,٠٠٠ جندى لتوطيد قبضتها على القوقاز، واستطاع الروس أن يأسروا الشيخ شامل عام ١٢٨١هـ وسيطروا على البلاد وأخذوا ينكلون بهم

ويرتكبون معهم أبشع الجرائم، خاصة وقد امتلئوا حقدًا ونقمة على أهل البلاد الذين ألحقوا بهم هزائم منكرة من قبل، بالإضافة إلى الحقد الصليبى الدائم على المسلمين، وأخذت الكثير من الأسر الشركسية والشيشانية والداغستانية وغيرها تهاجر إلى الأمصار الإسلامية لشدة وطأة المستعمرين الروس عليهم، واستقبل العثمانيون بعضهم ووضعوهم على جبهات القتال الأوروبية حيث أبدوا شجاعة فائقة وبأسًا شديدًا فى الحرب مع أعداء الإسلام.

وعندما عقد مؤتمر برلين عام ١٢٩٥هـ أجبرت أوروبا العثمانيين على نقل الجنود والأهالى ذوى الأصول القوقازية من الجبهات والحدود، نظرًا لما سببوه من متاعب للصليبيين ولمقاومتهم الشديدة لهم فأسكنت الدولة العثمانية الكثير منهم فى جهات الشام والعراق ومن بقى فى القوقاز تحت الاستعمار الروسى ذاق الويلات من الروس.

وأخل الروس بوعودهم للمسلمين بعد سيطرة الشيوعية على روسيا عام ١٣٣٦هـ وأخذوا يقسمون بلادهم إلى كيانات صغيرة، حتى يفرقوا شمل الشعوب القوقازية، وعندما قامت الحرب العالمية الثانية فضلت أكثر الشعوب القوقازية الاستعمار الألمانى على الاحتلال الروسى الغاشم، وتعاون بعضها مع الألمان وما إن انهزمت ألمانيا فى الحرب واستتب الأمر للروس حتى اتهمت روسيا أكثر شعوب القوقاز بالخيانة، ونفت الكثير منهم إلى سيبيريا وقازاقستان مثل شعوب الشيشان وغيرها، وكذلك فعلت مع التتر؛ فقد صب الطاغية ستالين جام غضبه وحقده على المسلمين، وقتل الكثير من المسلمين فى عهده وهلك الكثير فى مجاهل سيبيريا حتى بلغ عدد الموتى المسلمين فى عهده ما يزيد عن ١١ مليون مسلم من كافة أنحاء الاتحاد السوفيتي، ورجع بعض هذه الشعوب إلى مواطنهم الأصلية وهاجر البعض إلى تركيا، والأمصار الإسلامية وتدفق

المستوطنون الروس على هذه الجهات لتغيير التركيبة السكانية فيها كما جعلوا معظمها يتبع جمهورية روسيا الاتحادية وجمهورية أوكرانيا الاتحادية، وفيما يلى أهم جمهوريات ومقاطعات القوقاز ذات الحكم الذاتى فى روسيا الاتحادية..

داغستان:

وتعنى بلاد الجبل، وهى جمهورية ذات حكم ذاتى تابعة لروسيا الاتحادية حتى الآن وعاصمتها محج قلعةوبها مدينة دربنت (باب الأبواب).

أوستينيا الشمالية:

وهى جمهورية ذات استقلال ذاتى، وعاصمتها مدينة أودجو نيكيرزى وقد قسم الروس أوستينيا إلى شمالية تتبع روسيا الاتحادية، وجنوبية تتبع جمهورية جورجيا الاتحادية، وذلك لأن الإسلام انتشر فى أوستينيا الشمالية فخاف الروس من أن ينتشر فى باقى بلاد الأوستين، ففصلت أوستينيا الجنوبية وألحقتها بجورجيا ذات الأغلبية النصرانية.

قباردیا بلكاريا:

وهى جمهورية ذات استقلال ذاتى تتبع روسيا الاتحادية، وتتكون من عنصرين هما القبرطاى ذوى الأصول الشركسية والبلكار ذوى الأصول التركية، وكان ستالين قد اتهم البلكار بالخيانة فى الحرب العالمية الثانية والتواطؤ مع الألمان، ونفاهم إلى سيبيريا ثم ثبتت براءتهم وعاد الكثير إلى وطنهم.

قراتشاى الشركسية:

وهى مقاطعة ذات استقلال ذاتى تتبع جمهورية روسيا الاتحادية، وتتألف من عنصريين هما القراتشاى وهم من أصول تركية، والشركس، وكان القراتشاى من الذين اتهمهم ستالين بالخيانة والتحالف مع الألمان، ونفوا إلى مجاهل سيبيريا ثم عادوا إلى وطنهم بعدما تبينت براءتهم.

الأديغة:

وهى مقاطعة ذات استقلال ذاتى تابعة لروسيا الاتحادية وسكانها ذوو أصول شركسية.

الشيشان – انغوشيا:

كانت جمهورية ذات استقلال ذاتى فى روسيا الاتحادية، وتتكون من عنصرين هما الشيشان والأنغوش وقد دخلا فى الإسلام فى العهد العثماني، وكان الشيشان من أبسل المقاومين للاستعمار الروسى، وكان لهم دور كبير فى القتال مع الشيخ شامل، وقد استغرقت روسيا عشرات السنين فى احتلال بلادهم، كان الشيشانيون من المتهمين بالخيانة ومساعدة الألمان فى الحرب العالمية الثانية، ونفوا إلى سيبيريا ثم عادوا بعد موت ستالين، وكما رأينا تولد وترسخ فى كل شعوب القوقاز والتتر الكره الشديد للروس حتى الآن مما عانوه منهم على مر تاريخهم، وكان الشيشان من أشد هذه الشعوب كراهية وبغضًا للروس فاستغلوا فرصة انحلال الاتحاد السوفيتى عام ١٤١١هـ وأعلن الشيشان انفصالهم عن روسيا بينما ظل الأنجوش تابعين للروس خوفا من بطشهم، وكذلك باقى الجمهوريات والمقاطعات ذات الاستقلال الذاتى التابعة لروسيا الاتحادية من قوقاز وتتار.

ولم يعترف الروس باستقلال الشيشان واعتمدوا فى البداية على مساعدة المعارضة فى الشيشان، وأمدوها بالسلاح حتى تنتشر الفتنة فى البلاد وتجد روسيا الطريق ممهدًا لها للسيطرة على البلاد، ولكن خاب ظنها فقد حطم الشيشانيون بقيادة جوهر دودايف المعارضة، فامتلأ رئيس روسيا بوريس يلتسين بالحقد الشديد والغيظ، وخاصة وأن استقلال الشيشان عن روسيا سيشجع بقية شعوب القوقاز والتتار على الاستقلال عن روسيا، فداهمت الجيوش الروسية الشيشان عام ١٤١٤هـ وحاولت دخول غروزنى العاصمة فمنيت القوات الروسية بهزيمة منكرة وتناثرت أشلاء جثث الجنود الروس فى شوارع غروزني.

بعد الهجوم الفاشل علت أصوات المعارضة ليلتسين واستبداده فى روسيا والهجوم الفاشل على الشيشان الذى دفع الجيش الروسى ثمنه باهظًا، ولكن يلتسين أصر على موقفه وعناده وعاود الهجوم على غروزنى وفى هذه المرة اتبع الجيش الروسى سياسة المدينة المحترقة بتدمير كل المبانى والمنشآت فى غروزنى، حتى لا يترك مكانا تحتمى به المقاومة، واحترقت معامل النفط فى غروزنى واستطاع الروس السيطرة عليها بعد أن تحولت إلى حطام ومات الكثير من سكانها الذين لم يبال الروس بموتهم، فهم من جهة يقتلون المسلمين ومن جهة أخرى يتقدمون فى بلادهم.

وأخذت المقاومة الشيشانية تشتد وهدد الرئيس الشيشانى جوهر دودايف بنقل الحرب إلى داخل روسيا والقيام بالعمليات الاستشهادية فيها وقال: أن الشعب الشيشانى لو خير بين الموت والبقاء تحت الاحتلال الروسى لفضل الموت على أن يستعبده الروس.

ولكن الروس لم يعطوا لتحذيراته أى اهتمام وبرز قائد العمليات الفدائية **شامل باساييف**، الذى قتل الروس فى غزوهم للشيشان كل عائلته، وتمكن من السيطرة على إحدى المستشفيات فى داغستان للضغط على الروس فى إيقاف الغزو الغاشم على الشيشان، ولكن الروس لم يبالوا بالمرضى فى المستشفى وحاولوا اقتحامها لكنهم فشلوا فشلاً ذريعًا فى اقتحامها، وواصل المجاهدون الشيشان عملياتهم ضد الروس حتى أنهكوهم مما دعا أحد القادة العسكريين الروس للتصريح بأن الحرب فى أفغانستان تعتبر نزهة مقارنة بما يلاقيه الروس فى الشيشان.

وفى إحدى الهجمات الجوية على المقاومة الشيشانية استشهد القائد جوهر دودايف وحزن الشعب الشيشانى لذلك أشد الحزن، بل والكثير من المسلمين المتابعين لأخبار إخوانهم من جميع أنحاء العالم، وظن الروس أنهم بذلك قد تمكن لهم

الأمر، وأن الشعب الشيشانى سيرفع الراية البيضاء بعد موت قائدهم، ولكنهم أخطئوا فى ذلك أيضًا فما زاد خبر استشهاد دودايف المجاهدين إلا عزيمة وإصرارًا على التخلص من الاحتلال الروسى، وأخذوا يطورون هجماتهم على الروس وأخذت جثث الجنود الروس تتدفق على روسيا، وأخذ وزير الدفاع الشيشانى أصلان مسخادوف يمطر القوات الروسية بهجمات المجاهدين والتى يقود أكثرها القائد المحنك شامل باساييف، وألحق بالروس خسائر فادحة، ثم واصلت المقاومة الشيشانية هجماتها على القوات الروسية المرابطة فى غروزنى حتى استطاعت دخول المدينة والسيطرة عليها عام ١٤١٦هـ وقتل فى الهجوم أكثر من ألف جندى روسى، وتيقنت روسيا تمامًا بأن وجودها فى الشيشان قد ألحق بها الفضائح والخزى من جميع أنحاء العالم وفى روسيا نفسها.

فاتفقت مع المجاهدين الشيشانيين أن تنسحب من الشيشان على أن ترجى عملية استقلال الشيشان إلى استفتاء يجرى عام ١٤٢٢هـ وقامت الحكومة فى الشيشان من أبنائه وأجريت الانتخابات الرئاسية وفاز بها أصلان **مسخادوف** فحاولت روسيا إيجاد سبل جديدة لإلغاء فكرة الاستقلال الشيشانية فعادت واحتلت الشيشان ولكن الشعب الشيشانى واجه الغزاة بالحسم والإصرار على موقفه بالاستقلال التام عن روسيا، واغتالت روسيا اصلان مسخادوف، في ٨ مارس ٢٠٠٥، واختار المجاهدون سعيدو لاييف خلفًا له، الذي تعهد بمواصلة الجهاد.

ما وراء القوقاز

يطلق ما وراء القوقاز على جمهوريات أذربيجان وجورجيا وأرمينيا وهى جمهوريات اتحادية كانت تكون مع اثنتى عشرة جمهورية أخرى ما كان يسمى

الاتحاد السوفيتى ثم بانحلال الاتحاد السوفيتى عام ١٤١١هـ استقلت هذه الجمهوريات الثلاث.

١- **جورجيا**: وكان يطلق عليها بلاد الكرج، وعاصمتها مدينة تفليس وتتضمن هذه الجمهورية جمهورية أبخازيا ذات الاستقلال الذاتى وعاصمتها مدينة ساخومى، ويدين معظم أهلها بالإسلام، وجمهورية آجاريا وعاصمتها مدينة باطومى وأغلبها من المسلمين، ومقاطعة أوستينيا الجنوبية وأغلبها من النصارى، وقد فصلتها روسيا عن أوستينيا الشمالية لخوفها من انتشار الإسلام فيها بعدما انتشر فى أوستينيا الشمالية.

ويشكل المسلمون فى جمهورية جورجيا حوالى ٢٠٪ من السكان، وقد كانوا أكثر من ذلك قبل أن تصل أقدام الروس للمنطقة فهاجر عدد كبير منهم إلى الأمصار الإسلامية وخاصة من الأبخاز و الآجار بالإضافة إلى من أبيدوا ومن نفوا إلى الاتحاد السوفيتى السابق ومجاهل سيبيريا.

وعندما استقلت جورجيا عام ١٤١١هـ تولى رئاستها **إدوار شيفرنادزه** وزير خارجية الاتحاد السوفيتى سابقًا، وبرزت أمامه عدة مشكلات فى المناطق ذات الحكم الذاتي، وظهرت النزعات الانفصالية فيها ولكن صب كل اهتمامه على المسلمين فى أبخازيا، فعندما جاءه وفد من أبخازيا لتحديد العلاقة بين جورجيا وأبخازيا بعد انحلال الاتحاد السوفيتى بادر شيفرنادزه بإرسال الجيش الجورجى إلى أبخازيا واحتل عاصمتها ساخومي، وألغى الحكم الذاتى فيها فعم الغضب فى أرجاء أبخازيا وانطلق المجاهدون الأبخاز يقاومون الوجود الجورجى النصرانى فى البلاد وأخذ المسلمون يلحقون بهم الهزائم المتوالية حتى تمكنوا من طردهم من أبخازيا عام ١٤١٣هـ وكانت روسيا ترى كل هذا وتقف موقف المتفرج حيث تريد روسيا أن تركع جورجيا وتطلب منها العون وتزيد من نفوذها فيها وقد عقدت مفاوضات بين الأبخاز والجورجين وحتى الآن لم يتوصلوا إلى شيء.

٢- أذربيجان:

وعاصمتها باكو وهي غنية بآبار البترول، وغالبية السكان من الشيعة حيث تبلغ نسبتهم ٧٠٪ من المسلمين بينما السنة ٣٠٪ وتتبع لأذربيجان جمهورية ناختشيفيان ذات الحكم الذاتى والتى تقع بين أرمينيا وتركيا، وكذلك مقاطعة ناغورنو قرة باخ واستقلت أذربيجان عام ١٤١١هـ.

٣- أرمينيا:

وعاصمتها بريفان وأغلبية سكانها من النصارى ونسبة المسلمين فيها ١٢٪ واستقلت عام ١٤١١هـ.

الصراع الأذربيجانى الأرميني:

نشب الصراع بين الأذربيجانيين والأرمن بسبب إقليم ناغورنوقرة باخ التابع لأذربيجان والذى تقطنه أغلبية أرمينية وتطالب أرمينيا بضمه إلى أراضيها وقد وقعت مصادمات بين الطرفين فى أواخر العهد السوفيتي، وقد ظهر تحيز الروس للأرمن، وعندما استقلت الجمهوريتان اندلع القتال بينهما، وامتد ليشمل طول الحدود بينهما، وأعان الروس الأرمن، وخاصة وأن أذربيجان قد رفضت الانضمام إلى الكومنولث الروسى لانحيازه الدائم للأرمن واستطاع الأرمن أن يحرزوا انتصارات كبيرة على الأذربيجانيين وخاصة وأن روسيا تمدهم بأحدث الأسلحة والوسائل الحربية ووقعت معهم اتفاقية للدفاع المشترك، واحتل الأرمن إقليم ناختشيفيان وسيطروا على أكثر من ١٠٪ من مساحة أذربيجان التى وقع الخلاف بين قادتها، واضطرت للانضمام لدول الكومنولث الروسى كى تتقى شر الروس، وعمد الأرمن إلى سياسة التطهير العرقى وطردوا المسلمين من الأراضى التى احتلوها فى أذربيجان، والعالم يراقب ذلك ويسكت على ما تفعله أرمينيا فى أذربيجان، وطالبت الأمم المتحدة أرمينيا بسحب قواتها

من أذربيجان ولكنها لم تصغ إليها، وتوسطت روسيا لإنهاء النزاع الأذربيجانى الأرمينى وذلك لتزيد من نفوذها فى البلدين وتستفيد من موارد أذربيجان فى النفط وبرغم وقف إطلاق النار بين البلدين إلا أن الوضع ما زال متجمدًا بين البلدين ولم تنسحب أرمينيا من الأراضى التى احتلتها فى أذربيجان وكل الدلائل تشير إلى حرب مرتقبة بين البلدين.

* * *

الباب السابع

جنوب شـــرق آســـيا

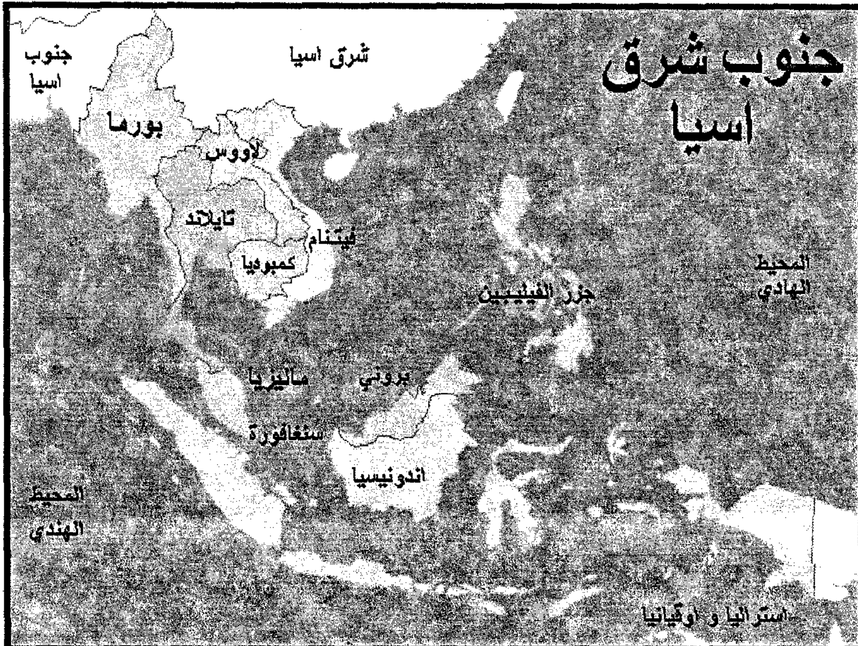
(إن الدين لله وإن الإله الذى أعبده هو إله جميع البشـر على اختلاف ألوانهم)

لابو لابو

أحد ملوك جزر الفليبين

جنوب شرقى آسيا

وصل الإسلام إلى جهات جنوب شرقى آسيا عن طريق الدعوة والتجارة ولم يدخل الفاتحون هذه البلاد، ولكن انتشر الإسلام عن طريق الدعوة فيها حتى عم كل جزرها، وجاء البرتغال والإسبان ومن بعدهم الهولنديون والإنكليز والأمريكان ممتلئين بالحقد الصليبى على المسلمين بعد القضاء عليهم فى الأندلس ففوجئوا بالإسلام يسود هذه المنطقة، فأخذوا يصبون على المسلمين جام حقدهم وكرههم وارتكبوا أبشع الجرائم والمجازر فى المسلمين، وبقيت بعض الديانات الوثنية إلى جانب الإسلام كما حدث فى الهند والصين؛ وذلك لحداثة عهد الحكام هناك بالإسلام، ولكن برغم ذلك عندما ظهر الحقد الصليبى على الإسلام تأججت قلوب مسلمى هذه المناطق وأخذوا يقاتلون العدو الغاشم الذى نذر نفسه لإبادة المسلمين، وضربوا أروع الأمثلة فى الفداء والجهاد فى سبيل الله كما سنعلم بإذن الله فى هذا الباب والذى يتضمن مناطق إندونيسيا وماليزيا والهند الصينية والفلبين.



جزر الهند الشرقية

ماليزيا

كان للتجارة الدور الرئيسى فى وصول الإسلام إلى ماليزيا فى القرن السابع الهجرى، وكانت مالاقا من أكثر المناطق التى لعبت دورًا فى نشر الإسلام فى جزر الهند الشرقية (إندونيسيا، ماليزيا، الفليبين، وغيرها) فقد اعتنق ملكها الإسلام فى القرن السابع الهجرى، وأصبحت أول دولة إسلامية فى هذه المنطقة تعمل على نشر الإسلام، بل وغدت المركز الرئيسى لنشر الإسلام فى جزر الهند الشرقية وخضعت فى فترة من الفترات لمملكة تايلاند وكانت تدفع لها إتاوة فى مقابل استقلالها الذاتى، ثم ما لبث أن جاءها أمير صينى مسلم يدعى تشنغ فى عام ٨٠٨هـ وأبدى استعداده لحمايتها ضد أى تدخل تايلاندى، فأعلن حاكمها استقلاله عن تايلاند وأعد جيوشه لفتح ونشر الإسلام فى المناطق المجاورة له وتوارد على حكم مالاقا سبعة حكام من أشهرهم (منصور باشا) وقد تلقب بلقب باشا تكريمًا للأتراك، ولم يلقب بسلطان احترامًا للعثمانيين، واعتبارهم ممثلى الخلافة واستطاع أن يفتح شبه جزيرة الملايو بأكملها حتى حدود بورما، وامتد ملكه إلى أجزاء كبيرة من سومطرة واعتنق فى عهده معظم الشعب الملاوى الإسلام ووصل إلى دولة بروني.

الاستعمار:

البرتغاليون:

حاول البرتغاليون احتلال مالاقا عام ٩١٥هـ، ولكنهم فشلوا فأعادوا الكرة وقبل الهجوم قال لهم قائدهم البوكرك (الأمر الأول هو الخدمة الكبرى التى سنقدمها للرب عندما نطرد المسلمين من هذه البلاد، ونخمد نار هذه الطائفة المحمدية كى لا تعود للظهور بعد ذلك أبدًا، وأنا شديد الحماسة لمثل هذه

النتيجة، فإذا استطعنا الوصول إليها فسيترك المسلمون الهند كلها لنـا، إن غالبيـة المسلمين وربما كلهم يعيشون على تجارة هـذه الـبلاد، ولقـد اغتنـوا، وأصـبحوا أصحاب ثروات ضخمة، ومالاقا هى مركزهم الرئيسي، فمنها ينقلون كل عـام التوابل والأدوية إلى بلادهم دون أن نستطيع منعهم، فإذا تمكنا من حرمانهم من هذه السوق القديمة لا يبقى لهم ميناء واحد أو محطة واحدة مناسبة فى كل هـذه المنطقة ليستمروا فى تجارتهم، وأؤكد لكم أنـه إذا اسـتطعنا تخلـيص مالاقـا مـن أيديهم فستنهار القاهرة، وبعدها تنهار مكة نهائيًّا، وعلى البندقية (فينيسيا) بعـد ذلك أن ترسل تجارها إلى البرتغال، إذا أرادت شراء التوابل).

واستطاع البرتغاليون احتلال مالاقا عام ٩١٧هـ فعمت الفرحة فى أوروبـا ودعا البابا إلى إقامة قداس شكر فى أوروبا، وأخذ البرتغاليون ينكلون بالمسلمين ويقتلون الآلاف، وكذلك أخذت الثورات تعم الملايو على البرتغاليين بل ازداد انتشار الإسلام كرد فعل للمعاملـة السـيئة للسـكان، وأخـذ السـكان يقـاومون الاستعمار الصليبى الغاشم وانتقل المركز الرئيسى للدعوة من مالاقـا إلى آتشـية فى جزيرة سومطرة.

الهولنديون:

عندما احتل الإسبان البرتغال عـام ٩٨٩هــ أخـذت هولنـدا تسـتولى علـى الكثير من مستعمرات البرتغال، وكان فيها الملايـو وجـاوة وسـومطرة وغيرهـم واستطاعت أن تطرد البرتغاليين من مالاقا عـام ١٠٥٢هــ وكانـت قـد أنشـأت شركة الهند الشرقية الهولندية عام ١٠١١هــ بـنفس أسـلوب إنكلـترا فـى الهنـد واتبعت نفس أسلوب البرتغال فى قهر وإبادة المسلمين.

الإنكليز:

بدأ الضعف يدب فى امبراطورية هولندا وخاصة فـى حروبهـا مـع فرنسـا

فاستغلت إنكلترا الفرصة وأخذت تمد نفوذها إلى جزر الهند الشرقية ووصلت إلى المنطقة عام ١٠٢٣هـ وضمت مالاقا عام ١٢٠٧هـ، ولكنها أعادتها إلى هولندا عام ١٢٣٣هـ ثم ما لبث أن عقدت معاهدة مع هولندا عام ١٢٣٩هـ اعترفت فيها هولندا بسيادة إنكلترا على مالاقا وشبه جزيرة الملايو، وأخذت تمد نفوذها أكثر فأجبرت سلاطين الإمارات فى الملايو وصباح وبروناى وساراواك وغيرها على وجود مندوب بريطانى يدير البلاد دون أن يتدخل فى الأمور الدينية أو العادات...

وأصبحت هذه المناطق تحت الحماية البريطانية واتبع الإنكليز أسلوبًا يهدف إلى تغيير التركيبة السكانية فى البلاد، فدعت الهنود والصينيين للهجرة إلى الملايو والإمارات الأخرى، بشرط أن يكونوا من غير المسلمين وطورت اقتصاديات البلاد ليزيد تدفق المهاجرين البوذيين الهنادك والصينيين على البلاد، وكان لذلك أثره الكبير فى خفض نسبة المسلمين الكاسحة حتى وصلت إلى ٥٢٪ فقط وأخذت تزيد من الإرساليات التنصيرية فى البلاد وتقرب غير المسلمين وتعطيهم المناصب العالية فى البلاد.

اليابان:

ثم جاءت اليابان فى الحرب العالمية الثانية، واحتلت جنوب شرقى آسيا وفيها الأجزاء المكونة لماليزيا، ثم عاد الاحتلال البريطانى للبلاد بعد هزيمة اليابان وانسحابها، ثم أخذت بريطانيا تعرض عدة اقتراحات لشكل اتحاد الملايو حتى أعطت الاستقلال عام ١٣٧٧هـ وأصبحت مملكة يحكمها الملك اليانو دى بارتوان فى ظل دول الكومنولث البريطانى، واحتفظت إنكلترا ببعض الأجزاء لها فى جزيرة بورناى واستطاعت ولايات ساراواك وسنغافورة وشمالى بورناى

أن تستقل عن بريطانيا، وتنضم إلى اتحاد ماليزيا فى الفترة من (١٣٨٢ - ١٣٨٣هـ) ثم انسحبت سنغافورة من الاتحاد الماليزى واستقلت عام ١٣٨٥هـ حيث أدت السياسة البريطانية فيها إلى انخفاض نسبة المسلمين إلى ١٦٪ واحتفظت بريطانيا ببروناى التى استقلت عنها عام ١٤٠٤هـ ونشأت سلطنة مستقلة تمامًا و سلطانها المسلم هو أغنى أغنياء العالم وكان سوكارنو رئيس إندونيسيا يعارض دمج شمالى جزيرة بورناى فى ماليزيا لاعتبارها جزءًا من إندونيسيا، وكذلك كان للفلبين أطماع فى شمالى بورناى ولكن سرعان ما تغيرت أراء رؤساء الأنظمة فى كل من الفليبين وإندونيسيا، واعترفوا بالاتحاد الماليزى وتكون اتحاد دول جنوب شرقى آسيا عام ١٣٨٧هـ ويتكون من إندونيسيا وماليزيا وسنغافورة والفليبين وتايلاند.

وكان تانكو عبد الرحمن أول رئيس وزراء لاتحاد ماليزيا ثم حدثت اضطرابات فى البلاد فى عام ١٣٨٩هـ واستقال فيها من منصبه ثم جاء بعده تون عبد الرزاق ثم تولى مكانه حسين بن عون جعفر ثم تولى سرى محادير محمد عام ١٤٠١هـ.

سياسة ماليزيا تجاه مشكلة فطاني:

كان المجاهدون الفطانيون قد بدءوا نشاطهم العسكرى عام ١٣٨٩هـ وكان إخوانهم فى ماليزيا يعينونهم، وكان الفطانيون فى بعض الأحيان يلجأون إلى ولاية كيلانتون فى ماليزيا حيث أكثر أهلها يؤيدون الحزب الإسلامى بينما كان رئيس الوزراء الماليزى تانكو عبد الرحمن يرفض إعانة الفطانيين؛ لأن أمه تايلاندية، ثم جاء من بعده تون عبد الرزاق الذى فاجأ المسلمين بتصريحه أنه سيقمع أى حركة يقوم بها المجاهدون فى تايلاند، وبدأت الحكومة الماليزية والتايلاندية فى التعاون بينهما، حيث سببت المعارضة الشيوعية المشاكل لماليزيا وسبب المجاهدون فى فطانى المتاعب لتايلاند، فأخذت تايلاند توقف مساعداتها للشيوعيين وكذلك ماليزيا بالنسبة للمجاهدين؛ ولذلك قل أثر المعارضة

والمجاهدين على حد سواء وطرد الحزب الإسلامى من الجبهة الوطنية الماليزية عام ١٣٩٧هـ بسبب تأييده للمجاهدين فى فطانى وتفاهمت الحكومة الماليزية مع الشيوعيين بينما عمل التايلانديون على قمع المجاهدين فى تايلاند.

ويوجد صراع فى ماليزيا بين الملايويين الذين يشكلون ٥٦٪ من السكان والمواطنين من أصل صينى، والذين يشكلون ٣٢٪ من مجموع السكان، وكذلك الهنود الذين يشكلون ١٠٪.

إندونيسيا

وصل الإسلام إلى إندونيسيا عن طريق الدعوة والتجارة، وأخذ ينتشر انتشارًا كبيرًا فى جميع أنحائها وظهرت الكثير من الإمارات الإسلامية فيها وكلمة إندونيسيا تعنى جزر الهند، حيث أطلق المستعمرون عليها وعلى ما جاورها من جزر أخرى جزر الهند الشرقية.

الاستعمار الصليبى:

عندما احتل البرتغاليون مالاقا عام ٩١٧هـ اتخذوها قاعدة لاحتلال الجزر الإندونيسية، وتمكنوا من بسط نفوذهم على أجزاء كثيرة منها، وكان للإسبان نفوذ فيها حيث وصلوا إلى جزيرة بورناى وجزر المولوك.

وكرد فعل طبيعى اندلعت الثورات فى الأجزاء التى احتلها الصليبيون وقامت بينهم وبين المسلمين حروب طاحنة.

الاستعمار الهولندي:

عندما ضعف أمر البرتغاليين والأسبان وبدأت تظهر قوة الإنكليز والهولنديين، انتهز الهولنديون الفرصة للسيطرة على أكبر قدر ممكن من المستعمرات الإسبانية والبرتغالية حيث كان الأسبان يحتلون هولندا، فانطلقت

هولندا لأخذ نصيبها من التركة الأسبانية، ومن بين ما اختارته من التركة جزر الهند الشرقية، وأوهمت السكان المسلمين أنها جاءت لطرد البرتغاليين الذين أكثروا من الظلم والبطش بالسكان، وأخذ الهولنديون يزيحون البرتغاليين عن مواقعهم فى جزر الهند الشرقية، ويعقدون الأحلاف مع المسلمين الذى خدعوا فى الهولنديين، واتبعت هولندا أساليب أخرى لبسط نفوذها على الجزر بإنشاء شركة تجارية فى الجزر أطلقت عليها شركة الهند الشرقية الهولندية عام ١٠١١هـ، ثم بدأت فى الحروب المباشرة مع الممالك الإسلامية فى الجزر، وأخذت تتوغل فى البلاد وتسيطر على المملكة تلو الأخرى، وساعدها فى ذلك تفرق المسلمين وكثرة ممالكهم مما زاد فى ضعفهم.

ثم ضعف أمر هولندا بسبب حربها مع الفرنسيين الذين استطاعوا أن يحتلوا بلادهم عام ١٢١٠هـ فأسرعت إنكلترا واحتلت مخازن الشركة الهولندية فى الجزر الإندونيسية، وعندما ضعفت فرنسا واستطاعت هولندا أن تستقل عنها، نشبت بينها وبين الإنكليز الحروب، ثم اتفقتا على أن تعود لهولندا أكثر أملاكها فى جزر الهند الشرقية فى مقابل أن تتنازل للإنكليز عن سيلان (سريلانكا) والكاب فى جنوب أفريقيا وجزر الهند الغربية فى قارة أمريكا.

وبدأت السلطات الهولندية تحل محل الشركة الهولندية السابقة وتجددت الحروب مرة أخرى مع الممالك الإسلامية فى إندونيسيا وعملت على خداع السلاطين المسلمين بإبقائهم فى مراكزهم وفى نفس الوقت تكون لها السيطرة الفعلية على البلاد.

وبعد الحرب العالمية الأولى أخذت هولندا فى تشديد قبضتها على البلاد، وزادت من الضغط على المسلمين، فأخذ المسلمون يجمعون صفوفهم ويؤسسون الهيئات والجمعيات والحركات الإسلامية والأحزاب المناهضة للاستعمار الهولندي.

أصبحت الحركات الإسلامية خطرًا كبيرًا يهدد الاستعمار الهولندى فأخذت السلطات الهولندية فى اتباع أساليب جديدة لمناهضة المسلمين، وتحويل جهودهم إلى مجالات أخرى فشجعت التيار الشيوعى بما يحمله من أفكار إلحادية ودعمت أصحابه حتى يتحول النزاع بينها وبين المسلمين إلى نزاع بينهم وبين الشيوعيين، وكذلك أخذت تشجع الفساد والفنون وما يطلق عليه أعداء الإسلام التحرر لشغل المسلمين بقضايا أخرى غير التخلص من الاستعمار، كما اتبعت أسلوب الإنكليز فى دعم الفرق الضالة فدعمت القاديانيين والتى تعمل فرقتهم لصالح المستعمر.

الاحتلال الياباني:

ولم تلبث أن اندلعت الحرب العالمية الثانية واحتلت اليابان إندونيسيا عام ١٣٦١هـ فقاومهم المسلمون ووعد الحلفاء المسلمين بمنحهم الاستقلال إذا ما ساعدوهم فى الانتصار على اليابان، وبرغم تحقق ما يأمله الحلفاء وهزيمة اليابان فى الحرب العالمية الثانية واستقلالها، إلا أن الاستعمار وقف للمسلمين بالمرصاد فى منحهم الاستقلال، فبرغم إعلان الاندونيسيين قيام حكومة لهم عام ١٣٦٤هـ برئاسة أحمد سوكارنو إلا أن الحلفاء أصدروا أوامرهم للجيوش اليابانية بحفظ مواقعها حتى تتسلم مكانها قوات الحلفاء.

الاستقلال عن هولندا:

وأخذ الجنود الهولنديون يدخلون إندونيسيا فى حماية قوات الحلفاء البريطانية فعقد المسلمون فى أنحاء إندونيسيا مؤتمرًا فى جاكرتا عام ١٣٦٤هـ واتفقوا على التوحد تحت ظل الإسلام فى مواجهة الصليبية، وكونوا مجلس شورى لمسلمى إندونيسيا الذى يعرف باسم ما شومى، وأخذوا يقاومون الهولنديين وقوات الحلفاء، ثم عقدت اجتماعات مع ممثلى الهولنديين، كانت هولندا تعترف فى كل مرة بسلطة الحكومة القائمة على عدة مناطق فى

إندونيسيا، ولكنها ما تلبث أن تنقض عهدها وتسفك دماء المسلمين، فاشتدت المقاومة الإسلامية للهولنديين حتى اضطروا فى النهاية إلى الاعتراف باستقلال إندونيسيا عام ١٣٦٩هـ.

غينيا الجديدة:

كان الألمان يسيطرون على الجزء الشرقى من جزيرة ايريان، والذى عرف ببابوا ولما هزمت ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية ضم لأستراليا، ثم استقل وكون دولة غينيا الجديدة، وكان الهولنديون يسيطرون على الجزء الغربى من جزيرة ايريان ويعرف بايريان الغربية، فلما استقلت إندونيسيا عن هولندا عام ١٣٦٩هـ لم يتفقا بشأن هذا الجزء، فاحتفظت هولندا بسيطرتها عليه حتى استقل عن هولندا وضمته إندونيسيا عام ١٣٨٢هـ، وقد حدث تمرد فيه عام ١٣٩٧هـ يطالب بالاستقلال عن إندونيسيا والانضمام إلى الجزء الشرقي، ولكن التمرد فشل ورسمت الحدود بين إندونيسيا وغينيا الجديدة.

تيمور الشرقية:

احتفظت البرتغال فى إندونيسيا بالجزء الشرقى من جزيرة تيمور ومنطقة أوكسى ابينو فى الجزء الشمالى الغربى من تيمور، ثم استقل هذا الجزء عام ١٣٩٥هـ، فضمته إندونيسيا إليها، ولكن البرتغال دعمت المعارضة فى الجزيرة الرامية لاستقلال تيمور الشرقية، وخاصة أن أكثر أهلها من النصارى الكاثوليك واستمرت مقاومة الإندونيسيين حتى عام ١٣٩٧هـ، ورفضت الكثير من دول العالم ضم إندونيسيا لتيمور الشرقية، وكذلك الأمم المتحدة واستطاعت تيمور الشرقية أن تحصل على استقلالها مؤخرًا بدعم من أوربا وأمريكا وأستراليا.

الأوضاع الداخلية:

عندما استقلت البلاد تسلم أحمد سوكارنو رئاسة البلاد واستبد بها وضيق

الخناق على الحركات الإسلامية، وكان ميالاً للشيوعية وقد ظهرت فى البلاد ثورتان للشيوعية الأولى قبل استقلال إندونيسيا، وكانت عام ١٣٦٧هـ وارتكبت جرائم تقشعر لها الأبدان لإرهاب الناس وإجبارهم على التسليم بها ولكن الله بدد آمالهم وقمعها المسلمون، لما تتصف به الشيوعية من إلحاد وكفر وأعدم قادتها ليكونوا عبرة لمن يعتبر، ثم قامت الثورة الشيوعية الثانية عام ١٣٨٥هـ والتى كان يدعمها الرئيس نفسه، ولكن وزير الدفاع استطاع أن ينجو ويقود القوات المسلحة لردع الثورة وقضى عليها.

واضطر سوكارنو أن يتنحى عن الحكم، ويتسلم بعده سوهارتو رئاسة إندونيسيا وللأسف الشديد فتح الأبواب على مصراعيها للإرساليات النصرانية وأعطاها صلاحيات لم يعطها للدعاة المسلمين أضف إلى ذلك الإمكانيات المادية التى تتمتع بها الإرساليات النصرانية ودعم اتحاد الكنائس العالمى له والدول الغربية، فى حين أن الدعاة المسلمين إمكانياتهم المادية قليلة، ويرجع موقف سوكارنو وسوهارتو من الإسلام إلى أنهما من جماعة ابنجان الضالة التى تحاول الجمع بين الإسلام والهندوسية، ونجحت الإرساليات التنصيرية فى تحقيق بعض النجاحات بالذات فى الأجزاء التى يقطنها وثنيون.

الفلبين:

وصل التجار والدعاة المسلمون إلى الفلبين فى القرن الثالث الهجرى، وفتح الله قلوب سكان هذه الجزر للإسلام، ودخلوا فى دين الله أفواجًا وكان انتشار الإسلام فى الجزر الجنوبية على نطاق أوسع من الجزر الشمالية، ومن أشهر الدعاة المسلمين فى الفلبين شريف كابو بخسوان الذى نشر الإسلام فى جزيرة ميناداو وأرخبيل صولو، وكذلك كريم المخدوم وهو من أصل عربى، فقد نشر الإسلام فى ملاقا (الملايو) ثم أبحر إلى أرخبيل صولو جنوبى الفلبين ونشر

فيها الإسلام، وجاء من بعده أبو بكر وهو عربى أيضًا قطع شوطًا كبيرًا فى الدعوة للإسلام فى أرخبيل صولو، وتزوج من ابنة سلطان صولو وورث العرش من بعده ونظم الحياة فيها على أسس إسلامية.

كانت جزر الفليبين فى ذلك الوقت مفككة وتنقسم إلى عدة إمارات وممالك، ووصل المسلمون إلى أعلى المناصب فيها، وسادوا معظم ممالكها برغم أن بعضها كان أكثر أهلها وثنيين، ولكنهم كانوا ينظرون للمسلمين نظرة احترام وتقدير وجدارة بمناصب الحكم، لما يتميز به المسلمون من شخصية مهذبة منظمة نشيطة مثقفة، وغيرها من الصفات التى ترفعهم لأعلى المناصب، ومن أشهر الممالك فى الفليبين مملكة صولو ومانيلا وغيرهما والجدير بالذكر أن مانيلا العاصمة الحالية للفليبين تعنى أمان الله مما يدل على الأثر الإسلامى العربى فى الفليبين.

الغزو الإسبانى لجزر الفليبين:

وصل الإسبان إلى جزر الفليبين عام ٩٢٧هـ بقيادة ماجلان وبأسلوبهم المعتاد فى مستعمراتهم نزلوا البلاد وأعلنوا فرض الديانة المسيحية على أهل البلاد، وكان ذلك فى الجزر الشمالية حيث لم يتمكن من ذلك فى الجزر الجنوبية، واتفق ماجلان مع حاكم جزيرة سيبو على أن يتنصر فى مقابل دعمه للسيطرة على كافة جزر الفليبين باسم أسبانيا، ثم اتجه إلى إحدى الجزر التى يحكمها المسلمون، ولكن المسلمين ردوا لهم الصاع صاعين، وأجلوهم عن الجزر برغم التفوق الأسبانى فى الأسلحة فأراد ماجلان أن يتبع سبيلاً آخر لإخضاع هذه الجزر، فذهب إلى ملكها المسلم لابولابو وقال له:(إننى باسم المسيح أطلب منك التسليم ونحن العرق الأبيض أصحاب الحضارة أولى منكم بحكم هذه البلاد) فرد عليه لابولابو (إن الدين لله وإن الإله الذى أعبده هو إله جميع البشر على اختلاف ألوانهم) ثم قتل ماجلان بيده، ودمر فرقته، ورفض تسليم جثته

للإسبان، فانسحب الإسبان من الفليبين عائدين إلى أسبانيا، بعد أن فقدوا معظم سفنهم ورجالهم فيها.

ثم توالت الحملات الصليبية الأسبانية على جزر الفليبين، فبعثت أسبانيا ٤ حملات كان على رأس أحدها روى لوبيز، وهو الذى أطلق عليها الفليبين نسبة إلى ملك أسبانيا فيليب الثاني، ولكن هذه الحملات الأربع قد رست على جزيرة ميندااو والتى يقطنها المسلمون فشردوا الأسبان الذين أظهروا حقدهم الصليبى الشديد على المسلمين، ثم كان الغزو الأسبانى الجاد للفليبين عام ٩٧٣هـ وأعلنوا سياستهم الرامية لتنصير أهل البلاد، واستطاعوا أن يضموا الجزر الشمالية من الفليبين، بينما فشلوا فى احتلال الجزر الجنوبية مثل جزيرة ميندااو وأرخبيل صولو، التى يسيطر عليها المسلمون، وكان الأسبان يطلقون على المسلمين منذ أن عرفوهم فى الأندلس لفظ المورو أى السمر، نسبة إلى أن العرب والبربر يمثلون معرفتهم الأولى بالمسلمين.

وشدد الأسبان من قبضتهم على الأجزاء التى احتلوها، وأخذوا يجبرون السكان على التنصير ويبيدون المسلمين، وفى نفس الوقت أساءوا معاملة السكان وتعالوا عليهم، فكرههم السكان واندلعت الثورات فى البلاد ومن أهمها الثورات فى عام ١٢٩٠، ١٣١٤هـ، ثم اشترت الولايات المتحدة الفليبين من أسبانيا بعد أن أعطتها ٥ ملايين دولاروكان الأمريكان قد وعدوا الشعب بمساعدته ضد الأسبان ليتخلصوا من استعمارهم، ولكنهم أزاحوا الأسبان ليبسطوا نفوذهم على البلاد وتمت معاهدة باريس التى اعترفت فيها أسبانيا بتبعية الفليبين للولايات المتحدة.

رفض الفليبينيون هذه المعاهدة وقاموا بثورة أخمدتها الولايات المتحدة عام ١٣١٩هـ وواصلت الولايات المتحدة سياسة الاضطهاد مع المسلمين بعد أن تمكن لها فى الفليبين، وأهملت مناطقهم إهمالاً كبيرًا أدى إلى انتشار الفقر والجهل والجوع بها.

حصلت الفليبين على استقلال ذاتى عام ١٣٥٣هـ ثم احتلتها اليابان عام ١٣٥٨هـ أثناء الحرب العالمية الثانية، وناضل المسلمون مع الفليبينيين ضد الاستعمار اليابانى، واستطاعوا طرد اليابانيين وحصلت الفليبين على استقلالها التام عن الولايات المتحدة عام ١٣٦٥هـ، واستمر للولايات المتحدة بعض القواعد العسكرية بها، وهى التى أعانت النظام الحاكم على المسلمين بالإضافة لمد نفوذ الولايات المتحدة فى البلاد.

بدأ المسلمون ينهضون بأنفسهم وينشئون المدارس والهيئات لتعليم أبنائهم الإسلام ونشر الوعى الإسلامى فى الفليبين، ومواجهة الجهل الذى أغرقهم فيه المستعمرون.

وجاء عهد رئيس الفليبين ماركوس الذى عمل على إبادة المسلمين والإجهاز عليهم بإيعاز من اليهود والدول النصرانية، وعلى رأسها الولايات المتحدة، فنظم ماركوس عصابات لإرهاب المسلمين ونهب ممتلكاتهم وإخراجهم من أرضهم وكان من أهم هذه العصابات عصابة الأخطبوط وعصابة الفئران اللتين توغلتا فى أراضى المسلمين، وأقاموا الجرائم الوحشية فى المسلمين من قتل وتخريب وخطف وطرد وذلك لكى يترك المسلمون أرضهم، ثم تأتى المرحلة الثانية من الخطة بإسكان نصارى الفليبين فى أراضيهم، وتسجيلها بأسماء النصارى، وقد بدأت هذه العصابات نشاطها عام ١٣٩٠هـ وأعانتها السلطات الفليبينية واشتكى المسلمون للحكومة الفليبينية فأصمت آذانها عن سماعهم، فلم يجدوا وسيلة لحمايتهم إلا بالجهاد فشكلوا جبهة تحرير مورو عام ١٣٩٢هـ ليدافع بها المسلمون عن أنفسهم فى حرب الإبادة التى يشنها الفليبينيون النصارى عليهم، واندلعت الحرب بين قوات الجيش الفليبينى ومجاهدى الجبهة فى عام ١٣٩٢هـ، وبرغم تفوق الجيش الفليبينى فى العدد والعدة التى أمدهم

بها اليهود والولايات المتحدة، إلا أن المجاهدين الذين لا يملكون إلا الإيمان والأسلحة البسيطة، استطاعوا أن يصمدوا فى وجه أعداء الإسلام وألحقوا بهم هزائم منكرة واضطرت الحكومة الفليبينية للجوء إلى التفاوض مع المسلمين.

مؤتمر طرابلس عام ١٣٩٧هـ:

عقد مؤتمر طرابلس لحل مشكلة المسلمين فى الفليبين، واتفق فيه على إعطاء الحكم الذاتى للمسلمين فى معظم الولايات الجنوبية.

وبعد إبرام المعاهدة اتضح أن ماركوس لم يدخل المفاوضات إلا ليستعد لهجوم كاسح جديد على المسلمين ضاربًا بالمعاهدات والاتفاقات الدولية عرض الحائط، وأعلنت الحكومة الفليبينية عن تخليها عن أى عهود قطعتها على نفسها تجاه المسلمين، فاندلع القتال من جديد بين قوات الحكومة المعتدية ومجاهدى جبهة تحرير مورو، وارتكب جنود ماركوس أبشع المذابح والجرائم ضد المسلمين، إلا أن المسلمين قد ثبتوا وواجهوا أعداء الإسلام ببسالة كبيرة وكبدوهم خسائر فادحة فى القوات والعتاد.

وضعف مركز ماركوس فى البلاد، وبرزت المعارضة لنظامه الاستبدادى وقتل رئيس المعارضة بنينو أكينو، فاتهم ماركوس بقتله واضطر لترك الحكم ومغادرة البلاد وانتخبت كورازون أكينو زوجة زعيم المعارضة المقتول رئيسة للبلاد، فأعلنت أنها ستعطى المسلمين حقوقهم، ولكنها لم تفعل شيئًا واستمر القتال، ثم تسلم رئاسة الفليبين الرئيس فيدل راموس وقد عملت الحكومة الفليبينية على توطين سكان شمال الفليبين النصارى فى الأماكن التى احتلتها فى الجنوب لتغير التركيبة السكانية للجزر، حيث وصلت نسبة النصارى فى جزيرة مينداناو إلى ٥٠٪ نتيجة لهجرة النصارى إليها وطرد المسلمين وإبادتهم فى الأجزاء التى تحتلها الحكومة الفليبينية.

وعملت الحكومة على شق صفوف المسلمين، فقد عقدت مع الجبهة الوطنية لتحرير مورو عام ١٤١٧هـ اتفاقا يتضمن إجراء استفتاء بعد ثلاث سنوات فى الجزر الجنوبية لتحديد ما إذا كان السكان يريدون الحكم الذاتى أم يريدون البقاء فى ظل الحكومة الفليبينية، ورفضت جبهة تحرير مورو الاتفاق لخبرتها ببراعة النصارى فى نقض العهود والغدر، وما زالت رحى الحرب دائرة بين المسلمين والحكومة الفليبينية حتى الآن.

الهند الصينية:

تمثل الهند الصينية الآن دول ميانمار، وتايلاند، وكمبوديا، وفيتنام، ولاوس وقد دخل الإسلام هذه البلاد بالدعوة، ولكنه لم ينتشر انتشارًا كبيرًا فيها، وإن كان قد انتشر فى عدة إمارات مثل أراكان.

وصل الإسلام إلى بورما (ميانمار) عن طريق التجارة والدعوة، وكانت تسمى حينئذ برمانيا، وكانت هناك مملكة قائمة فى غربها تسمى أراكان شملها الإسلام نتيجة مجاورتها للبنغال المسلمة، وامتد إلى بقية برمانيا ولكن كانت المقاومة البوذية للإسلام على أشدها لأن انتشار الإسلام هناك سيقضى على مصالح كهنة البوذية واستعان الكهنة بالملوك وأصحاب المال ضد المسلمين، وبرغم ذلك انتشر الإسلام ولكن على نطاق ضيق بسبب المقاومة الشديدة له من قبل البوذيين.

وكان المسلمون التتار قد غزوا برمانيا عام ٦٨٦هـ عن طريق الصين، وخلعوا ملكها الظالم وأعطوا الناس مطلق الحرية فى اعتناق الديانات، فدخل البعض فى الإسلام وعندما فر سوجا أخو أورانكزيب من أخيه فى الهند إلى برمانيا هو وأتباعه فاختلط بالسكان ونشر الإسلام، ولما سيطر الشيوعيون على

بورما أخذوا يضطهدون المسلمين فيها، ويشكل المسلمون فى بورما ما يقارب ٧٪ من إجمالى السكان يعيشون حياة الاضطهاد والفقر، سواء من النظام الشيوعى القائم فى البلاد أو من البوذيين شديدى الحقد على الإسلام.

تشـــامبا:

كانت إمارة تشامبا فى وسط بلاد أنام (فيتنام) وبدأ الإسلام يصل إليها عن طريق التجارة والدعاة فى القرن الرابع الهجرى، ثم ما لبث أن زوج ملك تشامبا ابنته بأحد التجار العرب، وانتشر الإسلام وعم كل الإمارة، وضمت ما حولها من أراض بلغت أقصى اتساعها عام ٨٧٥هـ، ثم دخلت تشامبا فى حرب مع إمارة فيتنام الشمالية، واستمرت حتى عام ١٢٣٨هـ توالت فيها الإبادة على مسلمى تشامبا حتى احتلت فيتنام كل أراضى تشامبا.

وأخذ السكان المسلمون الذين نجوا من الإبادة يفرون إلى البلاد المحيطة بهم، فهاجر جزء كبير إلى كمبوديا، وجزء آخر إلى لاوس، والهند الصينية، والملايو، ولقى المسلمون الذين بقوا فى فيتنام أشد أنواع البلاء من إبادة واضطهاد، وحتى عندما احتل الفرنسيون فيتنام، وكمبوديا، ولاوس، لم تقف حملات الإبادة ضد المسلمين بل أطلقوا العنان لأعداء الإسلام البوذيين فى إبادة المسلمين، بل وشاركوهم فيها عندما سيطر الشيوعيون على البلاد سواء فى فيتنام أو كمبوديا، ونكلوا بالمسلمين وأخذوا معظم مساجدهم ومدارسهم، ولم يترك للمسلمين فى فيتنام غير مسجدين أحدهما فى عاصمة فيتنام الشمالية هانوى، والآخر فى عاصمة فيتنام الجنوبية سايغون، ولا يسمحون لهم بتأدية صلاة الجمعة إلا بتصريح من الحكومة، ويلزمون المسلمين بتسجيل الحاضرين لصلاة الجمعة وكتابة عناوينهم.

هذا بالإضافة لما يعانيه المسلمون فى كمبوديا من مذابح وجرائم تقشعر لها الأبدان وهتك للأعراض، وإذلال للكرامة، وحتى الذين يحاولون الفرار إلى الدول المجاورة يموت أكثرهم فى الطريق، فسدنة النظام الشيوعى قد جعلوا الأولوية للقضاء على المسلمين وقهرهم، وتبلغ نسبة المسلمين فى فيتنام ٣٪ بينما فى لاوس لا يزيد عددهم عن عدة آلاف، وفى كمبوديا ١٤,٧٪، ومعظمهم يعود إلى أصل تشامبى، والسياسة المتبعة ضدهم -مع اختلاف وسائلها- واحدة، وحملات الإبادة سارية والتعتيم الإعلامى مستمر والشيوعيون فى الهند الصينية ماضون فى قتل وإذلال المسلمين.

فطانـــي:

تقع منطقة فطانى فى أقصى جنوب سيام (تايلانـد) على حدودها مع ماليزيا فى شبه جزيرة الملايو، وقد وصل الإسلام إليها فى القرن الخامس الهجرى واستمر انتشاره لمدة أربعة قرون، حتى أصبح المسلمون هم المسيطرون عليها ودانت لهم كل المنطقة وكانوا يتبعون إمارة مالاقا عام ٨٦٥هـ.

احتل التايلانديون البوذيون فطانى عام ٩١٧هـ ثم انسحبوا منها بسبب غزو البرتغاليين للمنطقة الذين احتلوا ملاقا.

وأقامت فطانى علاقات طيبة مع البرتغاليين واليابانين والإنكليز والهولنديين لتتقى شرهم، فكان لهم مراكز تجارية فى فطانى، ثم أعادت تايلاند الكرة على فطانى وتمكنت بعد عدة حروب من احتلالها عام ١٢٠١هـ وأخذت الثورات تعم فطانى ضد الاحتلال التايلاندي، وكان التايلانديون ينقلون أعدادًا من سكان فطانى المسلمين إلى بانغوك، ويوطنون مكانهم مواطنين تايلانديين فى محاولة لتغيير التركيبة السكانية لفطاني، وقسموا فطانى لعدة مقاطعات فى محاولة لتفريق المسلمين.

حاول المسلمون مرارًا الاستقلال عن تايلاند ولكنهم فشلوا وحاول التايلانديون تحويل الفطانيين إلى تايلانديين بأن فرضوا عليهم الزى التايلاندى واللغة والأسماء التايلاندية، ومنعوا المسلمين من الدعوة إلى دينهم.

واحتل اليابانيون فطانى والملايو فى الحرب العالمية الثانية، واتفق الإنكليز مع الأمير محمود محى الدين من الأسرة التى كانت تحكم فطانى على طرد اليابانيين، ووعدوه بإعطائه الاستقلال إذا انسحب اليابانيون من فطانى، وبرغم انتهاء الحرب وخروج اليابانيين من فطانى، إلا أن الإنكليز قد أخلوا بوعودهم ولم يعطوا المسلمين استقلالهم، بل رفضوا انضمامهم لماليزيا التى خذل حكامها فطانى فأعلن أحدهم أنه ضد التمرد فى فطاني.

وقد اتجه الفطانيون إلى الكفاح المسلح لإخراج التايلانديين من أرضهم، وكون لذلك جيش التحرير الوطنى لفطانى وبدأ نشاطه عام ١٣٨٩هـ وتبلغ نسبة المسلمين فى تايلاند ١٤٪، معظمهم من أصل فطانى يتركزون فى منطقة فطانى وحول العاصمة بانغوك.

الباب الثامن

أفريقيا

القارة الوحيدة فى العالم التى يسكنها أغلبية من المسلمين؛ ولذلك كان لها النصيب الأكبر من بطش الاستعمار الأوروبى، والذى عمل على جعلها أفقر وأجهل قارة فى العالم.

أفريقيا

من أهم ما يميز قارة أفريقيا عن غيرها من القارات أنها القارة الوحيدة التى يسكنها أغلبية من المسلمين.

وقد أشرنا فى الفصول السابقة إلى الأجزاء الشمالية من القارة التى دخلها الإسلام مبكرًا منذ عهد الخلفاء الراشدين والدولة الأموية، والتى تتمثل فى سواحل البحر المتوسط، وجزء من سواحل المحيط الأطلسى فى مراكش؛ ولذلك فى هذا الفصل لن نتعرض لدراستها مرة أخرى، ولكن سيشمل هذا الفصل المنطقة الباقية من أفريقيا والتى دخلها الإسلام بعدة طرق منها الفتوحات، والدعوة، والتجارة، والهجرة إليها، وقد لقى الإسلام إقبالاً كبيرًا من أبناء القارة؛ لأنه دين الفطرة ولما يضفيه على الإنسان من صفات حميدة، كالنظافة والأمانة، والصدق، والبشاشة، والثقافة، وحسن التعامل مع الناس، وكان لرجال الدين بصفة خاصة، وللمسلمين بصفة عامة قدر كبير من الاحترام والتقدير من سكان القارة وملوكها الوثنيين، ومن أسباب انتشار الإسلام فى القارة أيضًا بغضه للصفات الذميمة، كالرق والتفريق العنصرى الذى عامل المستعمر به أفريقيا.

لم يقف الأمر عند حد انتشار الإسلام فى الممالك الوثنية التى كانت قائمة فى ذلك الوقت، بل تكونت عدة ممالك إسلامية فى القارة، وكان بعضها قد قام على أنقاض الممالك الوثنية السابقة والآخر قام بذاته، وأخذ يتوسع على حساب الممالك المجاورة له، حتى جاء الاستعمار الصليبي، والذى عكف على محاربة الإسلام وتنصير أهله، ولكن المقاومة الإسلامية لم تهدأ فى القارة برغم القهر والتعذيب والاستعباد لأهل القارة.

وبعد حصول القارة على استقلالها ظهرت دول إسلامية يملكها مسلمون وأخرى يحكمها نصارى، برغم أن المسلمين يشكلون غالبيتها، إلا أن الاستعمار

قبل أن يرحل قد مكن للنصارى فيها وسلمهم السلطة؛ ولذلك تنفرد أفريقيا باحتوائها على دول أغلبيتها مسلمة وحكامها من غير المسلمين، وسنتناول فى هذا الباب ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الممالك الإسلامية التى تكونت فى أفريقيا وكيف كان وصول الإسلام إليها وانتشاره حتى جاءها الاستعمار الأوروبي.

الفصل الثاني: أفريقيا تحت وطأة الاستعمار الصليبي.

الفصل الثالث: الدول المسلمة المستقلة فى أفريقيا.



التظليل يوضح الدول الإسلامية فى أفريقيا

الفصل الأول
الممالك الإسلامية قبل قدوم الاستعمار الصليبى

أولاً : فى غرب أفريقيا

مملكة مالى

قامت مملكة مالى على أنقاض مملكة غانا التى سبقتها فى الظهور، وكانت مملكة غانا، وثنية وقد بدأ الإسلام يصل إليها من الشمال وانتشر بين أهلها، ووصل المسلمون فيها إلى مكانة مرموقة جعلت ملوكها الوثنيين يختارون منهم الحاشية والمقربين، ثم جاءها المرابطون من الغرب، وفتحوها وزاد انتشار الإسلام فيها بشكل كبير، ثم بدأت قبضة المرابطين تقل على البلاد مما دفع الكثير من القبائل للاستقلال، واستطاع ملوك غانا السابقون أن يعودوا للسلطة لكن فى هذه المرة كان الإسلام قد ساد فى البلاد وأصبح ملوكها من المسلمين، ثم بدأ نفوذ قبائل الماندنجو المسلمة يمتد إلى أنحاء مملكة غانا، حتى سيطروا عليها وأقاموا مملكة مالى، والتى أخذت تتوسع فى عهد مؤسسها الملك سنديانا، الذى استطاع أن يمتد بدولته من الصحراء الكبرى شمالاً إلى المحيط الأطلسى جنوبًا، ومن شمال نيجيريا (بلاد الهوسا) شرقًا إلى جبال أطلس غربًا، وحج الملك سنديانا وأخذ يعمل على نشر الإسلام فى أنحاء دولته.

وجاء من بعده ابنه منسى موسى الذى أكمل مسيرة أبيه فى التوسع، فضم مملكة صنغاى المسلمة التى تقع على نهر النيجر وبلاد التكرور فى الغرب، واستمر فى دعم الدعوة للإسلام، وانتشر الإسلام فى عهده فى جهات نيجيريا، وكانت مملكة مالى غنية بمواردها المتمثلة فى الذهب، والذى تركز وجوده فى الجهات

الجنوبية، والملح الذى ينتشر فى الجهات الشمالية من المملكة، وبدأ الضعف يدب فى المملكة بعد وفاة منسى سليمان أخو منسى موسى، فأخذت الدولة فى التفكك والانحلال واستقلت أكثر أجزائها، فانكمشت الدولة حتى لم يبق لها إلا إمارة كنجابا منشأ مملكة مالى واستمرت حتى احتلها المستعمر الأوروبي.

مملكة صنغاى

كانت مملكة وثنية، ثم أسلم أحد ملوكها وأصبحت مملكة إسلامية وكانت فى حروب مستمرة مع إمارة كانجابا التى تحكمها قبيلة الماندنجو -التى كونت مملكة مالى فيما بعد- وفى البداية كانت الغلبة لمملكة صنغاي، ثم قامت مملكة مالى وانتقمت لهزيمتها السابقة، وضمت مملكة صنغاى، وأسرت ابنى ملك صنغاي، ثم ضعفت مملكة مالى واستطاع ابنا ملك صنغاى أن يفرا ويعودا إلى صنغاى، والتف حولهما الشعب، وأخذوا يحاربون مملكة مالي، واستطاعوا أن يتحرروا من نفوذها بل وامتد الأمر إلى الاستيلاء على جزء كبير من أملاكهم، وتوسعت المملكة فشملت كل الأراضى المحيطة بنهر النيجر، وضمت مملكة موشى الزنجية، ودخلت بلاد شمال نيجيريا (إمارة الهوسا) وبلاد الماندنجو والفولانى، وأجزاء من بلاد الطوارق شمالاً، ووصلت المملكة لأقصى اتساع لها فى عهد أسكيا محمد، الذى امتد سلطان صنغاى فى عهده من بلاد الماندنجو والفولانى فى الغرب إلى أغاديس وحدود بلاد الهوسا شرقًا، ومن بلاد الموشى جنوبا إلى بلاد قعازة شمالاً.

توالى الملوك على صنغاى حتى جاء أسكيا نوح الذى قتل فى حروبه مع مراكش، وانتهت سلطنة صنغاى وورث ملكهم المراكشيون المغاربة، وارتبطوا بسلطان مراكش لفترة من الزمن وكونوا دولة جعلوا عاصمتها مدينة تمبكتو، ثم ما لبثت أن تفككت الدولة وتمزقت مما جعلها لقمة سائغة فى فم الاستعمار الأوروبي.

مملكة الهوسا

منطقة الهوسا تمثل الآن شمال نيجيريا، وكانت بها عدة ممالك وثنية، وكانت كانو من الممالك السباقة فى دخول الإسلام، فقد جاءها علماء مسلمون وعرضوا على ملكها عثمان (زمنقاوي) الإسلام فأسلم وعمل على نشر الإسلام فى مملكته، ومن أشهر ملوك كانو الذين زاد انتشار الإسلام فى عهدهم الملك عمر.

وأخذ الإسلام ينتشر فى بلاد الهوسا وساهم فى الدعوة إليه قبائل الماندنجو فى الجهات الغربية، و الدعاة من مصر والسودان العربى، فى الجهات الشرقية والوسطى، وكذلك ساهم الفولانيون فى نشر الإسلام فى هذه الجهات.

وبرغم كون الممالك مفتتة فى بلاد الهوسا إلا أنها قد أخذت شكل الاتحاد فى بعض الأوقات، نتيجة سيطرة إحداها على الآخرين بل وامتد نفوذها فى بعض الأحيان إلى البلاد المحيطة بالهوسا، ومن أمثلة ذلك مملكة كبى وكاتسينا وزنفرة وجوبر.

ومن أشهر القادة الذين عملوا على نشر الإسلام فى بلاد الهوسا هو عثمان دان فديو، الذى تزعم ثورة ضد ملك جوبر الوثنى الذى أراد محاربة الإسلام، واستطاع دان فديو أن ينتصر على هذا الملك الوثنى، ويسيطر على مملكة جوبر الواسعة ونشر بها الإسلام، بل وأخذ يهاجم مراكز الوثنية فى بلاد الهوسا لإعلاء كلمة التوحيد وكون دان فديو مملكة واسعة واستطاع أن يضم إليها بعض الممالك الإسلامية، ولم تضعف مملكته إلا عندما ترك ابنه وأخاه يقتسمانها وتفرغ هو للدعوة حتى جاء الاستعمار الأوروبى واستولى عليها.

برنو وكانم

تقع برنو إلى الشرق من ممالك الهوسا، وتضمها حدود نيجيريا الآن، أما

كانم فتقع إلى الشرق من برنو على بحيرة تشاد، وتضمها حدود تشاد وارتبط تاريخ كل من برنو وكانم لوقوعهما تحت سيطرة مشتركة فى أغلب الأوقات.

وكان أول ملك يدخل الإسلام فى كانم هو هومية جيلمة، وتسمى بمحمد، وانتشر الإسلام فى كانم وكونت مملكة عظيمة استطاعت أن تبسط نفوذها على برنو وغيرها، حتى أصبحت أكبر مملكة بين النيل والنيجر، ثم بدأ الضعف يعرف طريقه إلى مملكة كانم وامتلأت بالصراعات الداخلية مما أتاح الفرصة لقبائل البولالا أن تهاجم مملكتهم وتدخل عاصمتها، ففر حكام كانم إلى برنو وبدءوا يعدون العدة لاستعادة سلطتهم المفقودة على كانم.

وجاء الملك إدريس واستطاع أن يستعيد السيطرة على كانم ويطرد منها البولالا، وأخذ يوسع مملكته وعمل على نشر الإسلام فى ربوعها، ودخل فى عهده الكثير من الناس فى دين الله أفواجًا، وبعد موته توارد على حكم المملكة عدة ملوك، من أشهرهم الملك على بن عمر، ثم بدأ الملوك الضعفاء فى الظهور وضعفت البلاد بسببهم وانكمشت المملكة.

وجاء الزعيم عثمان دان فديو وضم برنو، ثم ظهر فى برنو الأمير محمد أمين الكانمى واستطاع أن يستقل بها وكون مملكة استطاعت أن تسترد الكثير من الأراضى التى كانت تشملها البلاد فى عهد الملك إدريس، وتوالى على الحكم ملوك من أسرة الكانمى حتى ضعفت المملكة وظهر رابح الزبيرى السودانى واستطاع أن يسيطر على البلاد، ومما هو جدير بالذكر أن رابح من قواد الزبير الذى اشتهر بفتوحاته فى السودان العربى باسم الحكومة المصرية، وقد اتجه رابح من السودان العربى إلى الغرب ففتح سلطنة باجرمى، وكانم، وبرنو، وقضى على حكم أسرة كانم للبلاد، وظل يحكم البلاد حتى جاءها الاستعمار الأوروبي، وقد كان لبرنو اتصال وثيق مع العثمانيين الذين أمدوهم بالأسلحة النارية التى ساهمت بشكل كبير فى تكوين مملكتهم.

باجرمى

تقع الآن فى جمهورية تشاد، وإلى الجنوب من كانم، كانت من الممالك الوثنية وصل الإسلام إليها عن طريق الدعوة والتجارة، وانتشر فى عهد الملك الوثنى مالو مما دفع أخاه عبد الله الذى اعتنق الإسلام إلى الثورة عليه، واستطاع عبد الله أن يسيطر على باجرمى، وأخذ يعمل على نشر الإسلام بها، واستطاع أن يوسع مملكته ويضم إليها الكثير من المناطق المجاورة وكانت باجرمى تدفع الجزية للملك إدريس ملك برنو، وبعد وفاة الملك إدريس توقفت باجرمى عن دفع الجزية وقد أصاب باجرمى الضعف فى عهد الملك عبد الرحمن جوارنج فاستغل عبد الكريم صابون ملك واداى الفرصة واحتل باجرمي، ثم ضعفت واداى واستطاعت باجرمى أن تستقل عنها ثم ظهر رابح الزبيرى الذى استطاع أن يضمها إلى مملكته فتحالف ملك باجرمى مع الفرنسيين فى الحرب ضد رابح الزبيرى، وهزم رابح فضم الفرنسيون باجرمي.

واداي

وتقع شرقى باجرمى وهى جزء من جمهورية تشاد الآن، وقد زحف على واداى قبائل الزغاوة المسلمة التى جاء معها الإسلام إلى واداى، ثم احتلت قبائل التنجور واداى وهى قبائل مسلمة تعود إلى أصل نوبي، ولكنها لم تعتن بنشر الإسلام، ثم ظهر عبد الكريم الصالح وأخذ يعمل على نشر الإسلام وجمع حوله الجيوش وانتصر على التنجور، وأقام أسرة حكمت واداى من أشهر ملوكها عبد الكريم صابون الذى ضم باجرمي، ثم استقلت باجرمى عن واداى وجاء رابح الزبيرى وضم واداى إليه، ولكن الفرنسيين استطاعوا أن يهزموا رابح ووقعت تحت وطأة الاحتلال الفرنسي.

ثانيًا : السودان العربى

كان العرب يطلقون على المنطقة التى تقع جنوب الصحراء الكبرى والتى

يسكنها السود لفظ السودان، وقد احتفظت السودان العربية بهذا الاسم حتى الآن.

وقبل أن يصل العرب إلى السودان الحالية كانت تحتوى على قبائل وممالك وثنية، وسنتناول الآن مناطق السودان وكيفية دخول الإسلام إليها، والدول الإسلامية التى ظهرت على مر الزمان فى السودان العربى حتى جاءها الاستعمار.

دارفور

دخل إليها الإسلام عن طريق هجرة بعض القبائل العربية إليها وامتزاجهم بالسكان، مما أدى إلى تأثر السكان الأصليين بالعرب، ودخل الكثير منهم فى الإسلام وبدأت اللغة العربية تنتشر، ومن أهم القبائل العربية التى هاجرت إلى دارفور قبائل التنجور من تونس، وقد استطاع أحد أفرادها ويدعى أحمد أن يلفت نظر ملك دارفور الوثنى، فأعجب به وقربه إليه وترك له إدارة البلاد، فأصلح البلاد ووحد جهاتها وأضفى عليها الاستقرار، وتزوج ابنة الملك الوثنى الذى مات ولم يكن له ولد، فورث أحمد ملك البلاد وأنجب سليمان الذى أصبح سلطانًا للبلاد بعد وفاة أبيه، وبذلك أصبحت دارفور بلدًا إسلاميًّا، وتوارد على حكامها سلاطين مسلمون، حتى جاء عهد أسرة محمد على فاستطاع الزبير باشا أن يدخلها، ويضمها إلى أملاك مصر، ثم ضمها الدراويش، ثم حدث الهجوم الثنائى على دارفور (الإنكليز والمصريون) فأعادوا على بن دينار أحد أفراد أسرة أحمد للحكم، بحيث تتبع حكومة السودان التابعة للإنكليز، ثم وقعت الحرب بين على بن دينار وحكومة السودان التى انتصرت عليه وضمت دارفور.

كردفان

هاجرت إليها قبائل عربية جاء الكثير منها من مصر بعد سقوط الدولة

الفاطمية، وجاءها الحكم المصرى فى عهد أسرة محمد على، وكان للمصريين دور كبير فى نشر الإسلام بها، وقدم إليها الكثير من الدعاة، من أشهرهم محمد عثمان الميرغنى، ونجح فى استقطاب الكثير من أهلها إلى الإسلام، وانطلقت منها الحركة المهدية والتى استطاعت أن تتوغل فى السودان حتى قضى عليها الإنكليز وضمت إلى الحكم الثنائى (المصرى - الإنكليزي).

البجة

تقع فى شرق السودان، وقد حاول عبد الله بن أبى السرح فتحها، ولكن وعورة الطريق إليها وقلة الماء منعه من ذلك، وكذلك موافقة أهلها على دفع الجزية، ولكنهم أخذوا ينقضون عهودهم مع المسلمين فى عهد العباسيين، ووقعت الحرب بينهم وبين المسلمين، وفى كل مرة كان المسلمون ينتصرون ويخضعونهم ويتعاهد معهم أهل البجة على الخضوع، ثم ما يلبثون أن يعودوا للتمرد وقتال المسلمين، وأخذت القبائل العربية تهاجر إلى البجة وتختلط بالسكان وتؤثر فيهم، وقد وقعت البجة تحت سيطرة مملكة الفونج التى قامت فى مقرة وعلوة، وظلت هكذا حتى ضمها المصريون فى عهد أسرة محمد على.

مملكة الفونج

كانت كل من مقرة وعلوة دولتين مسيحيتين فى جنوب بلاد النوبة تقعان قبل التقاء النيل الأزرق بالنيل الأبيض، وعندما جاء الإسلام إلى مصر وقعت حروب بين هاتين الدولتين والمسلمين، ثم عقد صلح عرف بمعاهدة البقط التى تضمنت التبادل الاقتصادى بين شمال وجنوب الوادى، ثم بدأت مقرة فى نقض المعاهدة فى عهد المماليك، وأخذوا يساعدون الصليبيين ضد المماليك فخرج إليهم الظاهر بيبرس بجيش جرار وأصبح تعيين الملوك عليها يتم من قبل المماليك وهاجرت إليها الكثير من القبائل العربية وبدءوا يسيطرون على البلاد

ونشروا الإسلام فيها وأصبحت السلطة بيد القبائل العربية.

أما عن علوة فقد تأخرت سيطرة المسلمين عليها برغم هجرة الكثير من العرب والمسلمين إليها، حتى جاءها الفونج الذين ينتسبون إلى عمارة دونقس من قبيلة الفونج المنتسبة للأمويين، والعبدلات الذين ينتسبون إلى عبد الله جماع من عربان القواسمة المسلمين، الذين جعلوا منها ومن مقرة مملكة إسلامية كبيرة عرفت باسم مملكة الفونج، وكان الفونج قد وكلوا العبادلة فى حكم الأراضى التى كانت تمثل مملكة مقرة وتركز الفونج فى أراضى علوة، وأخذت مملكة الفونج تتوسع فشملت أكثر أراضى البجة وكردفان، ووقعت حروب بينهما وبين الحبشة المسيحية، انتصرت فى أكثرها الفونج، وظلت مملكة الفونج قائمة حتى ضمت إلى مصر فى عهد أسرة محمد على ثم الاحتلال الإنكليزي.

السودان فى عهد الحكم المصري:

بدأ الاتجاه المصرى للسودان العربى فى عهد محمد على، وقد سبق وأن تكلمنا عن هذا العهد فى الكلام عن مصر، وعلمنا أن التوغل فى السودان بلغ أوجه فى عهد الخديوى إسماعيل الذى فاق توسعه السودان، ليمتد إلى منابع نهر النيل، وجميع سواحل البحر الأحمر ومنطقة القرن الإفريقى وإقليم هرر فى الحبشة.

وكان يمكن أن تمتد الفتوحات المصرية فى إفريقيا لأكثر من ذلك، لولا وجود قائدين إنكليزيين فى الجيش المصرى بالمنطقة الاستوائية، وهما صموئيل وغوردون اللذين وضعا العراقيل فى استمرار الفتوحات المصرية، فقد عرض حاكم زنجبار أن يكون تحت الحماية المصرية، ولكن القائد غوردون رفض ذلك وراسل حاكم زنجبار وحذره من وقوع زنجبار تحت الحماية المصرية، وكان لغوردون دور كبير فى إقالة الزبير باشا صاحب الفتوحات الكبيرة فى السودان وكذلك ابنه سليمان، ومما هو جدير بالذكر أن دخول الجيوش المصرية لهذه

المناطق فى إفريقيا قد ساهم بشكل كبير فى انتشار الإسلام بها، ولذلك نجد أكثرية هذه الأجزاء حتى الآن تدين بالإسلام، وظلت تبعيتها لمصر حتى جاء الاستعمار الإنكليزى الذى عمل على إيجاد الحكم الثنائى للسودان، وقسمت الأملاك المصرية فى إفريقيا بين الإنكليز والفرنسيين والطليان والحبشة والبلجيك، كما سيأتى ذكره فى باب الاستعمار الأوروبى لإفريقيا.

ثالثًا: فى السواحل الشرقية لإفريقيا

دخل الإسلام السواحل الشرقية لإفريقيا عن طريق الفتوحات والدعوة، واستمر بها لفترة كبيرة وانتشر الإسلام بهذه الجهات، وتكونت عدة ممالك إسلامية بها حتى جاءها الاحتلال الأجنبي.

زيلع وهراة (مملكة عدل)

وقامت هذه الممالك الإسلامية فى الصومال الشمالي، وقبل قيام هذه الممالك كان مجيء الإسلام لهذه المناطق عن طريق الدعوة من الجزيرة العربية منذ عهد الرسولﷺ ، ومن المناطق التى انتشر فيها الإسلام مبكرًا زيلع التى هاجر إليها مسلمون من الجزيرة العربية، وتكونت بها سلطنة إسلامية، وأخذت تتوسع وتكونت عدة ممالك إسلامية أخرى، وكانت من ضمنهاأوفات وهرر إلا أن هرر كانت تحت سيطرة الأحباش، ولما قوى أمر أوفات وضعف أمر الأحباش استطاعت أوفات أن تنتزع هرر من الأحباش، وأصبحت هرر قاعدة الحرب بين المسلمين والنصارى الأحباش، ثم تكونت مملكة عدل التى ضمت أكثر الصومال الشمالي، ودارت رحى الحرب بينها وبين الأحباش، وتمكن المسلمون من إحراز انتصارات كبيرة فيها، وضم أجزاء واسعة من الحبشة خاصة بعد مؤازرة العثمانيين لهم بينما كان البرتغاليون يساعدون الأحباش، ومن أشهر ملوك عدل السلطان أحمد الذى كان أحد القساوسة فى الحبشة، ثم فر

إلى عدل وأعلن إسلامه واستطاع أن يصل إلى السلطة فيها، ويحارب الأحباش ويضم أجزاء من بلادهم بمساعدة العثمانيين، وأخذ ينشر الإسلام فى الأجزاء المفتوحة من الحبشة، ثم بدأت الخلافات والفتن بين العثمانيين ومملكة عدل، فضعف أمر عدل وأخذت تتراجع أمام الأحباش.

وضم العثمانيون سواحل الصومال الشمالية إليهم وكان بعضها تابعا لليمن فضمت إلى العثمانيين بعد ضم اليمن، وانحصر ملك مملكة عدل فى هرر التى بدأت تتقلص حتى اقتصرت على مدينة هرر نفسها أما بقية أجزائها فتوزعت بين الأحباش وقبائل الجالا، حتى جاء عهد الخديوى إسماعيل الذى استطاع أن يبسط نفوذه على الصومال الشمالى وهراه ويستعيد أكثر الأجزاء التى استولى عليها الأحباش وقبائل الجالا، واستمرت هذه المناطق تابعة لمصر، وازداد انتشار الإسلام بها حتى وقعت مصر تحت الاحتلال الإنكليزى فسمحت إنكلترا لفرنسا باحتلال جزء من الصومال، يمثل الآن جيبوتى وأعطوا هرر للحبشة.

مقديشو:

عندما نتكلم عن مملكة مقديشو المسلمة نعنى بها الكلام عن الصومال الجنوبى، وقد هاجر الكثير من العرب إلى الصومال الجنوبى وشيدوا عدة مدن منها مقديشو وبراوه ولعبت مقديشو دورًا كبيرًا فى تجارة شرق إفريقيا واحتفظت لفترة كبيرة باستقلالها عن الممالك التى نشأت حولها.

وتمكنت قبيلة الأبجل الصومالية من السيطرة على مقديشو وكونت بها مملكة تحكمها أسرة الشيخ عمر جلوله مؤسس هذه المملكة، وتمتع حكامها بعلاقة طيبة مع الممالك العثمانية، وأبدوا ولاءهم إليهم وساعد كل من المماليك والعثمانيون والعرب فى عمان مقديشو فى رد العدوان البرتغالى عن مقديشو، ومرت مقديشو بفترة ظهرت فيها الصراعات الداخلية وبات الخطر الاستعمارى

يهددها فبعث أهلها إلى سلطنة زنجبار يطلبون حمايتهم من الاعتداءات الصليبية، فأسرعت لمساعدتها وضمتها إلى مملكة الزنج، وكذلك مد الخديوى إسماعيل نفوذه إلى أجزاء كبيرة من الصومال الجنوبي.

وعندما احتل الإنكليز مصر بدأت الصومال فى التمزق وأعطيت مقديشو للطليان وكذلك الصومال الجنوبي.

مملكة الزنج:

هاجر الكثير من العرب إلى السواحل الشرقية من إفريقيا وشيدوا العديد من المدن والممالك وكذلك فعل الفرس، وتعتبر كلوة من أهم المدن التى شيدها الفرس، وكثرت الإمارات المسلمة من منطقة القرن الإفريقى إلى منطقة سفالة وانتشر بها الإسلام، وأقبل أهل البلاد عليه، وجاء سليمان بن على فوحد الإمارات من جنوب مقديشو إلى سفالة وضم إليها جزيرتى زنجبار وبمبة وكون مملكة الزنج.

واستمرت هذه المملكة لعدة قرون وامتد سلطانها إلى داخل إفريقيا وامتد معها انتشار الإسلام ثم بدأت الدولة تتفكك، وجاء الاحتلال البرتغالى المليء بالحقد الشديد للمسلمين، واحتل أكثر أجزاء المملكة وارتكب كعادته الجرائم الوحشية فى المسلمين، ثم بدأ البرتغاليون فى الضعف، وأخذ نفوذها يقل فى أكثر مستعمراتها، وتمكن اليعاربة فى عمان من طرد البرتغاليين من الجزيرة العربية بمؤازرة العمانيين، ولم يكتف العثمانيون بذلك بل تتبعوا البرتغاليين فى مستعمراتهم فى الهند وشرق أفريقيا، وكان المسلمون فى شرق أفريقيا يطلبون مساعدتهم فى طرد البرتغاليين وبالفعل استطاع العمانيون أن يطهروا مملكة الزنج من الجنس البرتغالي، واستقبلهم السكان بحفاوة بالغة وأصبحت مملكة الزنج تابعة لعمان، وازداد انتشار الإسلام فى مملكة الزنج.

وجاء إلى حكم عمان البوسعيديون فبلغت مملكة الزنج القمة فى المجد والتوسع حتى أن سعيد بن سلطان مؤسس الدولة البوسعيدية قد نقل عاصمته من مسقط إلى زنجبار، وتركز توسعه فى أفريقيا، ووصل لحدود الكونغو وأوغندا وروديسيا (زامبيا وزيمبابوي) وأخذ ينشر الإسلام فى الجهات التى فتحها، وأصبحت مملكة الزنج تمثل تجمعًا للبضائع الإفريقية ومنفذًا لتوزيعها على أنحاء العالم، وبعد وفاة بوسعيد انفصلت هذه الدولة الأفروأسيوية إلى دولتين إحداهما مملكة الزنج، ومن أشهر حكامها برغش بن سعيد، الذى ظهر فى عهده القائد المرجبى الذى استطاع أن يمد نفوذ مملكة الزنج إلى داخل الكونغو، وعمل على نشر الإسلام فيها، وفى عهده بدأ الاستعمار الأوروبى يتوغل فى أفريقيا وتعاون الإنكليز والبلجيك فى التخلص من المرجبى لخطورته على أهدافهم الاستعمارية، وقامت الحروب بين المرجبى من جهة والتحالف الاستعمارى من جهة أخرى، واستطاع التحالف الاستعمارى أن يطرد المرجبى من الكونغو.

وبدأ الاستعمار ينتشر فى مملكة الزنج واقتسمت كل من ألمانيا وإنكلترا مملكة الزنج، فأخذت إنكلترا الجزء الذى يمثل الآن كينيا، وأخذت ألمانيا الجزء الذى يمثل الآن تنزانيا، ولم يتركوا للبوسعيديين فى البداية إلا شريطًا ضيقًا على الساحل الأفريقي، ثم ما لبث الإنكليز أن احتلوا ما تبقى من مملكة الزنج، وبعد الحرب العالمية الأولى وهزيمة ألمانيا تم النفوذ الإنكليزى على تنزانيا.

***

الفصل الثاني
الاحتلال الأوروبى الغاشم لأفريقيا

ما إن وطئت أقدام المستعمرين الأوروبيين أفريقيا حتى بدءوا فى استغلال موارد القارة واستنزافها خالصة لأوروبا، وصبوا وابل الطغيان الشديد والقهر على الأفارقة، الذين كان لهم النصيب الأكبر فى تذوق أبشع ألوان الظلم والذل الإنسانى الذى عرفته البشرية حتى الآن، وسنتناول هذا الفصل من خلال ثلاث نقاط رئيسية وهى؛ تقسيم النفوذ الاستعمارى فى القارة، ومظاهر وحشية الاستعمار وسياسته فى القارة، ومقاومة الاستعمار.

تقسيم النفوذ الاستعمارى فى القارة:

وقعت أفريقيا بأكملها تحت الاحتلال الصليبى الأوروبى الغاشم، ولم يترك المحتل من أفريقيا إلا الحبشة وليبريا، وذلك لجعلهما قاعدتين قويتين للمسيحية فى إفريقيا، فالحبشة احتفظت باستقلالها لمدة كبيرة، حتى احتلها الطليان الذين لم يمكثوا بها إلا قليلاً -٧سنوات فقط- وخرجوا منها بعد هزيمتهم فى الحرب العالمية الثانية أما ليبريا فكانت من ضمن أملاك الولايات المتحدة ثم أعطتها الاستقلال وأعادت إليها أفارقة من الذين استعبدوا وتحولوا إلى المسيحية، ليعملوا على نشر المسيحية ومحاربة الإسلام، وقد تقاسمت فرنسا وإنكلترا وبلجيكا والبرتغال وألمانيا وأسبانيا، إفريقيا وكان لهولندا بعض الجيوب فى جنوب إفريقيا، ثم تخلت عنها لإنكلترا، كما أن هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية قد أدت إلى تخليها عن أكثر مستعمراتها لإنكلترا.

مظاهر وحشية الاستعمار وسياسته فى القارة:

تعددت مظاهر وحشية الاستعمار الأوروبى فى إفريقيا وفاقت الوصف ومن أبرزها.

١- استولى الاستعمار الأجنبى على كافة موارد البلاد واقتصادياتها ولم يترك شيئا لأهل البلاد الأصليين الذين عانوا الجوع والتشرد والأوبئة.

٢- لم يكتف الاستعمار بحرمان المواطنين الأصليين من خيرات بلادهم، وتسخيرها له، بل عمدوا إلى استغلال أهل البلاد أنفسهم، وذلك بتجارة العبيد التى مورست فى إفريقيا على نطاق كبير، وبشكل لم يسبق له مثيل فى الذل والظلم والتدنى، فقد أخذ المستعمرون يغيرون على سكان البلاد ويسوقون الرجال والنساء والأطفال إلى أسواق العبيد، وكان الجميع يتعرض لشتى ألوان المهانة والاعتداء فى هذا السوق -وعلى الأخص النساء- والويل لمن يعترض، ثم يزج بالعبيد المبيعون إلى الأرض الجديدة وجزر الكاريبى ليسخرهم الاستعمار فى الزراعة واستخراج الثروات منها.

وفى أثناء وجودهم بالسفن كان الآلاف يموتون نتيجة لسوء المعاملة والإهمال الصحى والغذائى، فيلقى بهم فى البحر ليكونوا طعامًا للأسماك، ويكون الجلد والقتل هو الوسيلة الرادعة للمتمردين، ليكونوا عبرة لغيرهم.

وما إن يصلوا إلى مقر ساداتهم إلا ويعانون أشد الويلات التى لا تنتهى ما داموا أحياء، وقد وضعت قوانين تجرد العبيد من كافة الحقوق الإنسانية، وتعطى الحق لساداتهم فى التصرف فيهم كيفما شاءوا.

وقد كان الاستعباد إحدى الوسائل التى يريد المحتل الصليبى بها محاربة المسلمين فى أفريقيا والقضاء على هويتهم، ولكنه اتبع هذه السياسة مع كل أبناء القارة المسلمين منهم وغير المسلمين، وقد بلغ عدد الرقيق الذين

هلكوا فى أثناء ترحيلهم إلى العالم الجديد ما يزيد عن ٨٠ مليونًا، وهو ما يقترب من نصف العدد الذى وصل إلى الأرض الجديدة.

٣- صادر الاستعمار أخصب الأراضى الأفريقية وأغناها وطرد منها سكانها الأصليين، الذين لجأوا إلى الغابات والجهات الفقيرة، واتخذوها مأوى لهم، وفى نفس الوقت شجع الاستعمار مواطنيه على الهجرة إلى أفريقيا وأقطعهم هذه الأراضى وسخر لهم البلاد.

٤- فتت الاستعمار قارة أفريقيا وأزال ممالكها السابقة وعمد إلى تقسيم أرضها وشعوبها لعدد كبير من الدول، وعندما انسحب من القارة كان قد انتهى من وضع بذور الفتن والانقسامات، وترك بها الكثير من المرتزقة وهم ضباط أجانب يجيدون حرب العصابات، وذلك لإشعال الصراعات فى أفريقيا ولكى تكون أفريقيا الجهة الرئيسية لترويج أسلحته.

٥- اتبع المستعمر سياسة التفريق العنصرى التى تجعل البيض يتمتعون بكافة مظاهر الحياة والرفاهية فى البلاد، بينما تحرم السكان الأصليين من ذلك وتجعلهم يحيون حياة حقيرة، فيسكن البيض فى أرقى الأحياء وتكون لهم أعلى المناصب والمراكز، بينما يعيش السود فى أحياء متواضعة بعيدة عن الأحياء الراقية، ومحرم عليهم دخول أحياء البيض ومحظور تقلدهم أى منصب كبير فى بلادهم.

٦- عندما وجد الاستعمار أنه لن يستطيع البقاء فى أفريقيا، ترك زمام الأمر فى البلاد لعملائه حتى وإن كانوا أقلية فى البلاد، فعلى سبيل المثال يحكم الكثير من البلاد ذات الأغلبية المسلمة فى أفريقيا حكام من النصارى، يؤيدهم ويثبت أقدامهم نصارى العالم.

٧- عكف الاستعمار على محاربة الإسلام ونشر المسيحية ليربط السكان به سياسيًا وقد لجأ إلى إنشاء المدارس والمستشفيات التبشيرية، لتكون الوسيلة الرئيسية فى نشر المسيحية، وبرغم كل هذه المحاولات فإن النجاح الذى أحرزته الإرساليات المسيحية ضئيل، وينحصر أكثره فى الوثنيين، أما غالبية الأفارقة فقد ولد الاستعمار فى قلوبهم كرهًا شديدًا للمستعمرين، وكل ما يتعلق بهم، حتى دينهم، بالإضافة إلى اتجاه الكثير من القساوسة والرهبان إلى تكوين الثروات، وتحقيق المصالح الشخصية فى مراكز الإرساليات.

٨- قضى الاستعمار الأوروبى عل كل المظاهر الحضارية والفكرية فى البلاد، ولم يترك أفريقيا إلا وقد أصبحت أفقر وأجهل قارة فى العالم وتعانى من ذلك حتى الآن.

مقاومة الاستعمار:

بدأت المقاومة للاستعمار فى أفريقيا منذ نجست قدماه القارة، وزاد المقاومة التعسف والظلم الشديد الذى أذاقه الأوروبيون لسكان القارة، وكان المسلمون لهم الدور الأكبر فى مقاومة الاستعمار، وتبعهم فى ذلك بقية السكان الأفارقة، كما أن حركات الاستقلال التى ظهرت فى الدول الآسيوية قد وصل صداها إلى أفريقيا، وجعلها تسعى للاستقلال وكانت الحرب العالمية الثانية وهزيمة الحلفاء فى بدايتها لها دور كبير فى تأجج الثورات فى أفريقيا، وزوال الرهبة التى كانت لديها من المستعمر.

ومن أشهر الحركات الثورية فى أفريقيا لمناهضة الاستعمار ثورة **بوشيرى بن سالين** المسلم على الاحتلال الألمانى لتنجانيقا (تنزانيا)، والتى حققت انتصارات كبيرة على المستعمر، وألحقت به خسائر فادحة، وبعد صراع طويل مع

الاستعمار تمكن الألمان من القبض عليه وإعدامه.

ومن الحركات الثورية فى أفريقيا أيضًا حركة مهدى الصومال الذى أعجب بالحركة المهدية فى السودان، التى كانت تناهض الاستعمار الإنكليزي، فأحب أن يكررها فى الصومال الإنكليزى، وحارب بها فى البداية الإرساليات المسيحية التى تتبع وسائل الضغط لإجبار السكان على التنصير، وتحولت المواجهة إلى المستعمر وظل يناهض الاستعمار حتى ظهر من بين صفوفه الخونة الذين استطاع الإنكليز استقطابهم وإغراءهم، فضعفت الثورة ومات المهدى بعد أن خارت قواه.

وظهرت العديد من الحركات الأخرى التى تناهض الاستعمار وأدت هذه المقاومة الشديدة للمستعمر إلى الاضطرار إلى الجلاء عن أفريقيا واحتفظ الاستعمار فيها ببعض الجزر الصغيرة والمواقع القليلة.

***

الفصل الثالث
الدولة المستقلة فى أفريقيا

سنحاول فى هذا الجانب أن نتناول الدول الأفريقية المستقلة ذات الأغلبية المسلمة، سواء التى تخضع لحكومات مسلمة، أو التى مكن الاستعمار للنصارى فى حكمها ونسب المسلمين فى بقية دول القارة.

أولا: الدول ذات الأغلبية الإسلامية والتى يحكمها المسلمون

موريتانيا:

وهى دولة عربية غالبيتها من المسلمين وتعنى (مورو تانيا) أى بلاد المسلمين كما كان يسميها الأوروبيون والأسبان، وكانت خاضعة للاستعمار الفرنسى حتى استقلت عام ١٣٨٠هـ، وكان مختار ولد دادة أول رئيس لموريتانيا المستقلة وظهر الخلاف بين المغرب وموريتانيا والجزائر على الصحراء الغربية، بعد أن استقلت عن إسبانيا ثم حدث انقلاب عسكرى فى البلاد عام ١٣٩٨هـ، واختير ولد مصطفى ولد محمد السالك رئيسًا للجمهورية، ثم جعل رئيسًا شرفيًا لموريتانيا عام ١٣٩٩هـ، ولكن السلطة الحقيقية كانت بيد أحمد بوسيف -الذى توفى فى حادث طائرة فى نفس العام- واستبد برئاسة الوزراء، وتولى وزارة الدفاع المقدم محمد خونا ثم رأس اللجنة العسكرية للخلاص الوطنى، وكان قد عهد إلى معاوية ولد سيدى أحمد الطايع برئاسة الوزراء، ثم ما لبث أن خلعه فقام معاوية بانقلاب عسكرى عام ١٤٠٥هـ أطاح فيه بمحمد خونا وأصبح معاوية هو رئيس الجمهورية ورئيس اللجنة العسكرية ورئيس الحكومة.

وظهر الجناح العسكرى لجبهة التحرير الأفريقى لموريتانيا، التى تعينها

الإرساليات الصليبية واليهود وحاولت القيام بانقلاب عسكرى عام ١٤٠٨هـ وجعلت السبب أن العرب هم المسيطرون على الحكم، وأن الزنوج لا يتمتعون بمزاياهم ولكن الانقلاب فشل.

وفى عام ١٤٠٩هـ توترت العلاقات بين السنغال وموريتانيا، حيث حدثت عدة هجمات على الموريتانيين المقيمين فى السنغال، وكرد فعل لها حدثت هجمات أخرى على السنغاليين المقيمين فى موريتانيا، وانتهت الأزمة بتبادل الجالية الموريتانية فى السنغال بالجالية السنغالية فى موريتانيا.

وما زال الرئيس معاوية يشغل منصب رئيس الجمهورية فى موريتانيا حتى الآن.

السودان:

كانت السودان تخضع للحكم الثنائى الإنكليزى المصري، ولما قامت ثورة ٢٣ يوليو عقدت مفاوضات مع الإنكليز لحق تقرير المصير للسودانيين، وخيرت السودان بين الارتباط بمصر أو الاستقلال التام فاختارت السودان الاستقلال التام عن مصر، وأعلن قيام الجمهورية السودانية عام ١٣٧٥هـ برئاسة إسماعيل الأزهرى وانضمت إلى جامعة الدول العربية فى نفس العام.

وامتلأ تاريخ السودان المعاصر بالانقلابات العسكرية منها على سبيل المثال انقلاب عام ١٣٧٧هـ وفشل، ثم انقلاب آخر فى نفس العام قاده إبراهيم عبود ونجح، ثم قامت ٣ انقلابات عسكرية عام ١٣٧٨هـ، نجح أولها وفشل الثانى والثالث ثم حدثت ثورة عام ١٣٨٤هـ، وشكل فيها مجلس للسيادة برئاسة إسماعيل الأزهرى، ثم حدثت فى نفس العام محاولة أخرى ولكنها فشلت ثم جاء عام ١٣٨٩هـ وجاء انقلاب جديد بقيادة جعفر نميري، ثم حدث انقلاب عام ١٣٩١هـ، ولكنه فشل ثم حدث عام ١٣٩٥ ولكنه فشل، ثم حدثت محاولة أخرى للإطاحة بجعفر نميرى عام ١٣٩٦هـ، مستغلة وجوده خارج السودان

واستطاعت أن تحتل بعض المواقع العسكرية فى البلاد، وكانت هناك خطة لتدمير طائرة نميرى العائدة من الخارج، ولكنها فشلت وساعدت مصر نميرى فى القضاء على هذا التمرد (ولنميرى تورط كبير فى نقل اليهود الفلاشة (يهود أثيوبيا) إلى إسرائيل وتلقى نظير ذلك مبالغ طائلة).

وللإخوان المسلمين قاعدة عريضة فى السودان لها تأثير كبير على السلطة وكان لهم دور كبير فى تطبيق الشريعة الإسلامية فى السودان عام ١٤٠٣هـ وخشى نميرى من زيادة نفوذ الإخوان فى البلاد فاتهمهم عام ١٤٠٥هـ، بالقيام بتدبير مؤامرة للإطاحة به، وقبض على الكثير منهم، ولكنه لم يلبث أن أطيح به فى انقلاب عسكرى جديد عام ١٤٠٥هـ والذى قام به وزير الدفاع عبد الرحمن سوار الذهب، والذى أصبح رئيسًا للبلاد وعين الصادق المهدى رئيسا للوزراء عام ١٤٠٦هـ وحدثت عدة انقلابات لإعادة جعفر نميرى ولكنها فشلت، حتى جاء عام ١٤٠٩هـ وحدث انقلاب عسكرى ناجح بقيادة عمر البشير الذى يتولى رئاسة السودان حتى الآن، وفى عهده توترت العلاقات بين مصر والسودان وبرزت قضية حلايب وشلاتين التى تزعم السودان أنها جزء من أرضها بينما تسيطر عليها مصر، وصنفت السودان من الدول الإرهابية، وخاصة بعد اتهامها بحماية مدبرى محاولة الاغتيال الفاشلة للرئيس محمد حسنى مبارك فى أديس أبابا، وتدخلت عدة قوى خارجية بشكل كبير فى مؤازرة المعارضة ويحتدم الصراع فى السودان والذى تشعله التخطيطات الصليبية.

مشكلة الجنوب:

وضع الاستعمار الإنكليزى بذور مشكلة الجنوب فى السودان منذ وطئت قدماه أرض السودان، فعمل على فصل الشمال عن الجنوب وخاصة أن الشمال مسلم، بينما الجنوب وثنى، فعمل على منع انتشار الإسلام فى الجنوب

وجعله تربة خصبة للإرساليات الصليبية، والتى أمدها بكل الوسائل التى تؤثر بها على سكان الجنوب، مثل إنشاء المستشفيات التابعة للإرسالات وإدارتها للمدارس بالجنوب، وعمل الإنكليز على جعل منطقة الجنوب مغلقة ومنع وصول أهل الشمال إليها، بل ورحّل الكثير من المسلمين فيها إلى أماكن أخرى، ولم يكتف الاستعمار بكل هذا بل عمل على تقوية النزاعات الانفصالية فى الجنوب، والوقيعة بين الشمال والجنوب، وإيجاد الكراهية بينهما من خلال بعض الشائعات مثل أن الشماليين كانوا يستغلون الجنوب فى تجارة العبيد.

وعندما استقلت السودان بدأ الصدام بين الشمال والجنوب، وبدأت تظهر منظمات عسكرية فى الجنوب أشهرها منظمة انيانيا والتى يساعدها اليهود، ومجلس الكنائس العالمى والإرساليات الصليبية، وكذلك الدول الصليبية والدول المجاورة ذات الحكومات الصليبية مثل أثيوبيا وأوغندا وأفريقيا الوسطى وتشاد وغيرهم، ووقع الصدام مع الحكومة التى اتبعت فى البداية أسلوب البطش والإرهاب لسكان الجنوب، مما جعل الوضع يشتعل فى الجنوب حتى جاء عهد جعفر نميرى فعقدت اتفاقية أديس أبابا عام ١٣٩٢هـ والتى تضمنت وحدة الجنوب مع الشمال، ولكنها احتوت على امتيازات للجنوب أتاحت له فرصة التمرد والانفصال فى أى وقت، مثل توحيد محافظات الجنوب فى إقليم واحد وجعل نصف القوة العسكرية المرابطة فى الجنوب من الجنوبيين، وأتاحت الفرصة للإرساليات الصليبية فى ممارسة نشاطها، بالإضافة إلى الآثار السلبية التى خلفتها هذه المعاهدة على المسلمين فى الدول المجاورة، فقد منعت السودان من مساعدة المسلمين المطالبين باستقلال ارتيريا عن أثيوبيا، وكذلك الأغلبية المسلمة فى تشاد والتى تسعى لإسقاط الحكومة التشادية، المشكلة بواسطة الأقلية الصليبية فى البلاد.

وعاد التوتر فى الجنوب فى عام ١٤٠٠هـ عندما اتجهت الحكومة إلى تقسيم الجنوب إلى ٣ أقاليم، حتى لا تترك السيطرة فيه لقبيلة الدنكا كبرى قبائل

الجنوب ثم زاد التوتر عام ١٤٠٣هـ عندما طبقت السودان الشريعة الإسلامية، وظهر جون قرنق وهو أحد الضباط فى الجيش السودانى المرابط فى الجنوب، وأصله ينحدر من الجنوب، فانفصل بفرقته عن الجيش السوداني، وقاد حركة التمرد فى الجنوب، وفى الوقت الذى يزيد فيه خطر التمرد فى الجنوب نجد الشمال يقع فى الصراع على الحكم، وتقوم الصليبية العالمية بدورها فى تقوية التمرد والصراع فى السودان، ومعها اليهود وتعيش السودان الآن فتره عصيبة بعد اتحاد المعارضة مع المتمردين ضد النظام فى السودان، وبروز مشكلة دارفور حيث الصراع الدائم وشبح الحرب الأهلية المسيطر على الأجواء، وقد أدت الضغوط الدولية والتلويح بقطع المساعدات وفرض الحصار بعد ظهور مشكلة دارفور إلى قبول الحكومة السودانية بشروط الصلح بين الشمال والجنوب، والذي يعطي للجنوب امتيازات وحقوق كبيرة، كما تم تعديل الدستور وتعيين جون قرنق نائبًا للرئيس السوداني في يوليو ٢٠٠٥، وكل المؤشرات تشير إلى تمزيق وتفتيت السودان بسبب الصراعات الدائرة على أرضه.

الصومال:

كانت الصومال تمثل مساحة تقترب من ضعف المساحة الحالية للبلاد، ولكن فتت المستعمرون الصليبيون الصومال إلى عدة أجزاء، فأخذت إنكلترا جزءًا عرف بالصومال الإنكليزى، وأخذت إيطاليا جزءًا عرف بالصومال الإيطالى، وأعطيت الحبشة جزءً من الصومال، وهو إقليم أوغادين، وأعطيت كينيا جزءًا، وأخذت فرنسا جزءًا آخر عرف بالصومال الفرنسي.

ولم يتمكن الصوماليون من توحيد كل هذه الأجزاء المفتتة باستثناء الصومال الإنكليزى والصومال الإيطالى، وذلك أيضًا بعد أن أعطت إنكلترا جزءًا آخر من الصومال لأثيوبيا، وكون الصومال الفرنسى ما يعرف الآن بدولة جيبوتى،

ومازالت أثيوبيا وكينيا تحتفظان بما ضم إليهما من أراضى الصومال حتى الآن.

عندما استقل كل من الصومال الإنكليزى والصومال الإيطالى عام ١٣٨٠هـ اتفقا فى هدفهما نحو وحدة الصومال، وكونا جمهورية الصومال التى أعلنت أنها ستعمل على استعادة أراضيها المفقودة فى أثيوبيا وكينيا، وتوترت العلاقات بين هاتين الدولتين والصومال حتى وقعت الحروب، وكان أولها فى عهد الرئيس الصومالى عبد الرشيد على شير مارك، فقد وقع القتال بين الصومال وأثيوبيا عام ١٣٨٤هـ ثم أغتيل الرئيس الصومالى عام ١٣٨٩هـ واستطاع محمد زياد برى أن يسيطر على البلاد واتجه إلى الروس، وأعلن عن تطبيق الاشتراكية فى البلاد وأعلن عن إلغاء اللغة العربية برغم كون الصومال أحد أعضاء جامعة الدول العربية، ثم حدثت الحرب بين الصومال وأثيوبيا عام ١٣٩٨هـ وفى هذه المرة دعمت الصومال جبهة تحرير الصومال الغربية فى أثيوبيا، ودخلت قوات من الصومال إلى أثيوبيا، وتسبب هذا الهجوم فى قطع العلاقات مع الروس الذين ساعدوا الأثيوبيين، واضطرت الصومال للانسحاب من أثيوبيا.

ظلت العلاقات متوترة بين البلدين حتى أبرم اتفاق السلام بين الدولتين عام ١٤٠٦هـ وبرغم ذلك أخذت أثيوبيا تدعم المعارضة الصومالية، وتدخل قواتها أرض الصومال، وبالنسبة لكينيا فقد تحسنت علاقاتها مع الصومال عام ١٤٠٤هـ، بيد أن كينيا قد اتهمت الصومال بدخول حدودها عام ١٤١٠هـ لمطاردة المعارضة، وتوترت العلاقات مرة أخرى بين الصومال وأثيوبيا لدعم أثيوبيا للمعارضة فى الصومال، فأنشأت الصومال مكتبًا للمعارضة الأثيوبية فى مقديشو فزاد دعم أثيوبيا للمعارضة الصومالية، واشتدت المصادمات بين قوات حكومة الصومال وقوات فصائل المعارضة وحققت المعارضة انتصارات كبيرة على قوات الحكومة.

اضطر محمد زياد برى أن يفرمن البلاد ودخلت قوات المعارضة مقديشو عام ١٤١١هـ بقيادة محمد فرح عيديد وعين على مهدى رئيسًا للجمهورية بصفة مؤقتة لحين استقرار الأوضاع فى البلاد، ثم حدث الخلاف بين فصائل المعارضة التى تنتمى إلى عدة قبائل فى الصومال، فوقع الصدام بينها، وبدأت النزعات الانفصالية فأعلن فى شمال الصومال عن تكوين جمهورية مستقلة فى الوقت الذى يسيطر الحزب الاشتراكى الموالى لمحمد زياد برى على جنوب البلاد، بينما الصراع على أشده فى مقديشو بين محمد فرح عيديد وعلى مهدى، وقتل الآلاف فى الحرب الأهلية الدائرة فى الصومال وفشلت الكثير من الجهود الرامية للمصالحة بين الفصائل المتنازعة، وحاولت الولايات المتحدة اتخاذ الظروف التى تمر بها البلاد ذريعة لتدخل قواتها الصومال، وبالفعل أرسلت قواتها إلى الصومال وساهمت معها دول أخرى متعددة الجنسيات ولكن هذه القوات لم تستطع إرساء الاستقرار فى البلاد وقتل منها الكثير فاضطرت إلى الانسحاب من الصومال، وقتل محمد فرح عيديد فى الحرب الدائرة فى الصومال، وجاء ابنه ليتسلم مكانه وعقد فى عام ١٤١٨هـ اتفاقًا للمصالحة بين الفصائل المتناحرة فى الصومال بالقاهرة وهدأت الأوضاع إلى حد كبير، بعد آلاف الأرواح التى أزهقتها الحروب والمجاعات ونسأل الله عز وجل أن تستقر الأوضاع تمامًا بالصومال وأن يتوقف نزيف الدم بها.

جيبوتي:

كانت خاضعة للاستعمار الفرنسى الذى كان يطلق عليها الصومال الفرنسى، ثم أطلق عليها عفار وعيسى، وهما القبيلتان اللتان يتكون منهما السكان فى جيبوتى، واستقلت جيبوتى عن فرنسا عام ١٣٩٧هـ وتسلم حسن جوليد ابتدون رئاستها وتلزم جيبوتى سياسة الحيدة مع الدول المجاورة وهى

عضو فى جامعة الدول العربية.

جزر القمر:

وتسكنها أغلبية مسلمة كاسحة وقد دخلها الإسلام عن طريق الدعوة، وهجرة مجموعة من العرب والفرس، وقد خضعت جزر القمر للاحتلال الفرنسى، واستمر الاحتلال حتى استقلت الجزر عام ١٣٩٥هـ، وقد منحت فرنسا الجزر استقلالها باستثناء جزيرة مايوت، بسبب وجود جالية فرنسية كبيرة بها، ومما يميز جزر القمر عن بقية إفريقيا وجود المرتزقة الأوربيين بها بشكل كبير لحد وصل إلى تمكنهم من قلب نظام الحكم عدة مرات فى الجزر.

وكان أول رئيس لجزر القمر بعد استقلالها أحمد عبد الله، ولم يشغل منصبه إلا قليلاً ثم قام انقلاب بقيادة على صويلح فى نفس العام أطاح بأحمد عبد الله وتسلم سعيد محمد جعفر رئاسة الدولة، ثم أطاح على صويلح بسعيد محمد جعفر وتولى مكانه عام ١٣٩٦هـ، ثم لعب المرتزقة الأوربيون دورهم وقاموا بانقلاب قاده بوب دينار وقتلوا الرئيس على صويلح وأعيد الرئيس أحمد عبد الله إلى الحكم، وكان ذلك عام ١٣٩٨هـ وألغت منظمة الوحدة الأفريقية عضوية جزر القمر فيها لكثرة المرتزقة الأوربيين بها.

واستمرت محاولات الانقلاب التى يدبرها المرتزقة الأوربيون فى الجزر وفشل أكثرها ثم اغتيل الرئيس القمرى أحمد عبد الله فى عام ١٤١٠هـ وتسلم بوب دينار السلطة لحين اختيار رئيس جديد للدولة ثم اختير سعيد محمد جوهر رئيسًا للبلاد وحاول بوب دينار أن يتمسك بالسلطة، إلا أن فرنسا استغلت هذا الموقف ووصلت إلى جزر القمر بحجة إرساء الاستقرار فى الجزر، وفر على أثر ذلك بوب دينار مع مجموعة من المرتزقة إلى خارج جزر القمر، وأعلن الرئيس سعيد محمد جوهر أنه سيسمح للقوات الفرنسية بالتواجد فى جزر القمر

لتدريب قوات الأمن القمرية، وقد حاولت جزر القمر الانضمام إلى جامعة الدول العربية، ولم تقبل الجامعة انضمامها إلا فى عام ١٤١٧هـ وتعيش الآن جزر القمر فترة عصيبة أخرى من تاريخها بعد قيام عدة جزر بمحاولة الانفصال وتكوين دول مستقلة وقد قام المرتزقة الأوروبيون بدور فعال فى هذه المحاولات وكان أشهرهم مرتزق فرنسى قام بانقلاب فى عام ١٤١٨هـ.

تشاد:

وهى من الدول الأفريقية ذات الأغلبية المسلمة الكاسحة وقد خضعت للاستعمار الفرنسى حتى أعطاها الاستقلال فى عام ١٣٨٠هـ بعد أن سلم النصارى مقاليد الحكم فى البلاد، فقد تسلم رئاسة الجمهورية فرانسو تمبالباى وهو نصرانى برغم أن نسبة النصارى فى البلاد لا تزيد عن ٥٪، وتكونت الحكومة التشادية بحيث شكل المسلمون نصفها والنصارى والوثنيون نصفها الآخر برغم أن نسبة المسلمين ٨٥٪ من السكان والوثنين ١٠٪ والنصارى ٥٪ مما يعد إجحافا كبيرًا بحقوق المسلمين، وقد دعمت القوات العسكرية الفرنسية التسلط النصرانى على البلاد، وذلك بالاتفاق معهم على وجود قواعد عسكرية فرنسية بتشاد.

وكانت الأوضاع فى البداية مستقرة بالبلاد، ثم بدأ الحقد الصليبى يسقط أقنعته المزيفة ويظهر بوجهه الحقيقى، وذلك عندما زار السفير اليهودى الرئيس التشادى والذى استقبله فى عام ١٣٨١هـ، فاهتزت مشاعر المسلمين لذلك، وذلك لكون اليهود العدو رقم واحد للمسلمين، ولعدوانهم المستمر على الإسلام والمسلمين على مر التاريخ، فعارض الوزراء والسياسيون المسلمون قبول سفير لإسرائيل فى البلاد، وأعلنوا ذلك للرئيس الذى لم يأبه برأيهم ووعد السفير الإسرائيلى بردع المسلمين، وبالفعل أجرى الرئيس التشادى تعديلاً

وزاريا أخرج فيه الوزراء المسلمين، وأحل مكانهم غير مسلمين واعتقل الوزراء والسياسيين المسلمين ونفى بعضهم إلى الخارج فاستيقظ أهل البلاد المسلمون من سباتهم العميق وعمت الثورات أرجاء البلاد حتى بلغت ذروتها عام ١٣٨٥هـ وتشكلت الجبهة الوطنية لتحرير تشاد واتخذت من السودان مقرًا لها وزاد اشتعال الثورة فى عام ١٣٨٧هـ وفى هذه المرة بقيادة الجبهة الوطنية لتحرير تشاد واستطاعت أن تسيطر على الأجزاء الشمالية من البلاد، وأخذت فرنسا تساعد الرئيس التشادى فى التصدى للثورة، وآزرت ليبيا الثوار التشاديين وانتقل مقر الجبهة الوطنية لتحرير تشاد إلى الجزائر وفى عام ١٣٩١هـ، فشل انقلاب بقيادة أحمد عبد الله الذى انتحر بمجرد فشل الانقلاب، واتهمت تشاد ليبيا بأنها وراء هذا الانقلاب، ثم تدخلت ليبيا بشكل أكبر فى المشكلة التشادية، واحتلت شريط أوزو عام ١٣٩٣هـ بالإضافة إلى دعمها للثوار التشاديين، وفى عام ١٣٩٥هـ حدث انقلاب عسكرى بقيادة رئيس الأركان النصرانى عبد القادر كاموغا قتل على أثره الرئيس التشادى فرانسوتمبالباس، وعين فيلكس مالوم النصرانى رئيسًا للبلاد.

ثم عقد مؤتمر فى الخرطوم للمصالحة الوطنية، والذى يقضى بالاعتراف بفيلكس مالوم رئيسا للجمهورية وحسين حبرى رئيسًا للوزراء، ثم ما لبث أن زادت الخلافات بين رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء، واستطاعت الجبهة الوطنية لتحرير تشاد أن تسيطر على أجزاء كبيرة من تشاد بقيادة غوكونى عويدي، الذى تؤازره ليبيا وذلك فى عام ١٣٩٨هـ، ثم انهارت السلطة تمامًا فى تشاد ودخلت القوات الموالية لحسين حبرى العاصمة نجامينا وفر فيلكس مالوم خارج البلاد، ودخلت أيضًا القوات الموالية لغوكونى عويدى العاصمة نجامينا، ثم عقدت مفاوضات بين حسين حبرى وغونكى عويدى وطرحت عدة مقترحات لاستقرار البلاد، ولكن الاتفاقات التى عقدت لم تدخل حيز التنفيذ

إلا فترة وجيزة بالبلاد، ثم عادت الانقسامات والحرب الأهلية إليها وانسحبت القوات الفرنسية من تشاد عام ١٤٠٠هـ ليزيد احتدام القتال بين الأطراف المتصارعة وخاصة بعد أن أصبح الصراع بين المسلمين.

وفى عام ١٤٠٠هـ عقدت ليبيا معاهدة صداقة ودفاع مشترك مع حكومة غوكونى عويدى، وتدخلت القوات الليبية بشكل مباشر فى الحرب الدائرة بينه وبين حسين حبرى، واستطاع غوكونى عويدى أن ينتصر وانسحب حسين حبرى إلى الحدود مع السودان، ودعمه كل من مصر والسودان لخلافهم مع ليبيا فى ذلك الوقت وقد اقترح لقيام وحدة بين ليبيا وتشاد، ولكن غوكونى رفض وطلب من ليبيا الانسحاب من تشاد، فلبت ليبيا طلبه وسحبت قواتها عام ١٤٠٢هـ فاستغل حسين حبرى انسحاب ليبيا، واستطاع أن يدخل العاصمة نجامينا فى نفس العام، وشكل مجلس برئاسته وشغل منصب رئيس الجمهورية، وفر غوكونى من البلاد وبدعم من ليبيا استطاع أن يسيطر على الأجزاء الشمالية من البلاد بينما تسيطر على الأجزاء الجنوبية من البلاد قوات موالية لعبد القادر كاموغا، وتوهجت نيران الحرب الأهلية فى البلاد وزاد عدد اللاجئين إلى الدول المجاورة.

تعاونت فرنسا مع حسين حبرى بينما تعاونت ليبيا مع غوكونى عويدى وتعاونت الدول الصليبية فى أفريقيا ونصارى العالم مع عبد القادر كاموغا واستغل سماسرة السلاح فى العالم هذه الحرب للحصول على الأموال الطائلة وكثيرًا ما وقعت المصادمات بين ليبيا وفرنسا داخل تشاد، ثم بدأت القوات الليبية تضعف وسلمت أكثر مواقعها إلى قوات غوكونى عويدى، واستطاعت القوات التشادية الموالية لحسين حبرى أن تسيطر على مدينة أوزو من القوات الليبية ووقع الكثير من الليبيين فى الأسر ولكن ليبيا استطاعت استعادتها مرة أخرى ورفضت الجمعية العامة للأمم المتحدة التحكيم فى قضية أقليم أوزو المتنازع عليه بين ليبيا وتشاد

وأرجعت السبب إلى أن هذه القضية من اختصاص منظمة الوحدة الأفريقية، وظل الوضع غير مستقر فى تشاد وظهر إدريس ديبى رئيس أركان الجيش التشادى، ومستشار حسين حبرى الذى تحول إلى معارضة حسين حبرى، وفى نفس الوقت عمل حسين حبرى على استغلال الأسرى الليبيين فى الانضمام لصفوف المعارضة الليبية المتمثلة فى الجبهة الوطنية لإنقاذ ليبيا، والتى يرأسها محمد المقريف.

وفر إدريس ديبى إلى السودان ثم إلى ليبيا والتقى بمعمر القذافى الذى وعده بمساعدته ضد حسين حبرى، وبدأ الخلاف يدب بين حسين حبرى وفرنسا، ووقع القتال بين قوات حسين حبرى والحركة الوطنية للإنقاذ برئاسة إدريس ديبى فى شرق البلاد ولكنه انهزم أمام إدريس ديبى الذى استطاع دخول العاصمة نجامينا وفر حسين حبرى خارج البلاد واعترف غوكونى عويدى بالنظام الجديد للحكم وأطلق سراح الأسرى الليبيين وبدأ الاستقرار يعود للبلاد ولكن ظهرت المعارضة من جديد وحدثت محاولتا انقلاب عام ١٤١٢هـ ولكنهما فشلتا وسكان الجنوب يعترضون على الحكم، ويدعون أن الجيش يتسلط عليهم كما أن هناك بعض المعارضين فى شمال البلاد للحكم لانتماء حسين حبرى إليهم.

النيجر:

استقلت النيجر عن فرنسا عام ١٣٨٠هـ وتولى هامانى ديورى منصب رئيس الجمهورية ومكث فى المنصب أكثر من عشر سنوات ثم قامت القوات المسلحة بانقلاب عسكرى ضده، وعين القائد العام للقوات المسلحة سينى كاونتشى رئيسًا للجمهورية، وانسحبت فى عهده القوات الفرنسية المتبقية فى النيجر، وتوفى الرئيس النيجرى عام ١٤٠٨هـ نتيجة لمرضه وتولى رئاسة النيجر على سايبو.

مالي:

وكانت تعرف بالسودان الفرنسى فى عهد الاحتلال الفرنسى، وقد شكلت قبل

استقلالها مع السنغال دولة متحدة تحت التبعية الفرنسية، ثم ما لبث أن انحل هذا الاتحاد وأعلنت جمهورية مالى المستقلة عام ١٣٨٠هـ، وتسلم الرئيس موديبو كيتا رئاسة للجمهورية، الذى اتسم بسياسته المتضمنة العزلة والاستبداد، ثم قام ضده انقلاب عسكرى عام ١٣٨٨هـ أطاح به، وتسلم موسى تراورى منصب رئيس الجمهورية، وفى عهده نشبت مشكلة النزاع حول الشريط الحدودى بين مالى وبوركينا فاسو، ووقعت مصادمات بينهما عام ١٤٠٦هـ ثم اتفقت الدولتان على التحكيم الدولى الذى أقر بتقسيم المنطقة بين الدولتين مناصفة.

وفى عام ١٤١١هـ استطاع أحمد تومانى ثورى أن يستولى على السلطة ويطيح بموسى تراوري.

السنغال:

كما سبق وأن ذكرنا فإن السنغال ومالى شكلا دولة مالى المتحدة فى ظل الاحتلال الفرنسى، وما إن استقلت هذه الدولة عن فرنسا حتى انفصلت السنغال عن اتحاد مالى، وأعلنت جمهورية السنغال عام ١٣٨٠هـ وتولى ليوبولد سنجور منصب رئيس الجمهورية، والذى استقال من منصبه عام ١٤٠١هـ وترك الرئاسة لرئيس وزرائه عبده ضيوف، وفى عهده جرت مفاوضات للاتحاد مع غامبيا ودخلت السنغال غامبيا ثم فشلت الوحدة بينهما، وانسحبت القوات السنغالية من غامبيا عام ١٤١٠هـ، وكذلك وقعت أزمة سياسية بين موريتانيا والسنغال سبق أن تكلمنا عليها فى الجزء الخاص بموريتانيا.

غامبيا:

وقع تنازع بين إنكلترا وفرنسا عليها انتهت بتنازل فرنسا عنها لإنكلترا واستقلت عام ١٣٩٠هـ وأعلن قيام الجمهورية التى تولى رئاستها داود غاوارا وفى عام ١٤٠٠هـ طلب من السنغال أن تدخل قواتها غامبيا لمساعدتها فى ضبط الأمن بها، وحدث فى

عام ١٤٠١هـ انقلاب فى غامبيا أطاح بداود غاوارا، وتسلم كاكوى سامبا سانيانغ رئاسة الجمهورية، ودخلت القوات السنغالية غامبيا، واستطاعت أن تقضى على الانقلاب وأعادت داود غاوار رئيسًا لغامبيا، وقد وضعت خطة لاتحاد غامبيا مع السنغال فى دولة واحدة يطلق عليها سنغامبيا، بحيث يكون عبده ضيوف رئيسًا لها ويكون داود غاوارا نائبًا له ثم اختلف الرئيسان وانحل الاتحاد عام ١٤١٠هـ.

تنزانيا (تنجانيقا):

خضعت تنجانيقا للاستعمار الألمانى، ثم حل الاستعمار الإنكليزى محله بعد هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى، أما سلطنة زنجبار التى كانت تمثل شريطًا ضيقًا على الساحل الشرقى لأفريقيا وجزيرتى زنجبار وبمبا، فقسمت أراضيها بين الفرنسيين والإنكليز والألمان والطليان، حتى لم يبق لسلطانها إلا جزيرتا زنجبار وبمبا، ثم آلت كل سلطنه زنجبار إلى الإنكليز عام ١٣٨٠هـ وأعطت إنكلترا تنجانيقا (تنزانيا) الاستقلال عام ١٣٨١هـ وأصبحت من دول الكومنولث البريطانى، ومنحت سلطنة زنجبار استقلالها عام ١٣٨٣هـ وكان سلطانها هو جلمشيد بن عبد الله خليفة، فلعبت السياسة الدولية دورها فى زنجبار وخلقت الفتنة بين المسلمين والأفارقة والعرب فى زنجبار، فوقع انقلاب عسكرى فى زنجبار عام ١٣٨٣هـ بقيادة عبيد كرومى أطاح فيه بالسلطان جلمشيد وقتل فى هذا الانقلاب ما يزيد عن ١٦٠٠٠ عربى لأن الاستعمار صور للأفارقة أن العرب محتلون للجزيرة لا يحق لهم حكمها، وقتل من المسلمين ما يزيد عن ٥٤٠٠٠ ووقع عبيد كرومى مع حكومة تنجانيقا اتفاقًا ينص على الاتحاد معها فى دولة واحدة أطلق عليها تنزانيا، وكان رئيس تنزانيا يوليوس نيريرى قد جعل عبيد كرومى نائبًا له.

وانتقم الله من عبيد كرومى الذى ظن أنه بما فعل سينال أعلى المناصب فى

البلاد، ولكنه نسى أن أعداء الإسلام لا يبقون على أحد، وخاصة إن كان من المسلمين، وقد رأوا أن دوره قد انتهى ووجوده يمثل نفوذًا مسلمًا فى البلاد فاغتيل عام ١٣٩٤هـ، وعين عبود جومبى حاكمًا لجزيرة زنجبار وأصبح الشعب الزنجبارى غير راض عن الاتحاد بين زنجبار وتنزانيا، وذلك لأن السلطة بيد النصارى، بينما السكان فى كل زنجبار وتنزانيا أغلبيتهم مسلمون، وكان الحكم النصرانى يمارس أبشع وسائل القهر للمسلمين فى تنزانيا، وقد ساعدت القوات التنزانية الجبهة الوطنية الأوغندية فى الإطاحة بالرئيس الأوغندى المسلم عيدى أمين عام ١٣٩٩هـ، واستقال عبود جومبى من منصبه عام ١٤٠٣هـ، وعين على حسن موينای حاكما على زنجبار عام ١٤٠٣هـ وكان يشغل فى نفس الوقت منصب نائب الرئيس التنزانى وانتخب رئيسا لتنزانيا عام ١٤٠٥هـ بعد يوليوس نيريرى، وأصبح بالفعل رئيسًا للجمهورية وساعدت تنزانيا موزمبيق ضد المعارضين للحكومة عام ١٤٠٧هـ وأنزلت قواتها إليها ثم انسحبت فى عام ١٤٠٨هـ ودعمت موسيفينى الذى استولى على السلطة فى أوغندا عام ١٤٠٦هـ، وتبلغ نسبة المسلمين فى تنزانيا ٦٢٪ أما النصارى فيبلغون ٢٧٪ والوثنيون ١١٪ وتزيد نسبة المسلمين فى زنجبار فتصل إلى ٩٠٪.

نيجيريا:

استقلت نيجيريا عن إنكلترا عام ١٣٨٣هـ وكانت تتكون من عدة أقاليم اتحادية أضيف إليها جزء من الكاميرون قبل استقلالها، ونيجيريا من إحدى دول رابطة الشعوب الإنكليزية. وتبلغ نسبة المسلمين فى نيجيريا ٧٥٪، وأما النصارى ١٥٪ والباقى وثنيون، وكالعادة قبل أن يترك الاستعمار البلاد ترك السلطة فى يد النصارى الأقلية فشغل ناندى أزيكوى منصب رئيس الجمهورية وفى نفس الوقت كان الضباط ذوى الرتب العالية فى الجيش من النصارى،

فأصبح الجيش أيضًا بأيديهم، وبرغم ذلك شغل منصب رئاسة الوزراء أبو بكر تفاوة ونائبه أحمد بيللو وهما من المسلمين، وقد عملا على إحياء روح الإسلام فى نيجيريا وإفشال أى محاولة للنفوذ اليهودى، بل أعلنوا ذلك على الملأ وبدأت اللعبة الدولية النصرانية لإخراس أى صوت إسلامى فى نيجيريا، فدعموا أحد الضباط النيجيريين وهو تشوكوجانزوغو فقام بحركة تمرد قتل فيها أحمد بيللو وأبو بكر تفاوة والوزراء المسلمين فى الحكومة.

بل امتد الذبح لمن شك فى تعاونهم مع المسلمين وكان ذلك عام ١٣٨٥هـ ولحبك المؤامرة الدولية استسلم تشوكو مانزوغو لقائد الجيش النصرانى جونسون أغوى إيروني.

ومما هو جدير بالذكر أن أكثر سكان شمال نيجيريا من المسلمين، ويكثر النصارى فى شرق نيجيريا وهم من قبيلة الإيبو، وقد عمل الاستعمار الإنكليزى على دعمهم ليكونوا عونًا له فى تثبيت سلطانهم فى البلاد وسلموهم سلطة البلاد عندما رحلوا منها.

وحتى لا يغضب المسلمون فى الشمال مما يحدث ويفتكون بالنصارى قامت لعبة نصرانية جديدة بدعم الضابط يعقوب غاوون أحد نصارى الشمال الذى يقل فيه النصارى، واستولى على السلطة عام ١٣٨٦هـ وذلك لتهدئة مسلمى الشمال، حيث أن الحاكم منهم، ولكنه فى النهاية نصراني، وفى العام نفسه أمر الحاكم العسكرى لشرقى نيجيريا بجمع جميع المسلمين الموجودين فى الاقليم الشرقى ونقلهم إلى مدينة أونيتشا، وأقام فيهم مذبحة عظيمة نجا منها أفراد قليلون هربتهم قبيلة الكالابار القاطنة فى هذا الإقليم، فلما علم سكان الإقليم الشمالى بذلك انتفضوا وهجموا على ثكنات الجيش فى الشمال، واستولوا على الأسلحة وانتقموا من أفراد قبيلة الايبو المقيمين فى الشمال، والذين أقاموا

المذبحة للمسلمين فى مدينة أونيتشا، واستثنى الشماليون المسلمون من القتل النساء والأطفال، ولم يقتربوا من أفراد قبيلة الكالابار، وحاول تشوكوميكا أوجوكو حاكم الإقليم الشرقى الانفصال عن نيجيريا، وجرت حرب أهلية طاحنة فى البلاد بينه وبين القوات الحكومية انتصرت فى نهايتها القوات الحكومية وفر تشوكوميكا أوجوكو من البلاد.

وفى عام ١٣٩٥هـ عندما كان الرئيس النيجيرى يعقوب غاوون فى مؤتمر القمة الإفريقية فى أوغندا اختار القادة العسكريون فى نيجيريا مرتضى الله رحمة محمد ليكون رئيسًا للبلاد، وحكم لمدة عام ثم اغتيل عام ١٣٩٦هـ فتولى أولسيغن أوباسنجو رئيس أركان الجيش السلطة، وفى انتخابات الرئاسة عام ١٣٩٨هـ فاز شيخوشاغارى على برئاسة نيجيريا، وظل يشغل هذا المنصب حتى حدث انقلاب عسكرى بالبلاد عام ١٤٠٤هـ قادة محمد بخارى وتولى السلطة فى البلاد حتى عام ١٤٠٥هـ حيث جرى انقلاب عسكرى آخر بقيادة بابا نغيدا الذى استولى على السلطة فى البلاد.

الجابون:

خضعت للاستعمار الفرنسى واستقلت عنها عام ١٣٨٠هـ وتوالى على الحكم نصارى حتى جاء عام ١٣٨٧هـ، وتولى الرئيس عمر بونغو رئاسة الجابون وأشهر إسلامه عام ١٣٩٣هـ وبإسلامه أسلمت كل أسرته وقبيلته (البونغو) وأعلنت الكثير من القبائل الأخرى إسلامها: الباو ودوناو وبونو، ووصلت نسبة المسلمين فى الغابون إلى ٥٥٪.

ثانيًا: الدول المستقلة ذات الأغلبية الإسلامية ولكن يحكمها غير المسلمين

تنفرد القارة الأفريقية بهذه الخاصية الغريبة بين قارات العالم الأخرى، فتوجد عدة دول بها تشكل أغلبية مسلمة، وبرغم ذلك تحكمها الأقلية

النصرانية، ويرجع سبب ذلك إلى الاستعمار النصرانى الذى مكن للنصارى من حكم هذه البلاد، وحتى الآن يساعد النظام الحاكم على الاستبداد بالحكم، وتثبيت الأقدام، وتعمل السلطات الحاكمة بهذه البلاد على إعطاء إحصائيات عن المسلمين تظهرهم أقلية لتثبط همم المسلمين فى البلاد، ولإيهامهم أن الحكام النصارى هم الأغلبية، وللأسف الشديد تنصاغ الكثير من الدول الإسلامية لهذه الإحصائيات وتعترف بها، وهذه الدول هى غينيا، الكاميرون، غينيا بيساو، بنين، توجو، بوركينا فاسو، كوت دى فوار، أفريقيا الوسطى، سيراليون، وأثيوبيا.

غينيا:

استقلت غينيا عن فرنسا عام ١٣٧٨هـ، وبعد مرور عام على استقلالها أعلن عن قيام وحدة بينها وبين غانا، ولكنها لم تستمر وانفصلت الدولتان، وكان أول رئيس للبلاد هو أحمد سيكوتورى الذى قاد النضال ضد الاحتلال الفرنسى، وجرت عدة محاولات للانقلاب ولكنها باءت بالفشل، وتوفى أحمد سيكوتورى عام ١٤٠٤هـ وهو يجرى عملية جراحية فى الولايات المتحدة، فاستولى الجيش على الحكم واختير لانزانا كونتيه رئيسًا للدولة، وهو نصرانى، وكان رئيس الوزراء المسلم ديارا تراورى قد أنزله الرئيس الغينى الجديد من منصبه إلى منصب وزير التربية الوطنية، فحاول القيام بانقلاب عام ١٤٠٥هـ أثناء وجود الرئيس الغينى فى توجو ولكن المحاولة فشلت وقتل ديارا تراورى، وظل النصارى مسيطرين على هذا البلد المسلم والذى تبلغ نسبة المسلمين فيه ٩٣٪.

الكاميرون:

فى البداية كانت خاضعة لفرنسا، ثم اتفقت على التنازل عنها لألمانيا فى مقابل إطلاق العنان للفرنسيين فى المغرب، ثم دخلتها قوات الحلفاء بعد هزيمة ألمانيا فى

الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٧هـ وتقاسم الفرنسيون والإنكليز الكاميرون، ولكن نصيب الأسد منها كان لفرنسا، بينما احتفظت إنكلترا بجزء صغير فى الغرب ضم شماله إلى نيجيريا وحصلت الكاميرون على استقلالها عام ١٣٧٩هـ، وضمت إليها إقليم الكاميرون الجنوبى الذى كان يحتله الإنكليز عام ١٣٨١هـ، وأعلن قيام جمهورية الكاميرون وعين أحمد أهيدجو رئيسًا للجمهورية وتنازل أحمد أهيدجو عن منصبه فى عام ١٤٠٣هـ لرئيس الوزراء بول بيا النصرانى بدون سبب مقنع، فأخذ الرئيس الجديد يعزل السياسيين المسلمين، وطرد كل من رئيس الوزراء ووزير الدفاع المسلمين، لاتهامهما بتدبير مؤامرة للإطاحة به، بل وقدم الرئيس السابق أحمد أهيدجو الذى تنازل له عن المنصب إلى المحاكمة، بتهمة التورط فى الانقلاب وحكم عليه بالإعدام غيابيًا ثم استبدل بالحبس مدى الحياة، ولكنه كان قد فر خارج البلاد مما يبين مدى سذاجة أحمد أهيدجو وغدر وخساسة بول بيا.

وحاول العقيد صالح إبراهيم التمرد على السلطة الجديدة فى البلاد عام ١٤٠٤هـ، ولكن قوات بول بيا سحقت التمرد وأخذ الرئيس بول بيا يعزل الكثير من السياسيين المسلمين بحجة أنهم من مؤيدى الرئيس السابق، بل وزج بأكثرهم ومن أيدهم فى غياهب السجون والمعتقلات، يذوقون فيها أشد ألوان العذاب وكانت العلاقات مع إسرائيل مقطوعة فى عهد أحمد أهيدجو فوصلها الرئيس الصليبى عام ١٤٠٦هـ وقد حدثت صراعات على الحدود بين الكاميرون ونيجيريا، ولكن ما لبث أن تحسنت العلاقات بينهما.

ومما هو جدير بالذكر أن نسبة المسلمين فى الكاميرون ٦٠٪ بينما نسبة النصارى لا تزيد عن ١٦٪ والبقية وثنيون والسلطة ما زالت بين النصارى.

غينيا بيساو

عانت هذه المنطقة من نير الاحتلال البرتغالى الذى اشتهر بقسوته ودمويته

فى كل مستعمراته، وبخاصة تجاه المسلمين وكانت البرتغال وأسبانيا دائمًا سباقتين فى الفتك بالمسلمين وصب ألوان العذاب عليهم، وقد أخذ أعداء الإسلام القدوة منهما فى إبادة المسلمين.

استطاعت غينيا بيساو بعد عناء شديد أن تستقل عن البرتغال عام ١٣٩٤هـ وبرغم أن حوالى ٦٠٪ من السكان مسلمون، إلا أن البرتغاليين قد تركوا السلطة بيد النصارى الذين يمثلون أقلية فى البلاد.

بنين

وكان يطلق عليها داهومى وخضعت للاستعمار الفرنسى، واستقلت عنه عام ١٣٨٠هـ وتغير اسمها إلى بنين عام ١٣٩٥هـ وتبلغ نسبة المسلمين فى البلاد ٦٠٪ ونسبة النصارى الذين بيدهم السلطة ١٠٪.

توجو:

اشتركت كل من فرنسا وإنكلترا فى السيطرة على توجو ونالت استقلالها عام ١٣٧٩هـ وتبلغ نسبة المسلمين بها ٥٥٪ وطبعًا كغيرها ترك المستعمر السلطة للنصارى من أهل البلاد الذين لا يشكلون أكثر من ١٥٪ والباقى وثنيون.

بوركينا فاسو:

وقد استقلت عن فرنسا عام ١٣٨٠هـ، وكان يطلق عليها فولتا العليا ثم تغير اسمها إلى بوركينا فاسو عام ١٤٠٤هـ، وبرغم أن نسبة المسلمين ٦٥٪ إلا أن المستعمر ترك السلطة للنصارى حتى الآن، وقد قامت بها عدة انقلابات عسكرية ولا فرق بين أى منها، فالحكم فى النهاية يؤول للنصارى الذين لا تزيد نسبتهم فى البلاد عن ١٠٪.

كوت دى فوار:

وكانت خاضعة للاحتلال الفرنسى واستقلت عام ١٣٨٠هـ، وكان يطلق

عليها ساحل العاج ثم احتفظت باللفظ الفرنسي وهو كوت دى فوار، ليكون الاسم الوحيد الدال على الدولة عام ١٤٠٦هـ، وبرغم أكثرية المسلمين فيها الذين تزيد نسبتهم عن ٦٠٪ من السكان، إلا أن المستعمر قد ترك السلطة بيد النصارى الذين لا تزيد نسبتهم عن ١٢٪.

أفريقيا الوسطى:

استقلت عن فرنسا عام ١٣٨٠هـ وتبلغ نسبة المسلمين فيها ٥٥٪ وبرغم ذلك فالسلطة بيد النصارى البالغ نسبتهم ٢٥٪ وحدثت بها عدة انقلابات فى البلاد لم تغير بها الحال فقد ظل الحكم للنصارى.

سيراليون:

كانت للاستعمار الإنكليزى واستقلت عنه عام ١٣٨٠هـ برغم أن أكثرية السكان من المسلمين، إلا أن المحتل قبل أن يرحل قد أعطى السلطة إلى النصارى الذين لا تزيد نسبتهم عن ١٠٪ من السكان، بينما يشكل المسلمون أكثر من ٨٠٪ من السكان.

أثيوبيا وإريتريا:

كما سبق وأن ذكرنا أن الحبشة (أثيوبيا) قد نجت من الاستعمار الأوروبى للتخطيط الاستعماري، الذى عمل على دعمها كدولة نصرانية تحيط بها الدول الإسلامية لتكون قاعدة الصليبية فى شرق أفريقيا، فتكون لها أطماع توسعية فى بلاد المسلمين حولها، وكذلك تكون عونًا لأى محاولة تزعزع استقرار الدول المحيطة بها.

وكان موسولينى ذو الأطماع التوسعية قد عارض الكنيسة، بل ألغى الفاتيكان، وتوسع فى الحبشة واحتلها لفترة قليلة وكانت الحبشة تضم فى ذلك الوقت هضبة الحبشة وإقليم هرر وإقليم أوغادين ذوى الأغلبية المسلمة الكاسحة، الذين أهداهما الإنكليز والطليان للحبشة عندما احتلوا الصومال ومصر، وكانت إيطاليا تحتل

إريتريا فأعلن موسولينى عن تشكيل أفريقية الشرقية الإيطالية التى تتكون من إريتريا والحبشة والقسم الجنوبى من الصومال، ثم قامت الحرب العالمية الثانية وانهزمت إيطاليا ودخلت قوات الحلفاء أملاكها الأفريقية، وأعلنت الحبشة الحرب على دول المحور، ثم قررت الأمم المتحدة فصل الحبشة عن إريتريا والصومال الجنوبى والغربى (هرروأوغادين) وأعطت الحبشة استقلالها، وبذلك فهى لم تخضع للاستعمار أكثر من ٧ سنوات، بينما أعلنت أن الصومال الجنوبى والغربى وإريتريا من أملاك إيطاليا، وأخذ إمبراطور الحبشة هيلاسيلاسى يعلن عداوته الصريحة للإسلام، وأخذ يعمل على ضم الأجزاء الإيطالية إلى الحبشة والدول النصرانية معجبة جدًا باتجاه أثيوبيا، فعملت على تحقيق أهدافها على حساب المسلمين فأصدرت الأمم المتحدة قرارها عام ١٣٧٠هـ بإقامة اتحاد بين إريتريا والحبشة، وبذلك ضمت إريتريا للحبشة، ثم أرسلت الحبشة جيشها عام ١٣٧٢هـ فاحتل إريتريا، وواصلت الحبشة أساليبها القمعية فى إريتريا، فمنعت تدريس اللغة العربية وعملت على إسكان النصارى وإقطاعهم الأراضى الخصبة فى إريتريا، وطرد المسلمين إلى أفقر المناطق.

هذه أمثلة قليلة من البشاعة التى ارتكبها الأحباش فى إريتريا وما كانوا يرتكبونه فى الحبشة، وكل المناطق الإسلامية الخاضعة لهم، وعلى الصعيد الخارجى وطدت الحبشة علاقتها مع اليهود وأطلقت العنان لنفوذهم فى البلاد وتدريب الجيش، ومن ناحية أخرى زادت أعمال القمع ضد المسلمين فى البلاد، وتأسست جبهة تحرير إريتريا فى مقديشو وفى عام ١٣٨٢هـ صدر قرار حكومى من الحبشة باحتلال إريتريا عسكريًا بحيث يكون ضمها رسميًا.

مشكلة الصومال الغربى

أطلقت إنكلترا وفرنسا وإيطاليا العنان للحبشة فى التوسع فى الصومال الغربى، فضمت الحبشة منطقة هرر وأوغادين ثم جاء الاحتلال الإيطالى للحبشة وأعلن ضم الصومال الغربى إلى الصومال الإيطالى، ثم خرج الطليان من الحبشة ودخلتها قوات

الحلفاء التى أعلنت أنها ستمنح الصومال الغربى استقلاله بعد عشر سنوات، وقبل أن تمر السنوات العشر سحبت القوات الإنكليزية قواتها من الصومال الغربى لتتركه لقمة سائغة للأحباش، بعد أن أبرمت معهم اتفاقًا بذلك عام ١٣٧٤هـ فدخل الأحباش الصومال الغربى وضموه إلى الحبشة، ولم تظهر الأمم المتحدة أى اعتراض على هذا التصرف، وواصل الأحباش تعنتهم وبغيهم فى الصومال الغربى (أوغادين وهرر) فأغلقوا دور حفظ القرآن وجرموا تعليم اللغة العربية، ومارست وسائل القمع المتعددة مع المسلمين من قتل واعتقال وتعذيب، وقامت حركة كبيرة فى أوغادين عام ١٣٨٣هـ بقيادة الشيخ طاهر تمكنت من السيطرة على هرر ومناطق كثيرة محيطة بها، وحققت الكثير من الانتصارات على الجيش الحبشى، فوقف اليهود والنصارى فى العالم مع الحبشة، وكان فى جيش الحبشة الكثير من النصارى واليهود والكثير من الأسلحة اليهودية والأمريكية والأوروبية، فقضت على الحركة الإسلامية، وواصل الأحباش سياستهم القمعية للمسلمين، وتاريخ الأحباش حافل بالمذابح والإبادة للمسلمين ومحاولات التنصير الإجبارية المستمرة لهم، وسبى النساء، وخطف الأطفال، والإرهاب، وفرض الضرائب الباهظة عليهم، بالإضافة إلى المحاولات المستمرة بطمس هويتهم، وبناء الكنائس فى مدنهم، واستمر الاضطهاد والتنكيل بالمسلمين على نطاق أوسع وأشرس.

الأطماع فى جنوب السودان

عملت الحبشة على مساعدة الانفصاليين فى جنوب السودان لعدة أهداف منها؛ أنها تطمع فى ضم جنوب السودان، حيث يقود النصارى فكرة الانفصال، كما أن السودان تساعد جبهة تحرير إريتريا، فتريد أن تضغط على السودان ليكف عن مساعدة الإريتريين، وعلى الأقل ستستفيد بزعزعة الأوضاع فى بلد مسلم مجاور كما رسم لها التخطيط الصليبي.

سقوط نظام هيلا سيلاسى

قامت القوات المسلحة الأثيوبية بانقلاب عسكرى عام ١٣٩٤هـ، وأسقطت نظام هيلا سيلاسى مستغلة المجاعة والأحوال المتردية بالبلاد، وأعلن قيام الجمهورية فى أثيوبيا، والذى طبق فيها النظام الشيوعى وأصبح منغستو هو الحاكم العسكرى للبلاد المسيطر عليها، ونشأت عدة مجموعات معارضة للحكم الجديد.

الوضع فى الصومال الغربى

قامت قوات جمهورية الصومال عام ١٣٩٧هـ بهجوم يستهدف تحرير الصومال الغربى من الاحتلال الحبشى، واستطاعت إحراز انتصارات كبيرة على الجيش الأثيوبى، ولكن المساعدات الروسية تدفقت على أثيوبيا -وكذلك- اليهود، فانقلبت الآية وتراجعت القوات الصومالية أمام أثيوبيا، التى أخذت تتبعها ودخلت أراضى جمهورية الصومال، ثم اتفقت الدولتان على العودة للحدود الدولية بينهما، وكانت الصومال تدعم المعارضة الأثيوبية فى أثيوبيا؛ ولذلك دعمت أثيوبيا المعارضة الصومالية، وكان لأثيوبيا دور كبير فى سقوط نظام زياد برى عام ١٤١١هـ، ووقوع الحرب الأهلية بها بدعمها للفصائل المتناحرة فى الصومال.

الوضع فى إريتريا

زاد نشاط جبهة تحرير إريتريا منذ عام ١٤٠٤هـ ودخلت عملياتها العسكرية نطاقًا واسعا ضد القوات الحكومية، وفى نفس الوقت وجدت جبهة تحرير تجرة التى تعاونت مع جبهة تحرير إريتريا ضد القوات الحكومية، وأخذت الهزائم تتوالى على القوات الحكومية، وانضمت جبهة تحرير تجرة مع المعارضة الأثيوبية تحت اسم الجبهة الديمقراطية الثورية لتحرير شعوب أثيوبيا، واستطاعت المعارضة الأثيوبية أن تسيطر على أكثر أراضى البلاد، فى الوقت الذى سيطرت فيه جبهة تحرير إريتريا على أكثر أجزاء إريتريا، وجاء عام

١٤١١هـ فاستطاعت قوات تحرير تجرة دخول العاصمة أديس أبابا وإسقاط نظام منغستو واتفق على استفتاء فى إريتريا لتقرير مصيرها، واختارت الانفصال، وبالفعل أعلن قيام جمهورية إريتريا المستقلة عام ١٤١٤هـ ورئيسها أساياسي أفورقى، وقبل أن نترك أثيوبيا ونتكلم عن إريتريا تجدر الإشارة إلى أن سكان أثيوبيا تزيد فيهم نسبة المسلمين عن ٦٠٪ أما فى إريتريا فتزيد نسبة المسلمين عن ذلك بكثير، وبرغم أكثرية المسلمين فى أثيوبيا إلا أن السلطة بيد النصارى شديدى الحقد والبطش على المسلمين.

إريتريا:

عمت الفرحة فى كثير من بلدان المسلمين باستقلال إريتريا عن أثيوبيا بعد أن ذاقت الأمرين من النصارى الأحباش، ولكن غاب عن الكثير من المسلمين الأهداف اليهودية والأمريكية من وراء استقلال إريتريا وقد أجابت الأيام عن هذه الاستفسارات (١).

وعلى الصعيد الخارجى شنت إريتريا هجومًا مفاجئًا على جزر حنيش

---

(١) فقد فرض نصارى العالم واليهود حاكمًا غير مسلم كشرط لإعطاء إريتريا استقلالها، وبمجرد سيطرته (أساياسي أفورقي) على الحكم حتى مضى فى تحقيق الأهداف الصليبية العالمية فى هذا البلد الذى تزيد نسبة المسلمين فيه عن ٧٥ ٪ فدمج عدة أقاليم إسلامية فى مقاطعات مسيحية وشكل حكومة تتكون من ١٢ وزير ٩ منهم نصارى و٣ مسلمين وعمل على طمس الهوية الإسلامية العربية، ورفض انضمام إريتريا إلى جامعة الدول العربية، وعمل على جعل اللغة التجرينية اللغة الرئيسية فى البلاد، ورفض سيادة اللغة العربية برغم أنها اللغة الأكثر انتشارًا فى البلاد، واغتيل الكثير من الشخصيات الإسلامية البارزة فى البلاد واعتقل آخرون، عمل أفورقى على التطبيع الكامل مع إسرائيل، وأغلق الكثير من المعاهد الإسلامية ورفض فتح مكاتب للكثير من المنظمات الإسلامية، بينما فتح الباب على مصراعيه للإرساليات التنصيرية وازداد بطش الجبهة الشعبية بالمسلمين فى إريتريا، واعتدوا على العديد من القرى بها، وأخذوا أكثر من خمسمائة امرأة مسلمة، واختطفوا العديد من الأطفال، وغيرها من الأفاعيل الخسيسة التى تليق بأعداء الإسلام.

التابعة لليمن والقريبة من سواحل إريتريا، واتضحت السياسة اليهودية والأمريكية التى كانت ترمى لجعل إريتريا موقعًا لمنازلة المسلمين وإحداث الوقيعة بينهم، وهذا أسلوب يفوق دعم الحبشة النصرانية ضد المسلمين فهنا يكون العداء بين المسلمين أنفسهم، مما يؤدى إلى نتائج أبشع وأخطر بكثير من العداء بين المسلمين وغير المسلمين، بالإضافة إلى تقوية النفوذ اليهودى والأمريكى فى المنطقة، فقد شارك الجيش الإسرائيلى بعدد من قواته فى احتلال جزر حنيش، كما أمد إريتريا بأسلحة عالية الكفاءة لحسم المعارك مع اليمن، ولم تعقب الولايات المتحدة ولا العالم على هذا الاعتداء، بل ضغط على اليمن لتقبل التحكيم الدولى على جزر حنيش، ومما زاد تأكيد التخطيط الأمريكى اليهودى لتحركات إريتريا مساعدة إريتريا للمعارضة السودانية، والتى جعلت من السودان مسرحًا للحروب والصراعات.

ويقود المقاومة ضد نظام أفورقى حركة الجهاد الإسلامى وجبهة التحرير.

ثالثًا: الدول المستقلة ذات الأقلية المسلمة

وتشمل بقية دول القارة وسنقتصر على عرض نسبة المسلمين فى بعض الدول فيها

١- كينيا ٣٥٪.

٢- أوغندا ٣٠٪ وقد وصل المسلمون إلى الحكم فيها بقيادة عيدى أمين الذى أسقط نظامه بتخطيط صليبى عام ١٣٩٩هـ وذبح فى إسقاطه أكثر من نصف مليون مسلم على يد الجيش التنزانى الذى دخل أوغندا، وكانت تنزانيا فى ذلك الوقت يحكمها نصارى، وتتلقى دعمًا صليبيًا عالميًا لإسقاط نظام عيدى أمين المسلم فى أوغندا، وللأسف نجحت فى ذلك وكان بأوغندا مملكة بوغندا الإسلامية فى عهد الحكم المصرى، حتى جاء الاستعمار الإنكليزى فعمل على إسقاطها.

٣- موزمبيق ٣٠٪.

٤- مالاوت ٣٥٪.

٥- مالاجاش ٢٥٪.

٦- ليبريا ٣٥٪ وقد شهدت حربًا أهلية فى الآونة الأخيرة استهدفت إبادة المسلمين بقيادة عصابة تشارلز تيلور، وارتكب فيهم أبشع جرائم القتل والتمثيل مثل قطع ألسنة المؤذنين، وأبيد الآلاف من المسلمين، واستطاع البعض الفرار إلى الدول المجاورة مثل غينيا وسيراليون، وتتبعت عصابة تشارلز تيلور المسلمين فى سيراليون، وقتلت الكثير منهم وأخذ المسلمون يوحدون صفوفهم لوقف المجازر، وتكونت لذلك حركة إنقاذ مسلمى ليبريا، واستطاعت أن تسيطر على الكثير من الأجزاء ذات الأغلبية المسلمة، والتى بلغت حوالى ثلث مساحة ليبريا وعندما عملت الأمم المتحدة على المصالحة بين الفصائل المتناحرة، وجرى انتخاب رئيس مسلم لليبريا أضرمت الصليبية العالمية الحرب الأهلية من جديد وحدث انقلاب عسكرى فى البلاد أطاح بالرئيس المسلم.

٧- غانا ٣٠٪.

٨- غينيا الاستوائية الجديدة ٣٥٪.

٩- موريشيوس ٢٠٪.

١٠- بوروندى ٢٥٪.

١١- الكونغو ٢٠٪.

١٢- زائير ١٠٪.

الملاحق

ملحق (١) العطاء الحضارى للمسلمين

ملحق (٢) الفرق الإسلامية وأثرها فى التاريخ

ملحق (٣) منظمات وأفكار ضد الإسلام

ملحق (٤) العبر والعظات

ملحق (١)

أولاً: العطاء العلمى للمسلمين عبر التاريخ

إن انطلاقة المسلمين الأولى فى مجال العلوم والمعرفة إنما تنبعث من عقيدتهم. يقول تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾. والرسول ﷺ يقول: «من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع» فيجعل مقام طلب العلم فى صف المجاهدين لإعلاء كلمة الله -عز وجل- من ناحية المنزلة والأجر، ويعتبر الرسول ﷺ الطريق الذى يسلكه طالب العلم طريقًا مؤديًا إلى الجنة فيقول: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهل الله له طريقًا إلى الجنة».

ولم يفرق القرآن بين علم الدنيا وعلم الدين، بل أوصى بهما جميعًا، وجمع علوم الكون فى آية واحدة، وحث عليها وجعل العلم بها سبيل إلى خشية الله وطريق معرفته وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...﴾ وفى ذلك إشارة إلى الهيئة والفلك وارتباط السماء بالأرض، ثم قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ وفى ذلك إشارة إلى علم النبات وغرائبه وعجائبه وكيميائه، ثم قال تعالى: ﴿وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمُرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ وفى ذلك الإشارة إلى علم الجيولوجيا وطبقات الأرض وأدوارها وأطوارها، ثم قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ وفيها الإشارة إلى علم البيولوجيا والحيوان بأقسامه من إنسان وحشرات وبهائم، فهل ترى هذه الآية غادرت شيئًا من علوم الكون؟ ثم يردف ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾ أفلست ترى من هذا التركيب العجيب أن الله يأمر الناس بدراسة الكون ويحضهم على ذلك، ويجعل العارفين منهم بدقائقه وأسراره هم أهل معرفته وخشيته؟

ولسنا فى حاجة إلى الاستطراد فى هذا المعنى، فإن الواقع العلمى الذى سنتحدث عنه الآن يوضح لنا إلى أى مدى أخذ العلماء المسلمون الأوائل على عاتقهم مهمة رفع العلم والاكتشاف والبحث والابتكار.

معرفة تمحيص لا معرفة تبعية وتقليد:

كان أول انفتاح المسلمين الجاد فى مجال العلوم الدنيوية فى العصر العباسى، وقد بدأت بنقل وترجمة تراث الحضارات السالفة وأنفقوا فى سبيل ذلك أموالاً طائلة، فترجم مثلاً كتاب أبقراط الطبيب اليونانى، وكتاب تحليل القياس لأرسطو وكتاب التشريح لجالينوس وبصريات بطليموس، والموازنة له، وكتب أخرى حول الساعة المائية والأجسام الطافية لأرشميدس، لقد أحيا العلماء المسلمون كثيرًا من تراث الأمم السابقة بعد أن كاد يندثر... حتى أنهم كانوا يبحثون عن أصول كتب فقدت ويئس الناس من العثور عليها: (فقد قضى البيرونى أكثر من أربعين سنة يفتش عن نسخة من كتاب مانى «سفر الأسرار» إلى أن وفق فى الحصول عليها).

تقول زيغريد هونكة صاحبة كتاب (شمس العرب تسطع على الغرب):

(لقد عرفت أوروبا تراث العالم القديم عن طريق العرب فقط، فترجمة العرب للمخطوطات اليونانية، والشروح التى وضعها العرب عليها، والكتب التى ألفها العرب، كل هذه كانت العامل القوى فى النهضة العقلية الجرمانية ...).

وقد أنشأ المأمون مدرسة ببغداد أطلق عليها (بيت الحكمة) يتعلم فيها أبناء العرب اللغات المختلفة، حتى يجيدوا النقل عن تلك اللغات، وقد جعل النظر فى أمر هذه المدرسة إلى طبيب نسطورى هو (يحيى بن ماسوية) المتوفى سنة ٢٤٣هـ على علم بالسريانية والعربية.

تطوير وإبداع:

هضم المسلمون علوم الأولين، ثم انطلقوا يطورون فيها ويبحثون، فكانت نهضتهم العلمية السريعة واحتلالهم مكان السيادة فى هذا المجال أمرًا معجزًا.

تقول زيغريد: (... إن هذا الشعب الصحراوى حمل لواء النهضة العلمية الفكرية فى العالم وبسرعة البرق، وظل أبناء الصحراء حاملين لهذا اللواء دون منازع، مدة لا تقل عن ثمانية قرون).

وتقول: (لم يتسلم العرب التراث دون تفكير، بل أخذوه وخلقوه خلقًا جديدًا).

أمثلة:

١ - كان المسلمون أول من استعمل المنهج التجريبى فى علمهم

ولم تكن هذه طريقة الأقدمين ولا يهتمون بذلك، فلم يقتنعوا إلا بالتجربة العلمية فى أبسط الأشياء، فعندما شرع السلطان عضد الدولة فى بناء مستشفى جديد، كلف الطبيب المشهور أبا بكر الرازى اختيار أنسب مكان وأصحه، فاستدعى الرازى بعض غلمانه، وأعطاهم قطعًا من اللحم، وأمرهم بتعليقها فى أماكن متفرقة من نواحى بغداد، ثم مر بعد وقت على قطع اللحم المعلقة، واختار المكان الذى لم تتغير فيه قطع اللحم بسرعة، ولم يعترها التلف، فبنى المستشفى، بهذه التجربة البسيطة نجد أن أبا بكر الرازى اختار المكان الصحى الخالى من الجراثيم.

ولقد اكتشف الحسن بن الهيثم من خلال البحث والتجربة، الخطأ الذى وقع فيه بطليموس وأويقليد. فقد قال كل منهما أن العين ترسل شعاعًا، وإن هذا الشعاع هو الذى يسبب الرؤية، ولكن العكس هو الصحيح؛ لأن الأجسام المرئية هى التى ترسل الأشعة إلى العين، وإن عدسة العين هى التى تستقبل تلك

الأشعة فترى بها الأشياء. وهذا لأن ابن الهيثم جلس فى حجرة مظلمة فلم يـر شيئًا، فسقط شعاع على بعض ما فى الحجرة، فرأى ذلـك الشـيء الـذى سـقط عليه الشعاع فقط. إذًا لو كانت العين هى التى ترسل الأشعة لرأينا الأشياء فـى الظلام، ولكننا لا نراها إلا إذا وقـع عليهـا الضـوء، وانعكسـت منهـا الأشـعة، وأكمل تجاربه، وأخرج القانون.

٢ – كتابة الأعداد

كانت أوروبا تستعمل فى ذلك الوقت الطريقة الرومانية غـير الأنيقـة فـى كتابـة الأعداد، بحيث يعبر عن العدد بوضع أجزائه المؤلفة بجانـب بعضـها. فمـثلا إذا أردنـا أن نكتب رقم ١٨٢٥ نكتب بالأرقام الرومانية علـى النحـو التـالى mdccc xx v لأن مقـــــدار ١٠٠٠ = M و ٥٠٠ = D و ٣٠٠ = ١٠٠ + ١٠٠ + ١٠٠ = C+C+C و ٢٠ = ١٠+١٠ = x + x و 5 = V فاستبدل علماء المسلمين هذه الطريقـة بالطريقـة العشـرية الحديثة، التى لا تزال نسـميها بالطريقـة العربيـة حتـى الآن، وهـذه الطريقـة تتطلـب ابتكار الصفر، ليترتب عليه النظام الذى يحدد مقدار العدد.

٣ – و فى علم الفلك

يقول غوستاف لوبـون: (إن آلات الرصـد التـى اعتمـد عليهـا اليوزجـانى كانت على جانب عظيم من الدقة، فإنه رصد الميول بربع دائـرة نصـف قطرهـا ٢١ قدمًا، وذلك مالا يسهل على الفلكيين فى يومنا هذا).

٤ – وفى مجال الجغرافيا

لم يكن لأوروبا مصدر لتصور شكل العالم إلا ما رسمه الشريف الإدريسى، الذى صنع كرة فضية ضخمة، تمثل الكرة الأرضية وما تزال محفوظة فى متاحف برلين حتى اليوم، وكتابه (نزهة المشتاق فى اختراق الآفـاق) مترجـم إلى معظـم لغات أوروبا الحديثة.

٥ – وفى مجال الطب

يقول المستشرق سيريو:

(إن الرازى وابن سينا سيطروا بكتبهما الطبية على مدارس الغرب زمنًا طويلاً، وعرف ابن سينا فى أوروبا طبيبًا، فكان له على مدارسها سلطان مطلق ستة قرون تقريبًا، فترجم كتابه (القانون فى الطب) المشتمل على خمسة أجزاء فطبع عدة مرات، باعتباره أساسًا للدراسات فى جامعات فرنسا وإيطاليا..).

٦ – فى الصيدلة وعلم الأدوية

اشتهر ابن البيطار الذي ساح فى أسبانيا والمغرب ومصر وسوريا وآسيا الصغرى، ومن مؤلفاته (المغنى فى الأدوية المفردة) (والجامع لمفردات الأدوية والأغذية) وكتاب (المغرب) وهذا الأخير ضم فيه ٢٣٣٠ فصلاً من الأطعمة والأدوية النباتية، وقد عثر على (٣٠٠) وصف لأدوية كانت مجهولة قبل ذلك، حتى عرف فى أوروبا بأنه (أبو علم النبات).

إن الأدلة على العطاء الحضارى للمسلمين فى هذه الفترة الزمنية كثيرة.

يقول غوستاف لوبون: (إن أول من قام بالتجربة والرصد فى الغرب هو بيكُن، ولكنه يجب أن يعترف اليوم بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم).

وتقول هونكة: (حاول اليونانى المفكر شرح وتعليل المعرفة عن طريق الفلسفة، فباشر كيمياء نظرية، وفلسفة طبيعية.. أما العرب فهم أول من ابتدع طريقة الملاحظة، والملاحظة الدقيقة المنظمة).

ثم تقول: (إن أوروبا تدين للعرب وللحضارة العربية، وإن الدَّيْنَ الذى فى عنق أوروبا وسائر القارات للعرب كبير جدًّا، وكان يجب على أوروبا أن تعترف بهذا الصنيع من زمن بعيد، لكن التعصب الديني، واختلاف العقائد، أعمى

عيوننا، وترك عليها غشاوة، حتى أننا نقرأ ثمانية وتسعين كتابًا من مائة، فلا نجد فيها إشارة لفضل العرب وما أسدوه إلينا من علم ومعرفة).

وهكذا بإيجاز شديد كانت أمة الإسلام فى عطائها العلمى للبشرية دافعهم الأول رضا ربهم تبارك وتعالى، وحبهم للإنسانية والرغبة فى إسعادها، فلما دار الزمان وبعد المسلمون عن دينهم، صاروا فى مؤخرة الركب أتباع وأذناب لحضارة غربية همجية، تستخدم العلم لتدمير البشرية بلا حدود ولا ضابط من خشية الله والخوف من عذابه.

وإليك المزيد من أسماء علماء الإسلام الأفذاذ وسوف تلاحظ أمرًا عجيبًا وهو نبوغ الواحد منهم فى أكثر من مجال وتخصص:

اسم العالم	نشأته	المجالات التى اشتهر وبرع فيها
الزهراوي	(٣٢٥ – ٤٠٤)هـ ولد بالأندلس وتوفى بها	أعظم جراح فى الإسلام ومؤلفاته مترجمة إلى اللاتينية ولغات أخرى.
ابن سينا	(٣٧٠ – ٤٢٨)هـ. ولد قرب بخارى وتوفى فى همدان بإيران	فيلسوف وطبيب وكيميائى ورياضى وشاعر من أشهر مؤلفاته: القانون فى الطب ترجم إلى لغات عديدة وكان أشهر كتب الطب فى القرون الوسطى. علقت صورته فى كنائس كثيرة فى أوروبا، وهى لا تزال تزين قاعات كلية الطب بجامعة باريس، كما أن له مؤلفات فى شتى المجالات.

اسم العالم	نشأته	المجالات التى اشتهر وبرع فيها
ثابت بن قرة	(٢٢٠ - ٢٨٥)هـ ولد فى حران (تركيا) وتوفى فى بغداد	فيلسوف وطبيب ورياضى وفلكى يعتبر واضع اللبنات الأولى لعلم حساب التفاضل والتكامل. وله مؤلفات فى كافة المجالات العلمية السابقة
نجم الدين المصري	من علماء القرن السابع الميلادى ولد فى مصر	خريج الأزهر الشريف برع فى علوم الفلك واهتم بدراسة الميقات. له فى مكتبة أكسفورد بانجلترا مخطوطة عربية تضم جداول فلكية بها أكثر من ربع مليون قيمة محسوبة بدقة متناهية.
ابن النفيس	(٦٠٧ - ٦٨٧)هـ ولد بدمشق وتوفى بالقاهرة.	طبيب - فيلسوف - فقيه مكتشف الدورة الدموية الصغرى والتى بنى على أساسها هارفى الإنكليزى اكتشافه للدورة الكبرى بعد ثلاثة قرون من وفاة ابن النفيس.
الحسن بن الهيثم	(٣٥٤ - ٤٣٠)هـ ولد فى البصرة وتوفى فى القاهرة	عالم البصريات - الرياضة - الفلك له أكثر من مائتى مؤلف. وقد سبق الإشارة إلى بعض إنجازاته العلمية.
الجاحظ	(١٦٤ - ٢٥٥)هـ ولد وتوفى بالبصرة	أديب وعالم وله ثلاثمائة وخمسين مؤلف فى مجالات علمية مختلفة من أشهرها كتاب الحيوان والبخلاء.

اسم العالم	نشأته	المجالات التي اشتهر وبرع فيها
جمشيد	ظهر في القرن التاسع الهجرى نشأ في إيران	فلكي ورياضي رصد كسوف الشمس له فيه مؤلفات وهو أول من أدخل الكسر العشرى في الحساب.
الخوارزمي	(١٦٤ - ٢٣٢)هـ ولد في خوار زم وتوفى في العراق	فلكي ورياضي أول من ألف علم الحساب، وهو مكتشف الصفر أطلق عليه الغرب كبير الرياضيين.
الدميري	(٧٤٨ - ٨٠٨) ولد بصعيد مصر (قرية دميرة) درس بالأزهر وأصبح من أساتذته.	علم الأحياء - الأدب - مؤلف كتاب حياة الحيوان الكبرى وهذا الكتاب يعتبر مزيج من العلم والأدب والتاريخ والفقه.
الرازي	(٢٤٠ - ٨٥٤)هـ ولد وتوفى في الرى بالقرب من طهران بإيران.	فيلسوف وطبيب وصيدلي وكيميائى ورياضي وموسيقي. قيل: أن الطب كان ميتًا حتى أحياه جالينوس وكان متفرقا حتى جمعه الرازي، وكان ناقصا حتى أكمله ابن سينا. عدد مؤلفاته يصل إلى ٢٢٤ كتاب.
ابن رشد	(٥١٩ - ٥٩٥)هـ ولد في قرطبة بأسبانيا وتوفى في مراكش بالمغرب	فيلسوف وفلكى وطبيب شرح كتب أرسطو وبسطها، تولى مناصب رفيعة لأمراء الأندلس إلا أنه لأسباب ما اضطهد وسجن عدة مرات، وحرمت كتبه وأحرقت على مرأى ومسمع منه.

اسم العالم	نشأته	المجالات التى اشتهر وبرع فيها
الشريف الإدريسى من نسل الأدارسة	(٤٩٤ – ٥٦٢)هـ ولد فى سبته وتوفى فى صقلية.	برع فى الجغرافيا، وله مؤلف فيه(نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) وبرع كذلك فى العقاقير والنباتات الطبية و له فيه (الجامع لصفات أشتات النبات).
البتّاني	(٢٤٠ – ٧٧٩)هـ ولد فى حران وتوفى بالعراق	نبغ فى الفلك، أطلق عليه بطليموس العرب، حدد بدقة طول السنة المدارية والفصول. أول من استخدم الجيوب والأوتار فى قياس المثلثات والزاويا.
ابن بطوطة	(٧٠٤ – ٧٧٩)هـ ولد فى طنجة (المغرب) وتوفى فى مراكش	رحالة وجغرافى بلغ مجموع أسفاره ١٢٠٠٠٠ كيلو متر أمضى فيها ٣٨ سنة من عمره.
البوزجاني	(٣٢٩ – ٣٨٨)هـ ولد فى بوزجان بإيران وتوفى فى بغداد	رياضى وفلكي أول من وضع النسبة المثلثية(الظل) كما أنه أدخل القاطع وقاطع التمام، وفضله واضح فى حساب المثلثات

اسم العالم	نشأته	المجالات التى اشتهر وبرع فيها
البيروني	(٣٦٢ – ٤٤٣)هـ. ولد فى خوارزم وتوفى فى العراق	فيلسوف ومؤرخ وطبيب وكيميائى ورياضى وفلكي. وله مؤلفات عديدة قدرت بمائة وثمانية مؤلفات.
ابن البيطار	(٥٩٤ – ٦٤٧)هـ ولد بالأندلس وتوفى بدمشق	عالم فى النبات والأعشاب الطبية والصيدلة.
جابر بن حيان	(١٠٣ – ٢١٠)هـ	فيلسوف وكيميائي، وقيل أنه سمى جابر لأنه جبر (أى أصلح) علوم الكيمياء، نقلها من الصنعة القديمة إلى العلم الحديث، وهو شيخ الكيميائيين العرب. وبلغ عدد مؤلفاته مائة وتسعين مؤلفًا..
الخازن	من علماء القرن السادس الميلادى بيزنطى الأصل	رياضى وفلكى وفيزيائى وميكانيكى اخترع ميزانًا لوزن الأجسام فى الهواء وفى الماء، وكانت حساباته وأوزانه بالغة الدقة.

ثانيا: حركة التدوين والجمع والأئمة المجتهدين

(العهد الذهبى للتشريع الإسلامي)

لقد ترك لنا رسول الله ﷺ بعد وفاته قانونًا مكونًا من نصوص الأحكام فى القرآن والسنة، ومواد هذا القانون الأساسى ليس كل واحد من المسلمين أهلاً لأن يرجع إليها بنفسه ويستنبط منها الأحكام، خاصة أن القرآن كان فى أول الأمر مدون فى صحف خاصة محفوظة فى بيت الرسول ﷺ وبيوت بعض الصحابة وهى متفرقة، أما السنة فلم تكن مدونة أصلاً إلا قليلا..

فكان أهم عمل أنجزه الخلفاء الراشدون وأجمعت عليه الأمة أنهم جمعوا القرآن وفق منهج علمى دقيق لكى يكون مرجعًا كاملاً فى الاستنباط والتشريع.

أما المصدر الثانى من التشريع وهو السنة فلم تدون كلها فكانت أيضًا متفرقة محفوظة فى الصدور يتناقلها الثقة، ولكن التدوين فيها تأخر إلى منتصف القرن الثانى، حينما نشطت حركة الجمع والتدوين للسنة النبوية، وكان ممن سبق إليها من رجال هذا القرن: ابن شهاب الزهرى (١٢٤هـ) وابن جريج الملكى (١٥٠) وابن اسحق (١٥١هـ) وسفيان الثورى (١٦١هـ) ومالك ابن أنس (١٧٩هـ) وابن المبارك (١٨١هـ) ثم تتابع الناس.

ثم قيض الله لجمع الحديث فوجًا من طلبة العلم يعدون بالآلاف ويمتازون بعلو همتهم وشدة نشاطهم وقوة احتمالهم وصبرهم وقوة ذاكرتهم وحفظهم، وقد تدفق سيلهم من بلاد العجم، قد شغفوا بجمع الحديث حتى حال بينهم وبين الشهوات، فطاروا فى الآفاق ونقبوا فى البلاد فى البحث عن الروايات المختلفة والأسانيد الصحيحة، وكان لهم هيام وغرام لم يعرفا عن أمة من الأمم المحبة للعلم فى التاريخ، يدل على ذلك ما يروى عن أخبار المحدثين من التجول فى البلاد والسفر فى العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه:

فقد روى أن البخارى صاحب الصحيح قد بدأ رحلته العلمية وهو لا يزال فى الرابعة عشرة من عمره، وقد زار البلاد الإسلامية ما بين بخارى ومصر وشيوخها.

وروى عن أبى حاتم الرازى (٢٧٧هـ) أنه قال: (أول ما رحلت أقمت سبع سنين ومشيت على قدمى زيادة على ألف فرسخ، ثم تركت العدد وخرجت من البحرين إلى مصر ثم الرملة ماشيًا ثم إلى طرطوس ولى عشرون سنة).

وقد سمع محدث الأندلس ابن حبون (٣٠٥هـ) الحديث فى الأندلس والعراق والحجاز واليمن وهكذا قطع قارة أفريقيا من طنجة إلى مصر وعبر البحر الأحمر..

ولم يقتصر عمل هؤلاء المخلصون على جمع الحديث وتدوينه، بل تعدت عنايتهم إلى البحث فى كل ما يتصل بعلم الحديث، ويساعد على معرفة درجة صحة الحديث، كعلم معرفة رجال الحديث أى البحث فى تاريخ وسيرة رواة الحديث، وهو العلم المسمى فى الاصطلاح **علم الجرح والتعديل**. إن هذا العلم هو من مفاخر أمتنا التى لا يشاركها فيها أمة من الأمم، يقول الدكتور (اسبرنجر) Sprenger فى مقدمته الإنجليزية على كتاب الإصابة فى تمييز الصحابة ما ترجمته:

(لم تعرف أمة فى التاريخ -ولا توجد الآن على ظهر الأرض- وفقت لاختراع فن مثل أسماء الرجال الذى نستطيع -بفضله- أن نقف على ترجمة خمسمائة ألف (نصف مليون) من الرجال).

فكان العلماء لا يتحرجون من شيء ولا يهابون من أحد، وهم يتناولون هذا العلم، فهذا الذى يضعفوه أو يوثقونه طالما أنه اتصل بحديث رسول الله وجب بيان حاله، أهو كذاب أم صادق، هل حفظه متين أم ضعيف... ما

أخلاقه؟ وهكذا حتى يضمنوا صحة الحديث.

هكذا أصبح تدوين الحديث موضوع عناية هذه الأمة حتى خرَّجت لنا كتب تجمع ما صح من حديث النبى ﷺ وفى مقدمتها الكتب السبعة التى تواضع عليها علماء هذا الشأن:

١ـ الجامع الصحيح للبخاري. ٢ـ الجامع الصحيح لمسلم.

٣ـ الموطأ للإمام مالك. ٤ـ الجامع للترمذي.

٥ـ السنن لأبى داوود السجستاني. ٦ـ السنن للنسائي.

٧ـ السنن لابن ماجه.

ولا شك أن أميزها فى الصحة والقبول هو (الجامع الصحيح) لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفى البخارى (٢٥٦هـ)،والتالى له (الجامع الصحيح) لمسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى (٢٦١هـ).

تدوين الفقه:

بعد جمع القرآن وتدوين الحديث هذا التدوين الدقيق، أصبحت مصادر التشريع الرئيسية التى يرجع إليها الفقهاء والمجتهدون ممهدة وميسرة، مما شجع على تدوين الفقه كذلك.

وقيض الله لهذا الأمر رجالاً أيضًا من الأفذاذ والنوابغ، كان منهم الأئمة الأربعة أبو **حنيفة** (١٥٠هـ) **مالك** (١٧٩هـ) **والشافعى** (٢٠٤هـ) **وأحمد بن حنبل** (٢٤١هـ) ولقد قدر لفقههم أن يعيش حتى اليوم، وقد وهبوا حياتهم للعلم وآثروا ذلك على كل راحة ولذة وجاه، لقد عرض على الإمام أبى حنيفة منصب القضاء مرتين فأبى وامتنع، ومات فى السجن، وضرب مالك مائتى سوط لأجل مسألة جهر بها، وخلعت كتفاه، وهى أن طلاق المكره ليس

بشيء،وقد قضى الشافعى معظم حياته فى عسر وضنك وبذل صحته وقوته فى استنباط الأحكام وتدوين الفقه، وعارض أحمد بن حنبل اتجاه حكومة هى كبرى الحكومات وأقواها على ظهر الأرض فى عصره، ودافع عن السنة والفكر الإسلامى الصحيح حتى عوقب وضرب وسجن.

وقد أنتج كل واحد منهم ثروة علمية وخلف تراثًا فقهيًا ينوء بالمجامع العلمية والمؤسسات الكبيرة فى هذا العصر، فقد روى أن أبا حنيفة قال ستين ألف مسألة، وكذلك شأن مالك فى الفقه فكتابه المدونة الذى هو مجموعته الفقهية تبلغ نحو ستة وثلاثين ألف مسألة، وكتاب الأم الذى هو من إفادات الشافعى مجموعة فقهية ضخمة تقع فى سبعة أجزاء، وقد جمع بعض العلماء مسائل الإمام أحمد فى أربعين مجلدًا وسموه الجامع لعلوم الإمام أحمد.

ثم تتلمذ على يد هؤلاء فقهاء آخرون هم حشد كبير وذخر عظيم لهذه الأمة الخالدة.

عهد التقليد من (٤٥٠هـ)

هو العهد الذى فترت فيه همم العلماء عن الاجتهاد المطلق، والرجوع إلى المصادر الرئيسية مباشرة من قرآن وسنة، واكتفوا بمجرد تقليد الأئمة السابقين.

ابتدأ هذا العصر من منتصف القرن الرابع الهجرى ويرجع المؤرخون أسباب وقوف حركة الاجتهاد إلى أسباب منها:

١- انقسام الدولة الإسلامية إلى عدة ممالك يتناحر ملوكها مما شغل ولاة الأمور بالحروب والفتن وتدبير وسائل القهر والغلبة، وشغل الناس معهم فدب الانحلال العام وفترت الهمم فى هذا المجال مما أدى إلى وقوف حركة الاجتهاد.

٢-أن العلماء فشت فيهم أمراض خُلُقية، حالت بينهم وبين السمو إلى

مرتبة الاجتهاد، فقد فشا بينهم التحاسد والأنانية فكانوا إذا طرق أحدهم باب الاجتهاد فتح على نفسه أبوابًا من التشهير به، وحط أقرانه من قدره؛ فلهذا كان العالم يتقى كيد زملائه وتجريحهم له بأنه مقلد وناقل لا مجتهد ومبتكر، وبهذا ماتت روح النبوغ ولم ترفع فى الفقه رؤوس، وضعفت ثقة العلماء بأنفسهم وثقة الناس بهم فولوا وجههم نحو مذاهب الأئمة السابقين.

٣-التعصب المذهبى من جهال أتباع الأئمة الفقهاء الذين ينتصرون لمذهبهم أصوله أو فروعه بكل الوسائل المنطقية وغير المنطقية، فتنافرت القلوب حتى بلغ الأمر بأحد أتباع الحنفية أن قال: كل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو مؤول أو منسوخ!! والأئمة الأربعة براء من هؤلاء فقد كانوا إخوة متحابين غير متعصبين شعار أحدهم: (إذا صح الحديث فهو مذهبي) و(كل أحد يؤخذ من كلامه ويرد إلا المعصوم ﷺ).

وأخيرًا فإن حاجة الأمة إلى أئمة مجتهدين لا تنقطع خاصة مع كثرة الحوادث والمشكلات التى تظهر مع التطور التكنولوجى الهائل وغيره، فنسأل الله عز وجل أن يرزق الأمة أمثال هؤلاء الأفذاذ، إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير.

ثالثًا: غير المسلمين فى الدولة الإسلامية

الأصل فى هذا الموضوع قوله تعالى:

﴿لا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

فالآية واضحة فى معاملة غير المسلمين غير المحاربين ...

وفى الشرع يسمى المواطنون من غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى (أهل

الذمة) أو (الذميون) والذمة معناها العهد والضمان والأمانة، ولا عيب فى المصطلح، فهذه الذمة تعطى أهلها من غير المسلمين ما يشبه فى عصرنا الجنسية السياسية التى تعطيها الدولة لرعاياها فيكتسبون بذلك حقوق المواطنين ويلتزمون بواجباتهم.

حقوق أهل الذمة

١-الحماية من الاعتداء الخارجى وقد أجمع العلماء على ذلك.

٢-الحماية من الظلم الداخلى لقوله ﷺ **«من آذى ذميًا فقد آذاني، ومن آذانى فقد آذى الله»**.

٣-حماية الدماء والأبدان والأموال والأعراض، وقد أجمع العلماء على ذلك ولقوله ﷺ **«من قتل معاهدًا لم يشم رائحة الجنة.»**.

٤-التأمين عند العجز والشيخوخة.

٥-حرية التدين- راجع معاهدة القدس وغيرها.

٦-حرية العمل والكسب.

٧-تولى وظائف الدولة، إلا ما غلب عليه الصبغة الدينية، مثل رئاسة الدولة والقيادة فى الجيش والقضاء بين المسلمين، والولاية على الصدقات ونحو ذلك، وما عدا ذلك من وظائف الدولة يجوز إسناده إليهم، بشرط توفر الكفاية والأمانة والإخلاص للدولة فلا يكونون ممن يضمرون الحقد والعداء للمسلمين.

واجبات أهل الذمة:

١-أداء الجزية والخراج والضريبة التجارية.

والجزية هي: ضريبة سنوية على النفس تتمثل فى مقدار زهيد من المال

يفرض على الرجال والبائعين القادرين حسب ثرواتهم أما الفقراء فمعفون منها إعفاءً تامًا.

والدليل عليه قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

ومعنى الصغار: التسليم وإلقاء السلاح والخضوع لحكم الدولة الإسلامية.

ونظير ذلك يتمتع الذميون بكافة الحقوق السالف ذكرها بالإضافة إلى عدم إلزامهم بالخدمة العسكرية، والتزام الحكومة المسلمة برد أى اعتداء خارجى يقع على ذمى، فكأن الجزية بدل مالى عن الخدمة العسكرية المفروضة على المسلمين، بل إن الجزية تسقط إذا عجزت الدولة المسلمة عن الوفاء بالتزامها والدفاع عن مواطنيها الذميين.

٢- التزام أحكام القانون الإسلامى، ولا يعنى ذلك التزامهم بأى من التكاليف التعبدية مثل الزكاة وليس عليهم أن يتنازلوا عما أحله لهم دينهم فى أحوالهم الشخصية والاجتماعية، وفيما عدا ذلك فعليهم أن يتقيدوا بالشريعة الإسلامية فى النواحى المدنية والجنائية ونحوها شأنهم شأن المسلمين.

٣ - مراعاة شعور المسلمين، فلا يجوز لهم مثلا أن يسبوا الإسلام ورسوله جهرة، ولا أن يبيعوا الخمر لأفراد المسلمين.. وحتى ما يراه الإسلام منكرًا فى حق أبنائه وهو مباح فى دينهم يجوز لهم فعله، بشرط ألا يعلنوا به ولا يظهروا بصورة المتحدى للجمهور.

ولم تكن هذه الأحكام نظريات ومثل بل صدقها الواقع العملى وباستطاعتك أخى القارئ إذا قرأت هذا الكتاب التالى أن تقف على هذه الحقيقة ...

ينقل أمير البيان شكيب أرسلان فى تعليقاته على كتاب الحاضر الإسلامي:

إن السلطان سليم عندما رأى أن عدد أهل الكتاب من النصارى واليهود فى الدولة العثمانية قد زاد عن بضعة ملايين، وأن هذا العدد ما ينفك يزداد عامًا بعد عام، حدثته نفسه أن يجد طريقة يحد بها من تزايدهم، فعزم على أن يخيرهم بين اعتناق الإسلام أو فالطرد من أراضى الدولة العثمانية ولكن عندما تناهى الخبر إلى مسامع شيخ الإسلام العالم المؤمن على أفندى الزنبيلي، انبرى للسلطان معترضًا على هذا الرأى، وقال للسلطان سليم: ليس لنا على هؤلاء النصارى واليهود إلا الجزية، فما داموا يؤدوها فقد عصموا منا دماءهم وأعراضهم وعبادهم، وما يعتقدون، فلا يحق لك أن تزعجهم فى دينهم، ولا يحق لك أن تخرجهم من ديارهم

فرضخ السلطان سليم لحكم الإسلام.

ملحق (٢)
منظمات ضد الإسلام

أولاً: التبشير

مصطلح استخدمه الصليبيون فيما أسموه «بتعليم الدين المسيحى ونشره»
النشأة

وحقيقة التبشير أعلنها زويمر زعيم المبشرين فى العالم فى مؤتمر القدس عام ١٩٣٥م فى خطابه إلى المبشرين فى جميع أنحاء العالم:

«أيها الإخوان الأبطال والزملاء الذين كتب الله لهم الجهاد فى سبيل المسيحية، واستعمارها لبلاد الإسلام، فأحاطتكم عناية الرب بالتوفيق الجليل المقدس، لقد أديتم الرسالة التى نيطت بكم أحسن أداء ووفقتم لها أسمى توفيق، وإن كان ليخيل إلى أنه مع إتمامكم العمل على أكمل الوجوه، لم يفطن بعضكم إلى الغاية الأساسية منه، إننى أقركم على أن الذين دخلوا من المسلمين فى حظيرة المسيحية لم يكونوا مسلمين حقيقيين، لقد كانوا كما قلتم أحد ثلاثة:

- إما صغير لم يكن له من أهله من يعرفه ما هو الإسلام.
- أو رجل مستخف بالأديان يبغى الحصول على قوته وقد اشتد به الفقر وعزت عليه لقمة العيش.
- وآخر يبغى الوصول إلى غاية من الغايات الشخصية.

ولكن مهمة التبشير التى ندبتكم دول المسيحية للقيام بها فى البلاد المحمدية ليس هى إدخال المسلمين فى المسيحية، فإن هذا هداية لهم وتكريم، وإنما

مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله، وبالتالى لا صلة تربطه بالأخلاق التى تعتمد عليها الأمم فى حياتها، وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعمارى فى الممالك الإسلامية، وهذا ما قمتم به فى الأعوام المائة السالفة خير قيام، وهذا ما أهنئكم عليه وتهنئكم دول المسيحية والمسيحيون جميعًا كل التهنئة.

لقد قبضنا أيها الإخوان فى هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم فى الممالك الإسلامية.. ونشرنا فى تلك الربوع مكامن من التبشير والكنائس والمدارس المسيحية الكثيرة التى تهيمن عليها الدول الأوروبية والأمريكية، والفضل إليكم وحدكم أيها الزملاء، إنكم أعددتم بوسائلكم جميع العقول فى الممالك الإسلامية إلى قبول السير فى الطريق الذى مهدتم له كل التمهيد.

إنكم أعددتم شبابًا فى ديار المسلمين لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه فى المسيحية، وبالتالى جاء النشء الإسلامى طبقًا لما أراده له الاستعمار، لا يهتم بالعظائم ويحب الراحة والكسل، ولا يصرف همه فى دنياه إلا فى الشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات وإذا تبوأ أسمى المراكز ففى سبيل الشهوات يجود بكل شيء.

إن مهمتكم تمت على أكمل الوجوه، وانتهيتم إلى خير النتائج وباركتكم المسيحية، ورضى عنكم الاستعمار، فاستمروا فى أداء رسالتكم فقد استحققتم بفضل جهادكم المبارك بركات الرب».

أصدرت الهيئة الدولية لبحث الإرساليات المسيحية نشرة إحصائية عن التبشير (التنصير) وأنشطته فى العالم لعام ١٩٩١م جاء فيها:

أن عدد المؤسسات التنصيرية ووكالات الخدمات المسيحية بلغ ١٢٠٨٨٠

وكالة ومؤسسة، وبلغ دخل الكنائس العاملة فى مجال التنصير ٩٣٢٠ بليون دولار، وأنفقت ١٦٣ بليون دولار فى خدمة المشاريع المسيحية، وقد حققت الإرساليات الأجنبية دخلاً مقداره ٨,٩ بليون دولار، وذكرت النشرة أن ٨٢ مليون جهاز كمبيوتر يعمل فى خدمة التنصير، لحفظ ونشر المعلومات وقد صدر ٨٨١٦٠ كتابًا و ٢٤٩٩٠ مجلة أسبوعية للدعوة المسيحية، وبلغ عدد الأناجيل الموزعة مجانًا ٥٣ مليون نسخة، ويبلغ عدد محطات الإذاعة والتلفزيون المعنية بالتبشير ٢٣٤٠ محطة، وبحسبة بسيطة نجد أن المبالغ المنفقة فى علميات التبشير بلغت ١٨١ مليار دولار.

وترجع جذور التبشير إثر الانهزامات التى منى بها الصليبيون فى حروبهم ضد المسلمين، يقول الأب اليسوعى ميبز: (إن الحروب الصليبية الهادئة التى بدأها مبشرونا فى القرن السابع عشر لا تزال مستمرة فى أيامنا..).

وأكثر ما يَبرُز نشاط المبشرين فى المناطق الفقيرة فى أندونيسيا وماليزيا وبنجلاديش والباكستان وأفريقيا.

وهم يستخدمون وسيلة الخدمات الاجتماعية بصورة أساسية فى نشر فكرتهم.

ثانيًا: العلمانية

- فكرة تقوم أساسًا على فصل الدين عن الدولة أو عن الحياة.
- كانت النشأة أولاً فى أوروبا مع بداية الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر.
- وهى فكرة من صناعة اليهود.

يقول الكاتب الأمريكى وليام غاى كار: (لقد كان اليهود وراء فكرة فصل الدين عن الدولة) ويؤكد ذلك ما جاء فى بروتوكلات حكماء صهيون:

(لن يمضى غير سنوات معدودات حتى نشهد احتضار المسيحية، ولن تتطلب الديانات الأخرى، إلا اليسير من الجهد حتى تتبع المسيحية فى الانهيار، وسينحصر الدين ورجاله فى أضيق نطاق حتى تزول عنهم الهيبة..).

لقد تخلت أوروبا عن دينها الباطل الذى يحارب العلم والعلماء، فتقدمت وظن الجاهلون من المسلمين - وكان الجمود المعرفى قد سرى فى كيان الأمة الإسلامية - أنهم إذا قلدوهم وتخلوا عن دينهم فسيتقدمون، وبهرتهم الحضارة الأوروبية فحملوا الفكرة العلمانية.

نماذج من العلمانية فى العالم العربى والإسلامى

فى مصر: أدخل الخديوى إسماعيل القانون الفرنسى سنة ١٨٨٣ م.

الهند: حتى سنة ١٧٩١ م كانت الأحكام وفق الشريعة ثم تدرج فى إلغائها بتدبير الإنجليز حتى انتهى العمل بها فى أواسط القرن التاسع عشر.

الجزائر: ألغيت الشريعة عقب الاحتلال الفرنسى سنة ١٨٣٠ م.

تونس: أدخل القانون الفرنسى فيها سنة ١٩١٣ م.

تركيا: عقب إلغاء الخلافة الإسلامية ألغيت كافة المظاهر الإسلامية، وهكذا لم تمض فترة وجيزة من الزمن، إلا وقد انصبغت مظاهر الحياة فى المجتمعات الإسلامية بالصبغة العلمانية، وذلك بتأثير المفكرين والمثقفين والشيوخ الذين انخدعوا ببريق الفكرة.

ثالثًا: الماسونية

ومعنى الكلمة البناؤون الأحرار، ويقصد بها الذين بنوا هيكل سليمان، وهى منظمة يهودية سرية إرهابية غامضة محكمة التنظيم تهدف إلى ضمان سيطرة اليهود على العالم.

وهى ترفع شعارات براقة مثل قولهم:

- أنه لا يتسنى لأى إنسان أن يكون ماسونيًّا إلا إذا كان حر النسب طيب السيرة يكافح الباطل ويناصر الحق.
- إن الماسونية دعوة إلى الحرية والمساواة والإخاء بين بنى الإنسان.
- الدعوة إلى وحدة الأديان.

أما باطنها: فهى منظمة يهودية غايتها محاربة الأديان وإباحة الرذيلة وتدبير الثورات والمؤامرات.

ووسيلتها: استعمال المال والرشوة والجنس مع الأشخاص المستهدف ضمهم إلى محفلهم، وهم يركزون على المشاهير من أصحاب المناصب الحساسة فينصبون شباكهم حول أحدهم من كل جانب، لإحكام السيطرة عليه وتسييره كما يريدون، فإذا وقع فى حبائلهم ضموه إليهم، واشترطوا عليه أن يتجرد من كل رابط دينى أو أخلاقى أو وطنى، وأن يكون ولاؤه خالصًا للماسونية فإذا تململ أو عارض، تدبر له فضيحة كبرى أو قد يكون مصيره القتل.

ويتم قبول العضو الجديد فى جو مرعب مخيف، حيث يقاد إلى الرئيس معصوب العينين، وما أن يؤدى يمين حفظ السر ويفتح عينيه حتى يفاجأ بسيوف مسلولة حول عنقه، وبين يديه كتاب العهد القديم ومن حوله غرفة مظلمة فيها جماجم بشرية، وأدوات هندسية مصنوعة من الخشب وكل ذلك لبث المهابة فى نفس العضو الجديد.

وللماسونية محافل فى كل العالم تقريبًا حيث تسيطر على الشخصيات الهامة فى كل بلد لضمان سيطرتها عليه.

يتفرع عن الماسونية :

الروتارى أو نادى الروتارى وقد جاء هذا الاسم من التناوب (In rotation)

تلك العبارة التى صاحبت الاجتماعات الأولى لأعضاء النادى الذين كانوا يعقدونها فى مكاتبهم بشكل متناوب.

تتفق مع جميع أفكار ومعتقدات الماسونية، وتختلف عن الماسونية فى أن قيادة الماسونية ورأسها مجهولان، على عكس الروتارى الذى يمكن معرفة أصوله ومؤسسيه، وقد كان بداية ظهور هذه الأندية بأمريكا سنة ١٩٠٥م. ثم أصبح لها فروع فى معظم دول العالم.

وهناك أندية أخرى تشبه الروتارى، وتعمل بنفس الصورة مع تعديل بسيط، وذلك لإكثار الأساليب التى يتم يواسطتها بث الأفكار والسموم ومن هذه الأندية:

الليونز: بمعنى الأسود تأسست سنة ١٩١٥م.

ومنها جمعية بناى يرث: أو أبناء العهد وهى تأسست قديمًا سنة ١٨٤٣ م.

والماسونية وما يتفرع عنها تعتمد فى تغطية أنشطتها الباطنة على الأعمال الخيرية والشعارات البراقة.

رابعًا :اليهودية - الصهيونية

يوم ٢٩ آب / أغسطس ١٨٩٧ م أجتمع ٣٠٠ شخص يهودى من عتاة الصهيونية العالمية فى فندق بمدينة بازل السويسرية يقودهم صحفى نمساوى يهودى هو: تيودور هرتزل - مؤسس الحركة الصهيونية - بغرض أساسى هو الدعوة لتجميع اليهود من كل أنحاء الأرض فى دولة واحدة وإنشاء دولة لهم ولأن هرتزل تنبأ بأن تنشأ هذه الدولة خلال ٥ أو ٥٠ سنة - كما قال - فقد اعتبر إنشاء الدولة اليهودية الإسرائيلية عام ١٩٤٨م أى بعد ٥٠ عامًا من مؤتمر

بازل بمثابة تحقيق الهدف الصهيونى الأساسى، وانتصار الحركة الصهيونية وحددت هدفها الرئيسى فى (إنشاء وطن للشعب اليهودى بفلسطين يضمنه القانون العام) فقد حدد أربع وسائل أساسية لتحقيق هذا الهدف هي:

١- العمل على استعمار فلسطين بالعمال الزراعيين والصناعيين اليهود، وفق أسس مناسبة.

٢- تنظيم الصهيونية العالمية وربطها بمنظمات محلية ودولية تتلاءم مع القوانين المتبعة فى كل بلد.

٣- تقوية الشعور والوعى القومى اليهودى وتغذيته.

٤- اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على المواقف الحكومية الضرورية، لتحقيق غاية الصهيونية.

والحقيقة أن الصهاينة سعوا من خلال كل أسلوب من هذه الأساليب لوضع عدة خطط فى سبيل سيطرتهم على العالم، وتوفير متطلبات قيام هذه الدولة اليهودية وحمايتها، استنادًا للقوى الدولية المؤثرة الموجودة على الساحة العالمية. بعبارة أخرى: سعوا لترسيخ وجودهم فى مراكز النفوذ العليا (السياسية والمالية والإعلامية) فى هذه الدول الكبرى للتأثير من خلال ذلك على سياسات هذه القوى الكبرى، ولذلك اعتبروا (المؤتمر الصهيوني) أشبه بحكومة سرية سوف تسعى لتحقيق الأهداف الصهيونية. ولا شك أنهم حققوا الهدف الأول. وهو إقامة الدولة، كما حققوا الهدف الثانى الخاص بالتغلغل فى مراكز صنع القرار فى الدول الكبرى، وخلقوا بذلك نوعًا من الحماية الدولية على دولتهم المغتصبة لأرض فلسطين.

ولو تتبعنا المسيرة الصهيونية فى هذا الصدد فسوق نلحظ أنهم اعتمدوا فى البداية على بريطانيا التى قدمت لهم وعد بلفور، وحمتهم من بطش الجيوش

العربية، كما اعتمدوا على فرنسا التى أمدتهم بأول مفاعل نووى وبأهم الأسلحة الموجودة فى ذلك الوقت خصوصًا الطائرات، ثم انتقلوا بعد الحرب العالمية مباشرة للولايات المتحدة، وألقوا بثقلهم فى مراكز صنع القرار الحساسة مثل الكونجرس والبيت الأبيض - وما زالوا- ولولا أمريكا التى حمتهم لما استمروا يسيطرون على الأرض العربية المحتلة حتى الآن.

وقد بلغ الأمر لحد تندر بعض الصحف الأمريكية على وجودهم المكثف فى مراكز السلطة، فكتب أحدهم يعدد ممثليهم فى البيت الأبيض وهيئة الأمن القومى وموظفى الرئاسة، ويقول ببلاغة حقيقية إن (اليهود يسيطرون على بلاط كلينتون).

وإذا كان أمر سيطرة اليهود على مراكز النفوذ فى أمريكا معروفًا طوال السنوات الماضية وليس فقط خلال فترة كلينتون الرئاسية، فقد كانت المفاجأة الكبيرة أن الصحف الروسية كشفت بدورها – أثناء حكم يلتسين- أن اليهود أيضًا يسيطرون على بلاط الكرملين وأنهم الآن يسيطرون على المراكز المالية والإعلامية الروسية الكبرى.

صحيح أن الفكر الصهيونى التلمودى وضع من بين أهدافه السيطرة على حكومتى القوتين الكبريين: أمريكا والاتحاد السوفيتى، كما أن هناك معلومات غزيرة عن وجود يهود مؤثرين مستترين فى المراكز الفاعلة فى القيادة السوفيتية الشيوعية السابقة، إلا أن وجودهم العلنى الآن وافتخارهم بالسيطرة على البلاد بل ووصول الرئيس الروسى يلتسين لمقعد الرئاسة بفضلهم - كلها علامات على نفوذهم الواسع والمتزايد.

فعلى سبيل المثال: يسيطر اليهود على مناصب النائب الأول لرئيس الوزراء (بوريس نيمتسوف)ووزير الاقتصاد (ياكوف أونيسوف) ونائب مدير ديوان رئيس

الجمهورية (الكسندر ليفتشيس) وبوريس بيرزوفسكى نائب سكرتير مجلس الأمن القومى الروسى وهذا الأخير هو أخطرهم على الإطلاق فهو ملياردير، اشترى من الحكومة محطة التلفزيون (قناة - ٢) ويمتلك مؤسسة إعلامية ضخمة، وقد وصل به الخيلاء لحد أنه قال العام الماضي: إنه هو وستة من رجال الأعمال الكبار الآخرين (معظمهم يهود) يسيطرون على ٥٠٪ من الاقتصاد الروسي، بل وقال بوضوح وبلا حياء إنهم - أى اليهود - قد استأجروا (أناتولى تشوبايس) النائب الأول الحالى لرئيس الوزراء واستخدموا أموالاً طائلة لتمويل حملة الرئيس الروسى الحالى يلتسين لرئاسة الجمهورية؛ ولذلك (نحن نمتلك الحق فى شغل مناصب رفيعة وجنى ثمار ما حققناه من نصر) كما يسيطر اليهود - كذلك - على البنوك ومراكز المال، ومن الشخصيات البارزة لهم فى هذا فلاديمير جوسينسكى - رئيس المؤتمر اليهودى الروسى وصاحب الموسوعة المالية الضخمة (موست) وبالإضافة لذلك فهو يمتلك قناة تلفزيونية مستقلة هى (إن. تي. في) وصحيفة تسمى (سيفودنيا).

وكانت المنظمة الصهيونية العالمية قد أجرت استطلاعًا للرأى عام ١٩٦٦ م. كشف أن نسبة عالية ممن شملهم الاستطلاع يعتقدون بأن اليهود يؤثرون تأثيرًا بالغًا فى أحداث العالم. ويبدو أن كشف يهود روسيا العلنى لدورهم فى تسيير شؤون روسيا إلى درجة تذكير الرئيس يلتسين أنهم وراء نجاحه الانتخابى قد أثار غضب الكثيرين فى موسكو، خصوصًا المعادين للصهيونية، والذين تدهورت أحوالهم الاقتصادية بسبب سياسات التحول إلى الاقتصاد الرأسمالي، فبدأت بعض الأصوات تتعالى عبر الصحف الحكومية تحذر من هذه السيطرة اليهودية العلنية، ولفت هذا نظر القيادات اليهودية فى الخارج. فبدأت توجيه النصح لهم بالتزام الحذر وعدم الظهور. وكان آخر وأبرز تحذير صدر لهم فى تموز / يوليو الماضى عبر صحيفة يهودية أمريكية تدعى (فوفورد) حيث دعتهم للتقية والتخفي!

المسألة إذا لم تكن مجرد أحاديث طنانة عن سيطرة اليهود على العالم وتخطيطهم للسيطرة على الحكومات العالمية، أو ما قيل عن تشكيل حكومة سرية تحكم العالم من خلال أعوانها فى الدول المختلفة، وحتى ما قيل عن الماسونية ودورهم فيها كان صحيحًا، على الأقل فى دول كشف فيها النقاب عن حقيقة دور المحافل الماسونية فى نقل أخبار وأسرار الدولة كما حدث فى إيطاليا.

والحقيقة:

أن الصهيونية حققت بعض أهدافها ولكنها لم تحقق كل أهدافها والفارق بين ما تحقق من أهداف، وما لم يتحقق خطير بالنسبة لمن هم على دراية وخبرة بالمشروع الصهيوني.

فلعل الفشل الأكبر للمشروع الصهيونى هو عدم تمكنه من إعلان قيام إسرائيل الكبرى التى كان يفترض إعلانها عام ١٩٩٧(من النيل إلى الفرات) كما لا يمكن إنكار الخلاف اليهودى حول من هو اليهودي، ذلك أن الكيان الصهيونى يقوم أساسًا على رؤية دينية يهودية، فإذا فشل فى تحديد من هو اليهودى فإن أساس قيامه يكون قد انهار.

كذلك لا يمكن إنكار خطورة وجود تيار علمانى متزايد داخل الكيان الصهيونى، لا يلتزم بالتعاليم الصهيونية القديمة، وبالتالى يهرب من التجنيد ويرفض الدفاع عن (الكيان الصهيوني) الحلم الصهيونى القديم - وبالمقابل لا يمكن كذلك إنكار ما حققه النفوذ اليهودى من تأثير فى القوى الكبرى، خصوصًا أمريكا وروسيا، واستفادة الكيان الصهيونى من هذا النفوذ فى استمرار التحدى للعرب والمسلمين، والسعى لتهويد باقى أرض فلسطين، وإنشاء المستوطنات، والسعى لهدم المسجد الأقصى، وبناء الهيكل دون أدنى مسئولية أو خوف من عقوبات دولية حقيقية.

القسطنطينية
(استانبول)
البحر المتوسط
قبرص
نهاوند
حطين
اليرموك
عين جالوت
دومة الجندل
القادسية
مؤتة
تبوك
بغداد
البصرة
القاهرة
سيناء
الطور
مدائن صالح
خيبر
المدينة المنورة
مكة المكرمة


خريطة توضح أطماع إسرائيل من النيل إلى الفرات

ملحق (٣)
الدروس والعبر

يستطيع القارئ الواعى أن يترجم ما قرأه من أحداث التاريخ إلى دروس عملية يستفيد بها فى واقعه الذى يحياه؛ ليربط الماضى بالحاضر ويتنبأ بأبعاد المستقبل.

إن القارئ للتاريخ لا بد وأن يشعر بحقيقة «أن التاريخ يعيد نفسه» مع اختلاف الزمان والمكان والأشخاص؛ لأن سنن الله لا تتغير ولا تتبدل: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ، فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾.

ولننتقل الآن إلى أهم الدروس والعبر التى يجب أن ننبه القارئ إليها والتى يجب عليه بعد ذلك أن يضيف هو إليها ما يفتح الله به عليه، بقدر ما يعيش مع الحدث ويتفاعل به، وسنبدأ بمثال تطبيقى من خلال الدرس الأول ثم سنكتفى بذكر الدرس، وعلى القارئ أن يبحث عن الشواهد التاريخية.

الدرس الأول :ألف شهيد كل عام.

من خلال مراجعة التاريخ الإسلامى تتجلى لنا حقيقة أساسية أن هذا الدين إنما حفظه الله برجال بذلوا أرواحهم وما يملكون فى سبيل إعلاء كلمته، أى أن الأمر لا كما يظنه كثير من المسلمين، أنه طالمًا أنه دين الله -عز وجل- فإن الله لا بد وأن ينصره دونما بذل جهد، وربما يتصور البعض أن النصر سيأتى بطريقة معجزة... ولكن سنة الله تبارك وتعالى اقتضت أن يأتى النصر تبعًا لبذل الجهد، يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ويقول تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُم﴾.

الشواهد التاريخية:

لو أننا حصرنا عدد الشهداء فى الفترة الزمنية من بعد وفاة الرسول ﷺ أى فى العام الحادى عشر من الهجرة وحتى العام الحادى والثلاثين من الهجرة أى فترة عشرين عامًا فسنلاحظ الآتي:

فى حروب المرتدين بلغ عدد الشهداء ١٢٠٠ شهيد.

وفى معركة اليرموك بلغ عدد الشهداء ٣٠٠٠ شهيد.

وفى معركة الجسر بلغ عدد الشهداء ٤٠٠٠ شهيد.

وفى معركة القادسية بلغ عدد الشهداء ٨٥٠٠ شهيد.

وبذلك يصير عدد الشهداء ١٦٧٠٠ شهيد... ناهيك عن شهداء آخرين لم يستطع المؤرخون أن يحصروهم فى معركة نهاوند، وفى فتوحات بلاد الترك وفى ذات الصوارى التى قال عنها الإمام الطبري: (أن الدم كان غالبا على الماء فى هذه المعركة) وقد كانت معركة بحرية.

إذًا نستطيع أن نقول إن العدد الإجمالى لشهداء المسلمين فى هذه الفترة يصل تقريبًا إلى عشرين ألف شهيد أى بمعدل ألف شهيد كل عام يموتون فداء لدينهم، يحررون العالم من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد القهار، فقد فتحت تمامًا بلاد فارس وأزيحت دولتهم الطاغية من الوجود ودخل الفرس فى الإسلام أفواجًا بطواعية وحب.

الدرس الثاني :أن أمة الإسلام أمة لا تموت.

لأن الإسلام شريعة الله الخاتمة، كتب الله له الخلود والبقاء ومن ثم فهو يخلق له رجاله ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.

لذلك نرى أن هذه الأمة لم تعدم فى عصر من عصورها مجددين فى الدين

وأئمة فى العلم وأبطالاً فى الجهاد لا يوجد نظيرهم - لا فى الكمية ولا فى الكيفية - فى أمة من الأمم، ولم يكن ذلك من قبيل المصادفات والاتفاقات، إنما هو طبيعة هذه الأمة وصلاحيتها للبعث والتجديد، وإنما هو لطف الله بهذه الأمة بل بالإنسانية؛ إذ لو ضاعت هذه الأمة لضاعت أمانة السماء ولضاعت أمانة الإنسانية. وإنا نترك لك أيها القارئ الحبيب الاستشهاد على هذا المعنى من واقع التاريخ.

استشهادات تاريخية:

....

....

....

....

الدرس الثالث: خلفاء المسلمين

على الرغم مما وَصَم به أعداء الإسلام الخلفاء المسلمين بأنهم كانوا فاسدين أو مترفين.

وقد ناقشنا بعض هذه المزاعم فى مواضع من هذا الكتاب ولكننا نضيف الآتي:

- أن هؤلاء الخلفاء والحكام لم يفكروا للحظة واحدة فى تنحية شريعة الإسلام عن الحكم ولم يتولد لديهم هذا الانفصال السائد اليوم من فصل الدين عن الدولة والسياسة.

- أنه كان غالبًا مرجع الخلفاء لحكم الإسلام وعلماء المسلمين وكان لعلماء الإسلام هيبة لدى الخلفاء وكان لهم قوة فى النصح والإرشاد حتى أنهم كانوا

يقولون: الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك.

- كانت الحالة العامة للمجتمع المسلم التمسك بالإسلام فلا يُرى فيه الجهر بالمنكرات والفواحش إلا قليلاً وإذا وجدت ظهر فى الناس من يأخذ على يده.

مشاهدات تاريخية يصيغها القارئ.

....

....

....

....

الدرس الرابع: هدف الجهاد الإسلامى

الجهاد الإسلامى ليس مقصورًا على حالات الدفاع عن الأوطان والأعراض فقط وإنما هو فى الأساس لإزالة العوائق و الطواغيت التى تحول بين الناس وبين التعرف على الإسلام واختياره بملء حريتهم.

يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُم حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينَ كُلُّهُ لله، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير﴾ [الأنفال:٣٩].

ولذا لما أزيلت هذه العوائق وأتيحت للناس فرصة سماع صوت الحق مجردًا عن أى مؤثر أو ضغوط دخلوا فى دين الله أفواجًا:

مشاهدات تاريخية:

....

....

....

....

الدرس الخامس: التربية الإسلامية تصنع العظماء.

إن مشاهير الخلفاء و السلاطين الذين حكموا وهم شباب كانوا نتاج تربية إسلامية مبكرة، الأب يربى ابنه على القرآن والفتوة وحب الجهاد منذ الصغر.

مشاهدات تاريخية:

....

....

....

....

الدرس السادس: التسامح فى الإسلام.

التسامح مع غير المسلمين لم يكن فى التاريخ الإسلامى عن عجز أو ضعف و إنما كان عقيدة وإيمانًا ...

مشاهدات تاريخية:

....

....

....

....

الدرس السابع: ديننا للناس كافة.

إن من دلائل إعجاز الإسلام أن حمله فى كثير من الأحيان أجناس من غير الجنس العربى سواء فى الجانب الجهادى أو الجانب العلمي.

وهذا يدل على أن الإسلام دعوة للعالمين يستطيع أن يستوعب الناس كافة

فيحيوا به ويجاهدوا في سبيله.

مشاهدات تاريخية:

....

....

....

....

الدرس الثامن:

حسن ظن بعض قادة المسلمين بأعدائهم وعدم الحذر من مكرهم وغدرهم جلب عليهم وعلى أمتهم الوبال والهلاك.

والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * هَاأَنْتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ الأَنَامِلَ مِنْ الغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾

[آل عمران: ١١٨- ١٢٠].

مشاهدات تاريخية:

....

....

....

....

الدرس التاسع: الصراعات السياسية وأثرها فى إضعاف الأمة.

مشاهدات تاريخية:

....

....

....

....

الدرس العاشر: نقول: خلافة عثمانية إسلامية... لا استعمار تركى لماذا؟

مشاهدات تاريخية:

....

....

....

....

ونضيف هنا عوامل تأخر المسلمين:

لخص كثيرون عوامل التحلل والضعف فى عالم الإسلام فى نقاط.

١- الخلافات السياسية والعصبية، وتنازع الرئاسة والجاه مع التحذير الشديد الذى جاء به الإسلام فى ذلك، والتزهيد فى الإمارة، ولفت النظر إلى هذه الناحية التى هى سوس الأمم ومحطمة الشعوب والدول.

٢- الخلافات الدينية والمذهبية والانصراف عن روح الدين كعقائد وأعمال إلى ألفاظ ومصطلحات ميتة لا روح فيها ولا حياة، وإهمال كتاب الله وسنة رسوله، والجمود والتعصب للآراء والأقوال والولع بالجدل والمناظرات والمراء.

٣- الانغماس فى ألوان الترف والنعيم والإقبال على المتعة والشهوات، حتى أثر عن حكام المسلمين فى كثير من العصور ما لم يؤثر عن غيرهم.

٤- إهمال العلوم العملية، والمعارف الكونية، وصرف الأوقات وتضييع الجهد فى فلسفات نظرية عقيمة وعلوم خيالية، مع أن الإسلام يحثهم على النظر فى الكون واقتفاء أسرار الخلق.

٥- الغرور بسلطانهم، والانخداع بقوتهم، وإهمال النظر فى التطور الاجتماعى للأمم من غيرهم حتى سبقتهم فى الاستعداد والأهبة وأخذتهم على غرة، وقد أمرهم القرآن باليقظة وحذرهم من مغبة الغفلة.

٦- الانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم، والإعجاب بأعمالهم، ومظاهر حياتهم، والاندفاع فى تقليدهم مما يضر ولا ينفع، مع النهى الشديد عن التشبه بهم، والأمر الصريح بمخالفتهم، والمحافظة على

مقومات الأمة الإسلامية والتحذير من مغبة هذا التقليد.

٧- اليأس من رحمة الله، وفقدان الثقة فى النفس.

٨- استخذاء المسلمين أمام الأوروبيين وفقد أكثرهم عزة الإسلام.

٩- مواطأة المسلمين للأوروبيين على إخوانهم وخدمتهم إياها.

١٠-فقد روح التضحية التى سادت بها الأمم الأوروبية.

١١-فساد الأخلاق عامة، وأخلاق الأمراء خاصة.

١٢-فساد العلماء، الذين هم القوة المراقبة للحكومات.

ونترك لك -أخى القارئ- إضافة المزيد من الدروس و الفوائد والعبر من خلال قراءتك لهذه الموسوعة الميسرة، سائلين الله تبارك وتعالى أن يفيد بهذا العمل كل من قرأه وأن يغفر لكل من سعى فى نشر هذا العلم وتيسيره.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المراجـــــع

١- البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير الدمشقي.

٢- التاريخ الإسلامي، محمود شاكر.

٣- تاريخ ابن خلدون، العلامة عبد الرحمن بن خلدون.

٤- العواصم من القواصم، الإمام أبو بكر بن العربي.

٥- فتح الباری بشرح صحيح البخاري، الإمام ابن حجر العسقلاني.

٦- الكامل فى التاريخ، ابن الأثير.

٧- فتوح الشام، الواقدي.

٨- حروب الردة، أ. محمد أحمد باشميل.

٩- القادسية ومعارك العراق، أ. محمد أحمد باشميل.

١٠- الخلافة والخلفاء الراشدون بين الشورى والديمقراطية، المستشار سالم البهنساوي.

١١- تاريخ الخلفاء، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي.

١٢- امبراطورية العرب، جون باجوت جلوب.

١٣- فتح العرب لمصر، د. الفرد ج. بتلر.

١٤- سلسلة المعارك الكبرى فى الإسلام، أ. شوقى أبو خليل.

١٥- الدولة الأموية، محمد الخضرى بك.

١٦- الدولة العباسية، محمد الخضرى بك .

١٧- تاريخ غزو العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط،

الأمير شكيب أرسلان .

١٨- قادة فتح المغرب العربي، اللواء ركن محمود شيت خطاب.

١٩- فجر الأندلس، د. حسين مؤنس.

٢٠- موسوعة تاريخ الأندلس، د. حسين مؤنس.

٢١- مع الرعيل الأول، العلامة محب الدين الخطيب.

٢٢- الأدارسة، د. محمود إسماعيل.

٢٣- شبهات حول العصر العباسى الأول، د. مؤيد فاضل.

٢٤- أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم، أبو عبد الله محمد بن على بن حماد.

٢٥- الطريق إلى القدس، د. جمال عبد الهادي.

٢٦- خالد بن الوليد، محمد الصادق عرجون.

٢٧- جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين، د. محمد السيد الوكيل.

٢٨- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، تقى الدين أبى العباس أحمد بن على المقريزي.

٢٩- تاريخ الدولة الفاطمية، د. محمد جمال الدين سرور.

٣٠- الغزو الصليبى والعالم الإسلامي، د. عبد الحليم محمود.

٣١- موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي.

٣٢- قسمات العالم الإسلامي، مصطفى مؤمن.

٣٣- العالم الإسلامي، أ. محمود شاكر.

٣٤- أطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس.

٣٥-الإسلام وحركة التاريخ، أ. أنور الجندي.
٣٦-حاضر العالم الإسلامي، المركز العالمى للكتاب الإسلامي.
٣٧-الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادى وآخرون.
٣٨-من روائع حضارتنا، د. مصطفى السباعي.
٣٩-جوانب مضيئة فى تاريخ العثمانيين الأتراك، زياد أبو غنيمة.
٤٠-السلطان عبد الحميد والخلافة الإسلامية، أ. أنور الجندي.
٤١-سكان العالم الإسلامي، أ. محمود شاكر.
٤٢-تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك، قدرى حافظ طوقان.
٤٣-معاملة غير المسلمين فى الدولة الإسلامية، د. ناريمان عبد الكريم.
٤٤-التسامح فى الإسلام، د. شوقى أبو خليل.
٤٥-معركة التبشير والإسلام، د. عبد الجليل شلبي.
٤٦-غير المسلمين فى المجتمع الإسلامي، د. يوسف القرضاوي.
٤٧-مجموعة الرسائل، الشهيد حسن البنا.
٤٨-أربعون سببًا فى سقوط الأندلس، د. عبد الحليم عويس.
٤٩-أسباب الضعف فى الأمة الإسلامية، د. محمد السيد الوكيل.
٥٠-رجال الفكر والدعوة فى الإسلام، أبو الحسن الندوي.
٥١-ملامح من حضارتنا العلمية وأعلامها المسلمين، د. كارم السيد غنيم.
٥٢-حاضر العالم الإسلامي، لوثروب ستودارد الأمريكي.
٥٣-تعليق الأمير شكيب أرسلان.

٥٤- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي.

٥٥- تاريخ مصر إلى الفتح العثماني، عمر الإسكندري.

٥٦- منهج السنة فى العلاقة بين الحاكم والمحكوم، د. يحى اسماعيل.

٥٧- سيرة الإمام أحمد بن حنبل، أبو الفضل صالح أحمد بن حنبل.

٥٨- الحركات الباطنية فى العالم الإسلامي، د. محمد أحمد الخطيب.

٥٩- الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

٦٠- تاريخ المذاهب الإسلامية، الإمام محمد أبو زهرة.

٦١- فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام، غالب بن على عواجي.

٦٢- نساء مؤمنات، د. يوسف القرضاوي.

٦٣- المجتمع الإسلامى المعاصر أفريقيا، د. جمال عبد الهادي.

٦٤- الإسلام الفاتح، د. حسين مؤنس.

٦٥- بين العقيدة والقيادة، اللواء محمود شيت خطاب.

٦٦- تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك المحامي.

٦٧- الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، د. توفيق الواعي.

٦٨- فى حوار حول الحاضر بالماضى عبر الأندلس، د. رشدى فكار.

٦٩- دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية، د. عبد الحليم عويس.

٧٠- خلاصة تاريخ التشريع الإسلامي، أ. عبد الوهاب خلاف.

٧١- هجمات مضادة فى التاريخ الإسلامي، د. عماد الدين أبو خليل.

٧٢-موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي.

٧٣- معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي.

٧٤-شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكة.

٧٥-المنهج فى كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي، د. عبد العظيم محمود الديب.

٧٦-كيف نكتب التاريخ الإسلامي، أ. محمد قطب.

٧٧-ثقافة الداعية، د. يوسف القرضاوي.

* * *

فهـــرس

الباب الخامس: تاريخ المغول المسلمين

الباب السادس : الدولـــة العثمانية

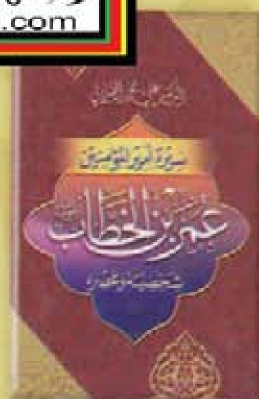
الباب السابع : جنوب شرقى آسيا

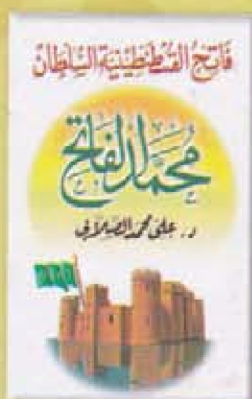
الباب الثامن :أفريقيا

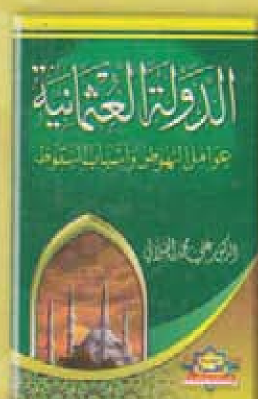
الملاحـــق

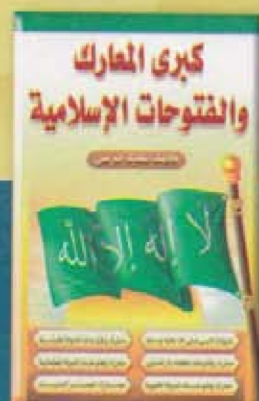


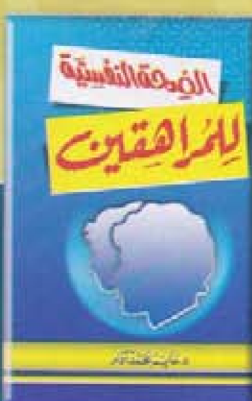
من إصداراتنا



















مؤسسة
اقرأ
للنشر والتوزيع والترجمة
١٠ ش أحمد عمارة بجوار حديقة الفسطاط ٥٢٢٦٦١٠ ـ ٥٢٤٤٢٠٧ ـ ٠١٠/